# افتتاحية العرب

## العودة إلى المنفلوطي

بقلم: د. أحمد بن محمد الضبيب*

لست أظن أحدًا من جيلي تعلّق بالأدب، وكان من شداته في الصغر، لم يكن مصطفى لطفي المنفلوطي (ت ١٩٢٤م) أحد الكتّاب المفضَّلين الذي بدأ به خطواته الأولى في طريق الأدب؛ فكتبه ورواياته الموضوعة والمترجمة كانت مقصد الشداة الذين يحرصون على تجويد اللغة والأسلوب. وكذلك كانت مقصد الشباب الذين كانوا يغرقون في رومانسية شديدة توفّرها لهم كتب المنفلوطي. وأعتقد أنّ هذا الكاتب كان من أوائل الكتّاب الذين كانت الرومانسية في أجوائها الحزينة المأساوية مذهبهم في المسيرة الأدبية.

يمتلك المنفلوطي ناصية اللغة فينسجها بسهولة ويُسر، ويعيد تشكيلها كما يشاء، وكُنّا حين نقرؤه نحسّ بحلاوة اللغة، وجمال التعبير، وسعة

الخيال. وبعيدًا عمّا إذا كانت قصصه تحقق الشروط الفنية المطلوبة في كتابة القصة أو لم تكن كذلك، فإنّ التأثير عند المنفلوطي كان لغويًّا أسلوبيًّا في معظمه، بل ربما يكون تأثيرًا تراسليًّا عاطفيًّا بين ما يشعر به هو بصفته كاتبًا وما يشعر به من يقرأ له بصفته متلقِّيًا، إنه يجذبك بعبارته الرشيقة السهلة، والجزلة الفخمة في آنٍ واحدٍ، ثم يسبح بك في مباهج العربية، ينقل لك فيها مشاعره التي لا أشك في صدقها، فتحسّ إحساسًا غريبًا بمزيج من الانفعال الموضوعي، والإعجاب اللغوي. وبهذا كان للمنفلوطي فضل على جماهير في الوطن العربي، أشبع في ذواتها النهم العاطفي والأسلوبي، فاتخذت كتبه سبيلاً إلى التمكن اللغوي، والإتقان الأدبي، وبخاصة في بدايات التكوّن الثقافي.

أكتب هذا وقد أخبرني أحد كبار الناشرين في المملكة أنّ كتب المنفلوطي أصبحت مطلوبة هذه الأيام، عكس ما كانت عليه في سنوات خلت، وأنها تحقق مبيعات واسعة بين الشباب، وأنّ هنالك أعدادًا منهم عادت تطلب كتب الرواد كالرافعي وطه حسين والعقّاد، ومن كان في طبقتهم، وأنّ هذه العودة تبدو واضحة في سوق الكتاب.

ثم أكد ذلك لي أحد الآباء الذين أعرفهم حق المعرفة فذكر لي أنّ ابنته، التي تدرس في الغرب في كلية تقنية، طلبت منه أن يرسل إليها كتبًا للمنفلوطي. ولا بد أنها رأت في كتب هذا الأديب ما يربط بينها وبين

وطنها العربي من خلال اللغة الأمّ، التي تجمع العرب جميعًا، الأمر الذي يشبع حنينها إلى الوطن.

إن كان ما ذكر صحيحًا فإننا نحمد الله على ذلك، لكون شبابنا قد عاد إلى حضن لغته وموئل هويته، بعد أن مرّت به سنوات عجاف تكالبت عليه فيها عوامل القطيعة مع اللغة الفصيحة والتراث العربي، وعانى فيها من هجمات لغات عامية وأخرى أجنبية، تقتحم حياته وتجرف إرثه اللغوي، وتلعب بذائقته الأدبية.

إنّ النكسة السياسية التي مُنِيَ بها العربي منذ سنة ١٩٦٧م، تبعتها نكسة أخرى لا تقلّ عنها بشاعة وتأثيرًا، تلك هي النكسة الثقافية التي استهدفت الهوية العربية في صميمها، وقد جاءت في صور حربائية متعددة، منها الدعوة إلى الكتابة العامية، والانحياز للأدب العامي، وتملّق اللغة الأجنبية، وما أفرزته الحداثة الطائشة من نتاج يتمثّل بالنسيج المهلهل، بدعوى التجديد، وهو نتاج يتدثر بالغموض المطلسم، ويخفي خلف ستارته الضعف اللغوي، والبؤس الخيالي والمعرفي. وبلغ الاستهتار الثقافي، والنزق الحداثي حدًّا جعل القارئ لا يستطيع التفريق بين الشِّعر والنثر، فالكاتب يصرّ على أنه شِعر والقارئ لا يرى إلا نثرًا مفكّكًا مشوَّشًا، أشبه ما يكون بالهذيان منه بالكتابة السوية، المعبّرة عن آلام الإنسان وآماله في هذه الحياة.

لسنا بهذا ندعو الكُتّاب والشباب إلى تقليد المنفلوطي في أسلوبه، فله عصره ولنا عصرنا، لكننا ندعو إلى قراءته وقراءة نتاج أترابه، للتمكن اللغوي، والاتصال بتراثنا العربي الأصيل، ومعرفة ما في لغتنا من ثراء وإمكانات تعبيرية، لأنّ من العبث أن يتسلّق كاتب أعمدة الصحف، أو رفوف المكتبات وهو لا يحسن من اللغة إلا ما أمدّته به لغته العامية، أو لغة الصحافة المعاصرة، التي تزخر بالأخطاء اللغوية، ويكتب معظمها أشباه الأمِّيين.

العودة إلى المنفلوطي عودة إلى الروح العربية الأصيلة فمرحبًا بها.

* رئيس التحرير.

# اكتشافُ
# مخطوطِ شِعر "أبي الجَوائزِ الوَاسِطِيّ"
# وتحقيقُ مختاراتٍ منه

بقلم: د. عبد الرَّازِق حويزي ❖

أبـو الجَـوائز الواسِـطيّ شـاعرٌ مـن شـعراء العـراق في العَـصر العباسـيّ الثّاني، أسهم بدَوره في إثراءِ حركةِ الحياةِ الأدبيّة في ذلك العصر بما أضافَ إليها من نماذجَ إبداعِه الشِّعريّ، ولم يقتصرْ عطاؤُه في الدّراسات الإنسانيّة عند هـذا الحَـدّ، بـل لقـد كـانَ عالمًا مرموقًـا، قـصدَه بعـضُ طـلاب العِلـم لينهلوا مـن علمِـهِ، وأُثِـرَت لـه في مجَـال التَّـأليف العلمـيّ بعـضُ المؤلّفـات، حَفِظَتْها لنَا الأَيَّام، وتصدَّى لتحقيقِها بعضُ الباحثين المعاصرين.

ولعلَّ أهمّ ما يُميّز إبداعَه ذلـك المنـزعُ البـديعيّ الـذي جعلـه في مـصافِّ شـعراءِ القـرن الخـامسِ الهجـريّ، ومـن أكثـرِهم توظيفًـا للبِنيـةِ البديعيّـة بنوعَيها في إبداعِه الشّعريّ.

ولا يختلـفُ أبـو الجـوائِز عـن كـثيرٍ مـن شـعراءِ العربيّـة القُـدامَى في عـدّة أمور، منها: قلّةُ الأخبار المتّصلة بسيرته، وبيئتِه الخَاصة، هـذا فـضلاً عـن

الاختلافِ الواضح في اسمه وسلسلةِ نسبه وغيرهما مِمَّا يتعلَّق بأخبار حياته التي ضمَّت أمورًا ليست بعيدة عن التناقض والاختلاق، والغرابةِ في بعض الحقائق، حتّى التي صدرت عنه، ممّا حدا ببعضِ العلماء إلى عدمِ الاطمئنان والوثوقِ ببعض مَروياته.

ومهما يكن من أمرِ هذه التَّناقضات التي طالتْ أخبارَه فإنّها لن تَمنع الباحثَ من ملاحقتِها في مصادرِها، وجمعِ كلّ ما يتعلق بحياة الشاعرِ وسيرته من أخبارٍ، ثمّ عَرْضِها على بعضِها، وتفعيلِ دَورِ النّقد في ترجيح ما يقبلُه الواقع والمنطق السليمُ.

ويأتي الاختلافُ في أخبار الشاعر بدءًا من اسمِه وسلسلة نسبِه، فهناك من العلماءِ مَن ذهب إلى أنه[١]:

الحسن بن علي بن محمد بن إبراهيم بن باري بن حمزة الواسطي.

وهناك مَن ذهب إلى أنه[٢]: الحسن بن علي بن محمد بن بادي.

وهناكَ مَن ذهبَ إلى أنه[٣]: الحسن بن قاسم بن علي بن محمد بن بادي الكاتب النحوي.

وهناك من ذهب إلى أنه[٤]: ابن بازي، هبة الله بن بازي بن حمزة الواسطي، الرئيس أبو الجوائز.

وهناك مَن ذهب إلى أنَّه[٥]: ابن محمد، أبو الجوائز الواسطي.

وهناك من ذَهب إلى أنه[٦]: ابن محمد بن باري، أبو الجوائز.

وهناك من ذهب إلى أنه[٧]: أبو الجوائز، محمّد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن باري الواسطيّ.

فيُلحظ ممَّا ورد في المصادر أنّ هناكَ مَن أوردَ سلسلةَ نسبه مختصرةً[٨]، ومنهم مَن أسقط منها بعضَ الأسماء، ومنهم مَن زاد عليها بعضَ الأسماء، ولا يخفى مَا وردَ مِن تحريفٍ أو تصحيفٍ في بعضٍ أسماءٍ هذه السلسلةِ، هذا فضلاً عن الوَهم.

أمّا السلسلةُ التي يمكنُ الاطمئنانُ إليها ممّا سبق ذكرُه، فهي السلسةُ الأولى لإجماعِ أكثر المصادر الموثوقِ بها عليها، ولمعاصرةِ بعضِ مؤلِّفي هذه المصادرِ للشاعرِ نفسِه، وروايتِهم عنه، كما هو الحال مع الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، الذي حدَّد تاريخ ولادته اعتمادًا على أخذِه منه.

وواضحٌ وجودُ التَّصحيف في كلمة "باري"، فقد حُرّفتْ في بعض المصادر إلى "بادي"، كما حُرّفت في قليل منها إلى "بازي"، وقد تَمَّ الاعتمادُ على ما أَجْمَعَتْ أكثرُ المصادر، وألصقُها زمنًا بحياة الشاعر.

ويظهرُ أيضًا أنّ ثمة مصادر[٩] أضافتْ بعضَ الأسماء التي انفرَدَتْ بها مثل كلمة "حمزة" وهناك بعضُ المصادر زادتْ اسم "إبراهيم"[١٠]، وقد أضفتُهما رغبةً مِنّي في إتمامِ هذه السّلسلة، كما يبدو أيضًا أنَّ في هذه المصادر لَقَبًا للشّاعر لا يُوجد في بَقِيّة المصادر. ولا يَتَطَرَّقُ الذِّهنُ إلى أنّ الترجمة في هذه المصادر ربَّما تكونُ لشاعرٍ آخر، اسمُه قريبٌ من اسم الشَّاعر؛ لأنّ المقطّعات المرويّة فيها يقف عليها الباحثُ في غيرِها منسوبةً لأبي الجَوَائز الوَاسِطِي مناط الترجمة والبحث.

ولا يتطرّقُ الذّهن أيضًا إلى أنّ في هذه المصادر خَلطًا لترجمة الشاعر مع تَرجمةِ شاعرٍ آخر، اسمُه: أبو الجوائز المطاميري، فقد راجعتُ ترجمةَ هذا الأخير فَلم أجد ما انفردتْ به هذه المصادر ضمن ترجمتِه.

ومِن ثمّ بات لازمًا الاعتمادُ على ما وَرَدَ فيها من إضافةِ اسم (حمزة) في مَحَلِّهَا ضمن سلسلة نسَبه، وكذلك اعتمادُ لَقَبِه، وهو (هبة الله).

وتفرَّدَ محسن الأمين في كتابه "**أعيان الشعية**" بإضافةِ لَقَبٍ آخر، هو (ذو الكفايتين)، إذن فيكونُ لأبي الجوائز لقبان، أحدُهما (هبة الله)، والآخر (ذو الكفايتين).

وهناك إجماعٌ على كُنيته، إذ لم يذكر أحدٌ ممَّن تَرجمُوا له أنَّه كُني بكنيةٍ أخرى غير (أبي الجوائز).

أمّا إلحاقُ لفظِ (الواسطي) بنهاية سلسلة نسبهِ فَهذا مَرَدُّه إلى مَوْطِنِه الأصلي للشّاعر(١١)، فهو من واسط، إحْدَى المدن العِراقيّة، تَتَوَسّط بين البصرةِ والكوفةِ، ولذا سُمِّيت بهذا الاسم(١٢)، كان لها دور بارزٌ في الحياة الثقافيّة في العصر العباسيّ الثانيّ، حيث أنجبتْ عددًا من العلماء والأدباء، وقد أفرد العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) في كتابه "**خريدة القصر وجريدة العصر**" كثيرًا من الصَّفحات التي تُسلّط الأضواء على شُعرائها.

فأبو الجوائز الواسطي أحدُ أدباء واسط المشهورينَ، كان شَاعِرًا، وكاتبًا، وخطّاطًا، ومصنّفًا، انتسبَ إليها لولادتِه فيها، وقد اختَلف العلماءُ حول تاريخ مولده، فذهب ابن الجَوزيّ (ت ٥٩٧هـ)(١٣) إلى أنه

وُلد عام ٣٥٢هـ، وتابعه في هذا الحافظ ابن كثير الدِّمِشقيّ (ت ٧٧٤ هـ)[١٤]، وابن تَغرِي بردِي (ت ٨٧٤هـ)[١٥]، وانتهوا إلى أنَّه تُوُفِّيَ عام ٤٦٢هـ، وقال ابن كثير: إنَّه تُوُفِّيَ عن عمر يناهز ١٢٠ عامًا! قلتُ: كيف يصح هذا؟ فالفارقُ حينئذ يكون عشرة أعوام ومئة عام، إن صَحَّ ما ذهب إليه.

وجعل إسماعيل باشا البغدَادي[١٦] تاريخَ وَفاته عند هؤلاء (٤٦٢ هـ) تاريخًا لمولده!، وهذا بلا ريب من قَبيل الوَهْم، ومن قبيل الوَهم أيضًا تحديدُ بهاء الدين العاملي (ت ١٠٣١هـ)[١٧] لتاريخ وفاتِه بعام (٤٤٦ هـ).

ونظرًا لهذه الأوهامِ صَرَّحتُ في بدايةِ حديثي بأنّ أخبارَ حياتِهِ لم تَسْلَمْ مِن الأخطاءِ والاضطراب، وإذا رجعَ القارئ إلى اسمِ الشاعر عند هؤلاء العلماء الأربعةِ لاحظَ أنَّ الوهمَ لم يقفْ بهم عند هذا الحَدِّ، ففي إثباتِهم لاسم الشاعرِ وَهْمٌ آخر تَمّ الإلماح إليه آنِفًا.

أمّا التاريخُ الصحيحُ لولادته ووفاتِه فهو ما أجمعتْ عليه أكثرُ المصادر واعتمدَه علي جواد الطّاهر[١٨] الذي انتهَى إلى أنّ التاريخ السابقِ لدى هؤلاء العلماءِ الأربعة، وهو عام (٤٦٢هـ) من قبيلِ التَّحريف والتَّصحيف.

لذا لا يمكنُ الاطمئنانُ في تحديدِ تاريخِ مولده إلا ممَّن نقل عن الشّاعر هذا التاريخ، وهو عام (٣٨٢هـ)، وعلى هذا التّاريخ أجمعت أكثرُ مصادر ترجمتِه، كما أجمعتْ على أن تاريخ وفاتِهِ وهو عام (٤٦٠هـ)، فقد التقى الباخرزي (ت ٤٦٧هـ) شاعِرنا وهو شيخٌ كبيرٌ يمدحُ عميد الملك

المتوفى عام (٤٥٥ هـ)[١٩]، وصرَّح الخطيب البغداديّ[٢٠] بأنّ خبرَ الشّاعر غابَ عنه عام (٤٦٠هـ)، ممّا يُعطي احتمالَ وفاتِه في هذا العام[٢١]، أو بعدَه بقليل[٢٢].

وكما لُوحظتْ بعضُ الأوهام في أخبار حياتِه فإنّ القارئ يقفُ على خبرٍ خيالي صدرَ عن الشاعرِ في اختيار شريكةِ حياته، لا يمكنُ للعقلِ قبولَه، ولعلّ هذا الخبرَ يُؤكد مَا ذَهَب إليه الخطيب البغدادي مِن أنّ الشاعرَ "لم يكن ثقةً"[٢٣]، أمّا الخبرُ فيرويه أبو عبد الله البارع المقرئ عن أبي الجوائز قائلاً: "إنَّه حَجّ فَرَأى في الطّواف امرأةً فعلقت بقَلْبِهِ قال فلم أزلْ استمتعُ بالنَّظر إلى أن رَحَلنا فلم أدْرِ أيّ طريقٍ سلكتْ، فكلِفتُ بها، وازدادَ وَجدي، فأشار علَيَّ بعضُ إخواني أن أتزوج، فامتنعتُ ثم أمرتُ امرأةً أن تَخطبَ لي، فقالتْ لي بعد أيامٍ: قد حصلتُ لك امرأة على وَفَق النعت الذي طلبت، فعقدتُ عليها، فلمَّا زُفَّتْ إليَّ تَأَمَّلتُها، فإذا هي صَاحبتي، فقضيتُ العَجَبَ من ذلك الاتفاق"[٢٤]!.

نشأَ أبو الجوائز في واسط، وتلقَّى العلمَ على كبارِ علماءِ عصرِه، حتى صارَ عالمًا معروفًا، وأديبًا مشهورًا، يقصدُه طلابُ العلمِ والأدباء، وكان خَطَّاطًا كذلك، وكان إلى جانب كلّ هذا مصنِّفًا يجيدُ التّصنيف، فأُثرت له آثارٌ تشهد له بالنبوغِ العلميّ، لا سيما في علم النّحو، ويذكر كثيرٌ ممّن ترجموا له أنه انتقلَ مِن واسط إلى بغداد، ومكث فيها طويلاً حَتَّى تُوُفِّيَ بها[٢٥]، أمّا عن شيوخِه الذين روى عنهم، فمنهم:

١- أبو الحسين بن أدين النّحويّ[٢٦].

٢- أبو القاسم على بن كردان النّحويّ[٢٧].

٣- الحسن بن علي بن ذكروان الفارسيّ[٢٨].

٤- ابن سُكّرة الهاشمي، الشاعر المشهور بالعبث والمجون، ونفى الخطيب البغداديّ روايته عنه قائلاً: "كان يصغر عن ذلك"[٢٩].

وقد أتت المصادر على ذِكر بعض تلاميذه، فمنهم:

١- أبو الخطّاب يحيى بن صَاعد بن الحسن بن العباس المعَرِّي، فقد قرأ عليه كتاب "**الفصيح**" لأبي العباس أحمد بن يَحيى ثعلب (ت ٢٩٦هـ)[٣٠].

٢- أبو الفضل الفَرَضِيّ[٣١].

٣- الشّيخ الحافظ محمد بن ناصر[٣٢].

٤- أبو زكريا التّبريزيّ[٣٣].

٥- وصرّح الخطيب البغدادي: بأنه نقل عنه روايات وأناشيد وحكايات[٣٤].

٦- وصرّح ابن ماكولا بسماعه منه[٣٥].

أمّا عن مؤلفاتِه فقد صرّح بعضُ مَن تَرْجموا له بأنّ له مؤلّفاتٍ حسانًا[٣٦] دون أن يذكروا أسماءها أو عددَها، ونسبه بعضُهم -كما سبق آنفًا- إلى النّحو، لغلبةِ هذا التّخصصِ عليه، وصرّح إسماعيل باشا البغداديّ[٣٧] بأنّه شرح "**كتاب**" سيبويه (ت ١٨٠هـ) في النّحو.

قلتُ: وصل إلينا من مؤلّفاته: "**التعليقُ المختصر من كتاب أبي سعيد السّيرافيّ** (ت ٣٦٨ هـ) **شرح كتاب** سيبويه"، وتصدّى لتحقيقه الباحثان:

أمين مصطفى الشّنقيطي، ومحمد بن عبد الله القحطاني في رسالتين جامعيتين، قُدّمَتا إلى الجامعة الإسلامية عامي ١٤٢٥هـ، ١٤٢٧هـ لنيل شهادة الماجستير.

أمّا عن ديوان شِعر أبي الجوائز فلم أجدْ نَصًّا صريحًا يدلُّ على أنّ كلَّ شِعرِهِ كان مجموعًا في ديوان، وأقدمُ خَبَرٍ وقفتُ عليه أتَى على مجموع شِعره وَردَ لدى الباخرزي (ت ٤٦٧هـ) في كتابه "**دُمية القصر**"، حيثُ ذَكَرَ أنّ أبا الجوائز كتب مجموعةً من شِعْرِه، وأهدَاها إليه، إلا أنَّ عَوَادِيَ الزَّمن أَتَت عليها(٣٨)، ثم ذكر الملك المنصور الأيوبيّ (ت ٦١٧هـ) "أنّ شِعرَه كثيرٌ موجودٌ مشهور"(٣٩)، وقال ابن خِلِّكَان (ت ٦٨١هـ)(٤٠): "لم أرَ لَه دِيوانًا، ولا أعلم أدُوِّنَ شِعْرُه أم لا؟"، والحقيقةُ أنَّ شِعر أبي الجوائز المتبقِّي ليسَ من القلّة بمكانٍ بحيث يصدق عليه قول الملك المنصور الأيوبي بأنّ الشاعرَ كان من الشعراء الْمُقِلِّين.

فقد هَدَتْني مُواصلةُ البحث في التّراث العربيّ المخطوط لاكتشاف نفائِسه وكنوزِه المخبوءة إلى اكتشافِ مخطوطِ "**شِعر أبي الجوائز الواسِطّي**"، ومِن ثمّ تجدد الأملُ في إلقاءِ الضّوء على شِعره، وإتاحةِ الفرصةِ أمام الدراسين للوقوف على أَماراتِه الفنّيّة، وخصائصه الموضوعيّة، فقد وقفتُ على مجموعةٍ شِعرية له مندثرة في أحد الأجزاء الأربعة عشر لكتاب "**السفينة**" لابن مبارك شاه (ت ٨٦٢هـ)، وهذه المجموعةُ تضمُّ حصيلةً غير قليلةٍ من القصائد والمقطّعات والنُّتف، وهي تقعُ في اثنتين وأربعين لوحةً مخطوطة في الجزء الرابع من المخطوط المشار إليه، وهذه اللوحات تقع في

ما بين الورقة ٤١ والورقة ٨٣، وقد حَمَلَتْني هذه المجموعةُ على صُنع "**ديوان أبي الجوائز الواسطيّ**" بتحقيق هذه الأوراق، وجمعِ ما تَنَاثر من شِعرِهِ في المصادر، فبلغَ الدّيوان مَا يقرب من (١٠٠٠) بيت من الشِّعر، والدّيوان في طريقه للنشر بعد مُعاناة طويلةٍ في محاولةِ قراءةِ نَصّ المخطوط، وتوجيهه على الرّغم من سوء الخَطّ وكثرةِ الأخطاء والاضطرابات وتفشّي السّقط والطّمس، وإهمال إعجام كثير من الحروف في المخطوط، وعلى الرّغم من كتابة المصنّف للأبيات الشعرية متصلة الشطرين، ورغم المعاناة لا أدَّعي أنَّني أصبتُ في كل الأحوال.

صورة الورقة ٦٣ من مختار شِعر أبي الجوائز الواسطي في الجزء الرابع من مخطوط السفينة





صورة الورقة الأخيرة من مختار شِعر أبي الجوائز الواسطي في الجزء الرابع من مخطوط السفينة

إنّ ما أُثر لأبي الجوائز من شِعر حَدا ببعضِ العلماء إلى إبداءِ آرائِهم حَولَ شاعريته، بين مُثْنٍ مُشيدٍ بشاعريَّتِه وبين مُقَلِّلٍ منها في موكب الشِّعر العربي، فَمِن قائلٍ "له ترسُّل مليحٌ وشِعرٌ جيِّد، وحدّث بأخبارٍ وحكاياتٍ"[٤١] إلى قائلٍ: "ولكنّ الجمادَ لو غُنِّي بشِعرِه لطَرب"[٤٢] إلى قائلٍ: "وله شِعرٌ مُستحسن جيّد، ونظمٌ رائقٌ رائعٌ، بديعُ الصّنعةِ، مليحُ العبارة، سَهْلُ الكلام ممتنعة، حلو المنطق مستعذبه"[٤٣] إلى قائلٍ: "أديبٌ

مِن الـشّعراء الكُتّاب"(٤٤) إلى قائـل: "حَسَنُ الـشِّعر في المديح والأَوصافِ والغَـزَل"(٤٥)، إلى قائـلٍ: "وكـان أديبًا شـاعرًا مليح الـشِّعر"(٤٦) إلى قائـلٍ: "حَسَن القولِ"(٤٧) إلى قائل: "كان من أفاضلِ العلماء شاعرًا مُقِلاًّ مُجِيدًا، وكان شِعره أرقّ من النّسيم، أعـذب مـن التسنيم"(٤٨) إلى قائِـلٍ: "شِـعره متوسـط متكلّـف"(٤٩) إلى قائـلٍ: "كـان مـن الفـضلاء أديبًـا شـاعرًا حـسن الشِّعر"(٥٠) إلى قائلٍ: "من المقاطيعِ ما نجدُه في الدّمية ووشـاحها والخريـدةِ، وهي لا تدلُّ على شاعريّة أو أصالة"(٥١).

وهـذه مختـاراتٌ مـن شِـعر أبـي الجـوائز الواسِـطِيّ تُوَضّـح مَـع مختـاراتٍ أخـرى -مُرسـلَة إلى مجلّـة "**العرب**" الـسعودية- اتجَاهَـه الـشِّعريّ ومنزعَـه الفَنِّي، وتُجَلّي كيفيةَ تَعاطيه لهذا الفَنّ.

[من قافية الهمزة]

**(٥٢)**

وقال: [من الخفيف]

١- رُبَّ خَـــوْدٍ بَازِيَّـــةِ النَّـــاظِرِ صَـــادَتْ بلَحْظِهَـــا أَهْـــوَائِي

٢- وكذاكَ الجَوَارِحُ الزُّرْقُ لا نعْـ ـــدِلُهَا بالحَمَامَـــةِ الكَحْـــلاءِ

٣- زُرْقَةُ الفَجْرِ لا تُقَاسُ بِجُنْحِ الـ ـليل في حُـسْنِهَا وَطِيـبِ الهَـوَاءِ

٤- هَلْ يُسَاوَى اليَاقُوتُ والسّيحُ الثميـ ـــن إذا اسـتُودِعَا نُحُـورَ الظِّبَـاءِ

٥- وَسَوادُ الأَمْوَاجِ -إنْ كُنتَ عَدْلاً- لا يُـــوَازَى بلَوْنِـــهِ في الـــسَّمَاءِ

(٥٣)

وقال: [من البسيط]

١- يَا كَاتِبًا شَهِدَ الكُتَّابُ أنَّ لَهُ فَضْلاً يَبُذُّهُمُ إنْ شَاءَ إنشَاءَ
٢- لَولاكَ مَا كَانَ عِلْمٌ رَافِعًا عَلَمًا ولا كُفَاةُ الوَرَى في العجز أَكْفَاءَ

(٥٤)

وقال: [من الكامل]

١- الوَجْدُ دَاءٌ والسُّلُوُّ دَوَاؤه وأَضَرُّ أعدَاءِ الفَتَى أُلَفَاؤُهُ

منها:

٢- ومِنَ البَلِيَّةِ أنَّ قَلْبي أَصْبَحَتْـ ـه أَسْيرَ بَيْضَاءِ الحِمَى سَوْدَاؤُهُ
٣- وأَحَقُّ سَالٍ للصَّبَابَةِ مُعْسِرٌ يُغْرَى بلَيِّ دُيُونِه غُرَمَاؤُهُ

[من قافية الباء]

(٥٥)

وقال: [من الخفيف]

١- إنَّ وَجْدِي بمَيَّةٍ قَدْ سَرَى بي مِن أَبَاطيلِ وَعْدِهَا في سَرَابِ
٢- رَدَّنِي هَجْرُهَا وكَفِّي مَأْكُو لِيَ بينَ الوَرَى وَدَمْعي شَرَابي
٣- لَو صَحَتْ في الزَّمَانِ مِن وَسَنِ الأَجْـ ـفَانِ لم تَصْحُ مِن شَمُولِ الرُّضَابِ

(٥٦)

وقال بمكة: [من الوافر]

١- يُرَفِّعْنَ السَّجَائفَ للحصَابِ بأَطْرَافٍ رَوينَ مِن الخِضَابِ

٢- وَمَا جَمَرَاتُهُنَّ سِوَى ضُلُوعِي وَلَيسَ خِضَابُهُنَّ سِوَى (شَبَابِي)

٣- قَصَدْتُ الحَجَّ كَي أزْدَادَ نُسْكًا مِن الحُسْنَى فَضَيَّعْتُ اكْتِسَابي

٤- وَلَمْ أَقْرُبْ ظِبَاءَ الوَحْشِ لَكِنْ ظِبَاءُ الإِنْسِ لَمْ تَكُ في حِسَابِي

(٥٧)

وقال متغزّلاً : [من الكامل]

١- يا هِندُ طَرْفُكِ مُشْبِهٌ لشَبِيبَتِي وبَيَاضُ نَحْرِكِ مُشْبِهٌ لِمَشِيبِي

٢- فَلِمَ العُيونُ -كَمَا عَلِمْتِ- مُحِبَّةٌ لَشَبِيهِهَا والنَّحْرُ غَيرُ مُحِبِيي؟

(٥٨)

وقال ملغزًا في (وعل): [من الوافر]

١- إذا صَحَّفْتَهُ مِن بَعْدِ عَكْسٍ غَدا ضِدَّ البَلاغَةِ والصَّوَابِ

(٥٩)

وقال في جارية هنديّة صفراء اللّون: [من البسيط]

١- أَحْبَبْتُها مِثلَ تِبرِ الكَرْمِ... خَمَّارُهَا فَبَدا مِن ثغرِهَا الحَبَبُ

٢- صَفْراء تَعْنُو لهَا بيضُ النِّسَاءِ كَمَا تَعْنُو لِشَمْسِ النَّهَارِ الأَنْجُمُ الشُّهبُ

٣- فإن جَعَلْتَ سَنَا البيضَاءِ بَدْرَ دُجَى فَنُورُهُ من ضِيَاءِ الشَّمْسِ مُكْتَسَبُ

٤- وَمَا اللُّجَينُ وإنْ رَاقَتْ نضَارَتُهُ يُصْبِي النُّفُوسَ إذا مَا أُبْرِزَ الذَّهَبُ

(٦٠)

وقال: [من الطويل]

١- إذا كُنتَ لا تَهْجُو اللَّئِيمَ تَنَزُّهًا عن القَذَعِ المُزْرِي بذِي الدِّينِ والحَسَبْ

٢- وكانَ كَرِيمُ القَوْمِ عَنْقَاءَ مُغْرِبٍ هَوَتْ في زَمَانٍ بالكِرَامِ قَدْ انقَلَبْ
٣- فَكُنْ للأَهَاجي والمَدَائِحِ تَارِكًا وللذَّمِّ والإحمَادِ ما عِشْتَ مُجْتَنِبْ

(٦١)

وقال: [من الكامل]

١- إنَّ المُلوكَ اثنانِ: مَعْرُوضُ النَّدَى يُلْقى وَمَقبوضُ السَّمَاحِ يَحْجِبُ
٢- أو مَا رَأيتَ إلى الغُصُونِ إذا عَسَتْ بَعُدَتْ وَيعْطِفُهَا الثِّمَارُ فَتَقْرَبُ

(٦٢)

وقال: [من الطويل]

١- هنيئًا عَلَى رَغْمِي لِعُودِ أَرَاكَةٍ تَسُوكُ بِهِ الذَّلْفاءُ مَضْحَكَهَا العَذْبَا
٢- لئن شَعَّثتْ مِنْه لقدْ زَارَ ثغْرَهَا أراكًا يَبيسًا وانثَنَى مَنْدِلاً رَطبَا

(٦٣)

وقال في الأصداغ: [من الكامل]

١- ما زِلتُ أحسَبُ أَنَّ وجهَك مُشْبِهٌ يا فاتنَ اللَّحَظاتِ بدرَ الغَيْهَبِ
٢- حتّى بَدَا وَعَقَارِبُ الأَصْدَاغِ قَدْ أَذْكَتْ شُعَاعَ جمالِهِ المتلَهِّبِ
٣- فَعَلِمتُ أَنَّ البدرَ يقصُرُ دُونَه لَمّا وَجَدْتُ هُبُوطَهُ في العَقْرَبِ

(٦٤)

وقال في شروط النديم: [من الكامل]

١- إن النَّدِيمَ لَه عليكَ شَرائطُ عشرٌ يَراكَ بهنَّ مثلَ حبيبَهِ
٢- إحسانُ عشرتِه ونشرُ جَميلِه ما بينَ أُسْرَتِه وطيُّ عُيوبِهِ

٣- والكفُّ عن فخرٍ يُشَبُّ بمثلِهِ  نـارُ الـضَّغَائِنِ واغتفـارُ ذُنُوبـهِ
٤- ومَتى تحدِّثُه اختَصرْتَ حَرَاسَةً  لـسَمَاعِكُم عَـن قَـادِحٍ في طَيـهِ
٥- وهُو المحكّمُ في زَمَانِ جُلُوسِهِ  مَعكـم وفيمَـا شَـاء مـن مَـشروبهِ
٦- وإذا دَنَا أكرمتَ مَشهدَ شخصِهِ  وإذا نَـأى أَحْـسَنْتَ حِفْـظَ مَغيبِـهِ
٧- وإذا صَحَا لم يَلقَ مِمَّا كان في  هفَـواتِ نـشوتِهِ سِـوَى مَحبوبِـهِ
٨- فهنَاك تَظْفَرُ بالمنَى وتَنَـالُ مِن  طُرَفِ الخَلاعَـة كُـلَّ مَـا تلـهُو بِـهِ

(٦٥)

وقال من أبيات:  [من الكامل]

١- يا روضةَ الجَرعاءِ حَولَ غَديرِهِ  لا زالَ طَرفُـكِ نَـاظرًا مـن هَدْبِـهِ
٢- وغَدتك أخلافُ السَّحَابِ بدَرِّها  كرمًـا ووشَّـحكِ الربيـعُ بعَـصْبهِ
٣- ويح المحبِّ يُسَائِلُ الرُّكبانَ عن  أحبابـــهِ وســـؤالُهُ عـــن قَلبـــهِ
٤- رقدُوا وأسهَرَني هَواهمْ فاعجَبُوا  مـــن سَـــطوةِ النُّـــوَّامِ بالمتَنبِّـــهِ
٥- يا هَلْ رأيتَ دُوينَ أَنْقَاءِ الحِمَى  فلـكَ الـسُّرى وهْنًـا يـدورُ بـشهْبهِ
٦- فلكًا، فوارسُه مَكان بروجِهِ  وهــوادجُ اللَّميــاءِ موضــع قُطبــهِ
٧- لم تحمِـهِ عَنِّـي قِـسِيُّ رُماتِـهِ  لكــن حَمَـتْني عنـه أعـينُ سِـربهِ

منها:

٨- وإذا رَمَـانِي طَرفُـهُ بـسقَامِهِ  عبثًـا تَـدارَكَنِي الرُّضَـابُ بطِبِّـهِ

منها:

٩- باكرتُهـا والـدِّيكُ مُعكتَـفٌ  حَـام الجُـدَيُّ علـى مَـواردِ شُـربهِ

١٠-أسقِي نَدِيمي ما استطاعَ وأَتَّقي	عـصيـانَه وألـينُ سـَـاعَةَ شَـغبهِ

[من قافية التاء]

(٦٦)

وقال يعارض الشريف الرضي: [من مجزوء الرمل]

١- لَيـتَني أنكـرتُ عرفـا	نَ الـــدُّمَى في عَرَفَــــاتِ
٢- ورَميـتُ النُّـسْكَ عَنِّـي	قَبــلَ رَمْــي الجَمَــرَاتِ
٣- كَمْ مَضتْ لي بين هَاتيـ	ـكَ المـسَاعِي مِـن هَنَـاتِ
٤- بالُمـــصَلَّى وبجَمْــعٍ	ومِنًـــى والـــسَّمُراتِ
٥- دِمَـــنٌ تَرفَـــعُ للأَبـــ	ـــصارِ نَـــارَ الوَجَنَـــاتِ
٦- وتُعيــدُ الأَسَــدَ الــوَرْ	دَ قَنيــــصًا للمَهَــــاةِ
٧- يَرسُـفُ المطلَـقُ مِنهَـا	في قُيــــودِ اللَّحَظَــــاتِ
٨- ويَفُــلُّ الجَفْــنَ مِنْهَــا	كــلُّ مَطـــرورِ الـــشَّبَاةِ
٩- وظبــــاءٍ فَاتكـــــاتٍ	بــــصَنَاديدِ الكُمَـــــاةِ
١٠- خاضِبَاتٍ مِن دَمِ القيـ	ـــيانِ أيــدِي الفَتَيــاتِ
١١- كالمصَابيحِ عَلَى الأغـ	ـــصَان فـــوقَ الأكمـــاتِ
١٢- صَانَهن الحُسنُ أن يشْـ	ـــهدن جمْعًــا سَـــافِراتِ
١٣- (فتراهـــنَّ) بإشـــرا	قِ الـــصِّبا مُعْتَجِـــرَاتِ
١٤- قَـسَّمَ الـصُّبْحُ سَـنَاهُ	بـــين تلـــكَ القَـــسَمَاتِ
١٥- واستعارَ البَـانُ مِنْهُنْـ	ـــنَ اعتِـــدَالَ الحَرَكَـــاتِ

١٦- يَتَطَـــوَّقْنَ بُـــرُودًا رَخـــصَةَ الكَـــفِّ أَنَـــاةِ
١٧- غـادةٌ ظميـاءُ تَسْتَـسْـ ـــقِي أُجَـــاجَ العَبَـــرَاتِ
١٨- وبفِيهـا حَلَـبُ الكَـر مِ وتَيَّـــــارُ الفُـــــرَاتِ
١٩- خَضَبَتْ جَمْـرَةَ قَلبي مَحْقًـــا مِـــن نَظَـــرَاتِ
٢٠- وَمحـتْ بالحُـسْنِ مـا ـــطرتُه مِـــن حَـــسَنَاتِي
٢١- يا رَسُولِي قُلْ لَهَا عَنْـ ـــنِي سِـــرًّا مـــن ثقَـــاتِي :
٢٢- لكِ طلَّقـتُ بنَـاتِ الـ ـــقلبِ تطليـــقَ البَتَـــاتِ
٢٣- ولخَـوفِي منـكِ ألحقـ ـــتُ نَـــصِيحِي بوُشِـــاتِي
٢٤- كـلُّ ليـلٍ لِـيَ مِـن تَـذ كـــارِكمْ ليـــلُ (الـــشَّتَاتِ)
٢٥- وإلـيكمْ أيـن قَـرَّتْ بكــــمُ الــــدَّارُ التِفَـــاتِي
٢٦- فـأَقِيلي عَثرَتِـي واخـ ـــشي مُقيـــلَ العَثَـــرَاتِ
٢٧- إنَّمـا أطلـبُ أن تَحْـ ـــيَى لتصفـــو لـي حيـــاتي

[من قافية الجيم]

(٦٧)

وقال في غلام هنديّ: [من مجزوء الوافر]

١- أيحـسَبُ أَنَّـني نـاجٍ وبـدرُ الهنـدِ لـي شـاجِ؟
٢- بـــشَعرٍ آبِنُوسِــــيٍّ لـــه، ومُقَبَّـــلٍ عـــاجِ
٣- يُريك إذا بدا شمسَ الـ ضُّحَى في الحِنْدِسِ الدّاجِي
٤- كـأنَّ القَـرْصَ في خَدَّيْـ ـــهِ يـــاقُوتٌ علـــى تـــاجِ

(٦٨)

وقال من أبيات في جارية هندية صفراء اللون: [من الخفيف]

قلتُ: سُبحانَ مُنبتِ المندِلِ الرَّطـ ــب لنـا بـينَ آبنـوسٍ وعَـاجِ

[من قافية الحاء]

(٦٩)

وقال: [من مخلع البسيط]

١- أَصْـبَحْتُ في قَبْـضَتَيْ ردَاحٍ كالْمِـسْكِ في المَـسْكِ واللُّفـاحِ

٢- مِـن صَـفْحَتَي خَـدِّهَا مَـسَائِي ومــن نَقَــا ثَغْرِهَــا صَـبَاحِي

٣- يَفْتَـرُّ قَبـلَ الـشُّرُوقِ فُوهـا عـن طَعـمْ شُـهْدٍ وريـح راح

٤- مَلثمُهـا بَـارِدُ النّـوَاحِي وجِـسْمُها مُـسْعَرُ النّـوَاحِي

٥- فَهْي جَحِيمِي فَلَسْتُ أَخْشَى عُقْبَـى مَعَـاصِيَّ واجـتِرَاحِي

(٧٠)

وقال: [من الخفيف]

١- يا رَداحًا تَهوى الخِلافَ أهذا خُلُـقٌ تَـصْطَفيهِ كُـلُّ رَدَاحِ

٢-ما شَكَوتُ الخِلخَالَ في قَصْدِهِ الكِتْـ ـمان إلا شَـكَرتُ نَـمَّ الوِشَـاحِ

٣- ولهذا حَسرتُ عَن جُنحِ لَيلٍ يَتَجَلَّـى مِـن فَـوقِ نُـورِ صَـبَاحِ

٤- حُكْمُ نَشْوَانَ مَا يفيقُ وَهَلْ يَصْـ ـحُو نَزِيـفٌ رُضَـابُه كـالرَّاحِ

(٧١)

وقال: [من البسيط]

١-تُجنيكَ مـن شَـجرِ الرُّمَّـانِ تُفَّاحـا غضًّا وتُسقِيكَ من مَاءِ الصّبَا رَاحَا
٢-كأنَّمَا حَاولتْ سُكْرَ الوَرَى فَغَدتْ ألحاظُهَا الخَمْرَ والأَجفانُ أَقْدَاحَا
٣-كالغُصْنِ جَاذَبَه كَفُّ الصّبَا سَحَرًا وقد شَدَدْتَ عَلَى أَعْلاه مِصْبَاحَا

(٧٢)

وقال في النَّهي عن مصاحبة النّاس: [من الطويل]

١-دَعِ النّاسَ طُرًّا واصرفِ الوُدَّ عنهُم إذا كنـتَ في أخلاقِهِـمْ لا تُـسامِحُ
٢- ولا تَبْغِ مِن دَهْرٍ تَظَاهَرَ رَنْقُه صَـفاءَ بنِيـهِ فالطِّبَـاعُ جَـوامِحُ
٣-فشيئانِ مَعْلُومَانِ في الأرضِ: دِرْهمٌ حَـلالٌ وخِـلٌّ في الحقيقـة نَاصِـحُ

[من قافية الدال]

(٧٣)

وقال من أبيات في الغزل: [من مجزوء الكامل]

١- غيـداءُ تَفتِـكُ بـالكِرَا مِ ولا تَخَـافُ مِـن القَـوَدْ
٢- كالشَّمسِ أفْئِدَةُ الأُسُو دِ مَحَلُّهـا طُـولَ الأَبَـدْ
٣- وكذلكَ الشَّمْسُ الْمُنِيـ ـرةُ بيتُـها بـرجُ الأَسَـدْ

(٧٤)

وقال: [من المتقارب]

١- ومـن نَكَـدِ الحُـبِّ أنَّ الفَتَـى إذا فقَـدَ القَلْـبَ قَـالُوا: وَجِـدْ
٢- وما انقادَ للحُسْنِ مثلُ الأَبِيِّ ولا ذَلَّ للحـُـبِّ مثـلُ الجَـلِدْ

(٧٥)

وقال من أبيات في لابس أسود: [من الوافر]

فـسوَّد مـن مَلابـسِهِ ... بـذلكَ في البَرِيَّـةِ أنْ يَسُودَا

منها:

بأطرافٍ كبـدرِ التِّمِّ بيضًا ... وأثوابٍ كجُنْحِ الليلِ سُودَا

(٧٦)

وقال: [من البسيط]

١- ظبيٌ بعَينَيهِ سِحرٌ يقبِضُ الأَسَدَا ... وفي ثنايَاهُ خَمْرٌ يُرْخِصُ الشّهدَا

٢- يشبُّ في خَدِّهِ ماءُ الشَّبابِ لَظًى ... سُـلطَانُها في حَشَا عُشَّاقِهِ أبَـدَا

٣-قَدْ عَاضدَتْ عينُه عَينِي عَلى كَبِدِي ... فاستسلمَتْ لَهُما إذ لم يَجِدْ عَضُدَا

(٧٧)

وقال: [من السريع]

١- أوردَني شرْبَ الرَّدَى شادِنٌ ... نَفْسِي تَقِيهِ مـن وُرُودِ الـرَّدَى

٢- كالـشَّمسِ لما بَزَغَتْ والرَّشا ... لمـا رَنَـا والبَـدْرِ لمـا بَـدَا

٣- لاحيتُ فيه القَلبَ حَتَّى غَدَا ... قَلبي عِنـدِي مُثبتًـا في العِـدَى

(٧٨)

وقال في شيب المحبوب: [من الطويل]

١-بعيشِكَ لا تَأْسَى لبيضَاءَ صَرَّحَتْ ... بفَرعِك عن ظُلْمِي وَطول ذِيَادِي

٢- ولا تَحْسُديني في بَقَاء شَبيبَتِي ... فأنـتَ الـذي مَتَّعْتَني بسَوَادِي

٣- وشيبتَ قَلْبي بالقِلا ثُمَّ زُرتَني فأَعْدَى إلى فودَيكَ شيبُ فُؤَادِي

(٧٩)

وقال: [من الطويل]

بهـا كَلَـفٌ يُـصْبي الحَلـيمَ كَأَنَّـهُ على خدِّهَا طفْحُ العَبيرِ عَلى النَّدِّ

(٨٠)

وقال في جارية هنديّة صفراء اللون: [من الخفيف]

١- مَلَكَتْني الصَّفْراءُ قَسرًا وَمِن حَوْ لِـيَ قَـوْمِي وَمَنْزِلـي في بِـلادِي

٢- شَمعة ذَوبُها -إذا اتَّقَدَتْ- دَمْـ ـعِي وسـلطانُ نَارِهَـا في فُـؤَادِي

(٨١)

وقال: [من الطويل]

١- أتحسَبُ هِنـدٌ إذْ رَأتْنِـي عَاكِفًا على الخَمرِ أَنِّي قدْ سَلَوتُ عَنِ الوَجْدِ

٢- وقد نزحتْ بالبينِ مَاء مَدَامِعِي وباحَ شُجُوني للوُشَاةِ بمَا عِنْدِي

٣- ولكِنَّها أَفْنَتْ دُمُوعِي وأنْضَبَتْ دَمِـي شَـرِبَته البَابليَّـةُ عَـنْ عَمْـدِ

٤- لَعَلَّ دَمَ العُنْقُودِ يُسْعِدُ عَبْرَتِـي فَيجرِي وَيَمْحُو صِبْغَةَ الهَجْرِ مِن خَدِّي

(٨٢)

وقال متغزِّلاً: [من البسيط]

١- هَيفَـاءُ خِشفِيَّةُ الأَلْحَاظِ والجِيدِ يُلْهِيكَ وُجدَانُها عَنْ كُلِّ مَفْقُودِ

٢- تَفْتَرُّ عَن مَاءِ مُزْنٍ شَابَهُ شُـهدٌ لَكِنَّـهُ حِـينَ يُغْـشَى غَـيرُ مَـوْرُودِ

٣- كَأَنَّ وَجْنَتَها مِن تَحْتِ شَاهِدِهَا ذَوْبُ المُدَامَةِ مِـن سُـودِ العَنَـاقِيدِ

(٨٣)

وقال من أبيات: [من الخفيف]

١- زُهْـرٌ يَلْـتَمِعْنَ بَـينَ نُجُـومِ الـ ـــليلِ كَالوَاسِـطَات بـينَ الفِرِيـدِ
٢- يَتَـأَلَّقْنَ فِـي الحَنَـادِسِ كـالبُرْ هَـانِ يَفْـرِي سَـنَاهُ لَيْـلَ الجُحُـودِ
٣- عدَّلَ الحُسْنُ والصِّبَا وَسَنَ الأَجْـ ـــفَانِ مِـــنْهُنَّ بانْتِبَـــاهِ النُّهُـــودِ
٤- بَـــينَ َأنيـــابِهِنّ دُرٌّ عَنَاقِيــــ ــدِ النَّوَاصِـي وَمَـاءُ وَرْدِ الخُـدُودِ
٥- وكأنَّ الألفَـاظَ عِنْـدَ تَنَـاجِيـ ـهنَّ قُـدَّت مِن لِينِ تِلـكَ القُـدُودِ

(٨٤)

وقال متغزِّلاً: [من الطويل]

١- أتتْ والحَلْي والطِّيبُ قد كفلا بهَا لِواشِـــينَ أَبْـــدَوا بَيْنَنَـــا وَأَعَـــادُوا
٢- فَبِتُّ وللأَشْوَاقِ حَادٍ عَلَى الذي أَرُومُ وَللإشْـــفَاقِ مِنْــه قيـــادُ
٣- أقولُ وَجَرْسُ الحَلْي يَمْنَعُ ضَمَّهَا وقَـدْ عَـادَ ذَاكَ القُـرْبُ وَهْـو بعـادُ
٤- هَبي كُلّ ذي نُطْقٍ يَغَارُ عَليكُم فَكيـفَ يَغَـارُ الحَلْـي وَهْـوَ جَمَـادُ

(٨٥)

وقال وقد وهب لإنسان قصده شيئًا يسيرًا فلامه على ذلك بعض من حضر: [من المديد]

١- سَاءَكُمْ تَقْليلُ مَوْهِبَتي فَـــشَجَانِي مِـــنْكُمُ الفَنَـــدُ
٢- لا تَلُومُونِي فَإنَّ يـَدِي لَـــمْ تَجُـــدْ إلا بِمَـــا تَجِـــدُ

(٨٦)

وقال في شكوى الفقر، وغدر الإخوان: [من الطويل]

١- ومِن نَكَدِ الأَيَّامِ أَنِّي مُعَاقِدٌ لكـلِّ خَليـلٍ نَـصْبُهُ حـلُّ عِقْـدِهِ
٢- أُرَجِّي أَغَالِيطَ الزَّمَانِ تَصوُّرًا بِـأَنَّ خَزَايَـاهُ نَتَـائِجُ عَمْـدِهِ
٣- يُعَيِّرُنـي فَقْـرِي رِجَـالٌ أَشِـحَّةٌ وفَقْرُ الفَتَى في النَّاسِ عُنْوانُ مَجْدِهِ
٤-وعَابُوا عَلَيَّ الدَّينَ والدَّينُ مِيْسَمٌ لكُـلِّ كَـرِيمٍ وُجْـدُهُ فَـوْقَ وَجْـدِهِ

(٨٧)

وقال في الغزل:

[من الكامل]

١- في لَيْلَةٍ خَلَعَتْ عَلَيَّ نُجُومَهَا وكَسَتْ وُجُوهَ الكَاشِحِينَ سَوَادَهَا
٢- فَرَشَفْتُ بالتَّقْبيلِ كُلَّ مُدامَةٍ تَـضْحَى ثُغُـورُ سُـقَاتها أزنادَهَـا
٣-وجَنَيْتُ مِن تِلْكَ المَرَاشِفِ سُحْرَةً بَـرَدًا أَرَتْـني ذَوْبَهَـا وَجَمَـادَهَا

[من قافية الراء]

(٨٨)

وكتب إلى بعض الوزراء وكان معتقلاً:

[من المتقارب]

١- لَئِنْ نَوْرَزَ النَّاسُ في ذَاكَ الصَّباح بِـصَبِّ الميـاهِ وَشَـبِّ الـشَّرَرْ
٢- فَـإِنِّي أُنَـوْرِزُ -حَتَّـى أَرَاكَ- بِمَـاءِ الـدُّمُوعِ وَنَـارِ الفِكَـرْ
٣- كَـذَلِكَ دَأْبِـي إلى أَنْ تَبِيـتَ سُـعُودُكَ مُأْذُونَـةً بِـالظَّفَرْ

٤- وَتَقْضِي بِمَا شِئْتَ فِيمنَ أَطَاعَ     بِنَفْـعٍ وَفـيمَن عَـصَى بالـضَّرَرْ
٥- صَبرتُ لَعَمْرِي وَفي الاصطِبَار     بَـشيرٌ لِكُـلِّ لَبيـبٍ صَـبَرْ
٦- فَعَوِّلْ عَلَى اللهِ وارجِعْ إليه     تَعُـدْ فَـائِزًا بـالمُنَى وَالخِيَـرْ
٧- فَفِـي كُـلِّ إيماضَـةٍ بـالجُفُونِ     لطـائفُ مـن صُـنْعِهِ تُنْتَـظَرْ

(٨٩)

وقال: [من البسيط]

١- أذكتْ مِياهُ الصِّبا في خَدِّهِ نَارا     تهدي إلى حِبِّه مَن ضَلَّ أو جَارَا
٢- ظَبْـيٌ تُـسَافِرُ في أَرْدَافِـه مُقَـلٌ     أَقَـلُّ أَجْفَانهـا تَكفيـه زُنَّـارَا

(٩٠)

وقال: [من الطويل]

١- ولم أَنْسَ قَولي للرَّقِيبِ وَقَدْ بَدَا     يهـدِّدُني عنهـا وينـذِرُني الهَجْـرَا
٢- عَجِبـتُ لأَلْفَـاظٍ تَمُـرُّ بِرِيقِهَـا     فَلا تَكْتَسِي منه العُذُوبَةَ والعِطْرَا
٣- وَأَعْجبُ مِن هَذا تَحَمُّلُ جِسْمِها     بصدرٍ حكى ماءً-فؤادًا حكَى الصَّخْرَا

(٩١)

وقال في جاريةٍ هنديّة صفراء اللون:

[من السريع]

١- لله نُـوبيٌّ ونوبيَّـةٌ     تَقَارَضَـا الوَصْـلَ بِمِقْـدَارِ
٢- فَأَنْجَبَـا صَـفْراءَ كـالتِّبْرِ إذ     أُبْـرِزَ عَـن فَحْـمٍ وَعَـن نَـارِ
٣- كالشَّمْسِ بينَ الصُّبْحِ واللَّيلِ     كـالرَّاحِ بَـينَ الـدَّنِّ والقَـارِ

٤- شَـــارِدَةٍ غَيـــدَاءَ مَـــا دَاؤُهَـــا        إلا اقتِنَـــاصُ الأَسَـــدَ الـــضَّارِي

(٩٢)

وقال: [من المتقارب]

١- وَمَن كَانَ نَـــاظِرُه حَـــارِسًا        لَـــهُ فَبَلائِـــيَ مِـــن نَـــاظِـــرِي

(٩٣)

وقال: [من البسيط]

١-هَلْ مِن شَفِيعٍ إِلى القَاضِي فَيَحْكُمَ لِي        عَلَى الشُّهُودِ فَقَدْ هَتَكْن أَسْتَارِي

٢- حَجَبنَ عَنِّي شَمْسًا لا تُعَادِلها        شَمْسُ النَّهارِ وَلا بَدرُ الدُّجَى السَّارِي

٣- يَفْتَرُّ عَن مَاءِ مُزْن في سَنَا لَهَبٍ        يَـا مَـن رَأَى جَنَّـةً تَخْتَـالُ فِي نَـارِ

(٩٤)

وقال: [من الطويل]

١- ولَمَّا دَعَاهَا صَائحُ البَينِ أَقْبَلَتْ        تَثَاقَـلُ والـدَّمْعُ المبَـادِرُ جَـارِ

٢- وَقَدْ حَالَ ذَاكَ الجُلَّنَارُ وَبُدِّلَتْ        مَغَارِسُـــهُ في خَـــدِّهَا بِبَهَـــارِ

٣- كَأَنَّ انحِدَارَ الدَّمْعِ فِي وَجْنَاتِهَا        نُجُـومُ لُجَـينٍ فِـي سَـمَاءِ نُـضَارِ

(٩٥)

وقال فيمن خلف وعدَه: [من مخلع البسيط]

١- يـــا شَـــادِنًا وَعْـــدُه يَـــسِيرٌ        وَقُفْـــلُ إِنْجَـــازِه عَـــسِيرٌ

٢- إنَّ المَوَاعِيـــدَ كَاللَّيَـــالِي        أَطْيَبُهـــا عنـــدَنَا القَـــصِيرُ

(٩٦)

وقال: [من الكامل]

١- يَنْمِي قَليلُ العِطرِ في أَعْطَافِهَا لـذكاءِ طِينتِهـا فَيَـشْمَلُ جارَهَـا
٢- شبَّتْ بقَلبي نَارُ وَجْدٍ أَوْدَعَتْ فَودِي وَمَا أُبتُقِلَ العِذَارُ شَرَارَهَا

[من قافية السين]

(٩٧)

وقال في جَارِيةٍ هندِيَّة صَفراء اللَّون: [من الخفيف]

١- إنْ أَكُن لَيْثَ غَابَةٍ فَلَقَدْ صَا دَ فُؤادِي خلسًا مَهَاة كناسِ
٢- بِأَدِيمٍ يَحْكِي السُّلافَ الذي تَحْـ ـكِيه في أَخْذِه عُقُولَ النَّاسِ
٣- صَنَمٌ صِيغَ لامتِحَانِ البَرَايَا مِن نُضَارٍ أَذْكَى مِن المِقْيَاسِ

[من قافية الشين]

(٩٨)

وقال في الشكوى: [من الطويل]

١- أُرَقِّعُ أَسْمَالَ الوصَالِ وَيَغْتَدِي بِتَخْرِيـقِ مَـا رَقَّعْتُـهُ مُتَحَرِّشَـا
٢- فَيُـذْكِرُنِي قَـولَ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدٍ إذَا أَنْتَ لم تَستحي فَاصنَع كمَا تَشَا

[من قافية الصاد]

(٩٩)

وقال يمدح: [من الطويل]

١- لَقَدْ كَمَّلَ الرَّحمنُ فَضْلَكَ في الوَرَى فَلا شَانَ شَيْئًا مِن كَمَالِكَ بالنَّقْصِ

٢- ومَنْ جَمَع الآفَاقَ في العينِ قَادِرٌ　　عَلَى جَمْعِ أَشْتَاتِ الفَضَائِلِ في شَخْصِ

[من قافية الضاد]

(١٠٠)

وقال في الحنين إلى أيام طفولته: [من الطويل]

١- ولا برحَ المَغْنَي الذي قُطِعَتْ بِهِ　　تَمَائِمُنَا رَحْبَ الجِنَانِ مُرَوَّضَا

[من قافية الطاء]

(١٠١)

وقال يشكو دهره: [من الوافر]

١- ألمْ تَرَ فِعْلَ دَهْري بي كَأَنِّي　　يَـــراعٌ حَظُّـــهُ بَـــرْيٌ وقَـــطُّ

٢- تَخَلَّلَ عَزْمَتِي أَيْدِي الرَّزَايَا　　كَمَـا يتَخَلَّـلُ الـوَفَرَاتِ مُـشْطُ

[من قافية العين]

(١٠٢)

وقال: [من الكامل]

١- أيخـافُ مِـن دَمْعِـي وَشَـاهِدِهِ　　رَشَـأٌ غَـدَا قَلْـبي لَـه مَرْعَـى

٢- هَيهـاتَ بَـينَ جَـوانِحِي شُـعَلٌ　　لَـم تُبْـقِ فيَّ دَمًـا ولا دَمْعَـا

[من قافية الغين]

(١٠٣)

وقال في ألثغ: [من مخلع البسيط]

١- لِـشقْوَتي بِـتُّ مُـسْتَهامًا　　بفـاترِ المُقْلَتَيْـنِ لاثِـغْ

٢- بــاكَرَني زائــرًا، ونــادَى     هأنـــذا قَـــد أتيـــتُ زايـــغْ

٣- قلتُ لَه: قَد صَدَقْتَ كرهًا     فـــارِفُقْ بقلـــبي ولا تبـــالغْ

٤- يــا مَــنْ إذا وُدُّه صَــفَا لــي     أصـــبحَ مِـــن لفظِـــه مُـــراوِغْ

[من قافية الفاء]

(١٠٤)

وقال: [من البسيط]

١- يا كاتبًا حُبُّهُ في القَلْبِ مُكْتَتَبٌ     ومَنْ تَكَلَّفْتُ فِيه ظُلْمَةَ الكَلَفِ

٢- لأَنْتَ في تَرْكِ وَصْلي وَهو مُفْتَرَضٌ     أَشَدُّ ظُلْمًا مِن الطّوْقِيِّ للألفِ

(١٠٥)

وقال في الجناس: [من المجتث]

١- يَا شَادِنًا فَاتَ في نَعــ     ــتِ حُسْنِهِ أَوْصَافِي

٢- جُدْ للمُحِبِّ بِوَعْدٍ     مُكَدَّرٍ أَوْ صَافِ

[من قافية القاف]

(١٠٦)

وقال في التوسل للمحبوب:

[من الخفيف]

١- قُلْ لِهِنْدٍ يا أحسنَ النَّاسِ خلقًا     حِينَ يُلْقَى وَأَقبح الناس خُلقَا

٢- أَلِذَنْبٍ أَعْرَضْتِ أَمْ شِئتِ تَعْذِيــ     ـبِيَ لَمَّا مَلَكْتِ نَفْسِي عِشْقَا

٣- فَأَقِلِّي فَمَا مَحَضْتُكُم الوُدْ     دِ لأنْ تَسْعَدُوا بِرِقِّي وأَشْقَى

٤- إنْ قَصَدْتِ النُّبُوَّ عَنِّي لِكَي أفْـ ـنى قَـصَدْتُ الـسُّلُوّ عنـكِ لأَبْقَـى

(١٠٧)

وقال في الغزل: [من البسيط]

١- وبَـابلِيٍّ إذا عَاتَبْتُـه رَشَـحَتْ خَـدَّاهُ زُورًا عَلَـى دَعْـوَاه أَوْ مَلَقًـا

٢- وَظَنَّنِي أَحْسَبُ الإعراقَ مِن خَجَلٍ وقـدْ أَطَـاعَ بـيَ الوَاشِـينَ وانطَلَقَـا

٣- وَإنَّمَـا نَفَـسِي نَـارٌ وَوَجْنَتُـهُ وَرْدٌ فَلَمَّـا دَنَـا مِنْـه جَـرَى عَرَقَـا

**الهوامش:**

* كليَّة الآداب- جامعة الطائف.

(١) **لسان الميزان**: لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م، ٣/٩٦-٩٧، و**ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٣م، ١/٥١٣، و**الإكمال**: لابن ماكولا، علي بن هبة الله (ت ٤٧٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م. ١/١٨٠، و**وفيات الأعيان**: لابن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ٩٦٤م، ٢/١١١-١١٣، و**الوافي بالوفيات**: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق لفيف من المحققين، دار نشر فرانز شتاينر، فيسبادن، نشر على سنوات متعددة. ١٢/١٩١، و**تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ٨/٣٩٨، و**خريدة القصر وجريدة العصر** (قسم شعراء العراق): للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد بهجة الأثري، بغداد، ١٩٦٤م، مج١، ج٤/٣٤٣-٣٥١، و**معجم الأدباء**: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي،

بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ١٧٧٦/٤، و**معجم الشعراء العباسيين**: إعداد الدكتور عفيف عبدالرحمن، جروس برس، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ١٠٢، وأورد الاسم مختصرًا، و**فوات الوفيات** والذيل عليها: لابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٣٤٩/١، و**الكامل في التاريخ**: لابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠)، بعناية: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م، ٣٨٥/٨، واختصر الاسم، و**مخطوط السفينة**: لابن مبارك شاه المصري (ت٨٦٢ هـ)، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، رقم ٤٧٧ أدب، ٨٣/٤، و**الشِّعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي**: لعلي جواد الطاهر، مكتبة الرائد، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ٢٥٣، و**أعيان الشيعة**: للسيد محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، مطبعة التعارف، بيروت، ١٩٨٣م، ٢١١/٥، وقال: (بادي) أو (باري).

(٢) **الأعلام**: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م، ٢٠٢/٢، و**معجم المؤلفين**: لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت. ٢٦٠/٣.

(٣) **هدية العارفين** (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون): لإسماعيل باشا البغدادي، اسطنبول ١٩٨١م، وأعادت طباعته دار العلوم الحديثة، بيروت لبنان، د.ت. ٢٧٦/٥.

(٤) **إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء**: للمنصور الأيوبي (ت ٦١٧هـ)، تحقيق: ناظم رشيد، بغداد، ط١، ٢٠٠١م، ١٧٧، ورجّح محققه كلمة: "بازي"، و**معجم الشعراء العباسيين** ٦٤.

(٥) **البداية والنهاية**: لابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله التركي، دار الفكر العربي هجر للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٨م. ٢٣/١٦.

(٦) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: لعبد الرحمن بن الجوزي (٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م. ١١٩/١٦-١٢٠.

(٧) **مخطوط السفينة** ٤/ ٨٣.

(٨) ينظر أيضًا **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**: عبد الله اليافعي (ت ٧٦٨هـ)، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٣/ ٦٤.

(٩) فهذا الاسم لم يرد في مصادر السلسلة الأولى إلا في **خريدة القصر وجريدة العصر** (قسم شعراء العراق) مج١، ج ٤/ ٣٤٣ -٣٥١، و**إخبار الملوك**، و**نزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء** ١٧٧، و**معجم الشعراء العباسيين** ٦٤، و**الشِّعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي** ٢٥٣.

(١٠) **مخطوط السفينة** ٤/ ٨٣.

(١١) **الأعلام** ٢/ ٢٠٢، و**معجم المؤلفين** ٣/ ٢٦٠.

(١٢) ينظر **معجم البلدان**: لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ٥/ ٣٤٧.

(١٣) **المنتظم** ١٦/ ١١٩-١٢٠.

(١٤) **البداية والنهاية** ١٦/ ٢٣.

(١٥) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: لابن تغري بردي الأتابكي (ت٨٧٤هـ)، قدّم له وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ٥/ ٨٦، وقال "ابن الأثير الجزري: إنه توفي عام (٤٦٢ هـ)". ينظر **الكامل في التاريخ** ٨/ ٣٨٥.

(١٦) **هدية العارفين** ٥/ ٢٧٦.

(١٧) **الكشكول**: لبهاء الدين العاملي (ت ١٠٣١هـ) تحقيق: الطاهر الزاوي، طبعة عيسى الحلبي، ١٩٦١م. ٢/ ٣٢٠.

(١٨) **الشِّعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي** ٢٥٤.

(١٩) **دمية القصر وعصره أهل العصر**: للباخرزي (ت ٤٦٧هـ)، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، دار الفكر، ١٩٧١م، ١/ ٣٤٢-٣٤٨.

(٢٠) **تاريخ بغداد** ٨/ ٣٩٨.

(٢١) **الوافي بالوفيات** ١٩٣/١٢.

(٢٢) **لسان الميزان** ٩٧/٣.

(٢٣) **تاريخ بغداد** ٣٩٨/٨، و**الوافي بالوفيات** ١٩١/١٢.

(٢٤) **لسان الميزان** ٩٧/٣، و**ميزان الاعتدال** ٥١٣/١، و**أعيان الشيعة** ٢١١/٥.

(٢٥) **الأعلام** ٢٠٢/٢، و**معجم المؤلفين** ٢٦٠/٣.

(٢٦) **معجم الأدباء** ٨٨/١، و**أعيان الشيعة** ٢١٠/٥.

(٢٧) **معجم الأدباء** ١٧٧٦/٤، و**فوات الوفيات** ٣٣١/٢.

(٢٨) **أعيان الشيعة** ٢١٠/٥.

(٢٩) **تاريخ بغداد** ٣٩٨/٨، و**لسان الميزان** ٩٧/٣، ويؤكد ياقوت ما ذهب إليه "أبو الجوائز" في قصة رواها. ينظر **معجم الأدباء** ١٧٧٦/٤.

(٣٠) **معجم السفر**: لأبي طاهر أحمد بن محمد السلفي (ت ٥٧٦هـ): تحقيق: عبدالله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ٤٤٨.

(٣١) **التدوين في أخبار قزوين** ٣٩٣/١.

(٣٢) **خريدة القصر وجريدة العصر** (قسم شعراء العراق) مج١، ج٣٤٣/٤-٣٥١.

(٣٣) **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**: لأبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ٣٢٢.

(٣٤) **تاريخ بغداد** ٣٩٨/٨.

(٣٥) **الإكمال** ١٨٠/١.

(٣٦) **وفيات الأعيان** ١١٢/٢، و**الأعلام** ٢٠٢/٢، و**معجم المؤلفين** ٢٦٠/٣.

(٣٧) **هدية العارفين** ٢٧٦/٥.

(٣٨) **دمية القصر** ٣٤٢/١-٣٤٨.

(٣٩) **إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء** ١٧٧.

(٤٠) **وفيات الأعيان** ١١٢/٢.

(٤١) **الإكمال** ١٨٠/١.

(٤٢) **دمية القصر** ١/٣٤٢-٣٤٨.

(٤٣) **خريدة القصر وجريدة العصر** (قسم شعراء العراق ) مج١ ، ج٤/٣٤٣-٣٥١.

(٤٤) **الأعلام** ٢/٢٠٢.

(٤٥) **تاريخ بغداد** ٨/٣٩٨، و**وفيات الأعيان** ٢/١١٢.

(٤٦) **المنتظم** ١٦/١١٩-١٢٠.

(٤٧) **الكامل في التاريخ** ٨/٣٨٥.

(٤٨) **إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء** ١٧٧.

(٤٩) **الوافي بالوفيات** ١٢/١٩٣.

(٥٠) **مرآة الجنان وعبرة اليقظان** ٣/٦٤.

(٥١) **الشِّعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي** ٢٥٤.

(٥٢) الرواية: (٢) ورد صدر البيت الثاني في المخطوطة هكذا: "وكذلك الجَوَارِحُ الزُّرْقُ لا تَعْـ"، والصواب ما أثبت.

(٤) وورد عجز البيت الرابع في المخطوط هكذا: "إذا استُودِعَت نُحُورَ الظِّبَاءِ".

ورد البيت الأخير في المخطوط ٤/٨٠ هكذا: "لا يوازي بلون السماء"، والبيت على هذا مختلّ.

الشرح: الزُّرَّق: "طائر يصاد به، بين البازي والباشق، قاله ابن سيده. وقال الفراء: هو البازي الأبيض. الجمع الزَّرَاريق وهو صنفٌ من البازيّ لطيفٌ، إلا أنّه أحرُّ وأيبسُ مِزاجًا، ولذلك هو أشدّ جَناحًا، وأسرعُ طَيرانًا وأقوى إقدامًا، وفيه خَتَلٌ وخُبثٌ، وخيرُ ألوانه الأسودُ الظَّهرِ، الأبيض الصدرِ، الأحمرُ العينِ". **حياة الحيوان الكبرى**: لمحمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠٠٥م، ٢/٤٨٠، و"جِنْحُ اللَّيْلِ: جانِبُه. وقيل: أَوّلُه. وقيل: قِطْعَةٌ منه نَحْو النِّصف". **تاج العروس** ٦/٣٥٢، و"السَّيْحُ: ضَرْبٌ من البُرُودِ، وبُرْدٌ مُسَيَّحٌ: مُخَطَّطٌ". **القاموس المحيط** (سيح).

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٨٠.

(٥٣) الرواية: (١) ورد عجز البيت الأول في **مخطوط السفينة** هكذا: "فَضْلاً يَبُذُّهُمُ إن شاء أو شاءوا".

(٢) وورد عجز البيت الثاني في **الدر الفريد** برواية: "ولا كُفَاةُ الوَرَى في الناس أكفاء"، وورد في **مخطوط السفينة** برواية: "ولا كُفَاةُ الوَرَى في الفجر أكفاء".

التخريج: البيتان في **مخطوط السفينة** ٤/٧٣، وهما في مطبوع **لمح الملح** ٢/٢١١، ومخطوطه الورقة ١٤، والبيت الثاني منهما في مخطوط **الدر الفريد** ٥/٤.

(٥٤) التخريج: **مخطوطة السفينة** ٤/٧١، وورد البيت الثاني فيه هكذا:

ومِنَ البَلِيَّةِ أنَّ قَلْبِي أَصْبَحَتْ    في أَسْرِ بَيْضَاءِ الحِمَى سَوْدَاؤُهُ

(٥٥) الرواية: (١) ورد عجز البيت الأول في **لمح الملح** مطبوعًا ومخطوطًا برواية: "في أباطيل عهدها في سَرَابِ".

التخريج: البيتان ١، ٣ له في **مخطوط السفينة** ٤/٧٠، والبيت الأول والثاني له في **لمح الملح** (مطبوع) ١/٢٩٥، و(مخطوط) الورقة ٣٨.

(٥٦) الشرح: السجائف: جمع سجف، وهو الستر. **تاج العروس** ٢٣/٤١٤، وقد قصد به الشاعر، ما تستر به هؤلاء النسوة وجوههن، و"الحَصَبُ، مُحَرَّكَةً، والحَصْبَةُ بفَتْحٍ فَسُكُونٍ: الحِجَارَةُ، وَاحِدَتُهَا حَصَبَةٌ، مُحَرَّكَةً كقَصَبَةٍ وهو (نَادِرٌ) وحَصَبْتُه: رَمَيْتُهُ بها، والحَجَرُ المَرْمِيُّ به حَصَبٌ"، وربما يكون الشاعر قد قصد أنّ هؤلاء النسوة كشفن وجوههنّ من أجل رمي الجمرات.

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٠، وقد سقطت كلمة القافية في البيت الثاني، وأضفتها، ولعلي أكون قد أصبت في إضافتها، وهي صورة طريفة في محاولة ربط الشاعر لون الخضاب وهو الأحمر بما كانت عليه أيامه ولياليه في الشباب.

(٥٧) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٤.

(٥٨) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٤، والكلمة بعد التصحيف هي كلمة "لغو".

(٥٩) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٧-٧٨، وكلمة "تبر" في صدر البيت الأول غير واضحة في المخطوط، ورجحتها لقربها من رسمها واستناد على قول نجيب الحداد:

ليالي عقدنا لابنه الكرم فاغتدت وحلتها تبر واكليلها در

ولم تتوجه لي الكلمة الأخيرة من صدر هذا البيت.

(٦٠) الشرح: قذع قَذَعَه، كمنعَه، قَذْعا: رَماهُ بالفُحْشِ، وسوءِ القول فيه". **تاج العروس ٥٢٦/٢١**، وعَنْقَاءَ مُغْرِبٍ: طَائِر مَعْرُوفُ الاسْم لا الجِسْم، وفي **الصَّحَاح** مَجْهُول الاسم. وقال أَبُو حَاتِم في **كِتَاب الطَّيْرِ**: وأَما العنْقَاءُ المُغْرِبةُ فالدَّاهِيَةُ، ولَيْست من الطَّيْر فيهما عَلمْنا". **تاج العروس ٤٧٥/٣**.

التخريج: **مخطوط السفينة ٨١/٤**.

(٦١) الشرح: عست: أي غلظت ويبست. **تاج العروس ٣٩/٣٩**.

التخريج: **مخطوط السفينة ٨٢/٤**.

(٦٢) الرواية: (١) ورد عجز البيت الأول في **دمية القصر** برواية: "تَسُوكُ بهِ الذلفاء مبسمها العَذْبَا".

(٢) وورد صدر البيت الثاني في **دمية القصر** برواية: "لئن سقيت مِنْه لقدْ زَارَ ثغْرَهَا"، وورد عجزه في **السفينة** برواية : "أراكًا يَبيسًا وانثَنى مندلا رضبا".

الشرح: الذلف: صغر الأنف. **تاج العروس ٣٢٠/٢٣**، وشعثت: من "تَشَعُّثِ رأْسِ المِسْوَاكِ والوَتِدِ: تَفَرُّقُ أَجْزَائِه". **تاج العروس ٢٨٤/٥**، أي تفرّق أجزائه من آثار احتكاكه بالأسنان.

التخريج: **مخطوط السفينة ٦٨/٤**، و**دمية القصر ٣٤٣/١**.

(٦٣) الرواية: (١) ورد عجز البيت الأول في **خريدة القصر**، و**إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء** برواية: "فاتر اللحظات بدرَ الغَيْهَبِ".

(٢) وورد عجز البيت الثاني في **إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء** برواية: "أذكت جمال شعاعه المتلهب".

الشرح: "الأصداغ: جمع الصدغ، وهو جانب الوجه من العين إلى الأذن والشَّعر فوقه، الغيهب: الظلمة، والعقرب: أحد بروج السماء الاثني عشر". هامش

**خريدة القصر**. وجعل الشعراء أثر على الشَّعر المتدلِّي فوق الخدود في قلوبهم مثل أثر لدغ العقارب.

التخريج : **مخطوط السفينة** ٤/٦٥-٦٦ ، و**خريدة القصر** مج١ ، ج٤/٣٥١، و**إخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء** ١٧٧.

(٦٤) التخريج : **مخطوط السفينة** ٤/٦٥ ، وورد صدر البيت السابع في السفينة هكذا : "وإذا صَحَا لم يَلقَ ما كان في"، والصواب ما تم إثباته لاستقامة الوزن.

(٦٥) الشرح : العُصْب : نبات اللبلاب. **تاج العروس** ٣/٣٧٥، و"الهَدَبُ مِن النَّبَاتِ: ما لِيْس بِوَرَقٍ، إلاَّ أَنَّه يقُوم مَقَامَ الوَرَقِ، وهذا عن أَبي حنيفةَ ؛ أَو كُلّ وَرَق لَيْس لَهُ عَرْضٌ، بفتح فسكون". **تاج العروس** ٤/٣٨٢، و"الجَرْعاءُ: رَمْلٌ يَرْتَفِعُ وَسَطُهُ، وتَرِقُّ نَوَاحِيهِ. وقالَ ابْنُ الأَثِيرِ: الأَجْرَعُ: المَكَانُ الوَاسِعُ الَّذِي فيه حُزُونَةٌ وخُشُونَةٌ". **تاج العروس** ٢٠/٤٣٠ ، و الجُدَيُّ: الغزال الصغير. **تاج العروس** ٣٧/٣٣٢.

التخريج : **مخطوط السفينة** ٤/٤٥.

(٦٦) الشرح : السَّمُراتِ: "شجر له بَرَمَةٌ صَفْرَاءُ يَأْكُلُهَا النّاسُ، وليس في العِضَاهِ شَيءٌ أَجْوَد خَشَبًا من السَّمُر، يُنْقَلُ إلى القُرَى، فتُغَمَّى بهِ البُيُوتُ، واحِدَتُها سَمُرَةٌ". **تاج العروس** ١٢/٧٧، الأَسَدَ الوَرْد: ذو لون وردي لما عليه من آثار الدماء. ينظر **تاج العروس** ١١/٤٢٩ ، ومُعْتَجِرَاتِ: ملتحفات. تاج العروس ١٢/٥٣٤ ، ومَطرورِ الشَّبَاةِ: أي صقيل الشفرة. ينظر **تاج العروس** ١٢/٤٢٢ ، ٣٨/٣٤٧، والكُمَاةِ: جمع الكَمِيُّ كغني: الشجاع الجرئ ، كان عليه سلاح أم لا أو لابس السلاح وفي **الروض**: الفارس الذي تستّر بالسلاح كالْمُتَكَمِّي، يقال: تَكَمَّى في سلاحه: إذا تغطّى به". **تاج العروس** ٢٩/٤١٨ ، والمَهاةُ: البَقَرَةُ الوَحْشِيَّةُ لبَياضِها، شُبِّهَتْ بالبلَّوْرَةِ والدُّرَّة. و المَهاةُ: البَلَّوْرَةُ التي تَبِضُّ من بَياضِها وصَفائِها، فإذا شُبِّهَتِ المرأَةُ بالمَهاةِ في البَياضِ فإنَّما أَرادُوا صَفاءَ لَوْنها، فإذا شُبِّهَتْ بها في العَيْنَيْن فإنَّما تَعْني البَقَرَة في حُسْنِ عَيْنَيْها" . **تاج العروس** ٣٩/٥٧٧ ، و"الرَّخْصُ، بالفَتْحِ: الشَّيْءُ النّاعِمُ اللَّيِّنُ". **تاج العروس** ١٧/٥٩٤ ، ومطلع قصيدة الشريف الرضي :

مَن مُعيدٌ لِيَ أَيّا		مي بِجَزعِ السَّمُراتِ

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٥١، وورد البيت الثامن عشر في **السفينة** هكذا: "الكروم"، والصواب ما تم إثباته لاستقامة الوزن، والبيت الثالث والعشرون مكرر لذا حذفته، والسيات تخفيف السيئات، وربما يحسن أن نقرأ البيت التاسع عشر هكذا: "سحقًا"، وورد صدر البيت الثاني والعشرين هكذا: "لكِ أطلقتُ بنَاتِ".

(٦٧) الشرح: شاج: محزن، الآبنوس: قيل هو الساسم، خشب هندي صلب، يضرب إلى السواد... المقبل: الفم". هامش **خريدة القصر**.

التخريج: **خريدة القصر وجريدة العصر** مج١، ج٤/ ٣٥٠، والبيت الأخير في **مخطوط السفينة** ٤/٧٧.

(٦٨) الشرح: "المَنْدَل: العُودُ الرَّطْبُ أو أَجْوَدُه". **تاج العروس** ٣٠/٤٧٣، وقصد الشاعر بالآبنوس الشّعر، وقصد بالعاج: فم المرأة، كما قال:

أيحسَبُ أَنَّني نـاجٍ		وبدرُ الهندِ لي شاجِ؟
بشَعـرٍ آبِنُوسِـيٍّ		له، ومُقَبَّـلٍ عـاجِ

التخريج: مخطوط السفينة ٤/٧٨.

(٦٩) الشرح: "المَسْك: بشرة الإنسان. ينظر **تاج العروس** ٢٧/٣٣١، و"اللُّفّاح كَرْمّان: نَبْتٌ يَقْطِينيٌّ أَصْفَرُ، يُشْبه الباذنجانَ طَيِّبُ الرائحةِ". **تاج العروس** ٧/٩١، وبارد النواح: بارد المحتوى، و"النحي: الزِّق". **تاج العروس** ٥/٣٥٥، ومستعر النواحي: أي مثير جذاب.

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٨. وقد قصر الشاعر الممدود في البيت الثاني، فجعل نقاء: نقا، وورد عجز البيت الرابع فيه هكذا: "وجِسْمُها مُسْعَرُ النّوَاحِي".

(٧٠) الشرح: الرَّدَاحُ: المَرأَةُ العَجْزَاءُ". **تاج العروس** ٦/٣٨٩، والنزيف: الذِي قَدْ نُزِفَ دَمُه. **تاج العروس** ٢٤/٣٩٧، والنشوان: السكران. **تاج العروس** ٤٠/٨٩.

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧٢، وورد البيت الثاني فيه هكذا:

ما شَكَرتُ الخِلخَالَ في قَصْدِهِ الكِتْـ		ـمان إلا شَكَوْتُ نَمَّ الوِشَـاحِ

(٧١) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/ ٦٨.

(٧٢) الرواية: (٢) وورد البيت الثاني في مرآة الجنان هكذا:

ولا تَبْغِ من دهر بظاهر ريقةً        صَفاءَ بَنِيهِ في الطِّبَاعُ جَوامِحُ

وورد في مخطوط لمجهول برواية: "ولا تَبْغِ من من دهر زيفه".

(٣) وورد البيت الثالث في **تاريخ بغداد** برواية: "وشيئان"، وورد في **الازدهار** برواية: "حَلالٌ وخِلٌّ في المودَّةِ نَاصِحُ".

الشرح: الرنق: الماء الكدر. **تاج العروس** ٢٥/ ٣٦٧.

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/ ٧٢، الأبيات في مجموع مخطوط لمجهول الورقة ٧، وهي له في **تاريخ بغداد** ٨/ ٣٩٨، و**وفيات الأعيان** ٢/ ١١١، و**فوات الوفيات** ١/ ٣٤٩-٣٥٠، و**مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان** ٣/ ٦٤-٦٥، و**الازدهار** ٤٣، ومجموع مخطوط **الازدهار** الورقة ٣.

(٧٣) الشرح: القَوَدْ: القصاص، فقد ورد في خطبة الوداع للرسول ﷺ: "والعمد قود"، أي القصاص في قتل العمد. والشاعر يقصد بالأُسود هنا: الرجال الشجعان.

برجُ الأَسَدْ: "برجٌ ثابتٌ مذكّر مشرقيّ من بروج الملوك توافقًا، وهو بيتُ الشمس، ربُّه بالنَّهار الشمس وبالليل المشترْي، ويشاركه بالليل والنهار زحل". **الأزمنة والأمكنة**: لأبي علي المرزوقي (ت ٤٢١هـ)، بعناية: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٤٨٠. قصد الشاعر بكلمة الشمس في البيت الثاني المرأة، وقصد بالكلمة ذاتها في البيت الثالث الشمس المعروفة.

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/ ٧٠.

(٧٤) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/ ٧١، ورسم البيت الثاني هكذا: "وما انقاد للحسن قبل الاءبا".

(٧٥) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/ ٧٥، وورد صدر البيت الأول فيه هكذا: "فسوَّد من مَلابسِهِ اعتمادًا".

(٧٦) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/ ٦٨.

(٧٧) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٦٨.

(٧٨) الشرح: بفرعك: أي بسلخك. **تاج العروس** ٢١/ ٤٩٢.

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٨٣.

(٧٩) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٨٠.

(٨٠) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٧٧، وورد عجزه فيه هكذا: "على خدِّهَا لفْحُ العَبيرِ عَلى النَّـدِّ"، واللفح يستعمل دائمًا في شدّة الحرِّ واللهيب.

(٨١) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٧٥، وورد عجز البيت الثاني فيه: "رياح شجوني للوُشَاةِ بمَا عِنْدِي"، وورد عجز البيت الثالث فيه هكذا: "دَمِي فشَرِبَت البَابليَّةُ عَنْ عَمْدِ".

(٨٢) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٦٦.

(٨٣) الشرح: الخَنَادِسِ: الظلمات الشديدة. **تاج العروس** ١٥/ ٥٦١، والبيت الرابع قريب من بيت جرير (ت ١١٠ هـ) القائل فيه:

تَعُلُّ ذَكِيَّ المِسكِ وَحفًا كَأَنَّهُ          عَناقيدُ ميلٌ لَم يَنلهُنَّ قاطِفُ

وبيت الشاب الظريف القائل فيه:

فَدعْنِي وَهَذا الخَدَّ أَعْصِرُ فِي فَمِي          عَنَاقِيدَ صُدْغَيْهِ وَحَسْبِي بِهِ حَسْبِي

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٦٤.

(٨٤) الرواية: (٢) ورد صدر البيت الثالث في **وفيات الأعيان** برواية: "أقول وجرس الحلي يمنع وصلها".

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٧٢، والبيتان ٣، ٤ في **خريدة القصر** (قسم شعراء العراق) مج١، ج ٤/ ٣٤٨، و**وفيات الأعيان** ٢/ ١١١-١١٣.

(٨٥) الشرح: الفند: الكذب. **تاج العروس** ٨/ ٥٠٥.

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/ ٨٢، وورد صدر البيت الأول فيه هكذا: "سَآتكُمْ تَقْليلُ مَوْهِبَتي".

(٨٦) الشرح: النصب: الجد والاجتهاد في الأمر. ينظر **تاج العروس** ٤/٢٧٠، وَالمِيسَمُ: المِكْوَاةُ أَوْ الشَّيْءُ الَّذِي يُوسَمُ بِهِ الدَّوَابُّ. وَفِي الحَدِيثِ: وَفِي يدِهِ المِيسَمُ، هِيَ الحَدِيدَةُ الَّتِي يُكْوَى بِهَا". **تاج العروس** ٣٤/٤٥.

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٨٣.

(٨٧) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٥٤.

(٨٨) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٥.

(٨٩) الرواية: (١) ورد صدر البيت الأول في **مخطوط السفينة** برواية: "أذكت مرآة الصبا في خده نارًا"، وورد عجزه في **خريدة القصر وجريدة العصر** برواية: "تهدي إلى وصله من ضل أو جارا".

الشرح: الزُّنَّار: ما يشدّه النصراني والمجوسي على وسطه. **تاج العروس** ١١/٤٥٢.

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٦٩، و**خريدة القصر** مج١، ج١/٣٤٨.

(٩٠) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٦٦.

(٩١) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٨، وورد صدر البيت الأول فيه هكذا: "لله روبي ونوبيَّةٌ".

(٩٢) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٠.

(٩٣) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٠.

(٩٤) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٦٩.

(٩٥) التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧١.

(٩٦) الشرح: الفود: جانب الرأس. **تاج العروس** ٨/٥١٠، وابتقل: أي رُعِي، من "ابْتَقَل القَومُ: رَعَتْ ماشِيَتُهم البَقْلَ". **تاج العروس** ٢٨/١٠٠، وهذا كناية عن الشيب.

التخريج: **مخطوط السفينة** ٤/٧٠، وعجز البيت الثاني فيه طمس ظاهر، وإهمال لإعجام الحروف، وحاولت توجيهه قدر الإمكان، فقد ورد هكذا: "فَودي وَمَا أَقَلَ العدار شرارَهَا".

(٩٧) الشرح: صنم صيغ لامتحان البرايا: أي أنّ المتغزّل به فائق الجمال، فاتن الأوصاف، وقد درج شعراء العربية على التعبير عن الجمال الفائق بالصَّنم، كما قال الشاب الظريف:

صَنَمٌ ناطِقٌ هُداي غَرامِي    في هَواهُ والعَذْلُ عِنْدِي ظِلالَهْ

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧٧.

(٩٨) الشرح: أسمال: ما تمزّق، وتقطّع. ينظر **تاج العروس** ٢٩/٢٢٣، وورد نص الحديث في **الجامع الصحيح المختصر**: لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٩٨٧، ٥/٢٢٦٨، هكذا: "حدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا منصور عن ربعي بن حراش حدثنا أبو مسعود قال: قال النبي ﷺ: إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت".

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧٢، ويلحظ أنّ الشاعر ترك حذف الياء من الفعل المضارع في عجز البيت الثاني ضرورة،

(٩٩) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧٥، والبيت الأخير مأخوذ من القول المشهور لأبي نواس:

وَلَيسَ اللَهِ بِمُستَنكِرٍ    أَن يَجمَعَ العالَمَ في واحِدِ

(١٠٠) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٥٢.

(١٠١) الشرح: اليراع: القلم. **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م، ١٠٦٤، القط: القطع. **تاج العروس** ٢٠/٣٥، الوفرات: والوَفْرَة: الشَّعرُ المُجتمِعُ على الرأس، أو ما سال على الأُذُنَيْن منه، أو ما جاوَزَ شَحْمَةَ الأُذُن". **تاج العروس** ١٤/٣٧٢.

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧٢.

(١٠٢) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٦٩.

(١٠٣) الرواية: (٣) ورد صدر البيت الثالث في **خريدة القصر وجريدة العصر مخطوط السفينة** هكذا: "فقلت له: قد صدقت كرهًا".

(٤) وورد صدر البيت الرابع في المصدر نفسه برواية: "يا مَنْ إذا سره صَفَا لي".

الشرح: زائغ: زائر. **خريدة القصر وجريدة العصر**.

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧٧، و**خريدة القصر وجريدة العصر** مج١، ج٤/ ٣٤٥.

(١٠٤) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧٣، وورد صدر البيت الأول فيه هكذا: "يا كاتبًا حبّه في القلب مكتئب".

الشرح: لعلَّ معنى قول الشاعر: "أَشَدُّ ظُلْمًا مِن الطّوْقِيِّ للألفِ" في عجز البيت الثاني أنّ الألِف مظلومة لأنه كمال قال البغدادي في **خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب**: لعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٠م، ٨/٣٠٥: "وأمّا الألِف الخالصة فليس في الطوق أن ينطق بها بعد غير الفتحة الخالصة".

(١٠٥) الرواية: (١) ورد البيت الأول في **لمح الملح** برواية:

يا شادنًا فات في حسـ ـن وعده أوصافي

التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٦٩، و**لمح الملح الورقة** ١٣٨، ص٢/٦٤٧.

(١٠٦) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٧١.

(١٠٧) التخريج: مخطوط **السفينة** ٤/٦٦.

# اللغة العربية وسؤال العصر التكنولوجي

بقلم: د. سمر الديوب*

**١ – مقدمة**

اللغة هوية الأمّة، وذاكرتها. تصل الحاضر بالماضي، وتطلُّ من الحاضر على المستقبل، أداة لاستيعاب ثقافة الأمّة، وفكرها، وسجلٌّ لحضارتها. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنّ تقدُّم اللغة، أو تأخرها يوازي تقدم الأمّة، أو تأخرها.

ولكل لغة جوانب فريدة تميّزها من باقي اللغات. ولغتنا العربية غنيّة جدًّا بالمخزون الثريّ والجوانب البلاغية، والمرونة، وتعدّد أصناف الاشتقاق، والنحت، والقدرة على استيعاب العلوم والمعارف. وليس هنالك أجمل من الاطلاع على ثقافة الآخر، وأخذ المفيد منها، شرط الاحتفاظ بالخصوصية الثقافية، والهوية. فنجاحُ الأمّة مرتبط بإدراكها قدراتِها الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية.

ولعل ما جرى من تطورات هائلة في نهاية القرن العشرين، ومطلع الألفية الثالثة يدعونا إلى وقفة تأمّلية نكتشف من خلالها واقع اللغة

العربيـة، وكيفيـة النهـوض بالفعـل المطلـوب مـن أبنائهـا لمواكبـة معطيـات العصر التكنولوجي.

**٢- خطة البحث، وهدفه**

يهـدف هـذا البحـث إلى دراسـة واقـع اللغـة العربيـة في ضـوء التطـور التكنولوجي، والفعل الـذي يجـب أن يقـوم بـه أبناؤهـا في مواجهـة التطـور الهائل الذي يشهده القرن الحادي والعشرون؛ إذ يبدأ البحث بحديث عـن مـشكلة المعـاجم، ويبحـث في كيفيـة الإفـادة مـن الـشابكة في تعلـيم اللغـة العربيـة بالطريقـة التواصـلية، وإدخـال أحـدث الوسـائل التكنولوجيـة في خدمة اللغة العربية.

ولعل من أهم الأسئلة التي سيثيرها البحث هل اللغة تـصنع الفكـر، أو أنها نتاج منه؟ ما التحـديات الـتي تواجه اللغـة العربيـة والنـاطقين بهـا؟ مـا موقف الناطقين باللغة العربية أمـام ثقافـة العولمـة الغربيـة؟ هـل هـو موقـف الانبهار؟ أو موقف الخوف، والحذر؟ مـا سـبل النهـوض بالفعـل المطلـوب من أبناء لغة الضاد لخدمة مصلحتها، ولخدمة مشروعها الثقافي؟ مـا الآليـة التي يمكن أن نطبقها لنحصل على نتائج موضوعية متعلقة بمستقبل لغتنـا؟ مَن الجهات المطلوب منها التفاعل مـع هـذه المـشكلة؟ وكيـف يمكـن لهـا أن تتفاعل معها بهـدف الوصـول إلى النتـائج المرجـوة؟ وهـل التعريـب عمليـة ترجمـة مفـردات، أو اسـتيعاب مفـاهيم؟ كيـف يمكـن للغـة العربيـة أن تستوعب ما لدى اللغات الأُخَر، وتضيف جديدًا إليها، وتعزز ثقة أبنائها

بها؟ وكيف يمكن الإفادة من معطيات العصر التكنولوجي لتطوير اللغة العربية؟

إنّ أسئلة العصر التكنولوجي مناطة بأسئلة الكم والكيف الآلي لمعالجة اللغة العربية من جهة أولى؛ ومن جهة ثانية: قصور هذه المعالجات حتى يومنا هذا في التقريب المستمرّ والدؤوب بين أسئلة العقل الآلي الممكنة وأسئلة العقل اللغوي الحياتية.

ولا يدعي البحث الجدة في موضوعه، فقد سبقته دراسات تناولت أفكارًا تتعلق بفكرة البحث لكن هذا البحث يحاول التعمق في هذه الأفكار والانطلاق منها إلى أفكار أُخَر. ويحاول أن يثير مجموعة من الأسئلة إيمانًا منّا بفاعلية ثقافة السؤال.

**٣- مشكلة المعاجم العربية واقتراحات تطويرها**

تزخر مكتبتنا العربية بمعاجم متنوّعة تشهد للعرب بالسبق والتميّز في مقام تأليف المعاجم. حتى إنّ كثيرًا من الغربيين قد انبهروا بهذا التفوّق. قال هاي وود "Haywood" إنّ العرب في تأليف المعاجم يحتلّون مكان المركز سواء في الزمان أو المكان، وفي العالم القديم والحديث، وفي الشرق والغرب[(١)].

وتقتضي صناعة المعاجم الاهتمام بالمفردات والدلالة. فللمفردات قيمة دلالية ذاتية، وأخرى إيحائية مجازية تستنبط من السياق. فينبغي الإلمام -من أجل تأليف المعاجم- بالصناعة المعجمية التي تعني فن عمل المعاجم اللغوية.

ولا يمكن لهذا الأمر أن يتمّ بمعزل عن دراسة تاريخ المفردات، وعلـم الدلالـة؛ لذا يمكن أن نعدّ "صناعة المعاجم فرعًا من علم دراسة المفردات"[٢].

فينطـوي المعجـم علـى كلمـات متكلّمـي اللغـة عامـة. والمفـردات هـي مجموع الكلمات المستخدمة في سياق مـا. المعجـم إذن أوسـع مـن المفـردات لكنه لا يتمّ إلا بها. ويرى كثير من علماء اللغة أننـا نـستطيع تحليـل المجتمـع انطلاقًا من مفردات لغته. فالمعجمية في نظر جورج ماتوري "علم مجتمعي، أو علم دراسة المجتمع يستعمل الأدوات اللسانية التي هي الكلمات"[٣].

ونقترح من هذه الورقة البحثية بعض الأفكـار مـن أجـل تطـور المعـاجم مثـل وجـود سلـسلة عموديـة مـن المعلومـات اللـسانية، أو العنوانـات الـتي ترتب ترتيبًا هجائيًّا، وإيجاد برنامج معلومـات عـن هـذه المداخل. فليست المعلومات نصًّا كاملاً للقراءة، بل معلومات تعبر عن شيء ما. فثمة مكون خطي وصوتي، ومكون نحوي، وآخر دلالي.

إنّ المعاجم العربية القديمة على عِظم فائـدتها، وأهميتهـا ظلـت قاصـرة عـن مواكبـة النهـضتين العلميـة والفكريـة اللـتين تـشهدهما الـبلاد العربيـة. ونحن في هذا الوقـت في أمـس الحاجـة إلى معجـم حـديث يـضاهي المعـاجم الأجنبيـة، فيتـسع لمـصطلحات الفنـون، والأدب، وألفـاظ الحـضارة الـتي شهدتها البشرية فيما مضى.

ولكي يتحقق هذا الهدف ينبغي إغناء المعجم العربي بما حفل به التراث اللغـوي القديم استنـادًا إلى الخصائص العربيـة، وقابليتها للمرونـة. فيستوعب

كل جديد يتطلبه علم، أو فن. ولا مشكلة في أن يحتوي هذا المعجم لفظًا مولدًا، أو معرّبًا، أو دخيلاً ما دام خاضعًا لقواعد اللغة التي وضعها العلماء العرب. فقد احتوت معاجم أجدادنا العرب كثيرًا من مصطلحات عصرهم، منها ما هو أصيل، ومنها ما هو من اجتهادات اللغويين.

إننا في حاجة إلى معجم ينطلق من التراث، ويضيف إليه جديداً. فقد دخلت معظم اللغات عصر المعاجم الحديثة، وأصبحت تفي باحتياجات مستهلكي الثقافة، والعلوم. وليست القضية قضية كثرة مفردات، بل تتعلق بالمعجم الذي يحتاج إليه طالب العلم. فيتم الاهتمام بالكلمات آخذين بعين الاعتبار الكلمة العادية، والكلمة العلمية والتقنية، والكلمة الأجنبية، والكلمة الشعبية، والملحونة؛ لمعرفة أصولها العربية، وإعطاء دلالاتها، والمستويات المختلفة للاستعمال، وأصول الكلمات، وتاريخها، والتطور الدلالي مستشهدين بشواهد لها وظيفة تواصلية.

إننا نحتاج أيضًا إلى معجم تاريخي للغة العربية، نستطيع أن نتعامل من خلاله مع الكلمة بوصفها كائنًا له شجرة عائلة، وجذور. فقد استعارت اللغة العربية من غيرها، وأعارت غيرها، ولا عجب في ذلك فالكلمات تسبح عبر اللغات، وكثير من الكلمات العربية هاجرت إلى معاجم لغات أخر. وتجدر الإشارة إلى أنّ المستشرق فيشر كان أول من دعا إلى تطبيق هذه الفكرة موازاة بنظائرها من اللغات. وتقوم المعالجة التاريخية للغات الأوربية بوضع مسرد للكلمة التي عنت فيما سبق معنى ثم تم تغيير هذا المعنى في قرن

تالٍ. فكلمة الشوارب على سبيل المثال كانت تعني عروقًا في الحلق تشرب الماء، أو مجاري الماء في العنق، وحمار صخب الشوارب أي شديد النهيق، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في وصف الحمار الوحشي:

صَخِبُ الشوارب لا يزال كأنه عبدٌ لآلِ أبي ربيعةَ مسبَعُ

وقيل الشوارب عروق باطن الحلق(٤). أمّا المعنى الحديث فبعيد عن هذا المعنى البعد كله.

مشكلة معاجمنا أنها تحيل إلى مرجعية جاهلية، وعلى أبعد حد صدر الإسلام. والأدب العربي حافل بالكلمات الأجنبية التي تتحدث عن شؤون الحياة، ولكن لا مرجع لها. ووضع معجم ليس من صنع فرد وحده، ولا يمكن أن يقوى عليه فرد؛ لذا نحتاج إلى وضع مسرد معجمي للكلمات السابحة إلى اللغة العربية التي تبدو كلمات لقيطة لا عائلة لها. ومن هذه الكلمات كلمة السياسة التي يقول اللغويون إنها من الفعل ساس يسوس(٥) ويُظن أنّ هذه الكلمة عربية في حين أنّ العودة إلى المعاجم تكشف بسهولة أنها ليست كذلك. فالفعل ساس مشتق من اللغة السريانية من كلمة سوسيه التي تعني الحصان. ويظن أنّ جنكيز خان مخترع كلمة السياسة، فقد أوجد في المغولية كلمة سِه ياسِه التي تعني الشرائع الثلاث التي تستبقي الحكم، وينتخب فيها الخاقان الجديد، وقد دخل هذا المعنى إلى العربية فظن العرب خطأ أنه من الفعل ساس يسوس، وضاع الأصل. وبناء على هذا الكلام نجد أنّ ثمة حاجة ماسة إلى معجم تاريخي للغة العربية يوضح أصول الكلمات، وجذورها، وسباحتها عبر اللغات.

### ٣-١ – التجربة السورية في وضع المعاجم والتعريب

يعدّ المصطلح من أكثر الألفاظ التي تحتاج إلى تحديد ؛ لأنّ غموضه يؤدّي إلى الفوضى والاضطراب. وقد أصبح معروفًا التخبطُ في وضع المصطلحات المعرفية من ذلك مثلاً ترجمة بعضهم كلمة : Intuition بكلمة حدس ، وقد ترجمها بعضهم الآخر بالبداهة ، أو الاكتناه ، أو الاستبصار. كما ترجم بعضهم كلمة : Conscience بالشعور ، كما ترجمها آخرون بالوعي(٦). وقد كان سبب فوضى المصطلح غياب التنسيق بين الجهات المعنية بوضع المصطلحات ، والجهود الفردية في وضعها. وقد أعاد بعض الباحثين(٧) سبب الفوضى إلى جهل الواضعين لها ، وتعددهم ، وتعدد مناهجهم ، وغياب وسائل النشر المصطلحي الفعالة ، والجهل بالمصطلحات التراثية الحديثة ، واختلاف الخلفية الثقافية واللغوية للمترجمين ، وغياب التنسيق العربي الفعال في ميدان المصطلحات حتى في البلد الواحد ، وغياب الالتزام الصارم والدقيق من المؤلفين.

وقد كان لسورية تجربة في وضع المصطلح قد يكون من المفيد التوقف عندها ؛ لتلمس نواقص هذه التجربة ، من أجل تلافيها.

عمل مجمع اللغة العربية السوري منذ نشوئه عام ١٩١٩ على خدمة اللغة العربية. وقد نصّ أهم بنود إنشائه على أن يكون التعليم في الجامعات السورية باللغة العربية ، وأن يعمل المجمع على مدّ الجامعات بما يفيدها من تيسيرات تعريبية. وحين اهتمّ الأساتذة بالتعريب انطلقوا من فكرة أنّ

استعمال المصطلح هو الذي يعمل على توحيده[٨] فكان ثمة اهتمام بتدريس اللغة العربية في الجامعات السورية بفروعها كافة، والتدريس باللغة العربية في الوقت نفسه. كما تم اعتماد خطة شاملة للتعريب. وقد عولج كل خطأ بالتدريب، والتوجيه، والمعايشة، وتحسين اللغات الأجنبية.

ويعدّ تعريب الطب في مقدمة أولويات المعربين. وقد قامت نظرتهم على أساس أنّ لكل معنى في الذهن لفظ باللغة العربية، ولو كان كامنًا في أغوار معاجمها. كما وضعت معاجم للمصطلحات الدبلوماسية[٩] وقد اشتمل هذا المعجم على أربع مئة مصطلح. وتم رصد لغة القانون[١٠] مراعين الخصوصية التي تتسم بها اللغة العربية من ليونة، فاشتقّوا صيغًا من أبواب الثلاثي، وأسماء الأعيان ثلاثية الأصول للمكان الذي تكثر فيه الأعيان مثل مَلْبَنَة، ومَزبَدة، ومبْقَرة... ونسبوا إلى جمع التكسير مثل شعوري، وأخلاقي، ووظائفي...

كما وضع معجم للمصطلحات الطبية[١١]، واشتمل على ١٤٥٣٤ مصطلحًا. واعتمد المترجمون على انتخاب الكلمة العربية الموافقة للمعنى أولاً وإن كان للكلمة ترجمة سابقة صحيحة تم إثباتها، أو كان لها مرادفات تم إثباتها. كما أدرجوا بعض الأوزان المخصصة قديمًا؛ لإيضاح بعض المعاني كوزن فَعَل للدلالة على المرض كالفَيَل لداء الفيل، ووزن فعولية، وفوعل في ترجمة الكلمات المنتهية بـ Ablle Abilite فقالوا: ردود وردودية. ولم يلجؤوا إلى التعريب من الكلمات المعربة إلا عند

الضرورة القصوى، فقالوا: البسترة. ونحتوا بعض الكلمات، وأبقوا على أكثر أسماء الأدوية الكيماوية، والمصطلحات الكيماوية على حالها غالبًا.

وقد وضع جميل صليبا المعجم الفلسفي. وقد أفصح واضعه عن أنّ طريقته كانت في البحث عن اصطلاح مستعمل للدلالة على المعنى المراد ترجمته، والبحث عن لفظ قديم يقرب معناه من المعنى الحديث، ومراعاة قواعد الاشتقاق العربي كأن يطلق لفظ الاستبطان للدلالة على Introspection ولفظ التكيف، أو الموافقة للدلالة على Adaptation وهي أمور لم يفعلها القدماء. وقد اقتُبس في بعض الحالات اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يصاغ صياغة عربية. وهو ما يطلق عليه اسم التعريب كقولنا ديمقراطية في ترجمة Democracy.

كما صدر معجم للرياضيات المعاصرة(١٢) تم من خلاله تتبّع المصطلحات الرياضية، ووضع مقابلات عربية لها بالطريقة نفسها.

ووُضع معجم مصطلحات العلوم الفيزيائية(١٣) المستعملة في الجامعات السورية تمهيدًا لتوحيدها في الوطن العربي كله. وهو معجم ثلاثي اللغات، يعرّف المصطلحات، ويشتمل على الأصول اللاتينية واليونانية للمصطلح إن وجدت. وأهم ما في هذا المعجم اختيار المصطلح الموحد ما يساعد على توحيد المصطلحات في الوطن العربي كله. فقد جمعوا مصطلحات علم الفيزياء من الكتب الجامعية، وكانت قرابة ٧٦٥٠ مصطلحًا فنظمت في جداول حسب اللغات، فأُثبت جدول للمصطلح الذي

اختارته اللجنة، وآخر مقابل للمصطلح في هيئة الطاقة الذرية السورية، وآخر لمصطلحات مكتب التنسيق والتعريب بوصفها موحدة في الوطن العربي كله.

كما تم إصدار نسخة منقّحة مع تعريفات موجزة بالمصطلحات التي رتّبت في معجم بمدخل إنكليزي يعتمد الترتيب الهجائي الإنكليزي لحروف الكلمات، ورقمت على وفق أرقام متسلسلة تعطي رقمًا لكل مصطلح.

ومن المفيد أن نذكر أنّ المجمع العلمي العربي بدمشق قد عرّب في بداية عهده في عشرينيات القرن الماضي ١٤٧ كلمة لمصطلحات أجنبية، أو عامية، أو عربية أعاد النظر فيها. والذي يهمنا هو الكلمات التي وضعها مقابلة للمصطلحات، أو الألفاظ الأجنبية من تركية، وفرنسية. وقد بلغت هذه المقابلات ٧٨ كلمة، أو مصطلحًا شاع منها ٤١ كلمة منها[١٤]:

| | | | |
|---|---|---|---|
| بوليس | شرطة | رابور | تقرير |
| سيكاره | لفافة | تلفون | هاتف |
| جيلاتين | هلام | ورق بول | طابع |
| جاكت | رداء | باسبورت | جواز |
| أسانسور | مصعد | بنطالون | سروال |
| نمرو | رقم | كادر | مِلاك |

وبذلك تكون نسبة شيوع الألفاظ المعربة ٥٢٪ وهي نسبة مقبولة. ولعل من أبرز العوامل التي أدت إلى شيوع هذه الألفاظ اعتدال عدد أحرف

الكلمـــة، وســـهولة نطقهـــا، ووضـــوح دلالتهـــا، واعتمادهـــا إداريًّـــا وتعليميًّا[١٥].

يمكن أن نستنتج من التجربة السورية في وضع المعاجم أنه يجب إشراك المثقفين في نشر المصطلح، وتكريس مقرر يدرّس أسس وضع المصطلحات العلمية في الجامعات. كما نجد أنّ ثمة ضرورة تتمثل في إلزام الحكومة الجهات المعنية بقرارات مجامع اللغة العربية، وتوصياته، ومقترحاته. وتوحيد المصطلحات على المستوى القومي، وتوزيع المسؤوليات على الجامعات، ودور النشر، والإعلام، ومؤسسات الترجمة، والمنظمات العربية والإقليمية والدولية.

**٣-٢- مشكلة التعريب "الترجمة والمصطلح"**

من أهم ما تعانيه اللغة العربية في واقعها اتهامها بالقصور عن مواكبة التطور العلمي. والحديث عن المصطلح العربي في عصر العولمة متصل بالبحث العلمي، والرغبة الجادة في التصدي له. ومن اتهم العربية بالقصور هل فكر بأنّ اللغات الأخر لم يكن لها عهد بالمكتشفات الحديثة قبل اختراعها؟! فإن استطاعوا وضع المصطلح أو تعجز العربية عن ذلك؟!

ولا يعني التعريب الانغلاق على الإطلاق إنه يعني إعادة الاعتبار للغة العربية، والاعتماد عليها في إجراء الأبحاث العلمية، والتأليف، وجعلها لغة العلم في المدرسة، والجامعة، والمؤسسات الحكومية التابعة للدول[١٦].

وبما أنّ اللغة تحيا بالاستعمال وجب أن يرتبط التعريب بالاستعمال، وقد سعت كثير من الدول المتقدمة إلى تدريس العلوم بلغاتها الأمّ، وبلغت مرحلة الرقي، والتطور؛ لأنها عملت على استعمال لغاتها في التدريس، والبحث العلمي، وخير مثال على ذلك تجربة اليابان، وتركيا.

ولابد من التركيز على أنّ التعريب عملية تعني استيعاب المفاهيم، لا ترجمة المفردات. لكن الذين تكلّموا على الحضارة، والتقانة شغلوا باستهلاكها أكثر مما شغلوا بكيفية صنعها، أو بجعلها محتواة ضمن اللغة الأمّ.

ويرتبط التعريب بفلسفة اللغة بعلاقة وثيقة كما يرتبط بحاجات المجتمع، ورغبته في التطور. لكن الملاحظ أننا في عصر العولمة قد خسرنا قيماً نتيجة الحملات الاستعمارية المتوالية على أمتنا العربية، وعزز هذا الأمر لدينا روح الاستهلاك، والتقليد، لا الإبداع، فأصبحنا في حاجة ماسة إلى تعريب العربي قبل تعريب المصطلح. ولغتنا العربية لغة نامية، تتبع الحياة، وتحتاج إلى إنسان يطورها؛ لذلك يجب العمل على تطويره أولاً، ويجب أن يبدأ التعريب من المعرِّبين -أهل الاختصاص العلمي- لا من اللغة. فقد سعى مجمع اللغة العربية إلى وضع مرادفات عربية لكلمات أجنبية مستعملة، فلم تكن أغلب هذه المحاولات مجدية. فحين أرادوا مثلاً ترجمة Sandwich ترجموها بـ الشاطر والمشطور والكامخ بينهما*. فما قيمة هذه الترجمة؟ ومن الذي سيستخدمها بدلاً من كلمة بسيطة؟

وقس على ذلك... يضاف إلى ذلك أنّ دورها جاء متأخرًا جدًّا، ويتسم بالبطء الشديد جدًّا؛ لاعتمادها على أفراد قلائل من غير توسيع دائرة الاهتمام، والتفعيل.

وكان السوريون رواد التعريب الجامعي، والأطباء السوريون يتلقّون علومهم بالعربية، ويبدون تفوّقًا في الاختبارات التي يجرونها للالتحاق بالدراسات العليا في الجامعات الأوربية، والأمريكية.

يحتاج التعريب إلى قرار سياسي، ومنهجية صحيحة واحدة في طرائق العمل والاستفادة من الإمكانات الحقيقية للغة العربية من نحت، واشتقاق....

ويبقى السؤال: هل اللغة تصنع الفكر أو أنها نتاج منه؟ هل تقيّده أو تحرره؟ يرى د. نبيل علي(١٧) أنّ العلاقة بين اللغة والفكر تبادلية؛ إذ يمكن للفكر أن يصبّ في وعاء اللغة، ويمكن له أن يرتقي باللغة، ويمكن للغة أن تكون قيدًا للفكر، أو تحريرًا له، فقد عرفت اللغة بأنها الاستخدام غير المحدود لوسائل محدودة.

يعني هذا الكلام قدرة اللغة على استيعاب المصطلح، وترجمته بشكل يتناسب وقدرتها على الاستيعاب، فقد استعمل حنين بن إسحاق لدى ترجمته العلوم مصطلحات عربية مستفيدًا من طاقات العربية، وقدرتها على التوليد. لكن ثقافة العولمة المهيمنة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بثقافة الاستهلاك، وهذه الثقافة تُشعر المستهلك أنه غير قادر على مواكبة التطور الحضاري، والعلمي، وأنّ لغته عاجزة عن مسايرة المصطلح الجديد، وتعريبه؛ لأنها ثقافة نخبوية توجه خطابها من أعلى إلى أدنى.

وليس هناك لغة أغنى من لغة أخرى، أو أفقر -كما يرى جون ليونز[١٨]- وحين تتغيّر احتياجات مجتمع ما فإنّ لغته سوف تتغير تبعًا لذلك؛ لكي تفي بالأغراض الجديدة. فتتوسع المفردات إمّا باقتراض كلمات من لغات أخر، أو بخلق كلمات جديدة من كلمات موجودة في اللغة نفسها، ولا يعني افتقار اللغة إلى الكلمات الجديدة العلمية، والتكنولوجية أنها أكثر بدائية من اللغات التي تتوافر فيها تلك الكلمات. ويعني ذلك أنّ المشاركين في تطوير العلم، والتفنية لم يستعملوا تلك اللغات بعد. إنّ مشكلة التعريب والمصطلح الحديث تكمنان في الأخذ بأقصر السبل للتعامل مع العلوم الحديثة لظننا خطأ أنّ لغتنا لم تعد صالحة لاستيعاب العلوم الحديثة؛ لذلك نتعامل مع المصطلح بلغة الأجنبي. ولكي يتمّ التعريب يجب أن نطّلع على ثقافة الآخر، ونسايره، ثم نتجاوزه فيما بعد.

وتعدّ قضية المصطلح اللساني قضية غير بعيدة عن قضية المصطلح عامة، والمصطلح العلمي خاصة. ولا عجب في ذلك ما دامت اللسانيات قريبة إلى العلم أكثر من قربها إلى مقام آخر. وتعجّ كتب اللسانيات بفوضى عارمة تنبئ عن عدم فهم هذا العلم فهمًا صحيحًا.

وتتصل هذه المشكلة بمشكلة التعريب الذي يعني تطويع المصطلح لمواءمة الذوق العربي في النطق؛ أي صقل اللفظ الأجنبي، وإخضاعه لنهج العربية، وإعطاؤه جنسية لغوية عربية[١٩].

ولا تعني هذه المشكلة إيجاد المقابل العربي للمصطلح اللساني فقط؛

ذلك أنّ للفظة معنيين: معنى متواضعًا عليه، وآخر اصطلاحيًّا ودلاليًّا. ولكي يتمَّ التوصل إلى المعنى الاصطلاحي ينبغي الإلمام بألفاظ الحياة عامة: اجتماعيًّا، وحضاريًّا، ولغويًّا، وعلميًّا.

وليس هنالك أفضل من مصطلح اللسانيات للدلالة على التخبط الشديد في الفوضى المصطلحية. فقد عُبِّر عنه بـ"اللانغويستيك" وفقه اللغة، وعلم اللغة، واللسانيات، واللّسنات إلى أن وضع د. عبد السلام المسدِّي كتابه "**قاموس اللسانيات**" عام ١٩٨٤م محاولاً أن يوحّد العرب على مصطلح واحد "بعد أن توزعته سبل الاستعمال، فصاغ له الصائغون من العبارات ما يناهز العشرين"[٢٠] لكن التخبط لا يزال موجودًا. فقد صدر عدد كامل من مجلة "**عالم الفكر**" ١٩٨٩م بعنوان الألسنية. وافتتح د. أحمد مختار عمر العدد ببحث بعنوان "المصطلح **الألسني** وضبط المنهجية"[٢١]، وقد أجمع غالبية النقّاد العرب على مصطلح اللسانيات؛ لاتسامه بالاتساق، والتجريد العالي، وشمولية التصور[٢٢] لكن هذا التخبّط موجود بقوة. وغير بعيد من ذلك ترجمة Morpheme بـ مورفيم، ووحدة صرفية، وصرفية مجردة.. وإذا انتقلنا إلى عالم المصطلحات السيميائية وجدنا الأمر عينه. فمصطلح التشاكل والتباين "Isotopie and Allotopie" -على سبيل المثال- ناله ما نال غيره من فوضى الترجمة. فقد تُرجم ترجمات متعددة منها: تشاكل، ومشاكلة، وإيزوطوبيا، وتناظر موضوعي، أو دلالي، ومحور تواتر، وتكرار وحدات

لغوية. كما حاول بعض النقاد ربط هذا المفهوم بالمفهوم التراثي العربي، فذهبوا بالمصطلح مذهبًا ذاتيًّا، وجعلوا منه مجرد مفهوم إيقاعي تظهره البنية الصوتية، والخصائص البديعية للنص الأدبي.

ويرتبط بهذه المشكلة مشكلة ذات صلة بها هي رسم أسماء الأعلام. فجاكبسون "Jacobson" ترجم إلى ياكبسون، وجاكبسون، وهيدغر "M. Heidegger" ترجم إلى هيدجر، وهايدغر، وقس على ذلك غريماس "Greimas" الذي ترجم إلى قريماص، وغريماس. وما نودّ اقتراحه هنا كتابة اسم العلم الأجنبي بمحاذاة الرسم العربي ضمانًا لمعرفة القارئ بالاسم الأصلي.

وبعودة إلى مشكلة ترجمة المصطلح عامة والمصطلح اللساني خاصة نجد أنّ الأسباب تنحصر في الفردية والتسرع، واختلاف مصادر اللسانيين المترجمين، وافتقار الأرضية العلمية الكافية بأصول المصطلح، والافتقار إلى هيئة عربية موحدة يكون العمل فيها موحدًا، لا ارتجاليًّا فرديًّا. ولعل الأهم من ذلك كله غياب المبادئ المصطلحية.

أمّا المقترحات للخروج من هذه المشكلات فتكون بامتلاك المترجمين براعة بلغتين على الأقل، ولا تكفي البراعة، بل يجب أن يكون المترجم على اطلاع عميق بالاختصاص العلمي الذي يترجم عنه، وجذور المصطلحات التراثية، ويجب أن يمتلك موهبة تؤهّله للترجمة.

ويمكـن إجـراء دورات تدريبيـة يقـوم بهـا متخصـصون في ترجمـة المصطلحات العلمية واللسانية. ويحتاج القائمون على هذه الدورات إلى دعم مالي بقرار سياسي.

إننا نحتاج في المعاجم التي نتطلع إليها إلى التخلّي عن الفردية، والأنانية، والارتجال، والبعد عن ترجمة المصطلح، والفهم الدقيق للمصطلح العربي المقابل وما يرادفه. كما نحتاج إلى شرح لهذا المصطلح على غرار ما نجد في اللغات الأخر كمعجم Oxford للسانيات، ومعجم Linguistics And Phonetics وغيرهما.

اللغة العربية مرنة جدًّا بقدرتها على الاشتقاق، وغناها على صعيد الفكر والحضارة. وقد تقصى المؤرخ فيليب حتي عدد الألفاظ العربية التي دخلت الإنكليزية فكانت خمسة آلاف كلمة[٢٣].

ولعل خير دليل على ذلك وفرة المصطلحات المقابلة لمصطلح أجنبي واحد. فيعني ذلك غنى اللغة شرط أن يتوافر على دقة متناهية. ولا يُعبَر إلى المقابل الأجنبي بحرفيته وشرحه إلا حين العجز عن إيجاد البديل العربي.

وحين نشدد على الدقة المتناهية في اختيار المقابل العربي ننظر إلى سمة الترادف، والاشتراك، والتضاد في اللغة العربية. فتوصل المفردات إلى فوضى مصطلحية مع الأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يرد فيه المصطلح.

إنّ الجهود العلمية بين واضعي المقابل العربي للمصطلح يجب أن تتواصل للاستفادة من الخبرة، ولنفي الصفة الفردية عن العمل، والتوصل

إلى تحديد الفروق الدقيقة بين هذه المصطلحات معتمدين على منهجية موحدة لوضع المصطلح، وتوحيد المصطلحات، وتتبع آخر ما يصدر عنها، "ووضعها أمام أصحاب الشأن والاهتمام سواء أكانوا مؤسسات أم أفرادًا"[٢٤]؛ ولعل المقترح الأهم ضرورة إيجاد بنك يغاير بنك المعلومات يطلق عليه اسم بنك المصطلحات، توضع فيه المعاجم المختصة بكل حقل دلالي مقترنًا بالشرح والأمثلة الوظيفية، واقتراح جائزة لتشجيع التواصل العلمي في هذا المجال.

المشكلة إذن في أنفسنا في أننا لا نؤمن بقدراتنا، ونؤمن بقدرة الغرب على التفوق علينا، ويوصلنا هذا الأمر إلى شعور باليأس من اللحاق به، إذن يجب أن يتمّ التركيز الشديد على الاحتفاظ بالخصوصية اللغوية في التواصل مع الآخرين، والعولمة تطمس اللغات على حساب لغة واحدة في حين أنّ العولمة الحقيقية "جملة الوقائع، والإنجازات والإمكانات الموضوعة برسم البشر أجمعين، والممضاة باسم ملايين الناس في المعمورة على اختلاف أديانهم، وأعراقهم، ولغاتهم، وعاداتهم، ومدنياتهم، وآدابهم"[٢٥].

**٤- فائدة استخدام الحاسوب المرتبط بالشابكة في تعلّم اللغة العربية**

يلبِّي هذا الحاسوب حاجة العصر ومتطلباته، كما أنه يجعل عملية تعليم اللغة العربية أكثر فاعلية، وثراء، وأثرًا. ولفائدته وجهان: وجه يتعلق بالمتعلمين، ووجه يتعلق بالمعلمين الذين يطوّرون مهاراتهم، ويكتسبون مهارات جديدة، وينوعون في أساليب تقديم المعلومات.

ويساعد التعليم عن طريق الحاسوب في عملية تعلّم اللغة العربية عن بعد، ويطور مهارات تتعلق بالتعلم الذاتي، ويساعد المتعلمين على التفكير وتطوير آليات العمل، فتتولد لديهم مهارات لحل المشكلات.

ولعل الأهم من ذلك أنه يوفر الوقت والجهد على المعلِّم والمتعلِّم، ويساعد كليهما على تخزين معلومات هائلة على أسطوانة صغيرة، ويجعل التعليم أكثر جاذبية وإثارة؛ لأنه حافل بالمرفقات من صور، وموسيقى.. وبذلك يتمكن الطالب من تصحيح خطئه من غير إحراج.

ويجب أن تتوافر مختبرات حاسوب كافية ومتطورة، كما يجب تدريب المعلمين على توظيفها، واستخدامها بمنهجية علمية من قبل المتعلمين.

وثمة مجالات يستخدم الحاسوب فيها في تعليم اللغة العربية منها:

- **المدرسة الالكترونية:**

نفترض وجود مدرسة عصرية تنشئ موقعًا الكترونيًّا يخدم العملية التعليمية، ويرتبط بالشابكة، وتقدم فيه المعلومات على هيئة صفحات تعليمية إضافة إلى ربط جميع أقسام المدرسة الإدارية بشبكتين: داخلية، وخارجية تقدِّم المعلومات للإداريين، والمعلمين، والطلاب، وأولياء الأمور.

- **المكتبة الالكترونية:**

تحتوي على معلومات مخزنة على وسائط ممغنطة، أو مليزرة. وتكون متاحة للمتعلمين للاتصال المباشر، أو عبر نظام الأقراص المدمجة.

- **التعليم الافتراضي:**

تستخدم التقنيات التربوية الحديثة، ومن أبرزها الحاسب الآلي الذي يوفّر

للمستخدِمين مصادر معرفة في حال وجود معلّم، أو عدم وجوده؛ وذلك لارتباط مختبر الحاسوب بالشابكة، وتصميم المناهج الدراسية التي تساعد الطالب على البحث عن المعلومة بنفسه، وتؤهل المعلمين؛ ليحسنوا توظيف هذا النمط من التعليم لمساعدة الطالب في عملية التعلم الذاتي.

- **الفصول الذكية:**

وهي معامل حاسوب ذات مواصفات عالية تستخدم للتدريس والتدريب، وتسهل التواصل المباشر بين المعلِّم والمتعلِّم وبين سائر المتعلمين. ويجب التنبيه على أنّ المعلومة التي يحصل عليها الطالب من الشابكة ليست دائمًا صائبة كما أشار إلى ذلك Glister فثمة مواقع مشبوهة، ومواقع غير معروفة؛ لذا ينصح Scott الباحثين والمستخدِمين للشبكة أن يتحرَّوا الدقة، والصرامة، والحكم على الموجود قبل اعتماده في البحث(٢٦).

يمكن القول إذن إنّ التعليم الالكتروني وسيلة التعليم في المستقبل، يتضمن تحولاً من التعلّم الصفي إلى التعلّم بمساعدة التقنية. ويمكن أن نجري موازنة بين التعليم التقليدي والتعليم الالكتروني من خلال الجدول التالي:

| العملية التدريسية | تعليم الكتروني | تعليم تقليدي |
|---|---|---|
| فاعلية الطالب | فاعل إيجابي | فاعل سلبي |
| المعلِّم | مشرف | مصدر المعلومة |
| الطلاب | مختلفو الأمكنة | من مكان واحد |
| زمن التدريس | غير محدد | محدد |

| | | |
|---|---|---|
| مكان التدريس | غير محدد | محدد |
| المدرّس | من أي مكان | من مكان محدد |
| محتوى المقرر | مقرر حاسوبي | مقرر ورقي |
| المتابعة | الكترونية | بشرية |
| عدد الطلاب | غير محدد | محدد |

وقد أثبتت اللغة العربية أنّ ثمة علاقة وثيقة تربطها باستخدامات الحاسوب نظرًا لخصائصها الفريدة التي تساعد على برمجتها آليًّا، ويندر وجودها في لغات آخر كالنظام الصوتي في اللغة العربية. والعلاقة الدقيقة بين طريقة كتابة الكلمة ونطقها أمر يدل على قابلية اللغة العربية للمعالجة الآلية، وتوليد الكَلِم، وتمييزه آليًّا(٢٧). فقيمة العِلم ليست في ذاته بل في ما يقدمه من خير، ونفع للإنسان.

ومما له علاقة باستخدام الحاسوب المرتبط بالشابكة ما يعرف بـ"السبورة التفاعلية" التي تعرف بأنها نوع من البرمجيات التعليمية، والتعليمات الموجهة إلى الحاسوب، ويتمّ إعدادها بلغة خاصة تتفهمها الآلة. وتوضح هذه اللغة تسلسل الخطوات التي يقوم بها الحاسوب لأداء المهام اللازمة لحل المشكلة. ويمكن أن ترتبط السبورة التفاعلية بكاميرا تعتمد على عرض النصوص الرقمية في تسهيل تقديم المعلومة. فتقدَّم عن طريق السمع والرؤية، وتحدث تفاعلاً بين المتلقي والمادة المعروضة، وتسمح بإعادة الفكرة المعروضة سابقًا لتتمكن في ذهن المتعلِّم.

وقد وعى المنظرون لمشكلة علاقة اللغة العربية بالتكنولوجيا ولاسيما فيما يتعلق بالتعليم المشكلة، فوجدوا أنّ ثمة أسسًا نظرية لمنظومة تكنولوجيا تعليم اللغة العربية تقوم على: نظريات الاتصال، ونظريات التعلم الإنساني، ومدخل النظم، وتفريد التعليم، وحركة التعليم السمعي البصري "النص الرقمي".

**٤-١- دراسة اللغة العربية باستخدام الحاسوبات اللسانية**

يعدّ هذا الاتجاه في دراسة اللغة العربية من أحدث الاتجاهات اللغوية؛ ذلك لأنّ هذه الطريقة تقوم على أساسين: أساس نظري، وآخر تطبيقي باستخدام الحاسوب الذي أصبح لغة العصر، وعصبه.

ومما لا شك فيه أنّ السير في هذا الاتجاه يكتنفه بعض الصعوبة لما للغة العربية من خصوصية؛ إذ يحتاج إلى تطويع البرمجيات، والحاسوب لإيجاد حلول، ومقترحات لمعالجة الصعوبات.

فثمة محاولات لإجراء دراسات إحصائية لجذور معاجم على أسس علمية حديثة. وثمة محاولة لتعاون فيزيائيين، ولغويين؛ لإحصاء كلمات العربية التي احتوتها المعاجم اللغوية الشهيرة، وما نجم عن ذلك من جداول، وتحليلها تحليلاً لغويًّا قوامه استخراج جذور اللغة الثلاثية، والرباعية، والخماسية، وتردد الحروف، وتتابعها(٢٨).

ويجب الانطلاق من هذه الجهود، والاستفادة من عصر المعلوماتية والحاسوب؛ لخدمة البحث اللغوي والأدبي(٢٩). أمّا الحقل الأفضل لتطبيق

اللسانيات الحاسوبية على اللغة العربية فهو حقل الإحصاء اللغوي. ويمكن لذلك كله أن يمهد لنشوء ما يمكن تسميته علم اللغة الحاسوبي الذي يبحث في اللغة البشرية بوصفها أداة طيّعة لمعالجتها في الآلة "الحاسوبات الالكترونية، والكمبيوتر" وتتألف مبادئ هذا العلم من اللسانيات العامة بجميع مستوياتها التحليلية: الصوتية، والنحوية، والدلالية.. ومن علم الحاسبات الالكترونية "الكمبيوتر" ومن علم الذكاء الاصطناعي، وعلم المنطق، ثم علم الرياضيات[٣٠].

ويتطلب تحقق هذا الأمر إنتاج برامج ذات معرفة باللغة الإنسانية. ومن المفيد بالإضافة إلى وضع مؤلفات تتعلق باللغة العربية، والحاسوب عقد مؤتمرات وندوات[٣١] متعلقة بهذا الموضوع، وكتابة أبحاث[٣٢]، ووضع برامج، ونظم وضعت؛ لحوسبة العربية، وإنشاء كليات لعلم اللغة الحاسوبي. وثمة أنموذج في المملكة العربية السعودية في جامعة الأمير سلطان الأهلية.

وتفيد معالجة اللغة العربية حاسوبيًّا في تحقيق نتائج مهمة في ميدان التعريب، والإحصاء اللغوي والمعالجة الآلية، والترجمة الآلية، وتعلّم اللغات.

ونقصد بالتعريب هنا إعداد أنظمة تستطيع العمل باللغة العربية بدلاً من الإنكليزية، وإصدار مؤلفات خاصة بعلوم الحاسبات، وتقنياتها بالعربية، وترجمة ما هو غير عربي. ومن المفيد أن نذكر هنا ما قامت به شركة صخر العالمية للبرامج، وشركة آي بي إم من تطوير الحواسيب

الشخصية "P C" بالعربية، ووضع معالج نصوص عربستار ٢٠٠١ بالعربية، وتعريب البرامج اللاتينية. وعلى المستوى المعجمي استقل علم المعاجم الحاسوبية بوصفه فرعًا من علم اللغة الحاسوبي M R D "Machine Readable Dictionary" وهو يضم معاجم للناطقين بالعربية، ومعاجم مصطلحات علمية، ومعاجم مفهرسة. وتتسم هذه المعاجم بالشمول، والانتظام، والاطراد، والدقة، والوضوح، والقابلية للتوسع، والتعديل. لكن هذا النوع من المعاجم يتطلب مهارات خاصة قد لا تتوافر لكثير من مستخدميه، وتكاليف مادية باهظة يتطلبها هذا النوع من المعاجم.

اللغة العربية هي المستفيد الأول من تطويع الحاسوب، وتقنياته؛ لتتواءم وخصوصية هذه اللغة على مستوياتها كلها الصرفي، والصوتي، والنحوي، والمعجمي، والدلالي. فينبغي أن يكون لعلم اللغة الحاسوبي حظ وافر في جامعاتنا، كما ينبغي إنشاء قسم خاص للغويات الحاسوبية في جامعاتنا.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة البعث، حمص، سورية.

(١) د. أحمد مختار عمر: ١٩٨٨، **صناعة المعجم الحديث**، ط١، عالم الكتب، مصر، ص٢٧.

(٢) Le Petit Robert sous la direction de Paul Robert T: 1, p: 1088.

(٣) Georges Matore, Histoires des dictionnaires Français, Larousse, Paris, 1968, p:36.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة شرب.

(٥) انظر **لسان العرب**، مادة ساس. ساس سياسة الدواب: قام عليها وراضها، وساس القوم دبّرهم وتولّى أمرهم، وساس الأمر: قام به. والسياسة فعل السائس. يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها، وراضها، والوالي يسوس رعيّته.

(٦) صليبا، جميل: ١٩٧١، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص٩.

(٧) صالح، محمود إسماعيل: ٢٠٠٣، فوضى المصطلحات في الكتابة العربية، **مجلة دراسات مصطلحية**، العدد٣، المغرب، ص١١٨.

(٨) انظر: السيد، محمود أحمد: ٢٠٠٢، **في قضايا التعريب**، مطبعة العجلوني، دمشق، ص٩٧.

(٩) انظر: مجموعة من المؤلفين، ١٩٤٩، **معجم المصطلحات الدبلوماسية**، دمشق.

(١٠) الخطيب، د. عدنان: ١٩٥٢، لغة القانون في الدولة العربية، دمشق.

(١١) د. كليرفل: ١٩٥٦، **معجم المصطلحات الطبية كثير اللغات**، نقله إلى العربية: مرشد خاطر، وأحمد حمدي الخياط، ومحمد صلاح الدين الكواكبي، طبع الجامعة السورية.

(١٢) الأحمد، د. صلاح، دعبول، د. موفّق، الحمصي، د. إلهام: ١٩٨٣، **معجم الرياضيات المعاصرة**، جامعة دمشق.

(١٣) مجموعة من المؤلفين: ٢٠٠٧، **معجم مصطلحات العلوم الفيزيائية**، مجمع اللغة العربية، دمشق.

(١٤) **مجلة المجمع العلمي العربي**، إصلاح لغة الدواوين، دمشق، ج١/٤٤-٥١، ج٤٦/٢.

(١٥) للتفصيل في هذه الفكرة انظر: **خسارة**، د. ممدوح: ٢٠٠٧م، الألفاظ الموضوعة في مطلع عصر النهضة مقبوليتها وشيوعها، **مجلة التعريب**، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق، العدد ٣٣، ص٣٧-٤٢.

(١٦) السامرائي، إبراهيم: ١٩٨١، التعريب والعربية في الجزائر بين واقع قديم ورؤية مستقبلية، **المستقبل العربي**، السنة الثالثة، العدد ٢٣، كانون الثاني، ص١٠٨.

*** العرب:**

لم يثبت أن ترجم مجمع اللغة العربية هذه اللفظة بذلك، وإنما هي أكذوبة روّجتها الصحافة تشويهًا لسمعة المجمع.

(١٧) علي، د. نبيل: ٢٠٠١، **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر، العدد ٢٧٦، ص٢٦٢-٢٦٣.

(١٨) ابن قيلان المزيني، حمزة: ١٤٠٧هـ، مدخل إلى اللغة واللسانيات (ترجمة)، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الملك سعود، مجلد ١٤، ج١، ص١٩٦.

(١٩) محمد المبارك: ١٩٧٢، **فقه اللغة**، دار الفكر، دمشق، ص٢٩٢.

(٢٠) المزيني، د. حمزة: ٢٠٠٤، **التحيز اللغوي**، سلسلة كتاب الرياض، ع١٢٥، ص٢١٣.

(٢١) للاستزادة فيما يتعلق بالخلاف في الآراء حول اللسانيات والألسنية يرجى النظر في: د. أحمد مختار عمر: ١٩٨٩، المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية، ضمن عدد **عالم الفكر** الصادر عن الكويت. ولن تتعرض هذه الورقة إلى هذا الخلاف؛ لأنها تنصرف إلى توصيف المشكلة واقتراح الحلول.

(٢٢) انظر: د. عبد السلام المسدِّي، **قاموس اللسانيات**، ص٧٠.

(٢٣) انظر: أحمد شفيق الخطيب، منهجية بناء المصطلحات، **مجلة مجمع اللغة العربية**، دمشق، مج٧٥، ج٣، ص٢٢٤.

(٢٤) شحادة الخوري، العربية لغة العلم، **مجلة مجمع اللغة العربية**، دمشق، مج: ٧٣، ج٤، ص٨١١.

(٢٥) حرب، علي: ٢٠٠٠، **حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية**، بيروت.

(٢٦) Office of Educational Research and Improvement" The Determination of Computer Competencies Needed by Classroom Teachers", Geographic Sources; U.S., Taxis. Journal Announcement; May 1986.

(٢٧) للتوسع في فكرة علاقة اللغة العربية بالتكنولوجيا يمكن العودة إلى:

- الجرف، ريما: ٢٠٠١، المقرر الالكتروني، المؤتمر العلمي الثالث عشر "مناهج التعليم والثورة المعرفية والتكنولوجية المعاصرة" مج١، القاهرة، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، جامعة عين شمس.
- فهيم، مصطفى: ١٤٢٤هـ، **مهارات القراءة الالكترونية وعلاقتها بتطوير أساليب التفكير**، القاهرة، دار الفكر العربي.
- محمد، مصطفى عبد السميع وآخرون: ١٤٢٥هـ، **تكنولوجيا التعليم، مفاهيم وتطبيقات**، دار الفكر، الأردن.
- الموسى، عبد العزيز: ١٤٢٥هـ، **استخدام الحاسب الآلي في التعليم**، ط٣، الرياض، مكتبة تربية الغد.
- الهرش، عايذ حمدان: ١٩٩٩، الحاسوب وتعلّم اللغة العربية، **مجلة العلوم الإنسانية**، العدد ٢١، جامعة منتوري، الجزائر.

(٢٨) موسى، د. علي حلمي، وشاهين، د. عبد الصبور: ١٩٧٣، **دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر**، مطبوعات جامعة الكويت، ص٥-٧٢.

(٢٩) انظر على سبيل المثال: محاولة دراسة شِعر زهير بن أبي سلمى بالاستفادة من الحاسب الالكتروني محاولة رائدة في الدراسات اللغوية، **مجلة الكاتب المصرية**، العدد ١٦٥، ١٩٧٤م، ص٤٥-٤٨.

(٣٠) الخولي، د. محمد علي: ١٩٨٦، **معجم علم اللغة التطبيقي**، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ص٢١.

(٣١) انظر على سبيل المثال: **مؤتمر استخدام اللغة العربية في المعلوماتية**: ١٩٩٦، المنظمة العربية للتربية والتقانة والعلوم، تونس.

المؤتمر الدولي الثاني في اللغة والترجمة "دور التكنولوجيا الحديثة في تعلّم اللغات وتعليمها: ٢٠٠٢، مركز أطلس العالمي بعمّان، ١٤-٢٠٠٢/١٢/١٥ وقد رصدت أعماله في كتاب سنة ٢٠٠٥م.

(٣٢) العناني، د. وليد، والجبر، د. خالد: **دليل الباحث إلى اللسانيات الحاسوبية العربية**، مركز بحوث اللغة العربية وآدابها، معهد البحوث العربية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أمّ القرى، مكة المكرمة.

# شِعر عنترة بن شدّاد
# في الموروث النقدي عند العرب
# "دراسة في نقد النقد"

بقلم: د. محمد رمضان الجوهري*

## المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأبرار، وأزواجه الأطهار، ومقتفي الآثار من التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين. وبعد،

فلعنترة فارسًا وشاعرًا في النفس مكانة تربو بين الفينة ومشابهتها كلّما استروحت آثاره، وتسللت منسابة في هدأة إلى ضروب شِعره، وأفانين قوله، تستنطقهما بقايا ذكريات حالمة، وطيوف راعشة، تتوامض مطلة من نوافذ منسية وسط شرفات تاريخ غابر، ترتسم قسماته -رغم تعاقب القرون- في المخيلة دون خفاء، وكأنه مجموعة أحداث متشابكة الأواصر، تُعاد ماثلة للعيان من خلال ريشة موهوب يجسد بكلماته، وينقل

بشبيهاته، ويعيد بموصوفاته، ويصور بموهبته ما يبعث الماضي من سباته، ويشخصه دون ضبابية ملبدة، أو غيوم حاجبة.

هذا ما كان من أمر الشاعر مع النفس، أمّا نقّاد العربية وأدباؤها فلقد صاحبتهم مدة إنجاز هذا البحث -الذي أسأل الله له القبول والسداد- في رحلة شيقة وممتعة، فما أروع أن يعايش المرء ما يحبّه عن كثب، ويأتنس بما يشبع نهمه، وينقع غلته، وقد ظفرت من ذلك بالغاية، وزدت عليها مناقشتهم الطرح، ومجاذبتهم الحجة، ومخالفتهم في أحايين الرؤية، وحتى لا يظن بي السوء، فأعترف أني أصولي النزعة، تراثي التوجه، فذاك نهج رضعت أفاويقه منذ الصغر، فخامر مني القلب، وخالط اللب، وسرى بمضائه إلى حيث مسارب النفس، وبؤر الشعور، وللأزهر الشريف فضل لا ينكر في الحفاظ على هذا التراث العظيم، وترسيخه في كوامن نفوسنا، وإعادة بعثه بوعي يشهد بسطوع الفهم، وإشراقة المنزع، والانعطاف إلى الوسطية في غير شطط أو شرود.

هذا وما زال الشِّعر يسح ويهضب مذ وقف الأوائل على شواكله، حتى جاشت غواربه بالقول الآسر، واصطخبت أواذيه بالمتلاطم من أثباجه المتتالية، وأمواجه الهادرة، فغذَّ النقّاد والأدباء السير؛ سبرًا لأغواره، وتجلية لكوامنه، وإبانة لغرائبه، يحدوهم في ذلك استشراف طامح، وبصيرة نافذة، وعقل راجح من جهة، ومن أخرى تأخذهم أهواؤهم الشخصية، وتدفعهم مواقفهم الذاتية إلى الإشادة والمدح، أو الانتقاص

والقدح دون أن يعين النص على هذه أو تلك، مما يفتح بابًا للمناقشة وإعادة النظر بعيدًا عن المسلَّمات الحاتمة -التي إن كانت حينئذ- تشيل كفّتها في موازين النظر الراجح، والفكر المستقيم.

ومن معاد الكلام وملاكه أنّ الشِّعر العربي على كثرته حمَّال أوجه، تختلف الرؤى فيه، وتتعدد الانطباعات حوله، ويظل مع هذا الاختلاف وذلك التعدد، ذا حرارة ونبض، يأخذ على المرء عقله، ويستحوذ منه على لُبِّه، ومن ثم فما يراه البعض مستثقلاً مرذولاً، يراه الآخرون مستحسنًا مقبولاً، وللمتلقِّي أن ييمّم صوب أيّ من الوجهتين متى اقتنع بالمقدم من الأدلة، والمسوق من التفسيرات المعللة للقبول والرفض، وتلك كانت إحدى ركائز الدراسة ومنطلقاتها، فهي لا تسلم بالقول أيًّا كان قائله إلا بعد إجالة الطرف فيه مرات بتؤدة، وتقليبه على وجوهه بغية إصابة المحز، فليس الوكد النقد للنقد، ولا الغض من رؤى الأقدمين النقدية، والتقليل منها، وإنما الحيادية والموضوعية وتحكيم الذوق المدرب من جهة، والعلم والقاعدة والعقل من أخرى، في محاولة جادة لإصابة شواكل الحق، ومقاطع الصواب.

تلك وغيرها رؤى تتقافز على العقل، فتمسك بتلابيبه، كاشفة عن مجمل قضايا مفادها: إكبار التراث وعدم الانتقاص منه بحال، ومناقشة الأوائل بحثًا عن الحقيقة، وتقليب الآراء على وجوهها بعد عرضها على العقل والذوق إصابة للحكم، وترسيخ عدم قبول الأحكام على علاّتها، وأنّ المناقشة لا تعني الرفض جملة، والرد تفصيلاً، أقول ذلك لأنّ النفس

يتجاذبها عشق للتراث يصرف عن المعارضة اعترافًا بالمكانة، وتأصيلاً للمنزلة، ولولا وضوح الهدف، وصدق الغاية، ونبل المقصد، لوَهَنَت العزيمة، وفترت الهمة، وهما يعرضان لمحبب قريب بالمناقشة والنقد.

والله وحده من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

## شِعر عنترة في الموروث النقدي عند العرب

### المبحث الأول: النقد الفني:

شواهد نصُّوا عليها، وأشادوا بها، وأحلّوه الصدارة بسببها، ولم يمنعهم ذلك من التعريج على هنات رأوها ندت عنه، وشذّت عن الذوق رغم صحة صوغها، وسلامة سبكها، واطراد قاعدتها، فوقفوا عندها وقفة الناقد الموجّه، والمقنّن المقعّد، ليتنبّه إليها أرباب الكتابة متى أرادوا التجويد والإحسان.

ولقد ضرب النقّاد العرب بسهم في شِعر عنترة، وأرسوا قواعد تحتذى، وقوانين تقتفى اعتمادًا على ذلك، ابتداء باللفظة، ومرورًا بالمعنى، وانتهاء بالصورة، منطلقين في جلّ ذلك من ذوق فردي مدرب، ورؤى ذاتية شحذها مسنّ التمرس بالأساليب الصحيحة التي تتيح للملكات أن تصقل، وللموهبة أن تترعرع، وللعقل أن يدقّ، وللقلب أن يرقّ.

**أولاً- نقد الألفاظ:**

لقد تفاوتت نقداتهم لألفاظ عنترة استحسانًا واستهجانًا، قبولاً وردًّا،

متخذين من أذواقهم السوية أسسًا ينطلقون منها إلى حيث أرادوا من قدح ومدح.

ومما رأوه مجانبًا للذوق، مجافيًا للحسن من ألفاظه توظيفه "فقود" في قوله:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفُثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدْ فَحُقٌّ لَهُ الْفُقُودُ

البيت مبنيّ على عادة كانت للعرب في الجاهلية، وهي أنّ الرجل منهم كان إذا رمى بسهم وأراد سلامة الرمية منه رقى سهمه، وإذا أراد الإهلاك لم يفعل ذلك.

وكانت العرب تزعم أنّ الرجل إذا طعن آخر فنفث عليه الطاعن ورقاه، فإنّ المطعون يبرأ من طعنته، كما في قول عنترة، وقال آخر، وهو ثعلب بن عمرو الشيباني:

فَأَتْبَعْتُــهُ طَعْنَــةً ثَــرَّةً يسيلُ عَلى النَّحْرِ مِنْهَا صَبِيبْ

فَانْ يَنْجُ مَنْهَا فَلَمْ أَرْقِهِ وَإِنْ قَتَلَتْــهُ فَجُــرْحٌ رَغِيــبْ[1]

والبيت رابعًا ضمن مقطوعة من ستة أبيات يصف فيها عنترة طعن خصمه جريَّة من بني عمرو بن الهجيم، وكان شديدًا رئيسًا، وقد ظن أنه قتله ولم يمت الرجل من ضربته، ومراده من البيت إن يفق جريَّة من تلك الطعنة فيتأخر أجله فإني ما رقيتُه ولا نفثتُ عليه، وإن يمتْ فحُق له ذلك، فقد مات من هو خير منه، ويحتمل أنه يريد فحق الموت من شدة الطعنة، وأنّ مثلها لا يبرأ منها[2].

وقد عاب ابن الأثير على عنترة توظيفه جمع المصدر في بيته، وهو قوله "فقـود" جمـع "فقْـد" فقـال: "وأمّـا جمـع المـصادر فإنـه لا يجـيء حـسنًا، والإفراد فيه هو الحسن، ومما جاء في المصادر مجموعًا قول عنترة:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفُثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدْ فَحُقٌّ لَهُ الْفُقُودُ

قوله: "الفقود" جمع مصدر من قولنا: فَقَدَ، يَفْقِدُ، فقْدًا، واستعمال هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ، وإن كان جائزًا. ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز. وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم، فإنّ صاحب هذه الصناعة يصرّف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب في فمه منها استعمله، وما لفَظَه فَمُه تركه[٣]".

وقد تناول ابن الأثير البيت ضمن حديثه عن اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها، وما يجيء منها حسنًا مستساغًا، وما يأتي منها قبيحًا مستكرهًا، وساق على ذلك شواهد بلغت الغاية من الحسن في القرآن، وتفاوتت قبولاً ورفضًا في الشِّعر، ووطأ للقضية بقوله: أمَّا اختلاف صيغ الألفاظ، فإنها إذا نُقِلَت من هيئة إلى هيئة؛ كنقلها مثلاً من وزنٍ من الأوزان إلى وزن آخر، وإن كانت اللفظة واحدة، أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل، أو من الفعل إلى صيغة الاسم، أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل، أو من المستقبل إلى الماضي، أومن الواحد إلى التثنية، أو إلى الجمع، أو إلى النسب أو إلى غير ذلك؛ انتقل قبحها فصار حسنًا، وحسنها صار قبحًا[٤].

وقد تابعه في ذلك القلقشندي فقال في معرض حديثه عن فصاحة استخدام بعض الألفاظ في صيغ دون سواها: ولفظة طيف في ذِكر طيف الخيال، فإنها تجمع على طيوف، وهي في حالة الإفراد من أرقّ الألفاظ وألطفها، فإذا جمعت زالت عنها تلك الطّلاوة، وفارقتها تلك البهجة، ولذلك وردت في القرآن الكريم بلفظ الإفراد... ولم يزل الشعراء في القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسن موقع، ولم يلمّوا باستعماله مجموعًا[٥].

ثم يردف ذلك بشواهد ساقها ابن الأثير في مثله السائر، وينتهي إلى القول موافقًا له في رؤيته: وهذا مما لا يعلم السرّ فيه، والذوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجري مجراهما. وكذلك يجري الحكم في جميع المصادر، فإنها في حالة الإفراد أحسن منها في حالة الجمع؛ وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة فجاءت غثّة مستكرهة كما في قول عنترة[٦].

ومردّ القضية إذًا إلى الذوق الفردي لا إلى القاعدة المطردة، وآية ذلك أنّ ما يراه ناقد سائغًا مستحسنًا قد يراه آخر قبيحًا مستكرهًا، وقد ذكر ابن الأثير نفسه دلائل تقرر ذلك فقال: ألا ترى أنه يقال: "الأُمَّة" -بالضم- عبارة عن الجمع الكثير من الناس، ويقال: "الإمَّة" -بالكسر-، وهي النعمة، فإنّ "الأُمّة" بالضم لفظة حسنة، وبالكسر ليست بحسنة، واستعمالها قبيح.

ثم أورد رأي ثعلب في كتابه "**الفصيح**" فقال: "ورأيت صاحب كتاب "**الفصيح**" قد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ الفصيحة، ويا ليت شِعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها؟! وكذلك قد اختار ألفاظًا أخر ليست بفصيحة، ولا لوم عليه؛ لأنَّ صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير!"(٧).

ومن معاد الكلام وملاكه أنّ اللفظة مفردة لا تنماز عن صاحبتها قبحًا وحسنًا، وليس لها من المزيّة ما ليس لغيرها، والفيصل حينئذ سبكها مع غيرها، وتوظيفها مع جارتها، وكم من لفظة عربية فصيحة وظفها شاعر فقعدت به موهبته، وكبا به طبعه، فجاءت باردة لا تفكه، مستثقلة لا تطرب، تمجها الآذان، وتكرهها الطباع، في الوقت الذي يتناول فيه آخر لفظة مستكرهة أو غريبة، أو عامية شعبية، فيحيل بشاعريته ثقلها خفّة، وغرابتها ألفة، ويتمكن بما أوتي من موهبة أن يخلع عليها من إهاب فنّه ما يجعل سخفها جلالاً، وشعبيتها قوة متى أحسن التوظيف والسبك.

ونظرة متأنية في بيت عنترة تؤكد قدرته على التعبير عن مراده، ثم إنّ استعماله جمع المصدر "فقود" في مختتم بيته جائز لا كراهة فيه، وليس ثمة ما يمنع توظيفه اطرادًا مع قواعد العربية، واتساقًا مع قوانينها، والكلمة متفقة مع نهايات الأبيات لا يحسّ القارئ فيها بثقل أو استكراه متى قرأ الأبيات دِراكًا متتالية، ولو وظفها الشاعر في ثنايا بيته لكان للمغمز عليه وجاهة، وللعيب مكانة، أمّا وقد جاءت قافية، فإنه يجوز للشاعر في القوافي

أحيانًا ما لا يجوز له في تضاعيف أبياته، وعليه فغيرها أولى منها بالفصاحة إذا أدت معناها، وعبّرت عن مكنون مراد الشاعر، وتناغمت مع قوافي أبياته، وأنى تلك اللفظة؟، إننا لو بحثنا عن بديل فصيح ونحن في هدأة النفس، وطول النظر، وإمعان الفكر، لأجهدنا الأمر، وربما استعصى المجيء بما يحل محلها، فما بالك بشاعر مطبوع كعنترة، ييمّم صوب مراده على سجيّته، جاهلي العصر، بدوي الطبع، يستخدم من الصيغ ما يناسب مقصوده، إنّ توظيفه المفردة على شاكلتها المنصوص عليها في بيته جاءت معبّرة مستساغة مهَّد لها بقوله "وأن يفقد"، فلم يكن بد من قوله "فحق له الفقود"؛ ليتمّ المعنى ويتكامل بعد التوطئة في مفتتح الشطر الثاني، ومن ناحية أخرى ليكمل مراده تضادًّا مع شطره الأول، ولتتمّ قسمات الصورة من ناحيتيها، فإن يبرأ عدوّه فلم يرقه أو ينفث عليه، وإن يهلك فمثل طعنته مميتة فيحق له الفقود والهلاك.

كما أخذوا عليه كذلك التكرار اللفظي لغير فائدة في قوله:

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ　　أَقْوَى وَأَقْفَرَ[٨] بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

ذكر الزوزني في شرح البيت قوله: "الإقواء والإقفار: الخلاء، جمع بينهما لضرب من التأكيد كما قال طرفة: "مَتَّى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي وَيَبْعُدِ" جمع بين النأي والبعد لضرب من التأكيد. أمّ الهيثم: كنية عبلة.

يقول: "حييت من جملة الأطلال، أن خُصِّصْتَ بالتحية من بينها، ثم أخبر أنه قدم عهده بأهله وقد خلا عن السكان بعد ارتحال حبيبته عنه[٩]".

وقد أورد البلاغيون البيت عند حديثهم على "الإطناب"، فقالوا: وفي اصطلاح البيانيين هو: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو بمعنى آخر "كون الكلام زائدًا عمّا يمكن أن يُؤَدَّى به من المعاني في معتاد الفصحاء لفائدة تُقْصَد، والإِطنابُ قد يكون معيبًا بأحد أَمْرَيْن:

- بالتطويل دون فائدة، وطريقُهُ أن لا يتعيّن الزائد في الكلام على وجه الخصوص، كأن تُوجد لفظتان مترادفتان تصلح كلٌّ منهما لأن تكون هي الزائدة.

- أو بالْحَشْوِ دون فائدة، وطريقه أن يكون الزائد غير المفيد في الكلام متعيّنًا بلفظه، كلمةً فأكثر(١٠).

ومن التطويل قول عنترة: " أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ"

فقوله أقوى وأقفر من المعيب؛ لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة(١١).

وقد ذكر العلوي آراء البلاغيين في الإطناب والتطويل، ثم خلص إلى أنّ الإطناب صفة محمودة في البلاغة، بخلاف التطويل، فإنه صفة مذمومة فيه، وما ذاك إلا لأنّ الإطناب يجيء من أجل الفائدة بخلاف التطويل، فإنه يكون من غير فائدة(١٢)، وهو ما سبقه إليه ابن الأثير حين قال والذي يحد به الإطناب أن يقال: هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فهذا حده الذي يميزه عن "التطويل"، إذ التطويل هو: زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة(١٣).

"وكل من الحشو والتطويل معيبٌ في البيان، وكلاهما بمعزل عن مراتب البلاغة[١٤]".

فهذا وما شاكله قد وقع فيه نزاع بين علماء البيان، فمنهم من رده وقال إنما هذا حاله بمنزلة التكرار اللفظي، فإذا كان التكرار معيبًا فلا فرق بين أن يكون من جهة اللفظ، أو يكون حاصلاً من جهة المعنى، ومنهم من قبله محتجًّا بأنّ الألفاظ إذا كان فيها تغاير فليس معيبًا، وقد استعمله الفصحاء، فدل ذلك على جوازه، وقد فصَّل القضية ابن الأثير مبيّنًا ما يجوز في ذلك وما لا يجوز، فقال: "وهذا الضرب من التكرير قد خبط فيه علماء البيان خبطًا كثيرًا، والأكثر منهم أجازه، فقالوا: إذا كانت الألفاظ متغايرة والمعنى المعبّر عنه واحدًا فليس استعمال ذلك بمعيب، وهذا القول فيه نظر، والذي عندي فيه أنّ الناثر يعاب على استعماله مطلقًا إذا أتى لغير فائدة، أمّا الناظم فإنه يعاب عليه في موضع دون موضع.

أمّا الموضع الذي يعاب استعماله فيه فهو صدور الأبيات الشعرية وما والاها، وأمّا الموضع الذي لا يعاب فيه فهو الأعجاز من الأبيات لمكان القافية، وإنما جاز ذلك ولم يكن عيبًا؛ لأنه قافية، والشاعر مضطر إليها، والمضطر يحل له ما حرم عليه...كقول الحطيئة:

قالَتْ أُمامَةُ لا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا ... إنَّ العَزَاء وَإنَّ الصَّبْرَ قَدْ غُلِبا

هَلاَّ الْتَمَسْتِ لَنَا إنْ كُنْتِ صَادِقَةً ... مَالاً نَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فالبيت الأول معيب؛ لأنه كرّر العزاء والصبر، إذ معناهما واحد،

ولم يردا في قافية ؛ لأنّ القافية هي الباء، وأمّا البيت الثاني فليس بمعيب ؛ لأنّ التكرير جاء في النشب وهو قافية.

وأمّا ما ورد في أثناء الأبيات الشعرية فكقول عنترة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

فقوله أقوى وأقفر من المعيب ؛ لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة، إذ الضرورة لا تكون إلا في القافية كما أريتك.

...فإن قيل : لِمَ أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر؟ قلت في الجواب : أمّا الناثر فإنه إذا سجع كلامه فالغالب أن يأتي به مزدوجًا على فقرتين من الفقر، ويمكنه إبدال تلك الفقرتين بغيرهما، فيسلم منه، وأمّا الشاعر فإنه يصوغ قصيدًا ذا أبيات متعددة على قافية من القوافي، فإذا تكرر لديه شيء من الكلام في آخر بيت من الأبيات عسر إبداله من أجل القافية، وهذا غير خاف، والسؤال عنه غير وارد(١٥).

وتفصيلات ابن الأثير وإن كان لها وجاهتها، فإنّ في الأمر سعةً دفعت بعض البلاغيين إلى قبولها ؛ اعتمادًا على الوارد من أشعار الفحول الذين استعملوا للدلالة على المعنى الواحد ألفاظًا متغايرة تعبيرًا عن مكنونات نفوسهم، ولواعج أفئدتهم، والكثرة الواردة في ذلك تقرر استساغته وقبوله، وكثيرًا ما وسموا القول والحالة تلك بأنه توكيد أراده الشاعر وقصده إلحاحًا على المعنى، وتتميمًا لفائدة، يقول الزبيدي "وَلَكِن اللفظَ إذا اختلَفَ أُتِيَ بِهِ بأَلفاظٍ يُؤَكَّدُ بهَا القِصَّةُ والأَمْرُ، قَالَ عنترةُ : أَقوَى وأَقْفَرَ

بعدَ أُمِّ الهَيْثَمِ فَمَعْنَى: أَقوى وأَقفرَ واحِدٌ، على الخَلوَةِ، إلاّ أَنَّ اللَّفْظَيْنِ أَوْكَدُ فِي الخَلْوَةِ[١٦]".

وهذا النهج كثير في لغة العرب، فليس ثمة ما يمنعه، فهم قد يكررون إذا اختلف اللفظان، وإن كان المعنى واحدًا، "فرُبَّمَا عَطَفَتِ الْعَرَبُ الشَّيْءَ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ اخْتِلافِ اللَّفْظِ فَقَطْ، فَاكْتَفُوا بِالْمُغَايَرَةِ فِي اللَّفْظِ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَقَدَّدْتُ الأَدِيمَ لِرَاهِشِيهِ ... وَأَلْفَى قَوْلُهَا كَذِبًا وَمَيْنَا

وَالْمَيْنُ: هُوَ الْكَذِبُ بِعَيْنِهِ، وَقَوْلُ عَنْتَرَةَ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

وَالإِقْفَارُ: هُوَ الإِقْوَاءُ بِعَيْنِهِ[١٧]".

وقد أورد ثعلب البيت في معرض تدليله على حسن الخروج عن بكاء الطلل، ووصف الإبل، وتحمل الأظعان، وفراق الجيران، بغير دَعْ ذا، وعَدَّ عن ذا، واذكر كذا، بل من صدرٍ إلى عجز لا يتعداه إلى سواه[١٨].

وَهُمْ وإن وقفوا من ألفاظه موقف العائب المستهجن على ما مر طرحه، فإنهم استحسنوا منه مفردات أجاد توظيفها، وأحسن سبكها، فجاءت قريبة مفهمة، سهلة المخرج، قوية الرصف، دالة على مراده وقصده، يأخذ بعضها بحجز بعضًا وصولاً إلى ضميمة ابتغاها، وحج يمه، يقول المبرِّد في **كامله**[١٩]: "فمن ألفاظ العرب البيّنة القريبة المفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف قول الحطيئة:

وَذَاكَ امْرُؤٌ إنْ تَأْتِهِ فِى صَنِيعَةٍ إِلَى مالِـهِ لاَ تَأْتِـهِ بشَفِيـعِ

وكذلك قول عنترة:

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقيعَةَ أنّني أَغشَى الوَغَى وأَعفُّ عندَ المَغنَمِ

وقول زهير:

عَلى مُكثِرِيهِم رِزقُ مَن يَعتَرِيهِمُ وَعِندَ المُقِلّينَ السَماحَةُ وَالبَذلُ

واللافت للنظر في تلك الرؤية المبنية على الإعجاب والاستحسان من المبرِّد أنه قرن في حسن الوصف و الإجادة في الرصف بين عنترة والحطيئة وزهير، والأخيران من مدرسة عبيد الشِّعر التي تعتمد على التنقيح والتهذيب وتقليب الطرف؛ وصولاً إلى الإجادة والإتقان، بخلاف عنترة الذي يعتمد في شِعره رصفًا ووصفًا على طبع صاف، وذوق خالص، وسليقة مستقيمة، مما يشهد له بمقدرة مكينة تشي بالمقدرة والحذق.

**ثانيًا– نقد المعنى:**

يقول عنترة[٢٠]:

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ جَلَمَانِ، بالأَخْبَارِ هَشٌّ مُولَعُ

يتحدث الشاعر عن الفراق والبين متخذًا من نعيب الغراب وصوته متكأ يفترشه تعبيرًا عن مراده، فصوته مؤذن بالبين، وزجره قاطع بالفراق، وهو فرح بذلك مولع.

والجلمان شفرتا المقصِّ القاطعتان "وشبه لحييه بالجلمين، لأنّ الغراب يخبر بالفرقة والغربة ويقطع كما يقطع الجلمان[٢١]".

وخص الغراب بالنعيب والزجر في هذا الموطن؛ لأنه عندهم أشأم الطيور، "فليس في الأرض بارح ولا نطيح، ولا قعيد، ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه، يرون أنّ صياحه أكثر أخبارًا، وأنّ الزّجر فيه أعمّ. قال عنترة...البيت[٢٢]"، والعرب لذلك لا تستخدمه إلا في مثل ذلك يقول الجاحظ: "ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتًا، وأشار إليه وإن كان ساكتًا. وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات، قال عنترة بن شدّاد العبسي جاعلاً نعيب الغراب خبرًا للزاجر[٢٣]... البيت".

وقد عاب النقّاد العرب على عنترة قوله "بالأخبار هش مولع" بعد قوله "كأنّ لحيي رأسه جلمان"، إذ ليس قوله "بالأخبار هشّ مولع" في شيء من صفة جناحه ولحييه[٢٤]".

وقد ساق البيت أبو هلال العسكري في معرض حديثه عن تنافر الكلمات، تلك التي مهد لها بقوله: "وينبغي أن تجعل كلامك مشتبهًا أوله بآخره، ومطابقًا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها؛ فإنّ تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام؛ ولا يكون ما بين ذلك حشو يستغنى عنه ويتمّ الكلام دونه[٢٥]".

ثم ساق شواهد على ذلك فقال: ومما لم يوضع فيه الشيء مع لفقه من أشعار المتقدمين قول طرفة:

ولست بحلاّل التّـلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فالمصراع الثانى غير مشاكل الصورة للمصراع الأول، وإن كان المعنى صحيحًا؛ لأنه أراد: ولست بحلاّل التّلاع مخافة السّؤال، ولكنّى أنزل الأمكنة المرتفعة، ليتنابوني فأرفدهم، وهذا وجه الكلام؛ فلم يعبّر عنه تعبيرًا صحيحًا، ولكنه خلطه وحذف منه حذفاً كثيراً فصار كالمتنافر؛ وأدواء الكلام كثيرة... وهكذا قول عنترة:

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ جَلَمَانِ، بالأَخْبَارِ هَشٌّ مُولَعُ

فليس قوله "بالأخبار هشّ مولع" في شيء من صفة جناحه ولحييه[٢٦].

وقد تابعه في ذلك المأخذ القلقشندي فقال: "المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة، ومعانيه غير متوافقة، بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره، أو البيت الثاني غير مشاكل للبيت الأوّل، ثم أورد كلام أبا هلال العسكري في القضية ثم قال: فمما اختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول عنترة البيت[٢٧].

ومراد الشاعر الإخبار عن ممضات الفراق يؤذن بها تنعاب الغراب الأسود، فهو يفتح فكيه مصوتًا قاضيًا بالبين المحتم، قاطعًا بالنأي الواقع كما تقطع شفرتا المقص اللتان لا تخطئان الجزّ والحزّ، وذلك تشبيه دال على معاناة يكابدها، يزيد من وقعها شدة القطع وقوته تلك التي عبر عنهما بالجلمين.

وزاد من تأثير الوصف في نفس المتلقِّي انعكاسات السرور المرتسمة على

وجه الغراب الناعب، فهو يسوق الأخبار فرحًا بها مولعًا، وتلك ضميمة تنضاف إلى سابقتيها وصولاً إلى مراد الشاعر ومقصوده، فالبيت ليس مبنيًّا على التشبيه رغم أهميته وجدته بقدر ما هو مبني على ثلاثة معانٍ أرادها الناظم، لذلك ساق بيته مقسمًا عليها، فالغراب الناعب أسود انحصَّ شَعر رأسه واسَّاقط فهو أشأم من غيره، ثم أن نعيبه قاطع بالفراق كالجلمين، وفي النهاية يسوق أخباره فرحًا بها، مولعًا مما يزيد من معاناة الشاعر ومكابداته، وتلك المرامي عرج عليها الشاعر معبّرًا عما يعانيه من غمز شباب قومه حين أسمعوه بعد غارته ما يسوء ويكره.

ولو أنه أراد تشبيه لحيي رأسه بالجلمين وبالهش والولع حين يخبر لكان للمأخذ وجاهته، وللعيب مبرره؛ إذ يكون قد خالف حينئذ بين المعنيين، فليس قوله بالأخبار هش مولع من صفات لحييه وفكّيه من شيء، فلم يلفق بين المعاني، أو يشاكل بين الكلام، وحقه كما نصَّ أرباب الفصاحة أن يكون مشتبهًا أوله بآخره، ومطابقًا هاديه لعجزه، لكنّ حمل مراد الشاعر على تعدد الأخبار في بيته، وتقسيم أجزائه على ما سبق توضيحه يخليه من ذلك العيب، فقوله بالأخبار هش مولع معنى أردفه الشاعر قصدًا بعد التشبيه منفصلاً عنه؛ ليضيف مرادًا حجه الشاعر وأراده.

يقرر ذلك أنّ عددًا من النقّاد العرب تناولوا البيت بالاستحسان والإعجاب، وبل وعدوه من عيون تشبيهات العرب المعجبة في بابها، ولو أنهم سلّموا بذلك العيب لغضّوا الطرف عنه، ولما نوّهوا به وأشادوا، ومن

هؤلاء ابن المعتزّ الذي عقد في بديعه بابًا لحسن التشبيه[٢٨] أورد فيه شواهد رائقة من تشبيهات الشعراء المطربة منها بيت عنترة، فقال: ومن تشبيهات عنترة بن شدّاد قوله في الغراب:

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ ... جَلَمَانِ، بالأَخْبَارِ هَشٌّ مُولَعُ[٢٩]

وقد أعجب الجاحظ بالبيت فأورده مسبوقًا بقوله: وقال عنترة، هو يصف نعيب غراب[٣٠]، كما أورد ابن رشيق في عمدته البيت ضمن التشبيهات العقم التي لم يأت أحد بمثلها[٣١]، وكذلك راق ابن حمدون بيت عنترة، وأورده مسبوقًا بقوله: "وفي نعت الطير قول عنترة يصف غرابًا[٣٢]".

وقد عاب ابن جِنِّي على عنترة كذلك قوله[٣٣]:

تُمسي وتُصبحُ فَوقَ ظَهرِ حَشِيّةٍ[٣٤] ... وَأَبيتُ فَوقَ سَراةِ[٣٦] أَدْهَمَ مُلجَمِ

بقوله: "فهذا مما توصف به الصعاليك لا الملوك"[٣٦].

ومراد الشاعر من البيت المقارنة بين تنعم محبوبته وشقائه يقول: "تصبح عبلة وتمسي فوق فراش وطيء، وأبيت أنا فوق ظهر فرس أدهم ملجم، فهي تتنعّم وأنا أقاسي شدائد الأسفار والحروب[٣٧]".

وقد ذكر ابن جِنِّي البيت في معرض شرحه لقول المتنبِّي:

يَا بَني الحَارث بن لقمانَ لا تَعْـ ... ـدَمْكُمُ في الوَغَى مُتُونُ العِتَاقِ

قوله: في الوغى، وهو -لعمري- حشو؛ لأنهم ملوك فإنما يركبون الخيل إذا طلبوا عدوًا أو أثاروا طردًا، ولو لم يقل: في الوغى لكان قد دعا لهم

أن لا يفارقوا متونها في كل وقت، وهذا من أفعال الرواض لا الملوك! لأنهم يحتاجون إلى تدبير الملك، واستخلاص الرأي، وهذا إنما يليق به الخلوة والاستقرار[٣٨].

فامتطاء صهوات الخيل إنما يكون في أوقات الحرب والغارة، ثم استشهد على قوله بأنّ الركوب وما شابه لا يكون في كل وقت بأبيات، ثم قال: وأمّا قول عنترة:

تُمسي وتُصبِحُ فَوقَ ظَهرِ حَشِيّةٍ[٣٩]      وَأَبيتُ فَوقَ سَراةِ[٤٠] أَدْهَمَ مُلجَمِ

فهذا مما توصف به الصعاليك لا الملوك، وقوله أبيت فيه معنى لطيف، ولم يقل أظل؛ لأنه يقال: أبيت ليلاً، وأظل نهارًا، وإذا كان يبيت على فرسه ليلاً فهو بأن يكون عليه نهارًا أحرى[٤١]، كأنه يقول: إنّ أمري يضاد من تلك عليه؛ لأنها تمسي وتصبح في التنعم، وأنا أمسي وأصبح في الشقاء.

واحتراس المتنبِّي بقوله "في الوغى" في نظر ابن جِنِّي لطيفة تحسب للشاعر، ونكتة تدفع ما عساه يتبادر إلى الذهن من طول الامتطاء، واتصال الركوب، وهم ملوك يحتاجون إلى تدبير الأمر لتستقيم البلاد، وتلك تدابير تملي على صاحبها لتصيب شواكل الحق، ومقاطع الصواب الاستقرار والدعة في أوقاتها، بخلاف بيت عنترة الذي عقد فيه مقارنة بين تنعّم محبوبته على فراشها الوثير، ومكابدته مشقّات الحياة على فرس يفترش صهوته ولا ينزل عنه، وتلك منزلة الجنود لا القادة، والصعاليك لا الملوك.

وقد ردّ ابن معقل الأزدي في "**مآخذه على شرح المتنبِّي على ابن جِنِّي**" في عيبه بيت عنترة بقوله: لا يلزم إذا قال:

وأبيتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ

أن يظل أيضًا فوقه، بل يحتمل أن يظل نهاره مرتقبًا كامنًا طلبًا للغارة، ويمسي ليلة ساريًا لئلاّ ينكشف، فيصابح الغارة صباحًا كعادتهم الجارية على ذلك، ويدل عليه قول لبيد:

فَعَلَوْتُ مُرْتَقِبًا على مَرْهوبةٍ ... حَرجٍ على أعلامِهِنَّ قَتامُهَا
حتى إذا أَلْقَتْ يَدًا في كافرٍ ... وأجنَّ عَوْراتِ الثُّغورِ ظَلامُهَا
أَسْهَلْتُ وانْتَصَبَتْ كجِذْعِ مُنِيفَةٍ ... جَرْدَاَء يَحْصَرُ دُونَها جُرَّامُهَا(٤٢)

وتلك لطيفة تزيل ما عساه يعلق بالبيت من قدح، فالشاعر ذكر امتطاء صهوة جواده ليلاً، لكنه لم يذكر النهار، ولا يستوجب ذِكره الليل بقاءه عليه نهاره، مع استحالة ذلك عقلاً، وردّه واقعًا، ومراده أن يذكِّر عبلة بشدة مكابداته، وقوة تحمّله، فليس من الخاملين الوادعين الذين يرفلون في نعيم العيش وأطايبه، وإنما هو فارس يكمن ليله فوق فرسه طلبًا للغارة، فإذا نال ما ارتجاه بقوة باسه، وحسن تدبيره عاد ليعيش عزيزًا مهاب الجانب.

**ثالثًا- نقد الصورة:**

عرّج النقّاد في معرض حديثهم عن شِعر عنترة على بعض ملامح الصورة، وأثنوا في تضاعيف ذلك على حسن وصفه، وبديع تصويره،

وقدرته على التشبيه قدرة أحلته السبق، وقدمته في بعضها على أقرانه من شعراء عصره ولاحقيه، وكانت سبب تميّز، ودليل تفرّد، ومن ذلك قول عنترة:

فترى الذُّبَابَ بِها يُغَنِّي وحْدَهُ غَرِدًا كَفعلِ الشّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنَادِ الأجْذَمِ

فقلّما تجد ناقدًا من الأقدمين إلا وراقه بيتي عنترة، وأثنى على خياله في تصويره، وراقه تشبيهه، يقول ابن رشيق[43] "ومن التشبيهات عقم لم يسبق أصحابها إليها، ولا تعدى أحد بعدهم عليها، واشتقاقها فيما ذكر من الريح العقيم، وهي التي لا تلقح شجرة ولا تنتج ثمرة، نحو قول عنترة يصف ذباب الروض".

وسبقه الجاحظ[44] إلى التصريح بمثل حكمه فقال: "لم يدع الأول للآخر معنًى شريفًا ولا لفظًا بهيًّا إلا أخذه، إلا بيت عنترة"، وذكر ثانية في "**الحيوان**"[45] وقد عرض لقول بشّار: "وهذا المعنى قد غلب عليه بشّار، كما غلب عنترة على قوله... البيتين، وأردف البيتين بقوله: فلو أنّ امرأ القيس عرض في هذا المعنى لعنترة لافتضح".

ولم يخف ابن قتيبة شديد إعجابه ببيتي عنترة فمهّد لهما بقوله: "وممّا سبق إليه ولم ينازع فيه قوله"، ثم أعقبهما بقوله: "وهذا من أحسن التشبيه[46]".

وتابعهم صاحب"**الصناعتين**" فقال: "وما يعرف للمتقدّم معنى شريف إلا نازعه فيه المتأخّر وطلب الشركة فيه معه إلا بيت عنترة[47]".

وذكر ابن حجة الحموي[٤٨] في حديثه عن سلامة الاختراع قوله: هذا النوع، أعني سلامة الاختراع: هو أن يخترع الشاعر معنًى لم يسبق إليه، كقول عنترة في وصف الذباب... البيتين، ثم عقب عليهما بقوله: هذا المعنى إذا تأمّله المتأدب، وتخيّله في فكره يجده غريبًا في بابه، فإنه قال: إنّ هذا الذباب لَمّا خلا بهذه الروضة التي أعاد الضمير إليها في قوله: بها، صار هزجًا مترنّمًا يحكّ ذراعه بذراعه من الطرب الذي اعتراه، فشبّهه عنترة برجل أجذم قاعد يقدح زنادًا بذراعيه، والأجذم المقطوع اليد، والتقدير في البيت قدح الأجذم المكبّ على الزناد.

ورغم إعجاب المتقدمين من نقّاد العربية وأدبائها بتصوير عنترة، ودقة تشبيهه، فثمّة من عابه من المتأخرين، ورأى فيه ما لم يره سابقوه، فوسم عنترة بالتناقض، وأورد تشبيهه في معرض الفاسد المتوهم، ومن هؤلاء اليازجي الذي عرض لتشبيه عنترة فعابه، ونقل رأيه تيمور في كتابه "**أوهام شعراء العرب في المعاني**"[٤٩] فقال: إنّ صوت البعوض والذباب والنحل وأشباهها يحدث من اهتزاز أجنحتها في الهواء على حد ما يكون من أجنحة الحمام. وعلى هذا ففي قول عنترة تناقض ظاهر لأنه لا يمكن أن يحكّ الذباب إحدى ذراعيه بالأخرى إلا وهو واقع، ومتى كان واقعًا تكون أجنحته ساكنة فلا يمكن أن يصوّت، ولكن عنترة توهّم أنّ صوته من حنجرته فلم يمتنع عنده الجمع بين هاتين الحاليتين.

وتشريح جزئيات الصورة وتفصيلاتها من الداخل يفسد كثيرًا من

التشبيهات العربية المستملحة، والمركبة منها ينظر فيها على الكلية والهيئة، وغاية عنترة في وصفه صورة الأجذم الذي انكب على الزناد يحكه كي يقتدح منه الشرر، ولو اجتهد مبدع في تصوير ذلك لما استطاع أن يصل إلى أفضل مما وصل إليه عنترة في تشبيهه، فهيئة الذباب يحك جناحيه ببعضهما في حركات متتالية يشبه هيئة الأجذم الذي يقدح النار ويوريها بذراعيه في تتابع حتى تتّقد، وتلك الغاية من التشبيه هي التي جعلت ناقدًا كابن طباطبا العلوي(٥٠) يمهّد للبيتين بقوله: " وَأَمّا تَشْبيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ حَرَكَةً، وهَيْئَةً، فكقَوْلِ عَنْترة".

وقد فصّل أبو العباس التيفاشي في سرور النفس(٥١) كيفية إيقاد النار وطريقة اقتداحها، متعجبًا في النهاية من دقة تشبيه عنترة، وحسن معرفته بدقائق ذلك في كلام طويل نستأنس منه بما يجلّي بعض أبعاد القضية، فقد قال: صفة الزندة: عود مربع طولَ شبر أو أكثر، في عرض إصبع أو أشفَّ، وفي صفحاتها فُرَضٌ، وهي نُقَرٌ، والزند الأعلى نحوها غير أنه مستدير وطرفه أدقُّ من سائره، وإذا أراد المقتدح الاقتداح وضع الزندة ذات الفراض بالأرض، ووضع رجليه على طرفيها، ثم جعل طرف الزند الأعلى في فُرْضَةٍ من فراضِ الزّندة، وقد تقدم، فهيّأ في الفرضة مجرًى للنار إلى جهة الأرض، يحزّ فيه بالسكين في جانب الفرضة، ثم فَتَل الزندة بكفَّيه كما يُفتل المِثْقَب، وقد ألقى في الفُرْضَة شيئًا من التراب يسيرًا يبتغي بذلك الخُشْنَة ليكون الزند في الزندة، وقد جعل إلى جانب الفرضة عند

مُفْضى الحزّ ريَّة تأخذ فيها النار، فإذا فتل الزند لم يلبث الدخان أن يظهر، ثم تتبعه النار، تنحدر في الحزّ وتأخذ في الريّة، وتلك النار هي السِّقط، فهكذا يُقْتَدَحُ بالزناد. ولذلك شبّه عنترة حكَّ الذباب ذراعه بذراعه –وذلك عادة في الذباب– باقتداح الأجذم، وهو المقطوع الكف، كأنّه إذا أراد الاقتداح وقد عدم كفّيه احتاج إلى فَتْلِ الزند بذراعيه.

ثم إنّ قضية صوت الذباب التي اعتمدها اليازجي وتيمور أساسًا للقدح في تشبيه عنترة، والتقليل من صورته لا تستقيم في موازين النقد الموضوعي، فقد عرفت في العصور المتأخرة بفضل التقدم، ولم تكن معلومة آنذاك، وهل يحاسب عنترة على عدم درايته بأنّ صوت الذباب ينبعث من حركة جناحيه لا من حنجرته؟.

إنّ وصف عنترة يشي ببديع قدرته على التصوير والتشبيه، وتمكنه من الربط بين المتباعدات، وحسن توظيفه عناصر بيئته؛ وصولاً إلى معناه الذي إليه يقصد دون تكلّف ملفت، أو تصنّع باد.

نظر ابن سعيد(٥٢) إلى أشعار عنترة، فأعجبته صوره، وراقته معانيه، فأحلّه الصدارة بين شعراء عصره غير آبهٍ بتأخير بعد المتقدمين له، فقال: "إن كانوا قد جلوه في ترتيب الكتاب المصنف في أشعار الجاهلية آخرًا فإنه المتقدم بالنظر إلى معاني الغوص فمن يصدر عن فكرته مثل قوله:

جـادَتْ عَلَيـهِ كلُّ عيـنٍ ثـرّةٍ فَتَركـنَ كلّ حديقَـةٍ كالدّرْهَـمِ
فترى الذُّبَابَ بِها يُغَنّي وحْدَهُ غَـرِدًا كَفعـلِ الشّـارِبِ المُتَرَنّـمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَـهُ بذِراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ على الزّنَادِ الأجْذَمِ

ومن جملة هذه القصيدة:

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ والرّمَاحُ نَواهِلٌ مِنّي وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقبيلَ السّيُوفِ لأنّها لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

ومن محسناته في التشبيه قوله:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّها أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ

كما يشبّهون السيوف عند الانتضاء بعقائق البُرُوق، كما قال:

وسَيْفِي كَالعَقِيقة[٥٣] وهو كِمْعِي[٥٤] سِلاَحِي لا أفلَّ[٥٥] ولاَ فُطَارَا[٥٦]

والعرب تتمدح بذلك وترى أنّ تمام زيّها وكمال أبّهتها في تقلّد السيوف ولبس العمائم، ... ولا تزال العرب عربًا ما لبست العمائم وتقلّدت السيوف ولم تر الحلم ذلاًّ.

وقد راق السريُّ الرفاء[٥٧] تشبيه عنترة، وحسن معناه، فقال: ويشبّهون السيف بالعقيقة وهي البرقة المستطيلة في الغيم كقول عنترة... البيتين، ففيه تشبيهان الاستطالة والتلألؤ.

وبلغ من بديع اتساق صورة عنترة، وبديع تشبيهه أن عبر عن المعاني بما يشاكلها هيئة، ويتناغم معها شكلا، مع تنوّع اللفظ، وتباين العبارة، وقد راق هذا المنزع ابن رشيق فقعد له في عمدته[٥٨]، وأطر له بقوله: أمّا الاشتراك في المعاني فنوعان: أحدهما: أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما، فيتباعد اللفظان، وذلك هو الجيّد المستحسن، ومنه قول عنترة:

صَعْلٍ يَعُودُ بذي العُشَيْرَةِ بَيضَهُ كالعَبدِ ذي الفَرْوِ الطّويلِ الأصلَمِ[٥٩]

فشبّهه بعبد طويل عليه فرو أصلم، أي: قصير الذيول، وإنما خص الفرو لأنهم كانوا يلبسونه مقلوبًا، وجعله عبدًا لبياض ساقيه وعنقه وإشرابهما الحمرة يعني صفات الروم، ولم تكن العبيد في ذلك الوقت إلا بيضًا؛ فهذا اشتراك في وصف الظهر والقوائم واختلاف في اللفظ والعبارة.

وقد يعبّر الشاعر عن مكنونات نفسه، وخفيات صدره بأكثر من عبارة، يأخذ بعضها بحجز بعض؛ وصولاً إلى ضميمة يقصدها، ومراد يتغاياه، وهو حين يعمد إلى ذلك يرى أنّ الإلحاح على المعنى لامناص عنه، ولا يكفي واحد عن تاليه، وهو ما أطلق عليه البلاغيون "التنكيت"، يقول ابن أبي الأصبع[٦٠] في ثنايا حديثة عن ذلك: "والتنكيت هو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون أشياء كلها يسد مسده، لولا نكتة في ذلك الشيء المقصود ترجح اختصاصه بالذكر دون ما يسدّ مسدّه، ولولا تلك النكتة التي انفرد بها لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهرًا عند أهل النقد.

ومن بديع أمثلة هذا الباب قول عنترة، وهو مما يسأل عنه:

ما راعَني، إلاّ حَمُولَةُ أهلِها　　وَسْطَ الدِّيارِ تَسفُّ حَبَّ الخِمخِمِ
فيها اثنَتانِ وأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً　　سُودًا كخافيَةِ الغُرابِ الأسْحَمِ

فإنّ لفظة الحمولة تدل على الرحيل، وكذلك كونها وسط الديار وعلوفتها هذا الحَب المخصوص يدل على بعد الرحلة، فإنه حَبٌّ يقوِّي

أعصاب الإبل، وهذا العدد من الحلوبات السود الصقيلة الحسان يدل على كثرة المال وانتخابه، وكذلك لا يكون إلا للملوك، فهو يدل على أنّ المعشوقة من بنات الملوك، وفي ذلك فخر لمن يميل إليها.

عدّ أسامة بن منقذ قول عنترة:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ

من بديع التشبيه(٦١)، و تابعه في ذلك ابن أبي عون في تشبيهاته، فذكر أنّ بيت عنترة من حسن التشبيه في الرماح، وقد "شبّه الشاعرُ الرماحَ في طولها بالحبال التي يستقى بها من الآبار(٦٢)".

وقد أورد صاحبا **حماسة الخالديين**(٦٣) بيتي عبد الله بن الحارث:

إذا طلعتْ شمس النهار مريضةً وجُرّد بالأيدي السيوفُ القواطعُ

وأشرِع أطرافُ الرِّماح كأنَّها حبالُ جَرورٍ مدَّهن النوازعُ

ثم عُلِّق عليه بالقول: "إذا طلعتْ شمس النهار مريضةً"، يقول: إنَّ يوم الحرب يكسو نور الشَّمس بما يرتفع من الغبار كأنَّها مريضة.

وقوله في وصفه الرماح: "وأشرع أطراف الرِّماح" البيت، مثل قول عنترة بن شدّاد: "أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ"، وقد أحسن المؤلف الربط بين المعنيين، وتبيان أخذ ابن الحارث من عنترة وتأثره به، إلا أنّ العجب أنه عاد فعرض بمعنى عنترة، وكأنه ينتقصه تلميحًا، ويعيبه تعريضًا، فقال "فأمّا قول عنترة: "أشطانُ بئر في لبان الأدهم"، فيجوز أن يكون أراد طولاً، ويجوز أن يعترض عليه معترضٌ فيُعلّ بيته، إذ لم يذكر طولاً ولا قصرًا.

ومعلـوم أنّ الآبـار في جزيـرة العـرب مـوردهم للـري، ومقـصدهم للاستسقاء، وطلب الماء، وهـذه الآبار، وعيـون الماء عميقـة تحتاج إلى حبال طوال ودلاء لاستخراج الماء من بطونها في الأعم الغالب، فليس ثمة ما يـدعو إلى وصـف الرشـا والحبـال بـالطول عنـد القـصد، إذ هـي مـن البدهيات في عقولهم، ولعل هـذا مـا دفـع أصـحاب الـشروح إلى القـول: "شـبه الرمـاح في طولها بالحبـال الـتي يـستقى بهـا مـن الآبـار[٦٤]"، وعليـه فتصريح عنترة بالطول، أو إغضاؤه الطرف عن الوصـف سيان في تأديـة المعنى الذي أراده سابكه، ثم إنّ غرضه تقاذف النبال، وتزاحم الرماح في صدر فرسه، وهذا كاف للتدليل عن ثقل مـا يكابـده، ووقـع مـا يعانيـه، وليس وكده -والحالة تلك- تبيان طول الرماح وعرضها، فهذا ما لم يقل به أحد، وعليه فلا محل للمغمز، ولا مكان للتعريض، فقد أحسن عنترة في معناه وأصاب.

وقـد سـاق النقّـاد أمثلـة عديـدة[٦٥] مـن تـشبيهات عـنترة في مؤلفـاتهم، وأثنـوا عليهـا اقتـضابًا، وقـد اكتفـت الدراسـة بالإشـارة غنـاء عـن الـسرد والتطويـل، فليراجعهـا مـن أرادهـا في مظانهـا مـن كتـب النقـد والبلاغـة والمتخيّرات عن العرب.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

* جامعة القصيم- كلية العلوم والآداب بالرس- قسم اللغة العربية- الرس- القصيم.

(١) انظر : **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي**، تح: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧١م، ج١/١٥٧.

(٢) انظر **ديوان عنترة** تحقيق ودراسة (دراسة علمية محققة على ست نسخ مخطوطة) لمحمد سعيد مولوي، طبعة المكتب الإسلامي، ٢٨٣.

(٣) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** لابن الأثير، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ج١/٢٩٩، ٣٠٠.

(٤) السابق ١/٢٩٣، ٢٩٤.

(٥) **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** للقلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣/٢٤٥.

(٦) السابق ٣/٢٤٥.

(٧) انظر **المثل السائر** لابن الأثير ١/٣٠٠.

(٨) أقوى: خلا، والمقوون الذين فني زادهم، كأنهم خلوا من الزاد، وقيل المسافرون كأنهم نزلوا الأرض القواء، وأقفر معناه كأقوى، إلا أنّ العرب قد تكرر إذا اختلف اللفظان، وإن كان المعنى واحدًا.

(٩) **شرح المعلّقات السبع** للزَّوْزَني، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢٤٦.

(١٠) البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٢/٨.

(١١) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ٣/١٠٠-١٠٣.

(١٢) **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** للعلويّ، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٢/١٢٣.

(١٣) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ٢/٢٧٨.

(١٤) **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** للهاشمي، تح: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١/٢٠١.

(١٥) انظر **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ٣/١٠٠-١٠٣، وقد ساق نحو ذلك العلوي في الطراز فقال: والمختار عندنا فيه تفصيل، وحاصله أنا نقول: أما الناثر فلا يغتفر له مثل هذا، وهو أن يأتي بكلمتين دالتين على معنى واحد من غير فائدة، ودودًا في النثر من العيّ المردود فلا نقبله، وأمّا الناظم فإنه إن أتى بهما فى صدر البيت فلا عذر له في ذلك؛ لأنه مخالف للبلاغة والبراعة في الفصاحة، ويدل على ضيق العطن في الطلاقة والذلاقة، وإن كان في عجز الأبيات فما هذا حاله يغتفر له من أجل الضرورة الشعرية، وقد اغتفر أئمة الأدب للشعراء كثيرًا من الضرورات. انظر **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** للعلوي ٢/٩٩-١٠٠.

(١٦) **تاج العروس** مادة شرع.

(١٧) **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** للشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج١/٣٧.

(١٨) **قواعد الشِّعر** لثعلب، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م، ص٥٧.

(١٩) **الكامل في اللغة والأدب** للمبرِّد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج١/٢٧.

(٢٠) **ديوان عنترة** ٢٦٣. وحرق جناح الطائر إذا نسل الشعر والريش، كأنه يحترق فيسقط ويتناثر، وقيل الحرق هو الأسود، ولحيي رأسه: يريد فكيه، أو منقاره ، والجَلَمُ: مَا يُجَزُّ بِهِ الصُّوفُ والشَّعرُ من مقصٍّ وغيره، والجَلَمَان شَفْرَتاه. وقد شبه الشاعر منقاره إذا فتحه ليصوت بالجلمين، وخص الجلمين بالذكر لأنه أراد تفريقه بين الأحبة وقطعه ما بينهما كالجلمين، وهشٌّ: مسرور فرح بأن يخبر بالفراق.

(٢١) **البيان والتبيين** للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، جـ١/٨٦.

(٢٢) انظر: **الشعور بالعور** للصفدي، تح: د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، عمّان، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ج١/١٠١. وانظر كذلك: **الحيوان** للجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ج٢/٤١٨.

(٢٣) **البيان والتبيين** للجاحظ ج١/٨٦.

(٢٤) **الصناعتين** لأبي هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩ هـ، ص١٤٤.

(٢٥) **الصناعتين** ١٤١، ١٤٢.

(٢٦) السابق ١٤٤.

(٢٧) انظر **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** ٢/٢٩٥، ٢٩٦.

(٢٨) **البديع في البديع** لابن المعتز، دار الجيل، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ١/١٦٦-١٧٤.

(٢٩) السابق ١/١٧٠.

(٣٠) **الحيوان** ١/٢٩.

(٣١) انظر **العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه** لابن رشيق القيرواني، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، جـ١/٢٩٧ (باب التشبيه).

(٣٢) **التذكرة الحمدونية** لأبي المعالي بهاء الدين ابن حمدون، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، جـ٥/٢٨٨.

(٣٣) **ديوان عنترة** ١٩٨.

(٣٤) العرب كانوا يجعلون الفراش حَشية، أي شيئًا محشوًّا بصوف أو قطن أو ليف ليكون أوثر للجنب.

(٣٥) سراة كل شيء أعلاه، ويقصد به ظهر الفرس.

(٣٦) **الفِسر شرح ابن جِنِّي الكبير على ديوان المتنبِّي** لابن جِنِّي، تح: د. رضا رجب، دار الينابيع دمشق، ط١، ٢٠٠٤م، جـ٢/٥٩٥-٥٩٦.

(٣٧) **شرح المعلّقات السبع** للزَّوْزَني، ص٢٥٠.

(٣٨) **الفِسر** ٢/٥٩٤.

(٣٩) العرب كانوا يجعلون الفراش حَشية، أي شيئًا محشوًّا بصوف أو قطن أو ليف ليكون أوثر للجنب.

(٤٠) سراة كل شيء أعلاه، ويقصد به ظهر الفرس.

(٤١) **الفِسر**، ج٢/٥٩٥-٥٩٦.

(٤٢) **المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبِّي** لابن معقل الأزدي تح: د. عبد العزيز ابن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط٢، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م، جـ١/١٨٧.

(٤٣) **العمدة** جـ١/٢٩٧ (باب التشبيه).

(٤٤) **البيان والتبيين** ٣/٢١٤.

(٤٥) انظر **الحيوان** ٣/٦٥.

(٤٦) انظر **الشِّعر والشعراء** لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ، جـ١/٢٤٦.

(٤٧) **الصناعتين** ٢٢٣.

(٤٨) انظر **خزانة الأدب وغاية الأرب** لابن حجة الحموي، تح: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤م، جـ٢/٣٦٢.

(٤٩) انظر **أوهام شعراء العرب في المعاني** لأحمد تيمور، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٠/١١.

(٥٠) **عيار الشِّعر** لابن طباطبا العلوي، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٢٩.

(٥١) انظر: **سرور النفس بمدارك الحواس الخمس** لأبي العباس التيفاشي، هذبهُ: ابن منظور، تح: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ص٣٤٩.

(٥٢) انظر **المرقصات والمطربات** لابن سعيد الأندلسي، تح: د. إبراهيم الجمل، وعبد الحميد هنداوي، دار الفضيلة، ٢٠٠٢م، فقد ابتدأ الكتاب بذكر مختارات من شِعر امرئ القيس، ثم اتبعها مباشرة بأشعار عنترة.

(٥٣) العقيقة لمعة البرق.

(٥٤) كِمعي ضجيعي، يريد أنه إلى جانبي.

(٥٥) أفلّ به فلول.

(٥٦) والفطار الذي لم يصقل فهو متشقق.

(٥٧) **المحب والمحبوب و المشموم والمشروب** للسريّ الرفّاء، تح: مصباح غلاونجي، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، جـ٤/١١٤.

(٥٨) **العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه** ٢/٩٩.

(٥٩) الصعل: ذكر النعام الصغير الرأس. يعود: يتعهد. ذو العشيرة: اسم موضع. الأصلم المقطوع الأذنين.

(٦٠) **تحرير التحبير في صناعة الشِّعر والنثر** لابن أبي الإصبع العدواني، تح: د. حفني شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، ص٥٠١.

(٦١) **لباب الآداب** لأسامة بن بن منقذ، تح: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٦٩.

(٦٢) **شرح المعلّقات السبع** للزوزني ٢٦٣.

(٦٣) انظر **حماسة الخالديين** المعروفة **بالأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين** للخالديين أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، و أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي، تح: محمد علي دقة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٥م، ص٤٢.

(٦٤) **شرح المعلّقات السبع** للزوزني ٢٦٣.

(٦٥) ومن أمثلة ذلك مثلاً قول المبرِّد في **كامله**: ومن حسن التشبيه قول عنترة:

وغادرن نضلة في معرك     يجر الأسنة كالمحتطب

يقول: طعن وغودرت الرماح فيه، فظل يجرها، كأنه حامل حطب.

انظر: **الكامل في اللغة والأدب** ٣/٣٦.

# ثورة ابن مضاء النحوية:
# انتصار للظاهرية أم غيرة على العربية؟

بقلم: د. آمنة بن منصور*

**تمهيد:**

اضطلع الأندلسي في فنون الأدب كما اضطلع في اللغة وغريبها، وكانت له اجتهادات وسجالات في المسائل النحوية على غرار ما كان واقعًا في المشرق، بل إنّ هناك من علماء اللغة الأندلسيين مَن تصدّى بالردّ على نحاة المشرق وعلى نظرياتهم وقواعدهم التي استنبطوها بعد بحث وتمحيص، وعلى رأسهم ابن مضاء الأندلسي (ت ٥٩٢هـ) الذي ألّف كتابًا سمّاه "**الرد على النحاة**"، وفيه تعرّض للمسائل النحوية التي أثارها ابن جِنّي وسيبويه وغيرهما منتقدًا إياها حينًا ومفنّدًا حينًا آخر.

و"ليس غريبًا أن يلقى هذا العِلم -النحو- اهتمامًا عظيمًا عند أهل المشرق والمغرب، وذلك لصلته الوثيقة بمصدري التشريع الإسلامي: القرآن الكريم والحديث الشريف"[١].

"ولم يكن علماء النحو في الأندلس بعيدين عن الفقه والتأثر بالمذاهب الفقهية، أسوة بعلماء المشرق، بل كان نحاة الأندلس أكثر تأثرًا بالفقه من غيرهم من العلماء"(٢).

و قد وجدنا "من علماء الأندلس من طلب النحو ليستعين به على الفقه والحديث أمثال العالم أحمد بن الأعرج، ومنهم من كان نحويًّا فقيهًا على المذهب المالكي أمثال أبي صالح المعافري..."(٣)، ومنهم من كان على المذهب الظاهري(٤) أمثال ابن مضّاء القرطبي الذي ذهب أغلب الدارسين إلى القول بأنّ ثورته على النحو لها خلفيات فقهية، مردّها المذهب الذي اتبعه صاحبنا، وقبله الدولة الموحدية قاطبة، ونحن نعلم أنّ الظاهرية تحارب وتعارض بشدة الأخذ بالقياس في الأحكام الفقهية، وقد أسقط ابن مضاء ذلك على النحو معترضًا هو الآخر على التمسك بالقياس في كل شاردة وواردة نحوية، فهل كانت غاية القرطبي النحوي التقرّب والتودّد لحكّام دولته، والانتصار لمذهبه، أم كانت غايته أبعد من ذلك: تيسير النحو على المتعلِّمين العرب وغير العرب؟

عاش ابن مضاء القرطبي في ظل دولة عُنيت كثيرًا بإيقاظ العقول وتنويرها، تلك هي الدولة الموحدية التي ازدهرت على أيامها الحياة العلمية والعقلية، وبرز فيها علماء تركوا بصمة واضحة في التاريخ، كابن طفيل وابن زهر وابن رشد...

"وكانت تلك الدولة تعتنق المذهب الظاهري الذي ينكر العلل والأقيسة في

الفقه والتشريع"(٥)، وقد ذهب شوقي ضيف، محقق كتاب "**الردّ على النحاة**" إلى القول: بأنّ "ثورة ابن مضاء على سيبويه ونحاة المشرق إنما هي امتداد لثورة دولة الموحدين"(٦)، "تلك الدولة التي ثارت على المشرق ودعت إلى الانتفاض على فقهائه وما سنُّوا وشرّعوا في الفقه الإسلامي، وقد تبعها ابن مضاء يدعو إلى الانتفاض على النحاة وما أصّلوا وفرّعوا في النحو العربي"(٧).

فالحرب على القياس النحوي إنما سبقته الحرب على القياس الفقهي الذي تأخذ به المالكية بينما تنفيه الظاهرية نفيًا شديدًا، ولا بأس إن عدنا قليلاً إلى الوراء وتحديدًا إلى زمن زعيم الظاهرية ابن حزم لنتبيّن أسباب الخلاف الدائر بين المذهبين(٨).

لقد كان ابن حزم "يشهد المهازل التي تجري على مسرح السياسة الأندلسية باسم الشريعة... [وكان يرى] أنّ هذه الموبقات والمفاسد إنما وقعت لتجاوز النصوص الشرعية وتأويلها والأخذ بالقياس والرأي الشخصي؛ فاختار الدراسة الفقهية في أول منزلة، ثم آثر مذهب الظاهريين -نفاة القياس والتعليل والتقليد والتأويل- و بقي يصارع في سبيل مذهبه هذا مؤمنا به إيمانا لا يتزعزع"(٩).

و حيث إنّ كل جديد يكون مرفوضًا بداية، فإنّ مذهب ابن حزم لم يلق كبير ترحيب من الأندلسيين، بل لاقى إنكارًا ونفورًا، خاصة وأنّ المذهب المالكي كان قد تمكّن منهم، ولعل أكثر الذين تصدّوا له أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ) في مناظرات طار ذكرها في الآفاق(١٠).

وما لبث المذهب الظاهري أن رسّخ جذوره، ووسّع أركانه، وكان من جملة اهتماماته النحو، الذي دعا ابن حزم العلماء والفقهاء إلى تعلّمه، منتقيًا لهذه الغاية "كتبًا سهلة وبسيطة... وخالية من العلل النحوية والأقيسة المنطقية التي طالما نادى بضرورة التخلص منها"(١١).

ولم يكد يبزغ الفجر على الدولة الموحدية حتى أعلنت حربًا ضروسًا على المذاهب الأربعة في المشرق، وتحديدًا في عصر يعقوب بن يوسف الموحدي الذي"كان قصده، في الجملة، محو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث"(١٢).

فشتّان إذًا بين زمن ابن حزم و زمن ابن مضاء، الأول عانى لينشر مذهبه، والثاني وجد دولة بأكملها تعتنق ذلك المذهب، مما ييسّر عليه ثورة أخرى يكون هو زعيمها بحق، تنادي بما تنادي به الدولة التي استوزرته، ولكن من جانب لغوي نحوي بحت.

فقد "مضت حقبة من الزمن على علماء الأندلس وهم يأخذون الكتب المشرقية كما هي، يدرسونها ويُدرِّسونها لطلابهم ومريديهم، ثم انتقلوا من تلك المرحلة إلى مرحلة أخرى تمثّلت في شرح تلك الكتب أو التعليق عليها، وأحيانًا تصويب أخطائها"(١٣).

ثم تعدّى تصويب الخطأ إلى رفض بعض اجتهادات نحاة المشرق جملة وتفصيلاً، وهو ما فعله ابن مضاء، ومن الغريب أنه "لم يُعن بتأليف كتاب ضد فقه المشرق، وإنما عُني بالتأليف ضد النحو المشرقي"(١٤)، مع علمه بأمور الفقه.

وهذا يطرح عدة احتمالات: إمّا أنه أدرك أن لا جدوى من تأليف كتاب فقهي معارض للمشرق مادامت دولة بساستها وقادتها وكل إمكاناتها تحارب الفقه المشرقي، وإمّا أنه اختار طريقًا آخر لا يقلّ أهمية ليدعم الثورة الفقهية؛ فاللغة والفقه يسيران وفق خط واحد، والثورة على القياس الفقهي تقابلها الثورة على القياس النحوي.

والاحتمال الآخر أنه رغب في تيسير النحو بعيدًا عن التعقيدات التي نفّرت المتعلمين منه.

غير أنّ ابن مضاء ردّ سبب ثورته على النحو إلى دافع ديني لا أكثر، يقول: "أمّا بعد، فإنه حملني على هذا المكتوب قول الرسول ﷺ: "الدِّين النصيحة"، وقوله: "من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ)، وقوله: "من قال في كتاب الله بغير عِلم فليتبوّأ مقعده من النار"[١٥]، ويضيف قائلاً: "وإني رأيت النحويين... التزموا ما لا يلزمهم وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما أرادوه منها، فتوعّرت مسالكها ووهنت مبانيها وانحطّت عن رتبة الإقناع حججها.... وأنا أنصحكم لا للاقتناء ولا للاكتساب، ولكن لابتغاء الأجر من الله و الثواب"[١٦]، فابن مضاء من خلال كلامه هذا حاول إبعاد أيّ تهمة عنه سياسية كانت أم مذهبية.

ولكن المتأمل في الأحاديث التي استشهد بها يستشف منها تلميحًا ضد المالكية الذين يأخذون بالقياس، والقياس لا يخرج عن الرأي، بل هو يدعو صراحة إلى إلغاء القياس النحوي منوّهًا إلى أنّ "العرب أمّة حكيمة...

فَلِمَ ينسبون إلى العرب ما يجهل به بعضهم بعضًا، وذلك أنهم لا يقيسون الشيء على الشيء ويحكمون عليه بحكمه إلا إذا كانت علّة حكم الأصل موجودة في الفرع"[١٧]، فإن لم يجدوا علة بحثوا عن التأويل والتخريج وهو ما رفضه ابن مضاء؛ لأنهم بذلك يخضعون اللغة للقياس لا العكس[١٨].

وبعد، فإننا نخلص مما سبق إلى انتصار ابن مضاء للظاهرية بدليل محاربته للقياس من جهة، ومحاربة الدولة التي استوزرته المذاهب الأربعة بالمشرق من جهة أخرى، وهذا بالطبع بعد الأخذ بعين الاعتبار أنّ الإنسان ابن بيئته يتأثّر بها، ويؤثّر فيها، فكيف إذا كان وزيرها وقاضي قضاتها؟

ولكننا إذا نظرنا إلى ثورة ابن مضاء القرطبي من زاوية حيادية، مبعدين الأحكام المسبقة، غاضّين الطرف عن مذهبه ومذهب دولته، فإننا نجد الرجل قد أصاب في كثير من الأحيان؛ ذلك أنّ النحو إنما وضع أول ما وضع حفظًا للغة العربية، وخوفًا من الوقوع في اللحن خاصة في القرآن الكريم، غير أنّ النحاة وضعوا له قواعد وأسسًا عقّدته وصعّبته، حتى أصبح المتعلّم اليوم أكثر شيء يخشاه النحو.

ويذهب زكريا أوزون إلى أبعد من هذا فيقول: "إنّ سيبويه -كونه فارسي الأصل- قام بوضع قواعد لأمثاله في ذلك الوقت كي لا يلحنوا في لفظ كلمات اللغة العربية.. وجاء -للأسف- من بعده بعض العرب ليعتمدوا تلك القواعد، وأخذوا يُعملون العقل في إيجاد التخاريج لما يشذّ عمّا جاء به سيبويه، عوضًا عن إعمال العقل في إيجاد البديل النافع"[١٩].

وقد ساق ابن مضاء عدة شواهد يأخذ بها النحاة ويؤاخذون عليها من خالفهم، مع أنها في منتهى البساطة ويمكن الاستغناء عنها، يقول: "قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه"[٢٠]، ومنها "إلغاء نظرية العامل"، ومنها "التأويل والتقدير في العبارات، ومثل ذلك زيد قام من التكلف اعتبار قام بها فاعل مستتر يعود على زيد، وزيد معنا في الجملة، ولا داعي لتقديره مع وجوده"[٢١].

ومن الأمثلة أيضًا التي يتعسّر على المتعلِّم فهمها باب الاشتغال، يقول:

"من الأبواب التي يظن أنها تعسر على من أراد تفهيمها أو تفهّمها؛ لأنها موضع عامل ومعمول، باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره، مثل قولنا: زيدٌ ضربتُه...[ورأيه] إن كان العائد على الاسم المقدّم قبل الفعل ضمير رفع، فإنّ الاسم يرتفع كما أنّ ضميره في موضع رفع، ولا يضمر رافع كما لا يضمر ناصب، إنما يرفعه المتكلم وينصبه اتباعًا لكلام العرب"[٢٢].

ويختم ابن مضاء بدعوته إلى إلغاء كل ما لا يفيد نطقًا. يقول: "ومما يجب أن يسقط من النحو الاختلاف فيما لا يفيد نطقًا، كاختلافهم في علة رفع الفاعل، ونصب المفعول، وسائر ما اختلفوا فيه من العلل الثواني وغيرها"[٢٣].

عندما أراد ابن حزم محاربة المالكية أعلنها صراحة، ودارت بين المذهبين مناظرات كثيرة، انتهت في كثير من الأحيان بتغلّب الإمام الظاهري على

غريمه، غير أنّ ابن مضاء في ثورته النحوية تلك لم يصرّح إلا بما تعلّق بالمسائل النحوية فقط، ولم يأت على ذِكر الظاهرية أو المالكية إلا ما قرأه الباحثون والدارسون بين الأسطر، وهذا النوع من القراءات والتأويلات يصيب حينًا ويخطئ حينًا آخر، خاصة إذا علمنا أنّ المذهب الظاهري تبنّته دولة بأكملها ولم يعدْ محاربًا أو مرغوبًا عنه كما كان في زمن ابن حزم، ثم إنّ رغبته في تيسير النحو واردة أيضًا، بل ربما قد يكون رفضه لما جاء به نحاة الشرق وعلى رأسهم سيبويه الداعي الذي جعل النقّاد يهاجمونه ويتهمونه بولائه للظاهرية، ولِمَ لا وهو ينقض ما جاء في قرآن النحو؟

على أني أضيف احتمالاً ثالثًا وهو رغبته في إثبات الذات الأندلسية، فلطالما رمي الأندلسي بالتقليد ووسم إنتاجه بالتبعية والمحاكاة، أفلا يكون هذا جهدًا أندلسيًّا خالصًا يضاهي جهود المشارقة؟ وهل "**كتاب**" سيبويه قرآنًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حتى إذا صاح واحد من أهل الأندلس معترضًا عدُّوا ذلك بهتانًا عظيمًا ابتدعه توددًا لحكّامه ومذهبه؟

فقد جاء في مقال لا يخلو من تعصّب التالي:

١. إنّ المذهب الظاهري الذي ألهم ابن مضاء فكرة (الرد على النحاة) مأخوذ من المشرق.

٢. إنّ ابن مضاء ألّف كتابه ابتغاء مرضاة سيده (يعقوب بن يوسف) بتطبيق آراء المذهب الظاهري الذي يرفض الفروع، والقياس، والتعليل، ومن ثم

رفض كل ما هو مشرقي، حتى أدّى بهم تعصّبهم هذا إلى إحراق كتب المذهب المالكي.

٣. إنه لم يفهم قصد النحاة في العامل، الذي هو أمارات وعلامات. وهو مضطرب فيه غير مستقر على رأي.

٤. إنه لم يكن مُلِمًّا بالقدر الكافي من الآراء، لذلك نراه قد يعمّم رأي البعض على النحاة.

٥. إنه لم يهدِ النحاة إلى النهج المستقيم ويخلّصهم من وعثاء الطريق كما قال الدكتور شوقي ضيف؛ لأنّ الآراء التي ذكرها كلها آراء لنحاة سابقين، وإنه لم يهدم النحو كما قال الدكتور طه حسين، لأنه أخذ بالجوانب المضيئة في النحو ونسبها إلى نفسه من دون الإشارة إلى أصحابها، فأخذ من سيبويه المعاني المحتملة بعد فاء السببية وواو المعية، وأخذ من خَلَف الأحمر والكسائي عدم التعليل أو التقليل منه، وأخذ من الفراء رفض تقدير متعلّق شبه الجملة، وأخذ من الجرمي في باب التنازع، وأخذ من آخرين(٢٤)...

لقد بلغ التعصّب بصاحب المقال أن رمى ابن مضاء بكل نقيصة، نافيًا عنه العِلم والفهم، متهمًا إياه بالتكسب والتملّق لصاحب دولته أو سيّده كما ذكر، "وابن مضاء الذي لم يقدح أحد في علمه وحدّة ذهنه، كل ما وُصف به أنه كان ذا آراء مخالفة لأئمة النحو"(٢٥).

وفي أيامنا وجدنا من الدارسين مَن نحا منحى ابن مضاء في الثورة على

تعقيدات النحو التي جعلت المتعلِّمين ينفرون منه، فهل هي المركزية الشرقية -قياسًا على المركزية الغربية- التي ترفض اجتهادات الآخر خاصة إذا كان هذا الأخر من المغرب أو الأندلس؟

وخلاصة القول إنّ ثورة ابن مضاء النحوية سواء كانت لها خلفيات مذهبية أم لا، فقد خدمت النحو من جهة النية في تيسيره، وهو أمر يجعل اللغة العربية أكثر مرونة خاصة عند الناطقين بغير العربية والمتعلِّمين الجدد.

**الهوامش:**

* أستاذة الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية، جامعة تلمسان- الجزائر.

(١) ينظر **المقدمة**: ابن خلدون، تح: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٦٠، ١٢٥٥-١٢٥٦.

(٢) **جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي**: فادي صقر أحمد عصيدة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٦، ١٦.

(٣) نفسه: ١٧.

(٤) "قام ببيان هذا المذهب عالمان أحدهما داوود الأصبهاني (ت٢٧٠هـ)، وهو أول من تكلّم به، والعالم الثاني ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، وإذا لم يكن له فضل الإنشاء فله فضل التوضيح والبيان والأدلة والبسط، وهو أشد استمساكًا بالظاهرية من داوود"؛ **محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية**: محمد أبو زهرة، مطبعة المدني، مصر، د.ط، د.ت، ٣٧٤-٣٧٥.

(٥) **الرد على النحاة**، ابن مضاء القرطبي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ٣-٤.

(٦) نفسه: ٣.

(٧) نفسه: ٧.

(٨) وقد يتساءل السائل: ما الفرق بين ظاهرية ابن حزم، ومالكية الباجي؟ والجواب هو أنّ الظاهرية كما يعرفها ابن حزم هي: "كل من لم يحمل كلام الله على ظاهره وعمومه ووجوبه فقد كفر"، أمّا مالكية الباجي فلا تقف عند حدود الألفاظ أو المعنى الأول الظاهر في النصوص، فالشريعة ليست "نصوصًا لغوية على أساس من قواعد النحو وأساليب البيان فحسب، بل هي قبل كل شيء إرادة المشرِّع من التشريع". ينظر: **الإحكام في أصول الأحكام**، ابن حزم الأندلسي، دار الاعتصام، القاهرة، د.ط، د.ت، ٣: ١٢٧، والمناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي: فتحي الدريني، الشركة المتحدة للتوزيع، ط٢، سوريا، ١٩٨٥م، ٢٧.

(٩) **ابن حزم رائد الفكر العلمي**: عبد اللطيف شرارة، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت، ٦٦.

(١٠) من المناظرات الطريفة التي جرت بينهما أنّ الباجي قال: "أنا أعظم منك همّة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت معان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر عليه بقنديل... فكان جواب ابن حزم... إنما طلبتَ العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته فلم أرج به إلا علوّ القدر العلمي في الدنيا والآخرة، فأفحمه". **ابن حزم الأندلسي**: سعيد الأفغاني، المطبعة الهاشمية، دمشق، دط، د.ت، ٣٨، هذا وقد ذهب أكثر من باحث إلى أنّ قصة المصباح ذات طابع أسطوري وبعيدة عن الواقع- ينظر: **مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي**: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط١، لبنان، ١٩٨٦، ٦٥.

(١١) جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي: ٢٥.

يقول ابن حزم "لابد للفقيه أن يكون نحويًّا لغويًّا وإلا فهو ناقص ولا يحلّ له أن يفتي لجهله بمعاني الأسماء وبُعده عن فهم الأخبار" - **الإحكام في أصول الأحكام**: ١: ٤٧.

(١٢) **الردّ على النحاة**: ١٦-١٧.

(١٣) **جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي**: ١٠.
انتقل الأدب الأندلسي في عهد الحكم من الاعتراف بالتلمذة إلى المنافسة الحقيقية لأستاذه المشرقي- **الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر**: محمد رجب البيومي، إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، السعودية، ١٩٨٠، ٣٢.

(١٤) **الرد على النحاة**: ١٩-٢٠.

(١٥) نفسه: ٧٢.

(١٦) نفسه: ٧٢-٧٣.

(١٧) نفسه : ١٣٤-١٣٥.

(١٨) فقد وجد "النحاة أنفسهم أمام نصوص استعملها العرب الفصحاء، ونقلها الأئمة الثقات، ومع ذلك عدُّوها من الشاذ الذي لا يقاس عليه، ولم تسعفهم الضرورة غالبًا في قبولها، فخطأها بعضهم، وردها بعضهم إلى القاعدة أو القياس بتقديرات صناعية، وهذا ما يعرف بالتخريج أو التأويل" - القياس في اللغة العربية: محمد حسن عبد العزيز: ٤١.

(١٩) **جناية سيبويه**: زكريا أوزون، رياض الريس للكتب والنشر بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢، ١٨.

(٢٠) **الرد على النحاة**: ٧٧.

(٢١) نفسه: ٥٦.

(٢٢) **الرد على النحاة**: ١٠٤-١٠٥-١٠٦.

(٢٣) نفسه: ١٤١.

(٢٤) مقال: ابن مضاء القرطبي في الميزان: أ. د. عائد كريم علوان: ٤٣، **مجلة اللغة العربية وآدابها**، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد ٦، ٢٠٠٨.

(٢٥) **تيسير النحو إلى عصر ابن مضاء القرطبي**: حازم سليمان الحلي، كلية التربية، جامعة السابع من أبريل، ٧.

# ألقاب الشعراء في أشعارهم
## توثيق ودراسة
## (٤)

بقلم: د. عبد الحميد محمد بدران❖

**فارس النعامة** / وهو الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة أبو بجير، ويقال له فارس النعامة، وكان مهلهل قتل ابنه وأسره ثم أطلقه فكان يقول(١): {الخفيف}

قَرِّبا مَرْبطَ النّعامَــةِ مِنِّـي　　　إنَّ بَيْعَ الكَرِيمِ بالشِّسْعِ غَالِي
قَرِّبـا مَرْبطَ النّعامَــةِ مِنِّـي　　　لقحت حَرْب وَائِل عَنْ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَّاتِهَا عَلِمَ اللهُ　　　وإنِّـي بشَرِّهَـا اليَـوْمَ صَـالِي

**الفـرَّار** / وهـو جَبَّار بـن الحَكَم السُّلَمِيّ يقال لـه الفرار السلمي، ذكره المدائني فيمن وفد من بني سليم على رسول الله ﷺ فأسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يدفع لواءهم إلى الفرّار، فكره ذلك الاسم، فقال له الفرار إنما سمّيت الفرّار بأبيات قلتها وأولها(٢): {الكامل}

وكتيبــة لبَّستُهــا بكتيبـــــةٍ　　　حتى إذا التبست نفضت لها يدي

فتركتهم تقص الرماح ظهورهم        من بين منعفر وآخر مسند

**قاتل الجوع** / وهو ثعلبة بن امرئ القيس بن كعب بن عمرو. وإنما سمّي قاتل الجوع لقوله[٣]: {الوافر}

قتلتُ الجوعَ في الشتواتِ حتى        تركتُ الجوعَ ليس له نكيرُ

**قاضي الشعراء** / وهو زهير بن أبي سلمى المزني، وسمّي بذلك لقوله: {الوافر}

فإِنَّ الحَقَّ مَقْطَعُه ثَلاثٌ        يَمِينٌ أو نِفَارٌ أو جَلاءُ

يقول: لا يقطع الحق إلا الأداء أو النفار وهو الحكومة أو الجلاء وهو العذر الواضح، ويروي يمين أو نفار، وهذه الثلاث على الحقيقة هي مقاطع الحق كما قال، على أنه جاهلي، وقد وكدها الإسلام[٤].

ويبدو أنّ إطلاق اللقب فيه نظر إلى قول أبي هلال العسكري: "وكان عمر رضي الله عنه يتعجب من صحة هذه القسمة... وكان يعجب أيضًا بهذا البيت ويقول لو أدركت زهيرًا لوليته القضاء لمعرفته"[٥].

**القُباع** / وهو عمرو بن عوف بن القعقاع، إسلامي، ولقّب بذلك لقوله[٦]: {الرجز}

إن كنت لا تدري فإني أدري        أنا القُباع وابن أم الغمر

**قتيل الهوى** / وهو المؤمل بن جميل بن يحيى بن أبي حفصة، شاعر كان في أيام المهدي يعرف بقتيل الهوى، وهو ابن عم مروان بن أبي حفصة، ولقب بذلك لقوله[٧]: {الخفيف}

قلن من ذا فقلت هذا اليماني    قتيـــل الهـوى أبو الخطـاب

قلـن باللــه أنـت ذاك يقينــا    لا تقل قـول مـازح لعـــاب

إن يكـــن أنت هو فأنت منانا    خاليا كنت أو مع الأصحاب

**القُطامي** / وهو عُمَير بن شيَيْمٍ التغلبي، وسمي القُطَامي لقوله[٨]:

{الرجز}

يَحُطُّهُـنَّ جانبًـا فجانبـــا

حطّ القُطامِيِّ القطا القَواربا

**قطنة** / وهو ثابت بن كعب أخو بني أسد بن الحارث بـن العتيك ويعـرف بثابت قطنة لأنه أصابه سهم في عينه في بعض حروب الترك فذهبت فجعل موضعها قطنة وقال فيه قائل[٩]: {البسيط}

لا يعـرف النـاس منه غير قطنته    وما سواها من الأنساب مجهول

وقيل: إنه قائل البيت[١٠].

**القطيـل** / وهو أبو ذؤيب الهذلي سمّي القطيل بقوله[١١]: {الوافر}

عليه الصَّخْرِ والخَشَبُ القَطِيلُ

قال ابن سيدة: وبهذا البيت سمّي القطيل، هذا قول ابن دريد وإنما هـو في روايـة الـسكري لـساعدة[١٢]، والبيـت لـساعِدَةُ بـن جُؤَيَّـة الهُـذلِيّ في **تـاج العروس** برواية[١٣]:    {الوافر}

إِذَا مَـا زَارَ مُجْنَـأَةً عَلَيْهَـــا    ثِقَالُ الصَّخْرِ والخَشَبُ القَطِيلُ

**القعقـاع**/وهو عمرو بن عبد الدار اليشكري سمّي القعقاع بقوله[١٤]:

{الطويل}

فخر أديم حين غاب صناعه وخر خباء تحته يتقعقع

**القفار**/وهو خالد ابن عامر أحد بني عميرة بن خفاف بن امرئ القيس سمّي بذلك لأنّ قومًا نزلوا به فأطعمهم الخبز قفارًا وقيل إنما أطعمهم خبزًا بلبن ولم يذبح لهم فلامه الناس فقال(١٥) : {الرجز}

أنا القفار خالد بن عامر لا بأس بالخبز ولا بالخاثر

أتت بهم داهية الجواعر بظراء ليس فرجها بطاهر

**القنا** /وهو عمرو القنا بن عميرة العنبري من بني تميم أحد رؤوس الخوارج وشعرائهم وفرسانهم وهم من بني عتبة بن ملادس بن عبء الشمس، وسمّي عبء الشمس لحسنه وعبؤها حسنها وضوؤها ابن ربيعة ابن زيد مناة بن تميم، وله من أبيات يصف فيها الخوارج(١٦) : {البسيط}

القائلين إذا هم بالقنا خرجوا من غمرة الموت في حوماتها عودوا

عادوا فعادوا كرامًا لا تنابلة عند اللقاء ولا رعش رعاديد

**اللجاج**/وهو عدي بن علقمة الجسري، سمّي اللجاج بقوله(١٧) :

{الطويل}

فما أنا باللجاج إن لم يرفعوا ذلاذل أثواب يجرونها رفلا

**لقيم الدجاج** /واسمه في **الوحشيات** عبد الله بن لقيم العبسي(١٨)، وقيل له :

لقيمَ الدَّجَاجِ لما قال في افتتاح خيبر، وهو يعني النبي ﷺ {الكامل}

رُمِيَتْ نَطاةُ من النبيِّ بفَيْلَقٍ شهْباءَ ذاتِ مَناكِبٍ وفَقَار

وهَب لَهُ دَجاج خَيبَر عن آخرها رواه أبو عمرو والمدائني عن صالح بن كَيْسان ولتلك الدَّجَاج قيل لقيم الدَّجَاج(١٩)، في القصيدة ذاتها يقول(٢٠):

{الكامل}

صبحت بني عمرو بن زرعة غدوة		والشق أظلم أهله بنهار

جرت بأبطحها الذيول فلم تدع		إلا الدجاج تصيح بالأسحار

ولكل حصن شاغل من خيلهم		من عبد الاشهل أو بني النجار

**المبرق**/ وهو عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي السهمي، كان من مهاجرة الحبشة، وقتل يوم اليمامة شهيدًا سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر الصدِّيق(٢١)، وسُمِّي المبرق بقوله(٢٢): {الطويل}

فإن أنا لم أبرق فلا يسعنني		من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر

**المتلمّس** / وهو جرير بن عبد المسيح، شاعرٌ جاهلي، من بني ضبيعة بن ربيعة، وأخواله بنو يشكر، واسمه جرير بن عبد المسيح، وسمّي المتلمس بقوله(٢٣):				{الطويل}

وذاكَ أَوَانُ العِرْضِ جُنَّ ذُبابُهُ		زَنَابِيرُهُ والأَزْرَقُ المُتَلَمِّسُ

**المتمنِّي**/ وهو عامر بن عبد الله الكلبي، سمّي المتمنِّي بقوله(٢٤):

{الطويل}

تمنيت إن ألقى لميسًا قتلتها		وأسر ابن أبدى بالسيوف القواضب

**المتنبِّي** / وهو بضم الميم وفتح التاء والنون وكسر الباء الموحدة المشددة اسم أبي الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي، وإنما قيل له ذلك لأنه ادّعى النبوّة في بادية السماوة فتبعه كثير من

كلب وغيرهم فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص للإخشيدية فأسره وفرّق أصحابه وسجنه طويلاً ثم أشهد عليه أنه تاب وكذّب نفسه فيما ادّعاه فأطلقه وطلب الشِّعر وقاله فأجاد وفاق أهل عصره وقيل إنما قيل له المتنبِّي ببيت قاله وهو[٢٥]: {الخفيف}

أنا في أمّة تداركها الله    غريب كصالح في ثمود

**المتنكب** / وهو عامر بن جابر الخزاعي، سمّي المتنكب بقوله[٢٦]:

{الطويل}

تَنَكَّبْتُ للحَرْبِ العضُوضِ الَّتي أَرَى    أَلا مَنْ يُحَارِبْ قَوْمَهُ يَتَنَكَّبِ

قال الزبيدي: والْمُتَنَكِّبُ الخُزَاعيُّ والسُّلَمِيُّ شاعِرَانِ، فالخُزاعِيّ اسْمُهُ عَمْرُو بْنُ جابر، لُقِّبَ بقوله: {الطويل}

تَنَكَّبْتُ للحَرْبِ العضُوضِ الَّتي أَرَى    أَلا مَنْ يُحَارِبْ قَوْمَهُ يَتَنَكَّبِ

والسُّلَمِيُّ يقالُ لهُ البَجَلِيُّ أَيضًا نقله الصّاغانيّ[٢٧].

**المثقب العبدي** / وهو عائذ بن محصن بن ثعلبة وقيل اسمه شأس بن عائذ ابن محصن بن ثعلبة بن واثلة بن عدي بن زهر بن منبه بن نكرة بن عبد القيس، وسمّي مثقبًا لقوله[٢٨]: {الوافر}

أرينَ محاسنًا، وكننَّ أخرى    وثقبنَ الوصاوصَ للعيونِ

ولقوله: {الطويل}

ظعائنٌ لا شوقي بهنَّ ظعائنٌ    ولا الثاقباتُ من لؤي بنِ غالبِ

**مجتني المروءة**/ وهو عبد الله بن أحمد الحنفي، وكان صديقًا لعبد الله بن المقفّع. وإنما لقّب بذلك لكثرة ذكر المروءة في شِعره وقوله[٢٩]:

{مجزوء الكامل}

لا تحسبنْ أنَّ المرو ... ءةَ مطعمٌ أو شربُ كاس

أوْ في الولايةِ والموا ... كبِ، والمراكبِ، واللباس

لكنها كرمُ الفرو ... ع، زكتْ على كرمِ الأساس

وقوله أيضًا: {مجزوء الكامل}

ليسَ المروءةُ بالدراهمْ ... بل المروءة بالمكارمُ

كم من عنيٍّ سفلةٌ ... ومقلٍّ قومٍ ذي معالمُ

**المجدع** / وهو المسيب بن نهار أخو بني بهثة من بني ضبيعة، يلقّب المجدع، يقول لقيس بن قرد المعروف بالخنزير التيمي[٣٠]: {الطويل}

ألم ترني جدعت عبسًا ولم يكن ... بأول عبد جدعته القصائد

فأجابه ابن قرد: {الطويل}

لقد جدعت أمّ المسيّب أنفه ... ببظر لها مثل الخضيلة وارد

**المجنون** / وهو قيس بن معاذ، أو قيس بن الملوح، لقب بالمجنون لذهاب عقله[٣١]، وقيل: إنما سمّي المجنون بقوله[٣٢]: {البسيط}

ما بال قلبك يا مجنون قد خلعا ... في حب من لا ترى في نيله طمعا

الحب والود نيطا بالفؤاد لها ... فأصبحا في فؤادي ثابتين معا

قال الأصمعي: لم يكن المجنون مجنونًا إنما جنّنه العشق وأنشد له:

{الطويل}

يسمونني المجنون حين يرونني نعم بي من ليلى الغداة جنون

**محبّر الغنوي** / وهو طفيل بن عوف وهو طفيل الخيل، وسمّي المحبر لحسن شِعره[٣٣]، وقيل سمّي بذلك لقوله يصف بردًا[٣٤]: {الطويل}

سماوته أسمال برد محبر وسائره من أتحمى معصب

**المحجّل** / وهو معاوية بن حزن بن موألة بن معاوية بن الحارث، وهو ممن فخر بالبرص ثم من بني رزام المحجّل، وكان بساقيه وضح، وسمّي المحجّل على الكناية من البياض، والكناية أيضًا من البرص، وهو الذي يقول[٣٥]: {الرجز}

يا مي لا تستنكري تحويلي ووضحًا أوفى على خصيلي

فإن نعت الفرس الرجيل يكمل بالغرة والتحجيل

**المحذق** / وهو جابر بن قيس الحارثي، سمّي المحذق بقوله[٣٦]: {الطويل}

وأحججتموا بالركب عنا وقلتم سقطنا على أم الربيق المحذق

**المخرق بن الممزق الشاعر** / وهو شأس بن نهار العبدي، قيل له ذلك لقوله[٣٧]: {البسيط}

أنا المخرقُ أعراضَ اللئامِ، كما كانَ الممزقُ أعراضَ اللئامِ أبي

**المخلل** / وهو نافع بن خليفة الغنوي، سمّي المخلل بقوله[٣٨]:

{الطويل}

أزب كلابي بنى اللؤم فوقه خباء فلم تهتك أخلته بعد

**مدرج الريح** / وهو عامر بن المجنون، من قضاعة، وسمّي مدرج الريح لقوله[٣٩]: {الكامل}

ولها بأَعْلى الجَـزْعِ رَبْـعٌ دارسُ دَرَجَتْ عليهِ الرِّيحُ بَعْدَكَ فاسْتَوَى

ويروى عنه أنه لما عمل نصف هذا البيت ارتج عليه، وأقام يكره مدة سنة، ولا يقدر يعمل له عجزًا. وكان قد دفن في نفس المنازل التي كان ينزلها دفينة، فذكرها وقال لجاريته أن تمضي وتخرج الخبيئة من تلك البرية والموضع الذي أعطاها علامته. فمضت الجارية، وقد اختلفت الرياح على تلك الأراضي، وعفت آثارها. فعادت ولم تجد شيئًا. فسألها عن الحال، فقالت:

درجتْ عليهِ الرِّيحُ بعدكَ فاستوى

فتمّم بيته بهذا، وسمّي مدرج الريح[٤٠].

ويرى أبو الفرج الأصفهاني أنه سمّي مدرج الريح بشِعر قاله في امرأة كان يزعم أنه يهواها من الجن وأنها تسكن الهواء وتتراءى له وكان محمقًا وشِعره هذا[٤١]: {الرمل}

لابنة الجني في الجو طلل دارس الآيات عاف كالخلل

درسته الريح من بين صبا وجنوب درجت حينًا وطل

**مرخية** / وهو جامع بن شدّاد الكلبي، وقيل (يزيد بن مرخية)[٤٢]، وقيل (شدّاد بن مالك بن شدّاد، من بني أبي بكر بن كلاب[٤٣]، سُمِّي مرخية لقوله[٤٤]: {الوافر}

وقد مدوا الزوايا من لحيظ فرخوا المحض بالماء العذاب

**المرعث**/ وهو بشّار بن بُرد ويكنّى أبا بشّار أبا معاذ، وإنما سمّي المرعث بقوله[٤٥]: {...}

قال ريم مرعث　　ساحر الطرف والنظر
لست والله نائلي　　قلت أو يغلب القدر
أنت إن رمت وصلنا　　فانج، هل تدرك القمر

وقيل: إنما سمّي بشّار المرعث لأنه كان لقميصه جيبان يخرج رأسه مرة من هذا ومرة من هذا، وكان يضمّ القميص عليه من غير أن يدخله في رأسه؛ قال: والرعث عند العرب الاسترخاء والاسترسال[٤٦] وقيل: سمّي بالمرعث لأنه ولد وهو مشقوق طرف الأذن، فقالوا: ولد مرعثًا، أي لم يحتج إلى أن تثقب أذنه[٤٧].

**المرقّش الأكبر**/ وهو ربيعة بن سعد بن مالك، ويقال: بل هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. سُمِّي مرقشًا لأنّ وجهه كان منقطًا. وقال[٤٨]: وقيل: لأنه كان يُزَيِّن شعره، أُخِذَ من قولهم رَقّشت الكتابَ أُرَقِّشُه ترقيشًا، قال في ذلك[٤٩]: وسُمِّي المرقَّش بقوله[٥٠]:

{السريع}

الدارُ قَفْرٌ والرُّسومُ كما　　رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

**المرني** / وهو جابر الكلبي سمّي المرني بقوله[٥١]: {الطويل}

إذا ما مشى يتبعنه عند خطوه　　عيونًا مراضًا طرفهن روانيا

**مزرد** / وهو بضم الميم وفتح الزاي وكسر الراء المشددة وفي آخرها دال

مهملة، واسمه يزيد بن ضرار بن سِنَان بن أُمَيَّة بن عَمْرو بنِ جحاش بن بَجَالة الغَطَفاني الذُّبْيَاني الثَّعْلَبي، وهو أخو الشّماخ، ولكنه اشتهر بِمُزَرِّد وإنما قيل له مُزَرِّد لقوله[٥٢]: {الطويل}

فَقُلْتُ تَزَرَّدْهَا عُبَيْدُ فإنَّني    لِدُرْدِ المَوَالي في السِّنِين مُزَرِّدُ

والبيت ليس لمزرِّد، وإنما للحادرة، وكانت تدور بينه وبين مزرِّد ملاحاة[٥٣].

**مُزَلِّج** / وهو بضم الميم وفتح الزاي مخفّفة وتشديد اللام مكسورة عند الأمير مفتوحة عند الدارقطني. وهما شاعران: قال ابن الكلبي إنما سمّي عبد الله بن مطر من بني حنظلة بن كعب بن سعد بن عوف بن حريم مزلجًا ببيت قاله[٥٤]، قال المرزباني: مزلج بن مخرم الشاعر من بني الحارث ابن كعب اسمه عمرو، زلجه قوله[٥٥]: {الطويل}

أجد لبانات الهوى لم تخلج    وساعة ما استودعت وصلاً فزلج

**المستوغر**/ وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن مناة بن تميم، مات في صدر الإسلام ويقال إنه عاش إلى أول أيام معاوية هو أحد المعمرين يقال إنه عاش ثلاثين وثلاث مئة سنة، وسمّي المستوغر لقوله في فرس[٥٦]: {الوافر}

يَنشُّ الماءُ في الرِّبَلاَتِ منها    نَشِيشَ الرَّضْفِ في اللَّبَنِ الوَغِيرِ

**مسكين الدارمي**/ وهو ربيعة بن عامر، من ولد عمرو بن عمرو بن عدس ابن زيد بن عبد الله بن درام، قال ابن قتيبة: وسُمِّي المسكين لقوله[٥٧]:

{الطويل}

وسمّيت مسكينًا وكانت لحاجةً      وإني لمسكين إلى الله راغب

وقيل: إنه لقب بقوله[٥٨]:      {الرمل}

أنا مسكين لمن أبصرني      ولمن حاورني جد نطق

فلمّا سُمِّي مسكينًا قال:      {الطويل}

وسميت مسكينًا وكانت لحاجةً      وإني لمسكين إلى الله راغب

**المطلع** / وهو ربيعة بن ليث العبدي، سمّي المطلع بقوله[٥٩]: {الطويل}

فإن لم أزر سعدى بجرد كأنها      صدور القنا يطلعن من كل مطلع

**المعقر**/ وهو سفيان بن أوس بن حمار أو عامر بن سفيان البارقي، سُمِّي المعقر بقوله[٦٠]:      {الطويل}

لها ناهض في الجو قد مهدت له      كما مهدت للبعل حسناء عاقر

معود الحكماء/ وروي (معوذ الحكماء) بالذال[٦١]، وهو معاوية بن مالك ابن جعفر بن كلاب العامري، وهو عمّ لبيد بن ربيعة الشاعر، وسُمِّي معود الحكماء بقوله[٦٢]:      {الوافر}

أعوّد مثلها الحكماء بعدي      إذا ما الحقّ في الأشياع نابا

وكنت إذا العظيمة أفظعتني      نهضت ولم أدبّ لها دبابا

إذا نزل السماء بأرض قوم      رعيناه وإن كانوا غضابا

**مُعَوِّد الفتيان**/ وهو ناجية الجرمي معود الفتيان، لأنه ضرب مصدق نجدة الخارجي فخرق بناجية فضربه بالسيف وقتله وقال (١): {الطويل}

أعودها الفتيان بعدي ليفعلوا　　كفعلي إذا ما جار في الحكم تابع

**المفترق**/ وهو سيار بن ربيعة اليشكري، سُمِّي المفترق بقوله[٦٣]:

{الطويل}

وعند بنات الصدر مني قصائد　　أنهنه من ريعانهن وأفترق

**المفرض**/ وهو بفتح الفاء وكسر الراء وتشديدها، هو زهدم بن معبد بن عبد الحارث بن هلال بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عجل بن لجيم الشاعر، سمّي المفرض بقوله[٦٤]: {مجزوء الكامل}

وأنا المفرضُ في جنو　　بِ الغادرينَ بكلِّ جارِ

تفريضَ زنـدةِ قادحٍ　　في كلها يورى بنارِ

**المفرّق**/ وهو أعرابي يلقّب بالمفرق، وقال الجاحظ: وقال رجل من جرم[٦٥]: {الطويل}

نبئتُ أخوالي أرادوا عمومتي　　بشنعاء فيها ثاملُ السُّمِّ مُنقَعا

سأركبها فيكم وأُدعى مفرِّقًا　　وإن شئتم من بعدُ كنت مجمِّعا

**المفضّل**/ وهو عامر بن معشر بن أسحم بن عدي، فضِّل بقصيدته المنصفة لقوله[٦٦]: {الوافر}

فأبكينا نساءهم وأبكوا　　نساء ما يسوغ لهن ريق

**مَقَّاس العائذي**/ وهو مُسْهِرِ بن النُّعْمَان بـنِ عَمْرو بـنِ رَبِيعَةَ بـنِ تَيْم بـنِ الحَارِثِ بنِ مالك بنِ عُبَيْد بنِ خُزَيْمَةَ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ العَائِذِيِّ الشاعِر، نِسْبَةً إِلى عَائِذَةَ بنتِ الخِمْس بن قُحَافَةَ، وهي أُمُّهم، وقيل له مَقَّاسٌ؛ لأَنَّ

رجُلاً قال هو يَمْقُسُ الشِّعْرَ كيفَ شاءَ، أَي يَقُولُه، وكُنْيَتُه أَبُو جِلْدَةَ[٦٧]، وقيل: وسُمِّي مَقَّاسًا ببيت قاله[٦٨].

**مقرن** / وهو مطر بن أوفى، أخو بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وهو قوله[٦٩]: {الوافر}

تقول المالكية أم عمرو رأيت مقرنا دون المغيب

قال المرزباني: أوفى واسمه مقرن بن مطر بن ناشرة من بني مازن بن عمرو بن تميم جاهلي. وهو أحد الرجلين المشهورين بالسعي كانوا لا يجارون عدوًا[٧٠].

**المقطع** / وهو الهيثم بن هبيرة بن عبد الله بن عامر بن حندج بن البكاء، قطّعه قوله[٧١]: {الطويل}

قد كنت أدعى هيثمًا فأصابني قوارع منها قد نسيت المقطعا

**المكدد** / وهو شريح بن مرة بن سلمة بن مرة بن حجر بن عدي بن ربيعة ابن معاوية الكندي، وهو شريح بن المكدد قال ابن الكلبي: قيل له المكدد ببيت قاله وهو[٧٢]: {الطويل}

سَلُوني فكُدُّوني وإني لبـــاذل لكم ما حَوَتْ كَفَّاي في العُسْر واليُسْرِ

**المكواة** / وهو عبد الله بن خالد بن حجبة بن عمرو بن عبد الله بن عابد، وإنما سُمِّي المكواة لكثرة ذكره الكي في شِعره، ولقوله[٧٣]: {الوافر}

ومثلكَ قد علَلْتُ بكأسِ غيظٍ وأصيدَ قد كويتُ على الجبينِ

وقال أيضًا: {الطويل}

وإني لأكوي ذا النسا من ظلاعه وذا الغلق المُعيي وأكوي النواظرا

وقال أيضًا: {الطويل}

لجيمٌ وتيم الله عزي وناصــري وقيسٌ بها أكوي النواظرَ والصّدا

**المزّق العبدي**/ وهو شأس بن نهارٍ بن أسود بن جزيل، وهو جاهلي قديم، وسُمِّي المزّق لقوله لعمرو بن هند(٧٤): {الطويل}

فإِنْ كُنْتُ مأكُولاً فكُنْ خَيْرَ آكلٍ وإلاَّ فأدْرِكْنــي ولَّما أُمَــزَّقِ

وإنما يقول هذا لبعض ملوك الحيرة.

**المنجنيقي**/وهو نجم الدين يعقوب بن صابر المنجنيقي، كان فاضلاً أديبًا شاعرًا برع على أهل صناعته في علم المنجنيق، ومن شِعره(٧٥): {الوافر}

وكنت سمعت أن النجم عند اسـ ـتراق السمع يقذف بالرجوم

فلمّا أن علوت وصرت نجمًا رجمت بكل شيطان رجيم

وله: {الطويل}

كلفت بعلم المنجنيق ورميــه لهدم الصياصي وافتتاح المرابط

وعدت إلى نظم القريض لشقوتي فلم أخل في الحالين من قصد خابط

**المنصف**/وهو يزيد بن عبد الله بن سفيان الضبي. كان يقال له المنصف والمعجب، والكميت فرسه وهو جاهلي يقول(٧٦): {الوافر}

كأني والكميت أجر رمحي بأكثبة القصيم على دوار

كأنّ جماجم الأبطال منا ومنهم بيننا فلق المحار

**منهب الرزق**/ وهو نهيك بن مالك ذكره المرزباني في **معجم الشعراء** وقال إنه جاهلي وكان يلقّب منهب الرزق، قال وكان قد قدم مكة بطعام ومتاع

للتجارة فرآهم مجهودين فأنهب العير بما عليها، قال وعاتبه خاله في إنهاب ماله بعكاظ فقال[٧٧] : {البسيط}

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به      وما يصيبك منه إنني مودي

إن نهيكا أبـــي إن خلائقــه      حتى تبيد جبال الحرة السود

**مهلهل**/ وهو امرؤ القيس بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم، وهو خال امرئ القيس بن ربيعة، وأخو كليب، ومهلهل لقب له، لأنه أول من أرق الشِّعر، وزعم ابن الكلبي أنه إنما سمِّي مهلهلاً بقوله لزهير بن جناب الكلبي[٧٨] : {الكامل}

لما توَّعر في الغُبَار هجينهُم      هَلْهَلتُ أثْأر جابرًا أو صِنبلاً

قال السيوطي: وفي "**طبقات الشعراء**" لمحمد بن سلام أنّ اسمه عدي، وأنه سمِّي مهلهلاً لهلهلة شِعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه، ويقال: سمّي مهلهلاً لأنه أول من أرق الشِّعر[٧٩].

**موسى الشهوات**/وهو موسى بن يسار مولى بني تيم قريش، وقيل هو مولى بني سهم بن عمرو بن هصيص، وقيل مولى بني عدي بن كعب، والثبت هو الأول، وسُمِّي شهوات بقوله ليزيد بن معاوية[٨٠] :

{الخفيف}

يا مضيع الصلاة للشهوات

وقيل سمّي شهوات لتشهِّيه على عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطعام فلقّب به؛ وكان من شعراء المدينة وظرفائهم وهو القائل[٨١] :

{الخفيف}

ليس فيما بدا لنا منك عيب　　عابه الناسُ غير أنك فاني
أنت خيرُ المتاع لو كنت تبقى　　غير أن لا بقاءَ للإنسان

**النابغة**/ وهو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة ابن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان. وسمِّي النابغة بقوله: {الوافر}

وَحَلَّت في بَني القَينِ بنُ جَسرٍ　　فَقَدْ نَبَغَتْ لنا منهم شُؤونُ

وقال آخر: إنما سمِّي النابغة لأنه نبغ بالشِّعر. والنوابغ أربعة: نابغة بني ذبيان، ونابغة بني جعدة، وهو قيس بن عبد الله، ونابغة بني الحارث، وهو يزيد بن إبان، ونابغة بني شيبان، وهو عبد الله بن المخارق. سمّوا لأنهم نبغوا بالشِّعر بعدما كبروا(٨٢).

**النذير**/ وهو الزُّبير بنُ عَمرٍو الخَثْعَمِيّ وكان ناكِحًا في بني زُبَيْد فأَرادَتْ بنو زُبَيْد أن يُغيروا على خَثْعَمَ، فخافوا أَنْ يُنْذِرَ قومَه فأَلْقَوا عليه بَراذِعَ وأَهدامًا واحتفَظوا به، فصادَفَ غِرَّةً فحاضَرَهم وكانَ لا يُجارَى شَدًّا فأَتى قومَه فقال(٨٣): {الطويل}

أَنا المُنْذِرُ العُريانُ يَنْبِذُ ثوبَه　　إذا الصِّدْقُ لا يَنْبِذْ لكَ الثَّوْبَ كاذِبُ

**النّصْب** / وهو مذعور بن السليل بن ديسق، سمّي النصب بقوله(٣):

{الطويل}

إني سيغنيني جفاء عشيرتي　　نجائب ترعاها لنا القين أو كلب
معقربة الأنساء مشاطة الكلي　　معودة الإيجاف سيرتها النصب

**النعامة** / وهو بيهس بن خلف الفزاري، سمِّي بيهس النعامة بقوله(٨٤):

{الرجز}

لأطرقن حيَّهم صباحًا لأبركن بركة النعامة

وقيل: إنما لقّب بيهس بنعامة لأنه كان شديد الصمم، وإذا دعا الرجل من العرب على صاحبه بالصمم قال اللهم أصنجه صنجًا كصنج النعامة، والصنج أشدّ الصمم(٨٥).

**الهجف**/ وهو كعب بن كريم بن معاوية بن ثعلبة، وقيل: كريم بن معاوية(٨٦)، وإنما سمّي الهجف لقوله(٨٧): {الطويل}

يرجي ابنُ معطٍ درّها وانتحالها هجف جفتْ عنه الموالي فأصعدا

**يزيد الغواني**/ وهو يزيد بن سويد بن حطان، أخو بني ضبيعة بن ربيعة، وهو القائل(٨٨): {الطويل}

فلا تدعوني بعدها إن دعوتني يزيد الغواني وادعني للفوارس

**الهوامش:**

* كلية اللغة العربية- المنصورة- جمهورية مصر العربية.

(١) **الإكمال** ٦/٦٠ و**نزهة الألباب** ٢/٦٤ **تاريخ اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١/٢٦٦ و**مجمع الأمثال** ١/٣٧٦ ويروى (بحرّها)، والنعامة فرس الحارث.

(٢) **أسد الغابة** ١/٣٨٨ و**ديوان الحماسة** ١/٥٧.

(٣) **المزهر** ٢/٣٧٤، و**المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٩.

(٤) **العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه** ١/٥٥، ٥٦ و**لسان العرب** ٨/٢٨٢ و**تاج العروس** ٢٢/٣٤.

(٥) **كتاب الصناعتين الكتابة والشِّعر**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦م، ٣٤٢/١.

(٦) **ألقاب الشعراء** ٣٣١/٢، و**معجم الشعراء**.

(٧) **تاريخ بغداد** ١٨٠/١٣ و**الأغاني** ١٥٠/١٨

(٨) **اللباب** ٤٤/٣، و**الأنساب** ٥١٨/٤ و**تاريخ مدينة دمشق** ٩٧/٤٦ والقطامي: اسم من أسماء الصقر.

(٩) **ألقاب الشعراء** ٣٥٠/٢، و**الشِّعر والشعراء** ٦٣٠/٢، و**فوات الوفيات** ٢٧٥/١ و**الوافي بالوفيات** ٢٨٣/١٠ و**وفيات الأعيان** ٣٠٨/٦.

(١٠) قال دعبل الخزاعي: "بلغني أنّ ثابت قطنة قال هذا البيت في نفسه وخطر بباله يومًا فقال لا يعرف الناس منه غير قطنته البيت، وقال هذا بيت سوف أهجى به وأنشده جماعة من أصحابه وأهل الرواية وقال اشهدوا إني قائله فقالوا ويحك ما أردت أن تهجو نفسك به ولو بالغ عدوّك ما زاد على هذا فقال لا بد من أن يقع على خاطر غيري فأكون قد سبقته إليه فلمّا هجاه به حاجب الفيل استشهدهم على أنه هو قائله فشهدوا على ذلك". ينظر: **خزانة الأدب** ٥٨٠/٩، و**الأغاني** ٢٥٨/١٤.

(١١) **لسان العرب** ٥٥٩/١١.

(١٢) **المحكم والمحيط الأعظم** ٢٧٧/٦.

(١٣) **تاج العروس** ١٨١/١.

(١٤) **المزهر** ٣٧٦/٢.

(١٥) **المحكم والمحيط الأعظم** ٣٧٨/٦ و**لسان العرب** ١١١/٥.

(١٦) **معجم الشعراء** ص٤٨ و**ديوان الحماسة** ٢٧٦/١ و**الحماسة البصرية** ١٥٠/١.

(١٧) **المزهر** ٣٧٦/٢.

(١٨) **الوحشيات** ص٢٨٩.

(١٩) **الحيوان** ٢٧٨/٢، و**البداية والنهاية** ٢١٤/٤.

(٢٠) **البداية والنهاية** ٢١٤/٤.

(٢١) **الطبقات الكبرى** ١٩٥/٤، وينظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، الأولى، ٢٤٢/١، و**ألقاب الشعراء** ٣٢٥/٢.

(٢٢) **الإصابة** ٤٩/٤، و**الاستيعاب** ٨٨٥/٣، و**المزهر** ٣٧٥/٢ و**الشعر والشعراء** ١٨١/١.

(٢٣) **وفيات الأعيان** ٩٢/٦، و**الأغاني** ٢١٦/٢٤، و**طبقات فحول الشعراء** ١٥٦/١، و**معاهد التنصيص** ٣١٢/٢، و**المزهر** ٣٧٢/٢، و**ألقاب الشعراء** ٣٤١/٢، و**الشِّعر والشعراء** ١٨١/١، العرض: الوادي، ويروى حي ذبابه.

(٢٤) **المزهر** ٣٧٣/٢ و**الأنساب** ٤٠٤/٣.

(٢٥) **اللباب** ١٦٢/٣ و**بغية الطلب في تاريخ حلب**، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر ٦٤٥/٢، ٦٥٢ و**الأنساب** ١٩٢/٥ و**معجم ما استعجم** ١٣٠١/٤ و**تاج العروس** ٤٤٦/١ و**تهذيب الأسماء واللغات**، محي الدين بن شرف النووي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، الأولى ٥٥٨/٢ وأبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، ٧٤/٣، وذكر أبو منصور الثعالبي في **اليتيمة** عن ابن جنِّي أنه قال سمعت أبا الطَّيب يقول إنما لقبت بالمتنبِّي لقولي: (أنا في أمّة تداركها الله... البيت) ينظر: **يتيمة الدهر** ١٤٢/١.

(٢٦) **المزهر** ٣٧٤/٢.

(٢٧) **تاج العروس** ٣١١/٤.

(٢٨) **الشِّعر والشعراء** ٣٩٥/١، **والإكمال** ١٥٨/٧، **ولسان العرب** ٢٤٠/١ **وأساس البلاغة** ٧٣/١، وتاج العروس ٩٧/٢. و**جمهرة اللغة** ٢٦١/١ **معجم الشعراء** ص١٦٧ والوصاوص: البراقع، الثاقبات: يريد المصيبات.

(٢٩) **المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٣٤.

(٣٠) **معجم الشعراء** ٣٠١.

(٣١) **الشِّعر والشعراء** ٥٥٩/٢.

(٣٢) **الأغاني** ٣٥/٢.

(٣٣) **الشِّعر والشعراء** ٤٥٣/١، **والإكمال** ١٦٢/٧ **ولسان العرب** ١٥٧/٤.

(٣٤) **خزانة الأدب** ٤٩/٩.

(٣٥) **البرصان والعرجان** ص٤٩، وينظر: **الحيوان** ١٦٦/٥.

(٣٦) **المزهر** ٣٧٤/٢.

(٣٧) **نزهة الألباب** ١٦٣/٢، **والمذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٤.

(٣٨) **المزهر** ٣٧٥/٢، **وتاج العروس** ٤٣٢/٢٨.

(٣٩) **الشِّعر والشعراء** ٧٣٦/٢، **وتاج العروس** ٤٣٧/٦، **والمزهر** ٣٧٣/٢، **وألقاب الشعراء** ٣٥٣/٢ برواية:

أعرفت رسما من سمية باللوى ... دَرَجَتْ عليهِ الرِّيحُ بَعْدَكَ فاسْتَوَى

(٤٠) **مجمع الأمثال** ٢٩٥/١، **والمذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٣.

(٤١) **الأغاني** ١٢٢/٣

(٤٢) **تاج العروس** ٢٧٠/٢٠، **معجم البلدان** ١٥/٥.

(٤٣) **ألقاب الشعراء** ٣٣٨/٢، ٣٣٩ والبيت فيه برواية:

فحطّوا بالرّوايا من نحيط ... ورخوا المحض بالنّطف العذاب

(٤٤) **المزهر** ٣٧٣/٢.

(٤٥) **الأغاني** ١٣٢/٣، **والمذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٣٢ برواية (من لظبي مرعث).

(٤٦) **تاريخ بغداد** ١١٣/٧.

(٤٧) **المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٣٢.

(٤٨) **الإكمال** ٣/١٨٩، **المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٤.

(٤٩) **الزاهر في معاني كلمات الناس**، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م، الأولى، ٢/١١٦، **تهذيب اللغة** ٨/٢٥٥.

(٥٠) **البيان والتبيين** ١/١٩٦، و**الأغاني** ٦/١٣٦، و**المزهر** ٢/٣٧١ و**ألقاب الشعراء** ٢/٣٤٦ و**الشِّعر والشعراء** ١/٢١٠.

(٥١) **المزهر** ٢/٣٧٥.

(٥٢) **أسد الغابة** ٥/١٥٨ و**اللباب** ٣/٢٠٣ و**البيان والتبيين** ١/١٩٦، و**الأغاني** ٩/١٨٥ و**الشِّعر والشعراء** ١/٣١٥، وقيل في اسمه: لقب يزيد بن ضرار بن حرملة بن صيفي بن إياس.

(٥٣) ينظر: **ألقاب الشعراء** ٢/٣٣٤.

(٥٤) **توضيح المشتبه** ٨/٩٣.

(٥٥) **معجم الشعراء** ٤٤.

(٥٦) **الشِّعر والشعراء** ١/٣٨٤، وينظر: **الروض الأنف** ١/٢٢٥، و**طبقات فحول الشعراء** ١/٣٣، و**المزهر** ٢/٣٧١، و**ألقاب الشعراء** ٢/٣٣٠، و**معجم الشعراء** ص٢٣.

(٥٧) **الشِّعر والشعراء** ١/٥٤٤، و**معجم الأدباء** ٣/٣٢٩، و**ألقاب الشعراء** ٢/٣٣١.

(٥٨) **خزانة الأدب** ٣/٦٨، و**الأغاني** ٢٠/٢٢٠.

(٥٩) **المزهر** ٢/٣٧٢.

(٦٠) **ألقاب الشعراء** ٢ / ٣٤٩، و**المزهر** ٢/٣٧٤.

(٦١) **الروض الأنف** ٦ / ١٤٨، و**لسان العرب** ٣/٣٨٠.

(٦٢) **ديوان الحماسة** ٢/٢٠، و**خزانة الأدب** ٩/٥٥٥، و**لسان العرب** ١٤/٣٩٩ و**ألقاب الشعراء** ٢/٣٣٩.

(٦٣) **المزهر** ٢/٣٧٧.

(٦٤) **الإكمال** ٧/٢١٨، و**ألقاب الشعراء** ٢/٣٤٤، و**المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٦ وهو فيه (مقرض) بالقاف.

(٦٥) **الأشباه والنظائر** ١/١٢٣، و**الحيوان** ٣/٤٦٨، وهما في أبيات لقيس بن رفاعة الواقفي في **الوحشيات** ص٦٠، وهما له في **معجم الشعراء** ص١٩٧.

(٦٦) **ألقاب الشعراء** ٢/٣٤٢، و**الأصمعيات** ١/٢٠٢ و**المذكرة في ألقاب الشعراء**، ص٢٦.

(٦٧) **تاج العروس** ١٦/٥١٣.

(٦٨) **معجم الشعراء** ص٣٣١.

(٦٩) **ألقاب الشعراء** ٢/٣٢٨.

(٧٠) **معجم الشعراء** ٤٣٦.

(٧١) **ألقاب الشعراء** ٢/٣٣٩.

(٧٢) **اللباب** ١/٣٤٤ و**الإصابة** ٣/٣٣٨ و**أسد الغابة** ٢/٥٩٨.

(٧٣) **ألقاب الشعراء** ٢/٣٤٤، ٣٤٥، و**المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٧.

(٧٤) **طبقات فحول الشعراء** ١/٢٧٤، و**الشِّعر والشعراء** ١/٣٩٩، و**البيان والتبيين** ١/١٩٦، و**المزهر** ٢/٣٧٨، و**نزهة الألباب** ٢/١٦٣ و**العمدة** ١/٤٧، و**ألقاب الشعراء** ٢/٣٤٢، و**المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٤.

(٧٥) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ، الأولى، ٥/١٢٠ و**فوات الوفيات** ٢/٥٢١ و**وفيات الأعيان** ٧/٣٦،

(٧٦) **معجم الشعراء** ٤٨١.

(٧٧) **الإصابة** ٦/٨٤.

(٧٨) **الأمـالي** ٢/١٣٠، و**جمهـرة اللغـة** ٢/١١٢٦، و**تهـذيب اللغـة** ٥/٢٤٣ و**نزهـة الألبـاب** ٢/٢٠٧ و**الزاهـر في معـاني كلمـات النـاس** ٢/٣٤٦، و**ألقـاب الـشعراء** ٢/٣٤٣، ٣٤٤ برواية: (لما توَّعر في الكراع هجينهُم).

(٧٩) **المزهر** ٢/٣٧٠ و**الشِّعر والشعراء** ١/٢٩٧.

(٨٠) **تـاريخ مدينـة دمـشق** ٦١/٢٤٥، و**تـاج العـروس** ٣٨/٤٠٣، و**المـذاكرة في ألقـاب الشعراء** ص٣٢، والشطر المذكور عجز بيت صدره:

لست منا وليس خالك منا

(٨١) **معجم الشعراء** ص٢٨٦، و**الشِّعر والشعراء** ٢/٥٧٧.

(٨٢) **الشِّعر والشعراء** ١/١٦٤، و**العمدة** ١/٤٧، و**المـذاكرة في ألقـاب الـشعراء** ص٢٥ و**معجم مقاييس اللغـة** ٥/٣٨٢ و**تهـذيب اللغـة** ٨/١٣٩، ١٤٠، وبنـو القـين بـن جسر بن شيع الله بن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بـن عمـران بـن الحـاف بـن قضاعة وفيهم يقول النابغة:

وحلت في بني القين بن جسر      فقد نبغت لنا منهم شؤون

وبهذا البيت سُمِّي النابغة نابغة ينظر: **الأنساب** ٢/٥٩.

(٨٣) **تاج العروس** ١٤/٢٠١.

(٨٤) **المزهـر** ٢/٣٧٦، و**نزهـة الألبـاب** ٢/٢٢١، و**تـاج العـروس** ٣٣/٥٠٩، و**ألقـاب الشعراء** ٢/٣٣٥ و**الأغاني** ٢٤/٢٢٤ برواية: (ولأطرقنّ قومًا وهم نيام).

(٨٥) **ثمـار القلـوب في المـضاف والمنسوب** ١/٤٤٥، و**الحيـوان** ٤/٤١٣ و**مجمـع الأمثـال** ٢/٩ و**المستقصى في أمثال العرب**، جارالله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، الثانية، ١/١٩٧.

(٨٦) **المزهر** ٢/٣٧٥.

(٨٧) **ألقاب الشعراء** ٢/٣٤٥، و**المذاكرة في ألقاب الشعراء** ص٢٧؛ الهجف: الظليم المسن.

(٨٨) **ألقاب الشعراء** ٢/٤١، و**المذكرة في ألقاب الشعراء** ص٤٤.

**اللغة المهرية المعاصرة بين عربيَّتَيْن، تأليف: الدكتور عامر فائل محمد بلحاف، إصدار مركز حمد الجاسر الثقافي، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ١٩١ص.**

يتحدَّث هذا الكتاب عن (اللغة المهرية) التي هي لغةٌ محكيَّة في جنوب الجزيرة العربية، وقد تناوَلها بعض الدارسين منذ سنواتٍ خَلَتْ، ولا تزال في نظر كثيرٍ منهم عصيَّةً على الكشف، وبحاجة إلى كثيرٍ من البحث والدرس والتنقيب، ويأتي هذا الكتاب محاولة تُضاف لِمَا سبقها.

والفكرة التي يقوم عليها هذا الكتاب -كما يتَّضح من العنوان- هي أنّ المهرية تقع بين عربيَّتَيْن؛ الأولى: هي العربية الجنوبية بلغاتها: السبئية والمعينية والحضرمية...، والثانية: هي العربية الفصحى. وقد تبدَّت هذه الفكرة فرضيةً علميةً تحتاج إلى إثبات. وأشار المؤلِّف إلى أنه من المناسب أن يصطلح على المهرية بـ(اللغة) لا بـ(اللهجة)؛ إذ العناصر اللغوية فيها ليست واحدة، والعادات الكلامية أيضًا ليست واحدة.

والمؤلِّف الدكتور عامر فائل محمد بلحاف (أستاذ اللغة والنحو المشارك، بكلية العلوم والآداب بشرورة- جامعة نجران) اعتمد على المنهج الوصفي التحليلي في المقام الأول، وهو منهجٌ يُعنى بوصف الظاهرة اللغوية، مستندًا إلى الاستعمال المعاصر، ثم أَتْبَعَ ذلك الوصفَ بشيءٍ من

التحليل والتطبيق، ولم يُغفِل الإفادة من المصادر اللغوية والدراسات السامية، كما حرصَ على الإكثار من الأمثلة، رغبةً في إيصال الاستقراء إلى درجة علمية مقبولة، وكانت لغة هذه الأمثلة هي العربية الفصحى.

تألَّفَ الكتابُ من خمسة فصول مسبوقة بتمهيد مقتَضَب عُنيَ بالحديث عن (المهرة)، هؤلاء الأقوام الذين عرضَ لِلُغَتهم، فتحدَّث عن تسمية (مهرة)، وعن تاريخها القديم، والإسلامي، وتعاقُب الدول والإمارات عليها.

والفصل الأول كان فصلاً صوتيًّا، خُصِّص لتبديد فكرة سائدة بوجود أصوات زائدة في المهرية عددها أربعة أو خمسة، وقد اتخذ الفصل من حرف الضاد الجانبية أنموذجًا لإثبات أنَّ هذا الرأي غير دقيق علميًّا، كما عرَّج على بقية تلك الأحرُف المزعومة.

وعُني الفصل الثاني بالحديث عن جوانب في الفعل، فكان فيه كلامٌ على أقسامه، وأوزانه، وبعضٍ مِن صِيَغه. وكان فيه أيضًا كلامٌ على لواحقه، وعلى دلالته.

وخُصِّص الفصل الثالث لبعض جوانب الاسم، فكان فيه حديثٌ عن تأنيثه، وتثنيته، وجَمْعه، وتعريفه، والنسبة إليه، كما كان فيه حديثٌ عن دلالة بعض الأسماء الشائعة، مثل: ألقاب الأسرة، وأعضاء الجسم، والطير والحيوان.. إلخ.

وجمعَ الفصل الرابع بعض الموضوعات اللغوية المتنوعة، كالضمائر، والإشارة، والموصول، والاستفهام، والشرط، والظرف، والعدد، وفيه تفصيلٌ عن: أقسامها، وصِيَغها، ومستوياتها، ونظامها.

أمّا الفصل الخامس فحملَ عنوان (نصوص ومناقشات وتأمُّلات)، وكان الهدف منه في مبحثه الأول عَرْض عدد من النصوص اللغوية التي تحدثت عن المهرية، ومناقشتها، وتقويمها. وهدفُ المبحث الثاني مناقشة العلاقة المزعومة بين المهرية واللغة الأكادية القديمة. وخُتم الفصل بمبحثه الثالث: تأمُّلات في أسماء بعض قُرى الساحل المهري.

وقد خلُصَ البحث إلى أنّ اللغة المهرية المعاصرة تحتفظ إلى يومنا هذا بنطق الضاد العربية القديمة، ويترتَّب على هذا بطلان القول بوجود أصوات زائدة فيها؛ إذ إنّ معظمها عائد إلى أصل عربي قديم. وخَلُصَ أيضًا إلى أنها تتقارب مع العربية الفصحى تقارُبًا كبيرًا، وأنها تحتفظ بعناصر لغوية عربية جنوبية، وأنَّ الاستقراء أثبت وجود عناصر لغوية سامية فيها.

وأوضح المؤلِّف أنَّ هدف هذا الكتاب لم يكن الاستقصاء والشمول، بل كان هدفُه عَرْض فكرة وقوع المهرية بين عربيَّتَيْن، وتجلية بعض الغموض الذي اكتنفها منذ زمن، وعَرْض الأفكار أكثر من تقرير الأحكام، لذا قد يجد القارئ في صفحات متفرِّقة من هذا الكتاب أكثر من فكرة قد تصلُح للبحث، وأكثر من فرضية قد تحتاج إلى إثبات.

**أ. محمد النقشبندي**

## إهداءات إلى مكتبة العرب

**أولاً- الكتب:**

- مَن اسمه عَمْرو مِن الشعراء، تأليف أبي عبدالله محمد بن داود بن الجرّار (ت٢٩٦هـ)، تحقيق: أ. د. عبدالعزيز بن ناصر المانع، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها (٥)، جامعة الملك سعود، ط٢، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- الشِّعار على مختار نقد الأشعار، تأليف نجم الدين سليمان بن عبدالقوي الطوفي (ت٧١٦هـ)، تحقيق: أ.د. عبدالعزيز بن ناصر المانع، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها (٦)، جامعة الملك سعود، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، الجزء الأول، تأليف أبي الحسن علي بن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: أ.د. أحمد كمال زكي، وأ. د. حسن محمد الشمّاع، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها (٧)، جامعة الملك سعود، ١٤٣٣هـ.
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، الجزء الثاني، تأليف أبي الحسن علي بن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: أ.د. أحمد كمال زكي، وأ. د. حسن محمد الشمّاع، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها (٧)، جامعة الملك سعود، ١٤٣٣هـ.
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، الجزء الثالث، تأليف أبي الحسن علي بن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: أ.د. أحمد كمال زكي، وأ. د. حسن محمد الشمّاع، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها (٧)، جامعة الملك سعود، ١٤٣٣هـ.
- الشيخ عبدالعزيز الرشيد- سيرة حياته، د. يعقوب يوسف الحجي، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ط٣، ١٩٩٣م.

**ثانيًا- المجلات:**

- الكويت، الجزء ٨ و٩، شعبان ورمضان ١٣٤٨هـ (المجلد الثاني)، رئيس التحرير والمدير المسؤول: عبدالعزيز الراشد.
- الكويت والعراق، المجلد الأول، العدد رقم ٣، رجب ١٣٥٠هـ، نوفمبر ١٩٣١م، لصاحبيها: أ. عبدالعزيز الراشد، البحري "السائح العراقي".
- مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السادس، السنة الثانية، نيسان (أبريل) ١٩٧٦م، ربيع الثاني ١٣٩٦هـ، رئيس التحرير: د. محمد الرميحي.
- الفرقان، العدد ٧٦١، ربيع الآخر ١٤٣٥هـ الموافق ٢٠١٤/٢/٣م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.
- عيادة الجندي، العدد ٤٠، محرم ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير: المقدم منصور بن عبدالله الحميدي.
- المجلة العربية، العدد ٤٤٦، ربيع الأول ١٤٣٥هـ/يناير ٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. عثمان بن محمود الصيني.
- المجلة العربية، العدد ٤٤٨، جمادى الأولى ١٤٣٥هـ الموافق مايو ٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. عبدالله نعمان الحاج.
- الخفجي، السنة ٤٣، العددان ١١-١٢ نوفمبر-ديسمبر ٢٠١٤م، محرم-صفر ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير: م. سليمان ناصر الرشيدي.
- الفيصل، عدد خاص: ٤٥١-٤٥٢، المحرم-صفر ١٤٣٥هـ الموافق نوفمبر-ديسمبر ٢٠١٣م، رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت.
- الخفجي، السنة ٤٤، العددان ١-٢ يناير-فبراير ٢٠١٥م، ربيع الأول-ربيع الثاني ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير: م. سليمان ناصر الرشيدي.
- عيادة الجندي، العدد ٤٠، محرم-صفر ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير: المقدم منصور بن عبدالله الحميدي.

# الشعرية العربية، من تعالي البنية إلى انفتاح النصّ
## قراءة في مفهوم الشعرية
## وتطوّرها في الدرس النقدي العربي التراثي

بقلم: د. محمد زيوش*

**مدخل:**

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز أهمّ مفاهيم الشعرية العربية، ومقاييسها في نسقها التطوريّ لحظة التأسيس لها، والذي استغرق زهاء القرنين، فكان الانتقال من مقاييس الشاعرية التي هي خاصة بالمُبدع، إلى مقاييس الشعرية الخاصة بالنص ودواخله، إنها اللحظات الأولى التي عرفت فيها الشعرية العربية ميلادًا عسيرًا لمتن نقديّ، نتيجة انتقال النصّ من الشفاهة وجمالياتها إلى الكتابية وجمالياتها، والانتقال من عمود الشِّعر الذي اكتسى قدسية، نتيجة القراءة بالمماثلة إلى نظرية البديع، والتي سعى النقّاد إلى ضمّ بعض عناصرها إلى مقاييس الشعرية العربية، انطلاقًا من رؤيتهم للعالم، بعيدًا عن كلّ المؤثرات اليونانية، غير أنّ السؤال الأوّل الذي يتبادر للذهن،

ونحن نحاول رصد تطوّر الشعرية العربية قصد الإحاطة بكل جوانبها، في محاولة انتشالها من وسط خطاب معقد، تتحجب من ورائه منظومة من القواعد، تتجاوز طبيعته اللّسانية، فتجعل فهمه مستعصيًا، وقراءته خارج سياقه التاريخي، وضربًا من العبث، هو: هل نستطيع قراءة المسار التطوري للشعرية العربية، ونستلّه من داخل هذه البنى الخفية التي توجهه؟

إنّ فهم الخطاب النقدي العربي، وهو يحاول رصد الشعرية يتطلب منّا أولاً، التعامل معه في حدود النقلات الإدراكية المنتظمة في نسقها التطوري؛ فالتراث النقدي العربي سواء على مستواه النظري أو التطبيقي، زخر بجهود متميزة، حاولت تقديم تصور نظري، وتطبيقي لما يجعل من الأدب أدبًا، وإدراكُ الشعرية يتطلب منا في محاولة فهمها، وتحديد كل جوانبها استقراءَ التراث النقدي في مستويات عدة؛ إذ هو غني من حيث حقولُه، ومفاهيمه، ومصطلحاته، ومرتهن بسياقات، وظروف أنتجته، وعليه فتحديد: *"الأدبية الممثلة شِعرًا أو نثرًا أو في أشكال مدمجة للطرفين أمر نسبي تاريخي، والفيصل في تحديدها هو الاحتكام إلى السياق الذي أنتجها"* (1)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى مقيّد بالإشكال النظري، الذي ظهر في صعوبة وضع تعريفات نهائية، بحكم نمطية الأدب، وتغيّر أشكاله، وأنواعه؛ فالبحث في الأدبية، والشعرية، يستدعي الإحاطة بجميع الأعراف، والتقاليد المؤسسة للخطاب الثقافي العربي القديم بصفة عامة، والخطاب الأدبي بصفة خاصة.

١. بدايات تحسس الشّعرية في العالم:

لقد اكتشف الإنسان منذ الأزل، أنّ اللغة لها وظيفة تواصلية، وهذا طبعي بالنسبة له، لكن المدهش هو أن يكتشف أنّ بعض الكلام الذي يقوله، والذي جاء معه منذ الطفولة دون مكابدة، ولا جهد، ليس عاديًّا، من حيث تفوقه على الأول بقوة الوقع على النفس، والقدرة على تحريكها، وكان هذا الإحساس بالتفاضل في الكلام، قد حمل الناس منذ القدم على الانتقاء من أقوالهم كلاما من مستوى آخر، فأصبح موضوعًا لتأملات إضافية، ومصطلحات خاصة، وهذا ما جعل الإنسان ينتبّه في وقت مبكر جدًّا من تاريخ البشرية، أنّ هذا المستوى من الكلام هو خطاب آخر، يختلف عن الأول بأنه غير بديهي، ولا مشترك معه في خصائصه، إنها حال يكون فيها الخطاب شبه متنصِّل من مهمة التوصيل، فاسحًا المجال للكلمات لخدمة نفسها مبرزة الأداة اللفظية في ذاتها. وهو ما أحسن شيشرون التعبير عنه عندما قال وهو يصف هذه الحالة: "*إنّ الزي الذي ابتكر تحت ضغط الحاجة لحماية الجسد من البرد قد تحوّل فيما بعد إلى أداة زينة. كذلك اللغة ابتكرت في البداية تحت ضغط الحاجة لتوصيل الفكر إلا أنها تحوّلت فيما بعد لكي تصبح مادة تزيينية*"[٢]، بمعنى آخر كما يقول ميرلوبونتي (Maurie Merleau-Ponty) في كتابه الموسوم (نثر العالم): "*إنّ هناك لغتين، هناك لغة على غرار الواقع، أو لغة بوصفها مؤسسة، تطمس نفسها من أجل أن تخلّي مكانها للمعنى الذي تنقله. وهناك لغة*

*تخلق نفسها في أفعالها التعبيرية، فهي تجرف المرء من العلامات نحو المعنى*"[٣] هذا المستوى من الكلام، يتطلب مستوى من (الشعور، والعلم بأضراب الكلام)، فسمّي من يحقق هذا المستوى من الكلام (شاعرًا) لما له من قدرة على تحويل اللغة من لغة مترسبة منطوقة إلى لغة ناطقة.

إذن، الوعي بالوظيفة الشعرية كان أول مظهر من مظاهر الوعي اللغوي، والتأمل في اللغة لذاتها، وهذا ما جعل أسلافنا القدامى يُنْزِلُونَ هذا المستوى من الكلام منزلةً متميزةً، فحافظوا عليه، وتناقلوه، وأضافوا إليه، وهذّبوه، وأنزلوه منزلة راقية، من حياتهم الذهنية، والوجدانية، وهو العمل الذي اشتركت فيه كل المجتمعات الإنسانية، ولم يقتصر عليه العرب؛ فليس هناك مجتمع إنساني على وجه المعمورة، إلا وله من هذا المستوى من الكلام نصيب، قد عمل على استمراره، وعلى الاستمرار فيه، ودفع هذا الإحساس بأسلافنا إلى رواية الشِّعر، وجمعه، والتدبّر فيه، يقول تودوروف: "*إنّ نشأة البلاغة كمبحث قائم الذات هي أول شهادة على التأمل في اللغة في الموروث اللغوي*"[٤].

٢. ثقافة الأذن وبدايات تحسس الشعرية العربية:

إنّ النص الأدبي يستمد وجوده من تقبّل متقبّل، يحكم بأنه نص يتجاوز الكلام العادي، أو ينحط دونه، فيصبح عيار الكلام المُتَجَاوِز، عيار تَقَبُّلِ تلذّذٍ أو نفورٍ، وعليه فوجود النص الأدبي مرتبط بوجود متقبل -وإن كان أول المتقبّلين هو الباث نفسه- والأدبية بذلك، تتجلّى في أول

مستوياتها في الأثر الذي يتركه النص في متلقيه، من انفعال شعوري يؤول بصاحبه في النهاية إلى اللّذة الأدبية.

وقد أدرك نقادنا العرب القدامى أهمية السماع، والفاعلية التي ترتهن بـ**"ثقافة الأذن"**، في تحسسها الأدبية، وعليه تمّ اعتبار فاعلية الأذن داخلة في صلب العملية الإبداعية إنتاجًا، وتلقِّيًا، ومن ثمّ الاحتكام إليها في مقاربة الجميل الأدبي، أثناء وضع النقّاد لمقاييسهم النقدية سواء الشعرية أو النثرية، فلا يعدم الباحث من وجود نصوص نقدية قديمة أسهبت كثيرا، وفصّلت في الحديث عن مواطن الجمال، والحسن، في الكلام الأدبي، وعكست المراحل الحاسمة التي مرّ بها نقدنا العربي، خلال محاولة النقاد فهم طبيعة الأدب، واكتشاف خصائصه التمييزية، وتنشيط الحركة الأدبية، والنقدية، بدراساتهم النظرية، والتطبيقية، المحللة للنصوص الأدبية، أو الموازنة بينها، و هو ما عرّض الشعرية العربية في مفاهيمها، والمقاييس المحددة لها، إلى مدٍّ، وجزر، ما بين محاولات التأسيس، والتأصيل، وما بين تعدد الآراء، وانتقال ماهية الشعرية، ودورها من حال إلى أخرى، وهذا راجع إلى اختلاف النقّاد، واتجاهاتهم الفكرية، وما نتج عنه من صراع بين حماة التقليد ودعاة التجديد، وكذلك راجع إلى اختلاف الزمن، والعوامل الخارجية، التي لم يكن الأدب، والنقد بمعزل عنها، ولا يمكن معرفة المفهوم الناجز، والحقيقي للشعرية، ما لم نجرِ فحصًا آنيًّا للظاهرة، وتتبّعًا للمراحل التاريخية التي عايشتها، وتأثرت بأحداثها.

وأول ما نتعرض له، هو تلك المعايير البسيطة، في استخداماتها، لكنها أظهرت ممارسة العرب القدامى للنقد، ووعيهم بخصائص الخطاب الأدبي، ولعل أول معيار اعتمد لدى العرب القدامى، للتدليل عل الصفة الشعرية في الكلام الأدبي، هو ما يساعد على تجلي اللّذة الأدبية، في مظاهرها الحسية لدى المتلقي، أثناء لحظة السماع، أو بعدها، وهي مظاهر تتجلى في التغيرات التي تطرأ على المتلقِّي، فالنص الجيّد يكون: "أسرع إلى القلب"[٥]، وهو الذي يُحدث في الجسم إحساسًا بـ(الطرب)، و(الارتياح)، يقول الجرجاني (ت.٣٩٢هـ): "ثم تأمّل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقّد ما يتداخلك من الارتياح، ويستخفّك من الطرب إذا سمعته"[٦]، ويعاود الجرجاني الحديث عن هذه اللّذة في موضع آخر حيث يقول: "ثم أحسست في نفسك عنده هِزّة، ووجدت طَربة تعلم لها أنّه انفرد بفضيلة لم يُنَازَعْ فيها[٧].

وإذا كان الجرجاني في هذا الموضع، قد اكتفى بذكر اللّذة، وأثرها على النفس دون ذكر التجلي الحسّي لها عند المتلقِّي، فإنّ نصوصًا أخرى أفاضت الحديث في هذا الشأن، مُبرِزَةً أنّ الطرب يتجلَّى في أشكال مختلفة تظهر للعيان، منها على سبيل المثال لا الحصر، ما يعرف بـ"الترديد"، مثل ما هو في رواية الجاحظ، عن عمر بن الخطّاب ﵁، حين أنشدوه شِعر زهير[٨]، أو التعبير بالإيماء، مثل ما روى ابن قتيبة عن رسول الله، ﷺ، حين سماعه قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد)[٩]، وهناك حالات أخرى

من الطرب: كالضرب بالرجل على ما ذكره المرزباني (ت٣٨٤هـ): "تشاجر الوليد بن عبد الملك ومسلمة أخوه في شِعر امرئ القيس والنابغة الذبياني في وصف طول الليل، أيهما أجود، فرضيا بالشعبيّ فأحضر. فأنشده الوليد [ للنابغة]: (من البحر الطويل)

كِلِينِـي لِهَــمٍّ يَـا أُمَيمَــةَ نَاصِـبِ وَلَيْـلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِــبِ

...وأنشده مسلمة قول امرئ القيس: (الطويل)

وليلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْـوَاعِ الهُمُـومِ لِيَبْتَلِــي

...قال: فضرب الوليد برجله طربًا. فقال الشّعبي: بانت القضيّة"(١٠).

إلى جانب ما أوردته لنا كتب النقد الأدبي، عمّا يحدثه الكلام غير العادي (شِعر/نثر) من وقع، وطرب في نفس المتلقِّي، وانفعال شعوري، يتجلى لدى المتلقِّي في سلوكات مختلفة، دالة على حدوث لذة ما، فإنّ دارسي الإعجاز القرآني هم كذلك، تنبّهوا إلى هذه القضية، وأوردوا لنا مواقف تبيّن فعل القرآن على الآذان السامعة، يقول الخطابي (ت٣٨٨هـ): "قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلاّ الشّاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس. فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا، ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة، والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. تستبشر منه النفوس وتنشرح له الصدور حتّى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاحة قد عراها من الوجيب، والقلق وتغشّاها الخوف، والفرق

تقشعرّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب. يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها"[١١].

ويذهب الخطابي إلى الاستدلال على ذلك، ضاربًا لنا مثل إسلام عمر ابن الخطّاب ﷺ، والذي من أسبابه المباشرة، سماعه قراءة أخته لسورة طه[١٢]، ويستند الخطابي في رأيه هذا على الآيات القرآنية، التي تشير صراحة إلى هذا الوقع الذي يحدث أثناء السماع، كقول الله تعالى، في محكم تنزيله: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)[١٣].

لقد كان لهذا النوع من الكلام في نظر العربي فاعلية، أكثر من الفعل ذاته؛ لأنّ به كانت تدفع: "العظائم، وتسلّ به السخائم، وتخلب به العقول، وتسحر به الألباب لما يشتمل من دقيق اللفظ ولطيف المعنى"[١٤]، ويؤكد الجاحظ نفسه بأنّ الكلام هو أخطر فِعْلٍ مارسه الإنسان على الإطلاق، وعبّر عن هذا الفعل الخطير بـ **(فتنة الكلام)**[١٥]، والتي استعاذ بالله منها، وعليه ستُحدِّدُ الشعرية العربية في ظل هذا الفهم، مقاييسها الجمالية، انطلاقًا من مكانة النص، بما في ذلك النص القرآني نفسه، ودوره في الثقافة العربية.

وإذا كانت هذه النصوص التي أوردها النقّاد، تتفق جميعها في أنها نصوص تبيّن التلذذ الأدبي، فإنها أظهرت العجز عن تعليل الجودة، واستحسان الشِّعر، وإيجاد العلل الدقيقة في تأثيره على المتلقّي، يقول القاضي الجرجاني:

«وأنت قد ترى الصّورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال، وتذهب في الأنفس كل مذهب، وتقف من التمام بكل طريق، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتئام الخلقة، وتناصف الأجزاء، وتقابل الأقسام، وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأعلق بالنفس، وأسرع ممازجة للقلب. ثم لا تعلم -وإن قاسيت واعتبرت، ونظرت، وفكّرت- لهذه المزيّة سببًا، ولِما خُصَّت به مُقتَضِيًا»(١٦)، ويقول ابن رشيق: «سمعت بعض الحذّاق يقول: ليس للجودة في الشِّعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميّز، كالفرنْد في السيف والملاحة في الوجه»(١٧).

٣. ملامح المقاربات الواعية بالشعرية:

الظاهر أنّ غرض النقّاد من وراء سرد النصوص السالفة الورود، هو تبرير الحاجة لقيام علم جديد يختص بمعرفة الجميل الأدبي، وتعليل الظاهرة الأدبية، التي ظل تفسيرها مقترنًا بما هو خارجي عنها، ابتداء بالمحدد الماورائي، الذي جعل الشعراء يتفاضلون بشياطينهم ومنازلها(١٨)، والمحدد الدّموي، الذي جعل منزلة النص تعلو بمنزلة علوّ جاه صاحبها، كما فعل الصلتان العبدي حين احتكم إليه جرير، والفرزدق، فرفع من الفرزدق، وحطّ من شاعرية جرير؛ لأنه من كليب(١٩)؛ والمحدد العرقي، الذي جعل الشعراء بداية من الفرزدق، يزدرون شِعر العبيد، ويحقِّرونه مقابل تبجيل شِعر الأسياد(٢٠)، والمحدد الخُلُقي، الذي جعل حسّان بن ثابت شاعر الإسلام لأنه: "لا ينعت الرجل إلا بما فيه"(٢١)، والمحدّد الذكوري

الذي كثيرًا ما تفاخر به العرب حتى جعل النابغة يعيّر ليلى الأخيلية، والفرزدق يحطّ من رجولة بعض خصومه، وجرير وابن لجأ يهزآن من خصومهما، وأبا نجم يفتخر بشيطانه (الذكر):

إني وكل شاعر من البشر     شيطانه أنثى وشيطاني ذكر(٢٢)

قلت إنّ الحاجة هي التي جعلت النقّاد يلتفتون إلى ضرورة وجود علم يعلّل الظاهرة الأدبية بعيدًا عن هذه المحددات، اللصيقة بالشاعر، وليس بالنص، قائمة خارجه، والمشتقة من سُلّمِ القيم القبلية، والدينية(٢٣)، خاصة وأنّ الحياة العباسية، بدأت تتطور بظهور الحرف، والصنائع المختصة، وتنامي الجدل الفكري بين أهل العقل، وأهل النقل(٢٤)، والذي واكبه تَطَوُرٌ في مفهوم الشِّعر، واتساع الهوة بين مطبوعه، ومصنوعه، وتحوّل التفاسير الماورائية، والخرافية، والتركيز على النص الأدبي، شِعره، ونثره، أثناء التفسير لا على الشاعر، فكان الانتقال بمستوى الأدبية، من المستوى الشعوري إلى مستوى التعليل؛ خاصة بعد ما أصبحت الفاعلية الشعرية تقارن بعمل الخمر، والسحر، بما لهما من إثارة تتمّ دون رويّة، ولا فكر، ولا اختيار، كما أخبر ابن سينا، ذاك أنّ الخمرة تجعل الإنسان معرضًا للانفعال، والإثارة عن غير وعي، ولا اختيار، وكذلك يفعل السحر بالإنسان المصاب، فيصبح فاقدًا لإرادته، خاضعًا لإرادة غيره، وأصبح يقينًا عندهم أنّ الإثارة متولدة عن الوظيفة الشعرية، وليس عن القول بما يحتويه من أفكار ومعاني، مطروحة في الطريق، وإنما الأثر في تخيّر اللفظ، كما جاء مع الجاحظ.

هكذا ستنبثق الشعرية العربية كمدرسة تقارب الجميل الأدبي، من فكرة انبثاق الإثارة عن طريق القول، وما يحدثه عدوله عن الكلام العادي من مفاجأة تهزّ المتلقّي، وترمي به في أحضان اللذة، وهذا ما سيجعل الشعريين العرب، يجمعون على ما للجانب البنائي التشكيلي من دور في خلق الإثارة، فبدونه تبطل فاعلية الأدب، وتعطّل مهمته، ومن ثم أمكن للأدب المضي ضد الممنوعات الدينية، والاجتماعية؛ لأنّ التقيّد يدفع به إلى اللين[٢٥]، وإعطاء الأولوية لفعل الأدب، ووظيفته، والتركيز على ما يجري في ذهن المتلقّي إبان عملية التلقّي، وهو السبب الذي جعلهم يركزون على ثقافة الأذن، فالمتلقّي: «إذا ورد عليه ما قد ملّه من المعاني المكررة والصفات المشهورة التي قد كثر ورودها عليه مجّه وثقل عليه وعيه فإذا لطّف الشاعر لشوب ذلك وما يلبسه عليه فقرّب منه بعيدًا أو بعدّ منه قريبًا أو جللّ لطيفًا (...) أصغى إليه ووعاه واستحسنه السامع واجتباه»[٢٦]، إنّ ثقافة الأذن والسماع، كفيلة بتحديد القيمة، التي تكون في أحد جوانبها ناتجة عن الإثارة المتولدة عن العدول، كما يرى الجاحظ ما دام: «الشيء من غير معدنه أغرب وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلّما كان أبعد في الوهم كان أطرف وكلّما كان أطرف كان أعجب وكلّما كان أعجب كان أبدع»[٢٧].

ولأنّ الأديب ممثل بالشاعر، يحدث الإثارة في المتلقّي عن طريق تشكيل المعاني بطريقة تمكنه من: «أن يؤنس النافر الوحشي حتّى يعود مألوفًا محبوبًا»[٢٨]،

وكذلك تمكّنه من أن: «يدخل الموجود في باب المعدوم»[٢٩]، وهذا كله يعود الفضل فيه إلى فاعلية الشِّعر؛ لأنّ الشاعر العظيم، هو الشاعر الذي يعبّر عن التجربة الإنسانية، ويقدّم من خلال الفردي ما هو إنساني شامل، حيث يتمّ تغييب ملامح الفرد في مقابل إظهار ملامح الإنسان حتى تغدو التجربة الفردية للشاعر/الإنسان، تجربة مشتركة بين جميع الناس فـ: «المحسن من الشعراء فيه هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كلّ ذي وجد حاضر أو دائر أنه يجد أو قد وجد مثله حتّى يكون للشّاعر فضيلة الشِّعر»[٣٠]، وعليه يترتب فعل الإلذاذ فيكون من آثاره أن: «"يلتذّ الفهم بحسن معانيه»[٣١]، وخاصة لما يكشف المتلقِّي ما كان متحجبًا خفيًّا، وبخاصة عندما يقتصّ الشاعر في أشعاره: «أشياء هي قائمة في النفوس والعقول فتحسن العبارة عنها، وإظهار ما يكمن في الضمائر منها، فيبتهج السامع لما يرد عليه مما قد عرفه طبعه، وقبله فهمه، فيثار بذلك ما كان دفينًا، ويبرز به ما كان مكنونًا فينكشف للفهم غطاؤه فيتمكّن من وجدانه بعد العناء في نشدانه»[٣٢].

غير أنّ معالم الشعرية كنظرية تدرس الجميل الأدبي، بدأت منطلقة من الوعي بخصوصية النص الشعري، اعتمادًا على الملاحظات النقدية المباشرة التي تكشف تلك الخصوصية، والتي سعت إلى تسميتها، ومثّلت لها، أو حاولت أن تعرفها بشتى الطرق، وعيًا من النقّاد أنّ هناك تفاضلاً في الكلام، وأنّ الشِّعر هو أرقى أنواع الكلام البشري[٣٣]، ومن ثمَّ كانت الحجة

قائمة على الشعريين العرب، بملاحقة الشعرية فيه، وكان التنظير للشِّعر من خلال ذلك، وهذا لا ينفي أبدًا أنّ الشعريين العرب القدامى لم يلاحقوا الشعرية في النثر، بل كان النص القرآني بإعجازه البلاغي، أحد أهم محركي التنظير للشعرية العربية، لما له من خصائص مشتركة مع الشِّعر، فكانت القراءة في الإعجاز القرآني من المساهمات الهامة، في تكوين الدراسات الشعرية العربية، وهي تشتغل بالشِّعر، وتلاحق قوانين الشعرية فيه، وفي الآن ذاته تبحث عن سرائر جودة القرآن، وإعجازه، فكان أن أصبح التنظير للشِّعر في حدِّ ذاته، تنظيرًا للشعرية التي تتجلى في النثر، مثلما تتجلَّى في الشِّعر، لكن مع اختلاف في الدرجة التي تكون على أشدها في الشِّعر.

ولهذا كان تركيز الشعريين العرب على الشِّعر، باعتباره من الكلام الجيّد؛ الذي تتوافر فيه صفات منها: جودة الإفهام، والإلذاذ، والإمتاع، باستثناء البعض منهم، الذين حاولوا تجاوز النص الشعري في بحثهم عن الشعرية، إلى القول بصفة عامة؛ لما وجدوه من تداخل بين الجنسين، فإذا كان المرزوقي مثلاً، يؤكد المنحى التداخلي في استخدامه لفظ (نظم) حين حديثه عن النثر: «فإذا كان النثر -بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى والنظم- اتسع نطاق الاختيار فيه على [ما] بيَّنَّاه بحسب اتساع جوانبها وموادّها، وتكاثر أسبابها ومَواتّها، وكان الشِّعر قد ساواه في جميع ذلك وشاركه، ثم تفرّد عنه وتميَّز بأن كان حَدُّه (لفظ موزون مُقَفًّى يَدُلُّ على معنًى) فازدادت صفاته التي أحاط الحدُّ بها بما انظمَّ من الوزن والتقفية إليها ازدادت

الكُلَف في شرائط الاختيار فيه، **لأنّ** للوزن والتقفية أحكامًا تماثلُ ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف أو تُقارب»[٣٤]. فإنّه يعالج المسألة تقابليًّا[٣٥]، بخلاف ابن طباطبا، الذي يعدّ واحدًا من أكثر النقّاد الذين سلكوا طريقًا تحكمه الرؤية التكاملية، فهو واحد من الذين يغلب على آرائهم الاهتمام بشعرية القول بصفة عامة، قبل شعرية جنس الشِّعر، يقول: «فمن الأشعار أشعار محكمة مُتقنة، أنيقة الألفاظ، حكيمة المعاني، عجيبة التأليف، إذا نُقضت وجُعلت نثرًا لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها»[٣٦]، ويدعو ابن طباطبا الشاعرَ إلى أن يسلك: «منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم، فإنَّ للشِّعر فصولاً كفصول الرسائل»[٣٧]، أمّا القاضي الجرجاني، فيؤكد هذا المنحى الفني التكاملي، في مثالية القواعد النقدية الشعرية، التي يرى بأنها صالحة للتطبيق على النثر: «وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشِّعر دون الكتابة ولا مختص بالنظم دون النثر»[٣٨].

ومن هذا المنظور، تكون الشعرية، كنظرية تبحث عن الجميل الأدبي، أو تحاول أن تعلّل أسباب تسامي الكلام الأدبي عن الكلام العادي، قد دخلت في تعارض مع البنى الأخلاقية، والاجتماعية، والدينية، السائدة وقتها.

إلى جانب ذلك، نجدهم أيضًا قد دخلوا في تعارض مع البنية اللغوية السائدة وقتها، نتحسس هذا الوعي بضرورة قيام علم جديد، بعيدًا عن التناول اللغوي للأدب من مجموعة من النصوص لشعراء أمثال: رؤبة،

وبشّار بن بُرد، والبحتري، ويبدو أنّ المعارك التي جرت بين النحويين والشعراء من جهة، وبين النحويين ونقّاد الأدب من جهة أخرى، كانت سببًا مباشرًا في الدفع بالشعرية إلى أن تؤسس نفسها كعلم قائم بذاته.

لقد دأب النحاة، ولفترة طويلة على توجيه لغة الشعراء بملاحظاتهم، التي كانت ترفض في غالب الأحيان، ورأى الشعراء فيها قصورًا عن تبيّنها أسرار العربية، وعجمة ناتجة عن تحكيم المنطق، ومقاييس النحو، الذي لا يمكن إذلال الأدب لها، ولما كان الشعراء أرباب الكلام، والعارفين بمضايقه، كان في مقدورهم تبيّن الجيّد من الرديء في أشعارهم، وأشعار غيرهم، ونسجل هنا تباهي رؤبة بقدرته على تبصر كلامه، وانتقاده انتقادًا لا يقدر عليه النحاة، يقول في إحدى أراجيزه:

«لا ينظرُ النحْويُّ فيها نَظَري وإن لوى لَحْيَيْهِ بالتحكُّرِ»[٣٩]

ويقول في أرجوزة أخرى:

«وأنـا في تخيُّــر وجِدِّي إذا تنخَّلْتُ جيادَ القدِّ
يلتمِسُ النحويُّ قَصْدي»[٤٠]

أمّا بشّار بن بُرد، فقد أنكر على اللغويين من أمثال يونس، أو أبي عُبيدة، مقدرة الحكم بين جرير والفرزدق، وبأنّ حكمًا كهذا: «ليس من عمل أُولئك القوم، إنما يعرف الشِّعر من يُضطر إلى أن يقول مثله»[٤١]، وما يمكن قوله هو أنّ موقف الشعراء من اللغويين، والنحاة يكاد يتشابه، فالبحتري مثلاً، ينكر على ثعلب وأقرانه من اللغويين القدرة على الحكم في الشِّعر؛ لأنه علم لا يعلمه إلا:

«من دُفع في سَلْك طريق الشِّعر إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته»[٤٢]، ولعل موقف البحتري من ثعلب يوضح بشكل جليّ موقف الشعراء من المؤدبة، ويدعم القول التالي، الموقف الذي اتخذه البحتري من ثعلب: «أخبرني عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَوَيه قال: أخبرني عليّ بنُ العبّاس النّوبَخْتى قال: رأيتُ البحتريَّ يومًا ومعي دفتر، فقال: ما هذا؟ قلتُ: شِعرُ اليَشكوريّ، قال: وإلى أين تمضي؟ قلتُ: إلى أبي العبّاس ثعلب أقرأه عليه. قال: قد رأيتُ أبا عبّاسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة، فما رأيتُه ناقدًا للشِّعر ولا مميِّزًا لألفاظه، ورأيته يستحسن شيئًا وينشده، وما ذلك بأحسن الشِّعر ولا بأفضله. قال: فقلتُ: أمّا نقدُه وتمييزه فهذه صناعة أخرى، ولكن هو أعرفُ الناس بإعراب الشِّعر وغريبه»[٤٣].

يتضح مما سلف، أنّ هناك تسليمًا للشعراء في هذا المجال، بقصور اللغويين أو ما عرفوا بـ(المؤدبة)، وفق مقولة: «إنما يحكم في الشعراء الشعراء لا المؤدبة»[٤٤]، وفي مقابل النصوص السابقة، وجدت نصوص أخرى تثني على فئة النقّاد، القادرة على نقد الشِّعر، وتحديد شروط الجودة، والرداءة فيه، بخلاف النحويين، واللغويين، الذين تركزت جهودهم في الدرس النمطي، الدائر حول المسائل اللغوية، والنحوية، أمّا الجهود النقدية، فتركزت عند فريق من النقّاد في تناولهم البعد الفني، في بلاغة القرآن، والشِّعر بصفة خاصة.

٤. انبثاق الشعرية العربية كمدرسة تقارب الجميل الأدبي:

لّما كان مستوى التحليل الفني، يحتاج في نظر النقّاد إلى مستوى آخر من

الثقافة، والاستعداد، كان لزامًا عليهم البدء في تأسيس هذا العلم، ولعل مقولة الجاحظ تبرز بشكل جليّ هذا التقابل، يقول: «طلبتُ علمَ الشِّعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعتُ إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابَه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتّصل بالأخبار وتعلّق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردتُ إلا عند أُدباء الكُتّاب كالحسن بن وَهْب ومحمد بن عبد الملك الزَّيات»(٤٥)، ومؤدَّى هذا الكلام أنّ كل واحد من هؤلاء العلماء يبحث في النص الأدبي، عمّا يهمّه من موضوعات تدخل في اختصاصه، فيضحى الأدب وثيقة من الدرجة الثانية كما قال جاكوبسون، أمّا الناقد الأدبي، فيعتبر أنّ: «فنّ الفصاحة والبلاغة غيرُ فن النحو والإعراب»(٤٦)؛ لأنّ: «أسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنّما تُؤخذ منهم مسألةٌ نحويةٌ أو تصريفيةٌ، أو نقل كلمة لغوية، وما جرى هذا المجرى، وأمّا أسرارُ الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها»(٤٧)، وبالتالي فإنّ: «النحاةَ لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة»(٤٨).

لهذه الأسباب، يحاول قدامة بن جعفر، كواحد من أعلام الشعرية العربية، أن يقدّم نفسه في بداية كتابه على أنه أول من سيبادر تحديد علم يُعرف به الشِّعر الجيِّد من الرديء(٤٩)، ولعدم انتباه الناس والنقّاد لهذا القسم من علم الشِّعر: «لم أجد أحدًا وضع في نقد الشِّعر، وتلخيص جيِّده من رديئه، كتابًا»(٥٠)؛ ورأى قدامة أنه بهذا العمل، سيخلص معاصريه من

فوضى الأحكام النقدية، عن طريق التأصيل النظري الصارم للشِّعر؛ لأنّ الناس: «يخبطون في ذلك -علم جيِّد الشِّعر من رديئه- منذ تفقّهوا في العلوم، فقليلاً ما يصيبون»[٥١]، فبفضل هذا العلم، يمكن تحديد القيمة الشعرية، وتجاوز الأحكام الانطباعية، إلى نطاق يسمح بتجانس المفاهيم والتصورات، إنه علم تمييز الجيِّد من الرديء.

٥. بدايات التأسيس لبنية متعالية:

إنّ الجهد النظري، الذي بدأه الجاحظ لن يدوم طويلاً، فالآمدي الذي يعدّ ناقدًا تطبيقيًّا، نراه في "**موازنته**" يركّز على الطبيعة العلائقية، النسقية على مستويين: أولهما المستوى الخاص بالنص الشِّعري، وثانيهما المستوى الذي يتصل فيه هذا النص، نسقيًّا بغيره من النصوص داخل بنية كبرى تتجلّى فيه، وبه في الآن ذاته، فالشِّعر عند أهل العلم ما هو إلا: «حسن التأتِّي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه، المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه»[٥٢]، إذن فهذه البنية الكلية، هي الواجب توافرها في النص الجيِّد، حسب النقّاد، و«...وتلك طريقة البحتري»[٥٣].

والشعرية ما هي إلاّ تلك البنية المتعالية، في شكل الغائب الحاضر، والعلّة الأولى، التي تعمل على شعرنة الكلام، الذي لا يمكن أن يصل درجة الشعرية (الصفة)، إلا إذا جلّى هذه البنية المتعالية، وقد حاول الآمدي

تبرير ذلك، بداية بتقديم الأحكام الجمالية، التي يقيّم بها الشِّعر في عصره، فخلص إلى أنها متباينة في عصره، وفي كل العصور، لاختلاف الناس في الأذواق: «لم يتفقوا على أيّ الأربعة أشعر في امرئ القيس والنابغة، وزهير والأعشى، ولا في جرير والفرزدق والأخطل، ولا في بشّار ومروان والسيد، ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم، لاختلاف آراء الناس في الشِّعر، وتباين مذاهبهم فيه»(٥٤).

وينتهي الآمدي، إلى حصر الاتجاهات النقدية في اتجاهين رئيسين: اتجاه يستحسن الغموض في المعاني، والتدقيق الفلسفي، واتجاه يرى أنّ الجمال كامن في الأشعار، التي تشاكل أشعار الأوائل، غير أنه في آخر مصنّفه، يكشف لنا عن اتجاه ثالث، يرى أنّ الشعرية قد تكون متلبّسة بالنص الذي معناه ظاهر، وبنفس الدرجة التي قد تتلبّس النص الغامض، وهو اتجاه يجمع بين الاتجاهين، من خلاله يحاول الآمدي، التأكيد على بقاء الذوق العربي متنوعًا، وتملّكه للنفس العربية، وإن كان الآمدي قد حاول أن يبيّن، بأنّ هذا التعدد في الذوق العربي، ما هو إلاّ سلسلة متواصلة، لا انقطاع بين حلقاتها الممثلة بفئتي: المتقدمين، والمتأخرين (المحدثين)، أي التواصل بين القِيَم التي كرستها التقاليد الشعرية العربية، وبين القيم الشعرية التي كان ينادي بها المحدثون، وقد ساهم هذا الجهد النقدي في أحد جوانبه، في تكريس مفهوم الشعرية، على أنها بنية متعالية، خوفًا من فساد الشِّعر العربي، مثل ما فسد الذوق العربي، وهو الانشغال ذاته، الذي

نجده عند كلّ من ابن طباطبا، والآمدي، والقاضي الجرجاني، الذين عملوا على تكريس هذا الفهم للشعرية، ووجد المرزوقي الطريق معبّدًا أمامه، ليحدد هذه البنية المتعالية، التي وسمها "عمود الشِّعر العربي"، والتي بها يمكن معرفة، وتمييز: «تليدُ الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث»[٥٥]. وتنماز هذه البنية في شِعر العرب بـ: «أنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف -ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت له سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات- والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيُّرٍ من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه المستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشِّعر، ولكل باب منها معيار»[٥٦].

وقد ساعد هذا الفهم للشعرية، على تصورها في شكل بنية كبرى للقوانين، يتجلّى حضورها في الأبنية الصغرى للأعمال الشعرية، سواء على مستويي: التركيب، أو الإيقاع، أو على مستوى الدلالة، فتصبح الأبنية الصغرى، وعلى نحو تبادلي محيلة على البنية الكبرى، إحالة المعلول إلى العلة، أو بعبارة أكثر دقة، إشارة المجلِّي للأصل، وهذا ما دفع بالمرزوقي إلى أن يضع معايير توزن بها الأبواب السبعة، المكوّنة لعمود الشِّعر، وهي عناصر صدرت عن طريقة العرب في قول الشِّعر، وما محاولته إلاّ تَبَيُّنٌ لهذه العناصر الناضجة، التي ينبغي الإبقاء عليها، للحفاظ على الشعرية

العربية، وإن كان المرزوقي واقعًا في أسر التقليد، إذ عدّ طريقة الشعراء العرب في عصور العربية التي سبقته، هي الأصل، ناظرًا إلى العصر الجاهلي على الخصوص، بأنه المرتكز الأساس، لفهم طريقة العرب في القول الشعري، أي أنه جاء بمعايير، أو قواعد قديمة، تقليدية، مستقاة من جودة نص سابق، وقديم، واحتكم إليها في بيان جودة الشِّعر اللاحق كلّه.

ويمكن التعرف على المعايير السبعة، كما وردت عند المرزوقي، وهي: «...فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء، خرج وافيًا، وإلا انتقص بمقدار شوبه ووحشته. وعيار اللفظ، الطبع والرواية والاستعمال، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم.. وعيار الإصابة في الوصف، الذكاء وحسن التمييز، فما وجداه صادقًا في العلوق، مازجًا في اللصوق، يتعسّر الخروج عنه والتبرؤ منه، فذاك سيماء الإصابة فيه... وعيار المقاربة في التشبّه، الفطنة وحسن التقدير، فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما، ليبيّن وجه التشبيه بلا كلفة... وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخيّر من لذيذ الوزن، الطبع واللسان، فما لم يتعثّر الطبع بأبنيته وعقوده، ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصوله، بل استمرّا فيه واستسهلاه، بلا ملال ولا كلال، فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة، تسالُمًا لأجزائه وتقارنًا. وعيار الاستعارة، الذهن والفطنة، وملاك الأمر

تقريب التشبيه في الأصل، حتى يتناسب المشبّه والمشبّه به، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار، لأنه المنقول عمّا كان له في الوضع إلى المستعار له. وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية، طول الدربة ودوام المدارسة... وأمّا القافية، فيجب أن تكون كالموعود المنتظر، يتشوّقها المعنى بحقّه واللفظ بقسطه»[٥٧].

وبعد تحديد المرزوقي لهذه المعايير المكوّنة للبنية الكبرى، كعلّة تتكون من مجموعة من علل صغرى، تنعكس على معلولاتها بدرجات مختلفة، يقول المرزوقي: «فهذه الخصال هي عمود الشِّعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبنى شِعره عليها، فهو عندهم المغلق المعظم، والمحسن المقدَّم، ومن لم يجمعها كلَّها فبقدر سُهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان، وهذا إجماعٌ مأخوذ به ومتّبع نهجه حتى الآن»[٥٨].

هكذا، غدت الشعرية صورة أخرى من الكلّ، الذي لا نراه يتجلّى إلاّ في جزئياته المكوّنة له، والتجلّيات التي لا نراها شِعرية (الصفة)، إلاّ من خلال هذا الكل، الذي ليس سوى إياها، ويؤكد الدكتور عبد المنعم خفاجي وجهة النظر هاته، حين عرّف عمود الشِّعر بأنه في جوهره: «كلَّ التقاليد الفنية التي التزمها القدماء في قصائدهم: في الأفكار والمعاني والأخيلة والأوزان والقوافي والألفاظ والأساليب والصور وغيرها، فهذه التقاليد هي الشِّعر الذي حتَّم الكثيرُ من النقّاد التزامه، والسَّير على منواله»[٥٩]، وبذلك تكون الشعرية قد انتقلت من البحث عن الجميل الأدبي إلى البحث

عن ماهيتها، كبنية كلية متعالية، ذات خصائص عامة، تكتشف بدراسة العمل الأدبي، الذي تقترن به، لترى من داخله ما هو وراءه، وأدّى هذا إلى ظهور نوع من الحرج النقدي، خاصة وأنّ مجال الإبداع قد ضيق على المحدثين، لأنّ السير على المنوال، لا يؤول في نهاية المطاف إلى نتائج مرضية؛ لأنّ هذه التقاليد الفنية (عمود الشِّعر) مستقاة من القصيدة الجاهلية، والإسلامية، وهذا يعني أنّ بلوغ غاية الجودة، والحسن، أمر مستحيلٌ مادام القدماء قد أتَوا بالمثَل الأعلى في قصائدهم، وابن طباطبا العلوي واحد من الذين بدا عليهم هذا التحرّج، من خلال قوله: «والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم؛ لأنهم قد سُبقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلابة ساحرة، فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولائك ولا يُربى عليها، لم يُتَلَقَّ بالقبول، وكان المطروح المملول»[٦٠].

وقد أحسّ القاضي الجرجاني نفسه بوضعية شعراء عصره الصعبة، منصفًا إياهم، متلمِّسًا العذر للمقلِّ منهم: «لأنّ أحدهم يقف محصورًا بين لفظٍ قد ضُيِّق مجاله، وحُذِفَ أكثره، وقلَّ عدده، وحُضِرَ معظمه، ومعانٍ قد أخذ عفوها، وسبق إلى جيِّدها، فأفكاره تنبثُّ في كل وجه، وخواطره تستفتح كل باب، فإن وافق بعضَ ما قيل أو اجتاز منه بأبعد طرف قيل: سرق بيت فلان، وأغار على قول فلان، ولعل ذلك البيت لم يقرع قطُّ سمعه، ولا مرّ بخلده؛ كأنَّ التوارد عندهم ممتنع، واتفاق الهواجس غير ممكن،

وإن افترع معنًى بِكرًا، أو افتتح طريقًا مبهما، لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه إلى القلب... فإحسانه يُتأول، وعيوبُه تُتَمحل»[٦١].

وأمام هذه المحنة، يتنازل ابن طباطبا للمحدثين عن بعض أصول العمود الشعري، فلا يطلب من المحدثين إيراد الحقائق كما هي، والتزام الشاعر الصدق، وإنما المهم بالنسبة له، أن يقول الشاعر شِعره في عبارة جميلة، ولفظ أنيق، حتى ولو كان فيه نوع من الغرابة في المعنى، وبالتالي ركّز الشعراء المحدثون على الصياغة اللفظية، كما وجدوا في صور المحسنات اللفظية، التي عرفت بمصطلح البديع بداية لعهد جديد من الإبداع، ويسجل لنا ابن المعتز وجود هذه الظاهرة الإبداعية الجديدة، التي انفلتت من البنية المتعالية (عمود الشِّعر) في القرآن، وفي الحديث، وفي كلام العرب، وفي أشعار المتقدمين، أمّا المخالفة فتكمن في الإسراف، والإكثار، حتى خرجت بالشِّعر عن النهج.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

❖ جامعة الشلف – الجزائر.

(١) رشيد يحياوي، **شعرية النوع الأدبي في قراءة النقد القديم، إفريقيا الشرق**، الدار البيضاء، ١٩٩٤، ص٩٣.

(٢) محمد الولي، المدخل إلى بلاغة المحسنات (مقال) **مجلة فكر ونقد**، ع٨. (النص منقول من كتاب): Jose Gonsalez Vasquez, Sobre la imagen, poetica, Universidad de Granada, ١٩٨٠ p. ٥٠.

(٣) ج. هيو سلفرمان، **نصيّات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية**، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢، ص٢٦٠.

(٤) Ducrot (Oswald) et Todorov (Tzvetan), Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p. ٩٩.

(٥) القاضي الجرجاني، **الوساطة بين المتنبِّي وخصومه**، تح. أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص٣١-٣٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ص١٨٨.

(٨) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨، ج١، ص٢٤٠.

(٩) ابن قتيبة، أبو محمد الدينوري، **الشِّعر والشعراء**، أو **طبقات الشعراء**، تح: مفيد قميحة ومحمد أمين الضناوي، ص٧٢-٧٣.

(١٠) المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، **الموشح** (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشِّعر)، تح: محمد البجاوي، ص٣٢-٣٣.

(١١) الخطابي، أبو سليمان، **بيان إعجاز القرآن** (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ص٦٤.

(١٢) المصدر نفسه، ص٦٤.

(١٣) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

(١٤) ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن محمد بن أحمد، **عيار الشِّعر**، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، الرياض، ١٩٨٥، ص٢٠٣.

(١٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص١.

(١٦) القاضي الجرجاني، **الوساطة**، ص٤١٢.

(١٧) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، **العمدة في صناعة الشِّعر ونقده**، تح: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ج١، ص١٩٢.

(١٨) ينظر **الموشح** للمرزباني، وكذا **جمهرة أشعار العرب** للقرشي، انظر كذلك الدراسة التي قدّمها عبد الرزاق حميدة: **شياطين الشعراء** (دراسة تاريخية نقدية مقارنة تستعين بعلم النفس) مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، د.ت.

(١٩) ينظر عبد الجبار المطلبي، **الشعراء نقّادًا**، بغداد، ١٩٨٦، ص٤٦-٤٧.

(٢٠) وخير الشِّعر أكرمه رجالا وشرّ الشِّعر ما قال العبيد (الوافر)

انظر: ابن قتيبة، **الشِّعر والشعراء**، ص٢٤٥.

(٢١) ولزهير كذلك من البسيط:

وإنّ أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

انظر: قدامة بن جعفر، **نقد الشِّعر**، ص١٥٠.

(٢٢) ابن قتيبة، أبو محمد الدينوري، **الشِّعر والشعراء**، أو **طبقات الشعراء**، تح: مفيد قميحة، ومحمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥، ص٣٦٩.

(٢٣) انظر: توفيق الزيدي، **مفهوم الأدبية في التراث النقد إلى نهاية القرن الرابع الهجري**، سراس للنشر، تونس، ١٩٨٥. ص٣٨-٤٣.

(٢٤) تابَع حسن مروة، أطوار الجدل الفلسفي بين أصحاب العقل وأصحاب النقل؛ انظر كتابه: **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**، دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

(٢٥) انظر: المرزباني، **الموشح**، ص١٥، وابن قتيبة، **الشِّعر والشعراء**، ص١٧٤.

(٢٦) ابن طباطبا، **عيار الشِّعر**، ص٢٠٢.

(٢٧) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص٨٩-٩٠.

(٢٨) ابن طباطبا، **عيار الشِّعر**، ص١٢١.

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) قدامة بن جعفر، **نقد الشِّعر**، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص١٣٦.

(٣١) ابن طباطبا، **عيار الشّعر**، ص٦.

(٣٢) المصدر نفسه، ص٢٠٢.

(٣٣) الجاحظ، **الحيوان**، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٣٨، ج١، ص٩٧.

(٣٤) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، **شرح ديوان الحماسة** لأبي تمّام، تعليق غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، مج١، ج١، ص١٠.

(٣٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٥-١٨.

(٣٦) ابن طباطبا، **عيار الشّعر**، ص١١.

(٣٧) المصدر نفسه، ص٩.

(٣٨) القاضي الجرجاني، **الوساطة**، ص٢٤.

(٣٩) يوهان فك، العربية، ص٢٩-٣٠.

(٤٠) المرجع نفسه.

(٤١) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣، ص١٧٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص١٧٦.

(٤٣) الحاتمي، محمد بن الحسن (ت ٣٨٨هـ)، **حلية المحاضرة في صناعة الشّعر**، تح: هلال ناجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨، ج١، ص ص١٩٩-٢٠٠.

(٤٤) ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب**، ط: رفاعي، ج٧، ص١٨٨-١٨٩.

(٤٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ص٢٤.

(٤٦) ابن الأثير، ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ج١، ص٣٨٣.

(٤٧) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٨.

(٤٨) المصدر نفسه، ج٢، ص١٦٤.

(٤٩) قدامة بن جعفر، **نقد الشِّعر**، ص ص٦١، ٦٢.

(٥٠) المصدر نفسه، ص٦١.

(٥١) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٥٢) الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، **الموازنة بين أبي تمّام حبيب بن أوس الطائي، وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي**، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ص٣٨٠.

(٥٣) المصدر نفسه.

(٥٤) المصدر نفسه، ص١١.

(٥٥) المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة**، ج١، ص١٠.

(٥٦) المصدر نفسه، ص١٠.

(٥٧) المصدر نفسه، ج١، ص١٠-١٢.

(٥٨) المصدر نفسه، ج١، ص١٢.

(٥٩) محمد عبد المنعم خفاجي، **فصول في الأدب والنقد**، مطبعة صبيح، القاهرة، د.ت. ص٨٢.

(٦٠) ابن طباطبا، **عيار الشِّعر**، ص١٣.

(٦١) القاضي الجرجاني، **الوساطة**، ص٥٢.

# السفينة في المعجمية العربية
## قراءة في آفاق القدرة والمرونة اللغوية

بقلم: د. خالد فهمي إبراهيم*

يمثّل مشكل العلاقة بين العربية والمنجز الحضاري مفردة من مفردات البحث اللساني والمعجمي، يقع في الصميم من اهتماماته ومشاغله.

ومثل سلاحًا من طرفي المتحيّزين لكل فئة، من المنتصرين لضرورة تعريب العلوم، ومن المخاصمين للتعريب، المدافعين عن استيراد العلوم بوعائها اللساني الذي أنتجها!

وفي هذا البحث محاولة لفحص أبعاد القدرة والمرونة التي منحتها العربية لواحد من أظهر تجليات الحضارة المادية الجديدة على الحياة العربية، وهو حقل السفينة وألفاظه ومصطلحاته في اللسان العربي.

وسعيًا إلى هذه الغاية يعالج هذا البحث المطالب التالية:

١- مدخل: البحر وجهة جديدة للعربي المسلم!

٢- السفينة في المعجم العربي: المدوّنة والعلاقات المعرفية:

(٢/١) المدوّنة (معجمات السفينة في العربية).

(٢/٢) علاقات السفينة المعرفية.

٣- مصطلح السفينة: قراءة في نتائج التأصيل اللغوي.

٤- مصطلح السفينة: أنماطه ودلالاته.

٥- آفاق استثمار البحث المعجمي في مصطلح السفينة.

إنّ أمثال هذه البحوث المعجمية تعي وضعها الذي يراوح مناطق البحث المعجمي، وعلم المصطلحات والسياسات اللغوية، وتاريخ اللغة.

وهو نوع من بحوث التحيز بالمعنى المنهجي الذي يتعاطف مع منجز هذه الحضارة، التي فجرها الكتاب العزيز!

وهو كذلك نوع من بحوث المعجمية التطبيقية والنظرية معًا الذي يمكن بوساطته فحص بعض الإشكالات التاريخية في المجال المعجمي، والإسهام في اتخاذ قرار سلبي أو إيجابي بشأنها، ولا سيما في ظل استمرار الجدل الدائر حول كثير منها إلى اليوم في الأوساط المتخاصمة فكريًّا/ أو أيدلوجيًّا في الأساس.

لقد بات واضحًا أنّ "اللغة تقع في قلب هذا الصراع"(١) على هوية مصر على الأقل، وهو ما قد يكون صحيحًا في كثير غيرها من بلدان المنطقة العربية.

ولعل اختيار هذه المناطق الجديدة من المعجمية بأبعادها النظرية (التاريخية) والتطبيقية من جانب والمشتبكة بعلم المصطلحات من جانب آخر تكون طريقًا واضحة وناجزة لفحص كثير من المشكلات العالقة في هذا الباب.

❖❖❖❖❖

**(١) مدخل: البحر وجهة جديدة للعربي المسلم!**

**(١/١) خطاب التأسيس.**

معلوم جيّدًا أنّ القرآن الكريم مثّل نقطة تحوّل جوهري في تكوين العقل العربي في رؤية الكون والحياة من جوانبها جميعًا.

لقد جاء ذكر القرآن الكريم للبحر متنوّع التصريف، فكانت قائمة استخدامه لتصريفاته كما يلي(٢):

أ- بحر/ بالإفراد في ثلاث وثلاثين مرة (٣٣ مرة) (نكرة/ ومعرفة).

ب- بحران/ بالتثنية في خمس مرات (٥ مرات) (نكرة/ ومعرفة).

ج- بحار/ أبحر بالجمع ثلاث مرات (٣مرات) (٢ بحار/ ١ أبحر).

أي أنّ مجموع ما جاء هو إحدى وأربعون مرة (٤١ مرة)، وقد أحاطت بها العلامات التالية:

**أولاً**- توزع استخدامها على القرآن المكي والمدني.

**ثانيًا**- توزع استخدامها موضوعيًّا، بمعنى استخدامها في سياق الإخبار، والقصص، وفي سياق التذكير بنعمة الله، وفضله، وقدرته سبحانه، وفي سياق المستقبل تحذيرًا من وعيد الله تعالى.

**ثالثًا**- تنوع وظائف استخدامه، بمعنى أنّ الذِّكر الحكيم استخدم تصاريف البحر، إفرادًا وتثنيةً وجمعًا لتحقيق وظائف متنوعة من مثل:

أ- إثبات صدق الرسالة؛ الإنباء عن الغيب الماضي

ب- الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالدلالة على براهين قدرته في البحار، وما يسيره فيها، وما يخرجه منها.

ج- التنويع في دعوة المخاطبين بالترغيب، والترهيب والإقناع.

د- إثبات صدق النبي ﷺ في نبوته.

هـ- فتح آفاق للأمّة للنهوض الحضاري بتوظيفهم للبحر، طريقًا للنقل والمواصلات، ومصدرًا للغذاء والثروة، ومجالاً للتصنيع والطاقة... إلخ.

ثم إنّ طائفة من هذه الآيات التي جاءت في الكتاب العزيز وردت مقترنة بذكر ما يدل على السفينة، فقد جاء البحر مقترنًا بما يلي:

**أولاً**- البحر/ الجواري.

**ثانيًا**- البحر/ السفينة.

**ثالثًا**- البحر/ الفلك.

وإليك قائمة هذه الاستخدامات:

**أولاً- البحر/ الفلك (=السفن).**

وقد جاء الاقتران بين البحر والفلك أكثر علاقات الاقتران الثلاثة تكرارًا في المواضع التالية:

- سورة البقرة ٢/١٦٤: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.

- سورة إبراهيم ١٤/٣٢: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾.

- سورة الإسراء ١٧/٦٦: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

- سورة الحج ٦٥/٢٢ : ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾.

- سورة لقمان ٣١/٣١: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ﴾.

**ثانيًا- البحر/ الجواري (السفن).**

وقد جاء الاقتران بين البحر والجواري في المرتبة الثانية من جهة الاستخدام كما يلي:

- سورة الشورى ٣٢/٤٢: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ﴾.

- سورة الرحمن ٢٤/٥٥ : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ﴾.

**ثالثًا- البحر/ السفينة.**

جاءت العلاقة (البحر/ السفينة) في المرتبة الأخيرة إحصائيًّا، في موضع واحد هو قوله تعالى:

- سورة الكهف ٧٩/١٨: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾.

وثمة علاقة أخرى بين البحر/ والسفينة، لكنها علاقة تضمينية؛ أي لم يصرّح فيها بلفظة (الفلك/ أو الجواري/ أو السفينة)، ولكنها متضمنة في سياق الآيات في المواضع التالية:

- سورة المائدة ٩٦/٥ : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ ولا يكون الصيد بغير مركب.

- سورة الأنعام ٦٣/٦ : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ولا تكون النجاة من ظلمات البحر إلا بعد ركوبه.

- سورة الأنعام ٩٧/٦ : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

- سورة يونس١٠/٢٢ : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والسير في البحر يلزمه سفينة!

- سورة النحل ١٦/١٤ : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ولا يكون الأكل من لحم البحر إلا بعد الصيد، و لا يكون إلا بعد ركوبه.

ففي هذه المواضع جميعًا قرائن تفرض حضور الفُلك أو الجواري أو السفينة بما هي أدوات السير والصيد في البحر.

إنّ هذا الاستخدام لأنواع السفن المتضمنة في الآيات والمستنبطة بحكم تنوّع الأوصاف والقرائن اللفظية والعقلية المطيفة بها قاطعة في أنّ العرب كانوا على معرفة بالبحر، وركوبه وسفنه ولو تاريخيًّا!

وهو الأمر الذي استثمره الكتاب العزيز في اتجاهات كثيرة خادمة لفكرته الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الحضارية.

**(٢/١)**

من جانب آخر فإنّ فحص ما ورد في السنة المشرفة مما يتعلق بالبحر يلمس نوعًا من اتساع آفاق النظر إليه في وجهة العقل العربي المسلم؛ فقد

وقف الفقهاء أمام مجموعة الأحاديث واستنبطوا منها أبوابًا كاملة تفضي إلى هذا الذي نذهب إليه ومما يمكن التنبّه إليه في هذا السياق ما يلي:

**أولاً**- حِلّ ما يلقيه البحر من طعام.

**ثانيًا**- إحلال غزو البحر، وما يتعلّق به من شهيد البحر، وثوابه.

**ثالثًا**- شيوع النظر إليه بابًا لتقدير عظمة الله تعالى، واستطالة قدرته سبحانه.

إنّ مراجعة السنّة في هذه المحاور مهم جدًّا؛ لتكملة بيان ما نفذ منها ومن الكتاب العزيز إلى بنية الثقافة العربية، واستقر فيها من النظر إلى البحر وما نشأ بسبب من صناعات حضارية تتعلق بمعجم السفينة.

وسنعتمد ما ورد في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، لفنسنك(٣) في بيان أمثلة الأحاديث الكاشفة عن هذه المحاور:

**أولاً- البحر/ الطعام:**

"البحر الطهور ماؤه، الحِلّ ميتته".

"كانا لا يريان بما لفظ البحر بأسًا".

ويستفاد من مثلها حِلُّ طعام صيد البحر، وما تلقيه من أرزاقها، وأسماكها.

**ثانيًا- البحر/ الجهاد:**

"لا يركبون ثبج هذا البحر".

"فغزا في البحر فحملها معه".

"غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر".

"المائد في البحر كالمتشمط في دمه في البر".

**ثالثًا- البحر/ دليل عظمة الله وقدرته:**

"حطّت عنه خطاياه، وإن كان مثل زبد البحر".

"أمر الله البحر فجمع ما فيه".

"حلف بالله الذي فلق البحر لموسى".

ويستفاد منها تقدير الصفات الإلهية من باب هيمنته سبحانه على البحر في التصور الثقافي العربي المدعوم بالأخبار والتاريخ والمشاهدات.

وتتشعب العلاقات التي تدخل السفينة والفلك طرفًا بدرجة أكبر مما هي عليه في العلاقات التي ظهرت من فحص آيات الكتاب العزيز، وهو أمر منطقي له ما يسوغه؛ لأنّ السنّة المشرّفة هي النص المفسِّر، الموضِّح للذِّكر الحكيم.

وفحص هذه العلاقات كاشفة عن أبعاد الوجهة الجديدة التي نزلت في العقل المسلم بسبب روح الإسلام، ومما يظهر من نصوص الأحاديث ما يلي(٤):

أ- السفينة/ النجاة: "السفينة نجاة".

ب- السفينة/ زيادة الأجر: "لكم أنتم أهل السفينة هجرتان".

ج- السفينة/ الحضارة: "إنها يطلى بها السفن".

"كأنه جمالات صفر حياة السفن".

د- السفينة/ التجارة والنقل: "أن ركبنا في سفينة بحرية".

"حمل معه في سفينة".

ومن هذه الحقول الأربعة الفرعية يظهر أنّ السفينة دخلت في علاقات كاشفة عن حضور ثقافي وحضاري في بنية العقل العربي، زاد وتشعب بفضل تفاعله مع بقية الخصائص العمرانية والحضارية التي مثّلت جزءًا جوهريًّا من مقاصد الشريعة الإسلامية.

إنّ أيّ دراسة لفيلولوجيا السفينة في الثقافة والمعجمية العربية، لا يمكن تجاوز ما أحلّه الكتاب العزيز والسنّة المشرّفة في بنيتهما بأيّ حال من الأحوال. وهذه النتيجة ظاهرة جدًّا من مجموع ما تكشّف من تحليل العلاقات التي دخلت فيها السفينة في هذين النصين الجليلين معًا.

صحيح أنّ المتأمّل لا يعدم أمثلة لحضور البحر/ السفينة في مدوّنة النصوص العربية القديمة الجاهلية، لكن هذا الحضور لا يمكن أن يقارن بما أحدثه التصور الإسلامي من خلال الكتاب العزيز والأحاديث النبوية المشرّفة في العقل العربي من تمدّد لهذا الحضور، أصاب مناطق واسعة جدًّا وعمّقها، لدرجة وصلت بالحضارة الإسلامية في زمان ما أن يكونوا سادة البحار بلا منازع على الرغم من عراقة كثير من الأمم الأخرى في علاقتها بالبحر/ السفينة في التاريخ الإنساني.

إنّ التذرع بفيلولوجيا البحر وعلائقه وسيلة معروفة في كثير من المجالات المعرفية الاجتماعية وغيرها على ما نرى مثلاً في صنيع بريدراج ماتفيسجيفتش عندما لاذ بالمعجم ليكتب جزءًا من تاريخ البحر المتوسط في تراتيل متوسطية(٥).

**(٢) السفينة في المعجم العربي: المدوّنة والعلاقات المعرفية.**

اتضح من تحليل حضور البحر/ السفينة في خطاب التأسيس أنّ هذا الحضور يتجاوز الحدود الأولية، إلى عدد من العلاقات المهمة في بنية الثقافة العربية، وأتاح لها الكتاب العزيز والسنّة المشرّفة تمدّدًا وتشعّبًا ظاهرين.

وفي هذه النقطة من البحث نقف أمام: السفينة في المعجمية العربية مستهدفين الكشف عن حدود المدوّنة، وأشكال العناية بها.

**(١/٢) السفينة في المعجم العربي: المدوّنة.**

ومقصودنا بالمدوّنة هنا الأشكال المادية التي ظهر من خلالها العناية بجمع ألفاظ السفينة في العربية، وهي ما نرى أنها صالحة لأن تتوزع على مرحلتين، بمفهوم التصنيف، لا بمفهوم المرحلة التاريخية؛ هما:

**(١/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة ما قبل الاستقلال.**

**(٢/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة الاستقلال (معجمات السفينة).**

لقد كان مدهشًا تغطية مساحة كبيرة من ألفاظ معجم السفينة في مصادر لغوية وغير لغوية في تاريخ التأليف في الحضارة العربية بتأثير الإسلام.

**(١/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة ما قبل الاستقلال.**

في هذه النقطة نحاول أن نثبت أنّ المعجمية العربية -في تاريخ متقدم- تنبّهت إلى جدارة السفينة، بما هي موضوع، بالعناية، والرعاية وربما كان كافيًا في هذا السياق التدليل بعدد قليل من الأمثلة الكاشفة.

**أولاً**- ولعل الذهاب إلى معاجم الموضوعات يكون نقطة تمثيل صالحة لما نقرره من علامات هذه العناية التي منحتها المعجمية العربية قديمًا لألفاظ هذا الحقل، وفي هذا الصدد يقابلنا أهم معجمات هذا النوع، وهو:

- "**المخصص**" لعلي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، إذ أفرد فصلاً (حقلاً) للسفينة (ق٣) ١٠/٢٣-٢٩؛ وفصلاً (حقلاً) آخر بعده بعنوان: ما يشبه السفينة (ق٣) ١/٢٩؛ ومن الجديد بالذكر أنهما جاءا تاليين لباب البحر ونعوته وجزره وأسماء ساحله وما فيه من الحيتان والملاحظة البيئية التي تلوح من تحليل هذا الترتيب هي وضوح العلاقة الدلالية، والمعرفية بين البحر/ والسفينة؛ في تطبيقات المعجمية العربية، كما نرى في هذا النموذج.

وتحليل مادة هذين الحقلين يلحظ أنّ المعجمي العربي كان واعيًا بمجموعة الحقول الفرعية المنضوية تحت حقل السفينة، وقد ضم ما يلي:

أ- ألفاظ السفينة (حقل علوي).

ب- ألفاظ أسماء أجزاء السفينة، ومكوناتها.

ج- ألفاظ أسماء الملاّحين العاملين على السفينة.

د- ألفاظ أسماء ما يلحق بالسفن مما يجري في البحر مما هو دون السفينة.

هـ- ألفاظ أسماء بعض الأدوات المستعملة في صناعة السفينة.

كما يكشف تحليل شروح المداخل أمورًا مهمة جدًّا تختص بعدد من المجالات الحضارية من مثل:

أ- صناعة السفن (الإجراءات العملية).

ب- قواعد تصنيع السفن.

ج- مهارات الصنّاع، وما تحصل لهم من تجارب السنين في البحر.

د- مراكز تصنيع السفن في الجزيرة العربية، من خلال تسمية كثير من السفن بنسبتها إلى أماكن صناعتها، كالعدولية؛ المنسوبة إلى: عدولى بالبحرين.

هـ- تنوّع السفن تبعًا لتنوّع الوظائف (كالصيد والقتال... إلخ).

و- تنوّع السفن تبعًا للأوضاع الاقتصادية في الأقاليم البحرية (سفن/ وأشباه سفن).

ز- بعض العادات الاجتماعية والتاريخية المبثوثة في بعض التعليقات على معنى بعض المداخل.

إنّ تحليل ما أورده ابن سيده في "**المخصص**" كاشف عن بعض عناية قديمة بمعجمية السفينة، ظهرت في إطار تطبيقات المعجم العامّ، وهو الأمر الذي ينبئ عن أهمية معالجته في هذا المجال.

**ثانيًا**- ولعل التفكير المنطقي يفرض علينا فحص مجالين معرفيين يغلب الظن على عنايتهما بمعجمية السفينة بوجه خاص، وهما:

أ- مجال الكتابة في الرحلات (أدب الرحلات).

ب- مجال الكتابة في التاريخ (تاريخ الشعوب والأحداث المرتبطة بالبحر).

ذلك أنّ هذين المجالين يظهران عناية خاصة بسبب طبيعة البناء المعرفي لهما وهو باب واسع يحتاج نوع تتبّع، وجمع وفحص وتحليل.

وتعدّ المقدمة التي صنعها: هانس كندرمان عن مصادر دراسة معجمية السفينة في كتابه "**مصطلح السفينة عند العرب**" خطوة جيّدة في هذا الباب(٦).

ومن المصادر المهمة التي أشار إليها كندرمان: كتاب "**قوانين الدواوين**" لابن مماتي المتوفى ٦٠٦هـ.

وقد جاءت عناية ابن مماتي بقائمة أسماء السفن التي ذكرها، بسبب ما أراده الرجل لكتابه أن يكون في التاريخ الإداري والزراعي للدولة المصرية في عصره (الدولة الأيوبية)، فصنع فصلاً للأسطول المنصور (ص٣٣٩)، يقول في مفتتحه "وهو الآن يجري في جيش المصريين، وسنذكر... أسماء مراكبه"(٧).

صحيح أنّ القائمة التي ذكرها الوزير الأسعد بن مماتي تعدّ من القوائم المعجمية القصيرة، لكنها مهمة من أكثر من جانب:

أ- هي في سياق الغرض الذي سبقت من أجله في تحليل تكوين الجيش المصرى في مرحلة تاريخية قديمة.

ب- هي مهمة لأنها تختص بنوع بعينه من السفن، هي السفن الحربية.

ج- هي مهمة لأنها تكشف عن وظائف مختلفة للسفن في المجال الحربي، فمنها سفن للمقذوفات، ومنها سفن لحمل الدواب والخيل، ومنها سفن لحمل المؤن، والأزداد... إلخ.

وقد ضمت قائمة ابن مماتى ثمانية مداخل (=أسماء سفن)، وكانت طريقة شرحها معتمدة على بيان وظائفها ؛ أي أنّ السمات الدلالية الفارقة التي تميّز كل سفينة عن غيرها ظهر من بيان أمرين هما :

أ- وظيفة نوع كل سفينة.

ب- تكوين السفينة، وحجمها.

من هذين النموذجين يتضح لنا أنّ التراث العربي المعجمي العامّ وغيره من مجالات أخرى يضم ألفاظًا كثيرة جدًّا للسفينة، تحتاج إلى التتبع، والجمع، والتنظيم، والتحليل، وهي صالحة لأن تخدم قطاعات علمية كثيرة تتعلق بتاريخ الحضارة العربية.

ولن تكون الثمرة المرجوة مقيدة إلا بعد توافر البحث على دراسة مصادر أسماء السفينة في اللسان العربي، وجمعها، وتدوين الملاحظات اللغوية (التأصيلية) والتاريخية، والحضارية عليها.

وبحث المصادر هذه مهم جدًّا، ما يزال يشهد قصورًا ظاهرًا في الأدبيات التي عالجت الموضوع إلى الآن!

**(٢/١/٢) السفينة في المعجم العربي : مدوّنة الاستقلال (المعجمات المستقلة).**

أظهرت دراسة مصادر أسماء السفن في العربية تنوع مجالاتها المعرفية، وقد مر في مطلب سابق بيان ملامح العناية بمعجمية السفينة في العربية في منطقتين معرفيتين. وأشرنا إلى عدد آخر من المظان التي يمكن أن تمثّل منطقة خصيبة لمن يروم دراسة ألفاظ السفينة في العربية وأسمائها.

وقد تأخر استقلال التصنيف في أسماء السفن في العربية حتى العصر الحديث وقد سبق التقليد الاستشراقي التقليد العربي في العناية بالتصنيف المستقل في معجمية السفينة في الحضارة العربية الإسلامية.

وقد وصلت إلينا المصنّفات المعجمية التالية في هذا الباب:

**أولاً– في التقاليد الاستشراقية:**

**– ١٦٣٤م /هانس كندرمان= مصطلح السفينة عند العرب.**

وعنوانه بالألمانية:

Schiff im Arabischen untersuchung uber vorkommen und Bedeutung der Termini, Zwickau,١٩٣٤.

وترجمته كما نقلها الصديق الدكتور/ رضا الدقيقي: السفينة في البحث العربي: دراسة عن دلالة المصطلح ومعناه، دار النشر: تسفيكا، بدن ١٩٣٤م.

**ثانيًا– في التقاليد العربية:**

**أ– ١٩٦٧م/ الدكتور جمال الدين الشيال=**

«معجم السفن العربية، وهو مجموعة بطاقات وجزازات مخطوطة، كانت محفوظة بمكتب سكرتارية السيد وكيل (نائب رئيس) جامعة الإسكندرية للبحوث والدراسات العليا»(٨) وقد ضمّنها درويش النخيلي كتابه عن السفن الإسلامية على حروف المعجم.

**ب– ١٩٧٤م/ الأستاذ درويش النخيلي/=**

السفن الإسلامية على حروف المعجم، طبعة جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٧٤م.

وفي ما يلي دراسة للبنيتين الكبرى والصغرى لهذين المعجمين ؛ معجم كندرمان ومعجم النخيلي :

**(١/٢/٢) ١٩٣٤م/هانس كندرمان= مصطلح السفينة عند العرب.**

صدر هذا المعجم أولاً بالألمانية ١٩٣٤م، ثم ترجمه : نجم عبد الله مصطفى، ونشره المجمع الثقافي، بأبوظبي، بدولة الإمارات العربية المتحدة، سنة ٢٠٠٢م، يقول في تقييمه درويش النخيلي في مقدمة معجمه عن السفن الإسلامية : "وتجدر الإشارة هنا إلى واحد من الأعمال الممتازة التي أخرجها المستشرق الألماني كندرمان Kindermann وهو كتابه : Schiffim Arabischen فهو يعدّ من أهم -إن لم يكن أعظم- المراجع الحديثة التي يعوّل عليها كل من يكتب في هذا الموضوع".

وفحص هذا العمل يكشف عن بنائه المكوّن من ثلاثة أقسام هي :

**أولاً– البنية الكبرى :**

أ- المقدمة.

ب- المعجم (مرتب ألفبائيًّا).

ج- الملاحق والكشافات = (الفهارس).

وفي ما يلي تحليل لما ورد في هذه الأقسام الثلاثة :

**(أ)**

**المقدمة**

ضمّت مقدمة هذا العمل كلمة عن أهمية هذا النوع من الأعمال المعجمية

وكلمة عن المحـاولات الغربيـة المتماسـة مع موضـوع المعجم، من مثـل أعمال:

- برنو ---- البحر.

- بارتولد ----- القرآن والبحر.

وغير ذلك من مقالات مختصة بتاريخ الملاحة عند العرب، لفستنفيلد وجويدي وغيرهما. ويشير إلى أهمية دراسات التعريب التي اعتنت بالألفاظ الأعجمية في العربية.

ثم بيّن أنه رتّب مداخل معجمه وفق الترتيب الألفبائي، وإن لم يهمل استثمار العلاقات الاشتقاقية التي بين الكلمات في بعض الأحيان (ص٩)، وقد حرص على مساعدة المستعمل الأجنبي، فنقل له النطق بالتمثيل الصوتي أو الكتابة الصوتية.

وفي إطار المقدمة خصص كندرمان مقالة أو مطلبًا لمراجع الدراسة، وقف فيها وقفة طويلة متأنية فاحصة، جمع فيها المحاولات التي سبقته، واعتنت بأسماء السفينة في اللسان العربي، وكان مما أشار إليه من الأعمال الغربية:

- مقالة فستنفيلد ١٨٨٠م: أسماء السفن في العربية، وكشف عن مصادره في بناء هذه المقالة (ص١١).

- مقالة جلدمايستر ١٨٨٢م: حول السفن العربية، وهي تكملة لما سبقها.

- دي خويه، وقد اعتمد على المقدسي في صناعة قائمته.

أمّا المصادر العربية فأشار إلى ما يلي:

ابن سيده سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م في كتابه "**المخصص**"، وقد مرّ هنا التوقف أمام هذا المصدر.

ابن مماتي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م في كتابه "**قوانين الدواوين**" وقد مرّ هنا التوقف أمام هذا المصدر.

ثم ختم المقدمة بمقالة بعنوان: طريقة البحث وخطته، وقرر أنّ «الفكرة الرئيسة عند ترتيب مجموعة الكلمات التي تدل على السفينة ليس فقط جمعها من مراجعها، بل إعطاء فكرة عن تطور معناها التاريخي».

ويقول في سبيل بيان هذا (ص١٩): «عملت على الاستفادة الكاملة للكلمة لمعرفة تحديداتها من حيث المعنى... إذ إنه من المهم معرفة زمن ومكان ظهور كل نوع من السفن، وكيفية صنعها، ومظهرها، ومن قام بصنعها، لأيّ غرض».

وهذا الأمر يتجاوز بكتابه حدود المعجم بمفهومه التقليدي إلى نمط من الأعمال المعجمية الموسوعية التاريخية معًا.

ويعلل ذلك بقوله: «إنّ عدم العناية بهذه المسائل البديهية يؤدِّي طبيعيًّا إلى عدم الالتفات إلى تطور مفهوم الكلمة، وبالتالي معناها، وكذلك علاقة المعاني المختلفة مع بعضها الآخر التي جمعها مجرد معجم ما عن طريق الصدفة».

ومن هنا يظهر أنّ خطة بحث كندرمان كما تظهر من مقدمته تدور حول العناية بما يلي:

١- شرح معاني ألفاظ السفن.

٢- بيان المعلومات التاريخية حول السفن.

٣- بيان المعلومات الموسوعية حول السفن.

٤- بيان العلاقات الاشتقاقية التي تتعلق بأسماء السفن في العربية.

**(ب)**

**نص المعجم**

جاء نص المعجم، أو جسمه بعد المقدمة، ورتّبت أسماء السفن فيه ترتيبًا ألفبائيًّا مشرقيًّا، وفق شكل الكلمة النهائي المستعمل من غير ردّ إلى الجذور.

ولكن المعجم يستطرد عندما تترابط مجموعة نوعية من السفن دلاليًّا بالاسم الذي يعلّق عليه؛ ففي تعريفه للمدخل (أسطول) استطرد فذكر أفروطة/ ورمادة/ وعمارة/ ودوننما/ وشون/ ومراكب.

والعجيب أن لا يذكرها في مظانها من الترتيب الألفبائي!

وهذا أمر غير تيسيري، ويفوّت النفع على من لا يدرك العلاقات الدلالية فيما بينها، وكان من المهم ذكرها في مظانها مع الإحالة على المواضع التي ورد فيها التعليق عليها!

وقد تكرر من كندرمان ذلك في المداخل التالية:

- بركة (براكية/ وبرشة/ وباكوا).
- بطيل (مطيال/ بنيل).
- جنك (زنك).

- جلابية (عسبية/ جسارية/ الكشترى).
- حرمية (مركب حمال).
- خولة (رباب).
- دقل (سكان).
- دونى (دنجى/ دانوق).
- ذهبية (دهبية).
- زواريق (زراريق).

وثمة مواضع أخرى ترد تصديقًا لهذا الملحظ.

ومن جانب آخر شكلي ولكنه مهم، فقد وقع سهو في تحرير المداخل التي التزم فيها محرر المعجم ومحرر الترجمة كتابة المداخل بحجم طباعي غليظ، فقد جاءت مجموعة من المداخل مكتوبة بخط عادي من دون تغليظ، وهو ما قد يفوت أيضًا بعض المنافع، نرى ذلك في المداخل التالية (ساعية ص١٢٣).

## (ج)
## الملاحق

بعد الانتهاء من المعجم ألحق كندرمان مجموعة من الملاحق الإضافية، وهو تقليد استشراقي عريق، تمدّد في ثلاثة اتجاهات هي:

أ- اتجاه الكتب المحققة (النشرات النقدية للنصوص التراثية).

ب- اتجاه ترجمة النصوص التراثية.

ج- اتجاه التصنيف المعجمي المختص.

وقد ضمت هذه الملاحق مجموعة من التعليقات والمباحث القصيرة حول ما يلي:

**أولاً**- عدد من المداخل من مثل: الأسطول/ والسفينة/ وسنبوك/ وعربة/ وغراب/ وما شوه، وهي تعليقات تتعلق في الغالب بمعلومات تأصيلية وتاريخية.

**ثانيًا**- محاولة تسعى للتفريق بين الكلمات الأعجمية والكلمات العربية من خلال الفحص التاريخي، والحضاري والتأصيل اللغوي المعتمد على معطيات الصوتيات والأبنية.

**(د)**

**الكشافات = (الفهارس)**

ختم كندرمان كتابه (على ما يظهر من الترجمة) بكشافين (أو فهرسين) اثنين فقط هما:

أ- كشاف= (فهرس الكلمات).

ب- كشاف= (فهرس المراجع).

والكشاف الأول الخاص بالكلمات مهم جدًّا للمستعمل المعاصر من أكثر من جانب، إذ يعين في يسر على الوصول إلى الكلمة التي يمكن أن تمثّل شغلاً للباحثين، فضلاً عن أنها تعالج النقص الحاصل منه جهة الاستطراد بإيراد ألفاظ في غير مظانها من الترتيب، نظرًا لورودها مع غيرها لعلاقات دلالية تجمعها معها.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

* كلية الآداب– جامعة المنوفية– المنوفية– ج. م.ع.

(١) **لغة مقدسة وناس عاديون: معضلات الثقافة والسياسية في مصر**، لنيلوفر جائري، ترجمة: عيدراوس ومراجعة مديحة دوس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة ٢٠١١م. (١٦٩٢)، ص٢٥٨.

(٢) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص١٤٠.

(٣) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، لفنسنك، مكتبة بريل، مدينة ليدن، سنة ١٩٣٦م، (١/١٤٤ وما بعدها).

(٤) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** (٢/٤٧٥) و(٣/١٩٨).

(٥) انظر: **تراتيل متوسطية**، لبريدراج ماتفيجيفتش، ترجمة عبد الجليل ناظم، وسعيد الحفصالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م (ص١٣٩)؛ حيث يقول: "يمكننا الكشف عن مجموعة من الأشياء والكلمات ووجهات النظر والمواقف وإن أدبيات الملاحة تعرف كثيرًا من أنواع المصطلحات المرتبطة بمختلف الميادين، وكل من يحاول الكتابة عن البحر المتوسط يلتجئ إليها"! ويقرر أنّ معجم البحر والملاحة أصابه ما يصيب غيره من التطور الدلالي؛ فيقول (١٩٤ في فصل المعجم من الكتاب): "لقد غيّر الزمن معنى كثير من الكلمات المتعلقة بالملاحة والبحر، كما غيّر كثيرًا من الكلمات الأخرى"!

(٦) انظر: **مصطلح السفينة عند العرب**، لهانس كندرمان، ترجمة نجم عبد الله مصطفى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٣٢هـ/٢٠٠٢م، ص١١-١٨.

(٧) **كتاب قوانين الدواوين**، لابن مماتي، تحقيق: الدكتور عزيز سوريال عطية، وإشراف الأمير عمر طوسون، مصورة مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م ص٣٣٩-٣٤٠.

(٨) السفن الإسلامية على حروف المعجم، لدرويش النخيلي، طبعة جامعة الإسكندرية سنة ١٩٧٤م، ص١٧١.

# شِعر عنترة بن شدّاد
# في الموروث النقدي عند العرب
# "دراسة في نقد النقد"
# (٢)

بقلم: د. محمد رمضان الجوهري*

## المبحث الثاني: النقد الأخلاقي

### أولاً– شِعر عنترة من منظور أخلاقي:

عرف عنترة في التراث العربي بالفروسية بكل ما تحتمل الكلمة من معان، فهو شجاع ساعة اللقاء، صبور في الشدائد، عفٌّ عند الغنائم، جواد وقت الفاقة، حليم حين الغضب، عفيف عن المسألة، ليس بفحاش في القول، يأبى الدنية، ويترفّع عمّا يدنِّس العِرض، وقد عرف ذلك في نفسه فزها بفضائله، وافتخر بشيمه؛ يقول ابن قتيبة[1]: وكان عنترة من أشدّ أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده. وكان لا يقول من الشِّعر إلا البيتين والثلاثة، حتّى سابّه رجلٌ من بني عبس، فذكر سواده

وسواد أمّه وإخوته، وعيّره بذلك، وبأنّه لا يقول الشِّعر، فقال له عنترة: والله إنّ الناس ليترافدون بالطّعمة، فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدّك قطّ، وإنّ الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم، فما رأيناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قطّ، وإنّ اللّبس ليكون بيننا، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدّك خطّة فيصل، وإني لأحتضر البأس، وأوفى المغنم، وأعفّ عن المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفصل الخطّة الصّمعاء، وأمّا الشِّعر فستعلم. فكان أوّل ما قال قصيدة: "هل غادر الشّعراء من متردّم"، وهي أجود شِعره، وكانوا يسمّونها المذهبة.

وكلام ابن قتيبة يتسق في مبدئه مع واقع حال عنترة، فمثله يعيّر في أول حاله بسواده وسواد أمّه، فليس له من السطوة والشهرة والهيبة حينئذ ما يكف ألسنة العامة عنه، لكن في النفس أشياء من ختامه، فقد صرح أنّ عنترة بعد أن كان يقول البيت والبيتين غاظه ما قاله شانئه فقال أمّا الشِّعر فستعلم، فنظم عقب ذلك مطوّلته الذائعة، ومعلّقته الشهيرة، وهذا مما لا يقبله العقل، ويرتضيه المنطق السوي، ففيه مبالغة تتناغم والحديث عن عنترة في كل حالاته، إذ كيف يتسنّى لشاعر لا يقرض من الشِّعر إلا البيت والبيتين، أن ينظم قصيدة طويلة ما بين عشية وضحاها تنتشر في الآفاق، وتعدّ من عيون الشِّعر ودرره، إنّ ما ورد في المعلّقة من مقومات الفن، ودلائل الإبداع يقرران أنّ عنترة كان يقول القصائد قبل ذلك، ربما لاتصل في طولها كمطوّلته تلك، لكنها قصائد على كل حال، وليست

بيتًا أو بيتين أو ثلاثة على ما زعم ابن قتيبة، وإن كان ذلك مقبولاً في أول نظمه للشِّعر، وبداية قرضه له.

وقد اعتنت المصادر العربية بإيراد الأخبار المتعلقة بالأخلاق المنبثّة في تضاعيف شِعر عنترة، ومقارنته بغيره؛ لتتبين دلائل أخلاقه، وأمارات فضائله، ومن ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في "**عقده**"(٢) من قوله: قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: ما كنتم تتحدّثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كُنّا نتناشد الشِّعر، ونتحدّث بأخبار جاهليّتنا. وقال بعضُهم: وددتُ أنّ لنا مع إسلامنا كرمَ أخلاق آبائنا في الجاهليَّة، ألا ترى أنّ عَنترة الفوارس جاهليّ لا دِينَ له، والحسنَ بن هانئ إسلاميّ له دين، فمنع عنترةَ كرمُه ما لم يَمنع الحسنَ بن هانئ دينُه؟ فقال عنترة في ذلك:

وأغُضّ طَرْفي إن بَدت ليَ جارتي حتى يُواري جارتي مَأواها

وقال الحسنُ بن هانئ مع إسلامه:

كان الشبابُ مطيَّةَ الجَهل ومُحسِّنَ الضَّحكات والهَزْل
والباعِثي والناسُ قد رَقدوا حتى أتيتُ حليلةَ البَعْل

وتلك رؤية تنطلق من منظور أخلاقي، وتعتمد الفضيلة أساسًا للحكم، ومقياسًا للتفاضل، فقد منعت أخلاق عنترة رغم جاهليته ما لم يمنعه إسلام أبي نواس، فعفّ عنترة نظره، وغضّ بصره، وصان حق جاره، في حين عاقر أبو نواس الملذّات، واقترف الموبقات، غير عابئ بدين يدفع، أو خلق يمنع.

كما أوردت المصادر[٣] كذلك خبر إعجاب النبي ﷺ بشِعر عنترة وخُلُقِه، فذكرت أنّ ابن عائشة روى عن أبيه قال: أُنْشِد النبيُّ ﷺ شِعرَ عنترة العبسي:

ولقدْ أبيتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظَلُّهُ　　　حتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

فقال النبي ﷺ: «ما وصف لي عربي قط فأحببت أن أبصره إلا عنترة»، وفي رواية «ما وصف لي إعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة»[٤].

وسوق كتب المصادر الأدبية تلك الشواهد يؤكد إكبارها للأخلاق، وانطلاقها من غاياته، متى استدعاها المقام، أو عرّج عليها المؤلف، فالفضائل يجنح إليها ذَوُو الهممِ العالية، والفِطَر السوية، وترسيخها في النفوس يأخذها لعالم مثالي تطلّ من نوافذه على رحابة القِيَم التي تضمن للمجتمعات -متى سادت- الرشاد والرقي.

**ثانيًا- شِعر عنترة بين التأثر والتأثير:**

لقد هممت غير ذات مرة أن ألحق هذا المبحث بالنقد الفني، فبينهما شابكة اتصال تؤلف، إذ يشفّ في معظمه عن نظرات موضوعية تعتمد السرقة والأخذ مقياسًا في الحكم، وذلك باب لا يتأتّى إلا بإنعام النظر، وسعة الاطلاع على أشعار العرب، والوقوف على معانيهم، وإدراك العلائق خفيّها وظاهرها بين المعنى ومشاكله، وتلك ومثيلاتها لا تتأتّى إلا لناقد بصير، وعالم طلعة، يتلمّس الأواصر، ويدرك المشابهة، وتلك رؤى فنية تحتاج إلى جانب الذوق الدربة، والعلم، والحفظ، وهي من

مقومات النقد الفني وأسسه، إلا أنّ قضية السرقة وإن تغيّرت مسمّياتها، وتعدّدت مفرداتها تشدّها إلى الأخلاق روابط تجذب، وعلائق تقرّب، فالإغارة على معاني السابقين وانتهاب رائقها منزع فاسد لا يقلّ في فداحته عن السلب والسرقة، إلا إذا زاد المتأخر في المعنى ما استحق به الإشادة والأخذ؛ لذا رأيت في إلحاقه بهذا المبحث دون سابقه ما يبرر ويقنع.

لقد اهتم النقّاد العرب بما أتوا من مواهب، ومنحوا من ذكاء، وحصَّلوا من علم أن يتتبّعوا شِعر عنترة تتبّعهم لشِعر غيره من أنداده، ويولوا قضية تأثره بسابقيه في بعض معانيه، وتأثر لاحقيه به، وأخذهم منه، وإغارتهم عليه، وسرقتهم منه أهمية تتناغم ودقة هذا الباب الشائك، وقد وازنوا في ثنايا ذلك -أحيانًا- بين المعاني الأصيلة والمنتهبة، ولهم في باب السرقات وملحقاتها ومسمّياتها جهود تنبئ عن فهم أصيل، وذوق مرهف، ودربة قادرة على جلاء الأخذ والسلب، وقدرة مكينة تعين على إصابة المحز في استحقاق المعنى، وتقصير اللاحق أو إجادته.

ويتسنى لمن يضرب بعصا التسيار بين آفاق الشِّعر العربي وأطيافه أن يقف على حقيقة مفادها أنّ سرقات المعاني وادعاءها أمر محقق، وواقع ثابت لا يتطرق إليه إثارة ريب أو ردّ، يقرر ذلك الآمدي في قوله: «وهذا باب ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر»(٥)، ويرى ابن رشيق أنه باب متسع جدًّا لا يستطيع أحد أن يدّعي السلامة منه(٦)، ويؤكد تلك الحقائق القاضي الجرجاني بقوله: «السرقة داء قديم، وعيب عتيق، وما زال

الشاعر يستعين بخاطر الآخر، ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه»[٧].

ولم يسلم من ذلك كبار الشعراء ومتقدميهم، فامرؤ القيس وصمه المرزباني بقوله: «إنّ كثيرًا من شِعر امرئ القيس لصعاليك كانوا قبله»[٨]، ونص ابن قتيبة على أنّ طرفة -رغم أنه أول مَن ذمّ السرقات الشعرية من الشعراء[٩]- والنابغة كانا يأخذان من شِعر امرئ القيس[١٠].

وليس الوكد البسط المترهّل لهذه القضية في جنباتها فقد كفتنا مؤنة ذلك تناولها بالتفصيل في كتب المتقدمين والمتأخرين، وإنما القصد التوطئة بالقدر الذي يرفد الدراسة بالرؤية الهادية في باب دقيق يعرف كنهه ذوو البصر بالشِّعر ومسالكه، وقد صرّح الأقدمون باعتماد عنترة معاني بعض سابقيه في شِعره، وأخذه منهم، وقد صرح هو بإمكانية ذلك حين ذكر أنّ المتقدمين أتوا على المعاني ولم يتركوا شيئًا لمن بعدهم، وذلك في قوله:

هَلْ غَادَرَ الشّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ؟ أَمْ هَلْ عَرَفتَ الدّارَ بَعدَ تَوَهّمِ؟

والمتردم كما يقول الزوزني: الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي، والتردم أيضًا مثل الترنم، وهو ترجيع الصوت مع تحزين... ومراد الشاعر أنه لم يترك الأول للآخر شيئًا، أي سبقني من الشعراء قوم لم يتركوا لي مسترقعًا أرقعه ومستصلحًا أصلحه، وإن حملته على الوجه الثاني كان المعنى: إنهم لم يتركوا شيئًا إلا رجعوا نغماتهم بإنشاء الشِّعر وإنشاده في وصفه ورصفه[١١].

وقول عنترة هل غادر الشعراء من متردم يدل على أنه يعدّ نفسه محدثًا، قد أدرك الشِّعر بعد أن فرغ الناس منه ولم يغادروا له شيئًا، وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم[١٢].

وتناولات النقّاد الأقدمين لقضية السرقات في شِعر عنترة تفرض تقسيم القضية إلى ثلاثة أقسام استيفاء لجوانبها، وتتميمًا لما أوردوه فيها، وهي على النحو التالي:

**أولاً– تأثره بسابقيه:**

لم يورد النقّاد في هذا الباب إلا أمثلة قليلة تقرر أخذ عنترة من سابقيه، واعتماده في شِعره على بعض معانيهم مما يؤكد تفرّده في جُلِّ شِعره بما يشهد له بالبراعة والابتكار، ومن ذلك قوله في بيته المشهور:

نُبِّئْتُ عَمْرًا غيرَ شاكِرِ نِعْمَتي    والكُفرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ[١٣]

وقد عدَّ الثعالبي البيت من أمثال عنترة السائرة[١٤]، واستحسنه ابن رشيق و أردفه بقوله: فجاء بالمثل غير محتاج إلى ما قبله[١٥].

وقد عقد الحاتمي بابًا في كتابه "**حلية المحاضرة**" للانتحال والاستلحاق، وذكر فيه أنّ معظم الشِّعر الذي يرويه الناس لعنترة هو لهراش بن شدّاد... وهو أخوه من أمّه زبيبة[١٦]، وقبل تصريحه بذلك أورد البيت "نُبِّئْتُ عَمْرًا"، وذكر أنّ البيت لبشر بن شلوة التغلبي، وقد انتحله عنترة[١٧].

وقد أورد البيت محمد سعيد مولوي في "**ديوان عنترة**" ضمن معلّقته الذائعة، والديوان محقق على ست نسخ مخطوطة، ولم يُشر أحد غير الحاتمي

إلى أنّ البيت لبِشْر، وأنّ عنترة أخذه منه وانتحله، مما يضعف قول الحاتمي، ولو كان الأمر على ما ذكر الحاتمي لأشارَ إليه نقّادُ العربية في حديثهم عن الإغارة والنّحل، ويعضد ردّ قول الحاتمي تصريحه بأنّ معظم شِعر عنترة الذي بأيدي الناس إنما هو لأخيه هرّاش بن شدّاد، فهذا حكم يفتقر إلى دليل، و من ثم يحتاج إلى معاودة نظر، ولا يمكن قبوله على شاكلته المنصوص عليها؛ لأنه خبر مفرد لم يقل به غيره.

ومن ذلك قوله(١٨):

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقيعَةَ أنّني        أَغشَى الوَغَى وأَعفُّ عندَ المَغنَمِ

وقد ذُكر البيت في **حماسة** الخالديين، وقبله ذَكر المؤلف قول سعد بن مالك بن ضُبيعة:

فالهمُّ بَيضاتُ الخدو        رِ هناك لا النَّعَم المُراحُ

وعلّق على البيت بقوله: أمّا قوله: «النَّعَم المراحُ» فهو الأصل لكل من تبعه، ومنه أخذ أبو تمّام قوله:

إنَّ الأسود أُسود الغِيل همَّتُها        يومَ الكريهةِ في المسلوبِ لا السَّلَبِ

وأوَّل من نطق بهذا المعنى عنترة في قوله: «أغشَى الوغَى وأعفُّ عند المغنمِ»(١٩).

وفي القول تناقض يدفع إلى الحيرة، ويدعو إلى البحث إصابة للحق، فقوله «هو الأصل لكل من تبعه» يفيد أوليته واختراعه، وأنه أول من فض مغاليقه، وأتى به معبّرًا عن قيمة عربية تكشف النقاب عن مزية وفضيلة، إلا

أنّ غلبة قول عنترة على عقله، وإعجابه به مع سهولة لفظه، ورقة رصفه، وسيرورته واشتهاره دفعه -في غفلة- إلى نقض حكمه الأول بقوله: «وأوَّل من نطق بهذا المعنى عنترة» فهدم ما ابتدأه من حكم، ونسخ ما صرح به من قول، وأوقع المتلقِّي في حيرة بين حُكمين لا يستقيمان في معرض، أو يتسقان في موطن، وظلت في النفس غصة تشرق، ورفْض دافع إلى التحقيق والبحث إلى أن أورد الخالديان قول قيس بن زهير العبسي:

تَرَكْـتُ النِّهـابَ لأربابـه ... وأكْرهْتُ نفسيِ على ابْنِ الصَّعِقْ

ثم أردفه المؤلف بقوله: قد ذكرنا كما تقدَّم أنّ أصل هذا المعنى بيت عنترة:

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقيعَةَ أنّني ... أَغشَى الوَغَى وأَعفُّ عندَ المَغنَمِ

وذكرنا معه شيئًا من نظائره، فلمّا وقفنا على هذا البيت علمنا أنَّه الأصل فإن قال قائل: قيس بن زهير وعنترة بن شدَّاد العبسيّين في عصر واحد، قلنا: صدقت، إلاَّ أنَّ قيس بن زهير كان أكبر من عنترة بدهر طويل. وأخرى أنّ هذا الشِّعر قاله قيس في آخر حرب داحس، وهو الوقت الَّذي قَتل فيه خالد بن جعفر العامريّ زهير بن جذيمة العبسيّ، في أسره عمرو بن الصعق العامريّ، وما نحسب أنَّ عنترة كان وُلد في ذلك الوقت، وإنَّما لحق عنترة آخر أيام عبس وذبيان بعد يوم جَبَلة، وإنَّما ثبتت شجاعته في يوم عُراعر ويوم الفَروق وهذان اليومان بعد يوم جبَلة، ويوم جبلة كان وقد مضى من حرب داحس شبيه بخمسين سنة[٢٠].

ويبدو أنّ توارد المعاني عند الشعراء وكثرتها وتكرارها فيما بينهم كثيرًا ما كانت توقع الخالديين في حيرة، وتدفعهما إلى التناقض، فكلما أصدر أحدهما حكمًا في استحقاق شاعر معنى من المعاني، واستراح إلى ذلك أتاه المعنى ذاته عند آخر فلم يستطع كتمانه أمانة وإعجابًا، فيورده متناسيًا حكمه الأول الذي أصدره قبل أن يصله، فيعقِّب عليه بما يخالف حكمه دون آبه بالتناقض، وقد وضح ذلك في حكمه الأول على عنترة، وتكرر ذلك ثانيًا هنا، فما أن حكم أنّ المعنى ليس لعنترة وإنما لقيس بن زهير الذي يكبره عاد فذكر عقب ذلك قوله: ومن جيّد ما قيل في هذا المعنى الَّذي قدَّمنا ذكره وأقدمه قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا　　　وأبْنا بالملوك مصفَّدينا[٢١]

فجعل قول عمرو بن كلثوم الجيّدَ في معناه، والأقدمَ في بابه، وأعادنا ثانية إلى نقض حكمه السابق من استحقاق قيس بن زهير المعنى، كما أنّ ثمة خلط يلحظه من يُرَويّ في القول، فقول المؤلف: «قد ذكرنا كما تقدَّم أنّ أصل هذا المعنى بيت عنترة... وذكرنا معه شيئًا من نظائره، فلمّا وقفنا على هذا البيت -يريد بيت قيس بن زهير- علمنا أنَّه الأصل»، فهذا الكلام الذي نقض به حكمه في استحقاق عنترة المعنى ورد في الكتاب في الصفحة الأربعين، وحكمه القاضي لعنترة بقوله: «وأوَّل من نطق بهذا المعنى عنترة» ورد في الصفحة التاسعة والأربعين، وقد انتهى من حكمه لقيس بالمعنى دون عنترة من ناحية، وقضى لعمرو بن كلثوم بالإجادة والقدم

من ثانية، وكأنّ خلطًا أصابه فنسي ما قاله، أو أنه ذكر قوله السابق أولاً ثم ثنى بذلك، إلا أنه حين أعاد ترتيب الكتاب قدّم وأخّر فجاء الخلط والاضطراب، كما لا يبعد أنّ أحد الخالديين حقّق قولاً فحكم، ثم حقّق الآخر القول الثاني، فوقع التناقض والخلط.

وعلى كلٍّ فالمعنى ليس لعنترة ابتداء، وإنما سبقه إليه غيره، و لا عبرة بقول صاحبا **الأشباه والنظائر** «وأوّل من نطق بهذا المعنى عنترة» فقد ورد ما ينقضه بالدليل والشاهد، ويحسب لهما أمانة التصريح بما يخالف قولهم حين تقرر لديهم ذلك، ويحسب عليهما عدم تحرير القضية في موضوع واحد، وترتيبها للجزم بالسابق بدلاً من الخلط والاضطراب.

ومن هذا القبيل كذلك ما أورده ابن رشيق في **عمدته**(٢٢) من أخذ عنترة من امرئ القيس في أعطاف حديثة عن المجدود من الشّعر، فقال: وأمّا المجدود من الشّعر فنحو قول عنترة العبسي:

وَإِذا صَحَوتُ فَما أُقَصِّرُ عَن نَدًى          وَكَما عَلِمتِ شَمائِلي وَتَكَرُّمي

فقوله «وكما علمت شمائلي وتكرمي» رزق جدًّا واشتهارًا على قول امرئ القيس:

وشَمَائِلي مَا قَدْ علمتَ وَمَا          نَبَحَتْ كلابُك طَارِقًا مِثْلي

ومنه أخذ عنترة، والمخترع معروف له فضله، متروك له من درجته، غير أنّ المتّبع إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلاً، أو يبسطه إن كان كزًّا، أو يبيِّنه إن كان غامضًا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافًا،

أو رشيق الوزن إن كان جافيًا، فهو أولى به من مبتدعه، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر، فأمّا إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها، فإن قصّر كان ذلك دليلاً على سوء طبعه، وسقوط همته، وضعف قدرته.

**ثانيًا– تأثر لاحقيه به:**

كان لعنترة أثر لا ينكر على لاحقيه من الشعراء الذين راقهم شِعره، وأعجبتهم وثبات خياله، ورائق صوره، ومعجب معانيه، وسلامة طبعه، فحجّوه مشدودين إلى نظمه، ويمّموه مأخذوين بلوثة الفن، وصدق العاطفة، وقوة الفروسية المتبدية في ثنايا أبياته، وأعطاف أدبه، فلا غرو أن تأثروا به، واستمدّوا من معانيه ما يعبّرون به عن لواعج أنفسهم، وكوامن ذاتهم.

وقد لحظ النقّاد العرب كثرة أخذ الشعراء اللاحقين لمعاني عنترة وصوره، ونصّوا على ذلك في مؤلفاتهم، وتمكّنوا –اعتمادًا على معرفتهم بدروب الشِّعر ومسالكه، وحفظهم لقديمه، وروايتهم له– أن يبيّنوا كُنه ذلك، وأن يردّوا معانيهم إلى أصولها، والأمثلة على ذلك كثيرة نسوق منها ما يلي:

قال أبو علي القالي(٢٣): وأنشدنا أبو بكر –رحمه اللّه– قال أنشدنا أبو حاتم للطّرمّاح:

فتًى لو يُصاغ الموت صِيغَ كمثله      إذا الخيلُ جالتْ في تساجلها قدما

قال أبو علي: هذا مثل قول عنترة:

إِنَّ الْمَنِيَّــةَ لَــوْ تُمَثَّــلُ مُثِّلَــتْ      مِثْلــي إذَا نَزَلُــوا بِـضَنْكِ الَمْنْــزِلِ

وبين البيتين من شوابك الصلات ما يشهد بالأخذ، ويؤكد التأثر، فالطرماح راقه معنى عنترة فأعاده على شاكلته دون تغيير إلا في لفظه، ومثل هذا الوصف بما يحتويه من قوة شكيمة، وتصوير باس لائق بعنترة الفارس لا بالطرماح الشاعر، وإن كان يحسب للمتأخر حسن السبك، وإجادة الرصف، وحسن التعبير، ولا يعني هذا بحال خلوّ بيت عنترة من ذلك وهو الشاعر المفلق، والمجيد المطبوع، فقد استطاع بقدرته على التأليف والنظم أن يجذب غرب إعجاب المتلقّي، ويصل إلى سويدائه رغم تكراره "مثل" بمشتقاتها ثلاثة مرات متتالية دون نبوٍّ أو استكراه.

وقد تأثر جلّ الشعراء بحديث الأقدمين عن الناقة والفَرس، واستمدّوا من معانيهم في هذا الباب ما يشهد لهم بالبراعة في الوصف، والإجادة في التصوير، ومن ذلك قول عنترة في فرسه:

فـازْوَرّ مِــنْ وَقْــعِ القَنَـا بلَبَانِــهِ      وشَــكَا إلــيّ بِعَبْــرَةٍ وتَحمْحُــمِ

وقد راق ذلك التناغم بين الفارس وفرسه جماعة من الشعراء، فيمّموه معجبين برائقه، وأعادوه مقتفين أثر عنترة فيه، يقول صاحب "**الأشباه والنظائر**"[٢٤] وقد ساق قول طفيل الكلابي:

طُلِّقتِ إن لم تسألي أيُّ فارس      حليلُكِ إذ لاقى صُداءً وخَشْعَما[٢٥]

أكُرُّ عليهم دَعْلجًا[٢٦] ولبانَهُ      إذا ما اشتكى وقعَ الرماح تَحمْحَما

وهذا مثل قول عنترة:

فازْوَرّ[٢٧] مِنْ وَقْعِ القَنَا بلَبَانِهِ[٢٨] وشَكَا إليّ بِعَبْرَةٍ وتَحمْحُمِ[٢٩]
لو كانَ يَدْرِي ما المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ولَكانَ لو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلّمي

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة:

لَشكى الكميتُ الجَرْي لمّا جهدتُه وأفصحَ لو يسطيع أن يتكلَّما

ومثله وأومَى إلى فرس الممدوح فقال:

كم كم تجرِّعه المنون فيصبرُ لو يستطيعُ شكا إليك الأدْهَمُ

فليس للطفيل الكلابي ولعمر بن أبي ربيعة إلا إعادة السبك بلفظ مغاير، وتكرار معنى عنترة دون زيادة يستحقان بها التنويه والذِّكر، وكان عليهما وقد أتاهما المعنى ذلولاً طيّعًا أن يخلعا عليه من فنّهما ما يستحقانه به، أو أن يتفرّدا بوجه من الوجوه عن سابقهما، إلا أنهما لم يفعلا، فافترشا مهادًا وطأه، وسلكا طريقًا عبَّدَه، وقد قيل: "إنّ المتّبع إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلاً، أو يبسطه إن كان كزًّا، أو يبينه إن كان غامضًا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافًا، أو رشيق الوزن إن كان جافيًا فهو أولى به من مبتدعه[٣٠]".

ومن تأثر اللاحقين بعنترة مما يتصل بشكية فرسه السابق تقريره قول المتنبّي:

نطقت بسُؤددك الحمامُ تغنِّيًا وبما يُجَشِّمُها الجيادُ صَهيلا

فقد نصّ ابن وكيع[٣١] -وقد عرض للبيت- أنّ صدره من قول القائل:

ولقد سمعت حمامة أنشدتها فيك المديح فعددت تغريدا

وعجزه من قول عنترة:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إِليَّ بعبرةٍ وتحمحُمِ

ويتصل مما نحن بشأنه من تأثر اللاحقين بعنترة مما نص عليه النقّاد العرب ما أورده المبرِّد[٣٢] في "**كامله**" من أنّ رجلاً من ولد الحكم بن أبي العاصي، يقال له عبيد الله بن الحر، وكان شاعرًا متقدّمًا، وكان لأمّ ولد، وهو من ولد مروان بن الحكم قال:

فإن تك أمّي من نساءٍ أفاءها جياد القنا والمرهفات الصّفائح

فتبًّا لفضل الحر إن لم أنل به كرائم أولاد النّساء الصّرائح

وإنما أخذ هذا من قول عنترة:

إنِّي امرؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا شَطْرِي وأحْمِي سَائِرِي بالْمُنْصَلِ

ومن هذا القبيل قول أبي الوليد الأنصاريّ[٣٣]:

وما السَّيِّدُ الجَبَّارُ حينَ يريدُنا بكيدٍ على أرماحِنا بمحرَّمِ

قال الخالديان في "**حماستهما**" تعليقًا على البيت: وأمَّا قوله: «وما السيد الجبّار؟» البيت، فمثل قول عنترة ولا ندري أيّهما أخذ من صاحبه:

فشككْتُ بالرّمحِ الأصمِّ ثيابَهُ (ليسَ الكريم على القَنا بمحرّمِ)

وهو شبيه بقول بعض بني تغلب:

نُعاطِي الملوكَ الحقَّ ما قصدوا بنا فلـيسَ علينـا قتلُهـم بمحـرَّمِ

ولنا بيت مثله من قصيدة في أهل البيت، عليهم السَّلام، نُخاطب بها مولانا الحسين عليه السلام:

بِـك صـارَ عـنترُ صـادقًا في قولـه لـيس الكـريمُ علـى القَنـا بمحـرَّمِ

وهذا من جيّد التَّضمين ونادره.

وثمة وقفتان يستوجبهما النص، الأولى: قول المؤلف -وقد أورد بيت أبي الوليد الأنصاري-: وأمَّا قوله: «وما السيّد الجبّار؟» البيت، فمثل قول عنترة «ولا ندري أيّهما أخذ من صاحبه»، ومعلوم أنّ أبا الوليد شاعر عباسي مدح هارون الرشيد، والبرامكة، وما كنت إخال ذلك يغيب عن المؤلف، مما جعلني أجيل الطرف في تصريحه مرات، وفي كل مرة يرتد البصر حسيرًا دونما تفسير يقطع، أو جواب يقنع، ولا يحتمل التصريح إلا الجهل بأنّ أبا الوليد الأنصاري هو مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني، وعليه فالمعنى لعنترة دون حيرة تصرف، أو تردّد يوهم، ولا عبرة بحكم صاحبا "**الأشباه والنظائر**" في هذا الموطن، أمّا الثانية: فهي في تكرار معنى عنترة، وانتجاعه دون تلوين أو تغيير، وكأنه بلغ الغاية في الحسن، والكمال في المعنى، فلا ينبغي أن يضاف إليه، أو يزاد عليه، وهذا كله مردود ليس من المنطق في شيء، وكان على المقتفين سنن سابقهم أن لا يعيدوا معناه دون زيادة أو نقصان.

ذكر ابن وكيع التنيسي في مصنفه[٣٤] قال: قال المتنبِّي:

مَفْرشــي صَــهْوةُ الحِـصان ولكــ ــنَّ قَميصي مَسْرودةٌ[٣٥] مِنْ حَديدِ

ما أعرف فائدة في هذا البيت ولا فرق بين قوله مفرشي صـهوة الحـصان وقميصي مسرودة فيخبر عمّا يفترش ويلبس ويكـون أحسن، وقـد قـال الحماني:

طيــئ الغِبــار وَجْـنتي مَوصــونة وَحــشيَّتِي ظهــر الأقــبِّ الأشــقر

وأول من سبق إلى هذا المعنى عنترة فقال:

وحَشِيَّتي سَرجٌ على عَبْلِ الشَوى نَهْــدٍ مَراكِلُــهُ نَبيــلِ المحْــزمِ[٣٦]

وهذا يدخل في قسم مساواة الآخذ المأخوذ منه في الكلام.

أورد الثعالبي في **يتيمته**[٣٧] قول ابن نباتة من قصيدة فِي سيف الدولة:

يَجُــرُّ العَــوالِي والــسِّهامَ بجــسْمِهِ كمُحْتَطِــبٍ للْحَمْــلِ لَــيْسَ يُطِيــقُ

ثم عقب على البيت بقوله: سَرقه من قَول عنترة:

وغــادَرْنَ نَــضْلَة فِــي مَعْــرَكٍ يَجُــــرُّ الأَسِــــنَّةَ كالْمُحْتطِــــب

وليــست الغايــة الحــصر والاستقــصاء لأخــذ اللاحقــين مــن عــنترة، واستعانتهم بمعانيه، وإعادة سبكها في شِعرهم تعبيرًا عـن مرادهم، وإنما الوكد التعريج على القضية في كتب الأقدمين بالقدر الذي يجلـي القـضية، ويبين أبعادها دون خفاء أو تعمية، وقـد وضـح مـن خـلال إيراد الـشواهد إعجاب اللاحق مـن الـشعراء بـشِعر عنترة، فقـد طـالع قـصائده، وأجـال النظر في أعطافها، فاتكأ عليهـا، واستدعى رائقهـا، وأخـذ منهـا، وعـوّل عليها، فكان في جلّ أخذه وتأثره الواصف الناقل، والمقلّد العائد، يحـذو

حذو نعاله، ويتفقد مواطئ أقدامه، فيضع قدمه حيث سار قصدًا، مع زيادة لفظة يخالها تعفيه من الإغارة والنهب، وربما لفتة ظنها تقيه مغبّة الجرح والنقد، هذا من ناحية، ومن أخرى فثمّة شعراء أخذوا من معانيه -على قلّتهم- فأعادوا سبكها بعد أن كسوها من حلل إبداعهم، ورائق فنّهم ما استحقوا من خلاله الإجادة والاستحسان.

**ثالثًا- الموازنة الثنائية:**

لم يقتصر شِعر عنترة في الموروث النقدي عند العرب -في هذا الباب- عند حدود أخذه من سابقيه، وتأثر لاحقيه به على النحو السالف، بل امتد ليشمل عقد الموازنات -أحيانًا- بين شِعره وشِعر غيره ممن تأثر بهم، أو أثر هو فيهم، وقد ساقوا في أعطاف ذلك تعليلات استحسنوا من خلالها قولاً على قول، ومعنى على آخر، وربما اكتفوا بالتصريح بإجادة أحدهما على صاحبه، أو تقصيره عنه، وكنت عزمت أن ألحق الموازنات بمبحث النقد الفني لاشتمالها على عناصره، وتعلّقها بسببه، واتصالها به، لكني رجحت إيرادها هنا تتميمًا لقضية التأثر والتأثير، وليقف المتلقّي على جنبات القضية مكتملة من نواحيها، تامة في جوانبها، فالحديث ثمة كسابقه في الباب إلا أنه يزيد عليه الاستحسان أو التفضيل، والحكم بالإجادة أو التقصير، ولا يخرجه ذلك بحال عن أنه أخذ وتأثر.

ومن ذلك قول المرزباني في **موشحه**[٣٨]: «عاب الناس قول طرفة:

أسدُ غيلٍ[٣٩] فإذا ما شَربُوا      وهبوا كلَّ أمُونٍ[٤٠] وطِمِرّ[٤١]

فقيل: إنما يهبون عند الآفة التي تدخل على عقولهم؛ وفضّلوا قول عنترة بن شدّاد العبسي:

فـإذا شَرِبْـتُ فإنّنـي مُـسْتَهلِكٌ مـالي وعِرضِـي وافِـرٌ لَـمْ يُكَلَـمِ
وإذا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عـن نَـدًى وكَمَا عَلِمْتِ شَـمائِلي وَتَكَرُّمِي»

وحدثني عبد الله بن أحمد، عن أبي العباس المبرِّد، قال: عيب على طرفة بيته هذا، وقيل: إنما يهب هؤلاء إذا تغيّرت عقولهم؛ وإنما الجيّد بيتا عنترة هذان؛ فخبّر أنّ جوده باق؛ لأنه لا يبلغ من الشراب ما يثلم عرضه؛ ثم قالوا: هو حسن جميل، إلا أنه أتى به في بيتين؛ هلاّ قال كما قال امرؤ القيس:

سَـمَاحةَ ذَا، وَبِـرَّ ذَا، وَوَفَـاء ذَا ونَائـلَ ذَا؛ إذا صَـحَا وَإِذا سَـكِرْ

وأخبرني الصّولي، قال: عيب على طرفة قوله: أسد غيل... البيت. فجعل إعطاءهم عند الشّرب؛ ويروى: "فإذا ما سكروا"، فتبعه حسّان ابن ثابت الأنصاري، فقال -وهو أعيب من الأول-:

وَنَـشْرَبُهَا فتتركُنَـا مُلُوكًـا وَأُسْـدًا مـا يُنَهْنِهُنَـا اللِّقَـاءُ

فقول طرفة خير من هذا؛ لأنه قال: "أسد غيل فإذا ما شربوا" فجعل لهم الشجاعة قبل الشرب، وحسّان قال: نشرب فنشجّع ونهب كأنّا ملوك إذا شربنا؛ فلهذا كان قول طرفة أجود، وقول عنترة أحسن؛ لأنه احترس من عيب الإعطاء على السكر وأنّ السكر زائد في سخائه، فقال: وإذا شربت فإنني مستهلك. وذكر البيتين.

وقال زهير:

أخُـو ثِقـةٍ لا يُهْلِـكُ الخَمْـرُ مالَـه      وَلكِنَّـــهُ قَـدْ يُهْلِـكُ المـالَ نائِلُـهْ

فهذا من أحسن الكلام، يريد أنه لا يشرب بماله الخمر، ولكنه يبذله للحمد، وقال البحتري:

تَكَرَّمْتَ مِنْ قبلِ الكُئُوسِ عَلَيْهِمُ      فَما اسْطَعْنَ أنْ يُحْدِثْنَ فيكَ تكرُّما

وقد أورد النقّاد العرب تلك القضية في مؤلفاتهم، ودارت رؤاهم في فلك ما قيل من تفضيل بيت عنترة على طرفة، وتقصير حسّان عن عنترة في بيتيه، فقد أخذهما حسّان فنقص منهما ذكر الصحو، ثم فضّلوا عليهم قول امرئ القيس؛ لأنه عبّر عن الإعطاء في السكر وحال الصحو في شطر بيت بينما أورد عنترة قوله في بيتين، ثم استحسنوا قول زهير؛ لأنّ صاحبه لا تهلك الخمر ماله، وإنما يبذله فيما يكسبه الحمد والسؤدد.

كما اهتم بعضهم بإيراد بيت طرفة وتفضيل بيتي عنترة عليه دون ذِكر بقية النصوص الواردة في ذلك، ومن هؤلاء ابن عبد ربه في "**عقده**"[٤٢] فقد عرج على القضية بقوله: «ومما أدرك على طرفة قوله:

أســـدُ غيـــلٍ فـــإذا مـــا شـــربوا      وهبـــوا كـــلَّ أمُـــونٍ وطِمِـــر

فذكر أنهم يعطون إذا سكروا، ولم يشترط لهم ذلك إذا صحوا كما قال عنترة... البيتين».

ونص صاحب "**البديع**"[٤٣] على أنّ عنترة أخذ معناه من طرفة، إلا أنه كبقية النقّاد فضّل قول عنترة على طرفة بقوله: أخذه عنترة فاحترز مما طعن به على طرفة، وهو أنهم لا يشربون فيعطون من غير عقل.

وقد وازن آخرون بين قول عنترة وغيره من لاحقيه دون التعريج على بيت طرفة، ثم وازنوا بين القولين، ومن هؤلاء النويري[٤٤] فقد أورد بيتا عنترة في معنى السخاء عند الشرب، وحال الصحو، وأتبعهما بقوله أخذه البحتريُّ وزاد عليه... والزيادة أنّ عنترة ذكر أنه يستهلك ماله إذا سكر، والبحتري ذكر أنّ ممدوحه يتكرم قبل الكؤوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكؤوس أن تزيده تكرّمًا.

وثمة فريق من المؤلفين عرضوا للقضية قصدًا، فأضافوا إليها أقوالاً أخر لشعراء آخرين، ووازنوا بين المعاني متناسين قول عنترة ومنهم البغدادي في "**خزانته**"[٤٥] إذ أورد قول الخرنق بنت هفان:

إن يشْربُوا يهبوا وَإِن يذروا  يتواعظوا عَن منطق الهجر

ثم علّق عليه بقوله: قَوْلها: إِن يشْربُوا يهبوا لَيْسَ بمدح تَامّ؛ لأَنَّهَا جعلت العِلَّة فِي كرمهم شرب الْخمر، وأردف ذلك ببيت طرفة، ثم حسّان، والبحتري، وامرئ القيس، وفي النهاية زهير، ولم يعرّج على بيتي عنترة بالذكر مخالفًا نهج غيره ممن أوردوهما في معرض الموازنة والتفضيل.

وقد وقف ابن داود الأصبهاني في كتابه "**الزهرة**"[٤٦] -وقد عرض لتلك المعاني- موقفًا مغايرًا انفرد به عن الجميع، فرأى أنّ أقوالهم ليست من المديح في شيء، فأيّ مدح في جود يسخو به صاحبه في غيبة وعي، وذهاب عقل، فهؤلاء الشعراء وأنداهم صيّروا سبب السماحة والشجاعة زوال التمييز والمعرفة. وصاحب هذه الحال والمجنون سواءٌ بمنزلة، يقول:

وممَّا في الخمر من المقابح الَّتي يعتدّ بها من لا يفهم من المدائح أنَّها تنفي الأحزان، وتشجّع الجبان، وتسهّل على البخلاء الدّخول في جملة الأسخياء. ولو لم يكن في الخمر عيب غير هذا لكفى؛ لأنّ الَّذي توجبه الخمر من هذا الفعل إنَّما هو بزوال التمييز، ونقصان العقل، فإن جاء في تلك العمرات فعل يشبه أفعال السادات لم يكن فاعله محمودًا، ولا كان ذلك الفعل إليه منسوبًا، لأنه يندم عليه، ويعتذر منه بأنّ عقله لو كان حاضرًا لنهاه عنه، وإن جاء في تلك الحال ما يخرج عن حدّ الاعتدال، وكان ذلك ممَّا يتعذّر تلافيه، ويصعب طريق العذر فيه، كما أنَّها تشجّع الجبناء، وتسمّح البخلاء، فإنها تسفّه الحلماء، وتسخّف العقلاء، وقد كان صنف من القدماء يتركون الخمر والزنا تكرُّمًا، وإن لم يكن ذلك في ملّتهم محرّمًا. ولقد أحسن زهير حيث يقول:

أخي ثقةٍ لا تهلك الخمر ماله ... ولكنَّه قد يهلك المال نائلهْ

فهذا أحسن من قول طرفة:

أسدُ غيلٍ فإذا ما شربوا ... وهبوا كلَّ أمُونٍ وطِمِر

وفي هذا النحو يقول حسّان بن ثابت:

ونشربُها فتتركنا ملوكًا ... وأسدًا ما يُنهنها اللّقاءُ

وهذا قبيح كله؛ لأنهم صيّروا سبب السماحة والشجاعة زوال التمييز والمعرفة. وصاحب هذه الحال والمجنون سواءٌ بمنزلة؛ لأنه يأتي الشيء بغير معرفة، وأمثل من هذا قول عنترة:

فإذا شربت فإنّني مستهلكٌ مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلمِ
وإذا صحوتُ فما أقصّر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمِي

وابن داود ينطلق في رؤيته وحكمه من نظرة عقدية صحيحة، فالخمر مذمومة بالكلية، تذهب بالعقل، وتفقد شاربها التمييز، وتسلبه الوعي، لكنه تناسى أنها عندهم في الجاهلية دليل فتوة -أحيانًا- ومظهر قوة، ودافع فخر، فلا باس أن ينطلقوا منها في مدائحهم، ويوظفوها في مكارمهم، ويرون فيها ما لا يراه غيرهم من أصحاب العقيدة، وأرباب الشريعة، فالقضية توزن بموازين عصرها لا بقوانين تالية غيّرت الأبجديات، وحرّمت ما لم يكن قبل محرّمًا، وهي وإن ذمّها بعض أهل الجاهلية، ورأوا فيها مذهبة للكرامة، وسقوطًا للهيبة؛ فترفّعوا عنها، وزهدوا فيها، فثمّة من احتسوها وفي قناعتهم أنها من دلائل الرجولة والفتوّة، ومبعث السعادة والأريحية، مما كان مألوفًا حينئذ، و عليه فمثل أقوالهم مقبولة في بابها؛ استنادًا على معتقداتهم قبل الإسلام، فلتحاكم أفكارهم بموازينهم، وتقاس معانيهم استحسانًا واستهجانًا، قبولاً ورفضًا بما كان سائدًا آنذاك.

ورد في الموروث النقدي عند العرب بيتا عنترة(٤٧):

فترى الذُّبَابَ بِها يُغَنِّي وحْدَهُ غَـرِدًا كَفعلِ الشّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنَادِ الأجْذَمِ

في معرض الاستحسان والإعجاب، وقد أشاد بهما النقّاد العرب، وأثنوا على بديع وصف عنترة، وحسن تصويره، وجعل بعضهم قوله من التشبيهات العقم التي لم يأت سابق ولا لاحق بمثلها[٤٨]، وقالوا: "لم يدع الأول للآخر معنًى شريفًا ولا لفظًا بهيًّا إلا أخذه، إلا بيت عنترة[٤٩]".

وقد حاول بعض الشعراء اللاحقين أخذ معنى عنترة فقعدت بهم موهبتهم، ولم يستطيعوا أن يزيدوا فيه، أو يضيفوا إليه، فافتضحوا في أخذه، ومن هؤلاء أبو محجن الثقفي الذي راقه تشبيه عنترة صوت أجنحة الذباب بالشارب المترنم، فقال في وصف قينة:

وترفع الصوت أحيانًا وتخفضه    كما يطنّ ذباب الروضة الغرد

وقد علّق ابن رشيق[٥٠] على البيت بقوله: فأيّ قينة تحب أن تشبّه بالذباب؟ وقد سرق بيت عنترة وقلبه فأفسده.

لقد قلب أبو محجن تشبيه عنترة فشبّه صوت القينة المطرب بطنين الذباب الغرد، والمغنّية الحسنة لا تشبه في صوتها بصوت الذباب ولو كان غردًا مترنِّمًا، فأيّ مزيّة في ذلك؟ وأيّ إحسان تستدعيه صورة الذباب فيفكه ويطرب، لقد أساء أبو محجن من حيث أرد الإجادة، وخالفه الصواب حين أراد الغوص على معنى دقيق، وتشبيه مصيب، بخلاف عنترة الذي قصد إلى المعنى فأصاب المحزّ دقة وصف، وحسن رصف.

يقول عنترة[٥١]:

فَوَقَفْــتُ فِيهــا نَــاقَتِي وكَأَنَّهــا فَــدَنٌ لأَقْــضِيَ حَاجَــةَ الْمُتَلَــوِّمِ

أورد الآمدي في "**موازنته**"(٥٢) قول البحتري:

قف العيس قد أدنى خطاها كلالها وسل دار سعدى إن شفاك سؤالها

ثم علّق عليه بقوله: هذا لفظ حسن، ومعنى ليس بالجيّد؛ لأنه قال "قد أدنى خطاها كلاله"، أي: قارب من خطوها الكلال، وهذا كأنه لم يقف لسؤال الدار التي تعرض لأنّ يشفيه سؤالها، وإنما وقف لإعياء المطي.

والجيِّد قول عنترة؛ لأنه لما ذكر الوقوف على الدار احتاط بأن شبّه ناقته بالقصر، فقال:

فوقفــت فيهــا نــاقتي، وكأنهــا فــدنٌ؛ لأقـضي حاجــة المتلــوم

قال ذلك ليعلم أنه لم يقف بها ليريحها.

وقبل مناقشة الآمدي في تخطئته البحتري، وتفضيله قول عنترة عليه ثمة سؤال يفرض نفسه مفاده: هل من العيب أن يقطع الرجل المسافات وصولاً إلى دار محبوبته؟، وهل يعيب ناقته إعياءها وقد قطعت المفاوز من جرّائها ؟، وهل الناقة تبقى على نشاطها في نهاية الشوط كأوله؟.

إنّ الإجابة لا تحتاج إلى إعمال عقل، وكدّ فكر، فالناقة متى قطعت المسافات وصولاً إلى غاية صاحبها يصيبها الكلال، ويحلّ بها الإعياء، فتتقارب خطواتها، ويقلّ نشاطها، وهذا يشي من طرف بالمكابدات المتحملة في سبيل الغاية المرتجاة من جهة، ومن أخرى يلمح إلى أنّ مثل

محبوبته تستحق ما بذل من جهد و تعب، فلو لم ينل في سبيلها ما قاساه لما كان لصدق دعواه في عشقه دليل وبرهان.

وفيها إشارة خفيّة إلى أنّ تلك غايته، ومنتهى أمله، متى وصلها يريح ناقته المجهدة، فليس وكده طريقًا آخر يسلكه، أو هدفًا يقطعه، وهو في بلاد اتسعت رقعتها، وتباعدت أطرافها، بخلاف عنترة الذي تعوّدت ناقته المشقّات، وعهدت الصعاب، فهي قوية كصاحبها، صلبة كممتطيها، لم تركن لراحة، أو تألف الاستكانة، فمثلها مع مثله لا يصيبها الإعياء أو الجهد، وإن أصابها لا يصرّح به الفارس الجاهلي حفظًا لفروسيته، وصونًا لناقته.

ولا يخلو رأي الآمدي من وجاهة يقررها المعنى تصريحًا عند الشاعرين، فعنترة جعل ناقته قصرًا لم يصبها الإعياء، فلم يكن وقوفه راحة لها من كلال، أمّا البحتري فأصاب ناقته التعب فقاربت خطوها، مما جعل وقوفه كأنه راحة لمطيته لا لإشفاء نفسه بسؤال الديار، لكن يبقى رأيه على كل حال مجرّد رأي غير قاطع، فهو يحتمل القبول والردّ، فثمّة معان خفيّة يتضمنها النص تعفي البحتري من التخطئة، وليس في الكلام قرائن تمنعها أو تجعلها مستبعدة غير مستساغة.

ويتصل مما نحن بسببه ما أورده أبو هلال العسكري(٥٣) من قوله: قال أبو نواس في وصف الناقة:

ولقد نجوتُ في الفلاةَ إذا ... صامَ النهارُ وقالت العُفُر
شدَنيّةٌ(٥٤) رعَتِ الحمى فأتتْ ... ملءَ الجبالِ كأنّها قصْرُ

أخذه من قول عنترة:

فوقفـــتُ فيهـــا نـــاقتي وكأنهـــا        فـــدَنٌ لأقـــضي حاجـــةَ المُتلّـــومِ

إلا أنّ بيت أبي نواس أحسن رصفًا.

شبّه أبو نواس ناقته بالقصر قوة وضخامة، وجعلها أصيلة لانتسابها إلى قبيلة شدن التي تنسب الإبل إليها، وأضاف أنها كالجبل شموخًا وصلابة، كل ذلك في بيت أحسن رصفه، وأجاد سبكه، لكنه أوقفه على وصف ناقته بالقوة والضخامة، وهذا ما أوجزه عنترة في كلمتين «كأنها فدَنٌ»، لذا لم يصبها الإعياء، وزاد على أبي نواس العلّة من رحلته، ووصف ناقته بقوله: «لأقضي حاجةَ المُتلّومِ»، فله فضل السبق في تشبيه الناقة بالقصر، ومزيّة الزيادة في ذِكر العلّة من وراء الوصف، وفوق ذلك حسن السبك، وقوة الرصف، ودقة التشبيه، وإيجاز العبارة، إضافة إلى رحمته بالحيوان رغم قوته، وتناغمه معه بإضافته إلى نفسه في قوله «ناقتي»، وكان على المتأخر وقد أتاه المعنى سلسلاً طيّعًا أن يزيد عليه ما يستحق به الإشادة والذكر.

ذكر الآمدي في **موازنته**(٥٥) قوله: قال عنترة:

فشَكَكْتُ بـالرّمْحِ الأصَـمّ ثِيابَـهُ        لَيْسَ الكَريمُ على القَنَا بِمُحَـرَّمِ

أخذه أبو تمّام فقال:

يحملن كل مدججٍ، سمر القنا        بإهابــه أولـــى مـــن الـسربـــال

قال ذلك لأنه ظن أنّ عنترة أراد الثياب نفسها، وإنما أراد عنترة بقوله "ثيابه" نفسه.

يقول ابن قتيبة[٥٦]: «ثيابه يريد قلبه ويقال جسمه؛ لأنّ الثياب على الجسم تكون»، ووافقه على ذلك اليوسي في "**زهر الأكم**"[٥٧]، فقال: وفي البيت مجاز مرسل علاقته ما بين الجسم والثياب من المجاورة التامة، والقرينة قوله: «فشككت» إذ المراد بالشك الطعن، وهو إنما يكون في الأجسام لا في الثياب.

وليس من المقبول أن يغيب عن أريب فطن كأبي تمّام مراد عنترة من قوله: «فشَكَكْتُ بالرّمْحِ الأصَمّ ثِيابَهُ»، وأنه يريد قلبه أو نفسه، فالشاعر في مجال الفخر، وأيّ فخر يتبادر إلى الذهن متى كان المعنى على ظاهره؟، إنها سذاجة لا تنطلي على مَن له قليل دراية بالعربية، فما بالك بشاعر مفلق، وأديب مصقع، امتلك ناصية اللغة، وغاص على شواردها، وأقام منآدها، فأتته طيّعة منقادة، يصوغ من فرائدها ما يعجب ويبهر.

إنّ في قول الآمدي تعقيبًا على بيت أبي تمّام «قال ذلك لأنه ظن أنّ عنترة أراد الثياب نفسها» تجنّيًا واضحًا، ومبالغة لا تقلّ بحال عن مبالغات الشاعر في شِعره، وغلوّه -أحيانًا- في وصفه.

ذكر الآمدي قول عنترة:

وَأنا المَنِيَّةُ فِي المَوَاقِفِ كُلِّها وَالطَّعْنُ مِنِّي سابِقُ الآجالِ

ثم عقّب بقوله: وإنما أراد الآجال سابقة طعني؛ لشدة خوفه إذا سدّد سنانه

للطعن، ثم قال: أخذه الطائي فغيّره تغييرًا حسنًا فقال:

يَكادُ حِينَ يُلاقي القِرْنَ منْ حَنقٍ        قبلَ السَّنانِ عَلى حَوْبائِهِ يَرِدُ

وفي قول عنترة غلوّ وإفراط، فهو المنية في كل المواقف، ويموت أعداؤه فرقًا قبل أن يوجّه لهم طعنات نافدة، وضربات مميتة، وهذا ما دفع الجاحظ[٥٨] إلى إيراد البيت في مؤلفه مسبوقًا بقوله: «الإسراف في صفة الضرب والطعن»، ثم أردف ذلك معقّبًا: وإذ قد ذكرنا شيئًا من الشِّعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف، واقتصاد من اقتصد. فأمّا من أفرط... وممّا يدخل في هذا الباب قول عنترة.

وتابعه ابن قتيبة[٥٩] فعدّ قوله من باب الإفراط في الشِّعر.

وحكم الآمدي في تأثر أبي تمّام بعنترة في بيته جليّ لاشك فيه، وقوله "أخذه فغيّره تغييرًا حسنًا" له ما يدعمه من حسن النظم، وقوة الرصف، لكن يبقى لمعنى عنترة قوة تمضي في أوصاله، وعنفوان يسري في ثناياه، فحكمه قاطع لا يتطرق إليه شك، وحتمي لا يقبل الردّ أو النقد، بخلاف معنى أبي تمّام الذي فتح من دونه منافذ الريب بقوله في مستهل بيته "يكاد" التي تفيد المقاربة لا القطع، والشك لا اليقين، وكان عليه وقد وقف على معنى عنترة أن يتخيّر لمفتتحه مفردة مؤكدة لمعناه كسابقه، وأن يأتي به في أنساق حاتمة، وأحكام نافذة لا أن يسوقه مساق الشاكّ المقارب.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

* جامعة القصيم- كلية العلوم والآداب بالرس- قسم اللغة العربية- الرس- القصيم.

(١) **الشِّعر والشعراء** لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ١/ ٢٤٤، وانظر: **خزانة الأدب** ١/ ١٢٧.

(٢) **العقد الفريد** لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٤هـ، جـ٦/ ٣. ، وانظر كذلك **نهاية الأرب في فنون الأدب** للنويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١/ ١٤٢٣هـ، ج١٥/ ٣٣٨.

(٣) انظر **ديوان المعاني** لأبي هلال العسكري، دار الجيل، بيروت ١١١ ، **لباب الآداب** للثعالبي، تح: أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط١/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص١١٩، **لباب الآداب** لأسامة بن منقذ ٢١٧ ، **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب** لابن سعيد الأندلسي، تح: د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمّان، الأردن، ص٥٤٥، **شرح المعلّقات السبع** ٢٣٨ **الأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني، تح: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر لبنان، ٨/ ٢٥٠، **المحاضرات والمحاورات** للسيوطي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ص٢٤٩، **شعراء النصرانية**، جمعه وصححه: رزق الله ابن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠م، ٦/ ٧٩٧.

(٤) ذكر الألباني في تخريج الحديث قوله: منكر. أخرجه أبو الفرج الأصبهاني في "**الأغاني**" عن ابن عائشة، وهذا إسناد ضعيف معضل، فإنّ به ابن عائشة هذا من شيوخ أحمد وأبي داود وهذه الطبقة، فبينه وبين النبي ﷺ مفاوز، واسمه: عبيد الله ابن محمد بن حفص..القرشي التيمي، يعرف بالعيشي وبالعائشي وبابن عائشة، لأنه ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وهو راوي قصة "طلع البدر علينا". انظر: **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمّة** لناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج١٤/ ٢٧.

(٥) **الموازنة بين أبي تمّام والبحتري** للآمدي، تح : السيد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٤، جـ١/٣١١.

(٦) **العمدة** لابن رشيق ١/٢٨٠.

(٧) **الوساطة بين المتنبِّي وخصومه** للقاضي الجرجاني، تح: هشام الشاذلي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٩٧.

(٨) **الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء** للمرزباني، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت/لبنان، ط١/١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ص٤٥.

(٩) انظر **السرقات الأدبية** لبدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤/١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، ص٣٩.

(١٠) **الشِّعر والشعراء** لابن قتيبة جـ١/١٢٩ .

(١١) **شرح المعلّقات السبع** للزَّوْزَني ص٢٤٥.

(١٢) **العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه** ١/٩١.

(١٣) **ديوان عنترة**، تح: محمد سعيد مولوي ٢١٤.

(١٤) **لباب الآداب**، ج١/١١٩.

(١٥) **العمدة** ١/٢٨٣.

(١٦) انظر **حلية المحاضرة** للحاتمي، تح: د. جعفر الكتاني، وزارة الثقافة العراقية، ١٩٧٩م، ج١/ ٢٠٦.

(١٧) السابق ٢٠٦.

(١٨) **ديوان عنترة** ٢٠٩.

(١٩) **الأشباه والنظائر**، ص٤٩.

(٢٠) **الأشباه والنظائر** ٤٠.

(٢١) السابق.

(٢٢) **العمدة** ٢/٢٩٠.

(٢٣) **الأمالي** لأبي علي القالي، تح: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية ط٢، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، ج٢/٧٢، وانظر **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** لأبي عبيد البكري، نسخه وصححه عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، جـ١/٧٠٦.

(٢٤) **الأشباه والنظائر** ٤٨.   (٢٥) صُداء وخَثْعَم هما قبيلتان حاربا الشاعر وتحالفا عليه.

(٢٦) دعلج: اسم فرسه.   (٢٧) ازور: مال.

(٢٨) اللبانة: الصدر.   (٢٩) التحمحم صوت متقطع ليس بالصهيل.

(٣٠) **العمدة** ٢/٢٩٠.

(٣١) **المنصف للسارق والمسروق منه** لابن وكيع، تح: عمر خليفة بن إدريس، نشر جامعة قات يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٤م، ص٦٤٨.

(٣٢) **الكامل في اللغة والأدب** للمبرِّد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢/٩٢ .

(٣٣) أبو الوليد الأنصاري هو: مسلم بن الوليد مولى أسعد بن زرارة الخزرجي، شاعر يعرف بصريع الغواني، وهو كوفي نزل بغداد، وكان مدّاحًا محسنًا مجيدًا مفوّهًا بليغًا، مدح هارون الرشيد والبرامكة، والرشيد سمّاه: صريع الغواني. **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، تح: د. بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج١٥/١١٦.

(٣٤) **المنصف للسارق والمسروق منه** ٢٥٩.

(٣٥) المسرودة: المنسوجة. يريد مفرشى ظهر حصانى. وقميصي: درع من حديد متتابعة النسج، يعنى أنه ليس من أهل التنعّم، بل من أهل البدو والغزو. والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم، مبالغة في المدح.

(٣٦) الحشية من الثياب: ما حشي بقطن أو صوف أو غيرهما، والجمع الحشايا. العبل: الغليظ، والفعل عبل عبالة. الشوى: الأطراف والقوائم. النهد: الضخم المشرف. المراكل: جمع المركل وهو موضع الركل، والركل: الضرب بالرجل، وافعل رَكَلَ يَرْكُل. النبيل: السمين، ويستعار للخير والشر لأنهما يزيدان على غيرهما زيادة السمين على الأعجف. المحزم: موضع الحزام من جسد الدابة.

يقول: وحشيتي سرج على فرس غليظ القوائم والأطراف ضخم الجنبين منتفخهما سمين موضع الحزام، يريد أنه يستوطئ سرج الفرس كما يستوطئ غيره الحشية،

ويلازم ركوب الخيل لزوم غيره الجلوس على الحشية والاضطجاع عليها، ثم وصف الفرس بأوصاف يحمدونها وهي: غلظ القوائم وانتفاخ الجنبين وسمنهما.

(٣٧) **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** للثعالبي، تح: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢/٤٦٤.

(٣٨) **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء** ٦٤-٦٦.

(٣٩) أُسْد غِيلٍ الغِيلُ بِالْكَسْرِ: شجَر مُلْتَفّ يُسْتَتَر فِيهِ كالأَجَمة.

(٤٠) الأمون: الناقة المستوية الخلقة المكتملة.

(٤١) فرس طِمِرٌّ، بتشديد الراء وهو المستعدُّ للوثبِ والعدوِ. يقول: إذا سكروا جادوا بالنجائب من الإبل والعتاق من الخيل.

(٤٢) **العقد الفريد**، جـ٦/٢٠٦.

(٤٣) **البديع في نقد الشّعر** لأسامة بن منقذ، تح: د. أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص٢٢٣.

(٤٤) **نهاية الأرب** جـ٤/١٠٦.

(٤٥) انظر **خزانة الأدب** جـ٥/٥٢. وقد ذكر البغدادي بعد بيت الخرنق قوله: وَقد عيب على طرفَة قَوْله:

فَإِذا مَا شَرِبُوهَا وانتشوا      وهبوا كلّ أمونٍ وطمر

وعيب على حسان قَوْله: الوافر وَقد قَالَ البحتري فِي هَذَا فَأحْسن:

تكرّمت من قبل الكؤوس عَلَيْهِم      فَمَا اسطعن أَن يحدثن فِيك تكرّما

وَأول من نطق بِهَذَا امْرُؤ الْقَيْس فِي قَوْله: الطَّوِيل

سماحة ذَا وبرّ ذَا ووفاء ذَا      ونائل ذَا إِذا صَحا وَإِذا سكر

فَأخْبر أَنه جواد فِي الْحَالين جَمِيعًا: فِي حَال الصحو وَفِي حَال السكر. وَهَذَا هُوَ الْمَدْح التَّام. ثمَّ اتبعهُ زُهَيْر فَقَالَ: الطَّوِيل

أَخُو ثقةٍ لا تتْلف الْخمر مَاله      ولكنّه قد يهْلك الْمَال نائله

(٤٦) **الزهرة** لابن داود الأصبهاني، تح: د. إبراهيم السامرائي، ونوري القيسي، مطبعة المنار، الأردن، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ج٢/٧٢٥-٧٢٦.

(٤٧) **ديوان عنترة** ١٩٧-١٩٨، و في البيت الأول شبه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم، وفي الثاني شبه الذباب حين وقع في الروضة فحك إحدى ذراعيه بالأخرى برجل مقطوع الكفين يوري زنادًا فهو يمده بين ذراعيه إذ لم يكن له كفان يمره بينهما فلا تقتدح، فيستمر في قدحه لا يفتر.

(٤٨) **العمدة** ج١/٢٩٧ (باب التشبيه).

(٤٩) **البيان والتبيين** ٣/٢١٤.

(٥٠) **العمدة** ١/٣٠٢.

(٥١) **ديوان عنترة**، والفدن: القصر، والمتلوم: المتمكث. والمعنى: يقول: حبست ناقتي في دار حبيبتي، ثم شبه الناقة بقصر في عظمها وضخم جرمها، ثم قال: إنما حبستها ووقفتها فيها لأقضي حاجة المتمكث بجزعي من فراقها وبكائي على أيام وصالها.

(٥٢) **الموازنة بين أبي تمّام والبحتري** للآمدي، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط٤، ص٣٧٨-٣٧٩.

(٥٣) **ديوان المعاني**، ج٢/١٢١.

(٥٤) شدن: أرض أو قبيلة تنسب الإبل إليها.

(٥٥) **الموازنة** ١/٨٠.

(٥٦) **المعاني الكبير في أبيات المعاني** لابن قتيبة، تح: المستشرق د. سالم الكرنكوي وعبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ج١/٤٨٦.

(٥٧) **زهر الأكم في الأمثال والحِكَم** للحسن بن اليوسي، تح: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م، ج١/٢٨٩.

(٥٨) **الحيوان** ٦/٥٤١. (٥٩) **الشِّعر والشعراء** ١/٢٤٧.

# اللغة العربية وسؤال العصر التكنولوجي
## (٢)

**بقلم: د. سمر الديوب***

**٤ – ٢ – التجربة السورية في تعليم اللغة العربية لغير المختصين بها بالطريقة التواصلية**

اعتمد المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا بدمشق نظرية تربوية حاسوبية اقترحتها باحثة تعمل في جامعة كورنيل الأمريكية، مختصة بالمناهج ووسائل التعليم، وتدعى نعمت حافظ البرزنجي[1] وتعتمد هذه النظرية على بناء نظام حاسوبي لتعلم اللغة باعتماد مبدأ التعلم الذاتي بالحاسوب. وتقوم هذه النظرية التربوية الحاسوبية على جمع الخبرات اللغوية والمعلوماتية، وتبني العديد من الأنظمة الحاسوبية التي تعالج اللغة.

وقد أخذ مشروع هذا المعهد على عاتقه مستوى تعليم الأجانب اللغةَ العربية، ومستوى تعليم الأطفال، ومستوى تعليم الطلاب العرب في المستوى الجامعي؛ فسمّي بنظام تعليم اللغة العربية من قبل غير المختصين بها بالطريقة التواصلية[2].

وقد هدف هذا المشروع إلى جعل الحاسوب من صلب المنهاج التربوي، لا مجرد وسيلة، يفيد في التعلّم الذاتي، وقابل للتطبيق على مواد دراسية أخرى باللغة العربية.

ويفترض -بناء على ذلك- أن يكون المتكلم هو المخطط، والباحث للعملية التربوية، وهو الذي يجري القياس المنطقي بين الأمور، ويتعلّم، ويغيّر المفاهيم من خلال تفاعله مع الحاسوب، فيغدو قادرًا على الربط بين قواعد اللغة العربية، وقواعد استعمالها من خلال بناء قاعدة معرفة للغة تتضمن قواعدها الأساسية.

يهدف أيضًا ذلك كله إلى إيجاد قاعدة معرفية باللغة العربية تشمل الجذور، والصفات، والأسماء، وجميع القواعد الممثلة تمثيلاً وظيفيًّا.

وقد قامت د. ربداوي بوضع تصور لنموذج برمجي يعتمد على تضافر ثلاثة محاور[٣]: *محور تربوي حاسوبي للتعلّم*. فمن يتعلّم اللغة العربية يختزن في ذاكرته لغته الأمّ، ويقيس عليها؛ لذا سيجد صعوبة في التذكير والتأنيث مثلاً أو الإسناد إلى الضمائر.

و*محور لغوي* يبتعد عن طريقة التدريس التقليدية: نحو، صرف، إملاء، نصوص... فتغدو الحصة مزيجًا من النحو، والصرف، والإملاء، والنصوص.

و*محور معلوماتي* اعتمد على مفهوم الكتلة نصًّا بنيت عليه أربع وحدات "نحو، صرف، إملاء، ثقافة" ويترافق مع المعلومات فيديو، وصورة،

وصوت "تقنيات متعددة الوسائط Multimedia"، ويمكن أن يستعرض فقرات النص، ويعرض شريط فيديو يرافق كل فكرة؛ ليتمكن من سماع العربية بالنطق السليم، وتعريف موضوع النص من خلال الحوار المسموع؛ فيختار المتكلم إحدى الوحدات، ويتدرج في عرض الأسئلة، فيزيد وعيه حول الفكرة من خلال تفاعله مع الحاسوب عبر أسئلة يقدمها له. ولا يعطى الجواب، ولا القاعدة النحوية بل يعطي المستثمر الفرصة ليكرر المحاولة التي تؤدي إلى زيادة وعيه بالمفهوم تدريجيًّا. وبعد المحاولة الثالثة تعطي البرمجية رسالة مساعدة تشرح معنى المفهوم دون إعطاء القاعدة. فلا يفيد سرد قاعدة نحوية في إعطاء معلومة. وحين ينجز المستثمر مرحلة يعني ذلك أنه استوعبها استيعابًا كاملاً. فحين يستوعب أدوات الاستفهام ينتقل إلى مرحلة الأدوات المعربة منها، والأدوات المبنية من خلال الحركات المرفقة بالألوان، وقراءتها بالحاسوب؛ وبذا يتبصر المتكلم بالمفهوم اللغوي"أي بالقاعدة الإعرابية فقط" ثم ينتقل إلى المرحلة الثالثة "إعراب أسماء الاستفهام" وعليه أن يستنتج الإعراب من خلال الأمثلة بعد أن أدرك القاعدة، ووعاها بنفسه، فيدرك أنّ "كيف" اسم استفهام مبني بالفتح، ثم يصل إلى مرحلة فهم معنى التركيب، ومحله. ويمكنه استعمال زرّ مساعدة إن لم يتمكن من الوصول إلى الإجابة. ويمكن بعد هذه التفاصيل أن يعود إلى الجملة الأصلية، ويعربها بعد أن فهم الكامن وراءها، وربط هذا المفهوم بطريقة الاستعمال، ثم ينتقل إلى مرحلة إجراء التدريبات على الفكرة التي سأل عنها.

وثمة مرحلة الرسوم، والتعريب. فتعرض له الرسوم ذات الأصل العربي أو الأجنبي في شاشة تنقل له قصة الرسم. مثل وافق شنٌّ طبقة، أما التعريب فهو معرفة الألفاظ التي أدخلت إلى العربية، وهي ليست منها مثل كلمة تلفاز من Television فقد أخذ منها تلفاز على وزن فعلال، وتلفزَ، ومتلفَز، وتلفاز. وقد سعى واضعو هذا البرنامج إلى وضعه على الشابكة، ويرغبون في تطويره خدمة للغة العربية.

**٤-٣- عوائق استخدام الشابكة في تعلّم اللغة العربية في سورية وسلبياته**

يعدّ المنهج الحاسوبي منهجًا ذا نهاية مفتوحة، يركز على فلسفة التعلم الذاتي، وعلى مهارات التفكير العليا، ويعني في معنى من المعاني مدرسة غير محددة المكان والزمان. ومما لاشك فيه أنّ الطالب الذي يتلقى المعلومة بطريقة مخالفة للطريقة التقليدية يقلل زمن التعلّم، ويزيد التحصيل. يقول مثل صيني: ما أسمعه أنساه، وما أراه أتذكره، وما أعمله بيدي أتعلمه. ويعد التعليم عبر الحاسوب المتصل بالشابكة مثالاً حيًّا للحصول على المعلومات من مختلف أنحاء العالم؛ إذ يساعد على التعلم التعاوني الجماعي، ويتصل بالعالم بأقل كلفة. كما تساعد الشابكة على توفير أكثر من طريقة في التدريس، وتسهل الإفادة من البرامج التعليمية الموجودة عليها، ومن بعض الأفلام الوثائقية. ومن خلالها يتمّ الاطلاع على آخر الأبحاث العلمية، والتربوية، وآخر الإصدارات من مجلات، وكتب، ونشرات.

وفي سورية ثمة عوائق أمام استخدام الانترنت في تعلّم اللغة العربية تتمثل بما يلي:

- الحاجة إلى وضع مناهج صحيحة تنتشر على الشابكة، وتوفير الكوادر القادرة على ذلك.

- غياب الخطة الوطنية، ومحدودية المحتوى في السوق

- التكلفة المادية لتوفير هذه الخدمة؛ إذ يحتاج تأسيس الشبكة إلى خطوط هاتف بمواصفات معينة، وحواسيب معينة.

- بطء خطوط الشابكة، وانقطاعها، وما إلى ذلك من مشكلات فنية الأمر الذي يؤدي إلى فقدان معلومات. وقد يكون من الصعوبة بمكان الدخول إلى الشابكة، أو الرجوع إلى مواقع البحث التي كان يتم التصفح فيها.

- تطبيق هذه التقنية حتى الآن أقل من المتوقع، ويسير ببطء شديد.

- عزوف الكثيرين عن استخدام هذه التقنية من أعضاء هيئة التدريس من مبدأ أنّ المرء عدو ما يجهله. ويعود ذلك إلى عدم الوعي بهذه التقنية من جهة، وعدم القدرة على استخدامها ثانيًا، وعدم استخدام الحاسوب ثالثًا. وتُحلّ هذه المشكلة بإخضاع المعلمين لدورات تدريبية حول كيفية استخدام هذه التقنية في التعليم.

- قلة وجود قواعد بيانات يمكن الاطمئنان الكامل إليها مكتوبة باللغة العربية.

- ضرورة توافر الأدوات المساعدة على عملية البحث وسط هذا الكم الهائل من المعلومات. فثمة أدوات بحوث في الانترنت مثل : Gopher, FTP.

أمّا سلبيات هذه الطريقة فتتمثّل في النقاط التالية :

- ضعف التواصل بين الطلاب.

- اختلاف التوقيت مع اختلاف البلدان في حال التعلّم عن بعد.

- المنتديات المنتشرة على الشابكة تعتمد -أغلبها- على اللهجات الخليجية، والشامية، والمغربية.. ويشكل هذا الأمر حجر عثرة أمام الباحث عن المعلومة الصحيحة.

أمّا ضرورة هذه الطريقة في التعليم فتتمثّل بما يلي :

- تمكّن هذه الطريقة من استخدام اللغة العربية في سياقاتها الوظيفية والمعاصرة من خلال تنمية المهارات الأربع : القراءة، والمحادثة، والكتابة، والاستماع.

- تمكّن من الإفادة من نظم البرمجة والتطبيقات المعدّة للمستخدِم العربي مثل نظم الصرف الآلي الذي يحلل الكلمة إلى عناصرها الاشتقاقية والتصريفية، والإعراب الآلي، والتحليل الدلالي الذي يستخلص معاني الكلمات من سياقاتها، ويحدد مدى ارتباط الجمل بعضها ببعض.

- تمكّن من الاعتماد على مخبر لغوي، وأشرطة مسجلة مصورة بلوحات توضيحية ملونة، ومواقع شابكة مميّزة.

تعدّ هذه الطريقة في التعليم على الرغم من سلبياتها، ومعوقاتها طريقة تناسب حاجة العصر؛ لأنّ متعلّم اللغة العربية يصبح شريكاً في عملية التعليم، فينمِّي قدراته الذاتية، كما ينمي مهاراته التقنية؛ إذ يفترض أن يكون له القدرة على استخدام الوورد، والبويربوينت، والويندوز، وفهم آلية عمل الشابكة، والقدرة على استخدام المتصفِّح، والبريد الالكتروني.

**٤-٤- استخدام البريد الالكتروني في تعليم اللغة العربية**

مما لا شك فيه أنّ استخدام التكنولوجيا في خدمة اللغة العربية أصبح ضرورة ملحّة، لا خيارًا. ولا يعني استخدام التكنولوجيا حلاً سحريًّا لمشكلات اللغة العربية. فالمهم من هذه العملية العمليات التي يتمّ بها إنتاج المعرفة، وبناؤها. ولعل الفكرة المهمة هنا هي فكرة الأمن اللغوي، والثقافي، والاجتماعي. ونقصد من ذلك كله ضرورة الحفاظ على الهوية في خضم بحر التكنولوجيا.

ويرى بعض الباحثين أنّ البريد الالكتروني من أكثر خدمات الانترنت استخدامًا؛ لسهولة استخدامه؛ إذ لولا وجود البريد الالكتروني لما وجد الانترنت.

ويمكن الإفادة من البريد الالكتروني، واستخدام قوائم بريدية List server للفصل الدراسي الواحد، تتيح للطلبة الحوار، وتبادل الرسائل والمعلومات فيما بينهم. و"كثير من الناس يستكثرون الوقت الذي يمضونه في تعلّم البريد الالكتروني وميزاته لكنه استثمار حقيقي في الوقت والجهد والمال"(٤).

ويمكن أن يتعامل الطالب والأستاذ عبر البريد الالكتروني، فيحاور أحدهما الآخر، ويصحح الأستاذ، ويجيب عن الأسئلة.

كما يمكن استخدام البريد الالكتروني وسيلة اتصال بين الأساتذة أعضاء هيئة التدريس، والمدرسة. فكلفته قليلة، وفائدته كبيرة في الدراسات الخاصة والاستشارات، كما أنّ الرسالة تصل بسرعة من غير وجود وسيط بين المرسِل والمستقبِل. إضافة إلى ميزة إرفاق ملفات عبره، وإمكان إرسال رسائل متعددة إلى جهات مختلفة في الوقت نفسه.

**٥- صفات المعجم الحاسوبي المرجوّة**

من القول المعاد إنّ ثمة تقصيرًا عربيًّا في إعداد معجم حاسوبي للغة العربية. فلا يعني توافر المعجمات العربية على أقراص مدمجة، أو على الشابكة أنها معجمات حاسوبية، بل هي نسخ الكترونية من المعجمات الورقية. فلا تملك من خصائص المعجم الحاسوبي سوى النص؛ لذا يمكن القول إنّ طموحنا يتمثّل في معجم حاسوبي حداثي لغوي، عامّ، أحادي اللغة، يفيد الناطقين باللغة العربية ومن يرغب في تعلمها، كما يفيد مستويات المتعلمين جميعها، ويعمل بأنظمة التشغيل الحاسوبية كلها، ينفتح على الشابكة، ويعرض المعلومات المعجمية بطريقة عرض ميسرة، ويحتوي قوانين تمكّنه من إجراء عمليات بحث متقدمة، ومن اشتقاق الأفعال والأسماء والصفات بمستوياتها كافة.

وثمة خلاف بين المعاجم الورقية؛ لذا يفترض بالمعجم الحاسوبي حسم

الخلافات، والابتعاد عنها، واعتماد الراجح منها. كما يجب أن يشتمل هذا الحاسوب على المواد التي دخلت العربية، واكتسبت خصائصها. كالكلمات التي اشتهرت في هذا الميدان: "بستر، كهرب..." وينبغي التقليل من الاستطراد في الأمثلة، وتقديم مثال وظيفي عن كل فكرة، والاهتمام بدلالة الكلمة ضمن سياقها. فكلمة يد مثلاً تأخذ أكثر من دلالة: فـ"يد بيضاء، ويد الشمال، ويد الله...".

كما ينبغي تحديد المعلومات اللغوية، والصرفية، والنحوية، والدلالية لمفردات المعجم. فيذكر الفعل بحالاته كلها: لازم، أو متعد، متعد إلى فعل أو فعلين، تعديته الصحيحة إلى حروف الجر، تحديد الباب التصريفي للأفعال، وتحديد الكلمة من جهة التذكير والتأنيث، والاسمية والفعلية، والمصدر، والصفة، والمنع من الصرف، والجمود والاشتقاق.. وتحديد جموع التصحيح والتكسير للأسماء والصفات، والجموع القياسية والسماعية والشاذة. والتنبيه على الأخطاء الشائعة من قبيل: تعرفَ الشيءَ، لا تعرف عليه، وتكلّم على، وتحدّث عن... والتنبيه على الفروق بين الألفاظ متقاربة المعاني مثل بلى ونعم، وخطأ وغلط، ونور وضياء.

من وجه نظرنا أهم ما يجب أن ينضوي عليه المعجم الحاسوبي المجالات الدلالية، والمترادفات، والأضداد؛ إذ تفتقر معجماتنا الورقية، والمدمجة إلى وجود كلمات ذات صلة دلالية بكلمة ما. ويساعد هذا الإجراء الباحث

على اختيار الكلمة الأكثر ملاءمةً للسياق الذي يعمل عليه. فللأفعال أحبّ، ولِهَ، اشتاق، شغف، صبا، فتن، لهج، ولع... دلالات مختلفة مع أنها في الظاهر منتظمة في مجال دلالي واحد. وسيتفرع عن هذه القائمة من الأفعال مصادر، وصفات تحمل الدلالة نفسها. كما يجب وضع العبارات الاصطلاحية، ومعانيها الصحيحة؛ ليتمّ استخدامها بشكل صحيح، وكمثال على ذلك: "اختلط الحابل بالنابل، زاد الطين بِلّة، طاهر الذيل، روح رياضية..." إضافة إلى احتوائه المصطلحات التي تجمعت لدى مكتب تنسيق التعريب في العلوم كافة.

ويمكن أن نتصور ما يحتويه المعجم وفق الجدول التالي(٥):

| | |
|---|---|
| جدول الأفعال | رقم مفتاح الفعل، الجذر، الفعل، وزنه، التعدية، حروف التعدية، الفاعل، المفعول به، المعنى، المعنى السياقي، الخطأ الشائع المتعلق به، ما يترادف معه |
| جدول الأسماء | رقم مفتاح الاسم، الجذر، الاسم، جنسه، نوعه، معناه، حالته، مترادفاته وأضداده، المعنى السياقي |
| جدول المصادر | رقم الفعل، شيوع المصدر، وزنه، جنسه |
| جدول جموع الأسماء | رقم الاسم، شيوع الجمع، جمعه، وزن الجمع |
| جدول التراكيب | رقم متسلسل، الجذر، التركيب، معناه، شيوعه، التركيب الاصطلاحي |
| جدول أمثلة الأسماء | رقم مفتاح الاسم، أمثلة الاسم |

| | |
|---|---|
| جدول الصفات المشبّهة | رقم الفعل، الصفة المشبّهة، رقمها، شيوعها، جمعها، وزن جمعها |
| جدول أمثلة الأفعال | رقم الفعل، الأمثلة الوظيفية |
| جدول جموع الصفات المشبّهة | رقم الفعل، رقم الصفة المشبّهة، شيوعها، جمعها، وزن الجمع |
| جدول مبالغة اسم الفاعل | رقم الفعل، مبالغة اسم الفاعل، رقمها، شيوع المبالغة، وزنها، جنسها |
| جدول الأدوات | رقم متسلسل، الأداة، عملها، معناها، شيوعها |
| جدول فعيل بمعنى مفعول | رقم الفعل، شيوع فعيل بمعنى مفعول، فعيل بمعنى مفعول |
| جدول جموع مبالغة اسم الفاعل | رقم الفعل، رقم المبالغة، شيوع جمعها، جمع مبالغة اسم الفاعل، وزن جمع المبالغة |
| جدول أسماء الأصوات | رقم متسلسل، اسم الصوت، معناه، شيوعه |
| جدول أسماء الأفعال | رقم متسلسل، اسم الفعل، معناه، شيوعه |
| جدول فعيل بمعنى فاعل | رقم الفعل، شيوع معنى فعيل بمعنى فاعل، فعيل بمعنى فاعل |

والسؤال الذي يثار الآن: كيف يمكن أن ندخل إلى المعجم الحاسوبي؟

ينبغي الإفادة من معطيات العالم الرقمي لإيجاد طريقة سريعة وفعالة للوصول إلى الكلمة التي نريد. ويمكن الوصول إلى ذلك بعد أن نستعرض أنواع النص الرقمي:

**٦- أنواع النص المعجمي الحاسوبي**

يتفنن المبرمجون في ابتكار أساليب مختلفة من الترابط النصي. من أهمها: التوريق، والنص الشجري، والنجمي، والتوليفي، والجدلي.

ويشرح المؤلف طريقتين للانتقال بين النص المترابط "أي بين العقد والروابط". الأولى: التجوال بين العقد من دون غايات مضبوطة، أو هدف لغير التجوال لتمضية الوقت، وإشباع الفضول عبر التحرك داخل عقد النص المترابط. والثانية: هي الإبحار من عقدة إلى أخرى بواسطة الروابط لغاية محددة؛ أي البحث عن أشياء بعينها.

والفكرة المأخوذة أنّ المعجم الورقي بات شديد الفقر قياسًا إلى المعجم الرقمي. لكن المجتمعات غير العربية تمتلك قاعدة تحتية معرفية رقمية متعددة الوسائط، أقصت النص الورقي، وحلّت محله حتى بدا كأنه من مخلفات العصور المنسية. أمّا القاعدة المعرفية التحتية بالعربية فهي غائبة وراء السحاب. فالمصطلح يترجم إلى العربية ترجمات مزاجية، فهذا المعجم هو المعجم الذي يستفيد من تقنيات الحاسوب والشابكة، ويعيش قسم كبير من العرب في شبه أمية حاسوبية. ويبدو أنّ العرب لم تول أهمية بعد لبناء صرح معجم حاسوبي صريح. فلا تقدُّم للغة إذا لم تحسن استيعاب

الجديد، ومجاراته. والمعجم الحاسوبي انتقال للنص من مرحلة الورقية إلى نص رقمي يسافر في حواسيب الشبكة العنكبوتية، ويمثّل عبورًا من مرحلة حضارية إلى أخرى مختلفة عنها. وهذا الأمر متاح للجميع لكنه في القسم الأكبر من الوطن العربي متاح للنخبة فقط.

يمكن أن نقترح البدء بمستوى الجذر، ثم التفرع منه إلى فروع كثيرة مع الأخذ بعين الاعتبار الألف المنقلبة عن واو أو ياء، ورسم الهمزة. ثم مستوى الكلمة، ويتفرع هذا المستوى إلى مستوى نوع الكلمة: "فعل، اسم، مصدر، صفة، أداة..." ومستوى صرفي للكلمة: "نسبة، تصغير، جمع، مفرد، مثنى"، ومستوى النص: "آيات كريمة، أحاديث، أشعار، أقوال، مصطلحات، أمثال..."، فثمّة كلمات يصعب على المستعمِل(٦) العادي معرفة جذرها مثل: "مآب، ميناء، تراث...".

ويجب أن يكون هنالك مستوى للبحث عن جزء من الكلمة، فإذا ما وضعنا حرفين أو ثلاثة ظهر أمامنا احتمالات متعددة مع تصريف الأفعال والأسماء والمصادر فيعطي الحاسوب جداول للأفعال مجرّدة ومزيدة ومسندة إلى الضمائر وفي الأزمنة كلها. أما في الأسماء فيظهر جدول تصريف للأسماء مفردة ومثنّاة ومذكرة ومؤنثة، نختار منها ما نريد ويفترض وجود أشكال توضيحية مرفقة بأسمائها لزيادة الشرح والتوضيح.

ويفترِض هذا الأمر وجود أيقونة تُفعَّل بنقرة مزدوجة "Double Click"

لتظهر في شاشة كاملة، ويفترض وجود زرّ عودة، وزرّ بحث، وزرّ طباعة، وزرّ حفظ، وآخر للتحكم باللون والخلفية والخط ونوعه. ويجب أن يكون المستعمِل على دراية ببرامج الحاسوب؛ لكي لا يضيع في الأزرار، ولكي يعرف كيفية الربط بين المتفرعات عن المصدر، وإذا ما جنحنا بخيالنا وافترضنا أننا أمام عالم رقمي متكامل حلمنا بأن يكون هنالك زرّ يقدم ما يسمّى بالفيديو كليب حول البحث عن كلمة ما. فبدلاً من الشرح المسهب حول كلمة أو تركيب ما يستطيع المستعمِل أن يرى تقريرًا مصوّرًا وربما مرفقًا بالموسيقى، والرسوم المتحركة، والألوان؛ لتوضيح هذه الفكرة. فإذا ما رغب مستعمِل في معرفة ما تعنيه كلمة عنترة وجد بالإضافة إلى المعلومات السابقة ما يعرّفه بالفروسية قديمًا، وبأسطورتها "عنترة" في الجاهلية.

يجب أن يحتوي المعجم الحاسوبي عبارات مفتاحية معيّنة، بنقرة عليها نستغني عن صفحات كاملة مكتوبة في الوصف بالمشاهد، واللقطات الحية التي تثري العمل المعجمي الحاسوبي، وتجعله أقرب إلى السينما بشموليتها. فإن رغب المستعمِل في معرفة معنى **تأميم** يمكن أن ينشط عبارة تأميم قناة السويس. وبالضغط على هذه العبارة يحال مباشرة إلى لقطة فيديو لجمال عبد الناصر، وهو يخطب في شعب الإسكندرية يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ في ميدان المنشية.

بالإضافة إلى المعجم الحاسوبي الرقمي المقترح نجد أنّ ثمة فلسفة للتعليم

عبر الشبكات، تعتمد على بنية رقمية الكترونية، ونظام تفاعلي للتعلّم عن بعد يقدم لطالب تعلّم اللغة العربية التعليم الالكتروني عبر الشبكات بطريقة تفاعلية، رقمية، ترابطية بدراسة متكاملة تستهدف بناء المقررات، وتوصيلها بواسطة الشبكات الالكترونية، والإرشاد، والتوجيه، وتنظيم الاختبارات، وإدارة المصادر والعمليات، وتقويمها؛ إذ يتجول طالب معرفة باللغة العربية ذاتيًّا، ويكون سير التعلّم خطيًّا، أو تفريعيًّا حسب ما يراه مصمم المقرر، فيوضَع برنامج تعليمي يربط بالنظام، أو يُنشأ من قبل مدرّس. *ويمكن أن نقترح توظيفًا للقصص الرقمي في تعلّم اللغة العربية*؛ إذ شرع جنس أدبي جديد بالظهور على ساحة الأدب العربي هو الأدب الرقمي، وهو الأدب الذي يتخذ من الحاسوب وتقنياته ومن الشابكة وسيلة للوصول إلى المتلقي الذي هو في النهاية مستعمِل الحاسوب. فثمّة رواية رقمية، وشِعر رقمي، وقصص رقمي. فلمَ لا نوظف القصة الرقمية لشرح فكرة متعلقة باللغة العربية، فتكون تيسيرًا وتسهيلاً لعملية توصيل المعلومة؟

إنه تصور ربما يجد صدًى لدى المهتمين. ولا دافع وراءه إلا الغيرة الشديدة على لغة الضاد، والرغبة في الشعور بأنها ستعود إلى سابق عهدها من القوة، والازدهار، ومواكبة التطور.

وثمة فكرة مهمة يجب التوقف عندها في مقام الحديث عن اللغة العربية في علاقتها بالتكنولوجيا هي فكرة *النص الفائق*. وتقوم على ضرورة التفكير

في صيغة تعليمية جديدة من خلال شبكات الاتصال؛ إذ يجنب النص الفائق النص الأصلي الحشو والاستطراد، فتوضَّح الكلمة المراد شرحها، أو تفسيرها بخط مائل. وبمجرد النقر عليها نُحال إلى نص موازٍ فيه شرح باستخدام وسائط المالتي ميديا "الوسائط المتعددة" التي تجمع بين النص المرئي والصوت والصور الثابتة والمتحركة. ويمكن أن تستخدَم نماذج صوتية، أو مقاطع تعليمية.

ويعدّ النص الفائق من أكثر وجوه الجدة في تطوير اللغة الكترونيًّا. وهو لا يمثل مفهومًا جديدًا في طريقة التعليم، ولا يرمي إلى الاستغناء عن المدرّس بل يتمثل في القدرة على توظيف مهارات المدرّسين؛ لتقديم نص موازٍ للنص التعليمي الأصلي لاسيما ما يتعلق منها بالنصوص التاريخية، والأعمال التوثيقية، والملاحظات، والحواشي. والأهم من ذلك أنه يتجاوز النظام الورقي المكتوب المغلق القائم على مبدأ القراءة التسلسلية الموضوعة من قبل مؤلِّف ما، ويحل محله نظام متكامل قائم على جهود فريق عمل تدريسي، وبرمجي بالاستعانة بتقنيات أخر.

يرى حسام الخطيب أنّ مجالات أدب شبكات الاتصال ستكون واسعة ومتعددة... بفضل عوامل مثل تكنولوجيا المعلومات، والقنوات الفضائية، والتدفق الحر للمعلومات، والإخراج المرفَّل Hypermedia والمعاجم الالكترونية وكذلك تجاوز الحدود في مفهومات العولمة الحديثة(٧).

ويعني الكلام السابق أنّ النص العربي الأصلي بحاجة إلى الإيجاز؛ لأنّ

الحواشي، والتعليقات، والشروح لن تثقله، وسيحافظ على نوعية متميّزة. وسيكون النص المقدم عبر النص الفائق المشتمل على النص الأصلي والنص الموازي متقاطعًا مع الأدب الرقمي من جهة أنه عِلم، وفن.

كما يمكن أن نضيف ميزة أخرى تتعلق بهذا المقام هي ميزة *الكتاب الناطق* الذي يعتمد على إظهار النطق الصحيح للكلمات العربية وحروفها للمتلقِّي، فيكون كتابًا الكترونيًّا صوتيًّا على غرار الكتاب الناطق لتعليم اللغات الأخر. ولا يكون الكتاب الناطق لحل الواجبات بل للمساعدة على معرفة الصحيح في بنية الكلمة، وتركيبها. ويقدّم على هيئة ملفّات الكترونية صغيرة الحجم؛ ليسهل الحصول عليها، والإفادة منها؛ لذا ينبغي تحديث القائمة دائمًا.

**٧- استشراف المستقبل في ضوء واقع اللغة العربية**

كيف يمكن للمهتمين باللغة العربية، والغيورين عليها أن يواجهوا هذه التحديات؟

مما لا شك فيه أننا نحتاج إلى وعي بدور اللغة في حياتنا وعيًا حضاريًّا، وتكثيف الآليات للعمل على وفق هذا الوعي. فلا تتقدم الأمّة وهي في حال انبهار بثقافة الآخر؛ *لذلك يجب أن نشدّد دائمًا على التمسك بالهوية، والانفتاح على العالمية، لا العولمة.*

يمكننا الوعي بالإرث اللغوي من أخذ ما نريده منه؛ لكي نتخلّص من حال العجز أمام ثقافة العولمة. وأبرز مظاهر هذا العجز إعراضنا عن الفصحى، وتشبّثنا بلغة الغرب.

ويعدُّ تعريب التعليم الجامعي حماية للغة من المنافسة غير العادلة مع اللغة الأجنبية، ومع العامية. فاللغة الفصحى وعاء الثقافة؛ لذلك يجب علينا زيادة الاهتمام بها، والانتباه إلى أنّ المشكلة ليست في العربية الفصحى، إنها في الناطقين بها. وعلى مجامع اللغة العربية أن تكثّف الجهود لمسايرة التطور العلمي، والتكنولوجي الذي دفع الآخرين لتغليب اللغة الإنكليزية بحجة افتقار العربية إلى مصطلحات مماثلة.

ومن المفيد هنا ذِكر تجربة دول الاتحاد الأوروبي، فقد ركزت على اللغة الأمّ، واللغة الأجنبية، وهي لغة يتمّ اختيارها من لغات الاتحاد الأوروبي؛ لكي لا تكون الإنكليزية هي المسيطرة.

ورب سائل يسأل: كيف نوطّد العلاقة بين اللغة العربية، واللغات العالمية؟، وكيف نواجه مشكلات المصطلح، والعامية والفصحى، وانتشار الإنكليزية في عصر العولمة؟

إنّ المقترحات التي تتصدى للمستقبل تشكل وعودًا يهربون من خلالها من مواجهة المشكلة، إذ يجب أن نبدأ من أنفسنا، فنقوِّي الرابطة العربية، إننا في أمس الحاجة إلى *أمن لغوي* مثل الأمن الغذائي، وغيره؛ لنحصِّن أنفسنا ضد ثقافة العولمة، وفي أمس الحاجة إلى إصلاح تربوي نهضوي شامل يعمِّق العِلم، والتقنية في البلاد العربية. فحين يفكر العرب بلغتهم، ويبدعون بها يختلف الأمر عن الإبداع باللغة الثانية. وهنا تشتد الحاجة إلى قرار سياسي يجعل اللغة العربية لغة العِلم، والبحث العلمي، وتشتد الحاجة

إلى الاستفادة من الثورة المعلوماتية، فننتج برامج تعليمية، وتثقيفية ميسِّرة للعربية، ونعرِّب الحواسيب، ونطبّق المستجدات في مجال الترجمة الآلية.

إنّ الاستعمال الرسمي لأية مفردة يكسبها السيرورة، ويجعلها راسخة في الاستعمال اليومي. وسورية من البلدان العربية المبكرة التي التفتت إلى هذه الناحية. وكانت قد اعتمدت خطة حبذا لو أنها بقيت مستمرة، وهي تعريب أسماء المحال التجارية. فما أجمل أن نرى الأسماء العربية على واجهاتها!

إنّ الوسيلة التي تخرج الفصحى من غربتها هي الاهتمام بلغة الطفل، وثقافته، وتغيير مناهج التدريس، وتأهيل المدرّسين بشكل جيّد. ونحن نطالب بالفصحى لكننا يجب أن نحدّد أية فصحى نريد، هل نريد الفصحى المحتفظة بظاهرة الإعراب، أو المتخفّفة منها؟!!

وربما استطاع الإنسان قديمًا أن يردّد قول الشاعر:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعْهُ الأوائلُ

فقد كان التزاحم قديمًا حول الإتيان بما هو متميّز على مستوى الفصاحة، والبلاغة. أمّا في عصر العولمة فقد تمّ تحول خطير يضع الباحثين في حيرة من أمرهم. والإنسان الذي يجهل لغته، وأصالتها لا يتكوّن لديه وعي بمصيرها، *والذي يملك المعرفة يحظى بتأثير أقوى من الذي يمتلك وهم المعرفة.*

يجب على جامعة الدول العربية المبادرة لتأليف لجنة تمثل الأقطار العربية، مكوّنة من علماء متخصصين، ودعم المشروع ماديًّا، ومتابعة ما يستجد من مواد علمية؛ ليتم نقله إلى العربية، وإجراء مسح شامل للمادة التراثية؛ لأخذ المستعمل منها، وترك المهجور، والشاذّ، ووضع معجم تطوري للمصطلحات الحديثة مستفيدين من تقنية الحاسوب. وبذلك لا يكون اجتماع هذه اللجان ترفًا فكريًّا، ويكون الازدواج اللغوي ازدواجًا إيجابيًّا؛ لأننا نكون قد تشرّبنا الثقافة الوطنية بالقدر الذي يحول دون ذوباننا في ثقافة الآخر.

كما يجب الاهتمام ببرامج تعليم اللغة العربية على شبكة الأنترنت للأطفال، والمغتربين، والمسلمين من غير العرب، وفرض نوع من الرقابة على المنتجات الثقافية؛ لأنّ اللغة وعاء الثقافة.

وإذا نظرنا إلى المستقبل من هذه الزاوية وجدنا للعولمة جانبًا إيجابيًّا يتمثل في الاستجابة العربية للتطور من خلال تمثل روح النهضة العربية في أواسط القرن التاسع عشر؛ وبذلك تدخل في حال تعددية ثقافية مع الآخر، وفي علاقة تماثلية، لا علاقة غالب ومغلوب. فلا يوجد تناقض بين العولمة، والتعددية الثقافية، والتنوع الحضاري، ويسمح هذا الأمر بإقامة الحوار مع الآخر، وأخذ ما يوافق من ثقافته، وترك ما يخالفها.

مستقبل اللغة العربية ليس مرهونًا بالتحديات الخارجية فقط. إنه متصل بقدرة اللغة على إقامة حوار داخلي بين متكلمي اللغة، وأفكارها؛

ليصبح هذا الحوار شرطًا لأية مبادرة ثقافية للتواصل مع الثقافات الأخر، ولقبول الآخر وجودًا، وفكرًا.

إنّ علينا أن ننشط حركة الترجمة من العربية، وإليها في الإنتاج العلمي، والفكري؛ لنضمن انتشارًا لثقافتنا، ويجب أن نهتم بالدراسات اللغوية المقارنة، ونطلق المزيد من حرية الإبداع، وأفكار المساءلة، والحوار.

إنّ الحديث عن مستقبل اللغة هو حديث عن مستقبل الثقافة، والهوية، والمفروض علينا أن نقابل زحف العولمة بانفتاح حضاري، وعلمي يفيد من إيجابياتها. وكما تحرر العرب من السيطرة الاستعمارية يجب أن تكون اللغة العربية سيدة بلاد العرب.

**٨- خاتمة**

- اللغة العربية لغة عالمية حية، وقابلة للتطوير والتجدد. وهذه السمة أهم سمات اللغات الحية، وهي قادرة على مجاراة هذا العصر شرط وعي الناطقين بها، وبسِماتها، وغيرتهم عليها، والعمل على الإفادة من معطيات هذا العصر من أجل تطويرها.

- ركز البحث على أهمية تطوير معاجمنا، وضرورة وضع معجم تاريخي للغة العربية، وربط هذه العملية بالتطور التكنولوجي، ووضع معاجم حاسوبية، وتطوير عمل الصناعة المعجمية.

- أثبت البحث في مقام الحديث عن تجربة وضع المصطلح أنّ ثمة غيابًا من

جهة التنسيق بين الجهات المعنية بوضع المصطلحات؛ إذ يجب أن تتوحد الجهود على المستويات كافة -تعليمية وإعلامية- بقرار سياسي، كما يجب أن تلغى الجهود الفردية، وأن يتمّ إنشاء بنك مصطلحات عربي موحد؛ تلافيًا للتخبط الشديد في الترجمة.

- أمّا التعريب فقد أثبت البحث أننا في حاجة إلى تعريب العربي قبل تعريب المصطلح والمفردات، وذلك بالابتعاد عن ثقافة العولمة القائمة على أساس مركزية الثقافة الواحدة، وإزاحة الآخر، أو ما يُسمّى بالاستلاب الثقافي.

- يشعر العربي أمام اللغة الإنكليزية بالانبهار، والدونية. وقد أثبت البحث محدودية فكر من يعتمد على لغة أخرى غير لغته للتعلّم، والتفكير. كما نبّه على المخاطر التي تنجم عن تبنِّي ثقافة اللغة البديلة التي تدخل في علاقة ضدية مع الخصوصية الثقافية.

- وجد البحث أنّ التعليم الالكتروني وسيلة التعلّم في المستقبل لأسباب فصّل القول فيها، ووجد أنّ أفضل وسيلة الكترونية هي ما يمكن أن نطلق عليه التعليم الرقمي الذي يستفيد من تقنيات الحاسوب والشابكة لاسيما أنّ خصائص اللغة العربية يمكن استثمارها حاسوبيًّا، كما يمكن برمجتها آليًّا؛ نظرًا لتعدد السمات التي تميّزها من باقي اللغات.

- اقترح البحث إنشاء معاجم حاسوبية رقمية انطلاقًا من علم المعاجم الحاسوبية مثل إيجاد معاجم للناطقين بالعربية، ومعاجم مصطلحات

علمية، ومعاجم مفهرسة؛ لذا يجب التركيز على اللغويات الحاسوبية في المناهج الجامعية.

- وجّه البحث إلى ضرورة الإفادة من تقنيات العصر التكنولوجي في تعلّم اللغة العربية، كالتعلّم بالطريقة التواصلية، والتعلّم عبر البريد الإلكتروني.. ويمكن أن نرى أنّ التعليم الرقمي هو الوسيلة الأجدى حداثيًّا؛ لأنه الوسيلة الوحيدة لمجاراة روح العصر، ومسايرته بدلاً من أن يسبقنا، ويخلّفنا وراءه!

وأخيرًا ومن حُبِّنا هذه اللغةَ الحيّة، وحرصنا عليها نردّد مع الشاعر مترنمين:

| | |
|---|---|
| لغةٌ حباها اللهُ حرفًا خالدًا | فتضوّعت عبقًا على الأكوان |
| وتلألأت بالضادِ تشمخُ عزةً | وتسيلُ شهداً في فم الأزمانِ |

ومع الشاعر الآخر هاتفين:

| | |
|---|---|
| لغةٌ إذا وقعت على أسماعنا | كانت لنا بردًا على الأكبادِ |
| ستظلُّ رابطةً تؤلِّف بيننا | فهي الرجاءُ لناطقٍ بالضادِ |

**الهوامش:**

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة البعث، حمص، سورية.

(١) Nimat Hafez Barazangi, Muhammad Mrayati, Marwan Al-Bawab, Ghayada Rebdawi, M.Hassan Al-Tayyan, Arabic language learning: A module of a Research- Based computerized curriculum.

(٢) انظر: ندوة اللغة العربية والتعليم، أقامها مجمع اللغة العربية بدمشق، بالتعاون مع وزارة التعليم العالي ووزارة التربية ٢٢-٢٥ تشرين الأول ٢٠٠٠ بحث **الحاسوب وتعليم العربية لغير المختصين بها بالطريقة التواصلية**، ص٢٨٨.

(٣) **الحاسوب وتعليم العربية لغير المختصين بها بالطريقة التواصلية**، ص٢٩١.

(٤) Microsoft Corporation, Teach Teacher Technology. A statically report published on line available http//www.microsoft.com

(٥) انظر ما يقارب هذا العمل في: البواب: أ. مروان: ٢٠٠٧، نحو معجم حاسوبي للغة العربية، **مجلة التعريب**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد ٣٣، ص٦٠.

(٦) نستخدم مصطلح المستعمِل بدلاً من القارئ لأنّ القارئ المفترض يتعامل مع شاشة الحاسوب، والشابكة. وهنا ينتفي فعل القراءة فقط.

(٧) الخطيب، حسام: ١٩٩٩، ملامح الأدبية العالمية في عصر الاتصال والعولمة، **مجلة علامات**، جدة، ج٣، ديسمبر.

ملف العدد

# الأستاذ الدكتور عبدالله الصالح العثيمين

# مقدمة الملف

فقـدت الـساحة الثقافيـة والفكريـة في المملكـة العربيـة الـسعودية أحـد الأساتذة الفاعلين فيها حضورًا وتأليفًا وإبداعًا هو سعادة الأستاذ الـدكتور عبدالله بن صالح العثيمين، عضو هيئة التحرير لهذه المجلة، الذي انتقل إلى رحمـة الله بتـاريخ ١٢ رجـب ١٤٣٧هـ الموافـق ١٩ إبريـل ٢٠١٦م. وقـد رأت هيئـة التحريـر إفـراد ملـف عنـه في هـذا العـدد يتنـاول سـيرته الذاتيـة وبعض مـا كُتـب عنـه في حفـلات تكريمـه أو تأبينـه، راجـين أن يتغمّـده الله بواسع رحمته، وأن يسكنه فراديس الجنان، و«إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

د. أحمد بن محمد الضبيب

## السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور
## عبد الله الصالح العثيمين -رحمه الله-

١- حياته الدراسية :

- ولد في عنيزة - القصيم، المملكة العربية السعودية، وتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة في مسقط رأسه، ثم التحق بالتعليم الحكومي سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م.
- نال شهادة المعهد العلمي الديني في عنيزة سنة ١٣٧٧هـ، ثم شهادة المعهد العلمي السعودي في مكة سنة ١٣٧٨هـ.
- تخرَّج من قسم التاريخ في جامعة الملك سعود بالرياض سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- نال شهادة الدكتوراه من جامعة أدنبرا -اسكتلندا- سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م. وكانت أطروحته لتلك الشهادة عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ دراسة لحياته، وتحليلاً لإنتاجه العلمي، وإيضاحًا لعقيدته وأفكاره؛ وآراء معارضيه.

٢- حياته العلمية العملية:

- أصبح -بعد نيله الدكتوراه- عضو هيئة تدريس في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود حيث تَرقَّى إلى درجة أستاذ عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. وقد أمضى في التدريس الجامعي ثمانية وعشرين عامًا.
- كان رئيسًا لقسم التاريخ لمدة سنتين، وعضوًا في مجلس كلية الآداب ثلاث سنوات، وعضوًا في المجلس العلمي لجامعة الملك سعود؛ ممثلاً لهذه الكلية، لمدة أربع سنوات.
- كان عضوًا في اللجنة الاستشارية لوزير التعليم العالي لأربع سنوات، ثم مستشارًا في وزارة المعارف للتطوير التربوي عدة سنوات، وهو عضو في مجلس أمناء مركز حمد الجاسر الثقافي.
- كان عضوًا في مجلس الشورى من عام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م إلى عام ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- وهو عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو هيئة تحرير مجلة الدارة، التي تصدرها دارة الملك عبد العزيز في الرياض، وعضو هيئة تحرير مجلة رسالة الخليج، التي يصدرها مكتب التربية لدول الخليج العربية، وعضو هيئة تحرير مجلة العرب، التي تصدر عن دار اليمامة في الرياض، وكان عضو هيئة تحرير حوليات كلية الآداب، التي تصدرها جامعة الكويت، لمدة سنتين.
- منذ عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م وهو الأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية.

- ألقى محاضرات عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتاريخ المملكة العربية السعودية في جامعات عديدة باللغتين العربية والإنجليزية، بينها جامعتا درم وأكسفورد في بريطانيا، وجامعات بولونيا ونابولي وباليرمو في إيطاليا، وجامعات أريزونا وجورج تاون وهارفرد في أمريكا.
- شارك في عدة مؤتمرات وندوات وطنية وإقليمية وعالمية، كما قدَّم أمسيات شعرية، أو شارك فيها، داخل الوطن وخارجه.
- نال جائزة الأمير سلمان بن عبد العزيز التقديرية للروَّاد في تاريخ الجزيرة العربية عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. وهذه أول مرَّة تمنح فيها الجائزة.

**٣- إنتاجه العلمي:**

صدر له من الكتب في مجال تاريخ المملكة ما يأتي:

أ- تأليفًا:

- **أنتِ يا فيحاء ملهمتي**، عنيزة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- **بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- **تأمُّلات في التاريخ والفكر**، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- **تاريخ المملكة العربية السعودية**، ويتكون من جزأين، صدرت الطبعة السادسة عشرة من الأول والثامنة من الثاني عام ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

- **خواطر حول الوطن والمواطنة**، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- **الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- **العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **عن الوطن وإليه**، نادي القصيم الأدبي، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- **قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد**، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- **قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن**، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية**، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- **مراجعات في مصادر التاريخ السعودي**، الرياض، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- **معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد**، الطبعة الثالثة، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- **من وحي رحلات إلى خارج الوطن**، الرياض، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- **نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- **نشأة إمارة آل رشيد**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

ب- ترجمة:

- **بعثة إلى نجد**، تأليف سانت جون فيلبي، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- **توحيد المملكة العربية السعودية**، تأليف: محمد المانع، الطبعة الثالثة، الدمام، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- **من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية**، ترجمة لأجزاء من كتاب بوركهارت **ملحوظات عن البدو والوهابيين**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **مواد لتاريخ الوهابيين**، ترجمة لما ورد في الجزء الثاني من كتاب بوركهارت بهذا العنوان، **ملحوظات عن البدو والوهابيين**، الطبعة الثالثة، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ج- دراسةً وتحقيقًا:

- **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب**، لمؤلف مجهول، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**، لحسن الريكي، الرياض، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- **نبذة تاريخية عن نجد**، أملاها ضاري الرشيد على وديع البستاني، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

د- كتب عن قضايا الأمّة:

- **خواطر حول القضية**، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- **كتابات عن التصهين**، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- **مقالات عن الهمّ العربي**، دمشق، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- **أنت في مقالات عن فلسطين والعراق وقضايا مصيرية**، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- **مقالات عن قضايا عربية**، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- **عام من الذل والانخداع**، دمشق، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- **بيع الأوطان بالمزاد العلني**، دمشق، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

هـ- شِعرًا:

بالعربية الفصحى:

- **بوح الشباب**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **دمشق وقصائد أخرى**، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- **صدى البهجة**، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- **عرس الشهباء وقصائد أخرى**، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- **عودة الغائب**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- **في زفاف العروس**، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- **لا تلوموه إذا غضبا**، بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- **لا تسلني**، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **مشاعر في زمن الوهج**، بيروت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

باللهجة النجدية العامية:

- **نمونة قصيد**، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

وإضافة إلى ذلك أَلَّف الكتب الآتية المقررة في التعليم العامّ:

- **تاريخ المملكة العربية السعودية**، للسنة السادسة الابتدائية.
- **السيرة النبوية والخلفاء الراشدون**، للسنة الأولى المتوسطة.
- **جوانب من التاريخ الإسلامي**، للسنة الثالثة المتوسطة.
- **تاريخ المملكة العربية السعودية**، للسنة الثالثة الثانوية.

# عبد الله العثيمين: البحث عن الحقِّ والحقيقة

بقلم: د. أحمد بن محمَّد الضبيب*

الأستاذ الدكتور عبد الله العثيمين هو أحد وجوه مجتمعنا الثقافي التي تتَّصف بالإشراق والصَّفاء والشَّفافية من جهة، والعُمْق والتمكُّن العلمي من جهةٍ أخرى، فإذا جلستَ إليه غَمَرَتْكَ عفويَّته وطلاقة محيَّاه، وبَهَرَكَ حديثه العميق، سواء أكان ذلك في التاريخ أو الأدب أو السياسة أو الاجتماع أو غير ذلك من الفنون والعلوم التي يخوض فيه باقتدار ودون تكلُّف.

وهو شاعرٌ من روَّاد شعرنا المعاصر، وقد أصدر -فيما أعلم- أكثر من خمسة دواوين. والقارئ لشِعره يرى أنَّه يتَّجه في معظمه نحو أحداث الوطن وهموم الأمَّتَيْن العربية والإسلامية، التي تؤرِّقه منذ بدايات تفتُّحه الأدبي.

وهو إلى جانب ذلك كاتبٌ نثريٌّ متدفِّق، تظهر مقالاته أسبوعيًّا في جريدة "**الجزيرة**" لتلامس شؤون السياسة والاجتماع في هذه الحقبة المضطربة من حِقَب تاريخنا المعاصر. وكلَّما ازدادت الكوارث والصَّدمات

في حياة هذه الأمَّة واكبَ العثيمين ذلك شعرًا ونثرًا، وقد يمزج بين الشِّعر والنَّثر فيشير في كثيرٍ من مقالاته إلى ما كتبه شِعرًا في هذا الموضوع أو ذاك. وهو يتَّخذ في ذلك كلِّه موقفًا ثابتًا لا يتحوَّل عنه ولا يتزحزح، هو البحث عن الحقِّ العربي، والإصرار على الدِّفاع عن الهويَّة في دوائرها المتعدِّدة: وطنيةً كانت أم عربية أم إسلامية، ويقوم موقفُه على الرَّصد والتَّحليل والمقارَنة واستخلاص العِبَر والعظات، علَّ قومه أن يحذروا أو يفيقوا ممَّا هم فيه.

والشَّواهد على مواقف هذا المجاهد الفكري كثيرة، ويمكن أن نأخذ أمثلةً من كتابه "**كتابات عن التَّصَهْيُن**" الذي صدر في بيروت سنة ١٤٢٦هـ.

يضمُّ الكتاب ثمانية مباحث وخاتمة، تركِّز -كما يقول المؤلِّف- «على تاريخ التَّصَهْيُن المسيحي في قارَّتَي أوروبا وأمريكا، وما قدَّمه الـمُتَصَهْيِنُون في هاتَيْن القارَّتَيْن من خدمات جليلة للصهاينة من اليهود».

في المقدِّمة يستعرض الكاتب حركة التَّصَهْيُن المسيحي في أوروبا وأمريكا بوصفها مرتبطة بالعقيدة المسيحية البروتستانتية منذ القرن السادس عشر الميلادي، ويتتبَّع -بإيجازٍ وتركيز- الجهود المبذولة من قِبَل رجال دين ومفكِّرين ورجال اقتصاد، إلى جانب قادة وسياسيين، كان لهم قصب السَّبَق في تحقيق الحلم الصهيوني منذ ذلك الوقت حتى قيام دولة الكيان المغتصِب على أرض فلسطين.

ثمَّ يقدِّم المؤلِّف قراءاتٍ لأربعة كتب وثلاث مقالات تتحدَّث عن خلفيات

الصهيونية الأوروأمريكية في هاتَيْن القارَّتَيْن. أُوْلاها كتاب "**حق التَّضحية بالآخَر: أمريكا والإبادات الجماعية**"، الذي ألَّفه منير العكش، وقد استعرض فيه حروب الإبادة الجماعية التي شَنَّها المستوطنون الأوروبيون على سكَّان البلاد الأصليين، وما ارتُكِبَ فيها من فظائع، وما استُخدِمَ فيها من وسائل مدمِّرة وحشية بذرائع دينية تجعل من أمريكا (أرض الميعاد)، وهي الفظائع نفسها التي يرتكبها الصَّهاينة في أرض فلسطين بحُجَج دينية تجعل قَتْل الآخَر غير الصهيوني حلالاً مُستَحَبًّا.

والقراءة الثانية لكتاب "**الصهيونية المسيحية**" لمحمَّد السماك، الذي يوضِّح فيه المؤلِّف الصِّلة بين العقيدة المسيحية حول عودة المسيح إلى أرض فلسطين وضرورة التجمُّع فيها، وبين الحركة الصهيونية التي تعمل على إقامة كيان للصهاينة على أرض فلسطين. ويتتبَّع نشاطَ الحركة الصهيونية للوصول إلى أهدافها، وكيف تنامت المشاعر الصهيونية داخل أمريكا.

ثمَّ يتحدَّث عن الصهيونية المسيحية والإسلام، وكيف تَسَلَّل الفكر اليهودي إلى بعض الطوائف الإسلامية، والدعاوى القومية، والنَّيْل من الإسلام عقيدةً وحضارة.

كما ذكرَ المؤلِّف مُخالَفة قيام الكيان الصهيوني لنصوص القانون الدولي، ودَأْب هذا الكيان منذ إنشائه على ذلك. واستعرضَ المؤسَّسات الصهيونية الفاعلة في حشد الرأي والمال واللوبي السياسي من أجل المشروع الصهيوني.

ولعلَّ مِن أبرز ما جاء في آخِرِ الكتاب نَشْر المؤلِّف رسالة الملك عبد العزيز إلى الرئيس روزفلت سنة ١٩٤٥م حول الحقِّ العربي في فلسطين، وكَوْن قيام الكيان الصهيوني يقضي على الكيان العربي ويهدِّد السِّلم باستمرار، وردَّ الرئيس الأمريكي بأنَّه «لن يتَّخذ أيّ عمل يتَّضح أنَّه عدائي للشعب العربي»، ويعلِّق العثيمين على ذلك قائلاً: «أمَّا ما حدث فعلاً من كل القيادات الأمريكية منذ ذلك التاريخ فيَتضح لكل مُتابِع أنَّه عدائي كل العِداء للشَّعب العربي، وبخاصَّةٍ في قضيَّته الأولى قضيَّة فلسطين، والعاقل مَن اتَّعظ بدروس التاريخ».

والكتاب الثالث الذي يعرض له الدكتور العثيمين في كتابه هو كتاب "**جرائم الحرب الأمريكية في الخليج**" لمؤلِّفه رمزي كلارك، وهو يتحدَّث عن تخطيط أمريكا للسيطرة على الخليج، وكيف أنَّ العراق كان هدفًا لأمريكا منذ قيام الثورة سنة ١٩٥٨م، وكيف وقفت أمريكا مع صدَّام عند حربه ضدَّ الإيرانيين، ولم تُمانِع غزوَه الكويت قبل حدوثه، وكيف بذلت ما في وسعها لإفشال أيّ حل عربي لانسحاب الجيش العراقي من الكويت، ثمَّ اندفاعها إلى حرب العراق.

وتتوالى فصول الكتاب إلى الفصل الثامن الذي عَنْوَنَهُ المؤلِّف بـ"خرق ميثاق الأمم المتَّحدة والدستور الأمريكي"، تحدَّث فيه عن تحكُّم أمريكا بمجلس الأمن، و إملائها عليه ما تريد.

ويُنهي الدكتور العثيمين استعراضه لهذا الفصل بقوله: «وما ذكره المؤلِّف عن تحكُّم أمريكا بمجلس الأمن أمرٌ يُدركه كل دارس لتاريخ هذا المجلس... وقد قلتُ في قصيدةٍ عنوانُها "الشجن المر"، وفيها:

تملــــكُ الـــــدنيا وتحكُمُهـــــا بعـــــصا الإذلالِ والــــــدَّخَنِ
دولـــةٌ مـــن كيـــدها مُلِئَـــت جنبـــــاتُ الأرض بالـــــمِحَنِ
مجلــسُ الأمــنِ الــذي زعمــوا كيفمـــا شـــاءت لـــه يَكُـــنِ
وأمــــينٌ مــــن صــــنائعها نَـــــصَّبَتْهُ غــــيرُ مُـــــؤتَمَنِ»

هذا الكتاب وأمثاله يهدف إلى التوعية، والإفادة من التاريخ، ووَضْع الحقائق أمام الدَّارس والـمُتابِع ومتَّخذ القرار لاتِّخاذ المواقف المناسبة لِمَا يُستَقبَل من الزمان، وأحسب أنَّ العثيمين كان يهدف إلى ذلك في كل ما كتبه ممَّا يتعلَّق بالأوضاع السياسية الـمُعاصِرة.

إنَّ هذا الموضوع -بكل أبعاده- ليس بعيدًا عن التخصُّص الرئيس للعثيمين، وهو التاريخ؛ فهو الباحث والأكاديمي الذي انصرف بكامل طاقاته العلمية لتأريخ الدولة السعودية بمراحلها الثلاث المعروفة، حتَّى أصبح مرجعًا وحُجَّةً في هذا التاريخ. ومن جليل أعماله في هذا المجال:

- **تاريخ المملكة العربية السعودية** (جزآن).
- **بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية.**
- **الشيخ محمَّد بن عبد الوهاب: حياته وفكره.**
- **العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت.**

- **قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد.**
- **قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن.**
- **محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية.**
- **معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد.**
- **حول تاريخ الوطن.**

هذه الأعمال التي قدَّمها العثيمين أعمالٌ أصيلة تبحث عن الحقيقة التاريخية بحياديَّة ويقظة، وهي قد لا تسير مع السَّائد وإنَّما تفتِّش بعُمْق عن الظروف والملابَسات التي تكتنف الأحداث، وتستخلص منها النتائج.

لم يقتصر جهد العثيمين في هذا المجال على البحث التاريخي الذي كتب فيه عددًا من المؤلَّفات والبحوث، بل عَمِلَ أيضًا على تحقيق المصادر القديمة التي تناولت تاريخ الوطن، وقدَّمها بحُلَّة قشيبة. وكذلك ترجمَ ما كتبه بعض الرحَّالة والمستشرقين الذين زاروا بلدنا أو كتبوا عنه عن بُعْد.

فمِن الكتب التي أسهمَ العثيمين في تحقيقها كتاب "**كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمَّد بن عبدالوهَّاب**" لمؤلِّف مجهول؛ وكتاب "نبذة تاريخية عن نَجْد أملاها ضاري الرشيد وكتبها وديع البستاني"، وكتاب "لَمْع الشِّهاب في سيرة محمَّد بن عبدالوهَّاب" لـحَسَن الريكي.

والكتاب الأخير سبق أن حُقِّقَ قبل ذلك مرتين، إحداهما خارج المملكة، والثانية في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، لكنَّ نَشْرة الدكتور العثيمين التي صدرت سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م امتازت بإيراد الكتاب كما كتبه مؤلِّفه

وتصحيح أخطائه في الهوامش، وتَفَادي ما وقع فيه المحقِّقان السابقان من هَنَات، مع تصديره بدراسة وافية عن المؤلِّف والكتاب.

أمَّا الترجمات التي شارك بها الدكتور العثيمين في مجال تاريخ البلاد العربية السعودية فهي حسب علمي:

- "**بعثة إلى نجد**" لفِلْبي.
- "**توحيد المملكة العربية السعودية**" لمحمَّد المانع.
- "**من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية**".
- "**مواد لتاريخ الوهَّابيين**" لبوركهارت.
- "**تاريخ الوهابيين وحياة العرب الاجتماعية**" لأندرو كرايتون.

وهذه كلُّها أعمالٌ جليلة تُلقي إضاءاتٍ ساطعةً على تاريخ بلادنا من وجهة نظرٍ أخرى، وهي تُضاف إلى جهود العثيمين المتعدِّدة التي أشرتُ إليها آنفًا.

إنَّ تكريم العلاَّمة الدكتور عبدالله العثيمين يُبهِج الباحثين عن الحقيقة، ويجعلهم أكثر إصرارًا على السَّير في طريق الحقِّ والخير، إذ هو رمزٌ من رموزنا العلمية والثقافية الـمُقدَّرة التي تستحقُّ كلَّ تكريمٍ و إعزاز.

❖ رئيس التحرير.

# العثيمين مؤرخ أصيل وأستاذ جيل

بقلم: د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي*

هذه كلمة شاركت بها في جلسة تأبين في "مجلس حمد الجاسر"[1] خصصت لأخينا وحبيبنا عبدالله بن صالح العثيمين الذي انتقل إلى جوار ربه يوم الثلاثاء ١٢ رجب ١٤٣٧هـ (٢٠١٦/٤/١٩م) رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه فسيح الجنان، والغفران والرحمة لصاحب هذه الدار شيخنا حمد الجاسر.

نلتقي في هذا الصباح المبارك لنتذاكر شيئًا من مآثر فقيدنا الغالي عملاً بقول الرسول ﷺ: "اذكروا محاسنَ موتاكم"، ويشرفني أن أشارك على هذه المنصّة علَمَين عالِمَين تميزا بخصال كثيرة أهمها النبل والوفاء هما مدير هذا اللقاء الدكتور عبدالرحمن الشبيلي وزميلي الدكتور محمد الهدلق.

سأبدأ بذكر طرف من العلاقة بيني وبين عبدالله العثيمين، رحمه الله. تشرفت بمزاملة الدكتور عبدالله أثناء ابتعاثنا لبريطانيا، فكلانا كنّا ندرس بجامعتين في مدينتين باسكتلندا هما إدنبرا وسينت أندروس، ويفصل بينهما قرابة المئة كيل. وبما أنّ إدنبرا هي عاصمة اسكتلندا مدينة كبيرة

وجميلة ونحن في مدينة سانت أندروز الصغيرة فكنّا كثيرًا ما نحلّ ضيوفًا عليه وعلى زملائه بإجازات الأسبوع ونسعد بصحبتهم الجميلة والتي نستمتع بذكرياتها الطيبة التي لا تنسى. ثم تشرفت بمزاملته بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود بعد ذلك لمدة ناهزت الثلاثين عامًا فأفدت -كما أفاد غيري من زملائي- ولكني أظن أني حظيت بقدر طيّب من علمه الجمّ وحكمته وسداد رأيه وسعة أفقه وحِلمه وسماحته وطيب معشره؛ لأني لازمته وخالطته أكثر من غيري. فالمرء يتشوّق إلى جلسته لما فيها من ظُرف وتشويق وحسن حديث فإن تحدّث في التاريخ فهو المبرز فيه، وإن تحدّث في الشأن العامّ فهو المهموم به العارف لأبعاده، وإن تحدّث في شؤون الأمّة فهو المستوعب المتابع لأحوالها، وإن كان حديث ظُرف فهو يتجلّى مرحًا وأنسًا ودعابة.

عبدالله العثيمين تولى منذ تعيينه أستاذًا بالجامعة، بعد إنجازه رسالته للدكتوراه بجامعة إدنبرة، تدريس تاريخ المملكة العربية السعودية بقسم التاريخ مع زميلنا طيّب الذِّكر الأستاذ الدكتور محمد بن سعيد الشعفي، أمدّه الله بالصحة، ثم تولى رئاسة قسم التاريخ، ونظرًا لتميّزه فقد تم اختياره عضوًا بالمجلس العلمي بالجامعة لعدد من السنوات.

شارك في وضع المناهج والخطط الدراسية في القسم والكلية، كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وباختصار **فهو أستاذ جيل**.

رغم أنّ الدكتور عبدالله العثيمين كان، بحكم خبرته وعلمه وسداد رأيه، مرجعًا لكثير من المؤسسات العلمية والجهات المعنية بإدارة المجتمع يستشيرونه في أمور كثيرة أو يطلبون منه تقديم دراسات عنها، إلا أنّ كل ذلك لم يحل دون كونه باحثًا نشيطًا دؤوبًا أثمر إنتاجًا علميًّا يتصف بالغزارة والعمق. والحجر الأساس في بنائه البحثي يتمثّل في رسالته للدكتوراه، وعنوانها: "**الشيخ محمد بن عبدالوهاب- حياته وفكره**"[٢]. إنّ اختيار مثل هذا الموضوع لدراسته في جامعة أدنبره على يدي ألمع المستشرقين في عصره مونتجمري وات (Montgomery Watt (d.٢٠٠٦ يدل على شجاعة إن لم نقل على تهوّر. لماذا؟ لأنّ الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله، كتب عنه أنصاره عشرات الكتب وكتب عنه خصومه ربما أكثر مما كتب عنه أنصاره على المستوى المحلي والإقليمي والعالم الإسلامي، كما كتب عنه الكثير من المستشرقين بلغاتهم المختلفة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، من يكتب عن الشيخ محمد ابن عبدالوهاب لا بد أن يدرس ويستوعب كتبه في العقيدة (التوحيد) والفقه ومراسلاته وفتاواه، بل عليه أن يدرس كتب أسلافه من العلماء سواء القريبين زمنًا منه أم البعيدين زمنًا مثل ابن تيمية، ليلحظ مدى التواصل الفكري والعلمي بينه وبينهم، وهل كان يتسق معهم في كل الأحوال أم كان يفارقهم في بعض الأحيان. وكان عليه أن يدرس أوضاع مجتمع المنطقة التي نشأ فيها الشيخ محمد بكل أبعاده ليفهم تأثيرها على تكوين الشيخ العلمي والاجتماعي وعلى مواقف أمراء البلدان، وطلاب

العلم فيها والعامة من دعوة الشيخ. ويدرس الناحية العملية لدعوة الشيخ، بجانب ما أودعه مؤلفاته نظريًّا، وذلك من خلال الأساليب التي سلكتها الدولة السعودية الأولى إمّا بمباشرة أو بتوجيه من الشيخ في حياته. إنّ كلَّ ذلك حِملٌ ثقيلٌ على طالب تاريخ ولكن عبدالله العثيمين لم يكن هيّابًا ولا متقاعسًا، ونجح في كتابة رسالة متميّزة وفق منهج علمي نقدي صارم.

وبعد نشره لرسالته في كتاب أتم ذلك بنشره دراسته لبعض مصادرها وخاصة تاريخ حسين بن غنام (ت ١٢٢٥هـ) أول مؤرخ للدولة السعودية، وكتابات الرحالة المعاصرين لها أو القريبين نسبيًّا من عصرها ثم كتابات المستشرقين، وحملت عنوان: "مراجعات في مصادر التاريخ السعودي"[٣].

ومن خلال تتبّع العثيمين ورصده لتاريخ نجد أثمر ذلك كتيبًا صغير الحجم كبير الفائدة عنوانه: "**نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب**"[٤].

عبدالله العثيمين ليس باحثًا فحسب بل هو صاحب رسالة، لا يكتب أبحاثًا للنخبة الأكاديمية بل غايته أن يتواصل مع طلاب العلم والناس على مختلف مستوياتهم وأن يُقرِّب ما يكتب إلى القارئ حسب مستواه، فقد كتب لطلاب المرحلة الابتدائية ولطلاب المرحلة الثانوية راعى فيها مستوياتهم فقرّب إليهم المعلومة التاريخية بأسلوب سلس شيّق محبب، وانتقل بعد ذلك للكتابة للطالب الجامعي ولأيّ قارئ متوسط الثقافة فألّف كتابًا من جزأين عنوانه: "**تاريخ المملكة العربية السعودية**"[٥] خصص

الجزء الأول لتاريخ الدولتين السعودية الأولى والثانية، والجزء الثاني: تاريخ المملكة العربية السعودية، بدءًا من تأسيسها وحتى وفاة الملك عبدالعزيز، رحمه الله، ودرسها من حيث التأسيس والتوحيد والتطور في جميع المجالات. ولا أدل على نجاحه في رسالته أنّ كتابه عن تاريخ الدولة السعودية طبع ستَّ عشرة طبعة، ولا أظن كتابًا بالمملكة العربية السعودية حظي بمثل تكرار هذه الطبعات.

وللتاريخ العسكري نصيب طيّب من أبحاث المؤرخ العثيمين، فقد كتب دراسة قيّمة عنوانها: "في التاريخ العسكري للدولتين السعوديتين الأولى والثانية"، على أنه خص "معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد"(٦) بكتاب أبدع فيه من جميع النواحي، وتتبّع تسلسل إنجازات الملك عبدالعزيز، رحمه الله، العسكرية منذ أولى معاركه التي استولى فيها على الرياض سنة ١٣١٩هـ وحتى آخر حروبه التي كانت على جبهة اليمن ما بين سنتي ١٣٥٢-١٣٥٣هـ من حيث التخطيط الاستراتيجي والتكتيك الحربي واختياره التوقيت والمكان وسياساته في اختيار القادة وفي استقطاب المحاربين ورعايتهم، وشهامته ومروءته في إكرام خصومه المهزومين قادةً وأفرادًا، وتألُّفِه لهم بحيث يتحوّلون إلى أشد الناس حبًّا وإخلاصًا له، كل ذلك انعكس في هذا الكتاب مادةً وأسلوبًا وعرضًا ومنهجًا، وزوده بخرائط ملوّنة ودقيقة لكل معركة. وخفّف فيه كثيرًا من جفاف المنهج الأكاديمي بحيث أصبحت قراءته سلسة وشيّقة.

وامتدادًا لدراساته تلك توسّع من الناحية الجغرافية والموضوعية فألّف كتابًا عن "نشأة إمارة آل رشيد"[٧] والتي أصل نشأتها تعود لتعيين الإمام فيصل بن تركي أحد قواده عبدالله بن علي بن رشيد أميرًا على جبل شمّر أواخر سنة ١٢٥٠هـ والذي أخذت سلطته تنمو حتى صارت الإمارة لاحقًا مستقلة ثم منافسة للدولة السعودية، ومرّت إمارة آل رشيد بفترات صعود وهبوط حتى صارت نهايتها على يدي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود بدخول حايل ضمن منظومة المملكة العربية السعودية سنة ١٣٤٠هـ.

دراسة الدكتور عبدالله العثيمين هذه تعدّ رائدة من حيث منهجُه ومصادرُه وتحليلاتُه، فقد اعتمد على الروايات الشفهية لكثير من الرواة ذوي العلاقة المباشرة أو القريبة من الأحداث كما وظّف نصوصَ الشِّعر الشعبي بصفتها وثيقةً تاريخية، وهو أول من قام بذلك، فيما أعلم، بحيث أثرَتْ بحثَه. أمّا تحليلاتُه فتتّصف بالعمق وفهم خلفيات الأحداث وبيئاتِها ومسبباتِها وتحرِّيه الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا غرو في ذلك فقد حصل هذا الكتاب على جائزة مجلس التعاون لدول الخليج العربية في أولى دوراتها كأفضل كتاب أُلّف في دول الخليج في العلوم الاجتماعية (في حقل التاريخ) عند صدوره.

لم يتوقّف العثيمين عند هذا الكتاب وإنما أخذ يتابع ما ينشر من أبحاث عن نفس الموضوع سواء كانت دراسات شاملة عن إمارة آل رشيد أو تناولت جانبًا منها، وكان أهمها ثلاثة كتب، كتب عنها العثيمين دراسات

نقدية اتسمت بالثراء والموضوعية وشكلت هذه الدراسات الثلاث كتابًا بعنوان: " **قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد**"(٨).

كان العثيمين مهذبًا ، متواضعًا في نقده فلا يظهر استعلاء على من ينتقد أو تسفيهًا له، أو تضخيمًا لما في العمل المنقود من قصور أو أخطاء، أنقل مثالاً واحدًا. ففي نقده لكتاب الدكتور محمد الثنيان: "**عبدالعزيز بن رشيد والحماية البريطانية**"، ص١٣٧ يقول: "ودراسة أخي وزميلي الدكتور محمد الثنيان، جديدة في استقصاء تفاصيل موضوعها، جيّدة في توثيقها، حسنة في أسلوبها، وكل هذه الصفات ليست غريبة على كتابة باحث مثله، وهي ما تجعل لما يكتبه قيمة واضحة لدى المهتمين بالدراسات التاريخية الحديثة عن هذا البلاد.

وما سأقوم به في هذه القراءة لكتابه مزيج بين إثارة التساؤلات إضافة إلى التساؤلات التي أثارها في دراسته، وإبداء وجهة نظر قابلة للنقاش، وإعطاء معلومات إضافية قد تزيد من إيضاح بعض المسائل". لكنه لا يداهن ولا يجامل في نقده من قول ما يراه الحق ولكن بأسلوب مهذب.

**العثيمين المحقق:**

لم يكن عبدالله العثمين باحثًا في التاريخ فحسب بل محققًا يمتلك كل أدوات التحقيق من حيث منهج التحقيق النقدي، وتمكّنه من اللغة العربية تمكنًا يتفوّق فيه على كثير من أصحاب الاختصاص، وقدرته على قراءة الخطوط القديمة فيجمع نُسَخَ مخطوط الكتاب الذي يشتغل على تحقيقه ويقرأ نصوصه بعناية وأناة، سعيًا منه ليخرج النص كما كتبه مؤلفه. وهو

انتقائي في تحقيقاته، فالأصل عنده أن يكون الكتاب الذي يقدم على تحقيقه ذا قيمة علمية تضيف إلى موضوعه إضافات هامة. وسوف أكتفي بالإشارة إلى عنوانات تحقيقاته وأولها كتاب "**كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب**"(٩)، والثاني كتاب "**نبذة تاريخية عن نجد**"(١٠) أملاها ضاري بن فهيد الرشيد، وكان أول من حققه أستاذ الجميع حمد الجاسر، رحمه الله(١١)، ولكن العثيمين حققه على المخطوط وأضاف إليه تعليقات وشروحات، والثالث "**لَمْع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب**"(١٢)، وقد سبق نشر هذا الكتاب مرتين، مرة في خارج المملكة وأخرى في داخلها، على أنّ الكتاب مجهول المؤلف، ومضمون الكتاب مخالف لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب متحامل عليها، لكن العثيمين قام بتحقيقه تحقيقًا علميًّا ورَدَّ على مؤلفه في ما أخطأ فيه متعمّدًا أو غير متعمّد، وأماط اللثام عن اسم مؤلفه وهو حسن بن جمال بن أحمد الريكي الذي فرغ من تأليفه سنة **١٢٣٣هـ**، وهي السنة التي سقطت فيها الدولة السعودية الأولى على يدي القائد إبراهيم باشا.

**العثيمين المترجم:**

البعد الثالث في أعمال العثيمين التاريخية هو الترجمة، فلقد ترجم عن اللغة الإنجليزية القسم الخاص بالدولة السعودية الأولى من كتاب الرحالة السويسري يوهان لودفيك بوركهارت "**البدو والوهابيون**" بعنوان "**مواد لتاريخ الوهابيين**"(١٣)، وكان هذا المؤلف من أكثر الرحالة الأوربيين الذين قدموا إلى البلاد العربية دقة وتحرِّيًا للمعلومة الصحيحة. وكونه منذ بداية

القرن التاسع عشر في بلاد الشام ويتتبّع أخبار الدولة السعودية ثم مجيئه إلى الحجاز سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٤م جعله شاهدَ عيان على بعض الأحداث وعلى صلة قريبة جدًّا من الأحداث الأخرى بحيث أصبح مصدرًا مهمًّا لتاريخ الدولة السعودية الأولى.

أمّا العمل الثاني الذي ترجمه عن اللغة الإنجليزية كذلك فهو رحلة "**بعثة إلى نجد**" ١٩١٧-١٩١٨م= ١٣٣٦-١٣٣٧هـ[١٤] لسانت جون فيلبي. وقدّم العثيمين لهذه الترجمة بدراسة بلغت ٦٠ صفحة. وتأتي أهمية هذه الرحلة من كونها تقدّم لنا معلومات عن أوضاع المملكة والمنطقة في وقت مبكر نسبيًّا. وفيلبي كان ضابطًا إنجليزيًّا أُرسل من العراق لاستكشاف الأوضاع في المناطق التابعة لابن سعود، لكن لقاءه لابن سعود كان آسرًا لم يستطع الفكاك منه طيلة حياته؛ إذ لم يلبث بعد فترة أن ترك الخدمة في الجيش البريطاني وعاد إلى الرياض واستقر في بلاط ابن سعود مستشارًا ثم اعتنق الإسلام وأصبح من مواطني المملكة العربية وخلّف مؤلفات كثيرة عن رحلاته وما اكتشفه من الآثار بالمملكة وعن الأوضاع بالمملكة بعامة. وللعثيمين ترجمات أخرى في موضوع الخيل وغيرها.

أذكر كلمة موجزة عن عمله أمينًا عامًّا لجائزة الملك فيصل، رحمه الله، بوصفي شاهدًا. لقد أولتني جائزة الملك فيصل مشكورة الثقة في كثير من المناسبات، فكنت محكمًا في أحيان قليلة، وخبيرًا لفحص الأعمال المرشحة في مجال العلوم الإنسانية لعدد من السنوات، وأخيرًا عضوًا في لجنة

الاختيار، وأشهد أنّ عبدالله العثيمين عمل وفق قواعد صارمة وبغاية السرية والأمانة والموضوعية والنزاهة. والأمانة تقتضي ذكر الفضل لأهله، فكثير من تلك المعايير والقواعد التي تسير عليها أمانة الجائزة بكل جهازها كانت من عمل أو إشراف من قام بتأسيس الجائزة وهو معالي أستاذنا أ. د. أحمد بن محمد الضبيب، أمدّه الله بالصحة والتوفيق.

اعتذر عن التقصير بحق أستاذنا الأستاذ الدكتور عبدالله العثيمين، فالمجال المتاح لا يسمح بالتوسع أكثر من ذلك، وأختم بمثل ما بدأت بالترحم عليه وعلى أمواتنا جميعًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

**الهوامش:**

* أستاذ بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.
عضو هيئة تحرير مجلة **العرب**.

(١) عقدت هذه الجلسة في يوم السبت الموافق ١٧ رجب ١٤٣٧هـ.

(٢) نشرته لأول مرة: دار العلوم، الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٣) مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٩هـ.

(٤) نشر مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

(٥) نشر المؤلف، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٦) نشره المؤلف، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٧) نشر المؤلف الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٨) نشره المؤلف الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٩) دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(١٠) أمانة احتفال مرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(١١) دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

(١٢) دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(١٣) نشره المؤلف، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(١٤) مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

## الأستاذ الدكتور عبد الله الصالح العثيمين أديبًا وأكاديميًّا

**(توفي رحمه الله عصر الثلاثاء ١٤٣٧/٧/١٢ الموافق ٢٠١٦/٤/١٩م)**

**إعداد: د. محمد بن عبد الرحمن الهدلق***

أول مرة سمعت فيها باسم الصديق الأستاذ الدكتور عبد الله الصالح العثيمين كانت بعدما أصدر الأديب الشيخ عبد الله بن إدريس الطبعة الأولى من كتابه الشهير "**شعراء نجد المعاصرون**"، وذلك في عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م. لقد سمعت عن الكتاب من بعض الأساتذة في المعهد العلمي بشقراء، وسمعت شيئًا من حواراتهم بشأنه وبخاصة ما يتصل ببعض المذاهب الأدبية التي أشار إليها الشيخ ابن إدريس في القسم الخاص بالدراسة من كتابه، وكانت مثار اهتمام الأساتذة، لقد سمعت، وربما كان ذلك لأول مرة، عن بعض المذاهب الأدبية الكبرى مثل الكلاسيكية، والرومانتيكية، والواقعية. وقد اشتريت الكتاب وقرأته بِنَهَمٍ. وكان مما لفت نظري فيه أنه قد اشتمل على ثلاثة شعراء كلهم يحملون لقب (عثيمين) من بينهم الشيخ محمد بن عبد الله بن عثيمين المولود في بلدة (السلمية) بالخرج، وصالح الأحمد العثيمين وعبدالله الصالح العثيمين

(المولودان في مدينة عنيزة)، ولعل مما ربط هذا الاسم بذاكرتي جيّدًا أنّ أخوالي كانوا يسكنون في شقراء في بيت كبير استأجروه من آل عثيمين، أبناء عم الدكتور عبد الله. الاسم ليس غريبًا عليَّ بل هو اسمٌ جذّاب في حقيقة الأمر.

كانت القصائد التي نشرها الشيخ ابن إدريس للدكتور عبد الله قصائد وطنية تتحدث عن فلسطين والجزائر وغيرها من مواجع الأمّة العربية، وكان المدُّ القومي العربي آنذاك على أشده تغذيه الآلة الإعلامية المصرية العالية النبرة. كان هذا في عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م وما أعقبها من سنوات ذلك العقد الزمني. ثم غاب العثيمين عن خاطري سنين طوالاً ليظهر فجأة أمام عيني في صيف عام ١٩٧١م أمام مدخل مستشفى شهير بمدينة إدنبرة بإسكتلندا يعرف بـ: The Royal Infirmary

كنت قد جئت في ذلك الصيف برفقة الزميل الأستاذ الدكتور عبد العزيز المانع من مدينة بورنموث في جنوب إنجلترا، حيث كنّا ندرس اللغة الإنجليزية، جئنا إلى إدنبرة لنبحث عن سكن لأسرتينا في هذه المدينة الإسكتلندية الجميلة؛ لأننا سنلتحق بالجامعة في شهر سبتمبر من ذلك العام، وقد ذُكرتْ لنا أسماءُ بعضِ الذين يدرسون هناك من السعوديين ومن بينهم عبد الله العثيمين، وعبد الله الجربوع، وعبد الله الحييد. وسألنا عن الجربوع، وهو آخرهم مجيئًا إلى إدنبرة، فقيل لنا: إنه يرقد في المستشفى المشار إليه أعلاه لعارض صحي ألمّ به فقررنا لحظة وصولنا أن نزوره مع أنه لم

يسبق لنا أن رأيناه من قبل. وخلال الزيارة حدثنا عن الزملاء الموجودين في إدنبرة وقال لنا: لا بد لكما أن تتصلا بالعثيمين فإنه عمدة السعوديين في هذه المدينة، وودعنا الجربوع في سريره، وبينما كنا نهمّ بمغادرة مدخل المستشفى إذا بالعثيمين أمامنا، ولم يسبق لنا أن رأيناه أيضًا من قبل لكنه العثيمين لا تخطئه العين في أيّ موطن وُجد، كانت البسمة على محيّاه تجذبك إليه كما يجذب المغناطيس الحديد، وقد استجبنا للجذب. لقد جاء العثيمين إلى المستشفى زائرًا زميله الجربوع فأصر عندما قابلناه على أن نعود معه إلى غرفة الجربوع، التي خرجنا منها للتوّ، ولو لبضع دقائق ليقضي واجب الزيارة ثم نخرج، وقد فعلنا.

منذ تلك اللحظة الحاسمة على مدخل المستشفى بإدنبرة انعقدت بيننا وبين هذا الرجلِ المحبوب صداقة وثيقة، ومعرفة عميقة وأكرم بها من صداقة وأنعم بها من معرفة...

لم تطل إقامة الدكتور عبد الله معنا في إدنبرة طويلاً بعد ذلك اللقاء إذ إنه بعد عام وبعض الأشهر (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) حصل على شهادة الدكتوراه وذلك على رسالته عن "الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دراسة لحياته، وتحليل لإنتاجه العلمي، وإيضاح لعقيدته وأفكاره، وآراء معارضيه". وبعد ذلك بقليل عاد إلى المملكة، وبعودته ترك فراغًا كبيرًا ليس فقط بيننا نحن السعوديين، بل لدى كلِّ العرب في إدنبرة، والباكستانيين، والإسكتلنديين وغيرهم ممن كانوا على صلة به. ولكنه ظل وفيًّا، في الأعوام

التالية لعودته، لأصدقائه ولمدينته، فكان يسعدهم بزياراته كلما سنحت له فرصة. وكان لا ينسى إتحافهم بما هو موجود في الوطن مما لا تجده هناك. لقد بعث إليّ في سنة من السنوات كرتونًا مملوءًا بالفقع الرَّطب (كمأة) بعثه مع صديق له مسافر إلى لندن وقد أرسله إليّ هذا الصديق من لندن إلى إدنبرة بالبريد، وعندما أحضره ساعي البريد، وكانت رائحة الفقع تفوح من الكرتون، قال لي: غريب أمر صاحبك، لقد أرسل إليك كرتونًا من البطاطس الفاسد. ظنه المسكين بطاطس فاسدة.

**إطلالة على سيرة الدكتور عبد الله العثيمين:**

ذكر الشيخ عبد الله بن إدريس أنّ الدكتور العثيمين قد ولد في مدينة عنيزة عام ١٣٥٦هـ وأنه نشأ بها نشأة متوسطة الحال، وفي السابعة من عمره دخل مدرسة تعلِّمُ القراءة والكتابة والحساب، ولكنه سئم هذه الدراسة فتوجه إلى الرياض وهو في الثانية عشرة فعمل سمسارًا -دلالاً- مدة سنة ونصف، ثم رجع إلى عنيزة ليصبح عاملاً فلاحًا. وبعد مدة من الزمن ألزمه والده دخول المدرسة، أو الذهاب إلى الرياض فاختار المدرسة، وإن كان لها كارهًا، ودخل السنة الرابعة واستمر حتى حصل على الشهادة الابتدائية، ومن ثم دخل المعهد العلمي بعنيزة، وكان موفقًا وناجحًا في دراسته... إلا أنه لما نجح إلى السنة الخامسة من المعهد العلمي فوجئ بفصله من الدراسة لأسباب لا يعرفها، على أنه أكمل دراسة هذه المرحلة "**شعراء نجد**" ص١٨٩.

وقد حصل على الشهادة الثانوية من المعهد العلمي بعنيزة (منتسبًا) عام ١٣٧٧هـ، كما حصل على شهادة المعهد العلمي السعودي بمكة (منتسبًا أيضًا) عام ١٣٧٨هـ. ثم التحق بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٣٧٩هـ "**شعراء نجد المعاصرون**" ص١٨٩، وقد اختار قسم التاريخ من بين بقية الأقسام، وفي السنة الأولى في الجامعة كتب مقالاً نقد فيه بعض أعضاء هيئة التدريس فاشتكاه الأساتذة إلى إدارة الجامعة وطالبوا بفصله ففصله مجلس الجامعة. وكان يتولى الإشراف على الجامعة في ذلك الوقت المرحوم الشيخ ناصر المنقور. وبعد شفاعات ووساطات عُدِّلَ قرارُ الفصل ليكون لمدة ثلاثة أسابيع فقط. وفي نهاية السنة الثانية من دراسته في الجامعة تعيّن سكرتيرًا لوكيل الجامعة آنذاك معالي الأستاذ الدكتور عبد العزيز الخويطر، رحمه الله، وصار بحكم هذا العمل يحضر مجلس الجامعة لا بصفته عضوًا بالطبع وإنما ليضبط محاضره بوصفه سكرتيرًا لوكيل الجامعة. ولكم أن تتصوروا مشاعر الأساتذة أعضاء المجلس وهم يرون مَن فصلوه في العام الماضي قد أصبح يدوّن محاضر جلساتهم.

وقد تخرّج د. عبد الله في قسم التاريخ عام ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م. ثم ابتعثته الجامعة للحصول على الدكتوراه من جامعة إدنبرة، وقد حصل عليها في عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م كما سبق أن ذكرت.

**الجانب الوظيفي:**

بعد عودة الدكتور عبد الله العثيمين من البعثة تعيَّن عضو هيئة تدريس في قسم التاريخ، وقد تدرّج في الرتب الأكاديمية حتى حصل على درجة

الأستاذية في عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. وقد تولى رئاسة قسم التاريخ لمدة عامين، وعمل عضوًا في مجلس كلية الآداب مدة ثلاث سنوات، وعضوًا في المجلس العلمي بجامعة الملك سعود ممثلاً لكلية الآداب لمدة أربع سنوات.

وبالإضافة إلى عمله بالجامعة فإنه كان عضوًا في عدد من اللجان الهامة، فقد كان عضوًا في اللجنة الاستشارية لوزير التعليم العالي لمدة أربع سنوات، وعمل مستشارًا في وزارة التربية (وزارة المعارف سابقًا) للتطوير التربوي عدة سنوات، وهو عضو في مجلس أمناء مؤسسة حمد الجاسر الخيرية.

وقد عمل عضوًا في مجلس الشورى منذ عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م إلى عام ١٤٣٠ هـ/٢٠٠٩م.

وهو عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضو هيئة تحرير مجلة **الدارة**، ومجلة **رسالة الخليج**، ومجلة **العرب**.

وقد عمل الدكتور عبد الله العثيمين أمينًا عامًّا لجائزة الملك فيصل العالمية منذ عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م إلى عام ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م عندما أقعده المرض شفاه الله.

وقد نال الدكتور العثيمين جائزة الأمير سلمان بن عبد العزيز التقديرية للرواد في تاريخ الجزيرة العربية في عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، وهذه أول مرة تمنح فيها الجائزة.

**الجانب التأليفي الأكاديمي:**

التكوين العلمي للدكتور عبد الله ينصبُّ أساسًا على التاريخ، وله في هذا الجانب مؤلفات رائدة، وهي تمثّل مصادر رئيسة في حقلها، ومن بين هذه المؤلفات:

١ - **العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت.**

٢ - **تاريخ المملكة العربية السعودية.**

٣ - **بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة.**

٤ - **معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد.**

٥ - **نشأة إمارة آل رشيد.**

٦ - **قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن.**

كما أنه قد حقق بعض الكتب ونشرها، ومن ذلك:

١ - **كيف كان ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب.**

٢ - **نبذة تاريخية عن نجد** أملاها ضاري بن فهيد الرشيد على وديع البستاني.

٣ - **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب.**

وله نشاط بارز في مجال الترجمة من اللغة الإنجليزية ومن ذلك:

١ - **من حديث بوركهارت عن الخيل والإبل العربية.**

٢ - **بعثة إلى نجد** لسانت جون فيلبي.

٣ - **توحيد المملكة** لمحمد بن مانع.

٤ - **مواد لتاريخ الوهابيين** لبوركهارت.

**الجانب الفكري/الوطني.**

من يجالس الدكتور العثيمين ويستمع إلى أحاديثه، أو يتابع قراءة ما يكتبه في بعض مؤلفاته، أو في الصحافة، أو من يقرأ دواوينه الشعرية يجد أنّ الوطن العربي بجميع أقطاره هو همُّهُ الأكبر.

ومن مؤلفاته في هذا الحقل:

١ - **تأمّلات في التاريخ والفكر.**

٢- **أنت يا فيحاء ملهمتي.**

٣- **خواطر حول الوطن والمواطنة.**

٤- **عن الوطن وإليه.**

٥- **قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن.**

٦- **من وحي رحلات إلى خارج الوطن.**

٧- **خواطر حول القضية.**

٨- **كتابات عن التصهين.**

٩- **مقالات عن الهَمِّ العربي.**

١٠- **مقالات عن قضايا عربية.**

١١- **عام من الذل والانخداع.**

١٢- **بيع الأوطان بالمزاد العلني.**

**النتاج الشِّعري للدكتور العثيمين:**

بدأ الدكتور العثيمين نظم الشِّعر في فترة متقدمة من عمره، فقد أورد الشيخ ابن إدريس في ترجمته له قصائد نظم بعضها عندما كان طالبًا في

المعهد العلمي بعنيزة، وقد وصف ابن إدريس الاتجاه الشعري للدكتور العثيمين بقوله:

"شاعر تعتمل في نفسه -من خلال شِعره- عواصف الثورة... الثورة على كثير من أوجه الحياة المسلكية من تجبر وعجرفة تملأ إهاب الأثرياء، وذوي السلطان والجاه المزيفين. وبالجملة فهو من الشعراء الناقمين على المجتمع الذي تقدس فيه الماديات، وتحتقر المثاليات الإنسانية والخلقية، أو يكفر بها، وهو إلى جانب هذه الميزة شاعر صادق الوجدان، سلس التعبير في قوة وعمق واتساق.

وإذا عُدَّ شعراءُ البؤسِ والحرمان في هذه البلاد فإنّ شاعرنا عبدَ الله أحدُ الفرسان المغاوير في هذا الميدان "**شعراء نجد المعاصرون**"، ص١٨٩.

والشيخ ابن إدريس أصدر حكمه هذا بناء على ما كان بين يديه من شِعر الدكتور عبد الله في ذلك الزمن الذي ألّف فيه كتابه عن شعراء نجد المعاصرين، وأظنه لو كان قد اطلع على المجموعات الشعرية التي أصدرها الدكتور عبد الله بعد ذلك لكان له رأي آخر غير ما صرح به.

**دواوينه الشِّعرية:**

للدكتور عبد الله عشرة دواوين شعرية، تسعة منها بالعربية الفصحى وواحد باللهجة النجدية وعنوانه: "**نمونة قصيد**".

والدواوين التي بالفصحى هي:

١- **بوح الشباب**.

٢- **دمشق وقصائد أخرى**.

٣- **صدى البهجة**. يشتمل هذا الديوان على قصائد نظمها في تقديم الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية.

٤- **عرس الشهباء وقصائد أخرى**.

٥- **عودة الغائب**.

٦- **في زفاف العروس**.

٧- **لا تلوموه إذا غضبا**.

٨- **لا تسلني**.

٩- **مشاعر في زمن الوهج**.

ولا يتسع الحيِّزُ المخصص لهذه الورقة لدراسة شِعر الدكتور عبد الله والبحث في خصائصه وجمالياته، ولذلك سأكتفي بإيراد أبيات من عدد من قصائده تمثّل اتجاهات شِعره وفقًا للأغراض التي نظم فيها.

ففي الجانب الوطني نجد له في بداية قوله الشِّعر قصيدةً أوردها الشيخ ابن إدريس وعنوانها (ثورة لبنان، ١٩٥٨م) يقول فيها:

مثلما ينطلق الإعصار مجتاحًا مهيبا
مثلما يقتحم الضرغام فتّاكًا غضوبا
مثلما ينفجر البركان مهتاجًا رهيبا
قذفت ثورة شعب الأرز نارًا ولهيبا
تصطلي من بات للدولار عبدًا وربيا
يا جبال الأرز قد دوت نداءات الجراح

وتعالت كهزيم الرعد صيحات الكفاح
وانبرى الأحرار كالسيل إلى حمل السلاح
يا جبال الأرز ما أنت سوى حقد وثورة
ضد نكس رام أن يلهب فوق الشعب جوره
من رأى في الغرب معبودًا ولن يعبد غيره
وعميل سوف يستأصل هذا الشعب أمره.

وله قصيدة وطنية قديمة أوردها ابن إدريس عنوانها (عيد الوحدة) يتحدّث فيها عن الوحدة بين مصر وسوريا، يقول فيها:

يا روابي الخلد حيي أمّة ... شُغفت بالوحدة الكبرى هياما
أمّةً زَّفت إلى هام العلا ... وحدةً رفت على القطرين عاما
يخفق النصر على آفاقها ... باسِم الثغر طَرُوبا مُستهاما
نفحاتُ (النيل) هزت (بردى) ... فمضى يلقي على النيل الخزامى
والتقى الإخوان من بعد النوى ... ودموعُ البِشر تنهل انسجاما
فغدا الشعبانِ في قطريهما ... دولة تأبى مدى العمر انقساما

"**شعراء نجد المعاصرون**" ص١٩٩.

وفي ديوان العثيمين المعنون: "**لا تسلني**" نجد قصيدة عنوانها (عنيزة والحلم الثاني)، وقد ذكر الدكتور عبد الله أنّ هذه القصيدة جاءت من وحي قصيدة مشهورة للأستاذ الدكتور نذير العظمة نظمها بعد زيارة لمدينة عنيزة وكان عنوانها (عنيزة والحلم) فقال العثيمين:

أيها الشاعر والفيحاء مهوى كل شاعر
قَبَلَ الحسنُ على ساحاتها ثغرَ المفاخر
لُحُنكَ الشاميُّ إذ ناجيتها هزَّ المشاعر
فأجابتك تليدًا يصل المجد بحاضر
ورُبًى يعمرها الإيمانُ طهرًا ومنائر
وأجابتك جَمَالاً حسنه للقلب آسر
لوحة وشحها الفن نخيلاً وبيادر
وأصيلاً فوق موج الرمل سحرِيَّ المناظر
والليالي قمَرٌ في بُردهِ الفتّان ساهر
خطف الغفوة من عينيه إيقاعاتُ سامر
أيها الشاعر أهدِي مقلة الفيحاء زهرة
حلمًا يرقص فيه ألف تسآل وفكرة
وطني من عبق التاريخ يستلهم ذكره
مالك بن الريب في حضن الغضى يكتب شِعره
والرديني لهيب في سبيل الحق ثورة. "**لا تسلني**"، ٣٢-٣٣)

ومن ديوانه المعنون: "**دمشق وقصائد أخرى**" نورد أبياتًا من القصيدة التي سمّى الديوان باسمها، وفيها يقول:

في مهجتي لربوع الشام تحنان        صانت حُميَّاهُ أزمان وأزمان
وأمطرته من التاريخ غادية        فاشتد أصلاً وماست منه أغصان

أتيــت أحملــه حرفًــا تــسطّره     مــشاعر وأحاســيس ووجــدان

وجئت يحملني عبر المدى قبس     معطَّــرٌ بالــشذى الفــواح فتــان

علـى جنـاحين ميمـونين حفّهمـا     من مهبط الـوحي والتنزيل إيمـان

ومن عشيَّات نجدٍ مستطاب صبا     ريــاه شِــيحٌ وقيــصوم وريحــان

أتيت من وطني شوقًا إلى وطني     وأرض يعـرب لـي دُور وأوطـان

وانشق من كبد الصحراء فارسُها     يحــدو فتنقــاد أبطــال وفرســان

ويرفـع الرايـة الخـضرا موحِّـدة     فتستجيب ربـى عطشى ووديـان

وتنتــشي طربًــا نجــدٌ معانقــة     للـساحلين وتبـدي الحـب نجـران

مرابـع رحبـات المسجدين لهـا     تــاج تتيــه بــه فخــرًا وعنــوان

دمـشق يـا ألـق التـاريخ هـا أنـذا     قدمت إذ لوَّحت لـي منك أردان

قـدمت ألـثم مجـدًا شـاده نُجُـبٌ     بهــم تــشرَّفَ مــروان وســفيان

أنـت الحـضارة إشـعاعًا ومنطلقـا     وأنــت منبــتُ أمجــاد وبــستان

وأنـت يـا قلعـة الأحـرار أغنيـة     في ميــسلون لهــا وقــع وألحــان

ومن القـصائد الجميلـة قـصيدة كتبهـا الـدكتور عبـد الله بعـد عودتـه مـن دراسـته في اسـكتلندا إلى بلدتـه عنيـزة سـنة ١٩٧٢م وهـي بعنـوان "**عـودة الغائب**"، وقد جعل منها عنوانًا لأحد دواوينه، وفيها يقول:

طربت. ماذا على المشتاق أن طربا     لَّمـا دنـت لحظـات نحـوهنَّ صـبا؟

أرست على مدرج الأمجاد طائرتي     وموعدي مـع أحلامـي قـد اقتربـا

حيث التي أسَرَتْ قلبي تعانقني وتمسحُ الهمَّ عن عينيَّ والتعبا
كم قد مكثت بعيدًا عن مفاتنها أغالب السهد في سكتلند مغتربا
وكم بعثت أناشيدي لأخبرها أني على العهد طال الوقت أم قربا
لواعج الشوق كم كانت تؤرقني وكامن الوجد كم أذكى دمي لهبا
من كان مثلي بالفيحا تعلّقه فلا غرابة إن عانى ولا عجبا
أحلى العرائس ما من عاشق لمحت عيناه فتنتها إلى لها خطبا
تنام ما بين جالٍ كله شمم وبين كثبان رمل كلهن إبا
وإن تأمّلت أزياء تتيهُ بها رأيت من بينها البَرْحيَّ والعنبا
حبيبتي أنت يا فيحاء ملهمتي ما خَطَّهُ قلمِي شِعرًا وما كتبا
رجعتُ من غربتي كي أستريحَ على رُبا لدى قلبي الْمُضنى أعزُّ رُبا
هنا سمعتُ أهازيجًا مرتّلةً وعشتُ أيامَ أشواقٍ وعهدَ صبا
تُعيد لي صورةَ الهفوف كاملة الناس والشارع المسقوف والعتبا
وصورتي كل يوم حاملاً بيدي إلى العزيزية الكراس والكتبا
ومعهدًا كان لي فيه سنًا أمل وإخوة جمعُوا الأخلاقَ والأدبا
غابوا كما غبت عن أركان مسرحه ومزّقتهم ظروف دبّرت إربا
فواحد ضاع في أعماق وحدته وآخر عن قوافي شِعره رغبا
وثالث حزَّ في نفسي تغيّبه وإن يكن لذرا الأمجاد قد طلبا
ما زلت مثل كثير من أحبّته ليومِ عودتِه المأمول مرتقبا

وفي ديوان "**لا تسلني**" تطالعنا قصيدة عاطفية آسرة نظمها الشاعر فيما يبدو في مدينة إدنبرة، وقد يكون نظمها في المملكة لكن المحرِّضَ على نظمها كان تمثالاً من الحسن رآه الشاعر في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة إدنبرة في إحدى زياراته لها.

عنوان القصيدة: (لا الشوق خَفَّ) وفيها يقول: لا فُضَّ فوه:

لا الشوق خفَّ ولا القلبُ الجريحُ سلا عمَّن تجسد فيها الفنُّ واكتملا

تلك التي سحرها الفتانُ أدهشه وبث في قدميه العجز والشللا

هيفاء تقتل إن ماست وإن لعبت رياضة جعلت مَنْ حولها ثملا

ألهت متيَّمَ بحثٍ عن دراسته وبدَّلت رغبةً في نفسه مللا

حتى غدا باحثًا عمّا يقرِّبه منها ويختلق الأعذارَ والسُّبلا

يؤمّها كل سبتٍ كي يلاعِبَها ما غرَّها مرة سهوًا ولا كسَلا

وما عهدناه ممَّن همّه كرةٌ ولا تدرب "بالفوتبول" أو عملا

لكن من أوقعته في حبائلها قد أوجدت منه في ميدانها بطلا

ولا يلام محبٌّ في تصرفه من يقرأ الأدبَ الماضي يجد مثلا

ما من فتًى غرقتْ في الحب مهجته إلا أطاع لأمر الحب وامتثلا

وزهرة الروض كم أغرى تفتّحها طرفًا فما صدَّ عن رؤياه أو غفلا

ما زال يذكرُ إذ حيّته أنَّ هوى من سحرها لامس الوجدان فاشتعلا

وراح يسأل عنها الخِلَّ فارتسمتْ على محيَّاهُ روحُ الحبِّ قلت: "هلا"

كـلا الـضريرين أردتـه مفاتنهـا فَتَـاهَ في حُسنها الجـذّابِ وانـشغلا
كـلا الـضريرين لا حـظّ يـساعده ولا فؤادٌ عن الجنس اللطيف سلا

ولا يتسع الوقت المحدد لهذه الورقة لإيراد نماذج أخرى من شِعره، ولكن لا يفوتني أن أشير إلى أنّ الدكتور عبد الله، بوصفه شاعرًا، قد قدّم أمسياتٍ شعريةً، أو شارك فيها وذلك في داخل المملكة وفي خارجها.

كما أنّ شِعره قد ظفر بعناية كثير من الدارسين. وممن كتب عنه دراسات جادة الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب الذي ألّف عنه كتابًا مطوّلاً عنوانه: "**عرار نجد، قراءة في شِعر عبد الله العثيمين**"، وقد اشتمل الكتاب على قصائد نادرة لم تنشر في غيره من الكتب أو الدواوين، وقد صدر الكتاب عن المجمع العلمي العراقي.

كما أنّ مِمَّن كتب عن شِعره: الزينو السلوم من مدينة حلب، فقد خصص الفصل الحادي عشر من كتابه "**شعراء تحت الضوء**" للحديث عن شِعر الدكتور عبد الله. وهناك دراسات أخرى غير ما أوردتُه.

رحم الله الأستاذ الدكتور عبد الله العثيمين، وأسكنه فسيح جنّاته.

* أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.
عضو هيئة تحرير مجلة **العرب**.

**أسس اللغة العربية الفصحى، تأليف: أ. د. فالح بن شبيب العجمي، الرياض، كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ٥١٣ صفحة.**

جاءت فكرة هذا الكتاب من خلال نظر الباحث إلى بعض الحقائق التي جعلته يتساءل ويقول: إنّ اللغة ليست صنعة، بل طبع بشر، والنحو ليس طبعًا، بل صنعة متأخرة؛ فكيف يكون المتقدّم تابعًا للمتأخر ونتاجًا له؟

يتفق الجميع على أنّ المتكلم أو الكاتب (مستخدم اللغة) لابد أن يملك الحد الأدنى على الأقل من الطبع اللغوي الذي يجعله يعبّر عمّا في نفسه ويفهم ما يقرأ أو يسمع، ولكنه قد لا يملك من معرفة النحو شيئًا بوصفه صنعة وعلمًا، وهذا يجعل الباحث يتساءل مرة أخرى عند قراءة كتب النحو فيقول: كيف يُقرر في كثير من الأقوال العربية التي تُعدّ مسلّمات، وفي كثير من كتب التراث العربي، أنّ العربي بحاجة إلى النحو (العلم والصنعة) كي يستقيم كلامه؟

وعليه يصل إلى نتيجة وهي أنّ اللغة لا تحكمها قواعد صارمة تلزم المتكلمين باتباعها حرفيًّا، بل هي أُطر عامة ومجالات متعددة متاحة أمام المتكلم يستخدم منها ما شاء، وهدف هذا الكتاب تبيين تلك الأطر أو المجالات.

وقد قسّم العمل إلى ثلاثة أبواب هي:

١. الإطار العام (١-٤٦)

٢. المفردات والمتواليات (٤٧-٢٦٢)

٣. الأساليب العربية (٢٦٣-٥٠٢)

وقد فطن المؤلف إلى أنّ الأساليب اللغوية تتطور مع الزمن، فكانت المادة الاستشهادية في الكتاب متناسبة مع عامل الزمن، فنجده يستشهد بنصوص من القرن الأول الهجري متمثّلة بالقرآن الكريم، ويسير زمنيًّا مرورًا بالكتب التراثية للمبرِّد والجاحظ وغيرهما إلى أن يصل للعصر الحديث مستدلاً بنصوص روائية لغازي القصيبي وغيره من الروائيين المعاصرين، دون اعتبار لفترة الاحتجاج التي وضعها النحاة، وهي تنتهي في منتصف القرن الثاني للهجرة في الحاضرة ومنتصف القرن الرابع في البادية.

ع.ن.م

## إهداءات إلى مكتبة العرب

**أولاً- الكتب:**

- أمّي، عبدالله بن سالم الحميد، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- فلسفة الوداع لدى غازي القصيبي، عبدالله بن سالم الحميد، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- قطر في الذاكرة والوجدان، عبدالله بن سالم الحميد، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- الملك فهد في مرآة الشِّعر العربي، قماشة بنت إبراهيم الحبِّيب، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨٣)، ١٤٣٣هـ.
- نفح العود في أيام الشريف حمود، تأليف عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، تكملة الحسين بن أحمد عاكش، دراسة وتحقيق د. علي بن حسين الصميلي، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨٦)، ١٤٣٣هـ.

**ثانيًا- المجلات:**

- الفرقان، العدد ٧٥٢، ٢٨ محرم ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١٢/٢م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٥، ٢٠ صفر ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١٢/٢٣م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٦، ٢٧ صفر ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١٢/٣٠م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٧، ٥ ربيع الأول ١٤٣٥هـ/٢٠١٤/١/٦م، رئيس التحرير: د. بسّام الشطي.

## النقد العربي القديم من الذوق إلى التعليل

بقلم: أ. عبدالله بن عيني*

**العصر الجاهليّ:**

إنّ الحديثَ عن نشأةِ النّقدِ العربيّ ضَربٌ من التّكرارِ، إذ تعرّضَ لها الدّارسون والنقّادُ منذ القدمِ، وقد استطاعُوا بِحَقٍّ على اخْتِلافاتِهِمْ وتناقُضَاتهمْ أنْ يرْسُمُوا الخُطوطَ العريضَةَ الّتي كَانَ عليها النَّقدُ في بدايَاتِه.

وقد كَانَ الاتفاقُ على أنّ بُذُورَهُ الأولَى قدْ ضاعَتْ ضَيَاعَ الشّعْرِ البِدائيّ "...فبَيْنَ الحُدَاءِ الّذي يُظنُّ أنّهُ نواةُ الشِّعْرِ العَرَبيِّ وبين القَصِيدةِ المُحْكَمَةِ عصرٌ طويلٌ للنقْدِ الأدبيِّ، ألحّ على الشِّعرِ بالإصْلاحِ والتّهْذيبِ حتّى انْتهَى إلى الصّحَةِ وإلى الجوْدةِ والإحْكَامِ... وهذا التّهْذِيبُ هو النّقْدُ الأدَبِيُّ، وإذا كانَتْ طُفولةُ الشّعْرِ العرَبيِّ قد غابَتْ عنّا، فإنّ طُفُولةَ النّقدِ الأدَبيِّ غابَتْ معها، وإذا كُنّا لا نعْرفُ الشّعْرَ العَربيَّ إلاَّ مُتْقنًا مُحْكمًا قُبَيْلَ الإسْلامِ، فإنّنَا لا نَعْرفُ النّقْدَ إلاَّ في ذلك العَهْدِ"[1].

كما أنّ المَنْطقَ لا يقْبلُ أنْ تكُونَ القَصيدةُ الجَاهليَّةُ ناضجةً نُضجَها المَعروفَ دونَ أنْ يُوجّههَا نقْدٌ، وسنّةُ اللهِ في الأشْياءِ التّطوّرُ والتّغيّرُ، والقَصِيدةُ المتقنةُ بدوْرِهَا تَطَوّرت عَنْ مقطوعةٍ رجزيّةٍ، وخلالَ مسيرةِ

التّطورِ هذهِ رعَاهَا النّقدُ دون شكٍّ بالتّهْذيبِ والتّوجيه، وهذا ما أكّدَهُ عبد العزيز عتيق: "وهذا الإِتْقَانِ إنْ دلَّ علَى شيءٍ فإنّما يَدُلُّ على أنَّ الشّعرَ الجاهليَّ قدْ مرَّ في تاريخ تطوّرِهِ بِضُرُوبٍ كثيرةٍ من التّهْذِيبِ، فبيْن طُفولتِهِ ممثّلةً في البيتَيْنِ والثّلاثةِ من الرَّجزِ، إلى القَصيدةِ المُحْكمةِ النّسجِ، مرَّ عصرٌ طويلٌ قامَ فيهِ النّقدُ الأدبيُّ بإِصْلاحِ الشِّعْرِ..."[٢].

إنّ ما وصَلَنَا إذًا من نَقدٍ هو ذلك المُرْتبطُ بالقَصيدةِ النَّاضِجةِ الّتي عُرفتْ في أواخرِ العصرِ الجاهِليِّ، ومن ثَمَّ فالبدايةُ الحقيقيّةُ للنّقد العربيِّ مرتبطةٌ بهذِهِ الفترةِ وهذا ما أكّدَهُ المرحومُ طَهَ إبراهيمُ "في أَوَاخِرِ العَصْرِ الجاهليِّ كَثُرتْ أَسْواقُ العربِ الّتي يجتمِعُ فيها النّاسُ من قبائلَ عِدّةٍ وكَثُرتْ المجالِسُ الأدبيّةُ الّتي يتذاكَرونَ فيها الشّعْرَ، وكَثُر تلاقي الشّعراءِ بأَفنيةِ المُلوكِ في الحيرةِ وغسّانَ، فجَعَلَ بعْضُهم يَنقدُ بعضًا وهذهِ الأحادِيثُ والأحْكامُ والمآخذُ هي نواةُ النُقدِ العَرَبيِّ الأُولى"[٣].

هذِهِ الفترةُ هي الّتِي وصلَتنا أخبارُ نقْدِها، وهي أخبَارٌ قليلةٌ مقارنَةً مع ما كان من نشاطٍ شِعريٍّ، هذا النّشَاطُ الّذي فيه دلالةٌ واضحةٌ على نَشاطِ النّقدِ وازدِهارِه "... غَيْرَ أنّ الملاحظةَ الّتي نَخْرجُ بها من تَنْقِيبِنا عن نَقْدِ هذه المرْحَلةِ هي أنَّ جزءًا قلِيلاً منْهُ هو الّذي وصلنا مع أنَّ كُلَّ الأدِلّةِ تشْهَدُ أنَّ هذِهِ الفترةَ عرفَتْ نشَاطاً نقْدِيًّا في أَمَاكنَ مَشْهورةٍ..."[٤].

وهذا الازْدِهارُ عرفَتْهُ أسواقُ العربِ ومنتدياتُهم ومجالسُهم الأدبيّةُ المختلفةُ، وشاركَتْ فيهِ جميعُ الأطرافِ شعراءُ وأسيادٌ وعامّةٌ، والمتتبّعُ للحرَكَةِ النّقديّةِ في أواخِرِ العصْرِ الجاهِلِيِّ سيقفُ حتماً على هذا[٥]، كما

سيخلُصُ كذلك إلى أنَّ هذا الازدِهَارَ لا يعْنِي النُّضجَ والكمالَ، بلْ إنّ نقْدَ هذهِ المرحلةِ كان بسيطًا ساذجًا، فالأحكامُ النَّقْديَّةُ كانت تُبْنى في الغالبِ على الذّوقِ الفِطريِّ من غيرِ تعليلٍ فـ"النَّقْدُ عندَ العربِ بدأَ تَأثُّريّاً يقفُ عندَ حدِّ التّذَوُّقِ الفطريِّ ولا يتجاوزُ إلى التَّعليلِ، كانَ الواحدُ منْهُم إذا ما اسْتَساغَ بذوقِهِ الفطريِّ قصيدةً أو جزءاً من قَصِيدةٍ أو بيتًا أو حتَّى نصْفَ بيتٍ منها، فما أسرعَ ما يتأثّرُ وينْفَعِل ويندفعُ إلى التّعميمِ في الحكْمِ"[٦].

وهي أحكامٌ عامَّةٌ في الغالب، يسُوقُها السَّامعُ متأثّرًا بما يسمعُ، مدفوعًا إلى ذلك بالانفعالِ الآنيِّ لا غير، شأنُه في ذلك شأْنُ الشَّاعر، الّذي يَرْتجِلُ الشِّعر متأثّرًا ببيئتِه وأحدَاثِها، كاشفًا عن ذاك الانْفِعالِ الآنيّ، الّذي اصْطَرَعَ في خَلجاتِ نَفْسه، وأذْكَى قريحَتَهُ وقد أكد هذا أحد النقّاد"...فالشِّعْرُ كانَ إحساسًا أكثرَ منْه عقلاً، وكانَ النّقْدُ كذلك، فالشّاعِرُ يهتاجُ للحوادِثِ الّتي تقَعُ حوْلَه، فيقُولُ في ذَلك بعاطِفَتِهِ وشُعُورِه، والنّاقدُ يَزِنُ مَا قِيلَ، ويُصْغِي في نَقْدِهِ إلى عواطفِهِ وشُعُورِهِ... وكمَا يَنْفَعِلُ الشّاعِرُ بعَواطِفِهِ فيشْعُرُ، ينْفعلُ النّاقِدُ بحسِّهِ فينْتَقِدُ وكلاهما بِدَائِيٌّ ساذِجٌ"[٧].

وهَذَا مَا ذَهَبَ إليهِ الدّكْتورُ العَاكُوبُ حينَ أكّدَ أنّ النّقدَ الجاهليَّ كانَ جزئيًّا خاضعاً للتّأثّرِ المباشرِ قائلاً: "يَتَّسِمُ التَّفْكِيرُ النَّقْديُّ عنْدَ عربِ الجَاهليَّةِ بالبَسَاطَةِ، وتَسُودُهُ النّظْرَةُ الجزْئِيَّةُ المْنبَعِثَةُ عن التّأثّرِ المُبَاشِرِ بجزْئِيَّةٍ من جُزْئِيَّاتِ الشّعرِ غالبًا..."[٨]، وَقَدْ أشارَ في الوقتِ نفسِهِ إلى أنَّ هذِهِ

الأحكامَ كانتْ متأثّرةً بقُدرَةِ الشّاعرِ علَى الإنشادِ الجيّدِ، لأنّهَا تَلعبُ دوراً كبيراً في تحريكِ الحسِّ، والتَّغطيةِ على الجانبِ العقليّ"[٩]، وهذا الطرْحُ منه فيه تأكيدٌ على أنَّ الانطباعيّةَ هي السّمةُ الغالبةُ على النَّقْدِ الفنّيّ الجاهليّ، فكيفَ كانت هذهِ الانطباعيّةُ؟ ومن مثَّلها؟ وأيُّ مكانٍ احتضنَهَا؟

إنَّ أهمَّ مكانٍ تجلّت فيه الانطباعيّةُ هو سوقُ عكاظَ الّتي لعبت دوراً كبيراً في تهذِيبِ اللُّغةِ ورقيِّ الشّعرِ "فلَمَّا عَظُمَ شأْنُ السّوقِ العُكاظِيَّةِ، وأخَذَ الشّعَرَاءُ يؤُمُّونَها من أطْرَافِ البلادِ يتَنَاشَدُونَ فيهَا ويَتَنَافَسُونَ، كانَ مُعْظَمُ هَمِّهِم انتِقَاءَ الألْفَاظِ الفَصِيحةِ المشْهُورةِ عنْدَ أكْثَرِ القَبائِلِ طَمَعاً بكثْرَةِ المسْتَحْسنِينَ لشِعْرِهِمْ"[١٠].

وقَدْ كانَتْ لها حصَّةُ الأسَدِ من النّقدِ الجاهليِّ، بزعَامةِ نابغةِ بني ذبيانَ الّذِي كَانَتْ تَأْتِيه الشّعراءُ من كلِّ صَوْبٍ وحَدْبٍ[١١]، فيَحْكم لشَاعرٍ دون آخرَ، ويُفَضّل هذا الشِّعْر ويذمُّ ذاك، غيرَ مرتكِنٍ للتَّعليلِ، وقدْ كَانت لَهُ وقائِعُ كثيرةٌ في هذه السّوقِ، لعلّ أشْهَرَهَا وقعةُ الأعْشَى وابنِ ثابِتٍ والخَنْساء، فهذِهِ الأخِيرَةُ أَنْشَدتْه قولها في رثاءِ أخِيهَا صَخْرٍ:

"قَذًى بعَيْنِكَ أمْ بالعَيْنِ عوَارُ

حتّى انتهَتْ إلى قَولِهَا:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ
وإنّ صخْرًا لموْلانَا وسيّدُنَا ... وإِنَّ صَخْرًا إذا نَشْتُو لنَحَّارُ

فقالَ: لَوْلا أنَّ أَبَا بصِيرٍ -يَعْني الأَعْشَى- أنْشَدَنِي قبلك لَقُلْتُ: إنَّك أشْعَرُ النَّاسِ أنت واللهِ أشْعَرُ من كُلّ ذاتِ مَثانةٍ، قالَتْ واللهِ ومِنْ كُلِّ ذي خِصْيتين، فقَالَ حسَّانٌ أنا واللهِ أشْعَرُ منْكَ ومِنْهَا..."[١٢].

وَهُناك وقعةٌ أخْرَى للنَّابغة مع ابنِ ثابِتٍ وقعَتْ في المدينَةِ، أقرَّ فيها الأوَّلُ للثَّانِي بالشَّاعريّةِ قبْلَ أنْ يُنشِدَ، وما إنْ أنشَدَهُ حتَّى قالَ له: أنت أشْعَرُ النّاس[١٣].

هاتانِ الوَقْعَتَانِ فيهما دلالةٌ قاطعَةٌ على أنَّ النَّقدَ الفنّيّ كانَ انطِباعيّاً آنِيًّا، وخاضعًا لظروف إلقاءِ القصيدةِ، فالنَّابغةُ تارةً يفضّل ابنَ ثابتٍ وأُخْرى يفضّل آخرين عَلَيْهِ.

ويَرْوِي صاحبُ المَصُون روايةً حول نَقْدِ النّابِغَةِ اعتبرَهَا الدّكتور عبدُ القادر هَنِّي من النّقدِ المعلّلِ[١٤]، لأنّ النّابغة ذكرَ أسبابَ الاسْتِهْجَانِ "كانَ النَّابِغَةُ الذّبْيَانيُّ تُضربُ له قبّةٌ مِنْ أَدَمٍ بسُوقِ عكَاظَ، فتَأْتِيهِ الشُّعرَاءُ تَعْرِضُ عليهِ أشْعَارَها فَأَتَاهُ الأَعْشَى فأَنْشَدَهُ أوَّل مَنْ أنشدَ ثُمَّ أنْشَدَهُ حسّان:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا
وَلَدْنَا بَنِي العَنْقَاءِ وابْنَي مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنُمَا

قالَ النّابغَةُ: أنت شاعِرٌ ولكِنَّك أَقْلَلْتَ جِفَانَكَ وسُيُوفَكَ وفَخَرتَ بمَنْ وَلَدْتَ ولم تفْخَرْ بمَنْ ولَدَكَ"[١٥].

وهذا النّقدُ من النّابِغَةِ لا يَعْني عِصْمَتَهُ من الخَطَأ في أشعارِهِ، فهو الآخرُ أَخْطَأَ، وتعرَّضَ للنَّقد إذْ كانَ يُقْوِي "...لمْ يُقْوِ أحَدٌ مِن الطَّبَقَةِ الأُولَى ولا مِنْ أَشْبَاهِهِمْ إلاَّ النَّابِغةُ في بَيْتَيْنِ، قوله:

أَمِـــنْ آلِ مَيَّـــةَ رَائِـــحٌ أَوْ مُغْتَـــدِ عَجْـــلاَنَ ذَا زَادٍ وِغَيـــْـرَ مُـــزَوَّدِ
زَعَـم البَـوَارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَـا غَـدًا وَبِـذَاكَ خَبَّرَنَـا الغُـرَابُ الأَسْـوَدُ

...قـالُوا للجَاريـةِ إِذَا صِـرْتِ إلى القَافِيّـة فَرَتِّلـي، فَلَمّـا قَالَـتْ الغُـرَابُ الأَسْودُ... عَلِمَ فانْتَبَهَ فلم يَعُدْ فيه، وقال: قَدِمتُ الحِجَازَ وفِي شِعْري ضعّةٌ ورحَلْتُ عنها وأنا أشْعَرُ النّاسِ"[١٦].

والشّعراءُ لمْ يَكُونوا يَنْتَظِرُونَ سوقَ عُكَاظَ ونَابِغَتَهَا لتَتَهَذّبَ أشْعَارُهم، فهناك مَنْ كانَ ينظمُ القصيدَةَ ويُهذّبها حتَّى تَخرجَ للنَّاس فِي أحْلَى ثوبٍ، فهذا امرُؤُ القيسِ أميرُ الشُّعراء يقولُ فِي ذلك:

أَذُودُ القَـــوافِي عَنِّـــى ذِيَـــادًا ذِيَـــادَ غُـــلاَمٍ جَـــرِيءٍ جِـــرَادَا
فَلَمَّـــــا كَثُـــــرْنَ وَعَنَّيْنَـــــهُ تَخَيَّـــرَ مِـــنْهُنَّ شَـــتَّى جِيَـــادَا
فَـــأَعْزِلُ مُرْجَانَهَـــا جَانِبَـــا وآخُـــذُ مِـنْ دُرِّهَـا المُسْتَجَادَا[١٧]

وبعضُ الشُّعراءِ الجاهليّين ذهَبُوا إلى أبعـدَ مِنْ هـذا، إذْ كـانُوا يَنْظُمـون القـصائِدَ ولا يُخْرجونَهَـا إلى النَّـاسِ إلاّ بعْـدَ سـنةٍ، مُـسَخِّرين هـذه المـدّةَ للتّهـذيبِ والتّنقيح والتّقـويم "كَـانَ الحُطَيْئَـةُ يَقُـولُ: خَيْـرُ الـشِّعْرِ الحَـوْلِيُّ المُحَكَّكُ، أَخَذَ فِي ذَلك بِمَذْهَبِ زُهَيْرٍ وأَوْسٍ وطُفَيْلٍ"[١٨].

**العصر الإسلامي:**

جاء الإسْلاَمُ وشَقّ حُجُب الجهْل والوثنيَّةِ، وبعد أنْ كانَ العربيّ ضالاً يتّبعُ طَرِيقَ الغِوايةِ، أصبَحَ مُسلمًا يَنْعَمُ بسبيل الهدايةِ، فسخّر جُهْدَه لهذا الدّينِ الجديدِ لأنَّه وجودُهُ، ورغم اعتزازِهِ ببيانِه، وتقديسه لشِعْرِهِ، إلاَّ أنّه انصرفَ عنْهُ "النّشَاطُ الأدَبِيُّ فِي هَذَا العصرِ جَعَلَ يَضْعُفُ كَمًّا وكَيْفًا،

وكَانَ مَرَدُّ هذه الظَّاهِرَةِ عِنْدَهُمْ إلى مَا شَغَلَ النَّاسَ وغَمَرَهُمْ ومَلَكَ علَيْهِم أَمْرَهم مِن شَوَاغلِ هـذِهِ الدّولـةِ الجَدِيدَةِ..."[19]، فتَقَلّصَتْ بذَلك الحَركَةُ الأَدَبيَّةُ وانْحَصَرَ الشّعرُ في الحَرْبِ الكلاميَّةِ الدَّائِرةِ بين المُسلِمِ والمُشْرِكِ، وهذا لا يَعْنِي زوَالَ النّقدِ، بَلْ إنَّ هذِهِ الحَرْبَ كانَتْ عاملاً في اسْتِمْراريّتِهِ "...هذِهِ المُنَاقَضَاتُ بَيْنَ مَكَّةَ والمدينَةِ كانَتْ تَدْعُو إلى النَّقْدِ، وإلى الحُكْمِ، وإلى الإِقْرَارِ والإذعَانِ..."[20].

وقدْ ظلَّ النّقدُ في هذه الفترةِ خاضعًا للذّوقِ والآنيَّة في الغَالِبِ، محتفِظًا بالمِيزاتِ الجاهليَّةِ[21]، وخَيْرُ مَنْ مثّله في هذه المرْحلةِ هو أفْصَحُ العربِ محمَّدٌ ﷺ "... وكَان النَّبِيُّ العربيُّ ﷺ أوَّلَ ناقِدٍ في الإِسْلاَمِ"[22]، وبجانبه الخليفةُ عمرُ بنُ الخطَّابِ الّذي كانَتْ له أقوالٌ نقديَّةٌ في الشِّعر[23].

إنَّ الرَّسول ﷺ قد أخضعَ الشِّعر لمعيارِ الصّدْقِ وموافقة الحقِّ، وهذا نزُولاً عند توجيهاتِ القرآن الكريمِ وفي هذا قال: "إِنَّمَا الشِّعْرُ كَلاَمٌ مُؤَلَّفٌ فَمَا وَافَقَ الحَقَّ منْهُ فَهُو حَسَنٌ، وَمَا لمْ يُوافِقِ الحَقَّ مِنْهُ فَلاَ خَيْرَ فِيهِ"[24].

فَخَطَا النّقد الفنّيّ بهذا الطّرْحِ النّبويّ الشّريفِ خطوةً غيرَ مسبوقةٍ، إذ أصبح يخضع للمقْيَاسِ الدّينيِّ الأخلاقيّ "فَلَمَّا كَانَ الإسْلاَمُ اتَّجَهَ النّقْدُ اتّجَاهاً جَدِيداً ووُضِعَ له أوّلُ مِقْيَاسٍ تُقَاسُ به مَعَانِي الشِّعْرِ، بعْدَ أَنْ لم يكُنْ هُنَالكَ مِقياسٌ ثابتٌ مُتَداولٌ يُحْكَمُ بِهِ عَلَيها وكانَ ذلكَ المِقْياسُ هوَ الدّينُ"[25].

وهَذَا لا يَعْنِي أنَّ الرّسول ﷺ خرجَ عن سنّة العرب النّقديَّةِ، فالمواقفُ الّتي رُويت عنه تُشير إلى أنّه لم يَعْمد إلى التّعليلِ قط، إذ كان يَسْتحسن

هذا الشِّعرَ، ويَسْتَهْجِنُ ذاك من غيرِ تعليلٍ، ومّما يُروى عنه موقفُهُ مع نابغة بني جعدة عندما أنشده:

"ولاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لمْ يَكُنْ لَهُ بَـوَادِرُ تَحْمِـي صَـفْوَهُ أَنْ يُكَـدَّرَا
وَلاَ خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لمْ يَكُنْ لَـهُ حَلِـيمٌ إِذَا مـا أَوْرَدَ الأَمْـرَ أَصْـدَرَا

فأُعْجِب الرّسولُ ﷺ بجوْدَةِ شِعْرِه وقال له: لاَ فَضَّ اللّهُ فَاكَ"[٢٦].

أمّا عمرُ بن الخطّابِ، فقد عُرفت عنه مواقفُ نقديّة عدّة وهي بدورِهَا انطباعيَّةٌ تأثّريَّةٌ، خاضِعَةٌ للذّوق الفطريّ جريًا على ما ألفَ العرب، وهو بدوره زكّى معيارَ الصِّدق الّذي نادى به الرّسولُ ﷺ، وهذا عندما سُئِل عن سبب اعتبارِهِ زهيرًا شاعرَ الشّعراء فقال: "كَانَ لاَ يُعَاظِلُ فِي الكَلاَمِ وكانَ لاَ يَتَتَبَّعُ حُوشيَهُ، ولم يَمْدَحْ أحدًا إلاَّ بمَا فِيهِ"[٢٧].

وهذه المقولةُ على انطباعيّتِهَا لا تَخْلُو من بريقِ التّعليل إذ عدّها الكثيرون أوّلَ خطوةٍ في النّقْدِ الموضوعيّ المعلّل، ومِنْ هؤلاء مُصطفى عبدُ الرحمن إبراهيم "وَعَلَى هـذَا فَإِنَّ كَلِمَةَ عمَرَ يُمْكِنُ أنْ تُعدّ أوَّلَ بارقَةٍ في النّقْدِ الأدَبِيِّ، وأوّل أَسَاسٍ للنَّظَرِ في الأَدَبِ نَظْرَةً مَوْضُوعِيَّةً"[٢٨] وأيّده في هذا الحكْمِ طه إبراهيم "وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شيءٍ فإنّنا نَلْحظُ في نَقْدِ عمَرَ ظَاهِرةً جدِيدةً لاَ عَهْدَ لنَا بها مِنْ قَبْلُ، فَهُو حينَ قَدّمَ زُهَيْرًا لم يحْكُمْ بذَلكَ فحسبُ، بَلْ شَرَحَ لنَا سِرّ هذا التَّفْضيلِ، لماذَا يُفَضِّلُ عمرُ زهيرًا ويعدُّهُ أشْعَرَ العربِ؟ لأنّهُ سَهْلُ العِبَارَةِ، لاَ تَعْقِيدَ في تَرَاكيبِهِ ولا حُوشِيَ في أَلْفاظِهِ"[٢٩].

وهـذه الموضـوعيّةُ لم تكـن عَفْويَّـةً بـل دُفِـع إليهـا ابـنُ الخطَّـاب دفعًـا، وطُولب بإعطـاءِ الأسـبابِ الّـتي جعلته يَتبَنَّـى هـذا الطَّرح، فكـان أنْ أتبـعَ نقده التأثّريَّ، حين حكم لزهير بالـشَّاعريَّة بنقدٍ موضـوعيٍّ فيه شـيءٌ مـن التَّعليل والتَّفسير، واضعًا بـذلك أوَّليـاتٍ للنّقـد التَّعليلـيِّ، محدّدًا مقـاييسَ نقديَّةً نالت الحظّ الأوفرَ مـن العنايَـةِ في مَرْحَلَـةِ النّقـد المدوّن وهـي العِبَـارَةُ السَّهْلة واللّفظ المألوف والصِّدْقُ.

وهذا النّقـد الموضـوعيُّ لم يكـن مطلقًـا بَـلْ كـان نـسبيًّا، والغلبـةُ كانـت للنَّقد الانطباعيِّ، لأنّنا نجد عمر ﷺ في مَوْقِفٍ آخرَ يفضّل النّابغة الـذّبيانيَّ ويعتبره أَشْعَرَ العربِ "...يا مَعْشَرَ غطَفَانَ أيُّ شُعرائِكم الّذي يقولُ:

حَلَفْـتُ فَلَـمْ أَتْـرُكْ لنَفْـسِكَ رِيبَـةً وَلَـيْسَ وَرَاءَ اللَّـهِ لِلْمَـرْءِ مَـذْهَبُ

قَالُوا: النَّابغةُ يا أميرَ المؤْمِنِينَ. قَالَ: فأيُّكُمْ الَّذِي يقُولُ:

فَإِنَّـكَ كَاللَّيْـلِ الّذِي هُـوَ مُـدْرِكِي وَإِنْ خِلْـتُ أنَّ الْمُنْتَـأَى عَنْـهُ وَاسِـعُ

قالوا: النَّابغةُ. قالَ: فأيُّكم الّذي يقول:

إلَـى ابـنِ محْـرقٍ أعمَلْـت نَفْـسِي ورَاحلَتِــي وقــدْ هــدَتْ العُيــونُ
أَتَيْتُــكَ عَارِيًــا خَلِقًـــا ثِيَابِـــي عَلَـى خَـوْفٍ تُظَـنُّ بِـهِ الظُّنُـونُ

قالوا: النَّابِغَةُ يا أمير المؤمنين. قال: هذا أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ"[٣٠].

إنَّ القَولَ لا يشيرُ إلى تناقض عمرَ ﷺ مع نفْسِهِ، بلْ كلُّ مـا هُنالـك أنّـه حكَمَ حُكْمًا تأثّريًّا، وهذا لا يعْـني أنَّ حكْمـه هـذا سـاذجٌ، بـل فيه تعليـلٌ ضمنيٌّ لأنَّ السَّامع يملك ذوقًا فنِّيًّا يُمَكّن من تحدِيدِ الخلْفِيَـاتِ النَّقديَّـة دُون تفسيرٍ[٣١]، وهو عَلَى درايةٍ تامَّـةٍ بمـا يَـدُورُ في خَلَـدَ النَّاقـد، وهـذا بعَيْنِـهِ مـا

كانَ عليه وَفْدُ غَطَفَانَ، لذا لم يُستدْرَج الخليفةُ عمرُ إلى التَّعليـل، أمَّا ابـنُ العبَّاس فلا أظنُّ أنَّه كانَ جَاهلاً أو مُنْعَدِمَ الذّوقِ وكلّ مَا في الأمْرِ أنّهُ أرادَ الاطمئْنَانَ، فظهَرَ إلى الواجهَةِ النّقْدُ المعلَّلُ الّذي كانَ سَيَكونُ ضـمْنيًّا لـولا هَذَا التّدخلُ منه.

**العصر الأموي:**

لَقَدْ ظَلّ النّقدُ في هذا العصْرِ مصْطَبغًا بصبغَةِ التَّأثّريَّةِ، والخضوعِ للذّوقِ في إصدار الأحْكَامِ، ولم يَجْنَحْ -في الغالِبِ- إلى التَّعْليل والتَّحْليلِ، ولهذا اعْتَبَـرَ الكـثيرُ مـن النّقّـاد أنّ نَقْـدَ هـذِهِ الفـترةِ هـوَ امتـدَادٌ للنّقـدِ الجـاهليِّ والإسلاميِّ "وكَانَ هذَا النّقْدُ امْتِدَادًا للنّقْدِ الجَاهِليِّ مِنْ حيْثُ اعتمادُهُ -بيْنَ الأُدَباءِ- علَى الذّوْقِ والسَّلِيقةِ وكَانَ يَدُورُ حَوْلَ فُحُولِ الشُّعَراءِ"(٣٢).

وهذَا بعَيْنِهِ مَا ذهبَ إلَيْهِ المَرْحومُ طهَ إبراهيمُ "ويَظَـلُّ النَّقْـدُ نَاشِـئًا يَافِعًـا إلى أَوَاخِرِ القَرْنِ الأوّلِ، يَظَلُّ مَلْحُوظاتٍ يَسيرةً تُعَـزّزُ أَحْيانًـا بـشَيءٍ مـوجَزٍ من المَقَاييسِ الأَدَبيّةِ، وإنّ لَنَا أنْ نقُولَ إنّ العَهْدَ مـن عُثْمـانَ بـنِ عفَّـانَ إلَـى خِلافَةِ مَرْوانَ بنِ الحكمِ لم يُضِفْ شيْئًا جَدِيدًا إلى الشِّعْرِ"(٣٣).

وهذاَ لا يَعْني أنَّ النّقّادَ وقتئذٍ تملّكهم العجْزُ، بلْ إنَّ كُلّ الظُّـروفِ تُـشير إلى أنَّ المجتمَعَ الأمويّ قدْ عرفَ شـيئًا مـن الرُّقـيّ الأدبـيِّ، وهَـذا راجـعٌ إلى اطّلاع المتَّصلِينَ بالأدبِ عَلَى ما سبقَهُمْ وحفظِهِمْ له، فكانت هُناك النّخبـةُ المثقّفةُ الّتي تدارسَتْ الـشّعرَ وهـي ليست في حاجـةٍ إلى تفـسيرِ هـذا الحكـمِ النّقديِّ أو ذاك، لأنّ الخَلْفِيَّةَ النّقديّة معروفةٌ من قِبَل الجميع(٣٤).

إنَّ الانْطِبَاعيّةَ الّتي صحبت النّقدَ في هذا العصرِ لا تعني أنَّهُ كَانَ ساذجًا سائرًا في الطّريق الّذي عَهِدَ السّير فيه، بل على العكس من هذا فَقَدْ عرف شيئًا من الانتعاشِ نتيجة عدّة عوامل[٣٥]، ولعلَّ أهمَّها حكّام بني أميّة الّذين شجّعوا الشّعراءَ، وغذّوا الصّراعَ السّياسيّ الدّائر بين الأحزابِ، وينضَافُ إلى هذا كثْرةُ مجالسِ الشِّعرِ وأسواقِه، وهذان العامِلان وغيرهما هما اللّذان جَعَلاَ أحدَ النقَّادِ يقول "...غَيْرَ أنَّ الحالَ تغيّرَتْ كَثِيرًا في أَوَاخِرِ القَرْنِ الأوّلِ، تَغَيَّرَتْ في أُخْرَيَاتِ أيّامِ فُحُولِ الإسْلامِيّينَ، فارتَقَى النّقْدُ الأدَبِيُّ ارْتِقاءً محْمُودًا، وكثُر الخَوْضُ فيه، وتَعَمَّقَ النَّاسُ في فَهْمِ الأَدَبِ، ووَازَنُوا بَيْنَ شِعْرٍ وشِعْرٍ، وبيْنَ شَاعِرٍ وآخرَ، حَتّى لنسْتَطِيعَ أنْ نَقُولَ: إنَّ عَهْدَ النّقْدِ الصّحِيحِ يَبْتَدِئُ مِنْ ذلك الوَقْتِ، وأنَّ كُلّ ما سَبَقَ لم يَكُنْ غَيْرَ نَوَاةٍ لهُ أو محَاوَلاَتٍ فِيهِ..."[٣٦].

إنَّ أكْثَرَ النّاسِ خوضًا في الشِّعْرِ هم الشّعَراءُ، وقدْ دفعَهُمْ إلى هذا الخُلفاءُ الأَمَويُّون، وكثرةُ المجالِسِ الأدبيَّة[٣٧]، فكانَ الشّاعرُ بذلك مجبرًا على النّقْد، يُبدِي رأيَه في هَذا الشّاعِرِ وذاك، ويَعيب هذا البيْتَ ويستحسنُ تلك القصيدةَ، ومن هؤلاء الفَرَزْدَقُ وجَرِيرٌ والأَخْطَلُ وعمَرُ ابنُ أبي رَبِيعَةَ وكُثَيِّرٌ وذو الرُّمَّةِ.

وقد أوردت كتبُ النّقدِ القديمِ ما كانَ من نَقْدٍ وقتئذٍ، وما يلاحظُ عليه أنَّ أغلبَه نابعٌ من سؤال، إذْ أنَّ الأحكامَ النّقديَّةَ الصّادرة عن هؤلاء الشّعراء كانت ردًّا على استفسار وجِّه لهم، ومن هذا ما أَوْرَدَهُ صاحبُ الموشّح عن جريرٍ حينما سُئل عن شِعْرِ ذي الرّمّة "قِيلَ لجَرِيرٍ: كَيفَ شِعْرُ

ذِي الرُّمَّةِ؟ قالَ: بَعرُ ظِباءٍ ونُقَطُ عَرُوسٍ، فإنّ بَعرَ الظِّباءِ تُوجدُ منْهُ رائحَةُ المِسْكِ أوّلَ شَمِّهِ، فإذَا أَعَدْتَ وجدْتَ بعرًا، وإنَّ نقَطَ العَروسِ تَذْهبُ في أوَّلِ طَهُورٍ"[٣٨].

كما انتقدَ ذا الرُّمّة الفرزدقُ "...قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وقفَ ذو الرُّمّةِ يَنْشُدُ قصيدتَه الّتي يقُولُ فيها:

إِذَا ارْفَضَّ أَطْرَافُ السِّيَاطِ وَهَلَّلَتْ جُـرُومُ المَطَايـَا عَـذَّبَتْهُنَّ صَـيْدَحُ

قَالَ فاجْتمَعَ النّاسُ يَسْمَعُونَ، وذلك بالمِرْبَدِ، فمَرَّ الفَرزدقُ فوَقَفَ يَسْتَمعُ وذُو الرُّمّةِ يَنْظُرُ إليه حتّى فَرَغَ فقَالَ كيْفَ تَسْمعُ يَا أبَا فِراسٍ؟ قالَ: ما أَحْسَنَ ما قُلْتَ، قَالَ: فمَا لي لا أُعَدُّ مع الفُحُولِ؟ قالَ: قَصُر بك عَنْ ذَاك بُكَاؤُكَ في الدِّمَنِ، ونَعْتُكَ أَبْوالَ العِظَاءِ والبَقَرِ، وإِيْثارُك وَصْفَ نَاقَتِك ودَيْمُومَتِكَ"[٣٩].

ولم يقتصرْ النّقدُ على الشّعراءِ، بل نجدُه كذلك عندَ عُلَماء اللُّغةِ والنَّحو الّذين سخّروا جُهودَهم لحمايةِ اللّسانِ العربيِّ من الزَّيغِ، بسببِ دُخُولِ الأعاجمِ في الإسْلام وكان نقْدُهم علميًّا خدمَ الشّعرَ خدمةً جليلةً "فَلأَوّلِ مَرَّةٍ نجِدُ مِنَ النّقْدِ نَوْعًا يُرادُ به العلْمُ، وتُرادُ به خِدْمَةُ الفَنِّ الشِّعْرِيِّ... فَلاَ عَصبيةَ ولا هوًى جائرًا ولا تأثّرًا حاضرًا... نَشَأَ منَ العَرَبِ أَنْفُسِهم، ونشَأَ منَ الموَالِي الّذِينَ يُقِيمُون بَيْنَ العَرَبِ، وذلِكَ هُو سِرُّ وَضْعِ النَّحْوِ..."[٤٠].

قد وَقَفَ هؤلاء النّقادُ بالمرصادِ للزّلّة، وتتبّعوها في الشّعرِ القديم والجديدِ، ومن هؤلاء عيسى بنُ عمرَ الّذي قال: "أَسَاءَ النَّابِغَةُ في قولِهِ يقُولُ:

فَبِـتُّ كَـأَنِّي سَاوَرَتْنِـي ضَـئِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

يقُولُ مَوْضِعها نَاقعًا"[٤١].

وتُضَاف إلى الطّائفتَين السَّابقتَين طائفةٌ أخرَى من النقَّاد، وهي طائفَةُ الرُّواة والأدباء[٤٢]، وقد كانَ لهما باعٌ في رُقيِّ الحركةِ النّقديَّة وقتئذٍ، ومن الرُّواةِ الّذين كانَ لهم هذا الفضلُ خَلَفُ الأحمرُ وقد أشار الجُمَحِيُّ إلى سموِّ درايتِهِ بالشِّعر "...فنَقَلَنا ذَلكَ إلى خَلفِ بنِ حَيَّانَ أبي مُحْرِزٍ، وهُو خَلفُ الأحمَرُ، أجْمَعَ أَصْحَابُنا أنَّهُ كَانَ أفْرَسَ ببَيْتِ شِعْرٍ، وأصْدقَهُ لِسَانًا"[٤٣].

أمّا الأدباءُ فخيرُ مَنْ مثّلهم هو عبدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بنظراته النّقديَّةِ الفاحِصَةِ الَّتي تَنِمُّ عن ذوقٍ رفيعٍ، وحِسٍّ نقدِيٍّ بديعٍ، وقد رُويت عنه مَوَاقِفُ عدَّةٌ تؤكِّد هذا، منها ما ذكره المَرْزَبَانِيّ "...دَخَلَ الأخْطَلُ على عَبدِ المَلك بنِ مروَانَ وعندَهُ الجَحَّافُ بنُ الحكِيمِ السُّلَميُّ، وقدْ كانَ الجحَّافُ اعْتَزَلَ حَرْبَهم تحرُّجًا ولمْ يدْخُلْ في شَيْءٍ منْهَا، فَلَمَّا رآهُ الأخْطَلُ عندَ عَبْدِ الْمَلِكِ قالَ:

أَلاَ أَبْلِغْ الجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثَائِرُ ... بِقَتْلى أُصِيبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرُ

فخَرَجَ الجَحَّافُ مِنْ عنْدِ عبْدِ الملِكِ وهُو يجرُّ مِطْرَفَهُ غَضَبًا، فقالَ عَبْدُ الملِكِ للأَخْطَلِ: مَا أرَاكَ إلاَّ قدْ جَرَرْتَ علَى قَوْمِك شَرًّا ومَضَى الجحَّافُ وأَتَى قَوْمَه... فَشَدَّ عَلَى بني تَغْلِبٍ بالبشْرِ لَيْلاً وهُم غَارُّون آمِنُونَ فقتَلَ منهُمْ مقتَلَةً عَظِيمةً"[٤٤].

إنَّ فعلةَ الحجَّافِ هذهِ هي الشرُّ بعينه الّذي توقَّعَهُ ابنُ مروان وهذا أكبرُ دليلٍ على بصيرته النَّقديَّةِ، ومعرفتِهِ بالشِّعرِ وأهلِه، إذْ أنَّه أكّدَ على أنَّ الأخطلَ قد بلغَ شِعرُهُ الغايةَ إلاَّ أنَّ الغايةَ المطلُوبَةَ فيها ضررٌ.

وخلاصةُ القول إنَّ النَّقدَ الأمويَّ تميّز بجملةٍ من الميزات[٤٥]، إذ كَثُرَ الخائضون فيه على اختلاف طبقاتِهِمْ، وتشعَّبت الأقوالُ فيه نتيجة تعدُّد الأغراض راسمةً

الطَّريق لبعض الأغراض الأخرى، كما أنَّ النقَّادَ الأمويّين التفتُوا إلى بواعثِ الشِّعْر وأثرها، ومالُوا إلى الوضُوح والسهُولة، وتعمّقوا في فَهْمِ النّصوصِ، ضفْ إلى هذا اهتمامَ البعْضِ بالألفاظ والمعاني والأفكار والتَّصويرِ.

**العصر العباسي:**

إنَّ هذاَ العصْر عصرُ تطوّر العَقْلِ العربيّ، إذْ عرفَ ازدهارَ العلومِ بصفةٍ عامَّةٍ، والأدب بصفةٍ خاصَّةٍ، والنّقدُ والأدب وجهان لعملةٍ واحدةٍ، والمنطقُ يؤكّدُ أنَّ الازدهارَ الأدبيّ يصحبُه دومًا الازدهار النّقديُّ، فالأدبُ يصدر والنّقدُ يقوّم، وهذا الازدهارُ لم يأتِ من فراغٍ، بلْ له مسوّغاته ودواعيه[٤٦]، وعلى رأسها التَّنوُّع الثَّقافيُّ الكبير، وعنايةُ الخلفاءِ والأمراء بالشّعراء أكثر من غيرهم.

فكان أن ازدهرت الحركةُ الشّعريَّة وتنوَّعت اتِّجاهاتها، فتمخّضَ عن هذا ما يُعرفُ بالخصومة فهذا يفضِّل ذاك، وذاك يَعيبُ الآخر، ويُضافُ إلى هذا كلّه ما تُرْجِمَ من منطق اليونانين وفلسفتِهِمْ، وما تمخّض عن دراسة الأثرِ القرآنيِّ المعجّز، والّذي أسهمَ في رقيِّ الحركةِ اللغويّة والبيانيّةِ ومن ثَمَّ الشّعريَّة رقيًّا لم تشهَدْهُ أمَّة العرب من قبل.

قد أَجْمَعَ النُّقاد جميعًا على أنّ النّقدَ المنهجيَّ ظهر إلى السّاحة تحديدًا في القرن الثّالث "لم نجِدْ في العَصْرَينِ الجَاهليِّ والإسْلاَميِّ حركَةً نَقْديّةً مُنَظّمةً أو شِبْهَ مُنَظَّمةٍ... وحَتَّى في مَطْلع العَصْرِ العَبَّاسيِّ لمْ تَظْهرْ حَرَكَةٌ نَقْديّةٌ وَاضِحةُ المعَالمِ... ولا نُنْكرُ أنّ بَعضَ عُلَمَاءِ العَرَبيّةِ كالأصْمَعيِّ وأبي عَمْرِو بنِ العلاءِ وأبي عُبَيْدةَ قدْ جاؤُوا ببَعْضِ الأحْكَامِ النَّقديّةِ..."[٤٧].

إنَّ القرنَ الثَّالث إذًا هو الانطلاقةُ الحقيقيَّة للنّقد العربيِّ المؤسَّس، المبنيِّ على النَّظرة العميقةِ؛ ولعلّ أبرز ناقدٍ في هذه الفترة هو ابنُ سلاَّمٍ الجُمَحِيّ (ت.٢٣١). "وإذْ إنّ مُحَمَّدَ بنَ سلاَّمٍ الجمحيِّ نحويٌّ ولغويٌّ وراويةٌ وعالمٌ بالشِّعرِ... وإذْ إنَّهُ أسْبَقُ العُلَمَاءِ إلى التّأْلِيفِ في النَّقْدِ الأدَبِيِّ..."[٤٨]، وقد تبوّأَ هذِهِ المنزلةَ بسبب ما فَطنَ إليه من شُروطٍ نقديّةٍ يجب توافرُها في النّاقدِ[٤٩]، وعلى رأسِها الدُّربةُ الّتي أخضعَ النّقدَ الذّوقيَّ لها، ثُمّ بعدها نبّه إلى ضرورة تحقيقِ النُّصوص، مثيرًا بذلك قضيةَ الانتحالِ، كما حاولَ تفسيرَ بعضِ الظَّواهر الأدبيّة كقلَّة شِعرِ فئةٍ وكثرة شِعْرِ أخرى، هذا إلى جانب تبنِّيهِ قواعدَ في مفاضلتِه للشِّعراءِ وتقسيمهم إلى طبقاتٍ.

ولعلّ أَفْضَلَ كلمةٍ قيلت في حقِّه، واعترفتْ بفضْلِهِ، وسلَّمتْ بتفرُّدِهِ، هي ما قَالهُ الأستاذ أحمد طَهَ أَحْمَد إبراهيم: "...بَلْ لأنَّهُ أوّلُ مَنْ نَظَّمَ البَحْثَ في هذِهِ الأفْكَارِ، وعَرفَ كَيفَ يَعرضُهَا، ويُبَرهِنُ عَليها، ويَسْتَنْبِطُ مِنْهَا حَقائِقَ أدبيّةً في كِتَابِهِ "**طَبَقَاتُ الشُّعَرَاءِ**"، شَارَكَ ابنُ سلاَّم مُعَاصِرِيه في كَثِيرٍ مِنَ الأفْكارِ النَّقْديّةِ ولَكِنّه محَّصَهَا وحَقّقَهَا وأضَافَ إلَيْها، وصَبَغَهَا بِصَبْغةِ البَحْثِ العلميِّ، وسلَكَهَا في كِتَابٍ خَاصٍّ هو خُلاصةُ مَا قِيلَ إلى عَهْدِهِ في أشْعارِ الجاهِليَّةِ والإسْلامِ، فالفَرْقُ بيْنَهُ وبينَ مَنْ عَاصَرَهُ كَثيرٌ، كَثِيرٌ لأنّه زادَ عَلَى مَا قالُوا في النَّقْدِ الفنّيِّ، وفي النّظَراتِ في الأدَبِ، وكَثِيرٌ عَلَى الأخَصِّ لأنّه أوْدَعَ كلَّ المَعَارفِ في النَّقْدِ كتابًا لَعَلَّهُ أسْبَقُ الكُتُبِ في ذلك، أوْدَعَهَا على طَرِيقةِ العُلَماءِ، وفي عُرْفٍ مَنْطِقيّ قَويمٍ، فَهُو بذلِكَ مِنَ الّذين أَفْسَحُوا مَيَادِينَ النَّقدِ، وهو بذَلِكَ أوّلُ المؤَلِّفِينَ فِيهِ"[٥٠].

وهذا لا يَعْنِي أنّ كُلّ النقّاد قَدْ اتَّفقُوا في هذا الحُكْمِ، بل هناك مَنْ عدّ محاولتَهُ هذه ناقصةً ولم تُقَدّم الكثير للنّقدِ ومِنْ هؤلاء الدّكتور مَنْدُورٌ "...إذًا فابنُ سلاّمٍ لم يَتقدّمْ بالنّقدِ الفَنّيِّ إلى الأمَامِ شَيْئًا كَبيرًا وإنْ كانَ قَدْ صَدَرَ في تحقِيقِهِ للنّصُوصِ في مَذْهَبٍ صَحيحٍ"(٥١). وأَيّده في هذا الرّأيِ عبدُ العزيزِ عَتِيقٌ "وعَلَى العمُومِ إنّهُ لم يَتجَاوزْ النّقْدَ الجُزْئيَّ إلَى الحُكْمِ العَامِّ الشَّامِلِ على القَصِيدَةِ كَمَا أَنَّهُ لم يَكُنْ يَتَعَرَّضُ للقِيَمِ الشُّعُوريَّةِ فِيهَا"(٥٢).

ولا أُغالي إذا قُلْتُ إنّ ابنَ قتيبة (ت٢٧٦) هو أبرزُ ناقدٍ في القرْنِ الثَّالثِ للهجرة، إذْ نحا في النّقد منحًى جديدًا لا تعصّبَ فيه للقديم، خاصَّةً وأنّ الحركة الشِّعريَّةَ الجديدةَ قد تمّ لها النُّضجُ "يُمَثِّلُ كِتَابُ ابنِ قُتَيْبَةَ اتّجاهًا جَديدًا في القَرْنِ الثّالِثِ للهِجْرَةِ بعْدَ **طَبَقَاتِ ابنِ سلاَّمٍ**، ذَلِكَ أنّ ابنَ سَلاَّمٍ كَانَ يُمَثِّلُ رَأْيَ العُلَمَاءِ المُتَعَصِّبِينَ للقَديمِ ومَنْهَجَ القُدَمَاءِ في الشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ، ولذلِكَ أَوْقَفَ كِتَابَهُ على شُعَراءِ الجَاهليَّةِ وصَدْرِ الإسْلاَمِ وعَصْرِ بَني أُمَيَّةَ"(٥٣). أمّا ابنُ قُتيبة فلم ينْهجْ هذا النَّهجَ في الشِّعْرِ والشّعراء، إذْ أهمَلَ النّاحيةَ الزّمنيّة ولم يُقِمْ التّفوّقَ في الشّاعريّة على القِدَمِ بل على الجوْدَةِ(٥٤).

وقدْ أشارَ إلى هذا في مُقَدَّمة **الشِّعْرِ والشُّعراء** "...ولا نَظَرْتُ إلى المتَقَدِّمِ مِنْهُمْ بِعَيْنِ الجلاَلَةِ لتَقدُّمِهِ، ولاَ إلى المُتَأَخّرِ مِنْهم بعَيْنِ الاحْتِقارِ لتَأَخُّره، بَلْ نَظَرْتُ بعَيْنِ العَدْلِ إلى الفَرِيقيْنِ، وأَعْطَيْتُ كُلاًّ حقَّهُ، وَوَفَّرْتُ عَلَيْهِ حظَّهُ، وإنِّي رَأَيْتُ مِنْ عُلمائِنَا مَنْ يَستَجيدُ الشِّعرَ السَّخِيفَ لِتَقَدُّمِ قائِلِهِ ويَضَعُهُ في مُتَخَيَّرِه ويَرْذُلُ الشّعرَ الرَّصِينَ ولاَ عَيْبَ له عِنْده إلاَّ أَنَّهُ قِيلَ في

زمَانِهِ أو أنّهُ رأَى قَائِلَهُ، ولم يَقْصُر اللهُ الشِّعْرَ والعِلْمَ والبلاَغَةَ علَى زَمَنٍ دُون زَمَنٍ، ولاَ خَصّ به قَوْمًا دُونَ قَومٍ، بل جَعَلَ ذلِكَ مُشْتَرَكًا مَقْسُومًا بيْنَ عبَادِهِ... فَكُلُّ مَنْ أتَى بحَسَنٍ مِنْ قولٍ أو فِعْلٍ ذَكَرْنَاهُ لَهُ، وأثْنَيْنَا علَيْهِ بِهِ، ولم يَضَعْهُ عِنْدَنَا تَأخُّرُ قائِلِهِ، ولا حَدَاثَةُ سِنِّهِ، كمَا أنَّ الرَّدِيءَ إذا وَرَدَ علَيْنَا للمُتَقَدّم أو الشّرِيفِ لم يَرْفَعْهُ عندَنَا شَرفُ صاحِبِهِ ولا تَقَدّمُهُ"(٥٥).

إنَّ المكانةَ الّتي بلغها ابنُ قُتيبة في النّقد قد نَالَهَا بفضْلِ المنحى العلميِّ الّذي اعْتَمَدَهُ في نقده، إذ استطاعَ أن يُحدِّد بدقّةٍ بعض القضايا النّقديَّة ويُؤصّلَ لها "...وهذَا المنْحَى الخَاصُّ هُو البَحْثُ في الأدَبِ برُوحِ العِلْم، هُو السّيْرُ بالنَّقْدِ الأدَبِيِّ حَتَّى يَكُونَ كالعِلْمِ دِقّةً وتَحْديدًا، هُو تَحْليلُ الشِّعْرِ إلى عَناصِرِهِ، وحَصْرُ حالاَتِ كُلِّ عُنْصُرٍ، هُو تَنْظيمُ مَا عُرِفَ من الآرَاءِ والأفْكَارِ قَديمًا في النّقْدِ، ووضْعُهَا في أُصُولٍ عَامَّةٍ وقواعِدَ عَامَّةٍ يلمسُهَا النّاقِدُ، ويَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهَا"(٥٦).

وقريبٌ من هذا الرَّأي رأيُ الدُّكتور عُثْمَانُ مْوَافِي "...وتُعدُّ مُؤَلّفاتُهُ الغزِيرَةُ الّتي تنَاولَتْ كثِيرًا مِنْ فُروعِ الثَّقافَةِ العَرَبيَّة والإسْلامِيَّةِ وقَضايَا عصْرِهِ ومُجْتَمَعِهِ، إحْدَى ثمَارِ هذِهِ الثَّقافَةِ، كمَا كَانَ لها كَبِيرُ الأثرِ في اتِّجاهِهِ النَّقدِيِّ، نحو التَّنظيرِ وصِيَاغةِ القَضايا النَّقْدِيَّةِ وتَأْصِيلِهَا، وتَحْفلُ مُقدَّمَةُ كتابِهِ "**الشِّعْرُ والشّعَرَاءُ**" بكَثِيرٍ مِنَ القضَايَا النّقْدِيَّةِ الّتي تُشكّلُ في مجْمُوعِهَا أُصُولَ نَظَرِيَّةِ نقْدِ الشِّعْرِ عِنْدَ العَرَبِ"(٥٧).

وقدْ رأَى سيّد قُطب غيرَ هذا، دون أن يقلِّل من فَضْلِه على النّقد "وخَطَا في كِتَابِهِ "**الشِّعْرُ والشّعَرَاءُ**" خَطْوَةً أخْرَى فحَاوَلَ أنْ يضَعَ قَواعِدَ

لنقْدِ الشِّعْرِ... ولَكنَّ فضْلَ ابنِ قُتَيبةَ يَنْحصرُ في أنَّهُ حَاوَل أنْ ينْظُرَ إلى القِيم الـشّعُورِيَّة والقِيَمِ التَّعْبيرِيَّـةِ، وأنْ يَجْعَـلَ لـهَـا في الـنَّفْسِ حِـسَابًا وإنْ يَكُـنْ بطبيعَةِ الحَالِ لم يَخْطُ في هذا الطَّرِيقِ إلاَّ خطْوَةً أوَّلِيَّةً نَرَى فِيها نحنُ اليَوْمَ كثيرًا مِنَ السَّذَاجَةِ والخَطَإ"[٥٨].

والدكتورُ محمَّدٌ مندورٌ هو الآخر غَضّ من قيمةِ ابنِ قتيبة، وعدّ جُلَّ نظراتِهِ النّقديَّةِ ضيّقَةً قاصرةً عن الغاية بسبَبِ تبنِّيه للمنهجِ العقليّ[٥٩]، بلْ ذهب أَبْعَدَ من ذلك، إذْ أقرَّ بأنَّ النّقدَ المنهجيَّ المبنيَّ على التّعْلِيلِ والاستقصاءِ ما وُلِدَ إلاَّ في القرْنِ الرّابعِ الهجريِّ، معتبرًا أنّ ابن قتيبة وسابقَهُ ابنَ سلاَّمٍ مُؤرِّخا أدبٍ لا أكْثَرَ "فاسْتَطَاعَ النّقْدُ أنْ يُصبْح كمَا قُلْنَا نَقْدًا مَنْهَجِيًّا يتَنَاوَلُ النّصُوصَ باسْتِقْصاءٍ، ودِراسَةٍ وإمْعانٍ وتَحْليلٍ وتَعْليلٍ وإنْ ظَلّ الذّوْقُ عَرَبِيًّا، وكَانَ الفَضْلُ في ذَلِكَ لنقّادِ القَرْنِ الرّابعِ، وأمَّا مَنْ سبَقَهُمْ كابْنِ سَلاَّمٍ وابنِ قُتيبةَ فقَدْ كَانُوا مُؤَرِّخِي أَدَبٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ نُقّادًا، وهُم إنْ عَرَضُوا لبَعْضِ المسَائلِ الأدَبِيّةِ والمقَاييسِ العَامّةِ لم يَكُنْ في نَظْرَتِهِمْ اسْتِقْصَاءٌ ولاَ دِرَاسَةٌ للنُّصُوصِ"[٦٠].

وقصرُ النّقدِ المنهجيّ على القرْنِ الرّابعِ الهجريّ رأيٌ قال به كذلك الدُّكتور أحمد الشَّايب، معتبرًا أنَّ نقَّاد هذا القرن قد نضجتْ ملكة الذّوقِ عندهم لكثْرَةِ دراستهم وسِعَةِ اطّلاعهم "فإذَا كَانَ الشِّعْرُ العربِيُّ قد بَلَغَ فيه، -في القرْنِ الرّابِعِ- ذِرْوتَهُ فإنَّ النّقْدَ القَدِيمَ انْتَهَى فيهِ إلى غَايَتِهِ سَواءٌ من جِهَةِ سِعَتِهِ وشُمُولِه أمْ مِنْ جهَةِ عُمقِهِ ودِقَّتِه أو منْ جهَةِ بَرَاءَتِه مِنْ الحُدُودِ الفلْسَفِيَّةِ إلى دَرَجَةٍ واضِحَةٍ وذلك لتَفَرُّدِ النقّادِ الأُدَبَاءِ تَقْرِيبًا بهذَا

الفَنِّ، ونُضْجِ ملكَةِ الذّوْقِ عنْدَهُمْ منْ كثْرَةِ مَا دَرَسُوا، ووازَنُوا وجمَعُوا بيْنَ جَمَالِ الطَّبْعِ لتَضَلُّعِهِمْ في الأَدَبِ القدِيمِ... وكَانَ نقْدُهُمْ مُمْتازًا بالعُمْقِ وسِعَةِ الآفَاقِ وتَحْلِيلِ الظَّواهِرِ الأدَبِيّةِ وإرْجَاعهَا إلَى أُصُولِها الصَّحِيحةِ"(٦١).

إنّ القولَ السَّابق فيه حصرٌ لأهمّ مِيزات النّقدِ في القرن الرّابع الهجريّ، نَقْدٌ لَمْلَمَ شتات المقاييسِ النّقديّة السّابقة، ونظّمها وشقّ طريقًا آخَرَ غير الّذي عُهِدَ، حيث نظَّم العملية الإبداعيَّة تنظيمًا دقيقًا مبنيًّا على التَّعليل، ورسم المقاييس التي يخضع إليها القريضُ، ولا يَستغْني عنها بحال السَّامع الذي بدوره أصْبحَ لا يقتنع إلا بما هو جميلٌ ودقيقٌ ومنطقيٌّ، وهذا بحكم ثقافة العصر العباسي التي بلغت مبلغًا عظيمًا.

**الهوامش:**

* تلمسان- الجزائر.

(١) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ص١٧-١٨.

(٢) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٨٦، ص٢٠.

(٣) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، ص٢٠.

(٤) **دراسات في النقد الأدبي عند العرب**: عبد القادر هنّي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص١٨.

(٥) **ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: عبد العزيز عتيق، ص٢١.

(٦) **في النقد الأدبي**: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٢، ص٢٧٩.

(٧) **النقد الأدبي**: أحمد أمين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرغاية، الجزائر، ١٩٩٢، ص٥٢٣.

(٨) **التّفكير النّقدي عند العرب**: عيسى علي العاكوب، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٧، ص٤٢.

(٩) ينظر **التّفكير النّقدي عند العرب**: ص٤٢.

(١٠) **نظرية الشّعر**: سليمان البستاني، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، ط٣، ١٩٩٦، ج١، ص١١٠.

(١١) ينظر **الموشّح**: المرزباني، جمعية نشر الكتب العربية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٣هـ، ص٦٠ وما بعدها.

(١٢) **الأغاني**: أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق: أحمد الشّنقيطي، مطبعة التّقدّم، مصر، ج٧، ص١٨٧-١٨٨.

(١٣) ينظر **تاريخ النّقد الأدبي عند العرب**: عبد العزيز عتيق، ص٣١-٣٢.

(١٤) ينظر **دراسات في النقد الأدبي عند العرب**: عبد القادر هنيّ، ص٣١.

(١٥) **المصون في الأدب**: أبو أحمد الحسن العسكري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٩٨٤، ص٣-٤. وينظر: **الأغاني**، ج٧، ص١٨٨.

(١٦) **الموشّح**: ص٣٨.

(١٧) **العمدة**: ابن رشيق، ت. محمد محيّ الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ج١، ص٢٠٠.

(١٨) المصدر نفسه: ج١، ص٢٠١.

(١٩) **في تاريخ النّقد والمذاهب الأدبيّة**: محمّد طه الحاجري، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٢، ص٤٧.

(٢٠) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، ص٣١.

(٢١) ينظر **أصول النقد العربي القديم**: عصام قصبجي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، حلب، ١٩٩٦، ص١٣-١٤.

(٢٢) **في الشّعر والنقد**: منيف موسى، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص٤٩.

(٢٣) ينظر **النقد**: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٥، القاهرة، ١٩٥٤، ص٢٩.

(٢٤) **العمدة**: ج١، ص٢٧.

(٢٥) **قدامة بن جعفر والنقد الأدبي**: بدوي طبانة، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ط٣، ١٩٦٩، ص٢٧.

(٢٦) **طبقات فحول الشّعراء**: محمد بن سلام الجمحي، ت. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ج١، ص٣٨.

(٢٧) **العمدة**: ج١، ص٩٨.

(٢٨) **في النّقد الأدبيّ القديم عند العرب**: مصطفى عبد الرّحمن إبراهيم، مكّة للطّباعة، ١٩٩٨، ص٨٠.

(٢٩) **تاريخ النّقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، ص٣٥.

(٣٠) **الأغاني**: ج٩، ص١٦٣.

(٣١) ينظر **دراسات في النقد الأدبي عند العرب**: عبد القادر هنيّ، ص١١٢-١١٣.

(٣٢) **أصول النقد الأدبي**: أحمد الشايب، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٤، ص١١٠.

(٣٣) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، ص٣٧.

(٣٤) ينظر **دراسات في النقد الأدبي عند العرب**: عبد القادر هنيّ، ص١٥٦-١٥٧.

(٣٥) ينظر المرجع نفسه: ص١١٨.

(٣٦) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، ص٣٧-٣٨. وينظر: أصول النقد الأدبي: ص١١٠.

(٣٧) ينظر **دراسات في النقد الأدبي عند العرب**، عبد القادر هنيّ، ص١٣٧.

(٣٨) **الموشح**: ص١٧٢.

(٣٩) **الموشح**: ص١٧٣.

(٤٠) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، ص٥٢.

(٤١) **طبقات فحول الشعراء**: ج١، ص١٦.

(٤٢) ينظر **دراسات في النقد الأدبي عند العرب**: عبد القادر هنّي، ص١٤٧ وما بعدها.

(٤٣) **طبقات فحول الشعراء**: ج١، ص٢٣.

(٤٤) **الموشح**: ص١٣٦-١٣٧.

(٤٥) ينظر **تاريخ النّقد الأدبي عند العرب**: طه إبراهيم، ص١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

(٤٦) **في النقد الأدبي القديم عند العرب**: ص١٢٩ وما بعدها.

(٤٧) **النقد الأدبي في آثار أعلامه**: حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٦، ص١٩١. وينظر: **في النقد الأدبي القديم عند العرب**: ص١٤٣.

(٤٨) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: عبد العزيز عتيق، ص٧٢.

(٤٩) ينظر **النقد المنهجي عند العرب**: محمد مندور، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٨ وما بعدها.

(٥٠) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: عتيق، ص٧٤.

(٥١) **النقد المنهجي عند العرب**: ص٢٢.

(٥٢) **في النقد الأدبي**: ص٢٨١.

(٥٣) **تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري**: محمد زغلول سلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص١٠٩.

(٥٤) ينظر **النقد في آثار أعلامه**: ص١٩٦ وما بعدها.

(٥٥) **الشّعر والشعراء**: ابن قتيبة، مطبعة المعاهد، القاهرة، ط٢، ١٩٣٢، ص٧-٨.

(٥٦) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: طه أحمد إبراهيم، ص١١٧.

(٥٧) **دراسات في النقد العربي**: عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٠، ص٨٥.

(٥٨) **النقد الأدبي الحديث أصوله ومناهجه**: سيد قطب، دار الشّروق، القاهرة، ط٨، ٢٠٠٣، ص١٣٦.

(٥٩) ينظر **النقد المنهجي عند العرب**: ص٣١ وما بعدها.

(٦٠) **النّقد المنهجي عند العرب** ص٤٩.

(٦١) **أصول النّقد الأدبي** ص١١٢.

# الدكتور الجعافرة وتحقيق التراث

بقلم: د. عبدالعزيز بن ناصر المانع*

في كل مرة أحتاج فيها إلى شرح ديوان أبي الطيب المتنبِّي للواحدي أعمد إلى تلك الطبعة الأوروبية التي أخرجها المستشرق دتريصي عام ١٨٦١م.

وعمله في ذلك الشرح عملٌ رائعٌ لا شكَّ فيه إذا ما قيس بمقياس العصر الذي ظهر فيه، فجهد المحقق في قراءة نص شرح هذا الإمام شاهدٌ على إتقانه للتحقيق الذي يقوم به ومقدرته على تحرير النص وضبطه ووضع بعض الأثبات المفيدة له، وسيطرته على اللغة وتمكنه فيها.

غير أنّ مرور أكثر من ١٥٠ عامًا على صدور ذلك التحقيق يجعل إعادة تحقيقه ضرورة ملحّة للأسباب الآتية:

١ - قدّم هذا التحقيق، ولا أقول ندرة وجوده فهو مصوّر متوافرٌ في الأسواق.

٢- اكتشاف مخطوطات كثيرة جدًّا لهذا الشرح، وقد عدَّد الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين ما يقرب من مئة نسخة لهذا الشرح.

٣- أنه تحقيق يحتاج حاجة ماسة إلى وضع أثبات جديدة كثيرة تعين الباحثين وتسهّل عليهم الرجوع إليه رغم ما فيه من أثباتٍ مفيدة.

قلتُ: كل ما فتحت هذا الشرح العظيم تعجبت أن يبقى، مع وجود كل هذه النسخ من مخطوطاته، دون تحقيق جديد يعيده إلى مكانته المتقدمة بين شروح ديوان المتنبِّي.

ولكن هذا العجب كاد أن يزول:

ففي أوائل شهر إبريل من هذا العام هاتفني أستاذنا الدكتور سمير الدروبي، الأستاذ في جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة، وبشّرني بصدور "**ديوان أبي الطيب المتنبِّي بشرح الواحدي**" بتحقيق أستاذين كريمين هما أ.د. أنور أبو سويلم، الأستاذ في جامعة مؤتة، والدكتور ماجد الجعافرة من جامعة اليرموك {؟}، كما أبلغني الدكتور سمير أنّ نسخة من هذه النشرة عنده إهداءً لي من الأستاذ الدكتور أبو سويلم، وهي في طريقها إليَّ، فرعاه الله وجزاه خير الجزاء على هديته.

لا أستطيع -حتى لو أردت- أن أصف سعادتي بهذا الخبر العلمي الذي كنتُ أنتظره منذ زمن ليس بالقصير.

ولعل مما زاد في سعادتي أنّ أحدَ المحققَين وهو الأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم محققٌ يشهد له تاريخه بدقة العمل وإتقانه، ويظهر ذلك جليًّا في تحقيقه "**ديوان الخنساء**" و"**ديوان امرئ القيس**".

أمّا الدكتور ماجد الجعافرة فلا أذكر أني اطلعت على شيء من أعماله العلمية قبل هذا العمل.

لقد وصلني الديوان منذ أيام قادمًا من مكة المكرمة فبادرتُ دون تردد إلى تصفح الديوان فوجدت الآتي من المعلومات الأولية عنه:

- صدر الديوان في خمسة أجزاء.

- صدر عن دار -جليس الزمان- بعمّان.

- الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

- الأجزاء الثلاثة الأولى بتحقيق الأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم مستقلاً.

- الجزآن الرابع والخامس بتحقيق الدكتور ماجد الجعافرة مستقلاً.

- الجزء الأول خصصه الأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم للمقدمة، ووزعه كالآتي:

١- ديوان الواحدي: روايته وشراحه.

٢- الواحدي: حياته.

٣- ديوانه.

٤- الانتحال في شِعره.

٥- مخطوطاته.

٦- تحقيق النص.

٧- صور من النسخ الخطيَّة.

٨- ملحق زيادات الديوان.

ويقع هذا الجزء في ٢٤٥ صفحة من القطع المتوسط، وهي مقدمة وافية غنية.

أمّا الجزآن الثاني والثالث فخصصهما الدكتور أبو سويلم لتحقيق نصف شرح الواحدي وترك النصف الآخر، وربما الفهارس والأثبات، للدكتور الجعافرة مقابل كتابته للمقدمة، وهي قسمة عادلة!

وللحقيقة فإنّ إلفي لتحقيقات أستاذنا الدكتور أنور أبو سويلم جعلني أقرأ في الجزأين اللذين حققهما بنفس مطمئنة، إذ أجد فيهما روح "أبي سويلم" في تحقيق "**ديوان الخنساء**" و"**ديوان امرئ القيس**"؛ روح المحقق المتأنّي المدقق.

لكنني عندما انتقلت إلى الجزأين الأخيرين؛ الرابع والخامس، بتحقيق الدكتور ماجد الجعافرة وجدتُ فرقًا مذهلاً بين العملين لتحقيق ديوان واحد!!

في عمل الدكتور الجعافرة لا أتحفَّظ في القول بأنّ عمله في الجزأين عملٌ لا يصح أن ينشر، فأنت لا تكاد تقرأ صفحة واحدة في الجزأين إلا وتواجهك أخطاءٌ شنيعة في قراءة الشِّعر، وفي قراءة النص وتحريره، وفي تخريج الأشعار، وفي الإحالات.

ولا داعي أن أعدّد مزالقه فهي أكثر من أن تحصى!

وحتى لا أضيع وقتي ووقت القارئ في تتبّع مزالقه في كلا الجزأين، فإني سأدلل على هذا العبث من خلال تناول مقطوعة واحدة عدد أبياتها سبعة أبياتٍ فقط، وهي فاتحة الجزء الخامس حتى لا اتَّهم بالانتقائية، وهذه القصيدة تقع بين الصفحات ٥-٧ من الجزء المذكور.

نعم! ثلاث صفحاتٍ فقط!

أقول وبالله التوفيق:

١. قرأ الدكتور الجعافرة مقدمة القصيدة هكذا:

"وقال وهو يودعه وقد خرج إلى الإقطاع الذي أقطعه إياه"

ثم يجيء في البيت الثاني فيضبطه هكذا:

أسير إلى أقطاعه ...... ...... ...... ...... ...... ...... ...... ......

أيهما الصواب: إقطاع أم أقطاع؟

قلتُ: الصواب "إقطاع" بكسر الهمزة.

٢. ضبط صدر البيت الأول هكذا:

أيـا رامِيًـا يُـصْمَى فُـؤَادَ مَرامِـهِ ...... ...... ...... ...... ...... ......

قلتُ: إذا كان الفعلُ "يُصْمَى" مبنيًّا للمجهول فكيف لم يرتفع المفعول به ليصبح نائبًا للفاعل ويُضْبَطُ "فؤادُ" بالضم؟

قلتُ: وصواب القراءة: "يُصْمِي" بالبناء للمعلوم.

٣. ضبط عجز البيت الأول هكذا:

...... ...... ...... ...... ...... تُرَبَّـى عِـداهُ رِيـشَها لـسهامِهِ

قلتُ: هل عداه "تُرَبَّى" بالبناء للمجهول أيضًا أم أنها "تُرَبِّي"؟

قلتُ: الصواب بالبناء للمعلوم.

العجيب أنّ الدكتور الجعافرة يحيلك في هامشه الأول إلى المصادر التالية: "**الفسر**" ٣:٤١٥، و"**معجز أحمد**" ٣:٤٨٥، و"**ابن الأفليلي**" ٢:٣٢٠، و"**التبيان**" ٤:٣٠.

ولا أظنها تضبط فعلي البيت -"يُصمي" و"ترَبِّي"- إلا بالبناء للمعلوم.

ليته يرجع إليها ويراجع ضبطه.

٤. ص٦: استشهد الواحدي ببيتين للنابغة، ضبط الدكتور الجعافرة صدر البيت الأول هكذا:

وإنَّ تَـلادي إنْ نَظَـرْتُ وشِـكَّتي ...... ...... ...... ...... ...... ......

قلتُ: والصواب: "وإنَّ تِلادي" بكسر التاء.

قلتُ: ورواية الديوان:

وإنَّ تِلادي إنْ ذكرتُ وشِكَّتي ...... ...... ...... ...... ...... ......

٥. ضبط صَدْرَ البيت الثاني من بيتي النابغة هكذا:

حِباؤكَ والعَيْسُ العُتَّاق كأنَّها ...... ...... ...... ...... ...... ......

قلتُ: والصواب: "والعِيسُ" بكسر العين، يعرفها أبسط الناس ثقافةً، وهي البيض من الإبل.

قلتُ: ولا أدري كيف استقام صدر البيت عروضيًّا بهذا الضبط لكلمة "العتاق".

فالكلمة، أولاً، بكسر العين.

وثانيًا: لِمَ شدَّدَ التاء؟ وكيف استقام له بهذا الضبط المعنى إضافة إلى الوزن؟ وقد أحالنا إلى "**ديوان النابغة**" ص١١٩، وفيها: "والعِتَاقُ".

قلتُ: ورواية الديوان لعجز البيت الثاني:

...... ...... ...... ...... ...... هجان المها تُحْدَى عليها الرحائلُ

٦. ص٦: قال الواحدي في السطر الخامس:

«وقد قال أبو نواس: وكل خيرٍ عندنا من عنده».

قال الدكتور الجعافرة معلّقًا على هذا الشطر من البيت في هامشه الثاني: (**التبيان ٤/٢٢٣**).

قلتُ: تخريجٌ عجيب غريب، وذلك لأمرين:

الأول: كيف يخرِّج شطر بيتٍ لأبي نواس على الشرح المنسوب للعكبري؟

ألا يعرف المحقق الكريم أنّ لديوان أبي نواس أربع نشرات؟

- نشرة الغزالي.

- نشرة دار صادر، بيروت.
- النشرة البغدادية للديوان برواية الصولي، تحقيق بهجت الحديثي.
- النشرة الأوروبية بتحقيق فاغنر ورفاقه، وهي في ستة أجزاء.

قد يعذر على عدم الاعتماد على نشرة الغزالي؛ لأنها مختارات قد لا يعثر على البيت الذي أورد الواحدي شطره فيها.

وقد يعذر على عدم الاعتماد على النشرة البيروتية؛ لأنها طبعة تجارية لا يوثق بها.

لكن لا يعذر أبدًا من الإحالة إلى النشرتين البغدادية أو الأوروبية.

قلتُ: وليته أحال على الطبعة البيروتية التجارية، فهي أفضل حالاً وأصحُّ علميًّا من الإحالة إلى "**التبيان**".

والثاني: ما هذا الشطر الذي استشهد به الواحدي؟ أهو صدر بيتٍ أم عجزه؟ ولماذا لم يكمل البيت في الحاشية حتى يكون القارئ والباحث على بيّنة مما يقرآن؟

أهكذا يكون التخريج؟

٧. ضبط الدكتور الجعافرة صدر البيت الرابع من هذه القطعة هكذا:

فتًى يَهِبُّ الإقليمَ بالَمالِ والقُرَى ...... ...... ...... ...... ...... ...... ......

قلتُ: ولا أدري كيف استقام له الوزن العروضي أيضًا بهذا الضبط؟!

قلتُ: والصواب "يَهَبُ" بفتح الهاء وضمة على الباء غير مُشَدَّدة.

ثم: لماذا ضمّ القاف في كلمة "القرى"، والصواب كسرها!

٨. ضبط الفعل "خولته" الوارد في صدر البيت الخامس وفي عجزه، هكذا:

ويجعَـلُ مـا خَوَّلْتُـهُ مـن نوالِـهِ      جـزاءً لمـا خَوَّلْتُـهُ مـن كلامِـهِ

قلتُ: وصحة ضبط البيت في الموضعين: "خُوِّلْتُهُ" بالبناء للمجهول!

٩. ضبط الدكتور الجعافرة عجز البيت السادس هكذا:

...... ...... ...... ...... ...... .....      مُطَالَعَـةَ الـشمس الـذي في لثامِـهِ

قلتُ: وصدر البيت يُعْرِبُ عَجُزَهُ ويصحِّحُ ضبطَهُ، والصواب:

فلا زالتِ الشمسُ التي في سمائِهِ      مُطَالِعَةَ ...... ...... ...... ...... ......

١٠. استشهد الواحدي بشطر بيتٍ للفرزدق يجيء لاحقًا. وقد أحالنا الدكتور الجعافرة على كتاب: "**معجز أحمد**" ٣: ٤٨٨ الهامش.

قلتُ: ويُرَدُّ عليه بما ورد في الردّ على استشهاد الواحدي بشطر بيت أبي نواس أعلاه وتخريج د. الجعافرة له.

إنّ المنهج العلمي يلزمه أن يحيلنا على إحدى نشرات "**ديوان الفرزدق**" ولو حتى التجارية منها. ثم لِمَ لَمْ يذكر صدر البيت؟

١١. قَرَأَ الدكتور الجعافرة شطر بيت الفرزدق المشار إليه أعلاه وضَبَطَهُ هكذا:

لنضا قُمْراها والنجومُ الطوالعُ

قلتُ: ولا أدري كيف استقام له الوزن العروضي أولاً والمعنى ثانيًا!!

قلتُ: وصحة قراءة البيت:

...... ...... ...... ...... ...... ..      لنا قَمَراها والنجومُ الطوالعُ

١٢. استشهد الواحدي بنص لابن جِنِّي قرأه الدكتور الجعافرة مع البيت الشاهد هكذا، وأحالنا على "**الفسر**":

"وقال ابن جِنِّي: أضاف السماء إليه لإشراقها عليه كما قال الآخر:

إذا كوكبُ الخرقاءِ لاحَ بسُحْرَةٍ     سهيلٌ أذاعت غزلها في القرائب

قلتُ: ولعله هنا خطأٌ طباعي في الموضعين.

ولكن لِمَنْ البيت ولِمَ لَمْ يُخَرِّجْهُ لنعرفَ قائله؟ وإذا كان قد بحث عنه ولم يعثر عليه فمن حقه العلمي أن يصرّح بذلك ولا عيب في ذلك ولا مأخذ، وفي هذه الحال يحيلنا -كما فعل- على "**الفسر**".

قلتُ: وصحة قراءة صدر البيت وعجزه:

إذا كوكبُ الخرقاءِ لاحَ بسُحْرَةٍ     ...... ...... ...... ...... في القَرائِبِ

وكوكب الخرقاء: يطلق على نجم سهيل.

ينظر في ذلك المعاجم اللغوية وكتب اللغة، فهو شاهد مشهور كثير التردد في المصادر المعروفة.

١٣. ضبط الدكتور الجعافرة صدر البيت السابع هكذا:

فلا زال يجتازُ البدورُ بوجهه     ...... ...... ...... ...... ...... ...... ...... ......

قلتُ: هل الممدوح المجتاز للبدور؟

أم أنَّ البدورَ تجتاز بوجهه؟

ليته يعيد قراءة البيت ويفهم معناه ليفهم ضبطه!

قلتُ: وصحة ضبطه:

ولا زال تجتازُ البدورُ بوجهِهِ     ...... ...... ...... ...... ...... ...... ...... ......

١٤. لعل القارئ الكريم يلاحظ أني لم أتعرَّض بكلمة واحدة حول قراءة الدكتور الجعافرة لنص شرح الواحدي، وأنّ ما تقدَّم إنما كان لقراءته للأبيات الشعرية.

وبعدُ: فهذه ملاحظات على سبعة أبياتٍ مطبوعة على ثلاث صفحاتٍ لتحقيق جزأين من شرح الواحدي لديوان أبي الطيِّب، يقعان في ما مجموعه ألف ومئة صفحة تقريبًا، وما على القارئ إلا قياس بقية الصفحات زيادة ونقصًا على تحقيق هذه الأبيات السبعة.

وبعدُ أيضًا:

فأضيف إلى ذلك ما يلي:

١- لقد قارنت هذا التحقيق بتحقيق سابقه المستشرق دتريصي عام ١٨٦١م، فوجدت أنّ تحقيق الدكتور الجعافرة هو في الواقع تشويه لتلك الطبعة القديمة، فكل ما لاحَظْتُهُ هنا من ضبطٍ خاطئ هو في أغلبه صوابٌ هناك.

٢- لم أعثر في تحقيق الدكتور الجعافرة على مقارنة واحدة مع نسخ المخطوط المئة أو ما اعتمد عليه منها.

٣- لقد دار بخلدي أنّ العمل العلمي المرافق للتحقيق قد تقاسمه المحققان -كما أسلفتُ-، فالدكتور أنور أبو سويلم سيقوم بكتابة المقدمة -وقد فعل، بل خصص الجزء الأول كاملاً لذلك- ونصيب الدكتور الجعافرة أن يقوم بعمل الأثبات والفهارس والكشافات ليكتمل بذلك العمل ويقدّم للباحثين في صورة تُعينهم عند الحاجة إلى هذا الشرح العظيم الذي يُعدُّ أعظم شروح **ديوان المتنبِّي**.

الواقع أنك لا تجد فهرسًا واحدًا في نهاية هذا الجزء الأخير عدا فهرس قوافي الجزء نفسه.

وبمقارنة ذلك فإنّ نشرة دتريصي عام ١٨٦١م تحتوي على فهارس كافية لخدمة الديوان الصادر عام ١٨٦١م، ومنها:

- فهرس الممدوحين والمذمومين.
- فهرس القوافي في أشعار المتنبِّي.
- فهرس أسماء العلماء والشعراء.
- فهرس الأبيات والشواهد.
- فهرس فروق النسخ.
- ذيل أشعار المتنبِّي التي لا توجد في هذا الديوان.

١- إنّ الدكتور الجعافرة لا يلام في الحقيقة على ما فعل؛ لأنّ ما فعل هو منتهى علمه وأحسن ما عنده:

وما تجود يدٌ إلا بما تجدُ

ولكن اللوم كل اللوم موجَّهٌ إلى الأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم المعروف بدقته في التحقيق وحرصه على تحرير النصوص التي ينشرها:

كيف سمح بنشر هذا الديوان قبل القيام بمراجعة الشرح كله ومقابلته مع الدكتور الجعافرة؟

إذ يُلاحظ بوضوح تامٍّ في الجزأين الأخيرين:

أ. الخطأ الفادح في قراءة شِعر المتنبِّي، رغم توافر الشروح المتعددة المنشورة إضافة إلى الديوان.

ب. ثم إنّ شرح الواحدي للديوان يكاد يخلو من الضبط بما يقارب ٩٥٪ أو أكثر.

ليت الدكتور الجعافرة يعود إلى المقدمة ص١٦٦-١٦٧، حيث عدّد المحققان "الخطوات" التي مرّ بها تحقيقهما، ويرى مدى تطبيقه لكل فقرة من الفقرات المذكورة من ١-٨ على تحقيقه.

هل حقًّا نفَّذ الدكتور الجعافرة ما اتفقا عليه في المقدمة؟

بل لعله يعود ويحقق جزأيه حسب تلك الخطوات المذكورة ليخرج العمل متوافقًا مع عمل الأستاذ الدكتور أبو سويلم.

وأخيرًا لي تحفّظ شديدٌ على اختيار النسخ التي اعتمدت للتحقيق، فمن الظلم الشديد للواحدي -رحمه الله- أن يختار المحققان سبع نسخ من بين مئة نسخة موجودة لهذا الشرح العظيم.

أليس من الممكن أن نجد أصل نسخة المتحف البريطاني التي اعتمداها أصلاً؟

بل أليس من الممكن العثور على نسخة المؤلف نفسه بين ٩٣ نسخة أخرى لم يطَّلِعَا عليها.

بلى.

قال المحققان في المقدمة، ص١٦٨:

"٩- صنعنا فهارس وافية لهذا العمل".

قلتُ: ولم أعثر على هذه الفهارس -كما أسلفتُ- آخر الجزء الخامس. اللهم إلاَّ أن يكون هناك جزءٌ سادسٌ مستقلٌّ لم يصلني مخصصٌ لهذا الغرض.

أو أنّ هذا الجزء لا زال في طور الإعداد.

لست أدري.

والله المستعان.

# الأسعد بن ممّاتي
# أخباره وما تبقّى مِن شِعره

بقلم: د. عبد الحميد محمد بدران*

**مقدمة:**

كثير هـم الـشعراء الـذين اشـتهروا بكتابات معيّنـة، كتـب لها القـدر أن تبقى، وأن يندثر شِعرهم الذي شهدت بوجوده كثير من الروايات المتناثرة في مصادر التاريخ المختلفة، لكن ضياع هـذا الـشِّعر لا يمكـن أن يعـدّ دلـيلاً على ضآلة شِعرهم أو ضـعف شـاعريتهم، وبخاصـة إذا كـان مـا تبقّـى مـن هذا الشِّعر شاهدًا على وجود شاعرية متدفّقة وخيال خصب أصيل.

وقد كان الأسعد بن مماتي أحد الشعراء الذين لم نقف على شِعرهم إلا مـن خـلال مـا تبقـى مـن أخبـارهم في كتـب التراجـم والطبقـات، رغـم مـا أعطاه هذا الشاعر للشِّعر والأدب من جهد وحب، ورغـم تراثـه الـشعري العريض الذي أشار إليه كثير من أصحاب هذه الكتب، وتصريح بعـضهم بالوقوف عليه والنقل منه.

وقد شاء الله أن أُسبق إلى نشر شِعر الأسعد بعمل الأستاذين سعود عبد الجابر، وعبد الرؤوف زهدي (شِعر أسعد بن مماتي) وإن كان جمعي يتقدم زمنا عن جمعهما، ولكني آثرت أن يكون ما أعدّه للنشر دراسة لشعر الأسعد، حيث اكتفى الأستاذان بتعريف موجز بالشاعر فيما لا يتجاوز الصفحات الثلاث على ألا أخلي هذه الدراسة من نقد جمع الأستاذين مع تقديري لجهدهما، ولكنها أقرب إلى المقاربة بين الجمعين بغية تحقيق النفع للتراث ومحبيه.

والأسعد بن مماتي أحد الوزراء الذين كانوا على رأس عديد من الدواوين أيام الدولة الأيوبية كديوان الجيش وديوان المال، ولكن عمله بهذه الدواوين لم يصرفه عن اهتمامه بالشِّعر والأدب، وقد ظهر أثر أدبه جليًّا في مكاتباته النثرية، التي أظهرت براعة أسلوب وحسن نسج، وكان لزامًا على الباحث عن إنصاف الرجل، ورفع التجاهل الذي صادفه بعد هروبه إلى حلب –بفعل التآمر والخديعة– أن يقف على أخباره الحياتية، وبخاصة ما يخص أدبه منها، محاولاً جمع ما تبقّى من شِعره من بطون كتب الأدب والتاريخ والتراجم والطبقات وغيرها من علوم العربية، لعل جمع هذا الشِّعر يسهم في الوقوف على مكانة الشاعر، ويساعد في وضعه في مكانه بين شعراء العربية، وبخاصة بعد اتهام ياقوت الحموي له بانحطاط شِعره، وعدم فائدة مؤلفاته.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يلقي الضوء على أخبار الأسعد بن ممّاتي، ويركز الضوء على شِعره ومحاوره الموضوعية، مع استخلاص أهم

سماته الفنية، مع ذكر الملابسات الحياتية التي صاحبت هذا الشِّعر، والتنبيه على المزالق التي تسبب فيها النسخ أو الرواية، مع تقديم نقد لعمل الأستاذين.

وبعد فحسبنا أننا نريد أن نبعث في تراثنا حياة، كثيرًا ما كان يبعثها التراث فينا بزخمه وعطاءاته، ونحاول أن نسعف المكتبة العربية بما تبقّى من شِعر شعرائها الذين ملأوا طباق الأرض علمًا وأدبًا.

والله من وراء القصد.

## المبحث الأول

## أدب الأسعد بن مماتي

**اسمه ونسبه:**

هو أسعد بن الخطير مهذب بن زكريا أبي المليح بن ممّاتي أبو المكارم المصري الكاتب المعروف بالقاضي الأسعد، ناظر النظار بمصر، وأصله من نصارى أسيوط من قبط مصر، كان آباؤه نصارى وجد أبيه أبو المليح مماتي أحد أعيان الكتاب، كان كاتبًا لبدر الجمالي[1] ينوب عنه بمصر، وأسلم القاضي الخطير ونشأ ابنه الأسعد على الاشتغال بالأدب والكتابة، وسمع بالإسكندرية الحافظ أبا طاهر السلفي وبالقاهرة الفقيه محمد بن يوسف الغزنوي وغيرهما

وكان رجلاً فاضلاً أديبًا، لبيبًا كيِّسًا، حسن الإنشاء مطبوع النظم، وله تصانيف عدة في فنون شتى وخدم في الديار المصرية، إلى أن خاف

مكر الوزير صفي الدين عبد الله بن شكر فانفصل عنها، وقدم حلب وافدًا على الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب، وخدمه فأقبل عليه وقبله ورتّب له معلومًا بحلب أجراه عليه وأحسن بذلك إليه[٢].

وقد قضى الجزء الأول من حياته في عصر الانتقال من الفاطميين للأيوبيين، وورث في بداية الأمر عن أبيه وجدّه (ديوان الجيش) الذي احتفظ به في عهد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤-٥٨٩هـ/١١٦٩-١١٩٣م)، وفي سلطنة ابنه العزيز عماد الدين عثمان (٥٨٩-٥٩٥هـ/١١٩٣-١١٩٨م)، ويظهر مما ورد في رواية ياقوت الحموي أنه أضيف إليه أيضًا (ديوان المال) الذي يعدّ في كل عصر من العصور أهم الدواوين والوزارات، ويلوح أنه ظل محتفظًا بوزارته ودواوينه أيضًا خلال سلطنة المنصور محمد (٥٩٥-٥٩٦ هـ/١١٩٨-١١٩٩م)، وشطر من سلطنة العادل سيف الدين أبي بكر (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م)[٣].

وسبب تسمية جدّه أبي مليح بـ(ممّاتي) بفتح الميمين والثانية منهما مشدّدة وبعد الألِف تاء مثناة من فوقها وهي مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها، أنه وقع -على حدّ تعبير ابن خلكان- في مصر غلاء عظيم، وكان كثير الصدقة والإطعام، وخصوصًا لصغار المسلمين، فكانوا إذا رأوه ناداه كل واحد منهم مماتي فاشتهر به، وقد رثاه أبو طاهر ابن مكنسة المغربي بقوله: {مجزوء الكامل}

طُويـت سمـاء المكرمـا ت وكُـوّرت شمـس المـديح
مـن ذا أؤمـل أو أرجّـي بعـد مـوت أبـي المليـح

وكان أبو الطاهر ابن مكنسة خصيصًا بأبي مليح مماتي جدّ الأسعد المذكور؛ وكان في بستانه المعروف بظاهر مصر، مجاور جامع راشدة الحاكمي، منظرته المعروفة بالنزهة، ولها البئر الموصوف ماؤها بشدة البرد والحلاوة في الصيف، حتى إنّ صاحب قصر الحكمة كان ينفذ من يأخذ من مائها لشربه، وفيها يقول ابن مكنسة من جملة قصيدة يمدحه بها ويصف المنظرة[٤]: {البسيط}

ومن عجائبها البئر التي انفردت    بالقرّ في الحرّ والأمواه تضطرم
كأنما ماؤها في كل هاجرة    ريق الحبيب عقيب الهجر وهي فم

وأمّا المهذب والده، وكان يلقّب بالخطير، فإنه كان كاتب ديوان الجيش بمصر في أواخر أيام المصريين وأول أيام بني أيوب مدة، فقصده الكتاب، وجعلوا له حديثًا عند السلطان، فهم به صلاح الدين يوسف بن أيوب، أو أسد الدين شيركوه، وهو يومئذ المستولي على الديار المصرية، فخاف المهذب، فجمع أولاده ودخل على السلطان، وأسلموا على يده، فقبلهم وأحسن إليهم، وزاد في ولاياتهم، وجب الإسلام ما قبله... وفي هذا يقول ابن الذروي[٥]: {مجزوء الكامل}

لم يسلم الشيخ الخطير    لرغبة في دين أحمد
بل ظن أن محاله    يبقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنه    فدينه فالعود أحمد

وكان جيِّد الشّعر، حسن الصورة، وله شِعر جيّد منه ما رواه ياقوت الحموي بقوله: أنشدنا سعيد بن أبى الكرم، بن هبة الله المصري قال:

أنشدني الخطير أبو سعيد بن مماتي لنفسه، في أبي سعيد بن أبي اليمن النحال وزير العادل، وكان نصرانيًّا وأسلم، وكان أملح الناس وجهًا، أعني ابن النحال[٦].

وشادن لما أتى مقبلاً     سبحت رب العرش باريه
ومذ رأيت النمل في خدِّه     أيقنت أن الشهد في فيه

وأنشدنا سعيد بن أبي الكرم المذكور، قال: أنشدني الخطير أبو سعيد بن مماتي، في ابن النحال أيضًا، وكان يسكن ابن النحال في أول الدرب، وكان في آخر الدرب صبي مثله في الحسن، يعرف بابن زنبور[٧]:

{الطويل}

حوى درب نور الدين كل شمردل     مشددة أوساطهم بالزنانير
بأوله للشهد والنحل منزل     وآخره يا سادتي للزنابير

ولما مات المهذب خلفه ابنه الأسعد على ديوان الجيش وتصدر فيه مدة طويلة، ثم أضيف إليه في الأيام الصلاحية والعزيزية ديوان المال، وهو أجلّ ديوان من دواوين مصر، وتصدر فيه، واختص بصحبة القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، ونفق عليه، وحظي عنده وكرم لديه، فقام بأمره، وأشاع من ذِكره، ونبّه على فضله، وصنّف له عدة تصانيف باسمه، ولم يزل على ذلك إلى أنّ ملك الملك العادل أبو بكر ابن أيوب الديار المصرية، وكان وزيره والمدبّر لدولته الصفي عبيد الله بن علي ابن شكر، وكان بينه وبين الأسعد ذحل قديم أيام رياسته عليه، ووقعت من الأسعد إهانة في حق ابن شكر، فحقدها عليه، إلى أن تمكّن منه، فلمّا

ورد مصر، أحضر الأسعد إليه... وفوّض إليه جميع الدواوين التي كانت باسمه قديمًا، وبقي على ذلك سنة كاملة، ثم عمل له المؤامرات، ووضع عليه المحالات، وأكثر فيه التأويلات، ولم يلتفت إلى أعذاره ولا أعاره طرفًا لاعتذاره، فنكبه نكبة قبيحة، ووجّه عليه أموالاً كثيرة، وطالبه بها، فلم يكن له وجه، لأنه كان عفيفًا ذا مروءة، فأحال عليه الأجناد، فقصدوه وطالبوه، وأكثروا عليه وآذوه، واشتكوه إلى ابن شكر، فحكمهم فيه[٨].

ويبدو أنّ حداثة إسلامه وأهله كانت سببًا في رمي شِعره بالضعف، على النحو الذي يبديه لنا قول المهذب ابن الخيمي يهجوه[٩]: {الخفيف}

وحديث الإسلام واهي الحديث ... باسم الثغر عن ضمير خبيث

لو رأى بعض شِعره سيبويه ... زاده في علامة التأنيث

**مصنّفاته:**

للأسعد بن مماتي تصانيف كثيرة، أوقفنا ياقوت الحموي على كثير منها، ورأى ياقوت أنّ الأسعد إنما كان يقصد بها التأدب، وأنها لم تكن مفيدة إفادة علمية، وإنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبي وأضرابه، فمن ذلك: كتاب "**تلقين التفنّن في الفقه**"، كتاب "**سر الشِّعر**"، كتاب "**علم النثر**"، كتاب "**الشيء بالشيء يذكر**"، وعرضه على القاضي، فسمّاه "**سلاسل الذهب**"، لأخذ بعضه بشعب بعض، كتاب "**تهذيب الأفعال**" لابن ظريف، كتاب "**قرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج**"، كتاب "**الفاشوش في أحكام قراقوش**"، كتاب "**لطائف الذخيرة**" لابن بسّام،

كتاب "**ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار**"، كتاب "**سيرة صلاح الدين يوسف ابن أيوب**"، **كتاب "أخاير الذخائر**"، كتاب "**كرم النجار في حفظ الجار**"، عمله للملك الظاهر لما قدم عليه، كتاب "**ترجمان الجمان**"، كتاب "**مذاهب المواهب**"، كتاب "**باعث الجلد عند حادث الولد**"، كتاب" **الحض على الرضى بالحظ**"، كتاب "**زواهر السدف وجواهر الصدف**"، كتاب "**قرص العتاب**"، كتاب "**درة التاج**"، كتاب "**ميسور النقد**"، كتاب "**المنتحل**"، كتاب "**أعلام النصر**"، كتاب "**خصائص المعرفة في المعميات**"(١٠).

وذكر الحافظ الذهبي وغيره أنه اختصر "**اللمع في النحو**" لابن جِنِّي في ورقة واحدة مجدولة، روى عنه العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ونصر بن أبي الفنون النحوي، وروى لنا عنه شيئًا من شِعره الأوحد محمد بن عبد الله الزبيري الدمشقي وعلي بن محمد التلمساني القاضي ونظم سيرة السلطان صلاح الدين ونظم كتاب "**كليلة ودمنة**"(١١).

وذكر المقريزي أنّ له مصنَّفات منها: "**تلقين اليقين**"، فيه الكلام على حديث بُنِي الإسلام على خمس، وكتاب "**حجة الحق على الخلق**"، في التحذير من سوء عاقبة الظلم، وهو كبير؛ وكان السلطان صلاح الدين يُكثر النظر فيه، وقال فيه القاضي الفاضل: وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدّته، فما رأيت والله كتابًا يكون قبالة باب منه، وإنه والله من أهمّ ما طالعه الملوك وكتاب "**قوانين الدواوين**"، صنّفه للملك العزيز فيما يتعلّق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها، وهو أربعة أجزاء ضخمة، والذي يقع في أيدي الناس جزء من واحد اختصره

منه غير المصنّف، فإنّ ابن مماتي ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر، ومساحة كل ضيعة، وقانون ريها ومتحصلها من عين وغلة[١٢].

وقد أشار الزركلي إلى كتابيه "**قوانين الدواوين**"، و"**الفاشوش في أحكام قراقوش**"، مشيرًا إلى أنّ الكتاب الأخير كان ينسب إلى السيوطي خطأ[١٣].

أمّا ديوانه المفقود فقد أشارت إليه كثير من كتب التراجم، حيث يقول الحافظ ابن كثير وابن العماد الحنبلي والمقريزي: "وله ديوان شِعر"[١٤]، ويقول ابن خلكان: «وله ديوان شِعر رأيته بخط ولده ونقلت منه مقاطيع»[١٥]، ويقول صاحب "**بغية الطلب في تاريخ حلب**": «ومن شِعره ما وجدته في بعض مجموعاتي»[١٦]، كما أشار إلى شِعره بقوله: «وحدث وجمع مجاميع وله شِعر حسن وتقلب في الخدم الديوانية مدة»[١٧].

**وفاته:**

لما خاف الأسعد على نفسه من الوزير صفي الدين بن شكر، هرب من مصر مستخفيًا وقصد مدينة حلب لائذًا بجناب السلطان الملك الظاهر -رحمه الله تعالى- وأقام بها حتى توفي في سلخ جمادى الأولى سنة ست وست مئة يوم الأحد، وعمره اثنتان وستون سنة، رحمه الله تعالى، ودفن في المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ علي الهروي، وكان ابن الهروي هو المتولي تجهيزه ودفنه وكان أول شروعه في بناء تربته رحمهما الله[١٨].

**شِعره وأدبه:**

تدل أخبار الأسعد بن مماتي على أنه كان محبًّا للأدب، شغوفًا بأخباره، يعلي من شأنه في كل مجلس، ويدافع عنه بكل ما أوتي من قوة، حيث يروي ياقوت أنه جرى معه حديث النحويين، وأنّ أحدهم ينفذ عمره فيه، ولا يتجاوز إلى شيء من الأدب -الذي يراد النحو لأجله- من البلاغة وقول الشِّعر، ومعرفة الأخبار والآثار، وتصحيح اللغة، وضبط الأحاديث، فقال الأسعد: هؤلاء مثلهم مثل الذي يعمل الموازين، وليس عنده ما يزن فيه، فيأخذها غيرهم، فيزن فيها الدر النفيس، والجوهر الفاخر، والدنانير الحمر، والجواهر البيض(١٩).

كما تدل أخبار الأسعد على أنه كان صاحب بديهة سريعة وارتجال قوي، حيث يروي ابن ظافر الأزدي عن الفقيه العفيف شجاع العربي قوله: اجتمعت مع الوجيه أبي الحسن بن الذروي، والأديب نشو الملك ابن المنجم، وجعفر القرشي المنبوز بشلعلع عند القاضي الأسعد بن الخطير بن مماتي في بستانه، فمدحته بقطعة لإحسان كان منه إليّ، وكتبتها في ورقة كرم، فحين وقف عليها صنع بديها(٢٠): {الرجز}

أطربنا شِعر العفيف الذي ... قد فاق في النبل وفي الفهم

لو لم يكن يسكرنا شِعره ... ما صاغه في ورق الكرم

كما أنه حضر مرة واعظ من العجم، وكان جميلاً مبدعًا في الحسن، فاجتمع له الناس، فوعظ فظهر منه خلاف ما يؤدِّي إلى الخشوع، فقال الفاضل يا لها من عظة منعظة، وعمل الجماعة في هذا المعنى فقال الأسعد ابن مماتي(٢١): {السريع}

وجاهــل بعــد مــن ضــيفه    لمــا أتــى مــن سَــفِه منــسفه

فقبــل الأرض فجــف الثــرى    فيــا لهــا مــن شــفة منــشفه

ويقول صاحب "**بدائع البدائه**": «وأخبرني القاضي أبو المكارم أسعد ابن الخطير المقدم ذكره، قال: اجتمعت مع الوجيه أبي الحسن علي بن الذروي رضي الله تعالى عنه، ومعنا رجل سيِّء الخُلُق، كثير الضجر والحنق، ذو صدرٍ يضيق عن مثقال الذرة، ويتّسع عنه اتساع الأفق لسم الإبرة، فترافدنا في ذمّه، فقال ابن الذروي:

لو كان سرمك مثل صدرك ضيقةً    طــال اشــتياق حتــاره للفيــشل

فقلت[٢٢]:

ولكنــت أول مــن يقــال بأنــه    بغــــاء إلا أنــــه لم يــــدخل»

ويقول صاحب "**بدائع البدائه**" أيضًا: «وكان {الرشيد أحمد بن الزبير} ينافر في سوق الشِّعر ويسرق المعاني، فقال فيه ابن قادوس:

سـلخت أشـعار الـورى جملـةً    حتـى دعـوك الأسـود الـسالخا»

فأخذ الأسعد الخطير يستحسن هذه القطعة، فقلت {يعني علي بن ظافر} له: كما تقول، إلا أنه لحن في قوله: «الأسود سالخ، وسام أبرص»، فاللحن يقيم الوزن والصواب يكسره، فهو بين خطتي خسف. فأخذ في المشاغبة إلى أن قال: من أين نقلت هذا؟ فقلت أحضر شاهدي عندك الساعة كتاب الحيات من كتاب "**الحيوان**" للجاحظ، فقال: الجاحظ ليس من أهل اللغة، ونقله في هذا الموضع لا يسمع، فقال الأجلّ الفاضل: دع هذا فالصواب معه، وهذا مجمع عليه، ولكن عرفنا كيف

يصنع حتى ينظم المعنى؟ فقلت: يترك هذا الوزن وينظمه في وزن يستقيم عليه الصواب، فقال: انظمه لنا، فقلت ارتجالاً: {الكامل}

وسلخت أشعار البرية كلها      حتى دعيت لذاك أسود سالخا

فقال: «مثلك يقول لذاك، فقلت: حتى دعاك الناس فقال: إنما كنت أريد أن تنظمه أخصر من بيته»[٢٣].

وكان يضرب المثل بالأسعد بن مماتي في اتقاد القريحة، على النحو الذي يبدو في قول أحد المقرظين فيما يرويه ابن حجة الحموي: «ولو رآه أبو نواس لقال هذا الذي نقل الأدب خبرًا وعلم من أين يؤتى ولو عورض به ابن مماتي لطال على قريحته الميتة النحيب، أو ذكر الصابي لقال الذوق السليم ليس لعصرنا من صاب سوى هذا الأديب، ولو أدرك آدابه الحكيم ابن دانيال لعلم أنه ما تخيّل نظيرها في الوهم ولا تصوّر مثلها في الخيال»[٢٤].

كما تدل مكاتباته النثرية على موهبة أدبية جيّدة، وصور شِعرية رائعة، على الرغم من التزام كثير من المحسنات البديعية بها، فمن هذه المكاتبات التي رواها العماد الأصفهاني قوله: «فصلت عنه في أخريات النهار، وقد ظهر في أطراف الجدران لفرق فراق الشمس اصفرار، فلمّا ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق، ولبست المشارق السواد لما تم في المغارب على الشمس من الغرق، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب الثأر كدراهم النثار، وتشابهت زواهرها وإن اختلفت في الأشجان بالأزهار في الأشجار، وتكلّف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكلف، ومرّت به

طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدًا فأعرب عن غدر الخلف بالسلف، وظهر الوجوم في وجوه النجوم، وعيل صبر النسرين فواحد طائرٌ يحوم، وآخر واقع لا يقوم، ولم تزل متلاحقةً متسابقةً لتقفو الأثر وتسمع الخبر، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح، وابتسم ثغر الصباح عن الأقاح، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا، وبرزت الغزالة من أس الكناس طلقة المحيا، وتراءت الوجوه، وزال ما زال بغيبتها من المكروه، وأخذت النجوم بالحظ من الطرب، بمقدار ما قدمته من الحض في الطلب، وانخرطت في سلوك شعاعها نظامًا، وزاد خوفها منها على رجائها فيها فذابت إكبارًا لها وإعظامًا»[٢٥].

ومن صدر مكاتبة قوله: «لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس لا زالت أوامره نافذة، والآمال بكعبة كرمه لائذة، ويده العالية بزمام الزمان آخذة، وكتبه الكرائم لعزائم كتائب الإسلام شاحذة، وحدث من هجره له، وظهر من قلّة احتفاله به، وخاض فيه المعارف من تغيّره عليه، وتناقله الوشاة من أمر صدّه عنه، وتقارضه الشامت من سوء رأيه فيه، ذا زفراتٍ سوام تتضرم، وعبرات هوامٍ تتصرم، وعبارات عن بسط عذره تعثّر بالكلام عيا فيتذمم بالصمت عن أن يتحرر ويتحرم، وأفكارٍ تتنزه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدر حتى يتكرم، فكم تناول القلب جلدهُ فجلده بالقلق لما تجاوز حده وحده، وأجرى من سوابق دموعه عسكرًا فجرى فشقّ خده وخده، وأوجده السبيل إلى أن أبدى صحيفة وجه صبره مسوده، وتمنّى لو كان الموت قبل إخلافه وعده وإخلاقه وده ووده،

حتى جنى ورد ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره، ورفع ناظره بقدومه عليه على كافة أمثاله وأنظاره، فعلم أنّ علم المودة قد رفع، وموصول حبل الجفوة قد قطع، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذًا، واجتمعت فيه أماني النفس فاتخذته دون جميع الملاذ ملاذًا، وتناوله بيد الإجلال، وقصه بيد الإدلال، الذي أَباحَ له الإخلادَ إلى الإحلال، فوجده منظومًا على خطٍّ كالكؤوس المرصّعة، لما لاح مِدَادُه مُدَامًا ونَقْطُه حَبَبًا، وألفاظٍ تبيح للمناظر طلبًا، وتتيح للخواطر طربًا، ومعانٍ ما حلت في ميدان البيان حتى جلت فحسب الأفكار بها حسبًا، وتعريضات لو كان التصريح فضةً لكانت ذهبًا، أو كان شررًا لكانت لهبًا، ومنن ما لاحت سحائبها حتى وكفت، وأياد ما استكفت فواضلها حتى عمت وكفت، فرفع إلى السماء يديه وهي قبلة الدعاء، وعفر في الأرض خديه وهو جهد الضعفاء»(٢٦).

وقد روى القلقشندي بعض الشروط التي شرطها الأسعد فيمن يتولى الكتابة فقال: «قال المهذب بن مماتي في كتابه "**قوانين الدواوين**": ينبغي أن يكون الكاتب أديبًا، حادّ الذهن، قويّ النفس، حاضر الحس، جيِّد الحدس، حلو اللسان، له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية، شريف الأنفة، عظيم النزاهة، كريم الأخلاق، مأمون الغائلة، مؤدّب الخدام»(٢٧).

ويبدو من الشروط السابقة مدى وعي الأسعد بالصفات الواجب توفّرها في الكاتب، حيث ركز فيها على جانب الأدب والبديهة، فليس

غريبًا والحال كذلك أن يقول عنه القفطي «وشِعره ونثره كثير طيّب»[٢٨] وأن يستشهد القفطي بقول العماد الأصبهاني عنه: إنه «ذو الفضل الجليّ، والشِّعر العليّ، والنظم السويّ، والخاطر القويّ، والسحر المانويّ، والرويّ الرويّ، والقافية القافية أثر الحسن، والقريحة المقترحة صورة اليمن، والفكرة المستقيمة على جدد البراعة، والفطنة المستمدة من مدد الصناعة. شابٌ للأدب رابٌّ، وعن الفضل ذابٌّ»[٢٩].

فإذا أضفنا إلى كل ما سبق ما تردّد في كتب التراجم من أنّ الخطير بن مماتي والد الأسعد كان شاعرًا جيِّدًا، حسن الصور، استطعنا أن نقف على شاعرية الأسعد الحقيقية التي لم نستطع أن نحيط بها بسبب ضياع شِعره، وأنه ينحدر من أسرة شاعرة تردنا إلى بيوتات الشِّعر المشهورة، كبيت زهير بن أبي سلمى، وحسّان بن ثابت وجرير ومروان بن أبي حفصة وغيرهم[٣٠]، فقد روى صاحب "**الخريدة**" مجموعة من الأبيات الشعرية الجيِّدة لوالده الخطير، يظهر منها تمكّن الشاعر في بناء صوره ومعالجة تجربته، على النحو الذي يبدو في قوله في وصف الخمر إذا صُبَّت من الإبريق[٣١]: {البسيط}

إذا انبَرَتْ من فم الإبريقِ تحسبها    شهابَ ليلٍ رمى في الكاس شيطانا

وقوله أيضًا[٣٢]: {الكامل}

لم يَبْقَ من جسدي لفرطِ صبابتي    إلا الأَسى وتردُّدُ الأنفاسِ
وأَغَنّ معسولِ الثنايا أَشنبٍ    أَلمى المراشفِ كالقضيب الآسِ
ينَآدُ من هَيَفِ القوامِ كأنه    غصنٌ يجاذبه كثيبُ دهاسِ

لـولا توقـدُ جمـرِ نـارِ خُـدُودِهِ	في نـار وجنتـه حَـسَاهُ حاسـي
مـن خـده وعِــذاره ورُضــابهِ	وردي وريحـاني الجَـنيُّ وكاسـي

وقوله من قصيدة في المدح[٣٣] : { البسيط }

مُرْدِي الكتائبِ بذَّالُ الرغائبِ فَضاحُ	الـسحائبِ بَـرُّ القـولِ والعَمَـلِ
والغافرُ الذنبِ عفـوًا عند قدرتـه	والرائعُ الخطبِ قَسْرًا غيرَ محتفل
إذا طَوَتْ خيلُهُ في السير مرحلةً	طَوَى الردى من عداه مُدَّةَ الأجل
بكل قَرْمٍ يلاقـي المـوت مبتهجًـا	كأنما المـوتُ مـا يرجـو مـن الأمـل
يلـذُّ في السلـم تقبيـلَ اللمـى شـغفًا	لحبِّـهِ في القَنَـا سُـمْرِ القَنَـا الـذُّبُل

## المبحث الثاني
## السمات الفنية لشِعر الأسعد

يشتمل شِعر الأسعد بن مماتي الذي وقفنا عليه في كتب التراجم على مئتين وسبعة وخمسين بيتًا، تضمها سبع قصائد، وسبع وأربعون مقطعة[٣٤]، منها ما هو مكتمل فنيًّا بدليل اكتمال الفكرة ودخول التصريع والتقفية[٣٥] في أوله، ومنها ما نحن على يقين من أنّ يد الضياع قد عبثت به، والملاحظ أنّ قصائد الأسعد الطوال إنما كان ينظمها في مدح الملوك؛ فمن ذلك قصيدته في الملك الناصر التي مطلعها[٣٦] : {مجزوء الكامل}

إن كنــتَ تنكــر مــا أقــولُ	فالــسهدُ يــشهدُ والنحــولُ

فقد بلغ عدد أبياتها أربعة وثلاثين بيتًا، وكذلك قصيدته في الملك المظفّر تقيّ الدين التي مطلعها[٣٧]: {منهوك الرجز}

وافى سحر     طيف سحر

فقد بلغ عدد أبياتها عشرين بيتًا.

وقد دار شِعر الأسعد بن مماتي في محاور متعدّدة منها المدح والغزل والهجاء والوصف، فمن مدائحه ما سلفت الإشارة إليه من مدح الملك الناصر والمظفر، ومن أهاجيه مثلاً مقطّعته التي نظمها في شخص علم الدين بن الحجاج، شريكه في ديوان الجيش، وكان بينهما ما يكون بين المتماثلين في العمل، وفيها يقول[٣٨]: {مجزوء الوافر}

حكى نهرين ما في الأر     ض من يحكيهما أبدا

وكذلك مقطّعته التي نظمها في رافضيٍّ متهم الخلوة ومطلعها[٣٩]: {الخفيف}

اختصرْ واقتصرْ على هُزْئك النا     سَ ولا تدّعي الحِجَى والكتابهْ

ومن غزلياته مثلاً مقطّعته التي نظمها في غلام خياط ومطلعها[٤٠]: {مجزوء الوافر}

وخَيَّاطٍ نظرتُ إليـ     ـه مفتونًا بنظرتِه

وكذلك مقطّعته التي ألمّ فيها بذمّ العذار، ومطلعها[٤١]: {المجتث}

يا عاذلي جلُّ ناري     من خدِّه الجلّنارِي
وريقه كشرابٍ     معتَّقٍ ذي شرارِ
ولحظه فيَّ أَمضى     من الْحِرَابِ الْحِرَارِ

كـالريم ريـمَ لـصيدٍ فـصارَ حِلْـفَ حِـذَارِ

ومـن شِـعره المعتمـد علـى الوصـف والتركيـز علـى الـصورة البـصرية مقطعته التي نظمها في وصف الخليج يوم فتحه بالقاهرة ومطلعها[٤٢]:

{الوافر}

خلـيجٌ كالحـسام لـه صِـقَالٌ ولكـن فيـه للرائـي مَـسَرَّهْ
رأيـت بـه المِـلاحَ تجيـدُ عومًـا كـأنهمُ نجـومٌ في المجـرَّهْ

وكذلك مقطّعته التي نظمها في وصف مخدّة رآها في بيت ابن سناء الملك ومطلعها[٤٣]: {البسيط}

وسـادةٍ لَمَحَـتْ عـيني بـدارهمُ وِسَـادةَ رُقِمَـتْ أَمنًـا مـن الأَرَقِ
حكمُ السرور بها يقضي السكونَ لها كأنهـا عُـوذَةٌ مـن جِنَّـةِ الفلـق
أَحْسِنْ بها روضةً ليس النسيم بها ولا المياهُ سوى الأنفاسِ والعَرَقِ
يحيـا بناظرهـا إنـسانُ ناظرهـا ففـي حـديقتها مَـنٌّ عَلَـى الحـدقِ
لو لم تكن سَرَقَتْ من وجه مالكها محاسنًا ظهـرت، لمْ تُـدْعَ بالـسَّرَقِ

ناهيك عن كثير من المقطّعات التي قالها في وصف الثلج ومنها قوله[٤٤]:

{المجتث}

لمـا رأت عينـي الثلــ ـج سـاقطا كالأقـاحي
وصـار ليـل الثـرى منه أبيـضا كالـصباح
حـسبت ذلـك مـن ذو ب در عقـد الوشـاح

أو مــن حبــاب الحميـا        أو مــن ثغــور المــلاح
فمـا علـى داخـل النــ        ــار بعـد ذا مـن جنـاح

**بنية القصيدة:**

وقد انتهج الأسعد في بعض مطولاته نهج القصيدة الجاهلية، حيث نجده يقدّم للمدح بالحديث عن طيف الحبيبة، على النحو الذي يبدو مثلاً في قصيدته التي كتبها للسديد أبي القاسم، وفيها يقول(٤٥): {الخفيف}

أنـا صـبٌّ بغـادةٍ تـشبه الطـا        ووس إذ كـان حـسنها يتنـوَّع
ذاتُ لفـظ كأنـه ثغرهـا الأشـ        ـنب لـو أنّ دره يتجمـع
لـي مـن عُجْبها رقيـبٌ قريـبٌ        فهـي في كـلِّ حالـةٍ تتمنـع
مَنَعَـتْ طيفهـا الزيـارةَ حتـى        صرتُ من منعها له لستُ أَهجع
واستقلَّتْ دمعي غداةَ استقلّتْ        بجمـالٍ فقلـت لـو كـان ينفـع
هـو مـني دمٌ جـرت معـه العـينُ        فقـالوا دمـعٌ لأنـيَ أجـزع
ثـم وَلّـت سُـقْمًا علـيَّ وولّـت        وفـؤادي ممـا تـصدَّى تـصدَّع
قلت إلا وقفتِ يا شمسُ للصبِّ        فقالـت هيهـاتِ مـا أنـت يوشَـعْ
وغرامـي بهـا كفـضلِ أبـي القـا        ـسـم في كـلِّ سـاعة يتفـرَّع
كـم أرانا الرياضَ في لفظه النثر        فخلنـا دروجـه تتوشـع

وكذلك الحال في قصيدته التي مدح به الملك المظفّر، نجده يستهلّها بحديث عن الطيف، ومنها قوله[٤٦]: {منهوك الرجز}

وافـى سـحر   طيـف سـحر
ثـم نفـر   مـن الخفـر
فـلا خـبر   ولا أثـر
... هـلا اغتفر   لمـا اقتـدر
مثـل عمـر   ابـن الظفـر
نعـم الـوزر   ليـث زأر

**كثرة المحسنات البديعية:**

تكثر المحسنات في شِعر الأسعد بطريقة ملحوظة، حيث كان الأسعد يميل إلى الصنعة في شِعره، وكان مكثرًا من استخدام المحسنات وبخاصة الجناس، على النحو الذي يبدو في المجانسة بين (استقلت) من القِلّة، و(استقلّت) بمعنى انفردت، و(ولّت) بمعنى نصّبت، و(ولت) في قول الشاعر[٤٧]: {الخفيف}

واستقلَّتْ دمعي غداةَ استقلّتْ   بجمالٍ فقلت لو كان ينفع
... ثم وَلَّت سُقْمًا عليَّ وولَّت   وفؤادي مما تصدَّى تصدَّع

وكذلك بين (عائد) بمعنى زائر، و(عائد) بمعنى آيب في قوله[٤٨]:

{الطويل}

مرضت فهلا كنت أول عائدي   وغبت فهلا كنت أول عائد

وكذلك بين كلمة (فما) المكوّنة من الفاء و(ما) النافية، و(فما) المراد به فم الإنسان في قوله في وصف الثلج[٤٩]: {مجزوء الرجز}

خفت فما فتحت من تعاظم الخوف فما

فإن نما صبري وهـ ـو ناقص فإنما

وكل هذا يوحي بخلاف ما توحي به صدر عبارة ابن حجّة الحموي حيث يقول: «كان الأسعد بن مماتي أيضًا ممن لم يجعل الجناس له مذهبًا في نظمه وما أحلى ما قال: {الكامل}

طبع المجنس فيه نوع قيادة أو ما ترى تأليفه للأحرف»

ومن غريب ما يحكى أنّ الشيخ صلاح الدين الصفدي مع تهافته على الجناس والتزامه بما صنّفه في جنسه وأنواعه زاحم ابن مماتي في لفظ بيته ومعناه فقال: {الطويل}

ألا إن من عانى القريض بطبعه يقود فأرسله لمن صد واحتشم

ألم تره إن قال شعرًا مجانسًا يؤلف ما بين الحروف إذا نظم

فانظر كيف أخذ المعنى وغالب الألفاظ، ولم يتمكّن من نظم ذلك إلا في بيتين أتى فيهما بكثرة الحشو مع قلّة الأدب على أهله، فإنّ الأسعد أثبت القيادة لطبع المجنس والشيخ صلاح الدين أثبت الحكم المذكور لمن يعاني نظم الشِّعر"[٥٠].

**أخذ المعاني:**

كان الأسعد مغرمًا أيضًا بأخذ المعاني الطريفة وصياغتها، ومن ذلك قوله في علم الدين بن الحجاج[٥١]: {مجزوء الوافر}

حكى نهرين ما في الأر ... ض مـن يحكيهما أبـدا
حكـى في خلقه ثـورى ... وفي أخلاقـه بـردى

فقد أخذ ابن مماتي معنى بيته هذين من قول بعضهم[٥٢]: {الكامل}

ضاهى ابن بشران مدينة جلق ... فكلاهما يوم الفخار فريد
ألفاظه بردى وصورة خلقه ... ثورى ونقص العقل منه يزيد

وكذلك قوله في غلام خياط[٥٣]: {مجزوء الوافر}

وخَيَّاطٍ نظرتُ إليـ ... ـه مفتونًا بنظرتِه
أسيل الخدِّ أَحمره ... بقلبي ما بوجنته
وقد أمسيتُ ذا سَقَم ... كأني خيط إبرته
وأحسدُ منه ذاك الخيـ ... ـطَ فازَ بريِّ رِيقتهِ

قال {يعني ابن مماتي}: هذا البيت الأخير للسديد أبي القاسم الكاتب[٥٤].

ومن ذلك قوله مضمنًا: {الطويل}

نديمِيَ لا تَهْزَأْ بِشَمُولةٍ فإن ... بدَا لك منها بَهْجَةٌ وشَمائِلُ
وراقَك منها رِقَّةٌ في قَوامِها ... ولاحَتْ كشمسٍ أضْعَفَتْها الأصائِلُ
فلا تغْتَرِرْ منها بِلينٍ فإنها ... (دُوَيْهِيَة تصْفَرُّ منها الأنامِلُ)

فالشطر الأخير من قصيدة لبيد التي أولها[٥٥]: {الطويل}

ألا كلُّ شيءٍ ما خلاَ اللهَ باطلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا محالَة زائِلُ
وكلُّ أُناسٍ سوْفَ تدخلُ بْينَهم ... دُوَيْهِيَة تصْفَرُّ منها الأنامِلُ

ورغم هيام الأسعد بالأخذ من معاني الغير، فقد أبدع كثيرًا من المعاني الجيّدة، ومن ذلك قوله على لسان إنسان في حاسد أعان عليه ثم توجع له[٥٦]: {الخفيف}

لا تُصغِ للحسود في ندبه النعـ ـمةَ مع كَوْنِهِ العجولَ إليها
فهو مثلُ السحابِ إذ يسترُ الشمـ ـسَ عن العينِ ثم يبكي عليها

وهو قريب من منهج أبي تمّام في استخراج معانيه، والجديد في الصورة هو ملاحظتها حركة السحاب والشمس، ومراوغة السحاب في ستر الشمس، ثم بكاؤه عند البحث عنها، وليس ملاحظة حركة السحاب والأرض، كما في قول ابن مطير الأسدي: {الخفيف}

كلّ يومٍ بأقحوانٍ جديدٍ تضحك الأرض من بكاء السّماء

وروي عن أبي العباس المبرِّد أنه قال: أخذ ابن مطير قوله: تضحك الأرض من بكاء السماء من قول دكين الراجز: {الرجز}

جنّ النّبات في ذراها وزكا
ضحك المزن به حتّى بكى[٥٧]

ومن المعاني الجيِّدة أيضًا قول الأسعد على البديهة[٥٨]: {البسيط}

لو أطلق الدمعَ مشتاقٌ ومدَّكِرُ لمن يحب لأَشْفَيْنَا على الغرَقِ
لكنما هذه الخلجانُ مُتْأَقَةٌ لأنها رَشْحُ ما يَعْصِي من الْحدَقِ

ومن معانيه الجيِّدة أيضًا قوله في قصيدة لامية عملها السديد[٥٩]:

{السريع}

تبكي قوافي الشِّعر لاميةً بَيَّضْتَهَا من حيث سَوَّدْتَهَا

لمـا عـلا وسـواسُ ألفاظهـا ظننتَهـا جُنَّـتْ فقيـدْتَهَا

وهذا معنى جيِّد، رغم اعتماده على المحسن البديعي، لأنّ التورية في قوله (فقيّدتُها) قد أتت عفوًا، ورشّح لها الشطر الأول، الذي أوحى بمعنى الحبس، من خلال وصفها بالوسواس والجنون، رغم أنّ الشاعر يقصد التقييد بمعنى الكتابة، من شدة إعجابه بالقصيدة وجرس حروفها.

وقد أحسن الشاعر استغلال الصورة البصرية في معنى الهجاء في قوله(٦٠): {البسيط}

أراكـمُ كحبـاب الكـأسِ منتظمًـا فما أرى جمعكـمْ إِلا على قَدَح

ومن المعاني الجيّدة التي قصر فيها قوله(٦١): {البسيط}

ما صرت أَجسرُ أن أبكي لفرقتهمْ لأنهـم زعمـوا أنّ البكـا فَـرَح

فالمعنى مطروق قبل الأسعد بن مماتي، يقول السهيلي، تعليقًا على قول السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما كنت أرى أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي من الفرح»، قالت ذلك لصغر سنِّها، وأنها لم تكن علمت بذلك، وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى فأخذته استحسانًا، فقال الطائي يصف السحاب(٦٢):

دهم إذا وكفت في روضة طفقت عيـون أزهارهـا تبكـي مـن الفـرح

وذكر لأبي الطيِّب وزاد على هذا المعنى(٦٣):

فـلا تنكـرن لهـا صـرعة فمـن فـرح الـنفس مـا يقتـل

وقال بعض المحدثين:

ورد الكتـاب مـن الحبيـب بأنـه سـيزورني فاسـتعبرت أجفـاني

غلب السرور عليّ حتى إنه ... من فرط ما قد سرّني أبكاني

يا عين صار الدمع عندك عادة ... تبكين في فرح وفي أحزان[٦٤]

وهؤلاء الشعراء -ومعهم الأسعد بن مماتي- قد تعرّضوا لصورة اجتماع البكاء مع الفرح، مع اختلاف الغرض في القصائد، لأنّ الطائي أحبّ أن يخلع على الطبيعة صفة الآدمية، بما أنّ ماء المطر ينزل من عيون الأزهار في الروضة، ومن ثم فرحت بتلك السحابة التي لاحت في الأفق، وأمّا قول المحدث فرغم تقصيره عن تصوير الطائي، إلا أنّ صدق العاطفة يفرض نفسه في الأبيات، وهو صدق يشعر به كل من يقف على البيت الأخير فيخاطب عينه متعجبًا من حالها الذي أصبح يستوي فيه الحزن والفرح، وأمّا المتنبِّي ففي مقام المدح يحاول أن يستغل المعنى في إيلاف ما لم يؤلف، لأنّ سيف الدولة قد ضرب خيمة عظيمة له بميا فارقين فهبّت ريح شديدة فوقعت الخيمة وتكلّم الناس، واستطاع المتنبِّي أن يقنع الجمهور بأنّ الفرح قد يقتل إذا بلغ الغاية كما حدث للخيمة[٦٥]. أمّا الأسعد بن مماتي فقد نسب هذا المعنى إلى الزعم، وكأنه لا ينتظر وجوده.

**تكرار المعاني:**

تجدر الإشارة إلى أنّ معاني الأسعد كثيرًا ما كانت تتردد في شِعره ونثره على السواء، يدل على ذلك قوله في إحدى مكاتباته: «ولم تزل متلاحقةً متسابقةً لتقفو الأثر وتسمع الخبر، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح،

وابتسم ثغر الصباح عن الأقاح، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا»[٦٦]، فهذا المعنى قد تردّد في قوله في وصف الثلج[٦٧]: {المجتث}

لما رأت عيني الثلـ ـج ساقطًا كالأقاحي
وصار ليل الثرى منه أبيضا كالصباح
حسبت ذلك من ذو ب در عقد الوشاح
أو من حباب الحميا أو من ثغور الملاح

وقوله: «وأوجده السبيل إلى أن أبدى صحيفة وجه صبره مسودة، وتمنّى لو كان الموت قبل إخلافه وعده وإخلاقه وده ووده، حتى جنى ورد ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره، ورفع ناظره بقدومه عليه على كافة أمثاله وأنظاره»[٦٨]، وهذا القول يتردد في قوله في مدح الأجلّ الفاضل من قصيدة[٦٩]: {الخفيف}

من غدا الدهرُ باسمه باسمَ الزهرِ ضحوكًا به بهارُ نهاره
لم يطفنا من بِرِّهِ وردَ وعدٍ لم يَشِنْهُ انتظامُ شوكِ انتظاره

وأرى أنّ التكلف ظاهر في البيت الثاني، وبخاصة مع غرابة ذكر كلمة (ورد) مضافة إلى الوعد في الشطر الأول، ثم الخضوع لإغراءات صورة الورد بذكر الشوك بعد ذلك مضافًا إلى انتظار تحقيق الوعد.

**تداخل شِعره في شِعر غيره:**

وقد تداخل شِعر الأسعد في شِعر غيره، نتيجة لاعتبارات متعددة، تأتي المعاصرة على رأسها، فقد حدث تداخل بينه وبين ابن سناء الملك نتيجة صداقتهما في أبيات جاء فيها: {الرجز}

سمــراء قــد أزرت بكــل أسمــر		بلونهــــا ولينهــــا وقـــــدها

أنفاســـها دخـــان نـــد خالهـــا		وريقهـــا مـــن مـــاء ورد خـــدها

لـــو كتـــب البـــدر إلى خـــدمتها		ملطفــــا ترجمــــه بعبــــــدها

وقد نسبها ابن خلّكان للأسعد بن مماتي، ونسبها المحبي لابن سناء الملك، ومما يرجّح أنها للأسعد قول ابن خلكان: «وجدت منسوبًا إلى ابن سناء الملك، والصحيح أنها لأسعد بن مماتي»(٧٠)، وليس بعيدًا عنّا ما قاله الأسعد في وصف مخدّة ابن سناء الملك.

كما حدث تداخل بينه وبين الحافظ أبي الخطّاب دحية، على النحو الذي يبديه لنا قول ابن خلكان: وكان الحافظ أبو الخطّاب ابن دحية المعروف بذي النسبين -رحمه الله تعالى- عند وصوله إلى مدينة إربل، ورأى اهتمام سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين -رحمه الله تعالى- بعمل مولد النبي ﷺ... صنّف له كتابًا سمّاه "**التنوير في مدح السراج المنير**"، وفي آخر الكتاب قصيدة طويلة مدح بها مظفر الدين، أولها:		{مجزوء الرجز}

.........................		أعداؤنا ما وهموا

وقرأ الكتاب والقصيدة عليه، وسمعنا نحن الكتاب على مظفر الدين في شعبان سنة ست وعشرين وست مئة والقصيدة فيه، ثم بعد ذلك رأيت هذه القصيدة بعينها في مجموعة منسوبة إلى الأسعد بن مماتي المذكور، فقلت: لعل الناقل غلط، ثم بعد ذلك رأيتها في ديوان الأسعد بكمالها، مدح بها السلطان الملك الكامل -رحمه الله تعالى- فقوي الظن. ثم إني

رأيت أبا البركات ابن المستوفي قد ذكر هذه القصيدة في تاريخ إربل عند ذكر ابن دحية، وقال: سألته عن معنى قوله فيها:

يفديه من عطا جما ... دى كفه المحرم

فما أحار جوابًا، فقلت: لعله مثل قول بعضهم:

تسمَّى بأسماء الشهور فكفه ... جمادى وما ضمت عليه المحرّم

قال: فتبسّم وقال: هذا أردت، فلمّا وقفت على هذا ترجّح عندي أنّ القصيدة للأسعد المذكور، فإنها لو كانت لأبي الخطّاب لما توقّف في الجواب، وأيضًا فإنّ إنشاد القصيدة لصاحب إربل كان في سنة ست وست مئة، والأسعد المذكور توفي في هذه السنة...، وهو مقيم بحلب لا تعلّق له بالدولة العادلية، وبالجملة فالله أعلم لمن هي منهما(٧١).

من الأساليب التي حرص عليها الأسعد (تكرار كاف التشبيه) وأخواتها مثل (كأن/مثل/أشبه)

من الصور الجيّدة قوله(٧٢): {الطويل}

وضاق عليّ السجن حتى كأنني ... حللت به للضيق في صدر محنق

فيا ليتني كالدمع في جفن عاشق ... فأخرج أو كالسر في صدر أحمق

وقوله في الملك الناصر(٧٣): {مجزوء الكامل}

ويمينُه سِلْمًا تجو ... دُ كما غدت حَزْمًا تجول

طالت فروعُ الحمد فيه ... كما زكَتْ منه الأصول

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

* جامعة المنصورة، المنصورة، ج.م.ع.

(١) أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب جيوش مصر ومدير الممالك الفاطمية كان عاقلاً كريمًا محبًّا للعلماء ولهم عليه رسوم داره، تمكن في أيام المستنصر تمكنًا عظيمًا، ودارت أزمة الأمور على آرائه وفتح بلادًا كثيرة وامتدت أيامه وبعد صيته وامتدحته الشعراء ثم كانت وفاته في ذي القعدة منها وقام بالأمر من بعده ولده الأفضل. ينظر: **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤٧/١٢، ١٤٨.

(٢) ينظر: **معجم الأدباء أو إرشاد لأريب إلى معرفة الأديب**، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٩٩١م، ١٨٠/٢، و**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (الخطط المقريزية)، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، الأولى ١٩٩٧م، ٧٤٣/٢، و**حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الأولى ١٩٦٧م ٥٦٥/١، و**سِيَر أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، التاسعة ١٤١٣هـ ٤٨٥/٢١.

(٣) **كتاب قوانين الدواوين**، الأسعد بن مماتي، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، الأولى ١٩٩١م، ص٢٧.

(٤) ينظر: **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، ٢١٣/١.

(٥) **معجم الأدباء** ١٨٢/٢، ١٨٣، وابن الذروي هو: علي بن يحيى بن الذروي القاضي الوجيه أبو الحسن المعروف بابن الذروي شاعر مجيد توفي رحمه الله تعالى ليلة الخميس سادس عشر ذي الحجة سنة تسع وسبعين وخمس مائة وسنه حول الأربعين.

ينظر: الوافي بالوفيات ١٩٣/٢٢، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ١٠١/٣.

(٦) **معجم الأدباء** ١٨٤/٢، و**الوافي بالوفيات** ١٥/٩.

(٧) **معجم الأدباء** ١٨٤/٢، **الوافي بالوفيات** ١٥/٩ برواية (درب كوز الزير).

(٨) ينظر: **معجم الأدباء**، ١٨٥/٢–١٨٧. والمواعظ والاعتبار ٧٤٤/٢، قال القفطي: "وتولى ديوان الإقطاعات المدة الطويلة، سالمًا في نفسه وجاهه وماله، إلى أن استولى على الأمر عبد الله بن علي بن مقدام الدميري، وكان عاميًّا أحمق قليل التدبير، حاسدا لكل ذي فضيلة، فقبّح أثره عند مخدمه {يعني الملك العادل أبو بكر ابن أيوب} فلحقته إهانته، فخرج من مصر متخفّيًا بعد شدة أدركته، وقصد حلب"؛ ينظر **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، جمال الدين أبي الحسن على بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الأولى، ١٩٨٦م، ٢٦٧/١.

(٩) **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ١٨/٩، و**وفيات الأعيان** ٢١١/١.

(١٠) ينظر: **معجم الأدباء** ١٨٧/٢، و**الوافي بالوفيات** ١٤/٩. وقراقوش: هو الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي الخادم الخصي المنسوب إليه حارة بهاء الدين بالقاهرة داخل باب الفتوح وهو الذي بنى قلعة الجبل بالقاهرة والسور على مصر والقاهرة والقنطرة التي عند الأهرام وغير ذلك وكان من أكابر الخدام من خدام القصر وقيل إن أصله من خدام العاضد وقيل إنه من خدام أسد الدين شيركوه وهو الأصح، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وكان صلاح الدين يثق به ويعول عليه في مهماته ولما افتتح عكا من الفرنج سلمها إليه ثم لما استولوا عليها أخذ أسيرًا ففداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار وقيل بستين ألف دينار قال ابن خلكان والناس ينسبون إليه أحكامًا عجيبة في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين حتى إنّ الأسعد بن مماتي له فيه كتاب لطيف سمّاه **الفاشوش في أحكام قراقوش**، وكانت وفاته في مستهل رجب من سنة سبع وتسعين وخمسمائة. ينظر: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي، وزارة الثقافة

والإرشاد القومي، مصر ٦/١٧٦-١٧٨، وشذرات الذهب ٤/٣٣١، ٣٣٢، **وكنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء السابع (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب)، أبو بكر عبد الله بن أيبك الدواداري، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة ١٩٧٢م، ص١٥١.

(١١) ينظر: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٤٣/٢٠٢، و**الوافي بالوفيات** ٩/١٤، ١٧، و**وفيات الأعيان** ١/٢١٠، **شذرات الذهب** ٥/٢٠، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر ٤/١٥٦٢.

(١٢) **المواعظ والاعتبار** ٢/٧٤٤.

(١٣) **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م، ١/٣٠٢.

(١٤) **البداية والنهاية** ١٣/٥٣، و**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الأولى، ١٤٠٦هـ ٥/٢٠، و**المواعظ والاعتبار** ٢/٧٤٤.

(١٥) **وفيات الأعيان** ١/٢١٠. (١٦) **بغية الطلب في تاريخ حلب** ٤/١٥٦٢.

(١٧) المرجع السابق ٤/١٥٦٤. (١٨) ينظر: **بغية الطلب في تاريخ حلب** ٤/١٥٦٤.

(١٩) **معجم الأدباء** ٢/١٨٣. (٢٠) ينظر: **بدائع البدائه** ١/١١٧.

(٢١) **الوافي بالوفيات** ١٨/٢٠٩. (٢٢) **بدائع البدائه** ١/٥٣.

(٢٣) المرجع السابق ١/١١٩، والبيت مع لآخر لمحمود بن قادوس يهجو القاضي الرشيد (أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني المصري القاضي الرشيد أبو الحسين) قائلاً:

يا شبه لقمان بلا حكمة　　　وخاسرا في العلم لا راسخا

سلخت أشعار الورى كلها　　　فصرت تدعى الأسود السالخا

ينظر: **الوافي بالوفيات** ٧/١٤٦ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ١/١٦١.

(٢٤) **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الأولى، ١٩٨٧م، ١/١٨٢.

(٢٥) **خريدة القصر** (شعراء مصر) ١١/١٠٩، ١١٠.

(٢٦) **خريدة القصر** ١١/١١٠، ١١١.

(٢٧) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القلقشندي أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، تحقيق: عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م، ١/٩٩. و**قوانين الدواوين**، ص٦٦، والنص فيه: "يجب أن يكون الكاتب حرًّا مسلمًا عاقلاً أديبًا فقيها، حاد الذهن، قوي النفس، حاضر الحس، جيّد الحدس، محبًّا للشكر، عاشقًا لجميل الذكر، طويل الروح، كثير الاحتمال، حلو اللسان، له جراءة يبث بها الأمور على حكم البديهة، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يتصرح على حد الروية".

(٢٨) **إنباه الرواة** ١/٢٦٩.

(٢٩) **إنباه الرواة** ١/٢٦٨، و**خريدة القصر** ١١/١٠٠، ١٠١.

(٣٠) ينظر: **العمدة** لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الخامسة، ١٩٨١م، ٢/٣٠٦، ٣٠٧.

(٣١) **خريدة القصر** ١١/١١٣.

(٣٢) **خريدة القصر** ١١/١١٤.

(٣٣) **خريدة القصر** ١١/١١٧.

(٣٤) المقطّعات: جمع مقطعة، وهي ما دون القصيدة يقول ابن منظور: "وقالوا شِعرًا قصّد إذا نقح وجوّد وهذب... وليست القطعة إلا ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر، فأمّا ما زاد على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة"، كما يقطع الفيروزآبادي بأنّ المقطع إنما يطلق على كل قصير فيقول: "و المقطَّعة كمعظَّمة، والمقطعات القصار من الثياب... ومن الشعر قصاره وأراجيزه... ويقال للقصير مقطّع مجذّر"؛ ينظر: **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، الأولى. (قطع) والقاموس المحيط: مجد الدين الفيروزآبادي، دار الحديث. (قطع).

(٣٥) الفرق بين المصرع والمقفى أنّ التصريع هو: أن يقسم البيت نصفين ويجعل آخر النصف من البيت كآخر البيت، وتغير العروض للضرب، فإن كان الضرب (مفاعيلن) جعلت العروض (مفاعيلن) كقول الشاعر:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد        لقد زاد ني مسراك وجدًا على وجد

والمقفى: مماثلة الضرب من غير تغيير كقول الشاعر:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل        بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فإن لم يكن البيت في أول القصيدة مصرعًا سمّي (المصمت). ينظر: كتاب **الكافي في العروض والقوافي** للخطيب التبريزي تحقيق الحساني حسن عبد الله، معهد المخطوطات العربية ١٩٩٧م، ص٢٠، ٢١، وبيت امرئ القيس في ديوانه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف الثالثة، ص٨.

(٣٦) **خريدة القصر** ١١/١٠٧.

(٣٧) **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الثانية، ١٤١٣هـ، ٧/٢٤٣.

(٣٨) **وفيات الأعيان** ١/٢١٠، و**معجم الأدباء** ٢/١٨٧.

(٣٩) **خريدة القصر** ١١/١١٢.

(٤٠) **بغية الطلب في تاريخ حلب** ٤/١٥٦٣، و**إنباه الرواة** ١/ ٢٦٨.

(٤١) **خريدة القصر** ١١/١٠٣.

(٤٢) **بغية الطلب** ٤/١٥٦٢، **وإنباه الرواة** ١/٢٦٨، وبدون نسبة في **المستطرف في كل فن مستظرف**، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٩٨٦م، ٢/٤٣١. والخليج هو: خليج القاهرة، حفره أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ﷺ ويعرف بخليج أمير المؤمنين وكان حفره عام الرمادة وهي سنة ست عشرة من الهجرة فسافر إلى القلزم فلم يأت عليه الحول حتى جرت فيه السفن وحمل فيها الزاد والأقوات إلى مكة

والمدينة وانتفع بذلك أهل الحجاز، وقال الكندي: كان حفره في سنة ثلاث وعشرين وفرغ منه في ستة أشهر وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع، ثم بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة وكتب عليها اسمه... ثم دثرت ثم أعيدت ثم عمرت في أيام العزيز بالله... وإنما بنى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قنطرة السد الآن التي عليها بستان الخشاب وكان يخرج الماء من البحر بالمقس من البرانج فوسعه الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وجعله خليجًا وهو خليج الذكر. ينظر: **النجوم الزاهرة** ٤/٤٣-٤٥.

(٤٣) **خريدة القصر** ١١/١٠٣، ١٠٤. (٤٤) معجم الأدباء ٢/١٨٨، ١٨٩.

(٤٥) **خريدة القصر** ١١/١٠٤. (٤٦) **طبقات الشافعية الكبرى** ٧/٢٤٣.

(٤٧) **خريدة القصر** ١١/١٠٤.

(٤٨) **بغية الطلب في تاريخ حلب** ٤/١٥٦٣.

(٤٩) **معجم الأدباء** ٢/١٩٠.

(٥٠) **خزانة الأدب وغاية الأرب** ١/٥٧.

(٥١) **تاريخ الإسلام** ٤٣/٢٠٢، و**الوافي بالوفيات** ٩/١٧، و**وفيات الأعيان** ١/٢١٠.

(٥٢) **وفيات الأعيان** ١/٢١٠.

(٥٣) **إنباه الرواة** ١/٢٦٨. و**بغية الطلب في تاريخ حلب** ٤/١٥٦٣برواية:

به أمسيتُ ذا سَقَم كأني خيط إبرته

وأحسدُ فيه خيطا فا زَ منه بخمر رِيقتهِ

(٥٤) **خريدة القصر** ١١/١٠١.

(٥٥) **ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا**، الشهاب الخفاجي، مطبعة بولاق ١٢٧٣هـ، ص١٠٨، وبيتا لبيد في ديوانه بتحقيق د. إحسان عباس، سلسلة التراث العربي، الكويت، ١٩٦٢م، ص٢٥٦.

(٥٦) **خريدة القصر** ١١/١٠٩.

(٥٧) **خزانة الأدب** ٥/٤٥٨، ٤٥٩.

(٥٨) **خريدة القصر** ١٠٣/١١ ، ويبدو أنها جزء من القصيدة السابقة.

(٥٩) **إنباه الرواة** ٢٦٩/١ ، و**خريدة القصر** ١٠١/١١/١١.

(٦٠) **خريدة القصر** ١٠٢/١١.

(٦١) **خريدة القصر** ١٠٢/١١ والبيت فيه برواية (فرج) بالجيم.

(٦٢) **ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التبريزي**، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، ط: الرابعة، ١٩٧٦م، ٥٠٧/٤.

(٦٣) **ديوان أبي الطيب المتنبِّي**، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي وآخرين، ط: مكتبة مصر، ١٩٩٤م، ص٢٥٧.

(٦٤) **الروض الأنف**، السهيلي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ٢٣١/٢.

(٦٥) **شرح ديوان المتنبِّي**: عبد الرحمن البرقوقي، ط: دار الكتاب العربي، ١٩١/٣، ١٩٤.

(٦٦) **خريدة القصر** ١٠٩/١١.

(٦٧) **معجم الأدباء** ١٨٨/٢، ١٨٩.

(٦٨) **خريدة القصر** ١١٠/١١.

(٦٩) **خريدة القصر** ١١٣/١١.

(٧٠) ينظر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ٢٥٤/٦، و**خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، المحبي دار صادر، بيروت، ٢٧٤/٣.

(٧١) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ٢١١/١، ٢١٢.

(٧٢) **ديوان الصبابة**، ابن أبي حجلة التلمساني، تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٧م، ص١٢٧، قال المؤلف: ووصف أعرابي قومًا فقال: سيوفهم آفات الأعمار وصدورهم قبور الأسرار وما أحسن قول ابن مماتي من أبيات (وضاق...).

(٧٣) **خريدة القصر** ١٠٧/١١-١٠٩.

# الشعرية العربية، من تعالِي البنية إلى انفتاح النص
# قراءة في مفهوم الشعرية
# وتطورها في الدرس النقدي العربي التراثي

**(٢)**

بقلم: د. محمد زيّوش[*]

٦. الوعي بتحوّلات الشعرية العربية:

إنّ الشعرية، بمقاربتها المعطى الأدبي من حيث هو معلول لها، لم تعد بنية متعالية، وتحولت عمليًّا إلى مظهر لوجود آخر مفارق تمامًا، إنها بنية أخرى مفارقة للبنية المتعالية، وربما هذا ما أدّى بابن المعتز إلى القول بوجوده في أشعار المتقدمين، حتى يتمكّن من إدماجه ضمن البنية المتعالية، يقول ابن المعتز: «أنّ بشّارًا ومسلمًا وأبا نواس ومن تقيَّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سُمِّي بهذا الاسم وأعرب عنه ودُلَّ عليه. ثم إنّ حبيب ابن أوس الطائي من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه، وتفرع فيه وأكثر

منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عُقبى الإفراط وثمرة الإسراف، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قرأت من شِعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرًا»[١].

غير أنّ القاضي الجرجاني، يؤكد أنّ هذا الذي يُسمّى بديعًا، لم يكن مكوّنًا من مكوّنات البنية المتعالية (عمود الشّعر) ولا شرطًا من شروط القريض؛ لأنّ العرب لا: «تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشِّعر، ونظام القريض»[٢]، وأقرّ الآمدي، بتضايقه الكبير، من خروج أبي تمّام إلى الإسراف، والتكلّف، حتى وصف بديعه هذا، بأنه من كلام المُبَرْسَمين (المجانين)، وأنه كلام في غاية البشاعة، والركاكة، والهجانة[٣].

وعلى الرغم من تحديد النقاد لعمود الشِّعر، كبنية متعالية تتحكم في الإنتاج الأدبي، عمد الشعراء إلى الخروج عن هذه التحديدات، والبحث عن الشعرية (الصفة) في التوظيف البديعي، و جرّ هذا التحوّل في التحسين الأدائي على مستوى النص الأدبي، إلى تحوّل الشعرية من كونها علمًا صوريًّا، ينظر للخطاب الأدبي المجرد باعتباره المبدأ المُوَلِّدُ لعدد غير محدّد من الإمكانات المقيّدة، وليس لحصيلة الظواهر النصوصية المفردة، غير أنّ هذا لا يعني أبدًا أنّ الشعرية العربية أهملت الظواهر النصوصية المفردة، بل نظرت لها من حيث هي إمكان من إمكانات النسق الكلّي، ومظهر من مظاهر قوانين البنية المتعالية، التي تتحجب داخل العمل

الأدبي، وها هو ابن قتيبة، يؤكد أنّ البنية المتعالية التي تعدّ إمكانًا من النسق الكلِّي، كانت موجودة في وعي النقّاد، حين حديثه عن مسلم وتلطيفه للمعاني فقال: «هو أول من ألطف في المعاني ورقق في القول وعليه يعوّل الطائي في ذلك»(٤). إنّ الإلطاف في المعاني، والرّقة في القول، أساليبٌ عرفها العرب بفضل مسلم بن الوليد، كما يقول ابن قتيبة، الذي كان يتحدث في هذا المقام عن أسلوب جديد في كتابة الشِّعر، ولم يتحدث عن وسائله، وعليه فإنّ كلامه يظل في إطار الإحساس بالأسلوب الجديد لا بدرسه، والبديع إذن، أول ما اصطلح عليه، كان للدلالة على نمط جديد في أسلوب الشِّعر، دون وعي مطلق بوسائل الجِدة فيه، وكل ما عناه منه هو الرقّة الكثيرة، والعذوبة الزائدة على النمط الذي كان سائدًا قبله.

ووجد مفهوم البديع، كأسلوب جديد، وطريقة متكلف فيها، عند الجاحظ، خلال حديثه عن الشعراء المحدثين، والمولدين فقال: «ومن الخطباء الشعراء... كلثوم بن عمرو العتابي... وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين، نحو منصور النمري، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما، وكان العتابي يحتذي حذو بشّار في البديع، ولم يكن من المولدين أصوب بديعًا من بشّار وابن هرمة»(٥)، وقد ذهب شوقي ضيف إلى أنّ معنى البديع عند الجاحظ هو: «هو التشبيهات والاستعارات الطريفة»(٦).

وما يمكن استنتاجه، هو أنّ هذه الفرادة الأدبية، التي تشكلت في أنساق غير متكررة، وتمتاز بالجِدّة، لم تكن تسمح للشعرية (كبنية متعالية) باكتشاف نسقها الثابت، وهذا ما دفع بالنقّاد إلى السعي لاكتشاف هذه الأنساق، في حضورها العلائقي مع النص المُبْدَع، لحظة التأسيس للشعرية، فنرى ابن قتيبة يبرر التغيير في الأنساق، وفي المفاهيم مع تغيُّر العهود، بأنّ الله لم يقصر العلم، والشِّعر، والبلاغة، على زمن دون زمن، ولا خصّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر(٧)، والآمدي نفسه، يقرّ أنّ أهل النصفة من أصحاب البحتري، إلى جانب مقدمي الشِّعر المطبوع عن المصنوع، والمتكلف: «لا يدفعون أبا تمّام عن لطيف المعاني ودقيقها، والإبداع والإغراب فيها، والاستنباط لها... وإذا كان هذا هكذا فقد سلَّموا له الشيء الذي هو ضالَّة الشعراء وطلبتهم، وهو لطيف المعاني»(٨).

وهذا يعني أنّ التحوّل في مفهوم الشعرية بدأ من اللحظة المنهجية التي أعطى فيها النقّاد الأولوية، للحضور العلائقي للشعرية مع النسق الجديد، لحظة اكتشافه، فأصبح الإبداع الفردي محل درس كإمكان، ضمن إمكانيات النسق الكلي الذي لم يعد متعاليًا، وتحوّل حضور الشعرية إلى حضور معرفي، تقارب فيها الذات العارفة موضوعها، وكان من نتائج ذلك أن أدّى إلى تثبيت عناصر البديع ضمن مكوّنات الشعرية العربية: «اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة، اختيارًا من غير جهل بمحاسن الكلام، ولا ضيق في المعرفة، فمن أحب أن يقتدي بنا، ويقتصر بالبديع

على تلك الخمسة، فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئًا إلى البديع، ولم يأت غير رأينا، فله اختياره»[٩].

ويؤكد قدامة على انفتاح الشعرية، لاستيعاب كل ما هو ممكن من الخصال المحمودة في الشِّعر، وعدم ثباتها، بقوله: «ليكون ما يوجد من الشِّعر الذي اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها وخلا من الخلال المذمومة بأسرها يُسمّى شِعرًا في غاية الجودة، وما يوجد بضد هذه الحال يسمى شِعرًا في غاية الرداءة. وما يجتمع فيه من الحالين أسباب ينزل له اسم بحسب قربه من الجيِّد، أو من الرديء، أو وقوفه في الوسط»[١٠].

ولأجل تفادي التناقض، الحاصل على مستوى التنظير المنهجي الجديد، ببعده التطوري، على مستوى البنية المتعالية، تم الرجوع إلى الأعمال الماضية، كما تقدّم ذِكره، والبحث عن تبريرات تاريخية لهذا الطارئ، فاستخلص النقّاد، أنّ النسق الحاضر، له جذوره الماضية، لذلك رأى ابن المعتز أنّ المحدثين لم يسبقوا إلى أبواب البديع[١١]، وأوضح ابن رشيق أنّ مجال الإبداع على مستوى المعاني متسع؛ لأنّ الحياة الجديدة تفتح منادح للقول، يجعل المعاني تتردد وتتوالد[١٢]، وأن لا حاجة: «إلى أوصاف الإبل ونعوتها، والقفار ومنابتها، وحُمر الوحش، والبقر، والظُّلمانِ والوعول، ما بالأعراب وأهل البادية، لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات، وعلمهم أنّ الشاعر إنما يتكلّفها تكلّفًا ليجري على سُنَن الشعراء قديمًا»[١٣].

لقد تنبّه النقّاد أنّ الأدب نسق كغيره من الأنساق الأخرى، الاجتماعية والثقافية، ... يتميّز بشبكة من القوانين البنيوية، شأنه شأنها، له ماضيه، وله مستقبله من حيث كونهما عنصرين بنائيين، غير منفصلين عن النسق، ويترتب عليه أن يصبح التعارض بين الحاضر والماضي، تعارضًا في وجهة النظر إلى النسق نفسه، في علاقته بالزمن، وليس تعارضًا بين مفهوم النسق، ومفهوم التغيّر في الزمن، ومن ثمّ كان الخوض في الحداثة الشعرية، خلال العصر العباسي، كطارئ على الشعرية العربية، وهي تؤسس للدرس النقدي حولها، خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين مفهومًا وإجراء، على الرغم مما حفّها من مخاطر، أسهمت في تشويه صورة الحداثة الشعرية، بدأ بالمصطلح نفسه، والذي اكتنفه الغموض واللبس، فالحداثة في العصر العباسي خلقت إشكالاً معقّدًا وسط المجتمع؛ لاختلاف مظاهرها، وبالتالي تعدد مدلولاتها، إلى جانب محاولة السلطتين السياسية، والدينية تقويضها، والحدّ من جموح عقالها، خوفًا من دخولها في صراع مع القديم، وعلى الرغم من شيوع مصطلح المحدث أكثر من غيره، فإنها جميعها تنحدر من جذر معجمي واحد، يفيد الجِدّة والابتكار، فأبو عمرو بن العلاء، كان يعتبر كل شِعر ألّف بعد الشِّعر الجاهلي، وشِعر المخضرمين شِعرًا محدثًا، يقول معلّقًا على شِعر جرير، والفرزدق: «لقد كثر هذا المحدث حتى لقد هممت بروايته»[١٤]، أمّا الأصمعي، فقد رأى أنّ أشعار هؤلاء المحدثين من أمثال: «أبي نواس وغيره مثل الريحان يشمّ يومًا ويذوي ثم يرمي به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلّما حرّكته ازداد طيبًا»[١٥].

لكن مفهوم كلمة (محدث) تطور عند النقّاد، بحيث إنه لم يعد مرتبطًا بالفكرة الزمانية، ضمن ثنائية (قديم–محدث)، التي تتعلق بتاريخ الشِّعر العربي، كما هي عند أبي عمر بن العلاء، أو الأصمعي، ولكنها حُمّلت بدلالات جديدة يمكن إجمالها في معنيين اثنين متقاربين هما:

الأول: ورود كلمة (محدث) صفة للشِّعر، الذي ظهر قبيل قيام الدولة العباسية، والذي صار فيما بعد مدرسة شعرية.

الثاني: ورود كلمة (محدث) وصفًا للشاعر، الذي نشأ في العهد العباسي، أو قبله بقليل، شرط أن يكون ممن جددوا الشِّعر، وحدّثوه.

انطلاقًا من هذين التحديدين لمصطلح (المحدث)، يمكن القول إنّ عامل الزمن وإن كان له دور في إفراز الحداثة الشعرية، فإنّ عامل المكان، ساهم بشكل كبير، في جعل الشاعر يحسّ بتغيّر الحياة، ذاك أنّ: «المكان يمثّل المظهر الحسي الذي يسمح لحركة الزمن بترسيب تراكماتها الظاهرية، سواء فيما يتصل باللغة أو الأدب، أو فيما يتصل بالفنون عمومًا، فكأنّ حركة الزمن هي التي تعطي للحداثة استمراريتها، وطبيعة المكان هي التي تعطيها عمقها وثباتها»[١٦]، كما أنّ الزمان، والمكان هما الإطاران، اللذان يحويان أيّ حركة تجديد، وتغيير، ويبدع الإنسان ضمنهما، ويغيّر، رغبة منه في الإضافة، والتحديث، واجتهادًا منه لسدّ الفراغ، والنقص، والسعي الحثيث، إلى التحسين في كل الميادين الحياتية، ومنها الميدان الأدبي، وعليه يمكن القول إنّ الحداثة الشعرية، بهذا المعنى لا تشمل جميع الشعراء وإنما تختص بالشعراء الذين ساهموا في تجديد الشِّعر العربي، وهو ما

يضيّق مفهوم الحداثة، ويجعله قاصرًا على المفهوم الدلالي، المرتبط بالتجديد في شكل الشِّعر، ومضمونه، عن موهبة، قصد مواكبة الحياة.

والحداثة بهذا المعنى لا تقوم عند نقادنا القدامى إلا بتوفر شروط ثلاثة هي: الزمان، والمكان، ورغبة الإنسان في التغيير إلى الأحسن؛ إنّ طموح الإنسان للأفضل، ورغبته في التغيير لمواكبة الزمان، يجعل منه يغيّر من ذاته، وواقعه، في بُعْدَيْهِ: الزماني، والمكاني، ولقد كان لانتقال مصطلح (الحداثة)، ولو مجازيًّا من المعجم الديني، إلى المعجم النقدي أثر بالغ في دفع النقّاد إلى التفكير الجِدِّي، في مقاييس تقاس بها جودة الشِّعر، ورداءته؛ ذاك أنّ استعارة علماء اللغة للمصطلح من علماء التشريع الإسلامي، لم يكن نقلاً فارغًا، بل كان محمّلاً بدلالته الدينية، فأصبح الخروج عن الشِّعر الجاهلي، وتقاليده، يماثل حكم الخروج عن الثوابت، والأخلاق الدينية؛ حتى أضحى المحدث من الشِّعر كالبدعة، التي يعدّها الفقهاء ضلالة، كما عملت المؤسسة السياسية على ترسيخ هذا الفكر المحافظ على القديم، والرافض للجديد، حفاظًا على مصالحها، واستقرارها؛ لأنها كانت ترى فيه منظومة من المنظومات الفكرية، المثبتة لوجودها في الحكم، بينما اعتبرت فكرة التجديد مهددة لاستقرار كيانها، وهي بمثابة انحراف، ومروق: «كمثل الخروج السياسي أو الفكري خروجًا على ثقافة الخلافة، ونفيًا للقديم النموذجي»(١٧)، وقد ترد عوامل الحملة، التي شنّها اللغويون على الشِّعر المحدث، إلى العاملين الأساسين وهما: العامل السياسي، والعامل الديني، وقد عبّر أبو نواس عن ذلك صراحة، بقوله:

أعِر شعرَكَ الأطلالَ والدِّمنَ القَفْرَا    فقَد طالَمَا أزْرى بـه نعْتُـك الخَمْـرا
دعـاني إلى نعـت الطلـولِ مُسلّطٌ    تـضيـقُ ذراعـي أن أجـوزَ لـه أمْـرا
فـسمعٌ أمـيرَ المـؤمنين وطَاعـةٌ    وإن كنتَ قد جَشَّمْتَني مَركبًا وعْرا[١٨]

ويفصّل الجاحظ في هذه المسألة، على أساس الجودة والرداءة، بعد ما أدرك الأبعاد الجمالية للحداثة، بعيدًا عن المنظومتين السياسية والدينية، فيقول: «وقد رأيت ناسًا منهم يبهرجون أشعار المولدين، ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشِّعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيِّد ممن كان وفي أيّ زمان كان»[١٩]؛ وتغدو الحداثة بهذا الفهم دعوة من النقّاد إلى الشعراء بتجديد المعاني، والابتعاد عن تناول بعض معاني القدماء، والتجديد في الصياغة كذلك، ذاك أنّ التطور في النسق الاجتماعي (النسق المتقبّل)، يفرض التطوير في النسق الأدبي، ففعل الزمن، هو الذي حوّل الحياة الاجتماعية من البداوة إلى التمدّن.

وفي ظل هذا التصور الجديد، الذي ركّز على الصياغة، وجمال الإخراج اللغوي، استهوت الاستعارة شعراء البديع، بمفهومها الواسع، فأقبلوا عليها، وأكثروا منها في أشعارهم، فوجد في قصيدة (فتح عمورية) لأبي تمّام، نحو عشرين تشبيهًا وثلاثين استعارة[٢٠]، وفي قصيدة مسلم بن الوليد في مدح يزيد بن مزيد الشيباني، زهاء عشرين تشبيهًا، وخمس وثلاثين استعارة[٢١]، وبالتالي نلاحظ غلبة الاستعارة على التشبيه، في قصائد المحدثين، عكس ما يجده الدارس لمعلّقة امرئ القيس مثلاً، كنموذج

للشِّعر القديم؛ إذ يغلب فيها التشبيه، وتقلّ فيها الاستعارة، ويمكن القول إنّ ابن المعتز كان من الأوائل الذين أدركوا هذا التحول إدراكًا حقيقيًّا، لّما جعل الاستعارة أول أبواب البديع، ومن صميمه، وجعل التشبيه محسِّنًا، رتبته الحادية عشرة من المحسّنات الثلاثة عشر، ويعدّ هذا دليلاً على أنّ ابن المعتز لم: «ينزل التشبيه منزلة الاستعارة في جمال الأداء»[٢٢].

٧. التلقِّي ودوره في تحويل ماهية الشعرية العربية:

لعلّ الذي وفر البيئة الملائمة لارتقاء الاستعارة على التشبيه، والابتعاد بالشِّعر من سمة الوضوح إلى الغموض، هو التحوّل الذي طرأ على البنية المتلقّية، والانتقال من مرحلة المشافهة، إلى مرحلة التدوين، وهما الحدثان المرتبطان بتطور مقومات الشعرية العربية، التي بدأت تتأسس مع بداية فقدان التقاليد الشفاهية، للشِّعر العربي أهميتها شيئًا فشيئًا، لمنافسة التقاليد الكتابية، الممثلة بالقرآن إلى غاية العصر العباسي، متى ظهر نوع من التهاون المتزايد، لدى رواة الشِّعر وناقليه، على امتداد الزمان، إزاء تقاليده الشفاهية نتيجة التدوين الذي أنقص الحاجة إلى الحفظ، فأسهمت الكتابة إلى جانب تشعّب الحياة العربية الإسلامية، بشكل إيجابي في تشعّب موضوعات الشِّعر العربي، وأغراضه، وتنوّع إيقاعاته، مما جعل القصائد تنحو نحو التعقيد في بناها، أكثر مما كانت عليه في السابق، والشِّعر ينزع نحو التخيّلي، فكان أن عُوّض الإنشاد بالقراءة، والتلقِّي المرتبطين بثقافة الأذن، وبالقارئ الذي له متّسع من الوقت، ليعمل فكره فيما يقرأ من بِنَى شديدة التعقيد: «وبدأت أفانين العلم عند العرب تتفرّع وتتمايز وإن تشابكت داخل منظومة

معرفية نزعت منزع الاستقرار منذ أواخر القرن الرابع الهجري لتكتمل وتنغلق في القرن الخامس هجريًّا»[٢٣]، وظهر المتلقِّي غير المباشر، عوض المتلقِّي المباشر، الذي ارتبطت به جملة من المقولات، ارتباطًا وثيقًا مثل مقولة (مقتضى الحال)، أو مقولة (لكل مقام مقال)، والتي كانت تعدّ معيارًا من معايير الجودة الشعرية، وهي مقولات لم تكن منطبقة على أنواع محددة من أغراض الشِّعر، التي كانت تستلزم الاستجابة الفورية، كالشِّعر الخطابي، أو دواعي الحاجة الآنية كالشِّعر التكسّبي فحسب، بل كانت مرتبطة بكل شِعر توخّى صاحبه من خلاله التأثيرَ، وتشوّفَ الإفادة[٢٤].

ولعل وثيقة بِشر بن المعتمر تعدّ أقدم وثيقة نقدية حاولت أن تومئ للمبدع، بتقريب الشقّة بينه وبين المستمع، إذ يقول: «ينبغي للمتكلِّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[٢٥]، أمّا الجاحظ، فكان يرى أنّ: «للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية...»[٢٦]، في حين صنّف قدامة شِعر المديح، كغرض أساسي، يندرج تحت ثنائية المقام، والمقال[٢٧].

لكنّ هذا المتلقِّي الشفاهي، لن يظل على هذه الحال، فمع بداية التدوين تحوّلت علاقة الباث بالمتلقِّي تحوّلاً جذريًّا، ظهرت معالمه بارزة، في الاختلافات النصية، التي وسمت النسيج الشعري، وحكمت باختلاف إنتاجه، وبتحوّل النظرة النقدية كذلك، والتي هيمنت فيها سلطة المتلقِّي

الضمني، مقابل المتلقِّي الصريح، الذي تراجعت مكانته؛ نتيجة هذا الانتقال من الشفاهية إلى الكتابية، وغدا مقتضى الحال في بعده الكتابي، تراكمًا معرفيًّا لتجارب القراءة عبر التاريخ، ولم تعد بذلك خصوصية المبدع مرتبطة بخصوصية السياق بما هو قوانين عامة، للصياغة الإبداعية في الكتابة الشعرية، بل أصبحت انفتاحًا على وسائل تحقيق الشعرية، التي حددها معيار الصياغة الشعرية القديمة، على النمط الشعري المحدث، الذي دعا نقّاده إلى مضاهاته؛ لأنّ درجات الشعرية أصبحت محكومة بمدى قربها، أو ابتعادها عن سلطة القارئ الضمني.

وهاهو ابن طباطبا العلوي، في "**عيار الشِّعر**"، يبيّن للشاعر المبتدئ أصول صناعة الشِّعر، واضعًا في حسبانه القارئ الضمني، وليس المتلقِّي المباشر، يقول: «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدته مخض المعنى الذي يريد بناء الشِّعر عليه في فكرة نثرًا، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه...»[(٢٨)]، هكذا تبدّل فعل التلقِّي، وانتقل من السطحية المرهونة بالآنية، إلى إعمال الفكر في التأويل، في محاولة الناقد الوصول إلى طبقات المعاني، بعد تشقيق أغلفة الألفاظ، لكن السؤال المطروح في هذا المعنى، ما إذا كانت سلطة المتلقِّي الضمني، غائبة عن المبدع، والناقد العربي قبل عصر التدوين.

إنّ المعلوم أن ليست سنن عمود الشِّعر، الموضوعة من قِبل العرب، تبرز بشكل واضح وعي المبدع، أو الناقد على السواء، بوجود متلقٍّ ضمني، يمثّل الذوق العامّ، يضعه المبدع في الحسبان، أثناء عملية الإبداع،

ويطلعنا الآمدي عن البحتري أنه ما فارق عمود الشِّعر (المعروف)[٢٩]، ونعتُ عمود الشِّعر بالمعروف، يعدّ إقرارًا، بأنّ هذه السنن كانت راسخة في الفكر الإبداعي، والنقدي، وبالتالي فعمود الشِّعر، هو المعيار الجمالي للتشكيل الشعري، الراسخة سننه -كما حددها المرزوقي من بعده- في الذاكرة الجمعية المتلقية، والخروج عنها في التشكيل الشعري، يتنافى وَسِمَةَ القبول لحظة التلقِّي، يقودنا هذا إلى القول، بأنّ التحوّل من الشفاهية إلى الكتابة، لم يكن ذا أثر سلبي في تحوّلات الشعرية العربية، بل هو امتداد متجدد في النسق الأدبي؛ لأنّ معاني القدامى بحكم التغيير، أصبحت مبهمة في البيئة الجديدة، وذوق المتقبّل لم يعد تقبّلاً آنيًّا، محكومًا بلحظة زمنية محددة، بل وفّرت له الكتابة قدرة معاودة القراءة، والتَّعَمُّلِ في القصيدة، كلّما أتيحت له الفرصة، إذن فالقارئ الضمني نفسه، تغيّر بفعل الزمن، إذ أصبحت تقاليد الشفاهية، التي ارتبط بها عمود الشِّعر لا تلذذه، ولا حتى البداوة التي فلقت الفحول، أصبحت تستهويه؛ لأنذ الكتابة تجعل: «عملية الاستبطان أشدَّ قدرة على البيان...، كما تجعل النفس منفتحة على نحو لم يحدث أبدًا من قبل، ليس فحسب على العالم الموضوعي المتميّز عنها كل التميّز، بل كذلك على النفس الداخلية التي يقف هذا العالم في مواجهتها»[٣٠].

وقد طالب الناقد وفق ذلك، الشاعرَ مراعاة القارئ الضمني، الذي يمثّل الذوق العامّ أن يبتعد عن التشبيهات القديمة، كتشبيه: «الذُّباب بالأجذم، ولَحْيَي الغُراب بالجَلَم لعنترة، وأشباه هذا مما انفردت به الأعراب والبادية

لعادتها، كانفرادها بصفة النيران، والفلوات الموحشة، وورود مياهها الأجنة، وتعسّف طرقاتها المجهولة، إلى غير ذلك مما يُعرف عيانًا، إذ كان المحدث غير مأخوذ به ولا محمول عليه»(٣١)، وبهذا يتأكد إدراك النقّاد القدامى التغيير الحاصل، والذي هو جزء متكامل ضمن عناصر الشعرية، ووعيهم أنّ مهمتهم الآن، هي تحديد المقولات البديعية، التي تنهض بالخطاب الإبداعي الجديد، وتخرجه من الكلام العادي، إلى دائرة الشعرية؛ لأنّ التعاقب لا يشكل تعارضًا بين القطبين المختلفين: الراهن ممثّلاً بالمصنوع (الكتابية)، والفائت ممثّلاً بالطبع (الشفاهية)، فلا ينفي وجود أحدهما الآخر، وإنما يتكاملان، ضمن الجهد النقدي، الذي سعى النقّاد فيه إلى تأسيس نظرية شعرية، واضحة المعالم.

لكن على المستوى العَمَلِيِّ، وبدلاً من الحفاظ على التصور النظري للشعرية، راح النقّاد في ممارستهم النقدية، يحددون مقاييس الشعرية، انطلاقًا من صياغتهم الصورية لعمود الشِّعر، وأصبحت الممارسة بذلك، تعرف في شكل تراتب قمعي، أدّى إلى هيمنة عمود الشِّعر على البديع، فالقاضي الجرجاني ينادي بمنع المفاضلة في الشِّعر، بالاحتكام إلى المقاييس البديعية؛ لأنّ العرب لم تكن تحفل بالبديع، إذا حصل لها عمود الشِّعر، ونظام القريض، والآمدي يرى أنّ أبا تمّام: «...أفرط، وأسرف، وزال عن النهج المعروف، والسنن المألوف»(٣٢) و«تفرغ فيه وأكثر منه، وأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف»(٣٣) و«جعله غرضه، فكانت إساءته فيه أكثر من إحسانه، وصوابه أقل من

خطئه»[٣٤]، أمّا البحتري فإنه لم يفارق: «عمود الشِّعر وطريقته المعهودة، مع ما نجده كثيرًا في شِعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة، وانفرد بحسن العبارة، وحلاوة الألفاظ، وصحة المعاني»[٣٥]، ولقد نظر أصحاب العمود الشعري في لغة أبي تمّام، فلاحظوا أنه لم يسلك مسلك الشعراء قبله، بل استقى اللغة من نفسه -كما يقول إسحاق الموصلي- لغة اتصفت بالغموض عندهم؛ لأنّ أبا تمّام قال الشِّعر بلغة تقول واقعًا آخر، هو الواقع المجازي، بعيدًا عن المباشرة، وهذا ما جعل الآمدي مثلاً، يرى أنه بعيد المأخذ وليس بقريبه، فوسم شِعره بالغموض[٣٦] الذي كان نتيجة: «لاهتزاز الصورة الثابتة في نفس القارئ لعلاقة الدال بالمدلول، وهو اهتزاز أعطى للقارئ انطباعًا بأنّ أبا تمّام، قد أفسد، وأبطل ما كان صالحًا، ودعا إلى فوضى، أي إلى ما لا يفهم»[٣٧]، فغدا تجاوزه إفسادًا؛ لأنه وإن كان قد حافظ على: «الشكل الخارجي لبنية القصيدة التقليدية، فلقد غيّر نواته الأساسية، الكلمة، وغيّر علاقات الكلمة الصوتية والدلالية»[٣٨]، وهو السبب الذي جعل أصحاب عمود الشِّعر، وهم في أحلك مرحلة اختناق التنظير النقدي، والتأسيس للشعرية يرون في تجاوزه هذا إفسادًا؛ لأنّ شِعرًا بهذه الخصائص هو شِعر مباعد لسنن العرب في قول الشِّعر.

والواقع أنّ أصحاب عمود الشِّعر، لم يستطيعوا فهم طبيعة الغموض الذي جاء به أبو تمّام، فاعتبروه فسادًا، وربما يعود ذلك، إلى جِدّة الظاهرة، وعدم اعتيادهم عليها، إلا أنّ أبا تمّام: «كان يؤسس بإفساده هذا، أي في إحلاله احتمالية المعنى محل يقينيته، مبدأ أساسيًّا من مبادئ الشِّعر»[٣٩]،

واعتبر أبو تمّام أنّ الشكل ليس عائقًا في ظهور علاقات جديدة بين الكلمات: «بل أصبح على العكس عنصرًا جديدًا ضديًّا، يزيد في بروزها، فلقد فجّره من داخل بتراكيبه اللغوية الجديدة»(٤٠)، كما أنّ الكلمة عند أبي تمّام: «لا تتناول من الشيء مظهره، وإنما تتناول جوهره، وهكذا يبدو أنها تنفيه فيما تثبته، وأنها تغيّبه فيما تظهره. فكما أنّ الكلمة بداية، بداية أن يكون ما يطابقها في العالم أو الطبيعة بداية هو كذلك، فالكلمة العذراء تقتضي شيئًا بكرًا، شمسه تطابق بين بكارة الكلمة وبكارة العالم، والشِّعر هو التطابق أو زواج الكلمة البكر بالعالم البكر... الكلمة إذن لا تعكس أشياء العالم بل تعيد خلقها، إنها تخلق العالم على طريقتها مجازيًّا»(٤١).

وهذا يجرّنا إلى القول إنّ النصوص الشعرية، لم تعد هدفًا في حدّ ذاتها لمسعى الشعرية، منها تخرّج قوانينها الكلية، وإنما تحولت إلى وسيلة، من خلاله ترى الشعرية نفسها كبنية متعالية، ويبدو ظاهريًّا أنّ هذا الفهم للبنية، لم يسعف النقّاد في إيجاد حلّ حاسم، يجيب عن التساؤلات الخطيرة التي واجهتها كرفض المقدمة الخمرية، والخروج عن الدين، والإغراب، فكانت أول هذه المشكلات هي انغلاق البنية (المتعالية) على نفسها، مما جعلها كيانًا ميتافزقيًّا مفارقًا، لا علاقة له بالزمان والمكان.

٨. انفتاح النصّ وسؤال القيمة الجمالية:

قد يقول متقوّل على تراثنا إنّ الشعرية سدّت منافذ الإبداع بتحديدها لجملية النّص في عمود الشِّعر، وهو ما قاد إلى الفهم عند أغلب الذين تنكّروا للشعرية العربية بأنّ التركيز على عناصر عمود الشِّعر، قد أدّى إلى

إهمال، وتجاهل العناصر الأخرى عند أنصاره، على الرغم من استيعابهم النظري لمفهوم الانفتاح، والتجديد في المعاني، والإيقاع، إذ إنه لما: «أفضى الشِّعر إلى المحدثين، ورأوا مواقع تلك الأبيات -يعني التي فيها البديع- من الغرابة والحسن، وتميّزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف، تكلّفوا الاحتذاء عليها، فسمّوه البديع، فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومُفرط»(٤٢)، هكذا، وجد أنصار الشعرية العربية مبررًا في الإصرار على شعرية عمود الشِعر؛ لأنّ البديع قاد إلى الإفراط عن تَعَمُّدٍ، وقصد، وتكلف، كان من آثاره السلبية، إخضاع المعاني، والأفكار لها، وخلخلة البديع المتكلف لشعرية عمود الشِّعر، واعتماد الشعراء عليه، ومنهم: مسلم بن الوليد، الذي تتبّع هذه الألوان من البديع عند القدماء: «ووشَّح شِعره بها، ووضعها في موضعها، ثم لم يسلم مع ذلك من الطعن، حتى قيل: إنه أول من أفسد الشِّعر»(٤٣)، كما عُدّ أولَ: «من تكلّف البديع من المولدين، وأخذ نفسه بالصنعة، وأكثر منها، ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل صريع [ويقصد مسلم صريع الغواني] إلا النبذ اليسيرة، وهو زهيرُ المولدين... وقالوا: أول من تكلّف البديع من المحدثين بشّار بن بُرد، وابن هرمة... ثم اتَّبعهما مقتديًا بهما كلثوم بن عمرو والعتابي، ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس، واتَّبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحتري، وعبد الله بن المعتز، فانتهى علم البديع والصنعة إليه، وختم به»(٤٤).

وبناء عليه، سيتوجه البحث في الشعرية العربية وجهة تاريخية، وينظر لعمل المحدثين، على أنه عمل منفتح على نصوص سابقة، وسيطرح البحث في الشعرية، سؤال القيمة الجمالية في شِعر هؤلاء، وعوض النظر إلى أدبهم من حيث فعله، ووظيفته، سيُنظر إليه من حيث جماليتهُ، وشكله، أو من حيث عناصره الجمالية، وتم التركيز على بنيته، وعلى علاقاتها مع البنى السابقة لها، فدخل مبحث السرقات الأدبية، بمفهومها الشعريّ، وليس الأخلاقي، ضمن مباحث الشعرية العربية، وعلى يد ابن المعتز، الذي عرض ألوان البديع، وحاول أن يردّها إلى أصولها في القرآن، والحديث، وأقوال المتقدمين، وشعرائهم، فكان هذا الفعل من لدنه موجّهًا النقادَ، بطريق غير مباشر إلى استخدام هذه المقاييس، في نقد المعاني الشعرية، وبيان التفاعل الحاصل بين النصوص، خاصة وأنّ الدراسات الإعجازية، شكلت تطورًا هامًّا، ومنعطفًا أساسيًّا في الساحة النقدية؛ إذ خلقت الدراسات حول النص القرآني، مفاهيم جمالية جديدة، أرسى قواعدَها علماءُ الكلام من المعتزلة[٤٥].

لم تكن نظرية البديع منحصرة في نظرتها إلى الشعرية، على الصياغة الفنية، وتكلّف الأدباء، والشعراء فيها، بما وظفوه من ألوان البديع الكثيرة فحسب، بل تعدّت ذلك بالنظر إلى المعاني التي جاء بها المحدثون، أوصلهم ذلك النظر، إلى تركيز البحث حول السرقات الشعرية، وتفريعاتها، وما ترتّب عنها من توالد للمعاني الجديدة، التي لم يعهدها العربي، حتى غدت تلك الدراسة، سمة تلازم بحوث المتأخرين، ويعزى السبب في ذلك كله، إلى

محاولة الشعريين المتأخرين البحث عن وسائل بديلة تسنح للمحدث من المبدعين الخروج من قيد التقليد؛ لأنّ السابقين قد استنفذوا جيّد الألفاظ والمعاني، وما أمام المتأخر إلا مجال تحوير هذه المعاني، وتلوينها بالصور، وتحسينها بالمحسنات البديعية، كما رأى ابن الأثير.

لكن الشعريين العرب المتقدمين عنه نسبيًّا، لم يعتبروا أنّ كل ما هو وجه من وجوه البديع، هو أصل من أصول الصياغة الفنية، وعامل من عوامل شعرنة الكلام، وإن كان ابن المعتز قد عرّف الألوان البديعية، في كتابه "**البديع**"، فإنه لم يخف وعيه باختلاف مستويات هذه الألوان، وتميّز الاستعارة، بفعلها الأكبر في شعرنة النص، مقارنة بأوجه البديع الأخرى، لأنها تجاوز للكلام المألوف، وتوسيع للمعاني، وهي: «أحد أعمدة الكلام، وعليها المعوَّل في التوسع والتصرف، وبها يُتوصل إلى تزيين اللفظ، وتحسين النظم والنثر...»(٤٦).

أمّا ألوان البديع الأخرى، من طباق، ورد الأعجاز على الصدور، وما إلى ذلك مما أورده ابن المعتز في كتابه "**البديع**"، ومَنْ سار من بعده على نهجه، فإنها لا تنزل منزلة الاستعارة في تجويد الكلام: «فالتجنيس إمّا عبث لفظي يعتمد على الاشتقاق، ولا يستند إلى غير التداعي الشكلي، وإمّا لعبٌ بالمعاني، ومهارة في استخدام مفردات اللغة المتحدة أو المتقاربة في اللفظ والمختلفة المعنى...والطباق مجرد مقابلات بين المعاني... وردُّ أعجاز الكلام على ما تقدمها هو الآخر حلية لفظية، ولباقة في طرق الأداء. والمذهب الكلامي نوع من الجدل العقلي، والقدرة على توليد المعاني،

وهو ليس من جوهر الشِّعر، ولا من جوهر التفكير المنتج[٤٧]، وستغدو الاستعارة باعتبارها أحد أعمدة الكلام الفني، بما لها من خصائص فنية وفاعلية تخييلية، حلقة الوصل بين نظرية عمود الشِّعر، باعتبارها بنية مغلقة، ومدرسة البديع، باعتبار نصوصها نصوصا مفتوحة، عن طريق تعالقها مع النصوص السابقة؛ لأنها الوسيلة الوحيدة التي يمتلكها المبدع المحدث، لتوسيع المعاني المطروقة من قبل القدماء، والانفتاح على نصوصهم، دون أن يخل بنظرية عمود الشِّعر.

وعليه فإنّ الاستعارة ستأخذ مكانتها، ضمن مقومات الشعرية العربية، لحظة اختناق التنظير للشعرية العربية، على الرغم من شبهة التداخل، والاختلاط في الحدود، والمعالم التي ظلت تلازمها[٤٨]، فكان من الشعراء أن جرَوا في ذلك: «...على نهج منها قريب من الاقتصاد، حتى استرسل فيه أبو تمّام، ومال إلى الرخصة فأخرجه إلى التعدِّي، وتبعه أكثر المحدثين بعده، فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة، والتقصير والإصابة، وأكثر هذا الصنف... يُمَيَّز بقبول النفس ونفورها، وينتقد بسكون القلب ونُبُوِّه. وربما تمكنت الحجج من إظهار بعضه، واهتدت إلى الكشف عن صوابه أو غلطه»[٤٩]، خاصة وأنّ الشِّعر العربي، بدأ يفقد شيئًا فشيئًا تقاليده الشفاهية، بداية من العصر الإسلامي، حتى بلغت أوجها في عصر التدوين.

ونظر أصحاب العمود الشعري في لغة أبي تمّام، التي اعتمد فيها على نفسه، ولم يسلك مسلك الشعراء قبله، فوجدوا أنّ غوص أبي تمّام على المعاني، كان لحرصه على إظهار دور الفكر في النص الشعري، من خلال

إكساب الفكر سمة شعرية خاصة ومميّزة، وأشكال الفهم الشعري ودعاوى التجديد، التي انطلق منها بشّار بن بُرد، وأبو نواس، هي ذاتها التي انطلق منها أبو تمّام، فجاء شِعره نابعًا: «عن صنعة ووعي لما يفعل وأنّ الطبع فيه ضعيف الحظ، وهو رجل خبر الشِّعر ودرسه منذ الجاهلية إلى عصره»[٥٠]، وتعدّ "**الحماسة**"، خير دليل على سعة اطلاع الرجل، وخبرته بالتراث الشعري العربي، التي مكنته من الوعي، بأنّ التجديد كامن في اللغة، وأنّ الشعرية لا تتجلى إلاّ من خلالها.

لقد أصبح التعبير بالصور الاستعارية، بداية عهد جديد: «يفتح أفق الحساسية والتأمل، بحيث لا يعود المعنى شيئا محددا منتهيا، وإنما يصبح شيئًا يتفتح ويتسع»[٥١]، كما غدت القصيدة العباسية (المحدثة) مختلفة، من حيث طبيعةُ استقبالها عن القصيدة القديمة، ففي الحين الذي كانت فيه القصيدة التقليدية، توجَّه إلى جمهور متلقٍّ ممثل في عامة الناس، لا يتطلب منهم الأمر سوى استقبال المعنى بغنائية، والمحدد دلاليًّا سلفًا، بكلمات واضحة، اعتاد الناس عليها، من خلال استخدامهم اليومي لها، أصبح النص الشعري العباسي (لأبي تمّام، والمتنبِّي)، يتطلب من جمهوره الخوض في المغامرة الإبداعية، التي تتطلب نوعًا من الاستحضار للتجارب، والمعارف، واستنفارًا للمستقبلات الحسية، والشعرية، بهدف استقبال طيف واسع من المعاني، والانفعالات، تشعّ من خلال كلمات تحكمها علائق دلالية، وإيقاعية، ونحوية، جديدة مقارنة بالقصيدة التقليدية، هكذا أضحى فهم الشعرية بالنسبة لأبي تمّام، وابن المعتز، والمتنبِّي،

وصالح عبد القدوس، والنمري، وغيرهم من شعراء العصر العباسي، الذين كانوا من المجددين(٥٢).

إنّ الشعرية (الصفة) بحسب التجربة الشعرية الجديدة، هي حاصل التفاعل بين الكلمات، في علائقها الجديدة، التي أصبحت تنمّ عن دلالات جديدة، تُوّلد لدى المتلقّي -الذي لم يعد هو كذلك عاديّا- إيحاءات خاصة، اعتمادًا في الأساس، على ما تختزنه ذاكرته من تجارب سابقة، وما يثيره بناء النص التخييلي من مشاعر، تجعله يتهيّأ في تناغم النص، مع إطار مناخه العامّ؛ لسبر أغوار المعنى، والرؤيا، أو الحالة الشعورية التي يحملها النص، كما أنّ المتلقّي المؤهل، لخوض هذه التجربة الإبداعية الجديدة، في قراءة العمل الأدبي (الشّعر)، لم يعد ذلك العربي البسيط، ذاك أنّ التجربة الجديدة، أصبحت تتطلب منه تجربة مع الكلام، وأبعاد الكلمات، لم يعد المعنى، كما قال ستانلي فش: «شيئًا يستخلصه المرء من قصيدة ما، كاستخلاص الجوزة من قشرتها، إنما هو تجربة المرء في أثناء القراءة»(٥٣)، وبمعنى آخر إذا كان يُكتفى في شِعر المطبوعين بنقل التجربة والخبرة المحدودتين، التي لا تتعدّى في مجملها الملاحظات الظاهرة والحسّ المباشر، فإنّ شِعر أصحاب الصنعة عمل على إثراء النص وصهر تجربة واعية وهي تتعامل مع التراث سواء العربي أو العالمي في إطار الانفتاح الحضاري، وعليه يمكن القول إنّ «نصّ الطبع هو نص مغلق، ولا ينفتح إلاّ قليلا على الاستحضار، ...أمّا نص الصنعة فهو مفتوح على احتمالات نصوصية متنوعة، وبنى تعبيرية ثرية»(٥٤)؛ لذلك لم يعد الشّعر

الذي كان له الدور السياسي، والاجتماعي المباشر قبل العصر العباسي على نفس الحال، ولم تعد مهمة الشاعر مهمة جماهيرية آنية، وهذا ما جعل الشعراء يركزون -على الأقل- لضمان أجيال من المتلقِّين، على الدفع بموضوعات الشِّعر، نتيجة تغير إيقاع الحياة، نحو الانفتاح على حقول عامة، تخص الناس جميعًا، وعلى المبنى، لضمان امتداد تواصلي عبر الأجيال، فالمتنبِّي مثلاً، كان مؤْمِنًا أنّ الذي يهمّ، ليس وجود جمهور عريض في عصره يُفتن بشِعره، كما فُتن أراذل الناس بالشِّعر الساقط أخلاقيًّا، المتماشي مع الأهواء، -وإن افتخر بشِعره الذي سمعه الأصم وقرأه الأعمى- لأنه شِعْر فاقد لبريقه، بعد زوال اللحظة الراهنة، أمّا الشِّعر الجيّد، فهو الشِّعر المثقف، المترفع عن هوى الداسة من القوم، إنه الشعر الفتان الذي يضمن: «أن يكون له دائمًا على الأقل، جمهور قليل من المستمعين في كلّ جيل»[٥٥]، لأنّ المتنبِّي، واحد من الذين آمنوا أنّ شِعرًا في قوة شِعره، لن يخوضه إلاّ قارئ مؤهل لخوض هذه التجربة الإبداعية في قراءة الشِّعر: «تتوفر لديه تقنية خاصة مرتبطة بحساسيته، وبواقعه الإنسانيّ والحياتيّ، وبتجاربه مع الكلام، وأبعاد الكلمات لكي يصبح هو أيضًا على قدر من الشفافية، والطهارة الداخلية يتيح له أن يلج عالم الشِّعر»[٥٦].

لقد تركز اهتمام الشعريين العرب، ومنظري الشعرية بهذا الفهم، على النص، وعلى استخلاص أدبيته، من خلال السفر إلى دواخله، وكشف خباياه، سواء كان نثرًا ممثلاً بالنص المعجز، وهو القرآن، أو شِعرًا، فهي الشعرية، التي حاولت أن تؤسس نظامًا وِفْقَهُ يُصَنَّفُ الكَلاَمُ، كان مسكونًا

بالآخر (المتلقِّي)، وهو يحدد رؤيته، ويؤسس للشعرية، لأنه نظام انطلق من الرؤية البيانية، التي رافقت النص المُبدع، وكرسها الكتاب المنزل، إنَّها الرؤية التي لا تقصي الآخر؛ لأنه من يقع عليه التأثير، وإليه يتجه الخطاب، والذي من خلاله تتحدّد الجودة، والرداءة، إنه نظام يتراوح بين المدّ والجزر، وسط مجتمع له سطوته، وتقاليده، تشكل نتيجة صراع، سرعان ما وقع فيه شعريّونا، عند محاولتهم التأسيس، والتأصيل، مرة عن طريق الإقصاء (إقصاء ما هو خارجي عن النص)، ومرة أخرى، عن طريق نقض، أو تطوير بعض الجزئيات، التي تَشكل الرأي حولها، بفعل النزاع الذي قام بين القدماء، والمحدثين من الشعراء، وهو صراع دائم، أدّى أحيانًا إلى التجاوز، الذي ساهم بدوره، في ضمِّ البديع إلى عمود الشِّعر.

هكذا تَشكّلت مقاييس الشعرية العربية، جامعة كلَّ ما ينهض بالكلام الأدبي، ويجعله بحق أدبيًّا، محتويةً للنص بصفة عامة، مبعدة لعمليتي الإقصاء، والإسقاط، معتمدة خلال التأسيس، نوعًا من التجاوز، والتطوير، أو النقض في أغلب الأحيان، فغدا النص النقدي حالمًا، يبحث عن تشكيل متكامل، عن طريق العودة من جديد، إلى النقض، والتقصي، والبحث عن مواطن الشعرية في النصّ المُبدع، وعلى مناحي الجمال المؤثر، الذي يتمتع بنوع من السلطة، على هذا الحال، كان النص النقدي، متأرجحًا بين الإثبات، والنفي، في حركة لولبية، جاعلاً من التأسيس، والتأصيل في كل مرة، معاودة إلى مكوّنات النص، بأشكاله المختلفة، لقد كانت نصوص الشعريين العرب، وهي تحاول التأسيس

للـشعرية العربيـة، حـال مـن التّرحـال في النـصوص الإبداعيـة، ترصـد الظاهرة، التي كانت تَعرضُ للرأي، والنقض، وسرعان ما تتحول إلى قانون، وعندما يصير كذلك، يكتسب ماهيته كقانون، فيكتسح جميع الكتابات النقدية، ليصبح ثابتًا من ثوابت الشعرية العربية، التي تأسست بين حركتي المدّ والجزر، زهاء القرنين، من الأصمعي إلى عبد القاهر الجرجاني، وابن رشيق القيرواني.

**الهوامش:**

* جامعة الشلف- الجزائر.

(١) ابن المعتز، عبد الله، **البديع في نقد الشّعر**، طبعة كراتشكوفسكي، لندن، ١٩٣٥، ص ص٧٣-٧٤.

(٢) القاضي الجرجاني، **الوساطة**، ص ص٣٣-٣٤.

(٣) الآمدي، **الموازنة**، ص١١، ١٢٥، ٢٢٧، ٢٥١، ٢٥٢.

(٤) ابن قتيبة، **الشّعر والشعراء**، ص٥٠٤.

(٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص٥١.

(٦) شوقي ضيف، **الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي**، دار المعارف، القاهرة، ط١٠، ص١٧٦.

(٧) ابن قتيبة، **الشّعر والشعراء**، ص١٠-١١.

(٨) الآمدي، **الموازنة**، ص٣٧٨.

(٩) ابن المعتز، **البديع**، ص١٥٢.

(١٠) قدامة بن جعفر، **نقد الشّعر**، ص٦٥.

(١١) ابن المعتز، **البديع**، ص٥٨.

(١٢) ابن رشيق، **العمدة**، ج١، ص٤٢٣، ج٢، ص ص٩٨٥، ٩٩٨.

(١٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٩٨.

(١٤) ابن قتيبة، **الشّعر والشعراء**، ص١١.

(١٥) المرزباني، **الموشح**، ص٣١٠.

(١٦) **فصول** (مجلة النقد الأدبي)، مج٤، ع٣، ١٩٨٤، ص٦٧.

(١٧) أدونيس، **الشعرية العربية**، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٩ ص٨٠.

(١٨) أبو نواس، ديوانه، ص٢١.

(١٩) الجاحظ، **الحيوان**، ج٣، ص١٣٠.

(٢٠) أبو تمّام، ديوانه، ج١، ص ص٤٠-٧٣.

(٢١) **شرح ديوان صريع الغواني**، مسلم بن الوليد، حققه وعلّق عليه الدكتور سامي الدّهان، ج١، ص٢٣.

(٢٢) إبراهيم سلامة، **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان**، القاهرة، ط٢، ١٩٥٢ ص١٣٩.

(٢٣) شكري المبخوت، جمالية الألفة، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٣.ص٥٨.

(٢٤) بشرى موسى صالح، **نظرية التلقي** (أصول و تطبيقات)، ص١٣٩.

(٢٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص، ص١٣٨، ١٣٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ج١، ص٩٩.

(٢٧) قدامة بن جعفر، **نقد الشِّعر**، ص١٠٦.

(٢٨) ابن طباطبا، **عيار الشِّعر**، ص ص٧-٨.

(٢٩) الآمدي، **الموازنة**، ص١١.

(٣٠) والترج، أونج، الشفاهية والكتابية، تر. حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة، الكويت، سلسلة ١٨٢، ط١، ١٩٩٤، ص ص١٩٨-١٩٩.

(٣١) ابن رشيق، **العمدة**، ج٢، ص٩٩٢.

(٣٢) الآمدي، **الموازنة**، ج١، ص١٧.

(٣٣) المصدر نفسه، ص٢٠.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٥٣.

(٣٥) الآمدي، **الموازنة**، ص٢٠.

(٣٦) المصدر نفسه، ص١٢٥.

(٣٧) أدونيس، علي أحمد سعيد، الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ج٢، ص١٨٨.
(٣٨) المرجع نفسه، ص١١٧.
(٣٩) المرجع نفسه، ص١٨٨.
(٤٠) المرجع نفسه، ص١١٧.
(٤١) المرجع نفسه، ج٢، ص١١٦.
(٤٢) القاضي الجرجاني، الوساطة، ص٣٤.
(٤٣) الآمدي، الموازنة، ج١، ص١٩.
(٤٤) ابن رشيق، العمدة، ج١، ص٢١١، ٢١٢.
(٤٥) الياس الخوري، الذاكرة المفقودة، ص١١.
(٤٦) القاضي الجرجاني، الوساطة، ص ص٤٢٨.
(٤٧) محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط١، ص٥٨.
(٤٨) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤، ص٢٤٢.
(٤٩) القاضي الجرجاني، الوساطة، ص٤٢٩.
(٥٠) محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص٥٥.
(٥١) أدونيس، الثابت والمتحول، ج٢، ص١٩٤.
(٥٢) كمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، تتقدمه مقالة حول خطاب نقدي، تر. مبارك حنون وآخران، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١. ص ص٦١-٧٠.
(٥٣) نزار بريك هنيدي، **في مهب الشِّعر**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٣، ص١٥.
(٥٤) مصطفى دراوش، خطاب الطبع والصنعة (رؤية نقدية في المنهج والأصول)، ص٢٣٦.
(٥٥) ت. س، إليوت، الشِّعر والشعراء، تر. محمد جديد، دار كنعان، دمشق، ط١، ١٩٩١، ص١٧.
(٥٦) نزار بريك هنيدي، **في مهب الريح**، ص١٥.

# السفينة في المعجمية العربية
# قراءة في آفاق القدرة والمرونة اللغوية
# (٢)

بقلم: د. خالد فهمي إبراهيم*

**ثانيًا– البنية الصغرى للمعجم:**

بدا من تحليل البنية الكبرى للمعجم أنّ كندرمان كان حريصًا على تطبيقات النظام الألفبائي غير الجذري (الذي يراعى ترتيب الكلمات وفق صيغتها النهائية المستعملة)، وقد طبّق هذا النظام خارجيًّا (أو باب الألِف والباء والتاء... إلخ)، وداخليًّا؛ أي التزمه في داخل كل باب (فصول الثواني والثوالث... إلخ).

وقد كشف تحليل معلومتنا ما تحت المداخل عن حرص كندرمان على العناية بعدد من المعلومات الموزعة على نوعين هما:

أ– معلومات الشكل، والصيغة.

ب– معلومات المعنى، والمضمون.

وفي ما يلي تحليل لطائفة من النماذج تكشف عن ملامح عنايته بمعلومات البنية الصغرى الموزعة على معلومات التعليق على الشكل ومعلومات التعليق على المعنى:

١- أسطول، يفتح كندرمان معجمه بالمدخل (أسطول ص٢٣)، معلقًا عليها بعدد من معلومات الشكل والمعنى كما يلي:

أ- جمعها أساطيل/ وتنطق (صطول أيضًا) وأورد أنّ (أسطول) تستعمل بمعنى الجمع.

ب- اختلف في أصلها على قولين (عربية/إغريقية) معناها: المراكب الحربية المجتمعة.

ومن فحص هذا المثال نرى أنّ كندرمان اعتنى في التعليق على المدخل بالمعلومات التالية:

- معلومات الهجاء والنطق، "وتنطق: صطول أيضًا".

- معلومات صرفية، إذ ذكر أنها تستعمل: مفردة، وتستعمل فتعنى الجمع؛ ولعل ذلك راجع إلى أنّ الأسطول بطبيعته مجتمع من المراكب الحربية.

- معلومات الاشتقاق والتأصيل، إذ أورد قولين، بعربيتها، وإغريقيتها، وهو أمر مهم في السياق الحضاري.

- ذكر تعريفها، وهو أهم معلومات التعليق على المعنى.

- ذكر بعضًا من المعاني التي ظهرت واختصت بها بعض البيئات، وهو ما يخدم الإحاطة بمستويات الاستعمال للكلمة.

٢- تكنة، أورد كندرمان المدخل (تكنة ص٦٠) وعلّق عليها بمجموع التعليقات التالية:

أ- معلومات المعنى؛ التعريف (هي سفينة نقليات في البصرة وبغداد وما يجاورهما)؛ أي أنها مركب نقل محلية نهرية (وهي جسم سفينة من دون صارية أو شراع) (يتردد ذكرها في كتب الرحلات: وتصنع من شجر النخيل والقوت، وتستعمل في نهر الفرات، وتطلى بقار كثيف، وهي طويلة وعريضة، وتحمل في حدود ألفي قنطار (القنطار= ٥٠٠ كجم)، وبها حجرتان صغيرتان للبحارة مع صارية واحدة وستة مجاذيف/ وذكر بعض الرحالة: أنها سفينة حربية صغيرة، بأرضية مستوية.

- قرر أنّ أصلها تركي.

ب- معلومات الشكل، ذكر أنّ بعض من ذكرها قال إنّ التاء أصلها دال، وتحولتْ صوتيًّا.

من تحليل هذين النموذجين يتضح لنا ما يلي:

**أولاً**- وعي كندرمان بطبيعة ما ينبغي ذكره من معلومات ما تحت المداخل، مما له أثره في بيان معنى نوع السفينة موضع التعليق.

**ثانيًا**- عدم الانتظام في إيراد معلومات ما تحت المداخل، فثمة اضطراب يتعلق بنوعي المعلومات؛ حيث يفتتح التعليق أحيانًا بمعلومات الشكل، منتهيًا بمعلومات التعليق على المعنى، وفي أحيان أخرى يكون العكس فيبدأ بمعلومات التعليق على المعنى منتهيا بمعلومات التعليق على الشكل، أو نقلا من بعضها لبعضها، كما ظهر في المثالين السابقين.

**ثالثًا**- ثمة رعاية لما يمكن أن يسهم في المعلومات التاريخية والحضارية، تظهر من رعاية وظيفة السفينة، وحجمها، ومادة تصنيعها، وشكلها... إلخ.

**رابعًا**- العناية بمعلومات التأصيل اللغوي، إذ كان حريصًا على بيان الأصل اللغوي الذي تنحدر منه أسماء السفن المذكورة في المعجم.

ولمعلومات التأصيل هنا أهمية خاصة؛ لأنها كاشفة عن العلاقات التاريخية بين العرب وغيرهم، وعن العلاقات التجارية والاقتصادية مع العالم، وعن كثير من ملامح التاريخ الاجتماعي المحلي لعدد من الحواضر العربية... إلخ.

**(٢/١/٢) ١٩٧٤م/ درويش النخيلي= السفن الإسلامية على حروف المعجم.**

صدر هذا المعجم سنة ١٩٧٤م عن جامعة الإسكندرية بمناسبة اعتزامها إصدار كتاب يؤرّخ لتاريخ التجربة المصرية على امتداد العصور.

وكان الأمر موكلاً إلى الدكتور جمال الدين الشيال الذي ابتدأ العمل، ثم لحق بربه الكريم سنة ١٩٦٧م وخلّف وراءه عددًا من البطاقات، اعتمدها الأستاذ درويش النخيلي مصدرًا من مصادر معجمه هذا.

وسنقف في فحص هذا المعجم عند أقسامه التالية:

أ- المقدمة.

ب- النص (نص المعجم).

ج- الكشافات (فهارس المعجم).

(أ)

## المقدمة

افتتح درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم بمقدمة تضمنت ما يلي:

**أولاً**- ظروف الدعوة إلى إنجازه، إذ يكشف أنه صنع ليكون ملحقًا لكتاب ضخم يؤرخ للبحرية المصرية دعت إليه، وكلّفت به ورعته جامعة الإسكندرية (ص١ من المقدمة) و"وارتأت أن يلحق بهذا الكتاب معجم يتناول دراسة منفصلة لأنواع السفن التي عرفها العالم الإسلامي".

وقد مر هذا المعجم بمرحلتين هما:

**الأولى**: مرحلة البدء، شرع فيها الدكتور جمال الدين الشيال المتوفى سنة ١٩٦٧م، "وجمع بعض مواد هذا المعجم في بطاقات" ولم يكمل الرجل ما بدأه؛ إذ لحق بربه الكريم في الثاني من نوفمبر سنة ١٩٦٧م.

**الأخيرة**: مرحلة الإتمام، أتمها الأستاذ درويش النخيلي، إذ كلّفته "اللجنة المشكلة بجامعة الإسكندرية بأن (يشرع) في ما لم يبدأ فيه... الراحل ليخرج الملحق الخاص بالسفن بالصورة العلمية المناسبة" وأمدّته بالبطاقات التي سبق أن جمعها الدكتور جمال الدين الشيال.

وقد كشف النخيلي عن مصادره التي اعتمدها في إنجاز هذا العمل، وتمثّلت في ما يلي:

١- بطاقات الدكتور جمال الدين الشيال التي كان جمعها قبل وفاته؛ يقول: "رأيت أن يكون عنوان الكتاب هو: السفن الإسلامية على حروف

المعجم... على أن يكون: معجم السفن العربية، المخطوط (للدكتور جمال الدين الشيال) واحدًا من المراجع التي رجعت إليها في تأليف هذا الكتاب".

٢- كتاب هانز كندرمان، عن السفينة في اللغة العربية الذي سبق الكلام عنه هنا في هذه المقالة.

٣- مجموعة من المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية وكتب الرحلات والمعجمات ودواوين الشعراء وغيرها، أحال عليها في قائمة المراجع.

ومن جانب آخر فقد سكت النخيلي عن أمور مهمة هي:

١- بيان منهج المعجم، وترتيب مداخله.

٢- إرشادات استعمال المعجم.

٣- أنواع المعلومات المذكورة في المعجم.

٤- ترتيب المعلومات المذكورة تحت كل مدخل.

ولعله سكت عن بيان طريقة الترتيب اكتفاء بما ورد في عنوانه من أنه على حروف المعجم!

## (ب)

## نص المعجم

جاء المعجم (السفن الإسلامية على حروف المعجم) مرتَّبًا على النظام الألفبائي الذي يراعي شكل الكلمة النهائي في الاستعمال؛ أي من دون اعتبار للجذور، وهو نظام شائع في العصر الحديث من شأنه أن يحقق ما يلي:

**أولاً**- التيسير على المستعملين.

**ثانيًا**- التخلص من مشكل الكلمات الأعجمية التي لا جذور لها.

وقد تغلب على ما يمكن أن ينشأ من تشتيت للكلمات المترابطة بتطبيقات الإحالة التي صنعت تماسكًا معجميًّا، وتغلبت على التشتيت المتوقع!

وتتلخص طريقة النخيلي في بناء معجمه في المحورين التاليين:

**أولاً- البنية الكبرى للمعجم**، حيث بناه وفق الترتيب الألفبائي خارجيًّا، حيث رتبه أبوابًا على حروف المعجم، لكل حرف باب هجائي، ورتبه داخليًّا وفق المنهج نفسه كذلك، فراعى الثواني والثوالث وفق ترتيبها الألفبائي.

**ثانيًا- البنية الصغرى للمعجم**، حيث ضمّنه مجموعة من المعلومات تحت كل مدخل تضمنت ما يلي:

١- التصريف والاشتقاق لكل مدخل/ كلمة.

٢- تاريخ استعمال الكلمة/ المدخل.

٣- التأصيل اللغوي للكلمة.

٤- نقل نصوص استعمل فيها اللفظ/ المدخل.

٥- دلالة المدخل (نوع السفينة).

٦- ذكر مكافآته الترجمية في عدد من اللغات الأوربية، كالإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية.

٧- توثيق المدخل عند من سبق أن ذكره، أو علّق عليه.

وفي ما يلي فحص تحليلي لعدد من أسماء السفن تكشف عن منهجية النخيلي في بناء المعجم:

- في التعليق على مدخل (الإبريق) يذكر النخيلي: المدخل (إبريق) دون "ال" مطبوعًا بحجم طباعي مائز (أسود غليظ) في مساحة مستقلة في السطر، وهذا التحرير الطباعي أمر مهمّ للمستعمل ثم يورد تحته ما يلي:

١- موجز لمعلوماته اللغوية (الصرفية) فيقرر أنه: في اللغة: الإناء وأنه مفرد جمعه: أباريق.

٢- موجز لمعلومات التأصيل، فيقرر: أنه من أصل فارسي، ذاكرا:

أ- أصله في لغة الأصل وهو: آب رى/ أبريه/ أبريز.

ب- توثيق تأصيله من المعرب للجواليقي (ص٢٦٥).

ج- نصوص استعماله في العربية، فيذكر الشاهد القرآني: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ [سورة الواقعة ٥٦/١٧].

٣- تاريخ استعماله، فيقرر أنه مستعمل منذ القرن ١٩م.

٤- ذكر دلالته ونوعه وأنه سفينة حربية خفيفة كانت تعمل في البحر الأبيض المتوسط، ويقرر أنّ معرفة العثمانين لها ربما تعود إلى القرن ١٨م، وأنها كانت ضمن قطع الأسطول المصري.

٥- نقل نصوصًا من الجبرتي تفيد صناعتها في عهد محمد علي.

٦- ذكر مكافآته الترجمية، فالإبريق في الإنجليزية Brig، وفي الفرنسية Brick, Brigantin، وفي الإيطالية Briganlime أي: سفينة القرصان.

٧- تطور المعنى، إذ أطلق في بعض الكتابات على المركب الشراعي ذي الصارين، والقلوع المربعة، المزوّد بمدافع، ولكن الدكتورة سعاد ماهر فرقت بين اللفظين الفرنسيين ليكون هو الإبريق ويكون الأخير (برجنتين) للسفينة الحربية الصغيرة الخفيفة.

٨- وقد قصر النخيلي في مجموعة من المعلومات من مثل:

أ- معلومات النطق وإن كان واضحًا بالصور الإيضاحية (الموضحات).

وفي التعليق على مدخل (كشاف) بتشديد الشين المعجمة، الذي يذكره وفق العادة في سطر مستقل (مساحة طباعية مائزة) وبحجم طباعى مائز (أسود/غليظ) يقرر ما يلي: (ص١٣٢-١٣٣).

١- معلومات النطق، وإن أوردها في الهامش السفلي مرموزًا إليها بعدد من النجمات وردت بجوار المدخل. وقال: بتشديد الشين المعجمة، وطريقة قديمة حاسمة تعرف باسم الضبط بالتقييد.

٢- معلومات التعليق على المعنى التي تدور حول ما يلي:

أ- نوع السفينة، فهي "من سفن المدرعات الحربية"، وهي نوعان: نهرى/ ورائد.

ب- تاريخ ظهورها واستعمالها، فهي مستعملة من تاريخ العثمانيين في حوض البحر الأبيض المتوسط في النصف الثاني من القرن ١٩م.

ج- ذكر مرادفاته اللغوية، ويعرف هذا النوع باسم رائد.

١- معلومات موسوعية، تدور حول ما يلي:

أ- ذكر مكافئه الترجمى: "ويعرف هذا النوع باسم رائد أو مونيتور Monitor

ب- بعض من استعمله من غير العرب والمسلمين "وقد استخدمه الفرنسيون هذا النوع من المدرعات في هجوم على تونس في عام ١٨٨١م.

ج- عدد ما كان يملكه العثمانيون (ثلاث قطع)، وطوله (٥٣م/٦٨م).

٢- نقل نصوص داعمة للمدخل واستعماله.

٣- توثيق معلومات في الهامش السفلي.

ويلاحظ على معالجة النخيلي لمعلومات ما تحت المداخل ما يلي:

**أولاً**- الاضطراب التنظيمي؛ بمعنى أنه لا توجد خطة يخضع لها ترتيب المعلومات الصانعة لأفق التعليق على المدخل/ الكلمة، فهو يبدأ أحيانا بمعلومات التعليق على الشكل (المعلومات الصرفية وغيرها)، وفي أخرى يبدأ بمعلومات التعليق على المعنى (الأنواع، والتأصيل وغيرهما).

**ثانيًا**- عدم الاطراد في نوع المعلومات المذكورة، بمعنى أنه لا يميّز بين المداخل في التعليق.

صحيح أنّ جسم التعليق الأساسي ثابت وهو يتركز حول:

أ- المعنى، أو نوع السفينة.

ب- تتبع تاريخ استعمالها.

ج- مستوى الاستعمال، أو لابسات الاستعمال.

ولكن عدم الاطراد، وهو ما يعني غياب بعض المعلومات أو حضورها ظاهر، فمعلومات الهجاء، ومعلومات الصيغة، ومعلومات الاشتقاق لا تظهر باستمرار مع كل مدخل.

## (ج)

## الكشافات (فهارس المعجم)

ألحق الأستاذ درويش النخيلي بمعجمه كشافين أساسيين، هما:

١- كشاف (فهرس) أسماء السفن، وجعله على فرعين:

أ- بالعربية.

ب- بالإفرنجية.

٢- كشاف (فهرس المصادر والمراجع)، وجعله قسمين هما:

أ- المصادر والمراجع العربية.

ب- المصادر والمراجع الأجنبية.

ورتبهما ألفبائيًّا، وفق الشكل النهائي المستعمل لأسماء السفن، وزاد صفة نوعية إيجابية على كشاف أسماء السفن العربية، وهي أنه كان يذكر بجانب الوحدة من المعلومات المكشفة: بعض المعلومات الصرفية بين هلالين (انظر: إبريق (ج: أباريق) وأشكيف (جمع: أشاكيف وأشكيفات) وبراكية (جمع: بركان) وهكذا).

وفي الكشاف الإفرنجي لأسماء السفن الذي جاء مرتبًا وفق النظام الألفبائي أيضًا فاته أن يضع أمام كل اسم نوع لغته، ولا سيما أنه كان يذكر مكافآت ترجمية من لغات كثيرة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية.

أمّا الكشاف الخاص بالمراجع والمصادر، فقد اعتمد اسم المؤلف وفق المشهور مدخلاً للترتيب، من غير ترقيم!

ولم يخصص النخيلي جزءًا للملاحق من أيّ نوع، متخلفًا عن سابقه كندرمان.

**(٣) مصطلح السفينة :**

## قراءة في نتائج التأصيل اللغوي

كان التأصيل اللغوي من المعلومات التي انشغل بالعناية بها أصحاب معجمات السفينة في العربية، مما مر التوقف أمامها.

وفحص هذا النوع من معلومات ما أورده هؤلاء المعجميون تحت المداخل في سياق التعريف والتعليق على أسماء السفن العربية الإسلامية قائد إلى نتائج مهمة وخطيرة في سياق تقدير اللسان والحضارة العربيتين معًا.

**(١/٣) العربية تنجح من جديد.**

إنّ كثيرًا من أسماء السفن التي جمعها أصحاب معجمات السفينة في العربية جاء عربيًّا خالصًا، وهو ما يفتح الباب أمام القدرات الهائلة التي يمتلكها اللسان العربي، ومن طريقها استطاع توليد الأسماء الكثيرة المتنوعة لأنواع السفن.

وكانت أكثر طرق توليد أسماء السفن ظهورًا في الإنتاج والتفعيل متمثلاً في ما يلي :

**(مظاهر الاستحداث)**

**أولاً– الاشتقاق**

إنّ الاشتقاق طريق أصيلة في توليد الألفاظ، وهي من خصائص النظام اللغوي للسان العربي ؛ إذ العربية لغة اشتقاق، به تنمو ويزداد رصيدها من الكلمات.

وقد لجأ معجم السفينة إلى الاشتقاق لمواجهة سد العجز الذي كان يمكن أن ينشأ في هذا الميدان، وقد اتخذ الاعتماد على الاشتقاق أشكالاً متنوّعة من مثل استثمار المشتقات التالية:

أ- اسم الفاعل، في مثل: الباخرة/ الباهرات/ الجارية/ سابقة/ قارب، وغيرها.

ب- صيغ المبالغة، في مثل: حمالة (حمالات)، ودكاسة، وطراد/ طيارة/ وكشاف/ ومصباب/ ونقالة، وغيرها.

ج- الصفة المشبهة باسم الفاعل، في مثل: سميرة/ وطريدة/ وغيرها.

د- اسم المفعول، في مثل: مخروط/ومركوش/ومسطح/وملقطة؛ وغيرها.

هـ- اسم الآلة، في مثل: ماعون/ومعبر (معابر)/ومعدية/ومقلقة/ وغيرها.

وقد لجأ معجم السفينة إلى استثمار المصادر في باب التسمية أيضًا مما استثمره في هذا الفرع ما يلي:

أ- المصادر الطبيعية القياسية، في مثل: رمث تطريدة وغيرهما.

ب- المصادر الصناعية، في مثل: بحرية/ ورباعي/ ومدفعية/ وغيرها.

ج- المصادر الميمية، في مثل: معاش، وغيره.

**ثانيًا- الانتقال الدلالي**

التحويل أو النقل الدلالي طريق مأنوسة في زيادة الثروة اللفظية في اللغات المختلفة، وهو تغيير دلالة الكلمة بطريق من الطرق المعروفة، توسيعًا أو تضييقًا، أو بغيرهما من طرق التحويل، كالاستعارة والتشبيه، والمجازات.

وقد لجأ معجم السفينة إلى هذا الباب فاستثمره في خلق أسماء كثيرة من أسماء السفن، ومن ذلك:

- الانتقال الدلالي بسبب المشابهة، في مثل: حمامة/وعقاب/وغراب/ وغيرها.

وكما نلحظ فقد غلب نقل أسماء للطيور للمناسبة الطيران والحركة والسرعة، وهو ما أرداه المعجم لبعض تسميات عدد من السفن، وربما روعي الشكل أيضًا!

**ثالثًا- التعريب**

التعريب أو نقل الكلمة الأجنبية بأصواتها بعد توفيق أوضاعها، لتلائم الأوزان العربية طريق معروفة أيضًا في تنمية الثروة اللفظية في العربية، وهي هنا مستقيمة مع المنطق الذي يقضي بأنّ الذي يحكم النقل من اللغات هو كون المنقولات من الألفاظ الحضارية المستحدثة، ومن ذلك: جالير (من الفرنسية للسفينة الشراعية)، والجنك (من الصينية للمركب الكبير)، والشباك (من الإسبانية لمركب الصيد) والشلندي (من اللاتينية للسفينة مقاتلة).

إنّ هذه الطرق هي الوسائل المعروفة للتدخل العمدي عند إرادة صناعة قائمة خاصة بمجال معيّن أو استحداث قائمة بعينها.

صحيح أنّ كثيرًا من هذه التسميات للسفن العربية، لم تضعه مجامع بعينها، ولكن وضعه الصناع و المستعملون، وهو ما يدل على ملكة لغوية مستقرة في العقل الجمعي العربي، مكّنته عند الضرورة من وضع معجم كامل للسفينة في اللسان العربي، مستثمرًا إمكانات اللغة الاشتقاقية،

ومستثمرًا الطاقات الكامنة في بنيتها من جهة الانتقال الدلالي، بالاستعارة والتشبيهات والمجازات، ثم ناقلاً للتسميات من ألسنتها الأجنبية بعد إجراء نوع توفيق صيغي لتتلاءم المعربات مع قوانين الأبنية الصرفية في النظام اللغوي العربي.

وقد اتضح أنّ الاستحداث (التوليد) اتخذ الشكلين النظاميين المستقرين في علم المصطلحية وهما:

أ- استحداث علاقات بين الدال (اللفظ) والمدلول.

ب- استحداث دوال (توليد ألفاظ جديدة).

**(٢/٣) العلاقات الحضارية للعربية:**

**في ضوء نتائج التأصيل اللغوي لأسماء السفينة في العربية.**

إنّ فحص الطريق الأخيرة من طريق وضع أسماء السفن في العربية، وهو طريق التعريب يكشف عن مجموعة من العلاقات المهمة في سياق قراءة نتائج التأصيل اللغوي لأسماء السفن العربية الإسلامية قراءة حضارية هي كما يلي:

**أولاً- الانفتاح على العالم.**

عكست قراءة طريق التعريب أنّ الأمّة العربية الإسلامية فهمت الطبيعة الحيوية للإنسان، إن بتأثير الإسلام أساسًا، وإن بطبيعة التطور والحاجة المادية للحياة التي تحمله على الانفتاح على العالم، وتبادل ناتج المواهب، ونقل ما يسبق إليه غيره من مستحدثات الحضارة.

وقد ظهرت من خلال اللغات التي أمدّت المعجم العربي بأسماء عدد من السفن الطبيعية المنفتحة للإنسان العربي المسلم على الوجود الخارجي، من أمم الشعوب المطلّة على البحار، فظهرت الإسبانية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية، والصينية والفارسية، سواء كان النقل منها بطريق مباشرة أو غير مباشرة وهو ما يعني أنّ أغراض التجارة بالأساس ما تزال حاسمة في تعيين مباحث التأصيل اللغوي ولاسيما عند الاختلاف حول أصول بعض الكلمات.

**ثانيًا– مرونة العقل العربي المسلم**

لقد كشفت نتائج التأصيل كذلك في باب أسماء السفن عن قدر من مرونة العقل العربي المسلم، و ابتعاده عمّا يسمّى بقيم السلفية السلبية، ذلك أنّ علاقات التبادل، والتأثر طالت أممًا وشعوبًا غير مسلمة، وهو نوع وعي قادر على التفرقة بين المعتقد وطبائع المعاش، وأنّ اختلاف المعتقدات غير مانع من التعايش والتعاون المشترك.

**ثالثًا– قابلية الإنسان العربي للإنجاز الحضاري المادي.**

لقد أظهرت نتائج التأصيل والتحليل الدلالي لعدد من أنواع السفن، ولاسيما في باب المكوّنات والصناعة للسفن أنّ الإنسان العربي حصل مجموعة كبيرة من قيم العلم التطبيقي، وحاز قدرًا كبيرًا بالتجربة والتحصيل من معلومات الكيمياء والفيزياء والفلك والهندسة والرياضة وغيرها ظهرت في كثير من التفاصيل الدقيقة التي تتعلق بصناعة السفينة في المجتمعات العربية على امتداد تاريخ التعامل مع السفن.

**رابعًا– قابلية المجتمع العربي للتطوير**

إنّ قراءة معجم السفينة كاشف عن كثير من الطبائع الاجتماعية التي تطورت بسبب من الصناعة البحرية طالت المناطق التالية:

١- التقسيم الطبقي، والتوزيع السكاني.

٢- تطوير الملابس والأزياء.

٣- تطوير أنواع الطعام والغذاء.

٤- تطوير صناعات بأثر من الارتباط بالبحر، كصناعات المعادن، والحبال، والدهانات، والأطعمة، وغيرها.

إنّ هذه العلاقات تكشف عن كثير من التغيّر أصاب الحياة العربية والإسلامية في كثير من المناطق بسبب دخول صناعات السفن إليها.

**(٤) مصطلح السفينة: أنماطه ودلالاته.**

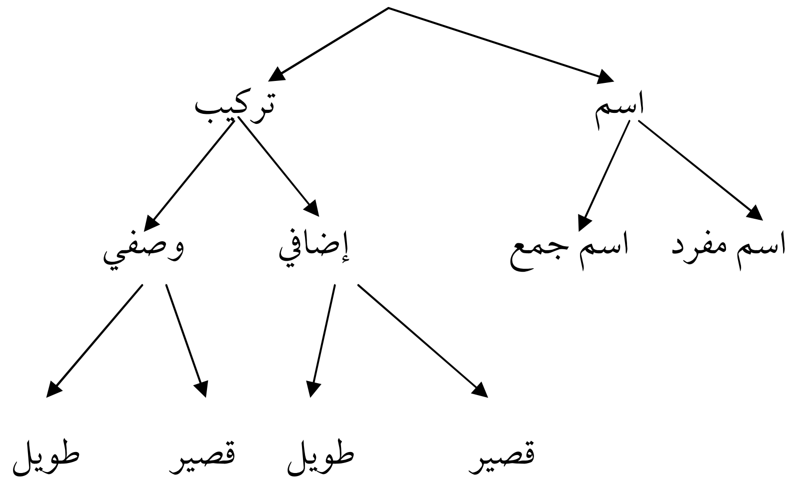
إنّ فحص مصطلحية السفينة في المعجمية العربية من جهتي بنية الصيغ الحاملة لها، ومن جهة أنواعها ووظائفها الدلالية تكشف عن كثير من الأمور.

**(٤/١) أنماط مصطلح السفينة**

تنوّعت أنماط مصطلح السفينة تنوعًا ظاهرًا، لأسباب لغوية في المقام الأول، من أجل أن تقدر على استيعاب كثرة الأنواع.

وقد اتخذت الأنماط أشكالاً لغوية متنوعة، يمكن إجمالها في المخطط التالي:

**أنماط مصطلح السفينة**




١- نمط الاسم المفرد، بتنوعاته المختلفة، من مثل:

آمرة/ وأسطول/ وأفروطة/ وبالوع/ وجفن، وغيرها.

٢- نمط الاسم الجمع، بتنوّعاته المختلفة، من مثل:

بوص/ وديارب/ ومعاشات وغيرها.

٣- نمط التركيب، بتنوعاتها المختلفة، كما يلي:

أ- التركيب الوصفي القصير (موصوف + صفة): من مثل: جفن بحري/ وجفن حربي/ وزورق حربي/ وشختورة مزدوجة/ وغيرها.

ب- التركيب الوصفي الطويل (موصوف+ صفة+ محول للصفة): من مثل: الزواريق المقلة المعدة للعبور/ والسفن الخفيفة المستعملة للعبور وسفينة حاملة للبضائع، وغيرها.

ج- التركيب الإضافي القصير (مضاف + مضاف إليه)/ من مثل: زوارق الصنادل/ وصندل التوربيد/ وعشارى الخدمة، وغيرها.

د- التركيب الإضافي الطويل (مضاف+ مضاف إليه+ حرف عطف+ اسم معطوف) من مثل: مراكب النزهة والتفرج/ وسفينة النقل والشحن وغيرهما.

وفي داخل كل نمط من هذه الأنماط يمكن ملاحظة تنوعات فرعية تنتمي إليها.

وقد جاء هذا التنوع لأغراض لغوية دلالية في المقام الأول تتعلق بوفرة الوظائف التي اضطلعت بعبء القيام بها هذه السفن في الحضارة العربية والإسلامية.

**(٤/٢) دلالات أنماط مصطلح السفينة في العربية.**

إنّ مراجعة تحليل ما مر من أربعة الأنواع الكبرى لأنماط الصيغ التي جاءت وفقها أسماء السفن في الحضارة العربية والإسلامية تكشف عن استثمار السفينة في مجالات الحياة المختلفة على الأصعدة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وهو ما يمكن ملاحظة في مجموعة الوظائف التالية التي ذكرتها معجمية السفينة، للأنواع المختلفة:

**أولاً- الوظيفة الاجتماعية.**

حددت معجمية السفينة في العربية مجموعة من وظائف بعض أنواع السفن تخدم الاجتماع الإنساني ملاحظتها في الميادين التالية:

١- السفر والانتقال من مثل: بابور/ وفلوة/ (لتعدية الناس)/ السفن الخفيفة المستعملة للعبور، وغيرها.

١- العمل (الصيد) و(المعاش): من مثل: مراكب المعاش/ أعوادى/ وغيرها.

٣- النزهة والتفرج، من مثل: الأهورة (تستعمل للنزهات)/ وسفن النزهة.

**ثانيًا- الوظيفة الاقتصادية والتجارية**

حددت معجمية السفينة في العربية مجموعة من وظائف بعض أنواع السفن تخدم النشاط التجاري والاقتصادي، تتمثل في الشحن، ونقل الغلال والحب وبقية أنواع السلع؛ من مثل: سفينة تجارية/ وسفينة حاملة للبضائع/ وسفن الشحن/ وغيرها.

**ثالثًا- الوظيفة السياسية (الحربية)**

كانت هذه الوظيفة أكثر الوظائف ظهورا في معجمية السفينة العربية، وهو ما يعني استثمار السفينة لأغراض الجهاد والدفاع عن مقدرات الأمّة على امتداد تاريخها حتى غدا الأسطول الإسلامي في بعض مراحل التاريخ سيد البحار، وأهم ما يظهر من تسميات جمهرة السفن العربية ما يلي:

أ- القتال، وهو ما يظهر من عدد من السفن نص المعجم العربي، على أنها للجنود المقاتلة: من مثل: حديدية/ وغراب... إلخ.

ب- الخدمات المعاونة، كنقل الجنود، والأسلحة: من مثل: برهاني/ وبنف/ وفلوكة... إلخ.

ت- الهجوم المسلح، من القذف، ورمي الأهداف وغيرها، من مثل: أوج عنبرلى/ وبارجة/ وحراقة... إلخ.

ث- الإمداد والتموين، من حمل الأزواد، والطعام والمياه للمقاتلين، من مثل: شينى/ وقربلة... إلخ.

ج- التدريب العسكري.

إنّ هذه الوظائف الكبرى التي وردت في أثناء التعليق على معاني مدخل/ أسماء السفن العربية والإسلامية تمثّل بابًا مهمًّا في دراسة تطور استعمالها في الحياة العربية.

**(٥) مصطلح السفينة في العربية: مقالة في آفاق الاستثمار**

إنّ ما نشأ من أسماء شكلت معجم السفينة في العربية لم ينل حظه الكافي من الاستثمار المعرفي.

ومن الممكن أن يفتح هذا المعجم الباب أمام تطوير عدد من المسائل في المجالات العلمية المختلفة، وفي ما يلي محاولة لبيان عدد من المجالات التي يمكن استثمار مصطلح السفينة لتطويرها:

**أولاً- مجال الدفاع عن قضية التعريب.**

تاريخ الدفاع عن استعمال العربية في العلوم الحديثة تاريخ ممتد، اعتمد فيه أنصار هذا التوجه على أدلة تاريخية في الغالب للانتصار لقدرة اللسان العربي على استيعاب العصرية. ولكن إعادة طرح القضية في ضوء ما قدّمته اللغة العربية لمعجم السفينة، وأسمائها، وأسماء أجزائها التي تتكون منها بالفرق التوليدية المختلفة يمكن أن يقدم دليلاً عمليًّا تطبيقيًّا ينضاف إلى مجموع الأدلة التاريخية في بابي الدفاع عن التعريب، والدفاع

عن قدرات اللسان العربي في القيام بواجب استيعاب علوم العصر الحديثة.

ولاسيما أنّ اللغة برهنت على أنها تملك مسارات متنوّعة لسد الفجوات المعجمية التي يمكن أن تنشأ في هذا المجال الجديد الذي لم يكن للعرب سابق تقدّم فيه.

**ثانيًا- مجال دراسات التأصيل اللغوي في ما حوله خلاف في أصوله من الكلمات.**

تكشف العلاقات التاريخية التي قامت بتأثير العلاقات التجارية والحربية التي كانت السفينة بطلتها عن إمكان حسم الجدل الدائر حول عدد من الألفاظ الأعجمية التي اقترضها اللسان العربي من اللغات الأخرى.

إنّ فحص أماكن الاستيراد، والمواد المستوردة يمكن أن تقدم الكثير في هذا الباب اللغوي المهم؛ ذلك أنّ الكلمات عندما تسافر تحمل معها خصائص البيئة التي سافرت وهاجرت منها.

**ثالثًا- مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.**

من الملاحظ قلة الاعتماد على التحليل المعجمي، واتخاذه مصدرًا من مصادر إعادة كتابة التاريخ ومع أنّ ثمة تجديدًا في مناهج كتابة التاريخ، وفي الموضوعات التي يتناولها الدرس التاريخي، فإنّ الاعتماد على المعجم لا يزال متأخر الرتبة بشكل ملحوظ جدًّا.

وفحص معجمية السفينة قادر على أن يمدّنا بمجموعة طيّبة من النتائج التي من شأنها أن تسهم في تطوير بحوث التاريخ ولا سيما الاقتصادي والاجتماعي.

لقد طوّر المجتمع العربي والمسلم من وظائف السفينة، واستعملوها في التجارة والنقل، مما نشأ عنه نوع علاقات ومجتمعات جديدة اكتسبت من ورائها مجموعات بشرية عديدة خصائص، ومعارف، وأنماط معيشية نوعية.

وربما قاد تحليل معجمية السفينة إلى تقديم نتائج جديدة تتعلق بمجتمع التصنيع وقواعده، ومواده، والصناعات التي قامت حولها، وحركة نقل البضائع، وحفظها في أثناء رحلة النقل، وتطور تاريخ الأطعمة، وأنظمة الطهي، وغير ذلك من المباحث التاريخية التي لم يستثمر معجم السفينة في تطويرها حتى اليوم.

**رابعًا– مجال الدراسات العسكرية والاستراتيجية.**

بدا من بعض الفقرات السابقة أنّ واحدة من كبريات وظائف السفينة في الحضارة العربية والإسلامية كانت ماثلة في الاستعمالات الحربية والعسكرية، وأظهرت الدراسة أنّ هذه الوظيفة الحربية تفرّعت وتوزّعت على مجموعة من الوظائف المنضوية من مثل أعمال القتال، والهجوم المسلح بالقاذفات والإمداد والتموين، وخطط الهجوم، وتوزيع المهام... إلخ.

**خامسًا– الدراسات الحضارية.**

إنّ دراسة معجمية السفينة في الحضارة العربية والإسلامية يمكن أن تسهم في دراسة الأبعاد الحضارية المادية التي مكنت العقل العربي، من

استيعاب صناعة السفن، وتطويرها، والعلوم المستعملة فيها وربما أمكن أن تقدم إجابة عن غياب السفينة في الحضارة الإسلامية عن تاريخ القرصنة بشكل ملحوظ(١).

**(انتهى)**

**الهوامش:**

* كلية الآداب- جامعة المنوفية- المنوفية- مصر.

(١) يلحظ دارس تاريخ القرصنة غيابًا شبه كامل للسفينة العربية والمسلمة عن القرصنة بالمفهوم السلبي (الجريمة) وهو ما يمكن أن يكون محور الدراسات أخلاقية وحضارية بتأثير الإسلام. انظر: تاريخ القرصنة في العالم، لياتسيك ماخوفسكي، ترجمة الدكتور أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

# شِعر عنترة بن شداد
# في الموروث النقدي عند العرب
# "دراسة في نقد النقد"

(٣)

بقلم: د. محمد رمضان الجوهري*

## المبحث الثالث: النقد التأثري

وهو من أكثر أنماط النقد شيوعًا عند الأقدمين، إذ يعتمد على الذوق الفردي، ومدى استجابة المتلقِّي للنص الأدبي، وما يثيره في كوامنه من استحسان أو استهجان، وما يخلفه في أعماقه من قبول أو رفض، غير عابئ بالقواعد الحاكمة، والأطر المقنّنة، فغايته ذاته، ومرجعُه أثر العمل الأدبي في نفسه، وما يتركه من انطباعات دافعة للحكم بالجودة متى لمس الإبداع شغاف فؤاده، وسرى بمضائه إلى حيث مسارب نفسه، وبؤر شعوره، أو الاستهجان ما لم يلمس من قلبه وطرًا، أو يحرّك من أعماقه ساكنًا، فهو المردود المستكره، والمرذول الثقيل.

ومن ثم تجد فوارق بين نص واحد عند ناقدين، فهذا يعلو به مدحًا، وذاك يردّه قدحًا، دون أن يقدّم أيهما بين يدي قبوله ورفضه أدلة مقنعة، وحجج داعمة، فليس لأولئك حينئذ إلا الذوق حكمًا، والانطباع دافعًا، والتأثر فيصلاً، والذاتية موجِّهًا، فالعمل متى وقع من القلب موقعًا حسنًا لاط به، وتعلّق بشغافه، يقول الإمام عبد القاهر[1]: «إذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شِعرًا أو يستجيد نثْرًا، ثم يجْعَلُ الثناءَ عليه من حيث اللّفظ فيقول: حُلْوٌ رشيق، وحَسَنٌ أَنيقٌ، وعذبٌ سائغٌ، وخَلُوبٌ رائعٌ، فاعلم أنه ليس يُنبئك عن أحوالٍ ترجعُ إلى أجْراس الحروف، وإلى ظاهر الوضعِ اللغويّ، بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده، وفضلٍ يَقْتدحُه العقلُ من زِناده».

ويشاكل الآمديُّ الإمامَ عبد القاهر المنزع، فيرمي عن قوسه، ويصيب بوتره، فيرى أنّ الفيصل في ذلك سلامة الذوق، وصفاء القريحة، والتمرس بالشِّعر فيقول: "فهو باب يضيق مجالُ الحجةِ فيه، ويصعبُ وصول البرهان إليه. وإنما مدارُه على استشهاد القرائح الصافية، والطبائع السليمة، التي طالت مُمارستُها للشِّعر...فأمّا وأنت تقول: هذا غثٌّ مستبرَد، وهذا متكلّف متعسّف، فإنما تخبِر عن نُبوِّ النفس عنه، وقلّة ارتياح القلب إليه، والشِّعر لا يحبَّبُ إلى النفوس بالنظر والمحاجّة، ولا يحلّي الصدور بالجِدال والمُقايسة؛ وإنما يعطِفها عليه القبول والطّلاوة، ويقرّبه منها الرونق والحلاوة؛ وقد يكون الشيء متقَنًا مُحكمًا، ولا يكون حُلوًا مقبولاً، ويكون جيّدًا وثيقًا، وإن لم يكن لطيفًا رشيقًا[2].

ويتسنّى للوالج في أعطاف النقد القديم أن يصل إلى أحكام عامة ساقها النقّاد بدوافع من أذواقهم دونما تعليل أو تبرير تستحسن بيتًا لعنترة، أو تقدّم له إصابة في تشبيه على غيره من الشعراء، أو تصدر حكمًا جملة من غير تفصيل أو مناقشة، وربما أدخل أحدهم في مُتَخيِّرِه نظمًا له استجاده على ما سواه، أو رأى في معنى أصابه تفضيلاً على نظائره في بابه، وكثيرًا ما كانت تعرض الخاصة والعامة في مجالسهم للسؤال عن أشجع بيت قالته العرب، وأفخر بيت وأغزله، فيجاب بدافع من الذوق المدرب، والانطباع الحاكم بذكر بيت دون تعليل سبب اختياره أو تبريره، ومن ذلك ما ذكره الحصري القيرواني رواية عن عبد الملك بن مروان إذ قال: «وُصِفتْ لعبد الملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال، فساومه في ابتياعها، فامتنع وامتنعت...؛ فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قسرًا، فما أعجب بشيء إعجابه بها، فلمّا وصلت إليه، وصارت في يديه، أمرها بلزوم مجلسه، والقيام على رأسه؛ فبينما هي عنده، ومعه ابناه الوليد وسليمان، قد أخلاهما للمذاكرة، فأقبل عليهما فقال: أيّ بيت قالته العرب أمدح؟ فقال الوليد: قول جرير فيك:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِين بُطُونَ رَاحِ

وقال سليمان: بل قول الأخطل:

شُمْسُ العَداوةِ حتّى تُسْتَقادَ لَهُمْ ... وَأَعْظَمُ النّاس أحلامًا إذا قَدَرُوا

فقالت الجارية: بل أمدح بيت قالته العرب قول حسّان بن ثابت:

يُغْشَونَ حَتَّى مَا تهرُّ كلابُهُمْ ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقبلِ

...فأطرق، ثم قال: أيّ بيت قالته العرب أشجع؟ فقال الوليد: قول عنترة:

إذْ يَتّقُونَ بيَ الأسِنّةَ لَمْ أَخِمْ      عَنْهَا ولكنّي تَضايَقَ مُقَدَمي

فقال سليمان: بل قوله:

وَأنا المَنِيَّةُ فِي المَوَاقِفِ كُلَّها      وَالطَعْنُ مِنَّي سابِقُ الآجالِ

فقالت الجارية: بل بيت يقوله كعب بن مالك:

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطْوِنَا      قَدَمًا ونُلْحِقُها إذا لم تَلْحَقِ

فقال عبد الملك: أحسنتِ، وما نرى شيئًا في الإحسان إليكِ أبلغ من ردّك إلى أهلك. فأجمل كسوتها، وأحسن صلتها، وردّها إلى أهلها»(٣).

لقد ساق الوليد وسليمان والجارية اختياراتهم بدافع من إحساسهم الذاتي، وتأثرهم الانطباعي دون تعليل أو تدليل؛ لذا جاءت اختياراتهم متباينة، وإجاباتهم مختلفة، وهذا أمر طبعي ما دام الأمر محكومًا بالذوق لا بالقاعدة، وضابطه الانطباع والتأثر بعيدًا عن التقنين المؤطر، والمنهج المطرد.

ولا يتقافز إلى الخاطر أنّ متخيراتهم عشوائية متى لم تحكمها قواعد وضوابط، بل الأمر على خلاف ذلك فالذوق المدرب، والمعرفة بدروب الشِّعر ومسالكه، وصفاء القريحة، وقوة الحفظ كلها أسس تنداح أمامها الرؤى على هدى من البصيرة الكاشفة تعين المسؤول على حسن الاختيار وإن لم يعلّل و يبرهن.

وكثيرًا ما يسوق المتخيِّرُ أبياته مغلّفة بتعليل مُضمَّن يشي به السياق، ويفهم من الكلام دونما تصريح أو ذِكر، ومن ذلك ما روي من أنّ عبد الملك بن مروان سأل عن أشجع الناس في الشِّعر فقالوا: عمرو بن معدي كرب فقال عبد الملك: كيف وهو الذي يقول:

وجاشَتْ إِلَيَّ النّفسُ أولَ وهْلةٍ وَرُدَّتْ علَى مكرُوهِها فاستقرَّتِ

قالوا: فعامر بن الطفيل، قال: وكيف وهو الذي يقول:

أقُولُ لِنَفسِي لاَ يُجَادُ بِمِثْلَهَا أقِلِّي مَرَاحًا إنَّنِي غَيرُ مُدْبِرِ

قالوا فعنترة، قال: كيف وهو الذي يقول:

إذْ يَتّقُونَ بيَ الأسِنّةَ لَمْ أَخِمْ عَنْهَا ولكنّي تَضايَقَ مُقَدَمي

قالوا: فمن أشجعهم؟ قال: ثلاثة نفر: قيس بن الخطيم الأوسي والعبّاس بن مرداس السلمي ورجل من مزينة، أمّا قيس بن الخطيم فقال:

وإنِّي لدَى الحربِ العَوانِ موكَّلٌ بتَقْديمِ نفسٍ ما أُريدُ بقاءَها

وأمّا العبّاس بن مرداس فقال:

أشدُّ على الكتيبةِ لا أُبَالِي أَحَتْفِي كانَ فيهَا أم سِواهَا

وأمّا المزني فقال:

دَعَوْتُ بَنِي قُحَافَةَ فَاسْتَجَابُوا فَقُلْتُ رِدُوا فَقَدْ طَابَ الوُرُودُ(٤)

وقد ذكرت القصة بروايات عدة في **الخزانة**(٥)، و**شرح الحماسة**(٦)، و**مجمع الأمثال**(٧)، وغيرهم، وفي بعضها تعليل وامض، وتبرير خاطف يشفان عن سر الاختيار، وسبب الذكر، ومن ذلك ما نص عليه

عبدالقادر البغدادي في **خزانته**[٨] من قوله: قَالَ عبد الْملك بن مَرْوَان: وجدت فرسَان الْعَرَب سِتَّة نفر: ثَلاثَة مِنْهُم جزعوا من الْمَوْت عِنْد اللِّقَاء ثمَّ صَبَرُوا، وَثَلاثَة لم يجزعوا، ثم ذكر الأبيات الثلاثة لعمرو، وابن الإطنابة، وعنترة، وأردف ذلك بقوله تعليقًا على أبياتهم: فَأخْبر هَؤُلاءِ الثَّلاثَة أَنهم هابوا ثمَّ أقدموا. ثم ذكر أبياتًا لعَامر بن الطُّفَيْل، وقيس بن الخطيم، وَالْعَبَّاس بن مرداس، وعقّب عليها بقوله: فَأخْبر هَؤُلاءِ أنهم لم يجزعوا.

وقد جانب الميداني في "**أمثاله**" الصواب حين عرض للقصة، فأورد بيت عنترة ضمن الأبيات الدالة على شجاعة أصحابها، واضعًا مكانه بيت عامر بن الطفيل:

أَقُولُ لِنَفسِي لاَ يُجَادُ بِمِثْلَهَا أَقِلِّي مَرَاحاً إِنَّنِي غَيرُ مُدْبِرِ

موافقًا بذلك ابن حمدون في "**تذكرته**" حين أورد بيت ابن الطفيل في الأبيات المستحسنة، ومخالفًا عبدالقادر البغدادي في "**خزانته**"، وبيت عنترة مقارنة بشواكله فيه إحجام نفس ساعة الجد على النحو المنصوص عليه تصريحًا أو تعريضًا، وعليه فلا عبرة برواية الميداني، وعدِّه بيت عنترة من المستجادة في بابها.

ومن هذا القبيل، مع زيادة تعليل وتفسير ما رواه المظفّر العلوي في **نضرة الإغريض**[٩] من حكاية جمعت يحيى بن خالد وجعفر والفضل وهارون الرشيد، وهي قصة طويلة نقتصر منها على ما يتصل بعنترة، قال: حكى الأصمعيُّ قال: استدعاني الرشيدُ بعضَ الأيامِ فراعني رُسُلُه،

ولم أفتأْ أنْ مُثِّلْتُ بحَضرتِه، وإذا في المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل. فاستدناني فدنوتُ، وتبيّن ما عَراني من الوجَل فقال: ليُفْرِخْ روْعُك، فما أردْناكَ إلا لما يُراد له أمثالُك. فمكثتُ إلى أن ثابَتْ إليّ نفسي، ثمّ بسَطني وقال: إني نازعتُ هؤلاء، وأشار إلى يحيى وجعفر والفضل، في أشعَر بيت قالَتْه العربُ في التشبيه، ولم يقعْ إجماعُنا على بيت يكون الإيماءُ إليه دون غيره، فأردناك لفصْلِ هذه القضية واجتناء ثمَرةِ الخِطار فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ التعيينَ على بيت واحد في نوع واحد قد توسّعَتْ فيه الشعراء ونصبَتْهُ مَعْلمًا لأفكارها ومَسرَحًا لخواطرِها، لَبَعيدٌ أن يقعَ النصُّ عليه.

ثم استمع إلى ما تخيّره يحيى ففنّده وأبان وجوه التقصير فيه، فأفحم يحيى، ثم استمع إلى جعفر، ففعل بمختاراته فعله بأخيه، يقول الأصمعي: فكأنني والله ألقَمْتُ جعْفَرًا حجرًا، واهتزّ الرشيد من فوق سريره أشَرًا فكاد يطيرُ عجبًا وطربًا وقال: يا أصمعيّ اسمَعْ ما وقع اختياري عليه الآن. فقلت: ليَقُلْ أمير المؤمنين، أحسنَ الله توفيقَه. قال: قد عيّنْتُ على ثلاثة أشعارٍ أُقسم بالله إني أملِكُ قصَبَ السَّبْقِ بأحدِها؛ فهل تعرفُ يا أصمعيُّ تشبيهًا أفخم وأعظم في أحقر مشبَّهٍ وأصغرِه في أحسن مَعْرِضٍ من قول عنترة:

وَخَلا الذُّبابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارحٍ     غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ     قَدْحَ الْمُكِبِّ عَلَى الزّنَادِ الأَجْذَمِ

ثم قال: يا أصمعيّ، هذا من التشبيهات العُقم، فقلت: هو كذلك يا أمير المؤمنين، وبمجدِكَ آليتُ ما سمعتُ أحدًا وصف في شعرٍ شيئًا أحسن من هذه الصفة، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية.

وفي القصة تفصيلات مطوّلة، واختيارات رائقة، ونقد مفصّل لكل مُتَخيَّرٍ فيها، وإن جاء النقد قادحًا في اختيارات يحيى وجعفر وخالد، ومدحًا في متخيّرات الخليفة العباسي الذي أحسن التعليل لمتخيّره، وأجاد في اختياره، مقدّمًا بين يدي كل بيت ما يشي بتعلّة الاختيار، فوافقه الأصمعي، وأثنى على قوة حفظه، وسلامة طبعه، ورائق اختياره، هذا من جهة، ومن أخرى فرأي الأصمعي في تحديد أشعر بيت قالته العرب لبعيد أن يقع عليه النص، ويجمع عليه الاتفاق، وقد وافقه في ذلك غيره من النقّاد العرب، ومنهم بشّار بن بُرد الذي صرح بقوله وقد سأله أحدهم: أخبرنَا عَن أَجود بَيت للْعَرَب، فَقَالَ: إِنْ تفضيلَ بيتٍ واحدٍ على الشِّعْر كُلِّه، لَشَديدٌ(١٠).

لقد نال شِعر عنترة استحسان النقّاد على اختلاف مشاربهم، وتباين أزمانهم، فيمّموا صوبه، وأخذوا من رائقه ما أودعوه مؤلفاتهم على أنه الأحسن في بابه، والأجود في غرضه، وهذا كثير يستمليه من يجيل طرفه في تضاعيف كتبهم وثناياها، ومن شواهدهم التي تؤكد إعجابهم بشِعره، واستحسانهم لقرضه، قول الثعالبي في مؤلَّفه **أحسن ما سمعت**(١١)، قال: أحسن ما قيل في مدح الصحة وذمّ المرض قول عنترة:

المـــال للمـــرء في معيـــشته     خـــيرٌ مـــن الوالـــدين والولـــد

وإن تــدم نعمــةٌ عليــه تجــد خـيرًا مـن المـال صـحة الجـسد
ومـا بمــن نـال فـضل عافيـةٍ وقــوت يــومٍ فقــرٌ إلى أحــد

وحكى أبو هلال العسكري[١٢] قال: ومن أجود ما قيل في السهم من قديم الشِّعر قول عنترة[١٣]:

أبينَـا فمـا نُعطِـى الـسَّواءَ عَـدوَّنَا قِيامًا بِأعْـضَادِ الـسَّرَاءِ المُعَطَّفِ[١٤]
بِكُـلِّ هَتُـوفٍ عَجْـسُهَا رَضَـوِيَّةٍ وسَهْمٍ كَسِيرِ الحِمْيَرِيِّ المُؤَنَّفِ[١٥]

ونصَّ الحموي في **خزانته**[١٦] على أنَّ من الغايات في باب الانسجام قول عنترة في معلّقته:

فـإذا شَـرِبْتُ فـإنّني مُـسْتَهلِكٌ مـالي وعِرضِـي وافِـرٌ لَـمْ يُكَلَـمِ
وإذا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عن نَدًى وكَمَـا عَلِمْـتِ شَـمائِلي وَتَكَرُّمـي

وقال المبرِّد[١٧]: ومن حسن التشبيه قول عنترة:

غَـــادَرْنَ نَـــضْلَةَ في مَعْـــرِكٍ يَجُـــرُّ الأَسِـــنَّةَ كالمُحْتَطِـــبْ

يقول: طعن وغودرت الرماح فيه، فظل يجرّها، كأنه حامل حطب.

وقال ابن أبي الأصبع[١٨] في ثنايا حديثه عن باب التنكيت: ومن بديع أمثلة هذا الباب قول عنترة، وهو مما يسأل عنه:

مـا راعَـني، إلاّ حَمُولَـةُ أهلِهـا وَسْطَ الدِّيارِ تَسفُّ حَبَّ الخِمخِمِ
فيهـا اثنَتـانِ وأَرْبَعُـونَ حَلُوبَـةً سُـودًا كخَافِيَـةِ الغُـرَابِ الأسْـحَمِ

ورد في **الأشباه والنظائر**[١٩] تعليقًا على بيت مالك بن مخارق العبدي:

ومَـن يـسلُبِ القتلَـى فـإنَّ قتيلَنـا وإنْ كـانَ منـشورًا يُجَـنُّ ويُقـبرُ

أمّا قوله: «ومن يسلب القتلى» البيت، فمعنى جيّدٌ وصف قومه بكبر النفوس وأنهم إذا قتلوا أعداءهم لم يستحسنوا سلبهم ولا تركهم غير مقبورين وإن كانوا لهم مُبغضين، فإنَّ غرضهم قتلهم دون سلبهم. وقد ذكرت الشعراء هذا المعنى في القديم من الشِّعر والمحدث، فمن أجود القديم قول عنترة:

يُخبركِ مَن شهدَ الوقيعةَ أنَّني ... أغشَى الوَغَى وَأَعفُّ عند المغنمِ

هذا البيت أجود ما نعرف للمتقدمين

وأورد ابن أبي عون في **تشبيهاته**(٢٠) قوله: ومن حسن التشبيه في الرماح قول عنترة:

يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنها ... أشطانُ بئرٍ في لبانِ الأدهمِ

وذكر أسامة بن منقذ في **لباب الآداب**(٢١) أنّ من أحسن التشبيه وأبلغه قول عنترة بن شدّاد العبسي:

وَخَلا الذُّبابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارحٍ ... غَردًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ

هَزِجًا يَحُكّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ ... قَدْحَ الْمُكِبّ عَلَى الزّنادِ الأَجْذَمِ

وقوله:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ، والرّمَاحُ كأنّها ... أَشْطانُ بِئْرٍ في لَبَانِ الأدْهَمِ

وتلك وغيرها أحكام انبثت في تضاعيف مؤلفاتهم، دون أن يذكر لها في الغالب علّة مسوقة تفسّر سبب استحسانها دون سواها، وذلك هو النقد الانطباعي القائم على الذوق، والمعتمد على التأثر، يسوقه الناقد بدافع من ذاته في أعطاف ما يعنّ له، دون أن يهتم بالشرح والتحليل، أو

التبرير والتعليل، بل يفسح المجال لعقل المتلقِّي ولبّه كي يرى في النص ما رآه، ويقف منه على ما راقه، وتلك رؤى مستقيمة لا تندّ في جلّها عن الصواب، وليس من السائغ القول بأنها ضرب من الإعجاب المبني على غير أساس، فأمثالها -من أولئك النفر ذوي البصر بالشِّعر، وأصحاب الدربة فيه- لا تشيل كفتها -بحال- في موازين النظر الراجح، والفكر الرشيد.

## المبحث الرابع: "النقد التوثيقي"

شغلت قضية النّحل في الشِّعر الجاهلي حيِّزًا من اهتمام نقّاد العربية وأدبائها في القديم والحديث، وقد تنبّه لها الأقدمون كالمفضّل الضبّي، والأصمعي، وابن سلاّم وغيرهم، وتمكّنوا بما أتوا من معرفة بدروب الشِّعر ومسالكه، وخبرة بطرائق الشعراء ومناهجهم أن يكشفوا زيف المنحول، ويعيدوا للشِّعر أصالته، وينصّوا على الصحيح الثابت، والمكذوب الدخيل، ومن هؤلاء الشعراء الذين نالهم النّحل عنترة بن شدّاد، فلم يكن شِعره بمنأى عن تلك الاتهامات والمزاعم، ومن ثم فقد ورد في المصادر القديمة إشارات تفيد الشك في بعض شِعره، وتصدر أحكامًا تثبت صحة نسبة الشِّعر إليه متى كان صحيحًا ثابتًا، وتشكك في ذلك وتنفي متى خامرها الريب، أو ثبت لديها أنها ليست من شِعره، وهذا ليس بعسير على أرباب الصناعة؛ اعتمادًا على معارفهم وأذواقهم.

وفي الوقت الذي وقف فيه بعض المنصفين من النقّاد موقفًا حياديًّا، غالى البعض فراح يكيل الاتهامات جزافًا، ويلصق التُّهَم جملة دون تفسير يبرر، أو تعليل يريح، ومن هؤلاء الحاتمي الذي عقد بابًا في كتابه **حلية المحاضرة** للانتحال والاستلحاق، وذكر فيه أنّ معظم الشِّعر الذي يرويه الناس لعنترة هو لهرّاش بن شدّاد... وهو أخوه من أمّه زبيبة(٢٢)، دون أن يقدّم بين يدي دعواه أسبابًا مقنعة تزيل ما عساه يعلق بالذهن من ردّ ورفض.

وإذا كانت أمثال هذه الأحكام لا تستقيم في العقل متى سيقت على علاّتها دون أدلة منطقية، وحجج داعمة، فإنّ ثمة آراء لا تقلّ في خطورتها عنها تتمثّل في جمع شِعر الشاعر دون تثبّت أو رويّة، فليس الوكد إلا الجمع والضم، وتلك رؤى معوجّة، ونظرات تندّ عن الصواب، ولا يعفى أصحابها من خبث النية وسوء الطوية، ومن هذا القبيل إيراد شيخو لبعض قصائد ومقطّعات منسوبة لعنترة يبين لمن له أدنى بصر بالشِّعر، ومعرفة بمسالك الشعراء أنّ أمثالها ظاهرة النّحل، جلية الزيف، فليست من شِعر الشاعر ونظمه، وقد ساقها المؤلف مسبوقة بقوله: «هذا وقد عثرنا في كثير من الكتب **كالصِّحاح** للجوهري، و**شرح مغني اللبيب** للسيوطي، و**الأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني، و**شرح المفضليات** للمرزوقي، وفي **جمهرة أشعار العرب** لأبي زيد محمد بن الخطّاب، وفي **نضرة الإغريض** لأبي علي مظفر بن الفضل الحسيني، وفي غيرها من الشروح والدواوين على أبيات منسوبة إلى عنترة لم تدخل في ما

رواه الأصمعي، وأبو عمرو بن العلاء، والمفضّل، وأبو سعيد السكري من شِعره، فجمعنا كل ما وجدناه من هذا القبيل صحيحًا كان أو مصنوعًا»[٢٣].

وتصريحه لا يعفيه من لذعة النقد و مغبّة الجرح، فأمثاله ممن يتصدّون للتأليف يجب عليهم تحرِّي الدّقة، والصدق فيما يكتبونه، لا أن يكون أحدهم حاطب ليل يتخبّط في جمعه، فيضمّ الصالح إلى الطالح، ويخلط المستقيم بالمعوج.

والأمثلة التي ساقها شيخو منسوبة إلى عنترة كثيرة، لم يرد أكثرها في دواوينه المحققة من ناحية، ولم تتفق مع طريقته في شِعره، ونهجه في نظمه من أخرى، مع ركاكة النظم، وسهولة المفردات سهولة تؤكد أنها صيغت في عصور متأخرة، ولم يصغها شاعر مكين يعرف دروب عنترة في شِعره، ومسالكه في نظمه، وليس عجيبًا أن يوردها شيخو ومن على شاكلته في مؤلفاتهم، فهم يسيئون للتراث عمدًا، ويدخلون فيه ما ليس منه قصدًا، ليبثّوا الشك والريبة فيمن يطالعون ذلك التراث، ويفتحوا بابًا للغمز والطعن، وإن سئلوا أجابوا لقد وطأنا للقضية قبل سوقها، وصرحنا علانية بأنا جمعنا في مؤلفنا كل ما وجدناه من شِعر عنترة صحيحًا كان أو مصنوعًا، وتلك غايات لا تخفى على ذوي العقول، فضلاً على أنها لا تنطلي على السذّج والبسطاء، فهي علل زائفة بيّنة الوضع، معلومة الغاية، نسوق ائتناسًا مما أورده شيخو في كتابه -على كثرته- مقطوعة واحدة تقرر ما سقناه من حكم فيما أورده، وهي قوله[٢٤]: «كان قد خرج

يومًا من الحي لنجدة صديق له من بني مازن يقال له حصن بن عوف وعند رجوعه إلى ديار قومه تذكّر أرض الشربة والعلم السعدي حيثما كانت عبلة وكانت قد طالت غيبته فقال:

تـرى هـذه ريـح أرض الـشربه      أم المسك هـب مـع الـريح هبـه
ومـــن دار عبلـــة نـــار بـــدت      أم الـبرق سـل مـن الغـيم عـضبه
أعبلـــة قـــد زاد شـــوقي ومـــا      أرى الـدهر يـدني إلـي الأحبـه
وكـم جهـد نائبـة قـد لقيـت      لأجلـك يـا بنـت عمـي ونكبـه
فلـــو أن عينـــك يـــوم اللقـــاء      تـرى مـوقفي زدت لـي في المحبـه
يفـيض سـناني دمـاء النحـور      وقرنـي يـشك مـع الـدرع قلبـه
وافـرح بالـسيف تحـت الغبـار      إذا مـا ضـربت بـه ألـف ضـربه
وتـشهد لـي الخيـال يـوم الطعـان      بـــأني أفرقهـــا ألـــف ســـربه

والأبيات ظاهرة النّحل، بيّنة الوضع، لا تحتاج إلى إعمال فكر ورويّة وصولاً إلى ذلك، فقد صاغها شويعر كسيح، فجاء نظمه باهتًا لا يطرب، مستثقلاً لا يفكه، يشف عن خيال مريض، ومقدرة فنية قعيدة، وأين ذلك السخف من جلال شِعر الرجل وجماله؟، وأين ذلك الضعف من قوة نظمه وجزالته؟، بل أين ذلك الضعف من قدرة عنترة وتمكنه؟، ألم يكن يعلم شيخو بكل ذلك؟ أقرر أنه يعلم ذلك وأكثر، لكنها محاولات يائس يحاول التشكيك في تراثنا، وبثّ الريبة في نفوس مبتدئينا لينصرفوا عن ميراث أجدادهم، أو ليقفوا على أنّ مثل تلك الترّهات هي النماذج الأصيلة التي ينبغي أن يقتفى أثرها، ويصاغ على منوالها، إنّ تلك

المحاولات البائسة ومثيلاتها لا يعدوها الحمق، ولا يفارقها السفه، إنها أشبه بمن يحاول كفّ نور الشمس عند الظهيرة بيد مشلولة عاجزة لا تقي حتى بعض وجهه حرها، ولفح هجيرها، فليموتوا بغيظهم كمدًا، فسيبقى التراث ناصعًا، نؤوب إلى أفيائه، فنستنطقه فخرًا وجمالاً، فيخفّ إلينا كاشفًا عن أطياف من الفن، وألوان من الجمال تعجب وتبهر.

ومما نعرض له في هذا الباب مما يتصل بالنقد التوثيقي عن الأقدمين قول بدر الدين العيني تعليقًا على قول الشاعر:

وَإِذَا تكونُ كريهةٌ أُدْعَى لَهَا وَإِذَا يُحَاسُ الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدَبُ

بقوله: «ولم يبيّن المصنف قائل هذا البيت من هو، وعزاه الكاكي إلى عنترة العبسي وليس بصحيح، وعزاه سيبويه إلى رجل من مذحج، وقال أبو رياش: قائله همام بن مرّة أخو جساس بن مرّة، قاتل كليب، وزعم ابن الأعرابي أنه لرجل من بني عبد مناف قبل الإسلام بخمس مئة عام»[٢٥].

ويهمني في هذا المقام تصريحه بقوله: "وعزاه الكاكي إلى عنترة العبسي وليس بصحيح" وحكمه صحيح يتسق والوارد في المصادر القديمة، فقد نقّبت في بطونها بحثًا عن مصدر يعضد عزو الكاكي البيت لعنترة، فلم أظفر بذلك، وقد ورد البيت في المؤلفات ضمن مقطوعة تراوحت بين الأربعة والسبعة اختلف المؤلفون في الاتفاق على قائلها، وإن أجمعت أكثرها على أنها لرجل من طيء يدعى: هني بن أَحْمَر[٢٦].

وقد أوردت بعض المؤلفات(٢٧) أقوال العلماء في قائل البيت دون جزم بنسبة البيت إلى قائله، وإن كانت أصدرت أحكامًا تدفع صحة النسبة عن أحد القائلين أحيانًا، ولم تذكر في ثنايا ذلك رأيًا ينسب البيت أو المقطّعة لعنترة تأكيدًا لرأي العيني الذي جزم بأنّ البيت ليس له.

ومن هذا القبيل ما أورده الأصفهاني في **الأغاني**(٢٨):

يا دار عبلة من مشارق مأسل ... درس الشؤون وعهدها لم ينجل

فاستبدلت عفر الظباء كأنما ... أبعارها في الصيف حب الفلفل

تمشي النعام به خلاء حوله ... مشي النصارى حول بيت الهيكل

واحذرْ مَحَلَّ السَّوْءِ لا تَحْلُلْ بهِ ... وإذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ

الشِّعر فيما ذكر يحيى بن علي عن إسحاق لعنترة بن شدّاد العبسي وما رأيت هذا الشِّعر في شيء من دواوين شِعر عنترة، ولعله من رواية لم تقع إلينا، وذكر غير أبي أحمد أنّ الشِّعر لعبد قيس بن خفاف البرجمي، إلا أنّ البيت الأخير لعنترة صحيح لا يشك فيه.

ولم يرد هذا البيت في دواوين عنترة المطبوعة، ومن ثم فحكم الأصفهاني صحيح في عدم إيراد أبيات هذه المقطوعة في شِعره المجموع، والصحيح الثابت في **المفضليات**(٢٩) **والأصمعيات**(٣٠)، **ولباب الآداب**(٣١)، وبعض **الحماسات**(٣٢)، **وسمط اللآلي**(٣٣)، لعبد قيس بن خفاف البرجمي.

وإذا جاء حكم الأصفهاني على أنّ الأبيات ليست لعنترة صحيحًا، فقوله: إلا أنّ البيت الأخير لعنترة صحيح لا يشك فيه، يحتاج إلى معاودة

نظر، فهذا البيت أورده المفضّل في **مفضلياته**[٣٤] ثامنًا ضمن قصيدة عدد أبياتها ثمانية عشر بيتًا منسوبة لعبد قيس بن خفاف، ومطلعها:

أَجُبَيْلُ إِنَّ أَبَاكَ كَارِبُ يَوْمِهِ    فإِذَا دُعِيتَ إِلى العَظَائِم فاعْجَلِ

في حين أورد الأصمعي في **أصمعياته**[٣٥] تسعة أبيات من القصيدة جاء البيت ثامنًا فيها، وتابعتهم في إيراد البيت منسوبًا لعبد قيس بقية المصادر، وما كان ليغيب عن المفضّل والأصمعي أنّ هذا البيت لعنترة إن كان، وعليه فالمقطوعة كلها ليست لعنترة بما فيها البيت الأخير، ولا عبرة بجزم أبي الفرج وتأكيده.

بقيت الإشارة إلى أنّ الأبيات الثلاثة الأولى لم ترد في المصادر منسوبة لعبد قيس بن خفاف، في المصادر المشار إليها، ولعل دافع بعضهم إلى نسبتها لعنترة ورود اسم عبلة في أولها، فكثيرًا ما كانوا ينسبون أيّ شِعر جهل قائله فيه اسم عبلة إلى عنترة، وكذلك فعل مع المجنون وغيرهما اعتمادًا على المشهور في ذلك.

وقد أورد الأصفهاني[٣٦] أبياتًا، وحاول توثيقها، والحكم عليها، فقال في صوت غنّته قينة، وهو:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ    إِنْ يَأْخُذُوكِ، تكَحَّلِي وتَخَضَّبي
وأَنَا امْرؤٌ إنْ يَأْخُذُونِي عَنْوَةً    أُقْرَنْ إلى سَيْرِ الرِّكَابِ وَأُجْنَبِ
وَيَكُونَ مَرْكَبُكِ القَعُودَ وَحِدْجَهُ    وَابْنُ النَّعَامَةِ يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي

الشِّعر للحارث بن لوذان بن عوف بن الحارث بن سدوس بن شيبان ابن ذهل بن ثعلبة. وقال ابن سلاّم: لخزز بن لوذان. ومن الناس من ينسب

هذا الشِّعر إلى عنترة، وذلك خطأ. وأحد من نسبه إليه إسحاق الموصلي. والغناء لعزة الميلاء. وأول لحنها:

لِمَــنِ الــدِّيَار عرفتُهَــا بالــشّرْبَبِ ذهَــبَ الــذينَ بهَــا ولَّمــا تَــذْهَبِ

وبعده "إنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ".

وقد حاول أبو الفرج نسبة الشِّعر إلى قائله، ثم ذكر قول ابن سلاّم في نسبة الأبيات لخزز، وخطَّأ من نسب الأبيات إلى عنترة من الناس، وذكر الناس ليوهم أنّ النسبة لم يقل بها عالم مأخوذ برأيه، ولا ناقد موثوق بحكمه، وتلك توطئة ليقول بعد "وذلك خطأ"، دون أن يُقدح في حكمه أو يردّ، وقد خالف الصواب في قوله، وعرَّض نفسه للنقد من حيث أراد الجزم والحتم، فالأبيات وردت في دواوين عنترة المطبوعة، والمشروحة من العلماء الأثبات، والشِّعر ليس ثمة ما يمنع من نسبته إليه، ولا أعرف سببًا لقطع أبي الفرج في حكمه، وربما تلمس تلك النسبة لغيره في بعض المصادر فتابعها دون الرجوع إلى ديوان الرجل، ولو عنَّى نفسه فراجع ديوانه بشرح التبريزي، أو البطليوسي، أو ابن السكيت لما جزم بمثل حكمه "ومن الناس من ينسب هذا الشِّعر إلى عنترة، وذلك خطأ"، فليس في تلك النسبة خطأ يدعو لسوق القضية على أنها ثابتة لا يتطرق إليها شك، ولو أنصف فقال: إنّ الشِّعر متنازع النسبة بينه وبين غيره لكان ذلك مقبولاً مستساغًا، خاصة وأنه صرّح في غير مرة بأنه اطلع على دواوين عنترة، ففي الشاهد السابق ورد قوله في كتابه "وما رأيت هذا الشِّعر في شيء من دواوين شِعر عنترة"، معنى هذا أنه طالعها ووقف

عليها، فكيف جزم والأبيات موجودة في دواوينه، وفي الأبيات الثابتة النسبة غير المتنازع عليها، يؤكد ذلك أنّ الأبيات ضمن قصيدة من سبعة أبيات في **ديوان عنترة** بتحقيق محمد سعيد مولوي(٣٧)، وقد صرّح المحقق بأنّ نسخته محقّقة على ست نسخ مخطوطة، كما وردت في **ديوان عنترة** بشرح التبريزي(٣٨)، وفي غير ذلك من نسخ الدواوين المطبوعة(٣٩)، مما يجعل جزمه بخطأ نسبتها إلى عنترة لا يستقيم، يعضد ذلك أيضًا إيراد الأبيات في بعض المصادر المعتمدة منسوبة إلى عنترة كـ**المعاني الكبير**(٤٠)، **والوساطة**(٤١)، ونثر **الدر**(٤٢) **وشعراء النصرانية**(٤٣)*، **وشرح ديوان المتنبِّي** للعكبري(٤٤)، **والعقد الفريد**(٤٥)، **وزهر الأكم**(٤٦)، كذلك منسوبة له في **جمهرة اللغة**(٤٧).

وقد أوردها كذلك الجاحظ في عدد من مؤلفاته منسوبة إلى خزز بن لوذان **كالبرصان والعرجان**(٤٨)، **والبيان والتبيين**(٤٩)، **والحيوان**(٥٠)، كما وردت منسوبة له في **تاج العروس**(٥١).

وترددت بعض المصادر في نسبتها بين كونها لِعَنْتَرَةَ، أو لِخُزَز بْنِ لَوْذَان السَّدُوسِيِّ، كاللسان(٥٢)، والحور العين(٥٣)، وغيرهما.

قال أبو علي القالي في **أماليه**(٥٤): أنشدنا أَبُو حاتم للمثقّب، قَالَ: ويروى لعنترة:

وللموت خيرٌ للفتى من حياته إذا لم يثب للأمر إلا بقائد

فقد أورد البيت في **أماليه** مترددًا في نسبته بين المثقّب وعنترة، ولم يستطع توثيق الرواية من حيث النسبة الجازمة أو المغلبة لأيّ من

الشاعرين، وتابعه في ذلك أبو عبيد البكري[٥٥] فأورد البيت قائلاً: وأنشد أبو علي للمثقب، قال ويروى لعنترة:

وللموت خير للفتى من حياته إذا لم يثب للأمر إلا بقائد

ثم علّق على البيت بقوله: وهذه الأبيات ليست في ديوان شِعر عنترة، ولا في ديوان شِعر المثقّب.

وتلك الأمانة في النقل والتوثيق تشي بالدقة في النقل، وتشير إلى ما كان يتمتّع به أمثال هؤلاء من موضوعية تدفعهم إلى ذِكر الآراء وسوقها دون تغليب طالما لم يصل إليهم ما يؤكد ويبيّن، غير مبالين بوسمهم بالنقص أو الجهل لعدم فصلهم أحيانًا، وجزمهم بالنسبة في مثل ذلك، ينضاف إلى ذلك تحرِّيهم الدقة في البحث إصابة لشواكل الحق، ومقاطع الصواب، فتصريح البكري يقرر رجوعه إلى دواوين الشاعرين التي كانت بين يديه، ومراجعتها بحثًا عن الأبيات، ومن ثم جاء نقده التوثيقي صحيحًا في بابه، فالأبيات لم ترد في دواوين شِعر عنترة المشروحة قديمًا، وإنما ألحقها مولوي محقق ديوان عنترة بعد الثابت من شِعره تحت عنوان "زيادات في شِعر عنترة"[٥٦]، وكذلك أوردها مجيد طراد محقق ديوانه بشرح الخطيب التبريزي دون شرح نقلاً من ديوان عنترة بتحقيق فوزي عطوي[٥٧]، مما يدلل على أنّ الأقدمين لم يوردوها ضمن شروحهم لديوان عنترة، وإنما أضافها المتأخرون نقلاً عن المصادر متنازعة النسبة بين الشاعرين.

وكذلك الحال في ورودها في **ديوان المثقّب العبدي** فقد أوردها المحقق ملحقة بالديوان تحت مسمّى (قصائد ومقطوعات منسوبة إلى المثقّب)[٥٨]، مما يقرر صحة ما ذكره القالي وتابعه فيه البكري، حتى المصادر الأدبية غضّت الطرف عن الأبيات ولم ترد -فيما وصلت إليه- إلا عند اليوسي من المتأخرين منسوبة إلى المثقّب، وليس في ذلك قطع أو دليل على ثبوتها للشاعر، فاليوسي نقلها عن **الأمالي** لكنه غض الطرف عن تردد نسبتها بين الشاعرين، يقرر ذلك نقله الأبيات بترتيبها وعددها، وإيراد اختلاف الروايات في البيت الأول، وذكره الشرح بعدها بنص **الأمالي**، لكن الغريب أنه نقل كل ذلك، وسكت عن تردد نسبتها بين عنترة والمثقب، مكتفيًا بقطعه: "قال المثقّب"، وعليه فحكمه لا يعوّل عليه في تأكيد النسبة، وتبقى الأبيات متنازعة بين الشاعرين، وليس ثمة جازم يفصل في القضية، ففيها ما يشبه شِعر عنترة وطريقته ونظمه إلى حد كبير، من مثل قوله:

وأعقب نوء المرزمين بغبرة    وقطرٍ قليل الماء بالليل بارد
كفى حاجة الأضياف حتى يريحها    عَنِ الحي منّا كُل أروع ماجد

وقوله:

إذا قيل من للمعضلات أجابه    عظام اللهى منّا طوال السواعد

ورغم ذلك التنازع وتغليب الدراسة إلى أنها أقرب في نهجها وروحها إلى عنترة منها إلى المثقّب، تبقى الإشارة إلى دقة النقّاد العرب في التوثيق، وتحريهم الأمانة في النقل، وعدم فصلهم فيما لم يقم عليه دليل يقرر ويؤكد.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

* جامعة القصيم- كلية العلوم والآداب بالرس- قسم اللغة العربية- الرس- القصيم.

(١) **أسرار البلاغة** لعبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ص٥.

(٢) **الوساطة** ٩٩.

(٣) **زهر الآداب وثمر الألباب** جـ٤/١١٥٨.

(٤) **التذكرة الحمدونية** جـ٢/٤١٦-٤١٧

(٥) **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ٢/٤٣٨.

(٦) **شرح ديوان الحماسة** ١١٧.

(٧) **مجمع الأمثال** للميداني، تح: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، جـ٢/٧٨.

(٨) انظر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ٢/٤٣٨.

(٩) انظر **نضرة الإغريض في نصرة القريض** للمظفر العلوي، تح: د. نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، من ص١٥٢- ١٦٨، وبيتا عنترة وردا في ص١٦٤.

(١٠) **خاص الخاص** للثعالبي، تح: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة، بيروت/لبنان، ص١٠١.

(١١) **أحسن ما سمعت** للثعالبي، تح: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م، ص٩٥.

(١٢) **ديوان المعاني** ٢/٦٤.

(١٣) ديوان عنترة ٢٣١.

(١٤) السواء: المساواة أي لا ينتصف عدونا منا. الأعضاد: جمع عضد، وهو موضع الحمالة منه. السراء: شجر يتخذ منه القسي. المعطف: المحني.

(١٥) الهتوف: القوس المصوتة عند الرمي لشدة وترها. العجس: مقبض القوس. رضوية: نسبة إلى أرض اسمها رضوى. الحميري: نسبة إلى رجل من حمير.

المؤنف: المحدد الطرف، أو الرقيق... شبه السهم في استوائه وتحديد طرفه بالشراك المؤنف، أي المحدد الطرف أو الرقيق.

(١٦) **خزانة الأدب وغاية الأرب** ٤٢٢/١. (١٧) **الكامل في اللغة والأدب** ٣٦/٣.

(١٨) **تحرير التحبير** ٥٠١. (١٩) **الأشباه والنظائر** ١٠١.

(٢٠) **التشبيهات** لابن أبي عون، عني بتصحيحه محمد عبد المعيد خان، مطبعة كمبردج، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، ص١٤٥.

(٢١) **لباب الآداب** ٣٦٨ "باب البليغ من التشبيه". (٢٢) **حلية المحاضرة** للحاتمي ٢٠٦.

(٢٣) **شعراء النصرانية**، ج ٨١٦/٦. (٢٤) **شعراء النصرانية** ٨١٦/٦.

(٢٥) **البناية شرح الهداية** بدر الدين العينى (ت ٨٥٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م، ج٣٢٦/٥.

(٢٦) انظر **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم** للآمدي (ت ٣٧٠هـ) تح: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٤٥، **معجم الشعراء** للمرزباني، تصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٤٩٠، وغيرها.

(٢٧) من تلك المؤلفات **خزانة الأدب**، فقد أورد البغدادي فيها تعليقًا على البيت: وَهَذَا الشِّعْر لضمرة بن ضَمرَة بن جَابر بن قطن بن نهشل بن دارم شَاعِر جاهلي. وَيُقَال: إن ضَمرَة كَانَ اسْمه شقة فَسَماهُ النُّعْمَان ضَمرَة بن ضَمرَة. وَكَانَ يبر أمه ويخدمها وَكَانَت مَعَ ذَلِك تُؤثر أَخا لَهُ يُقَال لَهُ جُنْدُب فَقَالَ هَذَا الشّعْر. هَكَذَا رَوَاهُ ابْن هِشَام اللَّخْمِيّ فِي شرح أَبْيَات الْجمل. وَرَوَاهُ بَعضهم: يَا ضمر أَخْبرنِي وَقَالَ: إن قَائِله ضَمرَة. وَهُوَ خطأ. وَنسبه أَبُو رياش لهمام بن مرّة أخي جساس بن مرّة قَاتل كُلَيْب. وَزعم ابن الأَعرَابِي: أَنه قيل قبل الإِسْلَام بِخَمْسِ مِئَة سنة. وَفِي شرح أَبْيَات سِيبَوَيْهٍ: أَنه لبَعض مذْحج وَقَالَ السيرافي: هُوَ لزرافة الْبَاهِلِيّ، وَقَالَ الآمِدِيّ فِي المؤتلف والمختلف: هُوَ لهني بن أَحْمَر من بني الْحَارِث ابْن مرّة ابن عبد مَنَاة بن كنَانَة بن خُزَيْمَة جاهلي. انظر: **خزانة الأدب** ٣٨/٢.

(٢٨) **الأغاني** لأبي الفرج، ج٨/٢٤٢.

(٢٩) **المفضليات** للمفضّل الضبِّي، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ص٣٨٥.

(٣٠) **الأصمعيات اختيار الأصمعي** للأصمعي، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط٦، ١٩٩٣م، ص٢٢٩.

(٣١) **لباب الآداب** ١٢٥.

(٣٢) انظر **الحماسة البصرية** لأبي الحسن البصري، تح: مختار الدين أحمد عالم الكتب، بيروت، ج٢/!٦١.

(٣٣) **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** ١/٩٣٧.

(٣٤) **المفضليات** ص٣٨٥.

(٣٥) **الأصمعيات** ص٢٢٩.

(٣٦) **الأغاني** ١٢/١٨٢.

(٣٧) انظر **ديوان عنترة** ١٧٢- ١٧٤.

(٣٨) انظر: **ديوان عنترة بشرح الخطيب التبريزي**، قدّم له ووضع هوامشه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٢٩-٣٠.

(٣٩) انظر: **ديوان عنترة**، مطبعة الآداب بنفقة خليل خوري، لبنان، ١٨٩٣م، ص١٤.

(٤٠) **المعاني الكبير** ١/٩٠.

(٤١) **الوساطة بين المتنبِّي وخصومه** ٢٩٥.

(٤٢) **نثر الدر في المحاضرات** لمنصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبي، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ج٦/٢٦٩.

(٤٣) **شعراء النصرانية** ٦/٨٠١.

* **العرب**: عدَّ الكاتب هذا المرجع من "المصادر" المعتمدة، وليس ذلك صحيحًا، بل هو مرجع حديث مشكوك فيه، لا يصح الاعتماد عليه. وقد سبق أن انتقده الكاتب في هذا البحث وبيّن ما اتسم به الخلل. وكان الأولى أن يحذف لولا أننا التزمنا إيراد وجه نظر الكتّاب في المجلة مهما كانت، عملاً بحرية التعبير.

**أ.م.ض**

(٤٤) **شرح ديوان المتنبِّي** للعكبري، تح: مصطفى السقا/إبراهيم الأبياري/عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ج١/٣٠١.

(٤٥) **العقد الفريد** ٣/٣٥٤.

(٤٦) **زهر الأكم في الأمثال والحِكَم** ١/٢٦٧.

(٤٧) **جمهرة اللغة** لابن دريد الأزدي، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ج٢/٩٥٣.

(٤٨) **البرصان والعرجان والعميان والحولان** للجاحظ، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، ص٢٧١.

(٤٩) **البيان والتبيين** ٣/٢٠٩. (٥٠) **الحيوان** ٤/٤٣٦.

(٥١) **تاج العروس من جواهر القاموس** للزَّبيدي، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج٢٦/١١٧.

(٥٢) **لسان العرب** لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج١٠/٢٣٧.

(٥٣) **الحور العين** لابن سعيد الحميرى اليمني، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٢٢١.

(٥٤) **الأمالي** ٢/١٦٥.

(٥٥) **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** ١/٧٨٧.

(٥٦) انظر **ديوان عنترة** بتحقيق مولوي ٣٣٤.

(٥٧) **ديوان عنترة** بشرح الخطيب التبريزي، تح: مجيد طراد، ص٥٧ مقطوعة رقم (٤١) وقد نقلها من ديوان عنترة، تح: فوزي عطوان، دار صعب، بيروت، وهو وإن لم يصرح بذلك حين، ورد القصيدة فقد ذكر في مقدمة تحقيقه أنّ الأبيات التي لم تذكر مشروحة في الديوان قد نقلها من المصادر، وحينئذ يشير إلى المصدر، أمّا التي يوردها دون شرح أو إحالة إلى مصدر فقد نقلها من **ديوان عنترة** بتحقيق فوزي عطوان.

(٥٨) انظر ديوان شِعر المثقّب العبدي، تح: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٢٦٦-٢٦٨، المقطوعة رقم (٥).

**رسائل تراثية في النقد والبلاغة، تحقيق: أ.د. محمد الهدلق، الرياض، كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ١١٩ صفحة.**

هي ثلاث رسائل محققة، رأى محققها أن يجمعها في كتاب واحد تحت اسم (رسائل تراثية في النقد والبلاغة) لكل واحدة منها مقدمة مستقلة اتبع فيها قواعد التحقيق من ترجمة للمؤلف وذكر لمصنفاته، ووصفٍ للمخطوط، ثم عرض النص المحقق مضيفًا إليه تعليقاته ومقابلاً بين نسخ المخطوط في حواشيه.

أمّا بيان هذه الرسائل التراثية فهو كالآتي:

الرسالة الأولى للناقد والشاعر أبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطَبَا العلوي (ت٣٢٢هـ)، مؤلف كتاب "**عيار الشِّعر**"، والرسالة مخصصة لإيضاح الطريقة التي يُتوصَّل بها إلى استخراج الُمعَمَّى من الشِّعر، أو ما يُسمَّى حديثًا: (فك الشفرة).

والرسالة الثانية لكاتب الترسّل المعروف أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ (ت٣٨٤هـ) تحدّث فيها عن السبب في أنّ أكثر المترسِّلين البلغاء لا يُفلِقُونَ في الشِّعر، وأنّ أكثر الشعراء لا يجيدون في الترسل. كما تحدّث فيها عن الوضوح والغموض في النثر والشِّعر، وعن الموضوعات التي يكتب

فيها كُتَّاب الترسل والموضوعات التي ينظم فيها الشعراء، وعن السبب في كثرة الشعراء وقلة المترسِّلين، وختم الرسالة بالمفاضلة بين الكتّاب والشعراء.

والرسالة الثالثة للعالم الفقيه تقي الدين علي بن عبد الكافي السُّبكي (ت٧٥٦هـ) تحدّث فيها عن الحقيقة والمجاز والكناية والتعريض، وأقسام كل منها.

وهذه الموضوعات على ما فيها من طرافة تظهر الحالة العلمية والأدبية لتلك الحقب التي أُلِّفت فيها، ومدى ما وصل إليه التأليف من ترفٍ كما في رسالة استخراج المعمّى، أو قوة الحجة، كما في (الفرق بين المترسل والشاعر)، أو التوسّع في علوم العربية كما في رسالة (الإغريض)، وضمّ هذه الرسائل في كتابٍ واحد أسلوب تراثي قديم يعيدنا إلى زمن التأليف العلمي في عصوره المختلفة.

ع. ن. م

## إهداءات إلى مكتبة العرب

**أولاً- الكتب:**

- الدر الثمين في ذكر المناقب والوقائع لأمير المسلمين، تأليف حسن بن أحمد اليمني (عاكش) الذي نسب تحقيقه إلى الشيخ عبدالله بن علي بن حميِّد، قرأه وعلّق عليه وأخرج أصل الكتاب عن النسخة الأصلية د. أحمد بن محمد بن حميِّد، إصدار دارة الملك عبدالعزيز ٢٩٦، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- إعمار الهجَر، آليات إنتاج العُمران: تثليث-عسير، د. هند بنت حسن القحطاني، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، سلسلة الرسائل الجامعية (٤٣) ٢٩٧، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، جابي زاده علي فهمي، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، ٣٠٦، الرياض، ١٤٣٤هـ.

**ثانيًا- المجلات:**

- الخفجي، السنة ٤٤، العددان مارس-أبريل ٢٠١٤م، جمادى الأولى-جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير المسؤول: م. رياض عبدالرحمن الحسن.
- الفيصل، السنة ٣٨، العددان: ٤٥٣-٤٥٤، الربيعان ١٤٣٥هـ/يناير-فبراير ٢٠١٤م، رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت.
- أوراق نسبية، تصدرها الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب التابعة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد الأول، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. محمد جاسم حمادي المشهداني.
- التربية الإسلامية، العدد ٣، السنة ٤٠، ربيع الأول ١٤٣٥هـ/كانون الثاني ٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. كوان كعيد خلف.
- التربية الإسلامية، العدد ٤، السنة ٤٠، جمادى الأولى ١٤٣٥هـ/آذار ٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. كوان كعيد خلف.

# المزاح والدعابة في الإسلام
## قراءة في فقه السيرة ودعابة الصحابة والتابعين ومزاحهم

بقلم: د. التاه بن محمدن بن اجمد*

**المقدمة**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛

فإنّ هذا المقال يسعى إلى مقاربة موضوع المزاح والدعابة من خلال الوقوف مع نماذج من أدب السيرة النبوية العطرة، وما أثر عن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- والتابعين -رحمهم الله- بهذا الخصوص.

وبما أنّ أفعالنا نحن المسلمين ينبغي أن تكون مقيّدة بالشريعة المحمدية والسنّة النبوية، متأسية بالصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- والتابعين -رحمهم الله- فقد أردنا أن نعالج في هذه الصفحات موضوع: (المزاح والدعابة في الإسلام "قراءة في فقه السيرة ودعابة الصحابة والتابعين ومزاحهم") علّنا أن نقتدي بهم ونتأسى بهديهم الرائد في ذلك المنوال.

وتبرز أهمية الموضوع أولاً من خلال ندرة ما كتب عنه، إذ الندرة هي جوهر الغلاء، وفي تشتت ذلك المكتوب القليل ثانيًا، أمّا ندرة الموضوع فتظهر لنا من أنّ الدراسات حول هذا الموضوع تكاد تنعدم إذا ما استثنينا مرجعًا أو اثنين مما وصلت إليه أيدينا، غير أنه يلاحظ على هذين المرجعين أنّ جلّ تركيزهما كان منصبًّا على نقل بعض الحوادث والروايات بشكل سردي دون صياغتها في قالب منهجي، يمكن الباحثين من الاستفادة منها بالشكل الذي يجب.

أمّا تشتته فيبدو جليًّا في كون كتب الشمائل والأخلاق والتراجم، وإن كانت تتحدث ضمن بعض مباحثها عن مزاح النبي ﷺ والصحابة والتابعين، إلا أنها لا تتوقف عنده بالتفصيل الكافي، وإنما تشير إليه مجرد إشارات خاطفة، وتمرّ عليه مرور السحب العاصفة، الأمر الذي يجعل من الأهمية بمكان محاولة جمع تلك الإشارات في صعيد واحد؛ لتسهل الاستفادة منها من الناحية المنهجية.

والإشكالية التي تعالج هذا الموضوع تتعلق بمنزلة المزاح في التراث الإسلامي (عند النبي ﷺ والصحابة والتابعين) ومقارنتها مع ما عليه الأمر عند الأقدمين والمعاصرين.

فماذا إذن عن دلالة المزاح وما هي الألفاظ المشابهة له في المعنى؟ وكيف نظر الشارع إليه؟ ثم ما هي أبرز النظريات حوله؟ وهل كان الرسول ﷺ والصحابة والتابعون يمزحون، وكيف كان ذلك؟ وما أبرز التطبيقات والنماذج المروية عنهم فيه؟

سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال اعتمادنا للمنهج المقارن ؛ لأنه بدون المقارنة يفقد العقل سبيله، بيد أننا لن نقتصر عليه وحده بل سنلجأ إلى المزج بينه وبين المنهج التحليلي ؛ لكون هذا الأخير له العديد من المميزات، من حيث قدرته على استخلاص النتائج والعبر من النماذج التي سترد معنا، مما أثر عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين من مزاح وفكاهات.

وسنتناول هذا الموضوع من خلال أربعة محاور: نخصص الأول منها للحديث عن مفهوم المزاح ودلالته اللغوية، بينما نخصص الثاني لمقاربة المزاح من الناحية الاصطلاحية والشرعية، في حين سنتناول في المحور الثالث نماذج من مزاح النبي ﷺ لنختم بالتعرض لنماذج من مزاح الصحابة والتابعين -رضوان الله تعالى عليهم- في المحور الرابع والأخير.

وبالتالي فإنّ محاور هذه الدراسة ستكون على الشكل الآتي:

- ✓ المحور الأول: المزاح: وقفة مع المفهوم والدلالة اللغوية
- ✓ المحور الثاني: المزاح بين المقاربة الاصطلاحية والشرعية
- ✓ المحور الثالث: نماذج من مزاح النبي ﷺ
- ✓ المحور الرابع: المزاح والمداعبات عند الصحابة والتابعين

## المحور الأول: المزاح: المفهوم والدلالة اللغوية

قبل البدء في أي دراسة جادة لابد من تحديد المفاهيم التي تدور حولها، لكي يكون المنطلق صحيحًا ومفيدًا ؛ لذلك سأبدأ بتعريف المزاح في اللغة، مع ذكر بعض الألفاظ المشابهة له في المعنى. حتى تتضح دلالته

ويمتاز عن غيره، الأمر الذي لن يتأتّى إلا بمقارنته مع بعض الألفاظ القريبة منه في المفهوم والدلالة، ونظرًا لكون تلك الألفاظ كثيرة جدًّا بحيث لا يتسع المقام لاستقصائها، ومنها على سبيل المثال (الدعابة، الملاعبة، المفاكهة، المباسطة، الملاطفة، المضاحكة، التحميض...) فإننا سنقتصر هنا على ثلاثة من هذه الألفاظ باعتبارها هي الأشهر والأكثر تداولاً وهي (الدعابة، الفكاهة، الملاعبة) وسنتحدث عن مفهوم المزاح (أولاً) قبل أن نعرّج على مفهوم الدعابة (ثانيًا) ثم نتحدث عن مفهوم الفكاهة (ثالثًا) لنختم بمفهوم الملاعبة (رابعًا).

**أولاً: المزاح في اللغة**

**المزاح** في اللغة: قال عنه الجوهري (ت٣٩٣هـ) في "**الصحاح**": المِزاح بالكسر مصدر مازحه، والمُزاح بالضم والمُزاحة أيضًا أسماء للمصدر[١].

وقال ابن منظور (ت٧١١هـ) في "**لسان العرب**": إنّ المزح هو الدعابة، قال: وفي المحكم، المزح نقيض الجد[٢].

وقال الفيروزآبادي (ت٧٩٦هـ) في "**القاموس المحيط**": مَزَحَ كمَنَعَ مزحًا ومُزاحة ومُزاحًا بضمهما، وهما اسمان دعب، ومازحه ممازحة ومِزاحًا بالكسر[٣].

والمُزاح بالضم مصدر سماعي والقياس الكسر؛ لقول ابن مالك في ألفيته[٤]:

لِفَاعَلَ الْفِعَالُ وَالْمُفَاعَلَةْ

وقد ورد المزاح كثيرًا في كتب الأدب، فقد تغنَّى به الشعراء، وتحدّث

عنه الحكماء، فمن ذلك قول أبي الفتح البستي[٥]:

أفِد طبعَك المكدودَ بالجِدّ راحةً     يَجِمَّ وعلّله بِشَيءٍ مِنَ المَزْحِ
ولكن إذا أعطيتَه المزْحَ فَليَكُنْ     بِمقْدارِ مَا تُعْطِي الطَّعامَ من الملحِ

وقال بعض الحكماء: خير المزاح لا ينال، وشره لا يقال، فنظمه النيسابوري في قصيدته الجامعة للآداب فقال[٦]:

شَرُّ مُزاحِ المَرْءِ لاَ يُقَالُ     وَخَيرُهُ يَا صَاحِ لاَ يُنَالُ
وَقَدْ يُقَالُ كَثْرَةُ المُزَاحِ     مِنَ الْفَتَى تَدْعُو إلَى التَّلاَحِي
إِنَّ المُزَاحَ بَدْؤُهُ حَلاَوَهْ     لَكِنَّمَا آخِرُهُ عَدَاوَهْ
يَحْقِدُ مِنهُ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ     وَيجْتَرِي بِسُخْفِهِ السَّخِيفُ

**ثانيًا: الدعابة في اللغة**

**الدعابة**: وهي مأخوذة من دَعَب كمنع، قال الجوهري: (ت٣٩٣هـ) الدعابة: المزاح، وقد دعب فهو دعَّاب لعَّاب، والمداعبة الممازحة[٧].

وقال الزمخشري: (ت٥٣٨هـ) دعَب بالفتح وبالكسر يدعَب بالفتح فيهما، ورجل داعب ودَعِب إذا مزح وتكلم بما يستملح، يقال المؤمن دَعِب لَعِب، والمنافق عَبِس قَطِب[٨].

وقال في **"اللسان"**: أدعب الرجل أملح؛ أي قال كلمة مليحة، وهو يدعب دعبًا؛ أي قال قولاً يستملح، كما يقال مزح يمزح، قال الطرماح:

واستَطْرَبَتْ ظُعْنُهُم لَمَّا احْزَألَّ بِهِم     مَعَ الضُّحَى نَاشِطٌ من لاَعِبَاتِ دَدِ

يعني اللواتي يمزحن ويلعبن[٩].

وقال الفيومي: (ت٧٧٠هـ) دعب مزح وزنًا ومعنى، وفي لغة من باب تعب، والدُّعابة بالضم اسم لما يستملح من ذلك(١٠).

وقال في **القاموس**: الدُّعابة والدُّعْبُبُ بالضم اللعب، وداعبه مازحه، ورجل دعَّابة مشددًا، ودَعِب ككتف، ودُعْبُب كقُنْفُذ، وداعب لاعب(١١).

قال العلامة أحمد بن اجمد اليدالي (ت ١٣٥٨هـ) -رحمه الله- في نظمه الذي يعدد فيه الكلمات المترادفة في الوزن والمعنى والذي سمّاه: "وزنًا ومعنى"، مشيرًا إلى أنّ المُزاح والدُّعاب متفقان في الوزن والمعنى، قال(١٢):

كَذَلِكَ النَّكَالُ بالعَذَابِ ... كَذلِكَ المُزَاحِ بِالدُّعَابِ
وَفِي المُزَاحِ جَاءَ ضَمُّ الْمِيمِ ... وَفُسِّرَ الْوَجِيعُ بِالأَلِيمِ

**ثالثًا: الفكاهة في اللغة**

**الفكاهة**: قال عنها ابن دريد: (ت ٣٢١هـ) الفَكِهْ من قولهم، رجل فكِهٌ؛ أي ضحَّاكٌ مزَّاحٌ، وهو مأخوذ من الفكاهة، وهو المزاح بعينه وحسن الخلق، وتفاكه القوم إذا تمازحوا، وقوم فكهون: أي لاهون، وقد قرئ: (فكهون) و(فاكهون) فمن قرأ (فكهون) فمن المزاح والمفاكهة، ومن قرأ (فاكهون) فمن اللهو، والله ﷻ أعلم بكتابه(١٣).

ورجل فكِهٌ طيّب النفس ضحوك، قال:

فَكِهٌ إِلى جَنبِ الخِوانِ إِذَا جَرَتْ ... نَكْبَاءُ تَخْلَعُ ثَابِتَ الأَطْنَابِ

وقال صخر بن عمرو الشريد:

فَكِـهُ العَـشِيِّ إِذَا تَـأَوَّبَ رَحْلُـهُ        رَكْب الـشِّتَاءِ مُـسَامِحٌ بِالَمْيسِرِ[١٤]

ويقـال: جاءنا بأفكوهـة وأملوحـة، وقولـه تعـالى: (فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُـونَ) وارد على سبيل التهكم؛ أي تجعلون فاكهتكم وما تتلذذون به قولكم: (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ)[١٥].

وقال ابن منظور: (ت٧١١هـ) الفكاهة مصدر فكِه الرجـل -بالكسر- فهو فكه إذا كان طيّب النفس مزّاحًا، والفاكه المزَّاح، يقال فكههـم بملـح الكلام أطرفهم، والاسم الفكيهة والفكاهة، والمصدر الفَكاهة بالفتح، وفي المثل "لا تفاكه أَمَهْ ولا تبل على أَكَمَهْ" قال أبو زيد: رجل فكه وفاكه وفيكهان طيّب النفس مزّاح، وأنشد:

إذا فيَكَهَـــانٌ ذُومُـــلاَءٍ وَلِمَّـــةٍ        قَليلُ الأَذَى فِيمَا يَرى النَّاسُ مُسِلِمُ

وفاكهت مازحت، ويقال للمرأة فكهة وللنساء فكهات. والفكه الـذي يحدث أصحابه ويضحكهم[١٦].

وقد امتدح الشعراء ممدوحيهم بالفكاهة، واعتبروها من كريم الخـصال ونبيل الخلال، وأنّ من لا يحسنها لا يمكنه الجد، يقول أبو تمّام:

الْجِـــدُّ شِـــيمَتُهُ وَفِيـــهِ فُكَاهَـــةٌ        طَـوْرًا وَلاَ جِـدٌّ لِّمَـن لَـمْ يَلْعَـبِ

**رابعًا: الملاعبة في اللغة**

○ **الملاعبة**: مصدر لاعب، يقال: لاعبه ملاعبة ولَعْبًا ولَعِبًا لعب معه، ولَعِبَ وتَلاَعَبَ وتَلَعَّبَ: لَعِبَ مرة بعد أخرى، قال امرؤ القيس[١٧]:

تَلَعَّـــبَ بَاعِـــثٌ بِذِمَّـــةِ خَالِـــدٍ        وَأَوْدَى عِصَامٌ فِي الْقُرُونِ الأَوَائِلِ

وفي حديث تميم والجساسة "صادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهرًا" سمّى اضطراب الموج لعبًا لَمَّا لم يسِر بهم إلى الوجه الذي أرادوه، ويقال لكل من عمل عملاً لا يجدي عليه نفعًا: إنما أنت لاعب[١٨].

والتَّلعَاب اللعب صيغة تدل على تكثير المصدر، كفعَّل في الفعل على غالب الأمر، قال سيبويه: هذا باب ما تكثر فيه المصدر من فعلت فتلحق الزوائد وتبنيه بناء آخر، كما أنك قلت في فعَلت فعَّلت حين كثرت الفعل، ويقال تلعب تَلْعابا وتَلعابة وتِلْعابا وتِلعابة[١٩].

ومن معاني اللعب اللهو، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢٠] ويقال لعب بالشيء اتخذه لعبة، ومن معاني لعب أيضًا: عَمِل عملاً لا يجدي عليه نفعًا، فتكون ضد جد[٢١].

وبعد عرضنا لكلام اللغويين حول هذه الألفاظ المشابهة للمزاح، يتبيّن لنا أنّ هذه الألفاظ ترجع إلى معنى واحد، فالمزاح والدعابة والفكاهة والملاعبة ألفاظ متقاربة، تصبّ كلها في منحى المُلح والتلطف بالكلمة الطَّيِّبة التي تريح النفوس وتبعث على انشراح الصدور، دون أن تخلف وراءها أحقادًا، أو تمسّ من شعور أو حرية الآخرين حتى تخرج بذلك الغيبة والسخرية، لأنها وإن صدق عليها ذلك في استخدامات العرب قديمًا لها، فإنها قد خصصها العرف الشرعي، وقصرها على ما يباح من ذلك، كما سنبين لاحقًا بإذن الله.

**المحور الثاني: المزاح بين المقاربة الاصطلاحية والشرعية**

نقصد بالمصطلح هنا ما تواضع عليه الجمهور من فقهاء أو لغويين، وغيرهم من باحثين معاصرين، (فلاسفة علماء النفس) وسنتناول في هذا المحور (أولاً) المزاح رؤية اصطلاحية، و(ثانيًا) رؤية شرعية، و(ثالثًا) المزاح رؤية فلسفية، لنختم (رابعًا) بنظرة الأطباء وعلماء النفس حول المزاح.

**أولاً: المزاح: رؤية اصطلاحية**

بالرجوع إلى آراء اللغويين في تعريف المزاح نجد أنّ أول من حاول وضع تعريف له من الناحية الاصطلاحية هو العلامة الأزهري (ت ٣٨٠هـ) حيث قال: "المَزْح من الرجال: الخارجون من طبع الثقلاء المتميزون من طبع البغضاء"[٢٢].

ويثير هذا التعريف العديد من الملاحظات نذكر منها:

أ- أنه تعريف للأشخاص الذين يمارسون المزاح وليس تعريفًا لعملية المزاح، فهو قد تحدث في تعريفه عن الرجال المزاحين مغلبًا المذكر على غيره؛ لأنّ تعريفه يشمل الإناث كذلك.

ب- أنّ هذا التعريف في الحقيقة ليس سوى رسم للمزاح وليس تعريفًا جامعًا مانعًا، إذ التعريف الجامع المانع لا يكون بذكر الأوصاف.

وانطلاقًا من التعريف السابق يمكن تعريف المزاح بأنه: الخروج من طبع الثقلاء، والتميّز عن طبع البغضاء، وبذلك يكون رسمًا للمزاح لا للممازح، كما يصدق على مطلق المزاح، سواء كان ذلك المزاح من قسم

المزاح المباح، أو كان داخلاً في القسم الممنوع منه.

ويمكن القول إنّ مفهوم المزاح قد شهد تطورًا وأصبح أكثر كمالاً نسبيًّا في وقت لاحق، وخصوصًا في القرن الثاني عشر مع اللغوي الشهير محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) الذي عرف المزاح في شرحه لـ**القاموس** بأنه: "المباسطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف، دون أذية، حتى يخرج الاستهزاء والسخرية"(٢٣).

ورغم القيمة العلمية لهذا التعريف، إلا أنه هو الآخر بدوره يثير بعض الإشكالات، نذكر منها:

أ- أنه أهمل في تعريفه هذا المزاح الممنوع، فهو قد عرف المزاح المشروع فقط، واحترز من غيره، وبذلك يكون تعريفه غير جامع مانع.

ب- أنّ التعريف -كما يقول المناطقة- من أهم أركانه أن يكون مطّردًا ومنعكسًا، وهو الأمر الذي يفتقد في هذا التعريف، حيث لا يعكس غير المزاح من الداخل معه في التعريف كالمصالحة ونحوها، كما أنه ليس مطردًا، إذ أن المباسطة والتلطف قد يكونان في غير المزاح.

هذا بخصوص تعريف المزاح عند اللغويين، وننبّه هنا إلى أنّ التعريف الذي قدّمه اللغويون هو نفسه التعريف الذي أخذه عنهم الفقهاء، أمّا الباحثون المعاصرون فقد ركزوا على استخدام لفظ الفكاهة أكثر من أخذهم بلفظ المزاح، وهم يعرفون الفكاهة بأنها: "رسالة اجتماعية، مقصود منها إنتاج الضحك والابتسام"(٢٤).

ويرى هؤلاء الدارسون أنّ الفكاهة مثلها مثل أيّ رسالة اجتماعية أخرى،

فإنها تسعى إلى تحقيق بعض الأهداف والوظائف وتستخدم بعض الوسائل الخاصة، كما أنّ لها محتواها المميّز لها وبنيتها الفريدة.

وبالرجوع إلى التعريف السابق الذي يقدمه الباحثون المعاصرون للفكاهة (المزاح) سنجد أنهم تمكنوا من خلاله إعطاء صورة تقترب من الكمال عن عملية الفكاهة، خاصة فيما يتعلق بأغراض الفكاهة والهدف منها، إلا أنه هو الآخر يثير بعض الإشكالات أهمها:

أ- أنه يخلط بين الفكاهة ذاتها والهدف منها على الرغم من كونهما أمران متمايزان تمامًا.

ب- أنه يحصر أهداف الفكاهة والمزاح في مجرد إنتاج الضحك والابتسام، في حين أنّ لها أهدافًا وغايات أخرى أكثر أهمية من الناحية الشرعية، وهو الأمر الذي سنعرض له لاحقًا في أثناء تطرقنا لبعض النماذج من مزاح النبي ﷺ.

**ثانيًا: المزاح: رؤية شرعية**

يعدّ الفقهاء المزاح هديًا نبويًّا، ومقصدًا شرعيًّا، إذ إنه يعدّ من قبيل التحسينات، التي هي أحد أقسام المقاصد الشرعية، التي قسمها الإمام الشاطبي -رحمه الله- في فاتحة حديثه عن القسم الأول من أقسام المقاصد، وهو قصد الشارع في وضع الشريعة فقال: إنّ تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام هي: المقاصد الضرورية، والمقاصد الحاجية، والمقاصد التحسينية، وهذه الأخيرة هي التي تهمنا هنا، وقد عرفها الإمام الشاطبي بأنها: "الأخذ بما

يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات، التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق"[٢٥].

وفي هذا القسم الأخير من المقاصد يتنزل المزاح الذي هو موضوعنا؛ لأنه يجري مجرى التحسين والتزيين، وليس فقدانه مخلاً بأمر ضروري ولا حاجي، فلزم أن يكون من قسم التحسين الذي راعته الشريعة الإسلامية وجعلته مقصدًا من مقاصدها، وهذا ما يعطيه مكانة سامية ورتبة رفيعة، إذا ما روعيت ضوابطه واحترمت شروطه، واقتصر منه على قدر الحاجة. فهو ينشّط الحواس والعقل والجسد، ويعطي للشخص دفعًا لمواصلة العبادة، وبه يصفو الذهن ويستعد للتفكير والتدبر، وبه يستريح الجسد ليتمكن من مواصلة عمله ونشاطه بحماسة أكبر، وإقبال أكثر.

والمزاح ينبغي أن يراعى فيه الحق، وأن يتحرَّى فيه الصدق، حتى يكون جاريًا على نظام الشريعة الإسلامية، ومطابقًا لقواعدها ومقاصدها، كما ينبغي أن يبتعد فيه عن فحش القول وعن الكذب، فقد روى ابن عمر -رضي الله عنهما- أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقًّا»[٢٦].

غير أنّ المزاح يختلف باختلاف أنواعه، فهناك مزاح ممنوع وآخر مشروع، وبالتالي فإننا سنتناولهما في الآتي:

أ- المزاح المشروع: يرى أكثر أهل العلم أنّ المزاح مندوب إليه ومستحب، إذا توفرت فيه الشروط المطلوبة، وفي هذا السياق يقول الإمام النووي: (ت٦٧٦هـ) "اعلم أنّ المزاح المنهيّ عنه، هو الذي فيه إفراط

ويداوم عليه، فإنه يورث الضحك وقسوة القلب، ويشغل عن ذِكر الله، والفكر في مهمّات الدين، ويؤول في كثير من الأوقات إلى الإيذاء، ويوجب الأحقاد، ويسقط المهابة والوقار، فأمّا ما سلم من هذه الأمور، فهو **المباح** الذي كان النبي ﷺ يفعله على الندرة، لمصلحة تطييب نفس المخاطب ومؤانسته، وهو سنّة مستحبّة، فاعلم هذا فإنه مما يعظم الاحتياج إليه"[٢٧].

ويعضد هذا الرأي قول العلامة العزي (ت٩٨٤هـ): الذي يقول هو الآخر: "وبعد، فقد سئلت قديمًا عن المزاح، وما يكره منه وما يباح، فأجبت بأنه مندوب إليه بين الإخوان، والأصدقاء والخلان، لما فيه من ترويح القلوب، والاستئناس المطلوب، بشرط أن لا يكون فيه قذف ولا غيبة، ولا انهماك فيه يسقط الحشمة ويقلل الهيبة، ولا فحش يورث الضغينة، ويحرك الحقود الكمينة"[٢٨].

ب- المزاح الممنوع: وهو ما جانب الممازح فيه الحق ولم يتحرَّ الصدق، أو كان فيه غيبة أو نميمة، أو كان فيه روع مسلم أو إفساد إخاء، أو إضاعة حق من حقوق الله تعالى، أو أفرط فيه صاحبه وداوم عليه ونحو ذلك. وقد بيّن الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) ما منع من المزاح، وعلّة منعه قائلاً: "اعلم أنّ المنهيّ عنه الإفراط في المزاح أو المداومة عليه، أمّا المداومة؛ فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه، واللعب مباح، ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأمّا الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة

والوقار، وفيما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم"[٢٩].

ومما سبق يمكن أن نخلص إلى أنّ المزاح سنة مستحبة لفعله ﷺ ولكن بشروط وضوابط، منها أن لا يشتمل على كذب ولا روع مسلم، ولا قذف ولا غيبة، وأن لا يتخذه الشخص عادة، وأن لا يكثر منه جدًّا.

**ثالثًا: المزاح: نظرة فلسفية**

يرجع تاريخ اهتمام الفكر الإنساني بالفكاهة (المزاح) إلى العصور القديمة، حيث تحدث عنها فلاسفة بارزون، بدأ بأفلاطون وأرسطو، مرورًا بكانط وشوبنهور، وليس انتهاء بهوبز وبرجسون، ولم يقتصر الاهتمام بالفكاهة على الفلاسفة، وإنما عني بها علماء النفس كذلك بدورهم فنظروا لأبعادها السيكولوجية.

وإذا ما رجعنا بالحديث إلى جهود وإسهامات الفلاسفة حول الموضوع نلاحظ أنهم قد خصصوا له حيّزًا كبيرًا من اهتماماتهم، فجميع الفلاسفة الكبار أصحاب الإسهامات الفلسفية الكبيرة تعرّضوا للموضوع، إمّا في معرض حديثهم عن مواضيع أخرى، كما عليه الحال بالنسبة لكل من أفلاطون وكانط وشوبنهور، أو خصصوا له نظرية وتناولوها في كتاب واحد، كما فعل برجسون، أو عدة كتب كما فعل كير كجورد[٣٠].

ففيما يتعلق بأفلاطون فيعد من وجهة نظر الفلاسفة هو الأب الحقيقي لدراسات الفكاهة والضحك، خصوصًا أنّ هذا الفيلسوف الكبير قد خصص حيّزًا هامًّا في كتاباته لدراسة الضحك والتأمل فيه، لكن بعض الدارسين يرى أنّ دخول أفلاطون إلى ميدان الضحك لم يكن مبعثه

التبجيل لهذه الظاهرة أو إجلالها، بقدر ما كان من باب التحذير منها، حيث عدّ أفلاطون الضحك وسيلة تغيير اجتماعي في غاية الفعالية، وله القدرة الكافية على تغيير الأوضاع وقلب الموازين، كما أنّ له القدرة أيضًا على تحويل خطوط الدفاع القوية لأيّ سلطة إلى مجرد أبنية هشة، فالضحك في رأي أفلاطون هو أخطر الخصوم وأكثرها قدرة على الفتك بالسلطة، فبضحكة واحدة تكون لكل مواطن القدرة على جعل أركان السلطة تتداعى وتسقط متهاوية[٣١].

أمّا فيما يتعلق بأرسطو "تلميذ أفلاطون" فقد سعى بدوره إلى الإدلاء بدلوه حول موضوع الضحك والفكاهة، وكان أبرز إسهاماته في هذا الجانب هو حديثه في كتابه "الأخلاق إلى نيقوماخوس Nicomachean ethics" عن أنّ الاسترخاء يشكل جانبًا أساسيًّا من الحياة، وأنه يشتمل من بين ما يشتمل عليه من سلوكيات على التسلية والترفيه، معتبرًا في هذا المجال أنه بالتسلية والترفيه يمكننا أن نكشف عن ذوق طيّب في علاقاتنا الاجتماعية، وعن لياقة فيما نقوله، وفي طريقة أو كيفية قولنا له أيضًا[٣٢].

وإذا كنّا آنفًا قد تعرّضنا للفلاسفة الذين تحدّثوا عرَضًا عن الفكاهة والضحك، دون أن ينتجوا كتبًا خاصة حول الموضوع، فإننا سنحاول -في عجالة- أن نمرَّ ببعض الفلاسفة الذين خصصوا كتابًا أو أكثر للحديث عن الفكاهة والضحك، ونبدأ بالفيلسوف الفرنسي هنري برجسون (١٨٥٩-١٩٤١م) الذي طوّر نظرية حول الفكاهة والضحك، أطلق عليها بعض الدارسين اسم "نظرية الآلية" أو "النشاط الآلي

mechanization" وذلك في إشارة إلى قوله: "إنّ الأمر المضحك هو شيء ميكانيكي أو آلي يضع قشرة خارجية مميزة على الكائن الحي وخاصة الإنسان" وقد بحث برجسون عن القانون الذي يحكم الضحك فوجده -في ضوء فلسفته الشاملة حول الوثبة الحيوية والتطور الخلاق- ثاويا في تصلب ما هو حي، وفي تلبس الحياة بإهاب الجماد، فنحن نضحك عندما نشاهد "صلابة" آلية، حيث ينبغي أن توجد مرونة إنسانية يقظة، كما أننا نضحك -بحسب برجسون- من كل تصلب وجمود في الجسد أو الطبع أو الفكر، ونضحك أيضًا من أوضاع الجسم الإنساني وحركاته وإشاراته، حيث يذكرنا هذا الجسم بمجرد آلة تتحرك[٣٣].

وإذا كان برجسون قد خصص كتابًا واحدًا للحديث عن الفكاهة والضحك، فإنّ الفيلسوف الدانماركي كيركجورد (١٨١٣-١٨٥٥م) قد خصص للحديث عن هذا الموضوع أكثر من كتاب، فهذا الفيلسوف الذي كان يوصف بأنه شديد الحزن والكآبة والعزلة، قد طرح أسئلة كثيرة في كتاباته المختلفة حول طبيعة الفكاهة والتهكم والسخرية والضحك، وحول أدوارها داخل عمليات الاتصال أو التخاطب الإنساني الأخلاقية منها والدينية. ويمكن تلخيص أهم ما أنتجه حول هذا الموضوع في عبارته الشهيرة التي تقول: "إنه حيث توجد حياة يوجد تناقض، وحيث يوجد تناقض يكون المضحك موجودًا"[٣٤].

وخلاصة القول حول آراء الفلاسفة المتعقلة بالفكاهة والمزاح هو أنهم اشتركوا جميعًا في الاهتمام بهذا الموضوع، إلا أنّ إسهاماتهم فيه جاءت متباينة، ففي حين نظر له البعض ضمن حديثه عن مواضيع أخرى، فإنّ

آخرين قد خصصوا لـه حيّزًا هامًّا في جهودهم الفكرية، فألّفوا حول الفكاهة كتابًا مستقلاًّ أو مجموعة كتب. ويبقى أهم إنتاجهم حول الموضوع، هو تنبّههم إلى دور الضحك كوسيلة تغيير اجتماعي يمكن لها أن تفتك بأعتى السلطات إذا استخدمت في ذلك المسار، كما يمكن لها أن تستغل في تعضيد علاقاتنا الاجتماعية والرقي بها.

**رابعًا: المزاح: نظرة طبية**

أجمع الأطباء وعلماء النفس على أنّ للضحك والفكاهة فوائد عديدة، وقد تعرّضوا لفوائد الضحك والفكاهة بالكثير من التفصيل، إلا أنه نظرًا لضيق المقام سنقتصر على ذكر بعض تلك الفوائد بإيجاز شديد، وفي هذا الإطار يمكن القول: إنّ الضحك قد عرف منذ القدم كعلاج لأوجاع الإنسان، وبحسب بعض الدارسين، فإنّ الإنسان القديم قد انتبه مبكرًا إلى فوائد الضحك الجمة، خاصة فيما يتعلق بضغط الدم والتنفس، وعمليات الهدم والبناء داخل الجسم، وصحة القلب والجهاز الدوري؛ ولذلك السبب فإنّ الإغريق على سبيل المثال قد اعتادوا أن يأخذوا مرضاهم ومصابيهم إلى منازل ممثلي الكوميديا؛ لأنهم كانوا ينظرون إلى ذلك بوصفه جزءًا من إجراءات العلاج(٣٥).

وفي القرون الوسطى سنلاحظ أنّ الأطباء قد اهتمّوا هم الآخرون بدور الضحك في علاج الأمراض، وفي هذا الإطار فقد كان الجرّاح هنري مونديفل Henri de Mondeville يقول: إنّ الجراح لا ينبغي له أن يهتم بعلاج الجسد فقط، بل أكثر من ذلك، فإنّ عليه أن يحيط أيضًا بالحالة

الكلية لحياة المريض، ومقدار ما بها من بهجة أو سعادة، وقد كان هذا الطبيب القدير يعطي أوامر مشددة لمرضاه بضرورة الابتعاد عن الغضب والحزن والكراهية، نظرا لدور تلك المشاعر السلبي في التأثير على وضعية المريض الصحية، أمّا الطبيب مدوجل، فقد نظر إلى الضحك على أنه غريزة ذات قيمة بقائية، مستندًا في نظرته تلك على دور الضحك في تنشيط العمليات الخاصة بالتنفس والجهاز الدوري، الأمر الذي يولد إحساسًا عامًّا لدى المريض بالبهجة، وبأنّ حالته الصحية على ما يرام[٣٦].

أمّا الأطباء المعاصرون، فإنهم ينظرون إلى الضحك على أنه لا يفيد في مواجهة الضغط النفسي فقط، بل يعمل أكثر من ذلك على تنشيط الجهاز المناعي، والحد من آثار الشيخوخة، والتقليل من احتمالات الإصابة بالأزمات القلبية، كما أنه يعمل على تحسين الوضع النفسي والجسمي للإنسان بشكل عامّ، مما يجعله أكثر تفاؤلاً وأكثر إقبالاً على العمل وعلى الحياة عمومًا. كما أنه يزيد من استرخاء الجهاز العصبي، نظرًا لكونه يؤدِّي إلى زيادة إفراز هرمونات الأندروفين في المخ، والتي تقوم بعملية حراسة الجسم طبيعيًّا، والدفاع عنه ضد الآلام والتوترات الجسمية والنفسية[٣٧].

كما أظهرت الدراسات الطبية الحديثة أنّ الفكاهة والضحك يعدان أنجع أسلوب لمواجهة الأزمات والضغوط النفسية، ويعود ذلك إلى كون الضحك يعمل على نقص الشعور بالألم، وزيادة على ذلك فإنه يخفّض من احتمالات التعرّض لأمراض القلب، من خلال توسيعه للشعب والشرايين المتصلة بالقلب، وزيادة وصول الأكسجين إليها، كما أنه يقوم

بالاستجابات المناعية ؛ مما يؤدّي إلى شعور المرضى بالتحسن، ويفسّر جودايمون J. Diamond دور الضحك في تقوية الاستجابات المناعية لدى الإنسان، بأنّ هناك ارتباطًا تشريحيًّا قويًّا بين عضلات الابتسام (الموجودة في الوجنات) وبين الغدة الصعترية (thymus) (الموجودة قرب قاعدة العنق) فإنّ استخدام عضلات الابتسام يساعد على تقوية الغدة الصعترية، ولأنّ هذه الغدة تلعب دورًا مهمًّا في جهاز المناعة، فإنّ تقويتها أو تحسينها من خلال الابتسام سيؤديان إلى تقوية جهاز المناعة أيضًا(٣٨).

وصفوة القول حول رأي الأطباء بهذا الخصوص، أنّ الضغوط والتأثيرات السلبية لأحداث الحياة قد تؤدّي إلى إضعاف جهاز المناعة لدى الإنسان، مما يوقعه في شراك العديد من الأمراض، وبالتالي فإنّ أولئك الأطباء ينطلقون من أنّ الفكاهة والضحك، والحالة الانفعالية والوجدانية الإيجابية التي تأتي نتيجة لهما، يمكنها أن تصبح بمثابة الترياق الطبيعي لحالات ضعف جهاز المناعة لدى الإنسان، كما يمكنها أن تعزز نشاطات هذا الجهاز وتقويها(٣٩).

هذا عن بعض آراء الأطباء بخصوص فوائد الضحك، أمّا فيما يخص علماء النفس فإنهم ينظرون إلى الضحك على أنه أحد أهم أساليب المواجهة (coping styles) التي يمكن للإنسان أن يستعين بها في التغلب على بعض آلامه ومشاكله النفسية الخاصة، وإضافة إلى ذلك، فإنها تعدّ من بين الأساليب التي يمكن للمجتمعات أن تستخدمها كترياق لعلاج بعض مشاكلها السياسية والاقتصادية، ولا أدل على اهتمام المجتمعات بالضحك في السنوات الأخيرة من انتشار أندية الضحك في العديد من

بلدان العالم، بالإضافة إلى استخدام بعض شركات الطيران لمهرّجين من أجل الترويح عن الركاب وإضحاكهم، ومساعدتهم على التغلب على مخاوفهم أثناء رحلات الطيران الطويلة منها والقصيرة. كما استخدمت مجموعة من المتخصصين في علم النفس الضحك كعلاج جماعي للانهيار العصبي، عبر تشكيل جوقة للضحك، هدفها مساعدة هؤلاء الأفراد على تجاوز آلامهم النفسية(٤٠).

ومن خلال عرض آراء الأطباء وعلماء النفس حول موضوع الفكاهة (المزاح) يتضح أنّ لها العديد من الفوائد الصحية، إذ إنها تساعد في معالجة المرضى والتخفيف من الآلام عمومًا، كما إنها تطّلع بدور فاعل في تنشيط الدورة الدموية، وعمليات التنفس، والحفاظ على صحة القلب والشرايين، وتقوية جهاز المناعة لدى الإنسان.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

* أستاذ مادة الحضارة الإسلامية بجامعة محمد الأمين الشنقيطي- انواكشوط/ موريتانيا.

(١) **تاج اللغة وصحاح العربية**: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م، ١/٤٠٤.

(٢) **لسان العرب**: لمحمد بن مكرم بن منظور المصري، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ٢/٥٩٣، مادة: مزح.

(٣) **القاموس المحيط**: لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص٢٤١، مادة: مزح.

(٤) **شرح ألفية ابن مالك**: لابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، الطبعة العشرون، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ٣/١٣١.

(٥) **المراح في المزاح**: للإمام العلامة بدر الدين أبي البركات محمد العزي، راجعه وعلّق عليه د. السيد الجميلي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٩.

(٦) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(٧) **تاج اللغة وصحاح العربية**: لإسماعيل بن حماد الجوهري، مرجع سابق، ١/١٢٥.

(٨) **أساس البلاغة**: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤١هـ ١٩٢٢م، ١/٢٧١.

(٩) **لسان العرب**: مرجع سابق، ١/٣٧٥، مادة: دعب.

(١٠) **المصباح المنير**: لأحمد بن محمد الفيومي المقّري، دراسة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ص١٠٣.

(١١) **القاموس المحيط**: مرجع سابق، ص٨٤ مادة: دعب.

(١٢) منظومة وزنا ومعنى: اللوحة: ١٥ مخطوط بحوزتي.

(١٣) **الاشتقاق**: لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، مصر، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص١٢٠.

(١٤) **أساس البلاغة**: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مرجع سابق، ٢/٢١١.

(١٥) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(١٦) **لسان العرب**: لابن منظور، مرجع سابق، ١٣/٥٢٣ مادة: فكه.

(١٧) **لسان العرب**: مرجع سابق، ١/٧٣٩ مادة: لعب.

(١٨) المرجع السابق: الصفحة والمادة نفسها. (١٩) م. س: الصفحة والمادة نفسها.

(٢٠) من الآية: ١٢ من سورة يوسف.

(٢١) **الموسوعة الكويتية**: إصدار وزارة الشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، طباعة السلاسل، الكويت، ٣٦/٢٧٢.

(٢٢) **تهذيب اللغة**: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، مرجع سابق، ٤/٢١٩ مادة: مزح.

(٢٣) **تاج العروس من جواهر القاموس:** للسيد محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: د. حسين نصار، دار الجيل، ١٣٦٩هـ/١٩٦٩م، ٢٢٢/٢ مادة: مزح.

(٢٤) الفكاهة والضحك: "رؤية جديدة" شاكر عبد الحميد، كتاب ضمن سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٢٨٩، يناير ٢٠٠٣م ص٧.

(٢٥) **الموافقات في أصول الأحكام**: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى المعروف بالشاطبي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، مصر، دون تاريخ، ٤/٢-٥.

(٢٦) **المعجم الكبير**: للحافظ الطبراني، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، مطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، الموصل العراق، ٣٩١/١٢؛ و**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: للحافظ الهيثمي، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. كتاب الأدب: باب ما جاء في المزاح، ٨٩/٨. وقال: إسناده حسن.

(٢٧) **شرح الشمائل المحمدية المسمّى بالفوائد الجليلة البهية**: للعلامة سيدي محمد بن قاسم جسوس، دار الرشاد، الدار البيضاء، بدون تاريخ، ٣٢/٢.

(٢٨) **المراح في المزاح**: للعزي، مرجع سابق. ص٩.

(٢٩) **إحياء علوم الدين**: لمحمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ١٢٨/٣.

(٣٠) **الفكاهة والضحك**: "رؤية جديدة" د. شاكر عبد الحميد، مرجع سابق، ص٦١.

(٣١) المرجع السابق: ص٦٥.

(٣٢) **الفكاهة والضحك**: **"رؤية جديدة"** د. شاكر عبد الحميد، مرجع سابق، ص٧٦.

(٣٣) المرجع السابق: ص١١٠. (٣٤) المرجع السابق: ص١٠٠.

(٣٥) **الفكاهة والضحك "رؤية جديدة"** د. شاكر عبد الحميد، مرجع سابق، ص٤٣٣.

(٣٦) المرجع السابق: ص٤٣٤. (٣٧) المرجع السابق: ص٨.

(٣٨) **الفكاهة والضحك**: **"رؤية جديدة"** د. شاكر عبد الحميد، مرجع سابق، ص٤٥٠.

(٣٩) المرجع السابق: ص٤٥١. (٤٠) المرجع السابق: ص٨.

# تصحيحات الميمني و إضافاته

# على حواش لسمط اللآلي

# (المطبوع بتحقيقه عام ١٩٣٦م)

بقلم: د. أحمد خان*

نشرت د. نادية غازي العزاوي في مجلة "**العرب**" (رجب وشعبان ١٤٣٥هـ) مقالاً تحت عنوان "نظرة في حواشي العلاّمة الراجكوتي" وأطرأت فيه أسلوب أستاذنا في إيراد حواشي الكتب التي حققها أو ألّفها، وأشارت إلى إيجازها واختصارها وإحالتها في كثير من المواضع إلى المخطوطات ونسخها بالأخص في خزائن المخطوطات العالمية، وقالت:

"حواشي كتب العلاّمة عبد العزيز الميمني (١٨٨٨م-١٩٧٨م) -تأليفًا وتحقيقًا- أكبر من مجرد هوامش للتخريج والتفسير والإحالة، فهي عنده غنية المحتوى، متنوعة الأغراض، تتناغم مع متونه بما تضم من دقائق المسائل والملاحظات والاستدراكات الأدبية و اللغوية و النقدية."

بكون حواشي العلامة الميمني قيّمة ومفيدة وثرية خاصة بإحالتها إلى التراث العربي المخطوط فإنها تحتاج إلى عناية خاصة من محبي التراث وطلاب العلم. ورأينا أنّ نموذج هذه الحواشي توجد في كتابه المهم "**سمط اللآلي**"

وكان يفتخر به كذلك. لا شك في أنّ حواشي هذا الكتاب أمثل النماذج لمن يهتم بإخراج الكتب التراثية. وقال الدكتور عزة حسن توصيفًا لأهمية هذا الكتاب في ميدان تحقيق التراث :

ثلاثة لي شكري لها لزام    السمط واللسان والأعلام

نشر الكتاب في سنة ١٩٣٦م وقد أصبح الآن كأنه لا وجود له ، حتى لا تجده في المكتبات الكبيرة. وأمّا النسخة التي كانت لدى محققه نسخة مهمة وذات قيمة كبيرة ؛ لأنّ الميمني كان يضيف فيه الحواشي عندما يجد شيئًا جديدًا بالنسبة لهذا الكتاب. وقد كتب هذه الحواشي بيده على هامش هذه النسخة. وحرصنا أن نصون هذه الدرر لإنارة الطريق لمخرجي التراث ، وقد جمعناها بمكان واحد لكي يستفيد منها الذي يريد نشر الكتاب من جديد ، أو يتمنى أن يستكمل النسخة التي لديه.

إنّ كتاب **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** ، للوزير أبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ) يعدّ كتابًا مهمًّا في الأدب العربي ، حققه أستاذنا العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت١٩٧٨م) ، ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر عام ١٩٣٦م. وقد أفرغ فيه الأستاذ علمه وهمّه من شبابه حتى قال : "كان هذا الضيف قد خيّم بي منذ سبع سنين كسنيّ يوسف ، ولات حين مناص أو تلهف وتأسف ، وكان ينظر قرمًا إلى أفلاذ كبدي ولحمي الزيم ، فأطعمته لحمي وأسقيته دمي". واستغرق شهورًا في تدقيق تجاربه وتصحيح حواشيه ، ولذلك كان الأستاذ قد رحل من عليكره إلى

القاهرة ومكث بها بضعة شهور، وانتهز هذه الفرصة فزار هناك خزائن المخطوطات ومجاميعها، كما استفاد منها في تصحيح عمله.

وكان من دأب الأستاذ أن يكتب بهامش الكتاب بالقلم ما قد رأى شيئًا يختلج بصدره من خطأ أو تصحيح وإضافة لكتاب ينظر فيه. حسب هذه العادة بل حبا لينظر كتابه **السمط** أصح وأكمل من كل ناحية كان يعاود النظر فيه ويعود إليه من آن وآخر. وكذلك إذا وجد شيئًا جديدًا ضمن مشتملات **السمط** أو ضمن أبيات وردت في الكتاب أو إضافة جديدة في المصادر كان يثبتها بهامش الكتاب. وكان قد اختص لهذا الغرض نسخة من السمط، وظلت هذه النسخة لديه طوال حياته. وعندما رأى في آخر عمره حتى قرب وفاته أنّ هذه النسخة من السمط تحتاج إلى الاحتفاظ أو تحفظ لمن ينشر الكتاب ثانيًا، وخشي ضياعها، أودعها في مكان قريب لبيته في مكتبة مدرسة شهيرة (مدرسة عربية نيو تاون بكراتشي) لبانيها العلامة محمد يوسف البنوري المجمعي الراحل، مع كتبه المصححة الأخرى.

وخشية من ضياع هذه النسخة في الأحداث المشؤومة بكراتشي في هذه الأيام، رأيت أن أدوّن بورقةٍ هذه التصحيحات والإضافات التي كتبها الأستاذ على هذه النسخة لـ**لسمط**. فتصفحت الكتاب ورقة ورقة وجمعتها ورتّبتها حسب صفحات الكتاب، وأبغي نشرها لعموم فائدتين: الأولى لتكون هذه التصحيحات أمام العالم الذي سيقوم بنشر هذا الكتاب نشرة صحيحة ومنقحة وكاملة حسب بغية محققه، والأخرى

ليصح ويكمل من لديه نسخة من طبعة الكتاب الأولى، حسب ما أراد به المحقق رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وجدير بالذكر أنّ الكتاب قد صدرت صورة منه سنة ٢٠٠٩ عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، بمصر، وطبع ثانية ببيروت في مجلدين، وذلك من طبعته الأولى وما أضيف إليه من حواشيه إلا قليلاً. ومن الغريب أنّ الناشر لم يزف إليه هذه التصحيحات والإضافات التي قام بها محققه الأول حتى وفاته؛ لعله لم يقف عليها.

[تلميذ الميمني: د. أحمد خان]

❖ ❖ ❖

- ص "د" س٢٤، ٢٥= في الحاشية الرقم (٣): البيتان منسوبان في **منتخب ربيع الأبرار** ٢٤ للثعالبي. وصححها الميمني: البيتان للثعالبي (**الثمار** ١٦٧) و**منتخب ربيع الأبرار** ٢٤ وفيه أول ... .
- ص "ش" س١٢ من العمود الثاني= هنا أضاف الميمني المصدر **مجالس ثعلب** ٩٢٦.
- ص "ف" س٦ = هنا صحح الكلمة الشريشي لأبيات الطائية.
- ص "ف" س٨ = أضاف هنا **غرر الخصائص** (مطبوعة ١٢٩٩هـ) ١٥٢ عنه ٦١٣ كثيّر والحزين.
- ص "م" س أخير = أورد ١٢ كتابًا ورد ذكرها في **السمط** المطبوع، وأضاف فيها:

(١٣) **تهذيب المؤتلف والمختلف في أسماء القبائل**، لابن حبيب من

تأليفه، رواه ابن خير ص٢١٩ بسنده إلى البكري(❖).

(١٤) **المستوعب لأسماء خيل العرب**، تخريج ـ الدلالات السمعية.

- ص "٥" س١ = من كتاب "**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**"، لابن بسّام علي بن محمد المولود بلشبونة.
- ص "٥" س١٢= فصل في **أخبار البكريين من أمراء المغرب**. أخبرنا الميمني ضمنه: ونقل ابن عذاري هذا الفصل برمته في الجزء الثالث المطبوع بباريس ١٩٣٠م، ص٢٤١-٢٤٢.
- ص "٥" س٢٠= *أوصلته* إلى مأمنه بقرطبة، كذا عند **ابن عذاري**.
- ص"٥" س أخير= وابن عذاري: صمّم كما أثبتناه.
- ص "١٣" س١٥= بين القوسين (**المحبّر** ٢٢٦، خ ٣/٦٦٨...).
- ص "٢٢" س١٩= منسوبًا لأبي مارد و**البخلاء**، لم أجدها.
- ص "٢٤" س١= وردت هنا أبيات، وأخبرنا الميمني: أكثر الأبيات في **المعاني**(❖) ٨٩٤.
- ص "٢٤" س١٩= أضاف في الحاشية بالرقم ٢: و**تكملة الجواليقي** طبعة دمشق، ١٧٧ عن ابن برّي.
- ص "٢٤" س١= وردت هنا أبيات، وأخبرنا الميمني: أكثر الأبيات في **المعاني** ٨٩٤.
- ص "٢٤" س١٩= أضاف في الحاشية بالرقم ٢: و**تكملة الجواليقي** طبعة دمشق ١٧٧ عن ابن برّى.

- ص "٦٥" س٢١= أضاف في الحاشية بالرقم ٤ : والأبيات في **الخالديين** (+) ٦٨ ، وله ترجمة في الورقة رقم ٢٩.
- ص "٦٨" س١٨= قال في الحاشية الرقم ١ : وليست في ديوانه ، وصححها وقال: ثم وجدتها في الجزء الرابع ، **والبيزرة والمصايد** ١٧٠.
- ص "٨٣" س٨= وأنشد أبو علي (١/١٩، ١٨) لمزرد: إذا مسَّ خِرْشاء الثُمالة أنفه ، وأضاف هنا ، أنّ البيت في **المعاني** ٣٨٩.
- ص "٨٣" س١٢= *وكان* أحد هجاة الضيفان.
- ص "٨٣" س٢٠= غزري الغزيرة *الدَّر* أو يكون علما... .
- ص "٩٤" س٣= قال المؤلف: لم أر عليهما مزيدًا. وأضاف الميمني: قال ناظم **السمط** : رأيت عليهما مزيدًا في **الوحشيات** ٢٠٧ ، وهي ٤ أبيات ليزيد بن الرومي العتكي.
- ص "٩٤" س٢١= (أو بغَيبة) وصححها بـ"بغَبية".
- ص "١٠٥" س١٣= الحاشية الرقم (٣) تمام الكلمة ، وبعده ١١ بيتًا ، وأخبرنا الميمني أنها في **طراز المجالس**، ابن عساكر ٢٠٤.
- ص "١١٥" س٧= بزيادة ثالث من **محاضرات الراغب** ٢/٣٩٤ :

يقلّب للأصوات من كل جانب صماخًا كبيت العنكبوت المغمّض

- ص "١٣١" س١٧= أضاف الميمني في الحاشية الرقم (٢): عند **ابن المعتز** (المطبوع) ٣٩٥ للعطوي ١٨٧ وهما عند العكبري ١/٤٢٣ بلا عزو.

- ص "١٣٩" س١٠= **الوحشيات**: يشرب نشرها وحشاها(❖)

غ: حبّ نسيمها ونشاها

لعبد الله بن جحش ١٧ و١١٨ **الوحشيات**.

- ص "١٤١" س٢٢= أضاف هنا الميمني. وترجم الثعالبي لابن أبي مرّة المكي، في **التتمة** ٧٢، وهذا غريب، أي أن يكون من معاصريه.
- ص "١٥١" س٢١ و٢٢= الأبيات في **مجالس ثعلب** ٢/٥٩١.
- ص "١٥٤" س١٨= ضمن الحاشية بالرقم ٢: البيت في **الفاخر** ٢٤١.
- ص "١٥٥" س١٣= وقد صحّف أبو عبيد في هذا الاسم، وهو السُبْجة، وأشار الميمني هنا إلى أنه في **التنبيهات على أغاليط الغريب المصنّف**، بالرقم ٣٦.
- ص "١٦١" س١٨، ١٩= هنا بيت لابن المعتز، وقال الميمني: ولم أجدها في ديوانه، وصححها فيما بعد وقال: ثم وجدتها في ديوانه المطبوع سنة ١٩٤٥م.
- ص "١٦٢" س١٨، ١٩= تحت الحاشية الرقم (٤)... وفي **الأمالي** بمقلته بدل بمقتله مصحّفًا، ههنا أضاف: وفي **الواضح المبين** ١٩٩، على الصواب. وفي **الفاضل** ٥٩ لأخت عمرو ذي الكلب. وهي ٨ أبيات في **الفاضل للمبرد**، أحمد بن يوسف الوزير في **أوراق الصولي** ١/٢٥٢ لابن أخته أحمد بن أبي سلمة الكاتب.
- ص "١٦٤" س٧= وقال عروة المرّار أبوهاني ابن عروة. وصححها الميمني: وقال صوابه عروة المراديّ أبوهانئ بن عروة.

- ص "١٧١" س١٧= ضمن الحاشية بالرقم ٢، أشار الميمني إلى **البيان** ٢/١٤٠، ولكن أحال إلى طبعته الأخيرة، فقال: **البيان** (مطبوع ١٣٤٥هـ) ٢/١٩٣.
- ص "١٧٨" س١٧= أبياته غير البيتين في غ ٢١/٥٤، وغير أولها في **منتهى الطلب**، وهي ١٩ بيتًا. وهما عند ابن أبي عون ١٠٦ و... .
- ص "١٨٢" س١٩= أضاف الميمني بعد تاريخ الخطيب ١٤/٢٨٧، وفي **المحدثين** لابن المعتز ١٩٥.
- ص "١٨٣" س٤= هنا وردت ثلاثة أبيات، فأشار الميمني إلى أنها وردت في **نقد الشِّعر** ٢٢.
- ص "١٨٦" س٣= لمسكين الدرامي، وقومها الميمني لمسكين الدارمي.
- ص "١٨٩" س١-٣= وردت هنا أبيات، وأشار الميمني إلى المصدر: ابن أبي عون ٢٦٦ بلا عزو.
- ص "١٨٩" س١١-١٢= بيت للأحوص، وأشار الميمني للبيت أنه ورد في **الأدباء** ٥/٤٧٩.
- ص "١٩٢" س١٣= ورد هنا بيت لعبد الله بن سبرة الحرشي، وأخبرنا الميمني: انظر لبعض أخبارها في **المحبّر** ٢٢٢.
- ص "١٩٣" س٢١= اطربون معرب اتربونس.
- ص "١٩٦" س٢٠= بآخر الحاشية الرقم (١) أضاف الميمني: وثلاثة له في **الوفيات** ترجمة أبي العتاهية ١/٧٣.

- ص "١٩٨" س٢٠= ضمن الحاشية بالرقم (٢)، أورد الميمني: **طبقات ابن المعتز** و**الجواهر** ٢٠٣.
- ص "١٩٨" س٢٢= أضاف في بداية الحاشية الرقم ٤: و**طبقات ابن المعتز** ٨٥ [١٨٩] ط مصر.
- ص "٢٠٦" س١٠= ضمن الحاشية رقم (٢): لورقة بن نوفل (و خ ٣٥٩/٣ بطرّني).
- ص "٢٠٦"س١٧= أضاف الميمني ضمن الحاشية بالرقم (٢)، البيتان في **الوحشيات** رقم ١٧٨ [ص١١٠]، باختلاف غير يسير.
- ص"٢٠٦"س١٠=_أضاف ضمن الحاشية الرقم (٣): البيتان يتقدمهما بيت آخر لجابر بن ثعلب التغلبي (؟) في **البصرية**. وفي **الخالديين** ٢٦٧، لابن الطثرية.
- ص "٢١٢" س٩= أورد الميمني ضمن أبي جلدة: وكذا في **مؤتلف الآمدي**، رقم ٢٠٢ أيضًا وعلى **حاشية المرزباني** ٥١١، وفي **أدب الخواص**: أبوخلدة، بالخاء، وقال ابن دريد: من قال غير ذلك فقد أخطأ.
- ص "٢١٣"س٨= أخبرنا الميمني ضمن أبي الميّاس: ترجم له الخطيب الرقم ٧٧٨٩، رواية عن شيوخ الأندلس.
- ص "٢٢٦" س٢١= وأشار الميمني إلى أنّ البيت في **أشباه الخالديين** ٢١٤ لمرة بن معروف بزيادة أربعة أبيات.

- ص "٢٣٧" س١٩= أضاف على الحاشية بالرقم (٤): القصيدة على طولها في **لباب الآداب** ٣٩٦، و**الأمالي الشجرية** ١/١٧٦.
- ص "٢٤٤" س٢١= وأضاف في الحاشية بالرقم (٤): و**البصرية** و**الحيوان** ٣/٤٤٥.
- ص "٢٤٨" س٢٠= وأخبر الميمني ضمن بيتين للأسود بن يعفر بأنهما قد وردا في **المعاني الكبير**: ٣٨٥، وذلك ضمن الحاشية الرقم ٢.
- ص "٢٥٥" س٢٠= أضاف ضمن أرجوزة ابن المعتز، وقال: وفي ديوانه طبعة سنة ١٩٤٥م، برقم ١.
- ص "٢٥٩" س٤= ضمن قول الأحوص، وهو في **معجم ما استعجم** ١٢٠، وفيه، روى الحربي قال، قال إسحق بن عبدالملك: عاتكة هذه ليست -ولكنه قابل بين قبر- وبئر الأسواف فكني: بعاتكه ا هـ.
- ص "٢٦٤" آخر= وأضاف الميمني بآخر الحاشية الرقم (٦): ثم رأيت في **الوفيات** ١/٢٧٣ في ترجمة عبيد الله بن بن عبدالله بن طاهر له ثمانية أبيات، سردها ثم قال، ووجدتها لأبي الطريف شاعر المعتمد العباسي.
- ص "٢٦٥" س١١= ورد هنا بيت أبي حية النمري:

وليس الذي يهمي من العين دمعها ولكنه نفس تذوب فتقطر

أضاف الميمني ضمنه: هذا البيت نسبه الثعالبي في **التتمة** رقم ٥٣ لأبي بكر العنبري.

- ص "٢٧٢" س١٧= صحح الميمني رقم الصفحة ضمن الحاشية الرقم (٣): وعند الشريشي ١/١٧٦.

- ص "٢٧٤" س١٠، ١١= البيتان لإسماعيل يسار من ٨ أبيات.
- ص "٢٧٤" س١٧= "فقد عرفت وجه مقال ابن الإفليلي"، ضمن هذه الإفادة انظر **الأشباه** للخالديين ١٢٤.
- ص "٢٧٥" س٢٠= الحاشية بالرقم (٣): البيتان في **البيان** ١/٢٨٣ وهما... .
- ص "٢٧٦" س١٩= كذا **الأمالي**، وابن أبي عون ١٢٧.
- ص "٢٧٧" س١٦= صحح كلمة مديح (؟) بـ بديح.
- ص "٢٨١" س١٣= فقالت ليلى: من كلمة في ٣٧ بيتًا (الدار "أدب ١٨٤٥"، ص ٥٧-٥٩)، هذا يعني أنّ هذه الإفادة من الكتاب الموجود بدار الكتب المصرية بالرقم أدب ١٨٤٥.
- ص "٢٨٧" س١٧= أشار لبيت الخنساء أنه في **البيان** ٣/٦٠ بلا عزو.
- ص "٢٨٨" س١٧= أضاف في الحاشية بالرقم (١)، والبيت في ديوان بشر بن أبي خازم، رقم ٢، البيت ٢٢ من كلمة في ٢٨ بيتًا. و**العيون** ٣/٩٦، و**الصناعتين** ٣٤٥.
- ص "٢٩٩" س١٧= أضاف في الحاشية بالرقم (١): ... بغير عزو. ثم وجدتها سبعة أشطار في نسخة **مجالس ثعلب**، ص٤ باختلاف في الرواية، وبلا عزو؛ و ١٣ شطرًا لمساور بن هند في **فرحة الأديب**، تحت الرقم ٩٥.
- ص "٣٠٧" س١٨= أحال البيت إلى **أمالي ابن الشجري** ١/١٣٧.

- ص "٣٠٨" س١٦= أورد ضـــمن الحاشـــية الـــرقم (١): في **البيـــان** ١/ ٢٨٠، و فيه فقبّلتها بنتين.
- ص "٣٠٩" س١٧= ضمن الحاشية الرقم (١): هما في ابـن أبـي عـون ٢٠٧.
- ص "٣١٠" س أخير= كما في ابن أبي عون ٢٠٨، و**معاني العسكري**.
- ص "٣١١" س٢٠= صحح بيتًا: أيا من تعبّدني طرفه.
- ص "٣١١" س٢٣= أضاف في الحاشية الرقم (٢) تـرجم لـه الشابشتي ١٠، وبآخر الحاشية: في **المنتظم** سنة ٢٦٢ هـ، و**مجلة المجمع** ٢٥٤/٨ عن **الديارات** للشابشتي.
- ص "٣١٢" س١٩= صحح الرقم من صفحة النويري ١/ ١٣٠.
- ص "٣١٤" س١٧= أضـاف ضـمن الحاشـية بـالرقم (٢): الـذي في د [ابن المعتز] ٢٩٤ وفي طبعة ١٩٤٥م برقم ٢٥.
- ص "٣١٧" س١٦= أضاف ضمن الحاشية الرقم (١): و**المعاني** ٤٨٥.
- ص "٣١٧" س١٧=... وهو صنع ثعلب. وبآخرها: وهي له في **الحيوان** ١٤٨/٣.
- ص "٣١٩" س١٤= أخبر الميمني أنّ بيت طفيـل موجـود في: **المعـاني** ١٢٧ ب.
- ص "٣٣٠" س١٧-١٩= ضمن الأبيات يقول الميمني: ولابـن عـساكر ثلاثة أبيات تشبهها في **الأدباء** ١٤٦/٣.

- ص "٣٣١" س٢١= أشار بعد كلمة مصحّفة إلى ورد: و**الإيجاز** (ط مصر) ٢٥٨.
- ص "٣٣٣" س٥= ألمَّ وَقْتُهُ، وصححها بـ ألمَّ وَقْتَهُ.
- ص "٣٣٣" س١٢= ضمن بيت أرطاة بن سهية، قال: وفي **الحيوان** ٣/١٤٤، وابن أبي عون.
- ص "٣٣٣" س١٧= أضاف في الحاشية الرقم (٣) بعد" و**الزهرة** ٣٤١" والمرزباني ٣٢٥.

وبعد محمود الورّاق: ثم وجدتهما في **ديوان ابن المعتز**، الرقم ٣١٤.

- ص "٣٣٤" س١٨: أضاف بآخر الحاشية الرقم (١): ثم إني وجدتها في "**المحمدون من الشعراء**" للقفطي ١٤ب لمحمد بن أحمد بن محمد ابن الحسن بن الحسين بن علي بن هارون البرداني.
- ص "٣٣٥" س٢٠–٢٢= ضمن الحاشية بالرقم (٤)، أشار الميمني إلى أنّ الأبيات أربعة في أول ما رواه أبو إسحق ابن الأعرابي، من نوادر أبي مسحل، قال: وتمثّل بها عبدالملك في كبره، وهي لبعض الأعراب. قال ثعلب: هي لأبي الأسود. والأبيات لم أجدها في **ديوان أبي الأسود**، صنع السكري، ونسب الخالديّان بيتين منها ٢٦٨ له.
- ص "٣٣٦" س١٨، ١٩= أضاف في الحاشية بالرقم (٣): ...في **معاني العسكري** ١/٥٩، و**طبقات ابن المعتز**. والكلمة في ٦٩ بيتًا في **جمهرة الإسلام**، و عنه ب**مجلة المجمع** ص٥ سنة ١٩٥٩م.
- ص "٣٣٦" س٢٢=... و**معاني العسكري** ٢/١٥٣، والورقة رقم: ٥٠.

- ص "٣٣٧" س١٧= أضاف بآخر الحاشية الرقم (٢): وانظر العبدلكاني.
- ص "٣٣٧" س٢٢= وأضاف بآخر الحاشية الرقم (٥): و**طبقات المحدثين** لابن المعتز ٧٥.
- ص "٣٣٩" س٢١= وأضاف بآخر الحاشية الرقم ٤ : و**إنباه الرواة** ١٤٧/٢.
- ص "٣٤٠" س٦= قال علي بن حمزة [في شأن المبرّد]، ويجزم الميمني في هذا القول: ليس هذا من قوله وإنما هو من قول المجنون الذي لقيه.
- ص "٣٥٦" س١٦= أضاف الميمني ضمن الحاشية الرقم (١) بعد الأشطار في **الحيوان** ١٣٠/٣ : و**الأغاني** ١٢٨/١١.
- ص "٣٧٢" س٧= وأسقط منه مختاره وذلك بعد قوله:

وناحت وفرخاها بحيث تراها ومن دون أفراخي مهامه فيح

وقال الميمني: لم يسقط المختار بل أنشده في [**اختياره** ] ١٣٣/١ بعد أبيات حميد بن ثور، وهي ثلاثة أبيات على السواء. وقد أخطأ الرجلان وتبعا المبرِّد في **كامله**. وإنما هذه الثلاثة لأبي كبير الهذلي، ولكن لا توجد في ديوانه المطبوع.

- ص "٣٧٢" س١٧= وأضاف بأول الحاشية الرقم (٣): في **طبقات ابن المعتز** ٨٣ [١٧٨].
- ص "٣٨٦" س٤= أحال الميمني ضمن بيت هلال المازني إلى أنه موجود في **أمالي ابن دريد** ص٤٠.

- ص "٤٠١" س٢٠= أضاف الميمني بآخر الحاشية بالرقم (١): وله ترجمة في الورقة رقم ٥.
- ص "٤٠٥" س٢١: أضاف ضمن الحاشية بالرقم (٢): الأشناندانى ٧٢، و **معاني القتيبي** [**المعاني الكبير**] ٤٠٢.
- ص "٤٠٩" س١٨= أضاف ضمن الحاشية بالرقم (٢) بعد الأبيات في **الحماسة** ١٢٦/٣: و**طبقات ابن المعتز** ٤٩.
- ص "٤١٠" س١١= هنا لم يعثر الميمني على صدر البيت الكامل، عند طباعة **السمط**، لكن وجدها فيما بعد عند القفطي، وهو:

[قليل منك يكفيني] ولكن    قليلك ما يقال له قليل

- ص "٤٢٣" س٢٠= ضمن نسبة الشِّعر إلى ابن ميّادة، أضاف الميمني في الحاشية الرقم (١): وكذا **طبقات ابن المعتز** ٤٤.
- ص "٤٢٣" س٢٢= ضمن الشِّعر لجميل وهي قصيدة في البحتري ٤٠٨، تسعة أبيات.
- ص "٤٢٧" س١٥= أضاف في الحاشية الرقم (٢) ضمن الأبيات لابن ميّادة: الأبيات في **طبقات ابن المعتز** ٤٤ [١٠٨]، وفي **الحماسة**... .
- ص "٤٣٤" س١٨= أضاف في الحاشية بالرقم (١) بعد: في الطبري ٢٣٦/٥: وسبعة في ل (حلم).
- ص "٤٣٩" س١٤= قال الميمني ضمن ترجمة الحمّاني: ترجمته في **عمدة الطالب** ٢٦٩.

- ص "٤٣٩" س٢٠-٢٢= أضاف في الحاشية بالرقم (٣) الأبيات ١١ في الشابشتي ١٥٢ ؛ و١٠ في **البلدان** ؛ و سبعة عند ابن أبي عون ١٩٨ ؛ وتسعة في **بلدان ابن الفقيه** ١٧٩ ، ٢٣ في **محاضرات التوحيدي** ٢٠٤.
- ص "٤٤٢" س٢٠= أضاف في الحاشية، بالرقم (١): الأبيات ثلاثة في ديوانه ٣١٨، وفي طبعته سنة ١٩٤٥ ، برقم ١٢٩.
- ص "٤٤٣" س١٩= أضاف في الحاشية الرقم (١): منسوب في **الأمالي** أيضًا، وهو في د ٣٠٥، وفي طبعته سنة ١٩٤٥م، برقم ٩٤.
- ص "٤٤٣" س٢٢= أضاف بآخر الحاشية بالرقم (٥): ثم وجدت له ثلاثة أبيات من الكلمة في **عيار الشِّعر** ١١٨ ، وسمّاه أبا العمر هارون ابن محمد الرازي.
- ص "٤٤٣" س٢٢= وأضاف بآخر الحاشية بالرقم (٦): الأشطار في ابن أبي عون ١٦٤.
- ص "٤٤٥" س١٤= أضاف في الحاشية الرقم (١): الأبيات ٤ في **التصحيف** ١١١ ، **والوحشيات** ٢٢٧.
- ص "٤٥٦" س آخر الصفحة= أضاف في آخر الحاشية الرقم (١): **ومنتهى الطلب** ١٦ بيتًا.
- ص "٤٦٠" س١٩= أضاف في الحاشية الرقم (١) بعد ... والألفاظ ٥٢٨ : وثلاثتها في **منتهى الطلب** من كلمة في ٤١ بيتًا.

- ص "٤٦٣" س١٤، ١٥= وفي **الفصول** ٣٩٦، وأنشد لبعض العور من العرب، وهو ينسب إلى يزيد بن الطثرية:

بكـت بعيـن لم يـصبها فمـا وأخرى رماها صائب الحدثان*

عذرتك يا عيني الصحيحة بالبكا فمـا لـك يـا عـوراء والهمـلان

هذا الثاني يروى لطهمان الكلابي. ثم وجدته في ١١ بيتًا لابـن الدمينة في البعض وعليها العهدة. وعند الخالديين ١٨٤ ثلاثة بلا عزو.

- ص "٤٧٨" س٩= هكذا رواه أبو علي، وغيره: هنا يشير الميمني إلى المصدر، وكذا الأوراق ١٩.
- ص "٤٧٨" س١٢= أشـار ضـمن أبيـات إبـراهيم إلى أنهـا ٨ أبيـات في الأوراق ٢١.
- ص "٤٨٧" س٩= يشير ضمن "من حـرم الخمـر في الجاهلية" إلى **المحبَّر** فيه الباب ٢٣٧.
- ص "٤٨٨" س١٨= أضاف في الحاشية الرقم (٢): المعروف أنهما مـن أبيات لقيس بن عاصم كما، وأضاف هنا: **المحبَّر** ٣٨، ونسخة أشربة القتبي (❖).
- ص "٤٩٠" س١= أشار ضمن الأشـطار إلى **المعـاني** ٢٧ب، والمطبـوع ٦٦٣، أنعته من **الحيوان** ٤/٨٣.
- ص "٤٩٦" س١٩= أشار إلى صفحات التشبيهات، أنها ٧٩.
- ص "٥٠٠" س١١= هنا ذكر الـشاعرة عنـان اليمامية، وأشـار الميمني إلى: لها ترجمة في **مختصر طبقات ابن المعتز**.

- ص "٥٠٨" س١١ ، ١٢= أشار هنا ضمن شِعر عباس إلى: انظر **ديوان ابن الدمينة**، رقم ١٩ من أبيات.
- ص "٥١١" س١٩= عن **أمالي ثعلب** (ق ٥٠).
- ص "٥١١" س٢٠= أنه لا يوجد في **أمالي ثعلب**، ثم وجده، وقال: وهو موجود في هذه الطبعة.
- ص"٥١١" س٢٢= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١) وفي **الخالديين** و**البصرية**.
- ص "٥١٣" س١٩= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١): وفي التنازع للمقريزي مصر ٥٣ كما هنا.
- ص "٥١٤" س١٢= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١): و**أمالي ابن دريد**، ص٨٧. هنا (ص٥١٤) إفادة من الميمني مفيدة جدًّا، وجدير بأن يرجع إليها.
- ص "٥١٤" س١٢= وفي الحاشية الرقم (٢) ضمن أبيات ابن يسير أشار الميمني إلى مصدر آخر: ثم رأيت ثلاثة أبيات من الآخر في **المنتظم** ج ٦ رقم ٢٥٩ لعبد الله بن ثابت النحوي، المتوفى سنة ٣٠٨هـ، ولعله نقلها عن الخطيب [البغدادي] ٥٠٣٩.
- ص "٥١٦" س١٦، ١٧= أشار إلى المصدر الآخر، وهو: ثلاثة في الأوراق ٦٦، وذلك ضمن أبيات الشطرنجي.
- ص "٥١٦" س١٩= أضاف في الحاشية الرقم (٣): ...مجموعة المعاني ٣٠٩ ثلاثة، وفي نصرة الثائر (نسختي) ٣٣٨، البيتان لجميل بن معمر العذري.

- ص "٥١٩" س٢١= أضاف بآخر الحاشية الرقم (٤): وفي "**من غاب عنه المطرب**" (الجوائب) ٢٧١: قال ومن أحسن ما سمعت في شعورهن مع وصف عيونهن وحسن مشيهن، قول المطراني الشاشي، وهو ما استحسن الصاحب، وسمّاه في - له مصر ٢٤٣، أبا محمد بن مطران(❖).
- ص "٥٢٥" س١١= أشار إلى مصدر آخر ضمن أشطار الناجم، فاته ابن أبي عون ٩٣. وذلك من الحاشية الرقم (٣).
- ص "٥٢٦" س١٥= أشار إلى مصدر آخر ضمن البيتين لعكاشة، فثبت: ابن أبي عون ١١٦، وذلك قبل "كابن الشجري".
- ص "٥٢٧" س١٢= أشار إلى مصدر لبيت دون عزو، أنه موجود في ابن أبي عون ١١٧، والبيت:

وكأنه في حجرها ولد لها ضمته بين ترائب ولبان

- ص "٥٢٧" س١٤= إشار إلى مصدر لبيت الناجم: ابن أبي عون ١١٨.
- ص "٥٢٧" س٢٢= بآخر الحاشية الرقم (٤) أضاف: وله مقطعات في **عائب في الجواهر** ١٠٨.
- ص "٥٢٩" س١٧= أضاف في الحاشية الرقم (١): وفي **المحاضرات** ٣٣٥/٢ لآكل المرار.

- ص "٥٣٩" س٧= أشار إلى اسم أبي سدرة الأعرابي، وقال: أبو سدرة سحيم بن الأعرف من بني الهجيم بن عمرو بن تميم، **فرحة الأديب** ٢٠ب، ٥٥ب.
- ص "٥٧٥" س١١= أشار ضمن انتساب البيت إلى أبي حرجة الفزاري إلى آخر، وقال: وفي **إنباه الرواة** في ترجمة المفضل عن أبي حاتم أنها لأرطاة بن سهية أو لقتيبة بن الحصن الكلبي.
- ص "٥٧٨" س١٩= أضاف في الحاشية الرقم (٣) ... ثم وجدت في **طبقات ابن المعتز** ١٤٠ بيتًا تدل على أنّ كنيته كانت أبا سعد، لا أبا سعيد.
- ص "٥٨٤" س١٦= أشار ضمن بيت حماسي إلى طبعته الأخرى في الحاشية الرقم (١): ط كلكته ص٢٢٦.
- ص "٥٨٤" س١٨= ضمن الحاشية الرقم (٣) ... في **الاختيارين** رقم ٤٣ ص ١١٧.
- ص "٥٨٩" س٢٠= محا كلمات: "وهو تصحيف" من السطر.
- ص "٥٩٣" س١٦= أضاف قبل الحاشية الرقم (١) حاشية أخرى لبيت:

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا فإنّ بها ما يدرك الماجد الوترا

(X) أنشدها ابن عساكر ١٧٦/٧، وروي خبر أبي الهيذام على طوله، وانظر تضمينًا لها ٣٥٩/٧.

- ص "٥٩٥" س٢= أشار مصدر البيت للأخيطل إلى ابن أبي عون ١٩٦.
- ص "٥٩٥" س١٥= أضاف في الحاشية الرقم (١) كذا سمّاه ابن المعتز، وترجم له في **المحدثين** ١٩٥، والخطيب ٢٩٣٣.
- ص "٥٩٥" س١٧= بعد "في **مجموعة المعاني** ١٩٤"، أضاف: **وطبقات ابن المعتز**.
- ص "٦٠٢" س١٧= ضمن كنية أبي عطاء أورد: كذا، ولكن رأيت في **كنى الشعراء** لابن حبيب أنّ كنية أبي عطاء أبو مرزوق، ولعله الأصل. (وبعد هذه الإفادة وقع هنا الميمني خلافًا لعادته).
- ص "٦٠٦" س٢٠= أضاف بآخر الحاشية من الصفحة السابقة: وخيل أبي عبيدة ١٥٧، وتمام الكلمة في **منتهى الطلب**.
- ص "٦١٠" س١٤= أخبرنا أنّ بيت رجل من بني شيبان المذكور هنا ورد في **الحيوان** ٤/٨٥.
- ص "٦١١" س١٢= ورد هنا بيت لبعض البصريين، وأفادنا الأستاذ أنه في **أخلاق الوزيرين** ٤٠٥ للبصير. وفي حاشيته أشار إلى **أمالي ابن دريد** ٩٦.
- ص "٦١٢" س٢٢= أضاف بعد... ولأبي العميثل في **طبقات ابن المعتز** ١٣٦.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

❖ إسلام آباد- باكستان.

* **العرب**:

البيت الأول مختل بهذه الصورة، لم نجد في المصادر التي لدينا ما يعيده إلى صورته الصحيحة، ويستبعد أن يكون الخلل من الراجكوتي. ولعل صورته الصحيحة هي:

بكيت بعين لم يصبها أذى فما ........................

## دور العلماء والفقهاء ومكانتهم
## عند عبد العزيز بن مروان
## ٦٥هـ-٨٥هـ/٦٨٤م-٧٠٤م

بقلم: د. حميد مرعي الصوفي*

**المقدمة:**

لقد حثني اهتمامي بتاريخ مصر الإسلامي أن أكتب عن هذه الولاية منذ عصر صدر الإسلام سيما وأنها كانت ذات أهمية كبيرة للدولة العربية الإسلامية في عصورها الأولى وشاركت في أحداثها التاريخية الكبيرة. فلقد كانت قاعدة لنشر الإسلام في بلاد المغرب العربي (أفريقية)، لذا فقد احتشد فيها منذ وقت مبكر العديد من الصحابة وأبنائهم من التابعين فشاركوا في أحداثها العامة وساهموا في نشر الإسلام في ربوعها.

وكان لعبد العزيز بن مروان دور مع هؤلاء الرجال لذا جاء بحثي الموسوم "دور العلماء والفقهاء ومكانتهم عند عبد العزيز بن مروان والي مصر ٦٥-٨٥هـ" ليسلط الضوء على مجموعة من هؤلاء الرجال ودورهم في الحياة السياسية والدينية والإدارية، ومشاركتهم مجلس عبد العزيز بن مروان بكثير من الآراء التي ارتقت بإدارته إلى مستويات نوعية بين الولاة.

وتضمن البحث تمهيدًا ومبحثين، فأمّا التمهيد فهو عن وضع مصر في

عهد الخليفة مروان بن الحكم وجهوده في إعادتها إلى حظيرة الدولة الأموية واستعمال عبد العزيز بن مروان عليها.

فيما تناول المبحث الأول دراسة في سيرة عبد العزيز بن مروان وأهم أعماله الخدمية بمصر.

وجاء المبحث الثاني ليركز على دورالعلماء والفقهاء ورواة الحديث في مصر ومكانتهم عند عبد العزيز بن مروان. وخلص البحث الى خاتمة لأهم ما جاء فيه من معلومات.

**تمهيد:**

بعد أن أعاد الخليفة مروان بن الحكم سيطرته على الشام إثر معركة مَرْج راهط[١]، كان هدفه التالي استرداد مصر التي كانت تابعة لابن الزبير قسرًا، وكان هذا الهدف يدل على حسن تدبير، فلمصر أهميتها الكبيرة لأن في إعادتها دعم لموقفه في مواجهة ابن الزبير، ولم يكن ذلك صعباً عليه فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة[٢]. وفي ذلك يقول الكندي: "لما قدم عبد الرحمن بن جحدم[٣] واليًا على مصر من قبل ابن الزبير، ومعه الخوارج الذين لا يجمعهم وابن الزبير إلا العداء لبني أمية، بايعه الناس على غِلٍّ ثم دعا شيعة بني أمية مروان سرًّا"[٤] وهذا ما يفسر سهولة استرداد مروان لمصر، فسار مروان بجيشه ومعه عدد من القادة[٥] ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم ثم جاء إلى مروان طالبًا العفو عنه على أن يخرج إلى مكة فعفا عنه وكان ذلك قد

حدث في سنة (٦٥هـ/٦٨٤م) وأمضى مروان في مصر شهرين لترتيب أوضاعها والاطمئنان عليها[٦].

ولما نوى مروان العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز والياً عليها وأوصاه وصايا تدل على حكمة وخبرة واسعة في مجال السياسة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة في بقائه بمصر فقال لأبيه: "يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلدٍ ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له: يا بني، عُمَّهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقاً تصفُ لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عينًا لك على غيره وينقاد قومه إليك، وقد جعلت معك أخاك بشرًا مؤنسًا، وجعلتُ موسى بن نصير[٧] وزيرًا ومشيرًا، وما عليك يا بني أن تكون أميرًا بأقصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك"[٨].

ويروى أن عبد العزيز بن مروان قال: "أوصاني مروان عند خروجه من مصر إلى الشام فقال: أوصيك بتقوى الله في سرّك وعلانيتك فإنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأوصيك ألا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً، فإنّ المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك، إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، وأوصيك أن لا تعد الناس موعدًا إلا أنفذته وإن حُملت على الأسنّة، وأوصيك أن لا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير، فإنّ الله ﷻ لو أغنى أحدًا عن ذلك لأغنى نبيّه محمدًا ﷺ عن ذلك بالوحي الذي يأتيه، قال الله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٩]"[١٠].

وفي وصية أخرى من مروان لابنه عبد العزيز جاء فيها: "أي بني انظر إلى

عُمَّالك فإن كان لهم عندك حق غدوة لا تؤخرهم إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخرهم إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم، وإياك أن يظهر لرعيتكَ منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إليَّ يأتك رأيي فيه إن شاء الله، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند فورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب مُنطفئ الجمرة، فإنّ أول من جعل السجن كان حليمًا ذا أناةٍ. ثم انظر إلى ذوي الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا واستخلف الله عليك"(١١).

إنّ وصايا مروان لابنه عبد العزيز تمثّل خلاصة تجاربه وخبرته الطويلة في السياسة والحكم وتفصح عن جانب من أخلاقه فهو لم ينس أن يُذكّر ابنه بتقوى الله، والتزام الصلاة، وعدم إهمالها، كما أوصاه بالبر والإحسان إلى الناس والوفاء بالوعد واستشارة ذوي الرأي السديد والعقل الراجح في أي عمل من أعمال الدولة(١٢)، ويدل ذلك على أهمية ومكانة أهل العلم عند الخلفاء.

## المبحث الأول

## عبد العزيز بن مروان، سيرته وأهم أعماله

هو: عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس

ويكنى أبو الأصبغ ولد في المدينة، وأمهُ ليلى بنت زبان بن الأصبغ بن عمرو ابن الحارث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن خطاب الكلبي. دخل الشام مع أبيه مروان وكان ولي عهدهِ من بعد أخيه عبد الملك، ولاّه أبوه الديار المصرية سنة ٦٥هـ/٦٨٤م واستمر واليًا عليها حتى وفاتهِ سنة ٨٥هـ/٧٠٤م[١٣].

ولما مات الخليفة مروان، بُويع من بعده ابنه عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز على مصر، ومما جاء في وصايا عبد الملك لأخيه، وصية جاء فيها: "أبسط بِشْرك، وألف كنفك، وآثر الرفق في الأمور فإنها أبلغ بك وأنظر حاجبك فليكن خير أهلك... وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام، وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحد فأخّر عقوبته"[١٤]، ثم كتب إليه يوصيه: "انظر من تجعل حاجبك ولا تجعله إلا عاقلاً فَهِمًا مُفهمًا، صدوقًا لا يورد عليك كذبًا، يحسن الأداء إليك، والأداء عنك، ومُرْهُ ألا يقف أحد ببابك من الأحرار إلا أخبرك، حتى تكون أنت الآذن له أو المانع، فإن لم يفعل كان هو الأمير وأنت الحاجب، وإذا خرجت إلى أصحابك فسلّم عليهم يأنسوا بك، وإذا هممت بعقوبة، فتأنّ فيها، فإنك على استدراكها قبل فواتها أقدر على انتزاعها بعد فواتها"[١٥]. ولا شك أنّ هذه الوصايا تنمّ عن عقلية كبيرة حيث يبيّن له الأسس الناجحة لإدارة ولايته وكيفية اختيار موظفيه، ومشاورة العقلاء وأهل العلم[١٦].

ومن هذه المدرسة تعلّم عبد العزيز الكثير وأفاد منها فائدة كبيرة في مجال العقل والحكمة وفي ذلك يقول: "مَن لم يتلفظ بثلاث لم ينته لشيء:

الإسلام، والقرآن، والشيب (الكبر)"[17].

وفي معرفته بالرجال قال: "ما تأملني رجل قط إلا سألته عن حاجته ثم كنت من ورائها"[18]. يستدل من ذلك على كرمهِ وجودهِ، ومن ذلك أنه مَّر بأحياء الفسطاط فسمع امرأة تصيح بابنها: "يا عبد العزيز، فوقف وقال مَن المسمى باسمنا؟ ادفعوا إليه خمسمائة دينار، فما ولد في تلك الأيام ولد بالفسطاط إلا سمي به"[19].

وكانت تنصب حول داره كل يوم الكثير من الجُفن والقصع للآكلين، وتُحمل مائة جفنة (قصعة) على العَجل يطاف بها على القبائل في أحياء وخطط الفسطاط واستمر على ذلك إلى وفاتهِ[20].

وفي ذلك أنشد أحد الأعراب الذي مَرّ بمضافة عبد العزيز بن مروان قائلاً:

"كل يوم كأنه يوم أضحى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات كل يوم تمدها ألف قدر"[21]

وكان ينتقد البُخل والبخلاء وثقيلاً عليهم، ومما جاء في وصفه للبخلاء قوله: "لو لم يدخل على البخلاء في لؤمهم إلا سوء ظنهم بالله ﷻ لكان عظيمًا"[22]. وسكن عبد العزيز بن مروان في خطة من خطط الفسطاط تقع في سوق الحمام غربي الجامع، وبنى فيها دارًا كبيرًا سنة ٦٧هـ/٦٨٦م، وأطلق عليها دار الذهب إذ جعل لها قبة مذهبة، إذا طلعت عليها الشمس لا يتمكن الناظر التأمل فيها خوفًا على بصرهِ، وكانت تعرف بالمدينة لسعتها وعظمها[23].

كان عبد العزيز بن مروان أميرًا على مصر بصلاحيات واسعة وجمع بين

الإمارة والخراج وتصرف في ولايته تصرفًا مطلقًا وكرس مواردها المالية لدعم إدارته والنهوض بمستوى الخدمات العامة فيها[٢٤].

ومن أهم أعماله، توسعة المسجد الجامع، ففي سنة ٧٩هـ/٦٩٨م زاد فيه من ناحية الغرب وأدخل عليه الرحبة التي كانت في بحريّه ولم يجد في شرقيّه موضعًا يوسعه به[٢٥].

ويعدّ عمر بن عبد العزيز أول من سَنّ التعريف بمصر، فكان يجمع الناس في المسجد الجامع عشية عرفة، يدعو لهم ويوعظهم، وكان أول من سنَّ التعريف في مساجد الأمصار وببيت المقدس عبد الملك بن مروان[٢٦].

ومن أعمالِهِ الإكثار من بناء الحمامات في الفسطاط منها حمام التبن، وحمام سهل، وحمام زبان[٢٧]. ثم بنى عبد العزيز بن مروان دار الضيافة واهتم بحدائقها[٢٨].

ولما وقع الطاعون بأرض مصر خرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط قاصدًا مكاناً يدعى حلوان فبنى المدينة المعروفة بهذا الاسم بعد أن اشترى موضعها من القبط بعشرة آلاف دينار وبنى بها دار الإمارة والجامع وأنزل بها الجند والحرس، وأغرس فيها الزرع والنخل والكرم[٢٩]. وحلوان مدينة نزهة كثيرة الزرع، على شواطئ النيل لا تبعد عن الفسطاط كثيرًا[٣٠]. ومما اعتنى به عبد العزيز بن مروان إدامة وتطوير جزيرة الروضة الخاصة بعمل السفن وشحنها بالفعلة والرجال[٣١].

ولما زار الإسكندرية سنة ٧٤هـ/٦٩٣م واطلع عليها وسأل عن تاريخها حاول إعمارها من خلال فرض ضرائب على أهلها إلا أنّ ذلك لم يتمّ[٣٢].

وكان من سياسة عبد العزيز بن مروان تشجيع الزراعة والغرس، لذا اهتم بكل ما من شأنه أن يساهم في زيادة النشاط الزراعي، فبنى العديد من القناطر بمصر منها قنطرة على خليج أمير المؤمنين بناها سنة ٦٩هـ/٦٨٨م، وكُتِب اسمه عليها[٣٣]، وابتنى في هذا العام العديد من القناطر على نهر النيل منها قنطرة بني وائل، وكلها اقترنت باسمه[٣٤].

واهتم بوضع وإدامة مقاييس مناسيب نهر النيل، فوضع مقياسًا على النيل بحلوان وهو صغير الذراع، وللمقاييس المنتشرة على نهر النيل أثر في معرفة كمية المياه اللازمة للزراعة[٣٥].

وكان للأسواق حظٌّ من اهتمامه، فلقد انحسرت مياه النيل عن أرض تجاه الجامع في الفسطاط فأمر ببناء قيساريات وأسواق فيها، ومن هذه القيساريات قيسارية العسل، وقيسارية الحبال، والقيسارية التي يباع بها البز: نوع من القماش، وهي التي تعرف بقيسارية عبد العزيز، وقيسارية الكباش[٣٦].

وفي مجال السياسة المالية أمر عبد العزيز بن مروان بالجزية فأخذت من الرهبان، وأجرى تعديلات على النظام الضريبي في مصر فيما يخص ضريبتي الجزية والخراج استنادًا إلى توجهات دار الخلافة في دمشق خلال خلافة عبد الملك بن مروان، كما أعاد ترتيب ديوان الجند لضبط أعداد جند مصر وأعطياتهم وأرزاقهم[٣٧].

وهكذا أمضى عبد العزيز بن مروان مدة إمارته على مصر بالعمل الدؤوب والتفاني في خدمة أهل مصر من مسلمين وغيرهم، ولم يعكر صفو هذه المدة سوى محاولة عبد الملك تنحيته عن ولاية العهد، كما يذكر

المؤرخـون، وسـواءً صـدقت الروايـة أم لا، فـإنّ ذلـك لم يتحقـق فلقـد أدركت المنيّة عبد العزيز عام ٨٥هـ/٧٠٤م فانتقلت ولاية العهـد إلى أبنـاء عبد الملك[٣٨]، ويبدو أنّ العائلة الأموية لم تنسَ خدمات عبـد العزيـز بـن مروان للدولة لذا أعادت حقه في الخلافة عندما بايعت ابنه عمر بن العزيـز بالخلافة سنة ٩٩هـ/٧١٧م.

## المبحث الثاني

## دور الفقهاء والعلماء ومكانتهم عند عبد العزيز بن مروان

زخر العصر الأموي منذ مطلعه بكثير من العلماء والفقهاء ويأتي في مقـدمتهم عـدد مـن الـصحابة الـذين عاصـروا هـذه الدولـة، وجيـل مـن التابعين الذين أخذوا عنهم وورثوا منهم ونشروا علومهم.

ويلاحظ أنّ أبرز الخلفاء الأمويين كانوا علماءَ مثل معاوية بـن أبـي سـفيان الـصحابي الجليـل وكاتـب رسـول الله ﷺ، ومـروان بـن الحكـم، وأولاده عبد العزيز، وعبد الملك، وعمر بن عبد العزيز وآخرين.

وكان بعض العلماء والفقهاء من التابعين قريبين من الحكام والمشيرين علـيهم والناصـحين لهـم، وتـولى قـسم مـنهم وظـائف الحكـم في الإدارة والقضاء والشرطة، وكان بعضهم بمثابة الوزراء للحكام. وطالما أكد خلفاء بني أمية على ولاة عهودهم وولاتهم بملازمة أهل العلم واستشارتهم في أمورهم، جاء ذلك من خلال وصاياهم، فذاك الخليفة مروان بـن الحكـم يوصـي ابنـه عبـد العزيـز بـن مـروان عنـدما استعمله علـى مـصر بقولـه:

"...واستشر جلساءك وأهل العلم..."[٣٩]، وفي موضع آخر من الوصية يقول: "...ثم انظر إلى ذوي الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم على غير استرسال ولا انقباض..."[٤٠].

ويأتي القضاة في مقدمة الرجال الذين أنزلهم عبد العزيز بن مروان منزلة ومكانة، وهم كل من: عابس بن سعيد، وبشير بن النضر، وعبد الرحمن بن حجيرة، ويونس بن عطية، وأوس ابن أخ يونس وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج مرتبين بحسب مدة استعمالهم على القضاء وأحياناً على الشرطة والقضاء[٤١]. وفيما يلي ترجمة لكل واحد منهم:

❖ عابس بن سعيد بن يزيد بن يغوث بن جزء بن معاوية بن ذؤيب ابن مالك بن عامر بن عوف بن ذهل المرادي ثم الغطيفي، تولى القضاء والشرطة لمسلمة بن مخلد، وأقره عبد العزيز بن مروان على القضاء والشرطة في عهده[٤٢]. وحينما وفد عبد العزيز على أخيه عبد الملك بن مروان سنة ٦٧هـ/٦٨٦م فرض عابس نائبه وصاحب شرطته فروضًا فزاد في أعطيات الناس من الجند، ولما لقيه عبد العزيز بعد قدومه، قال له: "ما حملك على ذلك؟ قال: أردتُ أن أثبت وطأتك ووطأة أخيك، فإذا أردت أن تنقصه فافعل فقال عبد العزيز: ما كنا لنرد عليك شيئًا فعلتهُ"[٤٣]، وتوفي عابس سنة ٦٨هـ/٦٨٧م.

❖ بشير بن النضر بن بشير بن عمرو بن زيد بن ملحة بن عمرو بن كرب بن أفدك بن عثمان المزني، قاضي مصر لعبد العزيز بن مروان،

وكان أبوه ممن شهد فتح مصر، توفي بشير سنة ٦٩هـ/٦٨٨م أو ٧٠هـ/ ٦٨٩م[٤٤].

❖ عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني المصري يكنى أبا عبد الله وهو خولاني من بني يعلى بن مالك، روى عن ابن عمر، وعقبة بن عامر، وأبي ذر، وروى عنه ابنه عبد الله، توفي في المحرم سنة ٨٣هـ/٧٠٢م، وكان عبد العزيز بن مروان قد جمع له القضاء والقصص وبيت المال، فكان يأخذ رزقه في القضاء مئتي دينار وفي القصص مثلها، وفي بيت المال مثلها، وعطاؤه مثلها، وجائزته مثلها، وعلى ذلك يأخذ في السنة ألف دينار لم يكن يحول عليه الحول وعنده ما تجِب الزكاة فيه، لأنه كان يُفضلُ على أهله وأخوته، وعن مكانته فقد كان أفقه الناس. ويروى أن رجلاً من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة، فقال له: أتسألني وفيكم ابن حجيرة[٤٥]!

❖ مالك بن شراحيل بن عمرو بن أسلم بن قيس بن عداس بن نصر ابن منصور بن همدان الهمداني وحليف خولان جعله عبد العزيز بن مروان على القضاء سنة ٨٣هـ/٧٠٢م بعد موت ابن حجيرة وجمع له القضاء والقصص، ويعرف أيضًا بمالك بن أبي السمح الخولاني، له إدراك، وشهد فتح مصر واختط بها، وكان من جلساء الخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ أسند عبد العزيز بن مروان إليه رئاسة الجيش الذي خرج بإمرته لمساندة جيش الحجاج لمقاتلة ابن الزبير بمكة سنة ٧٣هـ/٦٩٢م، وله مسجد في مصر يُقال له مسجد مالك الخولاني يعرف به. كان يحظى

بمكانة كبيرة لدى عبد العزيز بن مروان ويبعث إليه كل سنة بحلل وثياب، وكذلك كان يفعل الحجاج بن يوسف والي العراق إضافة إلى ثلاثة آلاف درهم سنويًّا لما لهُ من مكانة في الفقه والقضاء، توفي سنة ٨٥هـ/٧٠٤م(٤٦).

❖ يونس بن عطية بن أوس بن عرفج بن ضمار بن مرثد بن أسد بن رجب بن وائل بن زيد الحضرمي من المئة الأولى من التابعين ولاه عبد العزيز بن مروان القضاء وأضاف إليه الشرط، وكان كثير التلاوة بليغًا، روى عن عثمان بن عفّان ﷺ توفي سنة ٨٦هـ/٧٠٥م(٤٧).

❖ أوس بن عبد العزيز بن عطية، ابن أخ يونس بن عطية، ولاه عبد العزيز بن مروان القضاء وولى عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الشرط، فأقام أوس بالقضاء شهرين ونصف ثم صرفه عبد العزيز بعد موت عمه وأضاف القضاء إلى والي الشرط عبد الرحمن بن معاوية في أواخر سنة ٨٥هـ/٧٠٤م. وكان عبد الرحمن بن معاوية قد أناب أوس بن عبد العزيز على الفسطاط، وهو أول من نظر في أموال اليتامى وجعل عريف كل قوم مسؤولاً عنها وكتب بذلك وأشهد(٤٨). وتوفي عبد الرحمن بن معاوية سنة ٩٥هـ/٧١٣م(٤٩).

❖ مرثد بن عبد الله اليزني المصري ويكنى أبا الخير، كان يروي عن أبي أيوب الأنصاري وأبي بصرة الغفاري، وزيد بن ثابت، وعقبة بن عمار، وهو مفتي أهل مصر وكان مقدمًا عالـمًا فقيهًا يجلسه عبد العزيز ابن مروان للفتيا ويحضر مجلسه، توفي سنة ٩٠هـ/٧٠٨م(٥٠).

هذا ومن المناسب ذكر الخصال التي من الواجب أن تتوفر في القاضي "وهي أربع خصال إن أخطأ واحدة كان وصماً: أن يكون ورعًا، وأن يكون عالِمًا، وأن يكون فهمًا، وأن يكون مسؤولاً عما لا يعلم"[٥١].

ومن الرجال الذين شاركوا في إدارة الولاية ولهم مكانة عند عبد العزيز ابن مروان:

❖ عمرو بن كريب بن صالح الرعيني، كان أحد المقدمين في أيام عبد العزيز بن مروان وجعل له أمرة الحرس والأعوان[٥٢].

❖ عبد الرحمن بن عتاهية بن خزر بن سعد بن معاوية بن أسامة بن سعيد التجيبي، كان على شرطة الفسطاط أيام عبد العزيز بن مروان[٥٣].

وفيما يلي عدد من الرواة والمحدثين ممن كانوا يحضرون في مجلس عبد العزيز بن مروان:

❖ علي بن رباح بن قصير اللخمي من أزد ثم من بني القشيب أحد التابعين، وكنيته أبو عبد الله، من أهل مصر، ولد سنة ١٥هـ/٦٩٦م عام اليرموك، فقد أحد عينيه في معركة ذات الصواري[٥٤] في البحر مع عبد الله ابن أبي السرح في سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، سمع من عمرو بن العاص وعقبة ابن عامر وأبي هريرة وأبي قتادة وعدد من الصحابة. كان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان، وكانت له منزلة كبيرة عند عبد العزيز بن مروان، وهو الذي عقد قران أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى ابن أخيه الوليد بن عبد الملك، أغزاه عبد العزيز أفريقية لنشر الإسلام وتعليمهم الدين توفي سنة ١١٤هـ أو ١١٧هـ/٧٩٢م أو ٧٣٥م[٥٥].

❖ القراطيسي: الإمام الثقة المسند أبو يزيد يوسف بن يزيد بن كاحل ابن حكيم الأموي المصري القراطيسي مولى أمير مصر عبد العزيز بن مروان، سمع أسد بن موسى وسعيد بن أبي مريم وعبد الله بن صالح كان عالِمًا مكثرًا مجوّدًا حدّث عنه عبد الله بن جعفر بن الورد وعلي بن محمد الواعظ وآخرون، يتصف بالصدق والثقة والعلم، توفي سنة ٨٧هـ/٧٠٥م[٥٦].

❖ سلمان بن مقشر بكسر الميم مولى الأزد مصري، كان شريفًا مقدمًا بالفسطاط عند عبد العزيز بن مروان، وذُكر أنّ له وفادة على الخليفة عثمان بن عفّان ﷺ وهو من الثقاة[٥٧].

❖ سويد بن قيس التجيبي المصري، روى عن معاوية بن حديج وابنه عبد الرحمن وابن عمر وغيرهم، وروى عنه يزيد بن أبي حبيب، وكانت له منزلة عند عبد العزيز بن مروان إذ كان يرسله في أمورهِ، روى له أبو داؤد والنسائي وابن ماجة[٥٨].

❖ سفيان بن وهب الخولاني المصري، كنيته أبو أيمن، يقال: له صحبه إذ وفد على النبي محمد ﷺ، وحدث عن عمر والزبير، شهد فتح مصر، وغزا المغرب في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، روى عنه يزيد ابن أبي حبيب والمغيرة بن زياد، وقد طلبه أمير مصر عبد العزيز بن مروان ليحدثه فجيء به محمولاً من الكبر، توفي سنة ٩١هـ/٧٠٩م[٥٩].

❖ زياد بن حناطة التجيبي أحد النبلاء والعقلاء ممن كان بمصر بعد افتتاحها وتم على يديه وآخرين الصلح بين أهلها والخليفة مروان بن

الحكم، وتولى شرطة مصر مكان عابس، واستخلفه عبد العزيز بن مروان على مصر حينما خرج إلى الشام وافدًا على أخيه عبد الملك بن مروان فلم يلبث زياد غير قليل وتوفي سنة ٧٨هـ/٦٩٧م[٦٠].

❖ بحير بن ذاخر بن عامُر المعافري الأنصاري قدم إلى مصر في أيام معاوية بن أبي سفيان وغزا المغرب وعاد إلى مصر وسكن الفسطاط، روى عن عبادة بن الصامت وروى عنه أبو سفيان الشامي وابن لهيعة[٦١].

❖ ذاخر بن عامر المعافري ثم الناشري، شهد فتح مصر، يروي عن عمرو بن العاص، وروى عنه ابنه بحير بن ذاخر[٦٢].

❖ أبو كثير الرومي: هو أبو كثير بن مرة القرشي الأموي المصري مولى عبد العزيز بن مروان، كان عبد العزيز قد أسند إليه القصص بالإسكندرية، وكان ثقة، ويذكر أنّ عبد العزيز بن مروان قد كتب إلى كثير بن مرة وكان قد أدرك بحمص سبعين بدريًّا من أصحاب رسول الله ﷺ، فكتب إليه أن يكتب بما سمع من أحاديث أصحاب الرسول ﷺ، ويكنى بأبي شجرة، ويلقب بالجلاح، توفي سنة ١٢٠هـ/٧٣٧م[٦٣].

❖ الشعبي: واسمه عامر بن شراحيل، كان حليمًا فصيحًا بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز في مصر وكتب إليه: "يا أخي إني قد بعثت إليك بالشعبي فانظر هل رأيت مثله قط". وكان الشعبي فقيهًا باللغة والحديث ماسكًا مفاتيحهما، لا يُمَلّ من مجلسه، استفاد عبد العزيز من بلاغتهِ وفصاحتهِ بالخطابة والبلاغة واللغة، توفي في سنة ١٠٤هـ/٧٢٨م[٦٤].

❖ جناب بن مرثد بن زيد بن هاني الرعيني يكنى أبا هاني، أسلم في عهد النبي ﷺ، وهو ممن بايع معاذ بن جبل باليمن، شهد فتح مصر، وكان من المقدمين في عهد عبد العزيز بن مروان، وكان على حرسهِ، حدّث عن معاذ بن جبل وحدّث عنه بكر بن سواده، قتله الروم بالإسكندرية(٦٥).

**الخاتمة**

ما تقدّم يمثّل اهتمام الدولة الأموية بأمور الدين والرجال من العلماء والفقهاء بشكل عام، وأنّ خلفاء بني أمية وولاة عهودهم وولاتهم إنما كانوا ينفذون توجهات الدولة ومنهجها آنذاك بالتقرب إلى الفقهاء والعلماء والاستماع إلى نصائحهم ومواعظهم ومشورتهم في الأمر، فضلاً عن استعمال عدد منهم في وظائف مهمة بالولايات كمثل القضاء والشرط وبيت المال، واالقصص، ورئاسة الجيوش وغيرها مما يستوجب مشاركة هؤلاء الرجال في نشر الدين الإسلامي وتعليم أبناء الشعوب المحررة أركان الدين الإسلامي وعباداتهِ.

كان مجلس عبد العزيز بن مروان يزخر بالعلماء والفقهاء وهم خاصته في كل الأمور، ولم يكن ليقطع أمرًا دون مشورتهم وإشراكهم فيه عملاً بوصايا والده الخليفة مروان بن الحكم ووصايا أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان، ولعل نجاح عبد العزيز بن مروان في إدارة مصر على مدى أكثر من عشرين عامًا مرجعه إلى ذلك.

وحظي العديد من هؤلاء الرجال بمكانة كبيرة عند عبد العزيز بن مروان، لذا أشركهم في إدارة ولاية مصر فمنهم القضاة، ومنهم أصحاب الشرط،

ومنهم من استعمله على بيت المال والقصص والحرس والأعوان إلى غير ذلك مما تتطلبه الإدارة من جهود وحسن إدارة وتدبير، فضلاً عن اهتمامهِ بالرواة وأهل الحديث من التابعين وتابعيهم، ولأجل ذلك كله انبرى عبد العزيز بن مروان لخدمة ولاية مصر وقبائلها من العرب حدًّا لم نلمس فيه تذمرًا من إدارته البلاد لا من السكان المحليين ولا من القبائل العربية التي استوطنت مصر آنذاك.

**الهوامش:**

* مدرس تربية- نينوى- معهد الفنون الجميلة للبنين- العراق.

(١) معركة مرج راهط: هي المعركة التي انتصر فيها الخليفة مروان بن الحكم الأموي على الضحاك بن قيس الفهري الذي خلع الأمويين في الشام وبايع ابن الزبير، وقتل الضحاك في هذه المعركة. ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: ١٩٩٢)، ٣٠، ٣٥.

(٢) عبد اللطيف: عبد الشافي محمد، **العالم الإسلامي في العصر الأموي**، دار السلام للطباعة والنشر، (القاهرة: ٢٠٠٨)، ١٣٢.

(٣) عبد الرحمن بن جحدم: والي مصر لابن الزبير وظل أهل مصر في طاعته قسرًا إلى أن جاء مروان بن الحكم واستعاد مصر. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت ٥٩٧هـ/١١٨٣م)، **المُنتظم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٢)، ٦/٢٧.

(٤) الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب، (ت ٣٥٥هـ/٩٦٥م)، **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد الزيدي، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠٣)، ٤١، ٤٢.

(٥) المصدر نفسه، ٤٢.

(٦) المصدر نفسه، ٣١، ٣٨؛ ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): **الكامل في التاريخ**، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت: ١٩٩٧)، ٢٧٣/٣؛ ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، دار الفكر، (بيروت: ١٩٨٦)، ٢٥٦/٨؛ وينظر: عبد اللطيف: مرجع سابق، ١٣٣.

(٧) موسى بن نصير والي إفريقية وفاتح الأندلس، توفي ٩٧هـ/٧١٦م.

(٨) الكندي، مصدر سابق، ٤٧، وينظر: عبد اللطيف، مرجع سابق، ١٣٣.

(٩) آل عمران: آية ١٥٩. (١٠) الكندي: مصدر سابق، ٣٨.

(١١) ابن عبد ربه: أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد، (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٨٣)، ٤٠/١.

(١٢) عويس: عبد الحليم، **بنو أمية في التاريخ بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي**، دار الكتاب الحديث، (القاهرة: ٢٠٠٨)، ١١٩، ١٢٠.

(١٣) ابن قتيبة: مصدر سابق، ٨١؛ البلاذري: أحمد بن جابر بن داود، (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، (بيروت: ١٩٩٦)، ٣٣٤/٢؛ ابن كثير: مصدر سابق، ٧٠/٩؛ المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٧)، ٢٧٩/١؛ الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي (ت ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، **الأعلام**، دار العلم للملايين، (بيروت: ٢٠٠٢)، ٢٨/٤.

(١٤) ابن الطقطقا: أبو جعفر محمد بن علي بن طباطبا، (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، **الفخري في الآداب السلطانية**، المكتبة التجارية، (القاهرة: ١٩٢٦)، ١٢٦؛ وينظر: الصلابي: علي محمد، **الدولة الأموية**، دار ابن الجوزي، (القاهرة: ٢٠٠٧)، ٦٨٨/١.

(١٥) الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان، (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، **رسائل الجاحظ**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي (القاهرة: ١٩٦٤)، ٩١/١.

(١٦) الصلابي: مرجع سابق، ٦٨٨.
(١٧) الأبشيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): **المستطرف في كل فن مستظرف**، عالم الكتب (بيروت: ١٩٩٨)، ١/٢٨٠.
(١٨) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠٤)، ١/٣٢٢.
(١٩) أبو حيان التوحيدي: علي بن مهدي بن العباس، (ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م)، **البصائر والذخائر**، تحقيق داود القاضي، دار صادر (بيروت: ١٩٩٨)، ٢/١.
(٢٠) المقريزي: مصدر سابق، ١/٢٦٤؛ ابن أياس: محمد بن أحمد، (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، **نزهة الأمم في العجائب والحكم**، تحقيق: محمد زينهم، مكتبة مدبولي (القاهرة: ١٩٩٥م)، ٢٠٢.
(٢١) الزمخشري: جار الله (ت ٥٨٣هـ/١١٨٧م)، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**، مؤسسة الأعلمي (بيروت: ١٩٩١)، ١/٢٦٢.
(٢٢) الجاحظ، **المحاسن والأضداد**، دار مكتبة الهلال، (بيروت، ٢٠٠٢)، ٢٣؛ البيهقي: إبراهيم بن محمد، (ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م)، **المحاسن والمساوئ**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات النهضة المصرية، (القاهرة: ١٩٩٦)، ٩٠.
(٢٣) الكندي: الولاة، ١٤؛ الحموي: ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، دار صادر، (بيروت: ١٩٩٥)، ٤/٦٧؛ القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الفكر، (دمشق: ١٩٨٧)، ١/٤٩٩.
(٢٤) خماش، نجدة، **خلافة بني أمية في الميزان**، دار طلاس، (دمشق: ٢٠٠٠)، ١٣٩.
(٢٥) ابن عبد الحكم: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م)، **فتوح مصر وأخبارها**، مكتبة مدبولي (القاهرة: ١٩٩١)، ١٣١؛ المقريزي: مصدر سابق، ٢/٤٥٦.

(٢٦) الكندي: الولاة، مصدر سابق، ١٥٠؛ الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (القاهرة: ٢٠٠٣)، ١٢٨/٢.

(٢٧) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ١١٢، ١٣٣.

(٢٨) المصدر نفسه، ١٣٣.

(٢٩) الكندي: الولاة، مصدر سابق، ١٤؛ المقريزي: مصدر سابق، ٢٦٣/١؛ ابن أياس: مصدر سابق، ٢٠٢.

(٣٠) الحميري: محمد بن عبد المنعم، (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة الثقافة (بيروت: ١٩٨٠).، ١٩٦/١.

(٣١) المقريزي: مصدر سابق، ٣١٨/٢.

(٣٢) الكندي: **فضائل مصر المحروسة**، تحقيق أحمد العدوي وعلي محمد عمر، (القاهرة: ١٩٧٩)، ٧؛ المقريزي: مصدر سابق، ٢٠٣/١.

(٣٣) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ١١٤؛ السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة: ١٩٦٧)، ٣٤٩/١.

(٣٤) المقريزي: مصدر سابق، ٣١٨/٢.

(٣٥) السيوطي: مصدر سابق، ٣٤٣/١.

(٣٦) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ١١٣، ١٣٦؛ المقريزي: مصدر سابق، ٤٣٢/١؛ وينظر: عبيد: طه خضر، **دراسات في التاريخ الاقتصادي العربي الإسلامي**، مطبعة العلا، (موصل: ٢٠٠٨)، ١٣٦.

(٣٧) المقريزي: مصدر سابق، ٩٧/١، ١١٨، ٢٧٣/٣؛ وينظر: **كاشف**: سيده إسماعيل، عبد العزيز بن مروان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: ٢٠٠٥)، ٦٩، ٧٠، ٨٣.

(٣٨) ابن سعد: أبو عبد الله بن سعد بن منيع، (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، **الطبقات الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٩٠)،

٥/٢٣٣ ؛ الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر، (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي (بيروت: ١٩٦٧)، ٥/٢٠٦ ؛ ابن الأثير: مصدر سابق، ٤/٢٣٤.

(٣٩) ابن عبد ربه: مصدر سابق، ١/٤٠.

(٤٠) المصدر نفسه، ١/٤٠.

(٤١) وكيع: أبو بكر محمد بن خلف بن حيان، (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م)، **أخبار القضاة**، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى، (القاهرة: ١٩٤٧)، ٢/٣٢٥.

(٤٢) ابن يونس: عبد الرحمن بن احمد بن يونس، (ت ٣٤٧هـ/٩٥٨م)، **تاريخ ابن يونس**، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠٠)، ١/٢٥٠ ؛ ابن ماكولا: سعد الملك أبو نصر علي بن هبة الله، (ت ٤٧٥هـ/١٠٨٢م)، **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٠)، ٦/١٦.

(٤٣) الكندي: الولاة، مصدر سابق، ١/١٤ ؛ وكيع: مصدر سابق، ١/٣٢٨.

(٤٤) وكيع: مصدر سابق، ٣/٢٢٤ ؛ ابن يونس: مصدر سابق، ١/٥٤٣ ؛ ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **رفع الإصر عن قضاة مصر**، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، (القاهرة: ١٩٨٨)، ١/٣٨.

(٤٥) ابن يونس: مصدر سابق، ١/٢٩٩ ؛ ابن حجر، مصدر سابق، ١/٩٠.

(٤٦) المصدر نفسه، ١/٤٢٤ ؛ ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٤)، ١/١٣٨.

(٤٧) وكيع: مصدر سابق، ٣/٢٢٥.

(٤٨) ابن حجر العسقلاني: **رفع الإصر عن قضاة مصر**، مصدر سابق، ١/٩٠.

(٤٩) ابن يونس: مصدر سابق، ١/٣١٣.

(٥٠) المصدر نفسه، ١/٤٦٧؛ ابن حبان: أحمد بن حبان، (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، **الثقاة**، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العلية العثمانية بإشراف محمد عبد المعبد خان، دائرة المعارف العثمانية (حيدر أباد: ١٩٧٣)، ٥/٤٢٩.

(٥١) وكيع: مصدر سابق، ١/٧٨.

(٥٢) ابن يونس: مصدر سابق، ١/٣٦٧؛ ابن ماكولا: مصدر سابق، ٥/١٩٥، لم يذكر تاريخ وفاته.

(٥٣) المصدر نفسه، ١/٣٠٠، لم يذكر تاريخ وفاته.

(٥٤) معركة ذات الصواري: أشار إليها الطبري في أحداث سنة ٣٤هـ، وهي المعركة التي وقعت بين أسطول العرب المسلمين وأسطول الروم البيزنطيين وانتصر المسلمون فيها، الطبري: مصدر سابق، ٤٠/٣٣٠.

(٥٥) ابن يونس: مصدر سابق، ١/٣٦١؛ الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث (بيروت: ٢٠٠٠)، ٦/٣٩٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ١/٥١٤. (٥٧) المصدر نفسه، ١/٥١٦ لم يذكر تاريخ وفاته.

(٥٨) المصدر نفسه، ١/٢٢٧ لم يذكر تاريخ وفاته.

(٥٩) الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **سِيَر أعلام النبلاء**، دار الحديث، (القاهرة: ٢٠٠٦)، ٣/٤٥٣.

(٦٠) الزركلي: مصدر سابق، ٣/٥٤.

(٦١) ابن يونس: مصدر سابق، ١/٥٨ لم يذكر تاريخ وفاته.

(٦٢) ابن يونس: مصدر سابق، ١/١٦٤ لم يذكر تاريخ وفاته.

(٦٣) ابن سعد: مصدر سابق، ٣/٣١١؛ ابن يونس: مصدر سابق، ١/٩٧.

(٦٤) ابن الجوزي: مصدر سابق، ٢/٣٦٢.

(٦٥) ابن يونس: مصدر سابق، ١/٩٤ لم يذكر تاريخ وفاته.

# شِعر الأسعد بن ممّاتي
# أخباره وما تبقّى من شِعره

**(٢)**

**بقلم: د. عبدالحميد محمد بدران***

**معاني الشاعر:**

لا نستطيع -مهما حاولنا- أن ننكر على الشاعر تأثره بنص شعري سابق عليه؛ لأنّ النصوص الرائدة هي التي أسهمت -وما زالت تسهم- في تشكيل وجدان الشعراء، وموقفهم منها -إيجابًا وسلبًا- هو الذي يساعد في دفع مسيرة العملية الشعرية على مر العصور، والشاعر مطالب بحفظ كثير من الأشعار، حتى يستقر في ذهنه ما راق من الأساليب الجيدة، لأنّ الشِّعر -باعتراف الجاحظ- "صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[١]، ومن شأن الصناعة والنسج أن توضع لهما شروط ضابطة، جعل منها ابن خلدون الحفظ من جنس شِعر العرب وتعمد نسيان ذلك المحفوظ، وذلك "حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب... ولا يعطيه

الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ، فمن قل حفظة أو عدم لم يكن له شِعر، وإنما هو نظم ساقط، واجتناب الشِّعر أولى بمن لم يكن له محفوظ، ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ، وربما يقال إنّ من شرطه نسيان ذلك المحفوظ، لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادّة عن استعمالها بعينها، فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها، انتقش الأسلوب فيها، كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة"[٢].

ومن ثم كان استخدام (الأخذ) في التعبير عن تأثر الشاعر بسابقه أوجه من السرق والغصب وغير ذلك[٣] في نظر كثير من نقّادنا القدامى، طالما أنه لا سبيل لتكوين الملكة الشعرية إلا بحفظ أشعار السابقين والسير على منوالها.

وقد كان الأسعد مغرمًا بأخذ المعاني الطريفة وصياغتها، ومن ذلك قوله في علم الدين بن الحجاج[٤]: {مجزوء الوافر}

حكى نهرين ما في الأر ... ض من يحكيهما أبدا
حكى في خلقه ثورى ... وفي أخلاقه بردى

فقد أخذ ابن مماتي معنى بيتيه هذين من قول بعضهم[٥]: {الكامل}

ضاهى ابن بشران مدينة جلق ... فكلاهما يوم الفخار فريد
ألفاظه بردى وصورة خلقه ... ثورى ونقص العقل منه يزيد

ولا يخفى ما في بيتي الأسعد من خفة موسيقية، جلبها لهما مجزوء الوافر، إضافة إلى جزمه بعدم محاكاة النهرين في الخلق والصفة إلا لشخص علم الدين بن الحجاج.

ومن المعاني الجيّدة التي قصر فيها قوله(٦): {البسيط}

ما صرت أَجسرُ أن أبكي لفرقتهمْ      لأنهم زعموا أنّ البكا فَرَح

فالمعنى مطروق قبل الأسعد بن مماتي، يقول السهيلي تعليقًا على قول السيدة عائشة رضي الله عنها: (ما كنت أرى أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي من الفرح): قالت ذلك لصغر سنها وأنها لم تكن علمت بذلك، وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى فأخذته استحسانًا، فقال الطائي يصف السحاب(٧):

دهم إذا وكفت في روضة طفقت      عيون أزهارها تبكي من الفرح

وذكر لأبي الطيّب وزاد على هذا المعنى(٨):

فلا تنكرن لها صرعة      فمن فرح النفس ما يقتل

وقال بعض المحدثين:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه      سيزورني فاستعبرت أجفاني

غلب السرور علي حتى إنه      من فرط ما قد سرني أبكاني

يا عين صار الدمع عندك عادة      تبكين في فرح وفي أحزان(٩)

وهؤلاء الشعراء -ومعهم الأسعد بن مماتي- قد تعرّضوا لصورة اجتماع البكاء مع الفرح، مع اختلاف الغرض في القصائد، لأنّ الطائي أحب أن يخلع على الطبيعة صفة الآدمية، بما أنّ ماء المطر ينزل من عيون

الأزهار في الروضة، ومن ثم فرحت بتلك السحابة التي لاحت في الأفق، وأمّا قول المحدث فرغم تقصيره عن تصوير الطائي، إلا أنّ صدق العاطفة يفرض نفسه في الأبيات، وهو صدق يشعر به كل من يقف على البيت الأخير فيخاطب عينه متعجبًا من حالها الذي أصبح يستوي فيه الحزن والفرح، لأنها تبكي في الحالين، وأمّا المتنبِّي فقد حاول في مقام المدح أن يستغل المعنى في إيلاف ما لم يؤلف، لأنّ سيف الدولة قد ضرب خيمة عظيمة له بميافارقين فهبّت ريح شديدة فوقعت الخيمة وتكلم الناس، واستطاع المتنبِّي أن يقنع الجمهور بأنّ الفرح قد يقتل إذا بلغ الغاية كما حدث للخيمة(١٠). أمّا الأسعد بن مماتي فقد نسب هذا المعنى إلى الزعم، وكأنه يستبعد وجوده، فأحدث جفافًا للمعنى، وحدة في العاطفة.

ورغم هيام الأسعد بالأخذ من معاني الغير، فقد أبدع كثيرًا من المعاني الجيّدة، ومن ذلك قوله على لسان إنسان في حاسد أعان عليه ثم توجع له(١١): {الخفيف}

لا تُصِخْ للحسود في ندبه النعـ ـمةَ مع كَوْنِهِ العجولَ إليها

فهو مثلُ السحابِ إذ يسترُ الشمـ ـسَ عن العينِ ثم يبكي عليها

وهو قريب من منهج أبي تمّام في استخراج معانيه، والجديد في الصورة هو ملاحظتها حركة السحاب والشمس، ومراوغة السحاب في ستر الشمس، ثم بكائه عند البحث عنها، وليس ملاحظة حركة السحاب والأرض كما في قول ابن مطير الأسدي: {الخفيف}

كـــلّ يـــومٍ بـــأقحوانٍ جديـــدٍ    تضحك الأرض من بكاء السماء

وروي عن أبي العباس المبرِّد أنه قال أخذ ابن مطير قوله تضحك الأرض من بكاء السماء من قول دكين الراجز: {الرجز}

جـنّ النّبـات في ذراهـا وزكـا
ضحك المزن به حتّى بكى[١٢]

ومن المعاني الجيّدة أيضًا قول الأسعد على البديهة[١٣]: {البسيط}

لـو أطلـق الـدمعَ مشتاقٌ ومدَّكِرٌ    لمـن يحب لأَشْـفَيْنَا علـى الغـرَقِ
لكنمـا هــذه الخلجـانُ مُتْأَقَــةٌ    لأنها رَشْحُ ما يَعْصِي من الْحدَقِ

ومن معانيه الجيّدة أيضًا قوله في قصيدة (لامية عملها السديد)[١٤]: {السريع}

تبكـــي قـــوافي الـــشِّعر لاميـــةً    بَيَّـضْتَهَا مـــن حيـــث سَـــوَّدْتَهَا
لمـــا عـــلا وســـواسُ ألفاظهـــا    ظننتَهـــا جُنَّـــتْ فَقَيَّـــدْتَهَا

وهذا معنى جيّد، رغم اعتماده على المحسن البديعي، لأنّ التورية في قوله (فقيّدتُها) قد أتت عفوًا، ورشّح لها الشطر الأول، الذي أوحى بمعنى الحبس، من خلال وصفها بالوسواس والجنون، رغم أنّ الشاعر قصد التقييد بمعنى الكتابة، من شدة إعجابه بالقصيدة وجرس حروفها.

ومن المعاني التي حرص فيها الأسعد على اصطحاب (كاف التشبيه) قوله[١٥]: {الطويل}

وضاق عليَّ السجن حتى كأنني    حللت به للضيق في صدر محنق
فيا ليتني كالدمع في جفن عاشق    فأخرج أو كالسر في صدر أحمق

والملاحظ أنّ قوله (فأخرج) ليس لها مكان هنا، لأنّ دمع العاشق عزيز لا يحتاج إلى تبرير، مهما كان إحساسه جيّاشًا، والصورة التالية أوضح من الأولى، لأنّ الأحمق لا يحتفظ بسرِّه هو، فكيف يحتفظ بسرِّ غيره؟

وقد أحسن الشاعر استغلال الصورة البصرية في معنى الهجاء في قوله(١٦): {البسيط}

أراكمُ كحباب الكأسِ منتظمًا فما أرى جمعكمْ إلا على قَدَحِ

ولعل جودة المعنى في البيت ترجع -فيما ترجع إليه- إلى حسن استغلال الشاعر نفس المفردات التي تشيع في بيئة الخمر كالكأس التي يتناثر الحباب على جسدها.

**تكرار المعاني:**

يلوح الخفاء سمة أساسية للنص الذاتي الذي توظفه آلة الشاعر كنص غائب في قصيدة أخرى، على الرغم من أنّ الشاعر هنا لا يتعمد إخفاءه، وإن كان في الوقت ذاته لا يريد أن يطلعنا على ذاته التي تأثرت بإبداعها وهي تكتب نصًّا جديدًا، لأنه على يقين من أنّ هذه الذات مطمئنة إلى أنها سوف تحرز الجديد في كل تأثر، أو ربما صدر منه هذا الأمر لا إراديًّا في محاولة للتأكيد على صدور هذا الإبداع عن نفس واحدة وفكر ممتلئ، على النحو الذي يؤكده قول ابن طباطبا: "وربما أحسن الشاعر في معنى يبدعه فيكرره في شِعره على عبارات مختلفة، وإذا انقلبت الحالةُ التي يصفُ فيها ما يصف، قلب ذلك المعنى ولم يخرج عن حد الإِصابة فيه"(١٧).

وقد عمد الأسعد إلى لون جيّد من ألوان تكرار المعاني، وهو محاولته توظيف بعض المعاني الجيّدة التي تناثرت في نثره، باعتبار أنّ هذه المعاني نصوصا غائبة في ذهنه، يدل على ذلك قوله في إحدى مكاتباته: "ولم تزل متلاحقةً متسابقةً لتقفو الأثر وتسمع الخبر، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح، وابتسم ثغر الصباح عن الأقاح، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا"(١٨)، فهذا المعنى قد تردد في قوله في وصف الثلج(١٩): {المجتث}

لمّا رأت عيني الثلـ ج ساقطا كالأقاحي
وصار ليل الثرى منه أبيضا كالصباح
حسبت ذلك من ذو ب در عقد الوشاح
أو من حباب الحميا أو من ثغور الملاح

وقوله: "وأوجده السبيل إلى أن أبدى صحيفة وجه صبره مسوده، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعده وإخلاقه وده ووده، حتى جنى ورد ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره، ورفع ناظره بقدومه عليه على كافة أمثاله وأنظاره"(٢٠)، فهذا المعنى قد تردد في قوله في مدح الأجل الفاضل من قصيدة(٢١): {الخفيف}

من غدا الدهرُ باسمه باسمَ الزهرِ ضحوكًا به بهارُ نهاره
لم يطفنا من بِرِّهِ وردَ وعدٍ لم يَشِنْهُ انتظامُ شوكِ انتظاره

وأرى أنّ التكلف كان ظاهرًا في البيت الثاني، وبخاصة مع غرابة ذكر كلمة (ورد) مضافة إلى الوعد في الشطر الأول، ثم الخضوع لإغراءات

صورة الورد بذكر الشوك بعد ذلك مضافا إلى انتظار تحقيق الوعد في الشطر الثاني.

**تداخل شِعره في شِعر غيره:**

يعدّ التداخل والاختلاط ظاهرة من أخطر الظواهر التي تعوق توثيق النص الشعري، مما يجعله مشكلاً حتى على المتخصصين، فبعضهم يرويه لشاعر، وبعضهم يرويه لآخر، وقد تجد الروايتين في مكان واحد، وكل ذلك يرجع إلى الطريقة التي وصل بها الشعر القديم إلينا، فليس من شك في أنّ رواية الشِّعر إنما قامت على الذاكرة "وغير خاف عليك أنّ الذاكرة مهما أوتي صاحبها من القدرة لا تسلم من إدخال حدث في حدث مشابه له، قريب منه، أو إحلال كلمة محل أخرى، يترتب عليها نسبة الشِّعر إلى غير قائله"(٢٢).

وكل ما علينا أن نبذل مزيدًا من الجهد حتى نردّ الأمر إلى أصحابه ما استطعنا، فربما ساعدت ثقافة الكاتب في كشف بعض الإيهام، وربما ساعد السياق والقرائن على نسبة الأبيات إلى قائلها الحقيقي؛ لأنّ التداخل قد يأتي من ناحية الأبيات ذاتها وزنًا وقافية ومعنى، وقد يأتي من ناحية قائلها سواء بالأخذ من غيره، أو بتمثل الشِّعر، أو بالقرابة بينه وبين غيره، أو بنحله الشِّعر غيره، وقد يأتي من ناحية الحدث الذي قيلت فيه الأبيات سواء بالتشابه بينه وبين غيره، أو باتحاده.

وقد تداخل شِعر الأسعد في شِعر غيره، نتيجة لاعتبارات متعددة، تأتي المعاصرة على رأسها، فقد حدث تداخل بينه وبين ابن سناء الملك نتيجة صداقتهما في أبيات جاء فيها: {الرجز}

سمراء قد أزرت بكل أسمر بلونها ولينها وقدها

أنفاسها دخان ند خالها وريقها من ماء ورد خدها

لو كتب البدر إلى خدمتها ملطفا ترجمه بعبدها

فقد نسبها ابن خلكان للأسعد بن مماتي، ونسبها المحبي لابن سناء الملك، ومما يرجح أنها للأسعد قول ابن خلكان: "وجدت منسوبًا إلى ابن سناء الملك، والصحيح أنها لأسعد بن مماتي"[٢٣]، وليس بعيدًا عنّا ما قاله الأسعد في وصف مخدة ابن سناء الملك.

كما حدث تداخل بينه وبين الحافظ أبي الخطّاب دحية، نتيجة تمثّل الثاني بقصيدة الأول، بجامع المدح في كل، فالقصيدة مدح بها الأسعد السلطان الملك الكامل، بينما مدح المتمثل بها الملك مظفر الدين بن زين الدين، على النحو الذي يبديه لنا قول ابن خلكان: وكان الحافظ أبو الخطاب ابن دحية المعروف بذي النسبين -رحمه الله تعالى- عند وصوله إلى مدينة إربل، ورأى اهتمام سلطانها الملك المعظم مظفر الدين ابن زين الدين -رحمه الله تعالى- بعمل مولد النبي ﷺ...ـ صنّف له كتابًا سمّاه: "التنوير في مدح السراج المنير"، وفي آخر الكتاب قصيدة طويلة مدح بها مظفر الدين، أولها: {مجزوء الرجز}

لـــــولا الوشـــــاة وهـــــم أعـــــداؤنا مـــــا وهمـــــوا

وقرأ الكتاب والقصيدة عليه، وسمعنا نحن الكتاب على مظفر الدين في شعبان سنة ست وعشرين وست مئة والقصيدة فيه، ثم بعد ذلك رأيت هذه القصيدة بعينها في مجموعة منسوبة إلى الأسعد بن مماتي المذكور، فقلت: لعل الناقل غلط، ثم بعد ذلك رأيتها في ديوان الأسعد بكمالها، مدح بها السلطان الملك الكامل -رحمه الله تعالى- فقوي الظن. ثم إني رأيت أبا البركات ابن المستوفي قد ذكر هذه القصيدة في تاريخ إربل عند ذكر ابن دحية، وقال: سألته عن معنى قوله فيها:

يفديـــــه مـــــن عطـــــا جمـــــا دى كفــــــــــه المحــــــــــرم

فما أحار جوابًا، فقلت: لعله مثل قول بعضهم:

تـسمى بأسمـاء الـشهور فكفـه جمـادى ومـا ضـمت عليـه المحـرم

قال: فتبسّم وقال: هذا أردت، فلما وقفت على هذا ترجح عندي أنّ القصيدة للأسعد المذكور، فإنها لو كانت لأبي الخطّاب لما توقف في الجواب، وأيضًا فإنّ إنشاد القصيدة لصاحب إربل كان في سنة ست وست مئة، والأسعد المذكور توفي في هذه السنة...، وهو مقيم بحلب لا تعلق له بالدولة العادلية، وبالجملة فالله أعلم لمن هي منهما[٢٤].

كما حدث تداخل بين الأسعد وبين العماد الأصبهاني، حيث تردد ياقوت الحموي في نسبة دوبيت من الرمل للأسعد بن مماتي جاء فيه[٢٥]:

يَا غُصْنُ أَرَاكَ حَامِلا عُودَ أراكْ حاشاك إِلَى السِّواك يحْتَاج سِواكْ

قُلْ لي: أنَهاك عَن محِبِّك نُهاكْ لَو تمَّ وفاك بُستُ خدَّيك وفاكْ

حيث يقول ياقوت: "كذا وجدت له في أشعار مجموعة، وأنشدني هذين (الدوبيت) بعض أهل الأدب، وذكر أنهما للعماد الأصبهانى الكاتب، وهما به أشبه، لأنهما في غاية الجودة، وابن مماتي، في طبقة شِعره انحطاط جدًّا[٢٦]، والدوبيت منسوب له في "الوافي بالوفيات"[٢٧].

## المبحث الثالث

## جمع شِعر الأسعد

لم يكن تعقيبي على جمع شِعر الأسعد سعيًا وراء التفتيش عن العيوب ومحاولة إفشائها، لأنّ عناء البحث، وبخاصة عن شِعر شاعر تناثرت أخباره على استحياء في كتب التراجم يستطيع أن يغفر أيّ زلة للباحث مهما كان قدرها، ولكنه كان محاولة لإعطاء رؤية أخرى، تضاف إلى جمع شِعر الشاعر، فتنقذ كثيرًا من النصوص التي عانيت في جمعها وتوثيقها للأسعد بن مماتي، أو تحكم على بعض النصوص بفقد الأهلية في الانتساب لهذا الشاعر، مما يعطي رحابة في الرؤية، وعمقًا في التوثيق، وقد رأيت أن يكون تعقيبي على جمع شِعر الأسعد محصورًا في أربعة محاور:

أولاً- نسبة أبيات للشاعر أثبت البحث أنها لغيره: نتيجة خلط الباحث بينه وبين أبيه أو بينه وبين من أخذ عنه المعنى، فقد نسب جامعا الديوان قول الشاعر[٢٨]: {الكامل}

ضاهى ابن بشران مدينة جلق فكلاهما يوم الفخار فريد

ألفاظه بردى وصورة خلقه ثورى ونقص العقل منه يزيد

إلى الأسعد بن مماتي، والسبب في ذلك أنّ الأسعد كان مغرمًا بأخذ المعاني الطريفة وصياغتها، فقد نظر إلى البيتين السابقين وهو ينظم قوله في علم الدين بن الحجاج[٢٩]: {مجزوء الوافر}

حكـــى نهــرين مـــا في الأر ض مـــن يحكيهمــا أبـــدا
حكـــى في خلقـــه ثـــورى وفي أخلاقـــــه بــــــردى

كما نسب الجامعان له قول أبيه[٣٠]: {الطويل}

حوى درب نور الدين كل شمردل مـــشددة أوســاطهم بالزنـــانير
بأولـه للـشهد والنحـل منـزل وآخـره يـا سـادتي للزنـانير

مع تصريح كثير من المصادر بأنها للخطير بن مماتي والد الأسعد، قال ياقوت قبل هذين البيتين: "وأنشدنا سعيد بن أبي الكرم المذكور، قال: أنشدني الخطير أبو سعيد بن مماتي، في ابن النحال أيضًا، وكان يسكن ابن النحال في أول الدرب، وكان في آخر الدرب صبي مثله في الحسن، يعرف بابن زنبور"[٣١].

ثانيًا- استدراك مجموعات من الأبيات لم يقف عليها البحث: رغم رجوع الجامعين إلى المصدر في مواطن متعددة، ومن هذه الأبيات قول الأسعد في ذم العذار[٣٢]: {الوافر}

إذا طلــع العــذارُ فقــد فقــدنا لـــذاذةَ عيـــشنا الأَرِجِ البهـــيج
لأَنَّ الغـــصنَ لا يخـــضرُّ حتـــى يـــصيرَ بأصـــله مثـــلُ الوشـــيج

وقوله يصف البق[٣٣]: {الطويل}

تكاد بقرصِ البقِّ تتلفُ مهجتي إذا لم أُجِدْ من ثوب جلدي التخلُّصا

ومن أعجب الأشياءِ في البقِّ أنها على الجسم سُمَّاقٌ وتُنبِتُ حِمَّصَا

وقوله[٣٤]: {الطويل}

لقد مرَّ لي في مصرَ يومٌ وليلةٌ هما في مُحَيا الدهرِ كالسحْرِ في الطرْفِ

وما فيهما واللّه عيبٌ وإنما تولاهما عُجْبٌ فذابا من الظَّرْف

وقوله أيضًا[٣٥]: {مجزوء الرجز}

قد نفث السحر السحر وأشبه الزهر الزهر

وبلّ كافور الندى ثياب أوراق الشجر

والعندليب مذ رأى محرّم الروض صفر

فالنصوص الثلاثة الأولى منسوبة للشاعر في كتاب "خريدة القصر"، وهو مصدر معتمد عند الجامعين.

ثالثًا- نقد تعليق الجامعين على نسبة قصيدة أو مقطّعة إلى صورة من بحور الشِّعر، على النحو الذي يبدو حين نسبا قصيدته التي مطلعها[٣٦]: (وافي سحر/طيف سحر)، وهي على جزء واحد من الرجز إلى تام الرجز، على الرغم من أنّ الشاعر مسبوق في النظم على هذا الوزن بكثيرين، وهذا اللون يسمّى بالمنهوك[٣٧]، وقد سمّاه الدكتور أحمد الهيب متابعًا للجوهري بـ(المقطّع)[٣٨]، وأشار إلى أنّ الذي اخترعه هو سلم الخاسر المتوفى ١٨٦هـ[٣٩] متابعًا ابن رشيق القيرواني في قوله: "وكان أقصر ما صنعه القدماء من الرجز ما كان على جزءين... حتى صنع بعض المتعقبين -أظنه علي بن يحيى أو يحيى بن علي المنجم- أرجوزة على جزء واحد

وهي: طيف ألم / بذي سلم / بعد العتم / يطوي الأكم... ويقال إنّ أول من ابتدع ذلك سَـلْم الخاسر يقـول في قـصيدة مـدح بهـا موسـى الهـادي: موسى المطر / غيث بكر / ثم انهـمر / لما اغتفر"[٤٠].

والصواب أنّ سلم الخاسر مسبوق بـأبي الـنجم العجلـي المتوفى ١٢٠ هـ، كما ذهب إلى ذلك الصفدي ناسبًا الأبيات التي تـردّد فيهـا ابـن رشـيق له بقوله: "قلت أقصر مـا صـنع القـدماء مـن الرجـز مـا كـان علـى جـزأين كقول دريـد يـوم هـوازن: (يـا ليتني فيهـا جـذع)، حتـى صـنع أبـو الـنجم أرجوزة على جزء واحد وهي مشهورة أولها: (طيف ألم / بـذي سـلم)، وقـال بعـضهم أول مـن أبـدع ذلـك سـلم الخاسـر يمـدح الهـادي بقولـه: (موسى المطر / غيث بكر)[٤١].

وقـد تنـاول هـذا الـوزن بعـده كـثيرون، مـنهم عبـد الـصمد بـن المعـذل ٢٤٠هـ، ومطلع أرجوزته: (قالت حيلْ / ماذا العملْ)، وعلي بن الحسن البـاخرزي ٤٧٦هــ ومطلـع أرجوزتـه: (بـاري الـديم / بـذي سـلم)، والأسعد بن مماتي ٦٠٦هـ ومطلع أرجوزته: (وافي سحر / طيف سحر)، وابـن نباتـة المـصري ٧٦٨هــ ومطلـع أرجوزتـه: (أفـدي قمـر / عقلـي قمر)[٤٢].

كما حدث خلط من الجامعين حين نسبا إلى الشاعر مقطّعة أخرى علـى وزن (الـدوبيت)، معلّقـين علـى وزنهـا بأنـه وزن خـارج عـن الأوزان المعروفة، وهو قول الشاعر:

يا غـصن أراك حـاملاً عـود أراك     حاشاك إلى السواك يحتاج سـواك

قل لي: أنهاك عن محبيك نهاك    لو تم وفاك بست خديك وفاك

والراجح كما سبق أنها للعماد الأصبهاني، حيث يقول ياقوت: "كذا وجدت له في أشعار مجموعة، وأنشدني هذين (الدوبيت) بعض أهل الأدب، وذكر أنهما للعماد الأصبهانى الكاتب، وهما به أشبه، لأنهما في غاية الجودة، وابن مماتي، في طبقة شِعره انحطاط جدًّا"[٤٣]، والدوبيت منسوب له في **الوافي بالوفيات**[٤٤].

رابعًا- نقد أخطاء في رواية بعض الأبيات:

وقعت بعض الأخطاء في رواية بعض الأبيات، لعلها ترجع -فيما ترجع إليه- إلى رجوع الأستاذين إلى بعض الكتب حديثة التحقيق، والتي ينشأ التصحيف فيها من صعوبة قراءة النص المخطوط في بعض الألفاظ، ولكن هذا لا يعفي الجامعين من التحري والضبط، وبخاصة إذا ترتّب على الخطأ اضطراب الوزن، على النحو الذي يبدو في قول الأسعد على لسان إنسان في حاسد أعان عليه ثم توجع له[٤٥]: {الخفيف}

لا تُصِخْ للحسود في ندبه النعـ    ـمةَ معْ كَوْنِهِ العجولَ إليها

فهو مثلُ السحابِ إذ يسترُ الشمـ    ـسَ عن العينِ ثم يبكي عليها

فقد ورد البيتان في الجمع برواية:

لا تُصِغ للحسود في ندبه النعـ    ـمةَ معْ كَوْنِهِ المشوق إليها

فهو مثلُ السحابِ إذ تسفر الشمـ    ـسَ عن العينِ ثم تبكي عليها

فيكون تقطيع البيت الأول (لا تصغ لل) مستفعلن وليس (فاعلاتن) كما يقتضي البحر الشعري.

كما روى له الجامعان قوله[٤٦]: {البسيط}

ما صرت أَجسرُ أن أبكي لفرقتهمْ لأنهـم زعمـوا أنّ البكـا فَـرَح

برواية:

ما صرت أحسن أن أبكي لفرقتهم لأنهـم زعمـوا أنّ البكـا فـرج

كما روى له الجامعان قوله في علم الدين بن الحجاج[٤٧]: {مجزوء الوافر}

حكـى نهـرين مـا في الأر ض مـن يحكيهمـا أبـدا

حكـى في خلقـه ثـورى وفي أخلاقـه بـردى

برواية:

حكـى في خلقـه ثـورًا وفي أخلاقـه بـردا

وقد اجتمع نقص الأبيات مع التصحيف في قول الشاعر[٤٨]: {الطويل}

قتيلك ما أذكى الهوى جلّ ناره إلى أن تجلّـى الخـد في جلنـاره

رأى حيـة في وجنتيـك وعقربـا نعـم جنـة محفوفـة بالمكـاره

حيث جاء البيت الأول فقط برواية: وقال أيضًا[٤٩]: {الطويل}

فهلّك ما أذكى الهوى جل ناره إلى أن تجلـى الخـد مـن جلنـاره

**(انتهى)**

**الهوامش:**

* كلية اللغة العربية بالمنصورة - جامعة الأزهر

(١) **الحيوان** للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مصطفي البابي الحل، الثانية، ١٩٦٥م، ١٣٢/٣.

(٢) **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،** عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة ـ دار الفكر، بيروت ـ الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١/ص٧٩٠.

(٣) ينظر: **التناص الشعري**، قراءة أخرى لقضية السرقات، د. مصطفى السعدني، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩١م، ص٥٤.

(٤) **تاريخ الإسلام** ٢٠٢/٤٣، و**الوافي بالوفيات** ١٧/٩ و**وفيات الأعيان** ٢١٠/١.

(٥) و**فيات الأعيان** ٢١٠/١.

(٦) **خريدة القصر** ١٠٢/١١ والبيت فيه برواية (فرج) بالجيم.

(٧) **ديوان أبي تمّام** بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، الرابعة، ١٩٧٦، ٥٠٧/٤.

(٨) **ديوان أبي الطيب المتنبي**، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي وآخرين، مكتبة مصر ١٩٩٤م، ص٥٧.

(٩) الروض الأنف، السهيلي ـ تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ٢٣١/٢.

(١٠) **شرح ديوان المتنبي**: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، ١٩١/٣، ١٩٤.

(١١) **خريدة القصر** ١٠٩/١١.

(١٢) **خزانة الأدب** ٤٥٨/٥، ٤٥٩.

(١٣) **خريدة القصر** ١٠٣/١١، ويبدو أنها جزء من القصيدة السابقة.

(١٤) **إنباه الرواة** ٢٦٩/١، و**خريدة القصر** ١٠١/١١.

(١٥) **ديوان الصبابة**، ابن أبي حجلة التلمساني، تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٧م، ص١٢٧، قال المؤلف: ووصف أعرابي قومًا

فقال: سيوفهم آفات الأعمار وصدورهم قبور الأسرار وما أحسن قول ابن مماتي من أبيات (وضاق ..........)

(١٦) **خريدة القصر** ١١/١٠٢.

(١٧) كتاب **عيار الشعر**، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا، تحقيق: د. عبد العزيز ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٥م، ص١٣٣-١٣٥.

(١٨) **خريدة القصر** ١١/١٠٩.

(١٩) **معجم الأدباء** ٢/١٨٨، ١٨٩.

(٢٠) **خريدة القصر** ١١/١١٠.

(٢١) **خريدة القصر** ١١/١١٣.

(٢٢) **الشِّعر العربي وظاهرة التداخل والاختلاط**: عادل سليمان جمال، **مجلة المجلة**، السنة العاشرة، عدد ١١٣، مايو ١٩٦٦م، ص٣٥.

(٢٣) ينظر: **وفيات الأعيان** و**أنباء أبناء الزمان** ٦/٢٥٤، و**خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، المحِّبي، دار صادر، بيروت ٣/٢٧٤.

(٢٤) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ١/٢١١، ٢١٢.

(٢٥) الدوبيت: هو وزن منقول عن الفارسية، وهي كلمة مركبة من كلمتين: معنى الأولى اثنان، والثانية على لفظها، ولا يقال إلا بيتان بيتان في أي معنى يريده الناظم، ولا يجوز فيه اللحن مطلقًا، وهو خمسة أنواع هي: المعرّج، والخالص، والممنطق، والمرفل والمردوف. ينظر: **ميزان الذهب في صناعة شِعر العرب** ـ السيد أحمد الهاشمي، تحقيق: د. حسني عبد الجليل يوسف ـ مكتبة الآداب، ص١٤٠، ١٤١.

(٢٦) **معجم الأدباء** ٢/١٩١.

(٢٧) ينظر: **الوافي بالوفيات** ٩/١٧.

(٢٨) **وفيات الأعيان** ١/٢١٠.

(٢٩) **تاريخ الإسلام** ٤٣/٢٠٢، و**الوافي بالوفيات** ٩/١٧، و**وفيات الأعيان** ١/٢١٠.

(٣٠) **معجم الأدباء** ٢/١٨٤ ، **الوافي بالوفيات** ٩/١٥، وقد ورد البيت الأول برواية:

حـوى دربُ كـوز الزيـر كـلَّ شمّـرْدل مـــــشدَّدة أوســـــاطُهم بالزنـــــانير

(٣١) **معجم الأدباء** ١٨٤/٢ ، **الوافي بالوفيات** ١٥/٩ ، وقد ورد البيت الأول برواية :

حـوى دربُ كـوز الزيـر كـلَّ شمّـرْدل مـــــشدَّدة أوســـــاطُهم بالزنـــــانير

(٣٢) **إنباه الرواة** ٢٦٩/١ ، و**خريدة القصر** ١٠٢/١١ ، "والعذار الذي يضم حبل الخطام إلى رأس البعير والناقة ، وأعذر الناقة جعل لها عذارا ، قالوا العِذَارَانِ من الفَرَسِ كالعَارِضَيْنِ مِن وَجْهِ الإِنْسَانِ ثمّ سُمِّيَ السَّيْرُ الذي يكونُ عليه من اللِّجامِ عِذَارًا باسم موضِعِهِ ج عُذُرٌ ككِتَابٍ وكُتُب ، والعِذَارَانِ جانِبَا اللِّحْيَةِ ، لأَنّ ذالك مَوضعُ العِذَارِ من الدَّابَّة قال رؤبةُ :

حَتّى رَأَيْنَ الشَّيْبَ ذَا التَّلَهْوُقِ أَغْشَى عِذَارَيْ لِحْيَتِي ويَرْتَقِي

وعِذَارُ الرَّجُلِ شَعرُه النَّابِتُ في مَوْضِعِ العِذَارِ ، والعِذَارُ استِوَاءُ شَعْرِ الغُلامِ يقال ما أَحْسَنَ عِذَارَهُ أَي خَطَّ لِحْيَتِه ، ينظر : **المحكم والمحيط الأعظم** ، أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيده المرسي ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ٢٠٠٠م ، ٧٣/٢ ، و**تاج العروس من جواهر القاموس** ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، ٥٤٧/١٢ .

(٣٣) **خريدة القصر** ١٠٢/١١ . (٣٤) **خريدة القصر** ١٠٢/١١ .

(٣٥) **نصرة الثائر على المثل السائر** ص١٠٩ ، وقد أدرجه الصفدي تحت استعمال أسماء الشهور على سبيل المواراة.

(٣٦) **طبقات الشافعية الكبرى** ٢٤٣/٧ .

(٣٧) يقول ابن منظور : والمنهوك من الرجز والمنسرح ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه كقوله في الرجز : (يا ليتني فيها جذع) وقوله في المنسرح : (ويل أمّ سعد سعدا) ، وإنما سمّي بذلك لأنك حذفت ثلثيه فنهكته بالحذف ، أي بالغت في إمراضه والإجحاف به والنهك المبالغة في كل شيء والناهك والنهيك المبالغ في جميع الأشياء. **لسان العرب** ٥٠٠/١٠ ، ويأتي المنهوك على صورتين ، فإمّا أن تضم التفعيلتان ، ويكون العروض هو الضرب ، وهذا هو المشهور ومنه :

ما للفتى فيها خدعْ

أقـودُ وطفـاءَ الذبعْ

وإمّا أن تكون كل تفعيلة في شطر، كما يفهم من قول ابـن عبـد ربـه: "والمنهـوك مـا ذهب من شطره جـزآن وبقـي علـى جزء" ينظر: **العقـد الفريـد** ٥/٤٢٨، والرجـز لدريد بن الصمّة في ديوانه بتحقيـق: د. محمـد خيري البقـاعي، دار قتيبـة ١٩٨١م، ص٩٣ برواية:

يا ليتني فيها جذع

أقـود وطفـاء الزمـع

(٣٨) **مجلة الموقف الأدبي**، اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، العـدد ٤١٣ أيلـول ٢٠٠٥، مقال بعنوان: الرجز والأراجيز ائتلاف واختلاف، د. أحمد فوزي الهيب، سـورية ص٨٩. وينظر: **عروض الورقة**، الجوهري، تحقيق: د. صالح جمال بدوي، مكة المكرمة ١٩٨٥، ص٧٥.

(٣٩) ينظر: **البداية والنهاية** ١٠/١٨٨.

(٤٠) **العمـدة** ١/١٨٤، ١٨٥. وينظر أيضًا رأي يـاقوت الحمـوي في **معجـم الأدبـاء** ٣/٣٩٠. والسيوطي في **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد محي الـدين عبـد الحميـد، مطبعـة السـعادة، الأولى، ١٩٥٢م ١/٢٨٢. وابن قاضي شهبة في **طبقات الشافعية** ٧/٢٤٥.

(٤١) **الوافي بالوفيات** ٢٠/٢٠١.

(٤٢) ينظـر: **طبقـات الـشافعية الكـبرى** ٧/٢٤٣–٣٤٧. **والـوافي بالوفيـات** ١٨/٢٧٥، ٢٠/٢٠٠.

(٤٣) **معجم الأدباء** ٢/١٩١.

(٤٤) ينظر: **الوافي بالوفيات** ٩/١٧.

(٤٥) **خريدة القصر** ١١/١٠٩.

(٤٦) **خريدة القصر** ١١/١٠٢ والبيت فيه برواية (فرج) بالجيم.

(٤٧) **تاريخ الإسلام** ٤٣/٢٠٢، **والوافي بالوفيات** ٩/١٧، **ووفيات الأعيان** ١/٢١٠.

(٤٨) **الوافي بالوفيات** ٩/١٠٢.

(٤٩) **الوافي بالوفيات** ٩/١٠٢.

# شِعر عنترة بن شدّاد
# في الموروث النقدي عند العرب
# "دراسة في نقد النقد"

**(٤)**

**بقلم: د. محمد رمضان الجوهري***

وقد يورد بعض المؤلفين أحيانًا أشعارًا وينسبونها إلى عنترة، وهي بيّنة الكذب، ظاهرة النّحل، إمّا لأنها ليست من طريقته ونهجه ظاهرًا، أو لأنها صيغت بلغة ركيكة، ومفردات واهية لم يستعملها الشاعر، وربما لأنها تتعلق بأشياء لم تكن معروفة في وقتها، ولم يتطرق إليها الشاعر في نظمه، ولم ترد في دواوينه المعتمدة المحققة، ومن ذلك ما أورده أبو بكر الصولي في **أدب الكتّاب**(١)، وقد عرض لأقوال الشعراء في باب سمّاه "باب الحساب"، وفي أعطافه ذكر "ومن أحسن ما قيل في تشبيه يد الحاسب بوميض البرق بعد قول التيمي قول عنترة من أبيات:

وفرضت للناس الكتابة فاحتذوا    فيها مثالك والعلوم فرائض

وإذا خططت فأنت غيث معشب    وإذا حسبت فأنت برق وامض

وإذا نهضت فأنت نجم ثاقب    وإذا جلست فأنت ليث رابض

فبـك التمثـل حـين ينعـت فاضـل وإليك يرجع حين يـشكل غـامض

فالألفاظ " فرضت - الكتابة - العلوم - فرائض - خططت - حسبت" كلها ليست من معجم الشاعر اللغوي، ولا من مفرداته الموظفة في شِعره، إضافة إلى أنّ الكتابة والحساب على الشاكلة المساقة في الأبيات لم تكن معروفة على هذه الشاكلة في بيئة عنترة البدوية، ولا عند عنترة راعيًا أو فارسًا، ثم من هو ذلك الطلعة النابه الذي يشير إليه عنترة من بني جلدته، ويمدحه بمثل قوله في البيت الأخير؟

وذلك النهج من النقد المعني بتوثيق شِعر عنترة، ونسبته إليه أو إلى غيره من الشعراء كثير في الموروث النقدي عند العرب، ومردّ ذلك إلى أسباب منها:

- اختلاط شعر عنترة بسيرته، فلم ينل أحد من المتقدمين ما ناله عنترة شهرة ومكانة عند القصّاصين والحكائين؛ فحكايا فروسيته، وقصص بطولته تستهوي العامة والبسطاء، وقد رأى فيها القصّاصون في كل زمان مادة ثرية تعجب وتجذب، فتزيّدوا فيها، ولونوها -ليضفوا على تفصيلاتها المصداقية- بأشعار كثيرة نسبوها إليه، تناسب ما يروونه من سيرته، فاختلطت بالثابت من شِعره، وأوردها عدد من المؤلفين الذين يحتطبون ليلاً في مؤلفاتهم إعجابًا وتساهلاً، وربما جهلاً وعدم دراية، فبقيت منسوبة للرجل مع أنها ظاهرة الكذب والنّحل.

- الخلط أحيانًا بين شِعر عنترة العبسي وغيره ممن تسمّوا بهذا الاسم كعنترة الأخرس الذي أورد له الآمدي شِعرًا في **وساطته**(٢)، والمرزوقي في

**حماسته**[٣]، وكعنترة الطائي الذي ذكره الجاحظ في **حيوانه**[٤]، وساق له بعض أشعاره، وذكره كذلك ابن رشيق في **عمدته**[٥]، وعنترة بن عروس المذكور في **خزانة الأدب**[٦]، وعنتر بن الضباب النهدي في **الأشباه والنظائر**[٧]، ومثلهم عنترة النميري[٨]، وعنترة بن عمرو[٩]، وغيرهم.

وقد ساق ابن رشيق[١٠] بيتًا ليزيد بن الطثرية في معرض حديثه عن الالتقاط والتلفيق، وأبان تلفيقه من عدد من الأبيات منها بيت لعنترة الطائي فقال: "وأمّا الالتقاط والتلفيق فمثل قول يزيد بن الطثرية:

إذا ما رآني مقبلاً غضّ طرفه        كأن شعاع الشمس دوني مقابله

فأوله من قول جميل:

إذا ما رأوني طالعًا من ثنية        يقولون: من هذا؟ وقد عرفوني

ووسطه من قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير        فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وعجزه من قول عنترة الطائي:

إذا أبْصَرْتَني أعرضت عني        كأنّ الشمس من حولي تدور

ومثل هذا يوقع البعض في حيرة، فينسب جاهلاً البيت لعنترة غير منتبه أنّ عنترة الطائي غير عنترة العبسي، إضافة إلى أنّ بعضهم يسوق ترجمة لأحدهم، فيذكر اسمه كاملاً ويبيّن نسبه، ثم يتناسى ذلك في معرض الترجمة فيسمّيه عنترة، فيأخذ البعض الأشعار وينسبونها إلى عنترة العبسي سهوًا أو جهلاً.

- ينضاف إلى ما سبق إيراد بعض كتب السير والتراجم والتأريخ أشعارًا ليست لأصحابها، ثم ينسبونها إليهم جهلاً منهم بذلك، فهمهم تأكيد الحادثة بما يقررها من شواهد تدعمها، لا فرق عند بعضهم في ذلك بين كونها صحيحة النسبة أو موضوعة، وحجتهم أنّ بضاعتهم التاريخ لا الأدب، والحوادث لا الأشعار ، وزاد بعضهم فأورد شِعرًا لرجال من عاد وثمود، ولنساء لم يعرفن بقرض الشِّعر ونظمه.

- وفي النهاية نسبة كل شِعر ورد فيه اسم عبلة لا يعرف قائله إلى عنترة، وكأنها موقوفة عليه، لصيقة به، مما فتح بابًا للوضع والنّحل والتلفيق قصدًا أو عرضًا في شِعر الرجل، مع أنّ الأمر بيِّن النّحل، لا يتّسق بحال مع نظمه، أو يتناغم مع طرائقه ونهجه.

**الخاتمة**

الحمد لله على تمام فضله، وكمال نعمته، وسابغ إحسانه، علّم سبحانه بالقلم، وامتنّ على الإنسان فعلّمه ما لم يكن يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، ووهب ذخائر الحِكم، وعلى آله وصحبه والسائرين على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد، فيطيب لي في النهاية وأنا أضع اللبنات الأخيرة لهذا البحث أن أوجز أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة حول شِعر عنترة في الموروث النقدي عند العرب "دراسة في نقد النقد" في النقاط التالية:

- عرض النقّاد لبعض متخيّرات عنترة اللفظية، فعابوا عليه استخدام مفردة في صيغة من الصيغ المستعملة، مفضّلين عليها صيغة أخرى

للمفـردة ذاتهـا، مـع أنّ القاعـدة لا تمنـع هـذه أو تلـك، معلّلـين رؤاهـم بـالوقوف مـع الحسن لا مـع الجـواز، وهـذا يفـتح بابًـا للقبـول والـرد؛ إذ الفيصل حينئذ الذوق الذي تتباين رؤاه بعوامل تؤثر وتتحكم وتوجه.

- جـاءت بعـض ومـضات النقّـاد في تنـاولاتهم شِـعر عـنترة مختلفـة مـع الأساليب العربية -أحيانًا- فقد عابوا عليه تكـرار المعنـى بألفـاظ متغـايرة، وعدّوا ذلك تطويلاً لا يفيـد، وقـد أجـازوه في قافيـة البيـت دون صـدره أو حشوه؛ استنادًا إلى أنّ الـشاعر يجـوز لـه في القافيـة مـا لا يجـوز لـه في ثنايـا البيت، وعدُّوا ذلك صفة مذمومة تقف مع البلاغة على طرفي نقيض، في حين ورد ذلك بكثرة في كلام العرب شِعره ونثره، مما يشي بانطلاق النقّـاد في بعض نقداتهم من الاستعمال الأمثل، والتوظيف النموذجي، وهذا قد يستعصي أحيانًا على الشِّعر المحكوم بالوزن والقافية، والمتمرد علـى بعـض الأعراف اللغوية، والتراكيب الرتيبة.

- استحسن النقّاد من عـنترة مفـردات وأسـاليب أجـاد توظيفهـا، وأحـسن سبكها، فجاءت قريبة مفهمة، سهلة المخرج، قويـة الرصـف، دالـة علـى مـراد الـشاعر وقـصده، يأخـذ بعـضها بحجـز بعـض؛ وصـولاً إلى ضـميمة يتغياها، وحج يقصده.

- تباينت نظرات بعض النقاد في معاني عنترة الموظفـة في شِـعره تعـبيرًا عـن مكنون نفسه، ولاعج فؤاده، ففي الوقـت الـذي عـاب فيـه الـبعض معنـى انتجعـه، تلمـس لـه آخـرون وجوهًـا تخليـه مـن العيـب، وتـسوغ توظيفـه، واستعماله في بابه.

- أشاد النقاد ببعض صور عنترة، وأثنوا على وثبات خياله، وحسن تأليفه، وبديع وصفه، وقدرته على التشبيه قدرة أحلته السبق، وبالغوا في بعض ذلك فجعلوها من التشبيهات العقم التي لم يسبق إليها، أو ينازع فيها، ولم يتعدّ أحد بعده عليها، ولو رام ذلك لافتضح وما أمكنه.

- أطَّر البلاغيون بعض قواعدهم اعتمادًا على أشعار عنترة التي كرروا فيها النظر وأعادوا؛ وصولاً إلى تقنين بلاغي وضعوا له مصطلحًا يتسق مع البيت ويساوقه، مما يقرر إكبارهم ضمنًا للرجل وشِعره.

- وقف النقّاد على شيم عنترة المعجبة، وخلاله النبيلة، فأشادوا بها، وأحلّوه الصدارة بسببها، منطلقين في ذلك من غايات أخلاقية، ونزعات إنسانية، وتلك نظرات يميل إليها أصحاب الفطر السوية، والأذواق السليمة، متى أعان عليها إبداع يطير بمتلقّيه إلى حيث أراد له سابكه من مسابح.

- أورد النقّاد بعض أقوال الأقدمين في عنترة، عاقدين -رغم أنه لا دين له- مقارنة بينه وبين غيره من الشعراء الإسلاميين، مشيدين في موازناتهم بعنترة الذي منعه خلقه وكرمه ما لم يمنع غيره من منتهبي اللذات ومعاقري المتع دينهم وإسلامهم.

- شف حديث النقّاد حول تأثر عنترة بسابقيه، وتأثر لاحقيه به عن نظرات موضوعية، تعتمد السرقة والأخذ مقياسًا في الحكم، إضافة إلى سعة اطلاع، وكثرة حفظ، ودراية بتراث العرب المنظوم، وقدرة على إدراك العلائق خفيها وظاهرها بين المعنى ومشاكله، وتلك ميزات اتسم

بها نقّاد العرب، مكنتهم من إصدار أحكام في هذا الباب، تزيل ما عساه يغشيه من صبابية، أو يتلبّده من غيوم.

- أحاط النقّاد في حديثهم عن التأثر والتأثير بجوانب القضية في ردهاتها ومنعطفاتها، فأوردوا شواهد تؤكد تأثر عنترة ببعض سابقيه، ونصّوا على نماذج تقرر أخذ لاحقيه معانيه وتوظيفها في شِعرهم، إضافة إلى عقد بعض الموازنات -أحيانًا-، وإصدار أحكام تفضّل معنى على غيره، وصورة على سواها، مع سوق تبريرات تنمّ عن رؤية وفكر.

- ما حفظته لنا كتب التراث النقدي من تأثر عنترة بسابقيه أقلّ بكثير مما أوردته من تأثر لاحقيه به، وهذا أمر طبعي؛ فعنترة من الشعراء الأوائل في العربية، وقد أعقبته أجيال توالت، وعصور تتابعت، فكان تأثيره فيمن جاءوا بعده، يفوق تأثره بسابقيه، تناغمًا مع الواقع زمنًا وكثرة.

- كشفت رؤى النقّاد في معرض حديثهم عن الموازنات إعجابهم في الغالب بشاعرية الرجل، وسلامة طبعه، وصفاء قريحته، وحسن تصويره، مما دفعهم إلى تفضيله على غيره أكثر من تقديم سابق أو لاحق عليه، وقد ساقوا في أعطاف ذلك تعليلات تبيّن سر التقديم، وأحيانًا كانوا يكتفون بالتفضيل جملة دون تفصيل أو تدليل، تاركين مساحة لعقل المتلقِّي ينعطف منها إلى تلمس أسباب التقديم وعلله.

- أكد الموروث النقدي انطلاق النقّاد -في الغالب- من النقد التأثري أو الانطباعي، فنظراتهم تدور في جلّها حول الذوق الفردي، وما يثيره النص في النفس، وما يتركه من انطباعات دافعة للحكم بالمدح أو القدح،

غير عابئين -والحالة تلك- بالقواعد المحددة، فذوقهم هو الحاكم، ودربتهم هي الأساس في الفصل؛ لذا لمست الدراسة فوارقَ بين النقّاد حول النص الواحد، فهذا يستحسنه، وذاك يستهجنه، دون أن يقدّم أيهما بين يدي قبوله وردّه ما يعلّل ويقرّب، وهذا أمر طبعي ما دامت القضية محكومة بالذوق لا بالقاعدة، وضابطها التأثر والانطباع بعيدًا عن التقنين المؤطر، والمنهج المطّرد.

- لم يغفل الموروث النقدي عند العرب قضية النّحل في شِعر عنترة، فقد أوردت بعض المصادر إشارات تفيد الشك في بعض الأشعار المنسوبة إليه، وأصدرت أخرى أحكامًا تثبت صحة نسبة الشِّعر إليه متى كان صحيحًا ثابتًا، وتنفي تلك النسبة متى ثبت لديها ما يقرر ذلك، وأحيانًا تتردد في النسبة بينه وبين غيره، وتغلب صحتها إلى أيهما، وهذه المسالك ليست بعسيرة على أرباب الصناعة؛ اعتمادًا على الحفظ والدربة والتمرس، ومعرفة طرائق الشّعراء، ومسالكهم في النظم والقرض.

- شطَّ بعض النقّاد في الحكم على شِعر عنترة، وغالى في وسمه بالنّحل، فحكم بنسبة معظم شِعره إلى أخيه من أمّه هراش بن شدّاد، دون تفسير يبرر، أو تعليل يقنع، مما يجعل الحكم -على هذه الشاكلة- مرفوضًا، يكذّبه الواقع، ويردّه الأثبات من رواة العربية ونقّادها الذين أشادوا بعنترة، وأثنوا على جودة قريحته وحسن نظمه.

- حاول بعضهم -ممن لا تخفى هويتهم- أن يسيئوا للتراث عمدًا، ويدخلوا فيه ما ليس منه قصدًا؛ ليفتحوا أبوابًا لتخرصاتهم يتسلل منها

الشك إلى التراث، ومنافذ تطلّ من كواتها الريبة إلى نفوس مطالعيه، موطئين للقضية بأنهم جمعوا ما وصل إليهم من شِعر فأثبتوه في مؤلفاتهم -كما فعل شيخو وأنداده- فخلطوا الصحيح بالمصنوع، والثابت بالمنحول، معتقدين أنّ ذلك يخفى على ذوي البصر بالشِّعر، أو يعفيهم من الاستهجان والرد، ويقيهم مغبّة الجرح والنقد.

- بعض أحكام النقّاد المتصلة بتوثيق شِعر عنترة، والمتعلقة بصحة نسبة بعض الأشعار إليه، أو نفيها عنه، تحتاج -أحيانًا- إلى معاودة نظر، وعدم قبولها جملة دون بحث وتدقيق.

والله وحده من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

**الهوامش:**

* جامعة القصيم- كلية العلوم والآداب بالرس- قسم اللغة العربية- الرس- القصيم.

(١) **أدب الكتّاب** لأبي بكر الصولي، تح: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية بمصر، المكتبة العربية، ببغداد، ١٣٤١هـ، ص٢٤٠ باب ذكر الحساب.

(٢) **الوساطة** ٣٣٩.

(٣) **شرح ديوان الحماسة** ١٦١/١.

(٤) **الحيوان** ٤١٠/٤.

(٥) **العمدة** ٢٩٠/٢.

(٦) **خزانة الأدب** ٣٢٦/١٠.

(٧) **حماسة الخالديين** المسمّاة **الأشباه والنظائر** ٩٦/١.

(٨) انظر **التذكرة الحمدونية** ج٥/٢٦٠.

(٩) انظر **جمهرة أشعار العرب** ٢٣/١ .

(١٠) **العمدة** ٢٩٠/٢.

# بريد العرب:

ورد إلى **العرب** من الأستاذ كمال عبدالرحمن النعيمي، من الموصل/ العراق ما يلي:

## الأوضاع السياسية في عصر السيوطي

كانت الأوضاع السياسية التي عاش فيها عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) تتميّز بالاضطراب السياسي، وفقدان الأمن والاستقرار، وذلك يشكّل امتدادًا للحدث الجلل والكارثة الكبرى التي حلّت بالمسلمين في كل مكان، ألا وهي احتلال المغول بغداد مدينة السلام عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وكان ذلك في زمن آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله[١].

ولم يتوقف المغول بزحفهم عند بغداد، بل واصلوا التقدم غربًا، فاحتلّوا بلاد الشام وفلسطين أو جزءًا منها، لكنّ المصريين استطاعوا إيقاف هذا السيل الجارف، والانتصار عليهم في معركة (عين جالوت) في فلسطين يوم ١٥ رمضان ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر ١٢٦٠ م)[٢].

يقول "رنسيمان": بسقوط المدن الثلاث الكبيرة: بغداد وحلب ودمشق، تراءى كأنّ الإسلام في غرب آسيا حان أجله[٣].

وعلى الرغم من هذا الانتصار الكبير، إلا أنّ هذا لم يمنع من تمزّق الأمّة الإسلامية إلى دويلات وإمارات صغيرة، وذلك بسبب ما ذكره رنسيمان واحتلال المغول للمدن الكبرى الثلاث.

ونتيجة هذه الحروب تغيّرت الخارطة السياسية لبلاد المسلمين، وتداخلت الشعوب، وأدّى ذلك إلى انقسامات سياسية واسعة، تقاسمها العرب والمغول والأتراك، وكان المغول من أقصى حدود الهند شرقًا، حتى سورية الكبرى غربًا، وأمّا الترك فقد حكموا من سورية شرقًا إلى حدود مصر الغربية(٤).

وفي مصر قامت دولة المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ)(٥)، والطريف أنّ الدولة الأيوبية كانت سببًا في وجود المماليك في مصر، فقد اضطر صلاح الدين الأيوبي إلى أن يشتري (١٢ ألفًا) من المماليك الجراكسة والأتراك، وبعد أن درّبهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية، ألّف منهم جندًا لم يلبث أن صاروا أشد الجنود الآسيوية بأسًا، وأقواهم بطشًا(٦)، وكانت سلطة مواليهم قد آلت على توالي الأيام إلى حوزتهم، فغلبوهم على أمرهم، وتصرّفوا في أحوال الدولة على أهوائهم، ثم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشهم، واختاروا السلاطين لهم، وتصرّفوا في الدولة كما يحلُو لهم وسلاطينهم منهم، وأخذوا يؤلّفون برسم أنفسهم فرقًا من المماليك على الوجه الذي ألّفت فيه فرقهم، فتضاعف عددهم، وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفيذ أحكامهم والتغلب على سواهم.

وطريقة جلب المماليك إلى مصر، أنهم كانوا في مقتبل العمر، يباعون في أسواق النخاسة بيع الأرقّاء، ثم ينقلون إلى ذلك القطر الذي قُدّر لهم أن يمسكوا زمام أموره دون أن تربطهم به صلة وطن، ولا آصرة قرابة، كما حدث للمماليك الذين حكموا مصر والشام وأماكن أخرى(٧).

ولم يكن عجبًا أن يعاملوا تلك البلدان التي يحكمونها وأهلها معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها، إذ لم يكن يعنيهم من شأنها وشأن أهلها سوى التفنن في ضروب ابتزاز الأموال واستدرار الخيرات، فتطوّروا بتطوّر الحضارة والترف، وألفوا النعيم وغضارة العيش(٨)، وبلغوا في ذلك الغاية، حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية، سلسلة متصلة من حلقات الفوضى والاختلال والمكائد، المراد بها تعزيز الأطماع الذاتية، وتفشّي وسائل العنف والقهر، بما يؤدّي إلى سفك الدماء وإزهاق الأرواح لتحقيقها(٩).

والحقيقة يبدو هذا الرأي الذي طرحه بعض المؤرخين عن مدى سوء السلاطين المماليك، أو المماليك عامة ليس منصفًا في جوانبه كافة، فهناك الكثير من السلاطين المماليك، قاموا بأعمال جليلة في الحفاظ على مصر، والدفاع عن أرضها، وحماية ثرواتها، منهم السلطان المظفر قطز، والظاهر بيبرس، وإنجازاتهما المعروفة في (عين جالوت)، وتحرير ما احتُلّ من قِبَل المغول، من بلاد الشام وفلسطين، ودحر المغول الغزاة في معركة فاصلة وإبقاء مصر حرة أبيّة خارج سيطرة المغول(١٠).

أضف إلى ذلك أنّ ثمة سلاطين من المماليك، ساهموا في الحفاظ على بلاد المسلمين، واتسموا بالعدل والإنصاف، وإعمار البلدان، منهم: الملك الناصر، سلطان مصر والشام، والسلطان قلاوون، والسلطان برقوق، والمؤيد، والأشرف، وقايتباي[١١].

وعلى أية حال، فكما هو معروف، فكل من يتابع تاريخ المماليك ويعرف تفاصيله، يرى بوضوح أنّ تاريخ المماليك، أوله (نور) وآخره (نار)، أو بتعبير آخر أوّله (خير) وآخره (شر)، فأوله: إيقاف زحف المغول نحو احتلال مصر، وتدمير جيش الغزاة وتطهير فلسطين ولبنان والشام من رجسهم، وآخره: طغيان المماليك على الحكّام والملوك والشعب، فدبّر لهم محمد علي مذبحة القلعة الشهيرة التي راح ضحيتها آلاف المماليك[١٢].

وهناك من يسمِّي عصر المماليك بالعصر المظلم، حيث يقول «يمكن أن يسمّى عصر المماليك بالعصر المظلم؛ لأنه أغمض عصر في تاريخ مصر، ولأنه من جهة أخرى كان مظلمًا بالحجب التي حالت دون المؤرخين للوصول إلى حقيقته، ولكنه كان عصرًا قائمًا بنفسه، له مظاهر وتعاليم وفلسفة ونظم اجتماعية وأخلاقية خاصة به»[١٣].

والطريف في حكم المماليك أن لا يجد الإنسان مثيلاً له في تاريخ العالم، وذلك لأنّ مركزهم كان استثنائيًّا؛ لأنه لم يُسمع مطلقًا -ولو حدث أنّ العبيد والأرقّاء في ثوراتهم يسودون مواليهم سيادة لا تلبث أن تنقشع سحبها- أنّ طائفة من الأرقّاء المشترين بالأموال من أسواق آسيا،

يكثر عددهم، ويُؤووا أرقّاء مثلهم، ثم يحكمون أقطارًا غنية كمصر والشام وغيرهما، ويضعون أيديهم على بلدان واسعة، ويصبح المملوك حاكم الغد، ومماليك مصر يعطوننا هذا المثال(١٤).

وعلى هذا الأساس فإنّ حكم سلطان المماليك لم تكن له قاعدة واضحة، ومن خلال استقراء طريقة جلوس سلاطين المماليك على العرش، نلاحظ أنه لم تكن هناك تقاليد ثابتة تنظم طريقة جلوسهم تلك(١٥)، فتارة يصلون إلى الحكم عن طريق الوراثة، كما حصل لأولاد الظاهر بيبرس وقلاوون، والناصر محمد، والأشرف قايتباي(١٦)، وتارة يؤخذ اغتصابًا في أغلب الأحيان، كما حصل مع السعيد بن بركة بن الظاهر بيبرس، والناصر محمد بن قايتباي وغيرهما(١٧). وقد انتهت حياة كثير من السلاطين بالقتل، فهل كان القتل في دولة المماليك هو القاعدة كما يتصور الغربيون؟

والواقع أننا باستثناء المظفر قطز، والناصر محمد بن قايتباي، نجد أنّ المماليك كانوا يكتفون بعزل السلطان دون قتله، إلا إذا ارتكب السلطان المعزول جرائم قتل في حق أمراء المماليك، فإنّ القتل يكون من نصيبه(١٨)؛ لأنّ المماليك كانوا ينقمون على السلطان الذي يبطش بـ(خشداشينهم) أي زملائهم، ولذلك نجد أنه عندما حوصر العادل طومان باي، الذي سبق قانصون الغوري مباشرة، قال له أحد الأمراء المماليك «أين قصروه؟ أين جانبلاط؟»، فأدرك السلطان أنه مقتول(١٩)؛

لأنه قتلهما من غير سبب، ولولا ذلك لاكتفوا بعزله، بمعنى أنّ المماليك لم يكونوا دمويين، وأنهم لم يكونوا يقتلون إلا مَن سبق إلى القتل[٢٠].

أمّا أقسام المماليك، فقد قسّمهم أحد الكتّاب المعاصرين إلى أربعة أقسام هي[٢١]:

١. المماليك البحرية: ١٢٥٠-١٣٨٧م.

٢. المماليك البرجية: ١٣٨٧-١٥١٧م

٣. المماليك البكوات: ١٥١٧-١٨١١م

٤. مماليك الأسرة العلوية.

ولا يمكن مراعاة الجنسية في أقسام أو طبقات المماليك هنا؛ لأنهم لم يكونوا جميعًا من وطن واحد ولا من طبقة واحدة ولا من أمّة واحدة[٢٢].

ولا يمكن أيضًا مراعاة التقسيم حسب المناطق التي سكنوها، فالقول بالمماليك البحرية؛ لأنهم سكنوا جزيرة الروضة[٢٣]، والمماليك البرجية؛ لأنهم سكنوا الأبراج[٢٤]، والمماليك البكوات؛ لأنّ نعتهم هذا كان أيام الاحتلال العثماني.

ولكن يمكن مراعاة التقسيم وفق اعتبارات أخرى، فإنّ أكثر ملوك الطبقة الأولى أو القسم الأول أُتيح له الحكم باسم سلاطين من الأطفال[٢٥]، فقد تولّى قلاوون وصيًّا على ابن بيبرس (سيف الدين سلامش)، فلم يلبث أن خلعه من المُلك، ووثب مكانه على العرش[٢٦]، وتولى كتبغا الحكم بصفته وصيًّا على السلطان لاجين، فلم يلبث أن استبدّ وحده بالحكم[٢٧]، أمّا ملوك القسم الثاني، فقد صار الأمر إليهم

حقًّا، فحكموا بأسمائهم، وتولّوا الأمر بأنفسهم حقًّا، على الرغم من أنه لم يكد ينال مصر من هذا التغيير نفع كبير[٢٨].

وعلى أية حال فإنّ مماليك هاتين الطبقتين كانوا أرقى أخلاقًا وأفضل سياسة من مماليك الطبقة أو القسم الثالث، وكان يظهر فيهم من وقت لآخر فحول سياسة، ورجال عدل ونظام، ورفق بالرعية، وكان مما يصلح شأنهم، أنّ الوراثة كانت توجد فيهم من وقت لآخر، مما ثبّت دعامة الحكم أو المُلك، ولم يدعها مطمعًا لكل سفّاك للدماء طامح للسلطة والإمارة[٢٩].

وقد امتاز مماليك هاتين الطبقتين (الأولى والثانية) بما تركوه في القاهرة وضواحيها من الآثار النفيسة والمساجد البديعة النادرة، وما أبقوه من العمائر التي تدل على ذوق رائق ورفاهية تضرب بها الأمثال، وقد وصفهم العلامة "لاين بول" في كتابه المسمّى "**القاهرة**"، فقال:

«لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات، التي لم تجمع في طبقة من الأمراء في أيّ زمان أو مكان، فبينما نعرف أنهم عصبة من الأفّاقين، ابْتِيعُوا بيع السلع، ونشأوا أرقّاء، وربّوا سفّاكين للدماء، ظالمين للعباد، مخربين للبلاد، نجد منهم ميلاً غريبًا للفنون، يحق لأيّ عرش وصولجان أن يفخر به على الأنداد والأقران؛ ولقد أظهر هؤلاء المماليك في لباسهم، ومسكنهم، وعمائرهم، ذوقًا سليمًا، ورفاهية بالغة، يصعب على أوربا الآن في عصرها "الأستاتيقي" المحب للجمال والتأنق أن تدانيهم فيه»[٣٠].

وإذا كان عصر المماليك عصر المتناقضات، فإنك واجد من يحمد المماليك في جوانب من حياتهم، كما فعل "لاين بول" أو يذكره بعض المترجمين (لينبول)، وكذلك واجد من يذمهم ذمًّا شديدًا، كما فعل ابن تغري بردي؛ إذ قال:

«نهبت العبيد والمماليك الأجلاب -يعني الذين جلبوا إلى مصر وهم الجراكسة- النسوة اللاتي حضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص بمصر القديمة وأفحشوا في ذلك إلى الغاية، وكل مفعول جائز»[٣١].

وعلى الرغم من تلك الأحوال السياسية المضطربة، سواء كانت الداخلية منها أم الخارجية التي تعرّضت لها بلاد المسلمين، نلاحظ أنّ دولة المماليك الجراكسة كانت محط آمال المسلمين[٣٢]، في الخلاص من الصعوبات والمصائب، وهذا ما وجدناه عندما أحسّ أهل الأندلس بالخطر، فبعثوا رسولاً سنة (٨٩٢ هـ/١٤٨٦م) إلى ملك مصر الأشرف قايتباي (٩٠١ هـ/١٤٩٥م) طالبين منه المساعدة لإنقاذهم من أعدائهم[٣٣].

ومع هذا فإنّ مماليك القسم الثالث أو الطبقة الثالثة، أي المماليك البكوات، فإنّ أغلب المؤرخين، كانوا يعتبرون عصرهم من ضمن عصور حكم المماليك[٣٤]، لذلك يقول مؤلف كتاب "**المماليك في مصر**":

«اضطررت أن التجئ إلى مصادر كثيرة، وإلى تطويل قد يكون مملاًّ، لأُثبت أنّ الحكم الفعلي في عصر الأتراك كان لمماليك هذه الطبقة دون غيرهم، وأنهم لم ينقصهم في هذا العصر إلاّ لقب السلطنة الذي استبدلوا

به "شيخ البلد"، ولم يأبه المماليك كثيرًا، واكتفوا بالجوهر، والحكم الفعلي دون لقب السيادة[٣٥].

أمّا الطبقة الرابعة أو القسم الرابع من المماليك، فتجاوزه مؤلف كتاب "**المماليك في مصر**" ولم يتناوله بالشرح والتفصيل.

وإلى جانب سلطان المماليك في مصر، كان يأتي الخليفة العباسي في مصر، وقد كان منصب الخليفة منصبًا دينيًّا قبل كل شيء، لإضفاء هالة من الشرعية على حكم السلاطين المماليك[٣٦]، وفي حقيقة الأمر لا يشكّل منصب الخليفة أية أهمية سياسة، فالحكم والقرار كله بيد السلاطين، وقد أحصى السيوطي في كتابه "**تاريخ الخلفاء**" ١٥ خليفةً عباسيًّا في مصر، أولهم (المستنصر بالله أحمد بن الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله) وآخرهم (المتوكل على الله عبد العزيز)[٣٧].

في مثل هذه الأجواء المتناقضة والمضطربة، عاش الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى في عام ٩١١هـ، ولتأكيد حالة الاضطراب وعدم الاستقرار في عهده، يكفي أن نقول إنّ السيوطي عاصر (١٣ سلطانًا) من السلاطين المماليك[٣٨]، ولقد عاش السيوطي في عصر دولة المماليك البرجية (الجراكسة) الممتد من سنة ٧٨٤ -٩٢٣هـ، وهم المماليك الذين حكموا مصر بعد زوال المماليك البحرية[٣٩].

والمعروف أنّ المماليك البرجية وهم جراكسة (نسبة إلى بلاد الجركس، وهي لفظة روسية قديمة تعني القوقاز، بجوار بحر قزوين، وأنّ أكثر

المماليك هم من أصل جركسي)[٤٠]، وبلغ عدد سلاطين هذه الدولة اثنين وعشرين سلطانًا[٤١]، أولهم (الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس الببغاوي (١٣٨٢هـ/١٣٩٩م)[٤٢]، وآخرهم: الأشرف قانصوه الغوري (١٤٤٦م/١٥١٦م)[٤٣] الذي قتله العثمانيون في معركة (برج دابق ٩٢٢هـ/١٥١٦م)[٤٤].

والمماليك الجركسية جلبهم الناصر قلاوون المتوفى سنة ٧٤١ هـ[٤٥]، وأسكنهم -كما ذكرنا- في أبراج القلعة، ولذلك أطلق عليهم المماليك البرجية، تمييزًا عن المماليك البحرية الذين كانوا يقيمون في جزيرة الروضة.

وكان الخلفاء العباسيون الصوريون، يحضرون تولية كل سلطان جديد من المماليك، ويعقدون له البيعة، وقد يتولّون ترشيح القضاة، ويحضرون المجالس التي يعقدها السلطان لبحث الشؤون الطارئة التي تقتضي اتخاذ تدابير معيّنة، قد لا يستطيع السلطان أن يتحمل مسؤوليتها وحده[٤٦].

وقد كانت ولادة السيوطي في عهد السلطان الظاهر أبي سعيد جقمق، الذي تعدّ فترة حكمه من أهدأ الفترات، وكانت مدة حكمه من سنة ٨٤٢ إلى سنة ٨٥٧ هـ[٤٧]، وكما قلنا، فقد عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطانًا من المماليك، منهم السلطان الأشرف قايتباي، الذي تعدّ فترة حكمه أطول فترة حكم سلطان مملوكي، فقد دام حكمه تسعًا وعشرين سنة، وذلك من سنة ٨٧٢ هـ إلى سنة ٩٠١هـ[٤٨]، وكان السلطان قايتباي رجلاً عاقلاً أريبًا، واشتهر بأنه متدين ومصلح، فقد أسهم في عمارة كثير من

المراكز العلمية والدينية في مصر وما يتبعها من الأقطار[٤٩]، كما قام بإصلاحات عمرانية في مناطق مختلفة[٥٠].

والحقيقة أنّ الإمام السيوطي -رحمه الله- لم تكن له علاقة بالحياة السياسية في مصر آنذاك، سوى علاقته بالخليفة العباسي المتوكل على الله، إذ كتب له رسالتين في مدح بني العباس[٥١]، وكانت الأولى "الأساس في فضل بني العباس"، والثانية "رفع البأس عن بني العباس"[٥٢].

وكان السلطان قانصوه الغوري، آخر السلاطين المماليك الذين عاصرهم السيوطي، وقد تولى السلطنة من سنة ٩٠٦ إلى سنة ٩٢٢هـ[٥٣].

وقد ارتبطت دولة المماليك في عدد كبير من العلاقات مع الدول والقبائل نذكرها باختصار:

«علاقة المماليك بالحروب الصليبية، علاقة المماليك بالمغول والتتار، علاقة المماليك ببلاد النوبة، علاقة المماليك بأرمينيا، علاقة المماليك برودس وقبرص، علاقة المماليك ببعض الدول الأجنبية، علاقة المماليك بالقبائل التركمانية، علاقة المماليك بالأتراك العثمانيين، علاقة المماليك بالبندقية والبرتغال، علاقة المماليك بالأقباط والنزلاء الأجانب، علاقة المماليك بالخلافة العباسية»[٥٤]، وهذا يدل على أنّ دولة المماليك كانت منفتحة سياسيًّا مع دول العالم، ولم تكن دولة منغلقة على نفسها.

إنّ أهم وأخطر علاقات المماليك هي مع ثلاث جهات مصيرية، كان لها دور خطير في حروبها مع المماليك، العلاقة الأولى: هي علاقتهم بالمغول وقد استمرت فترة طويلة في مصر والشام وغيرها، والعلاقة

الثانية: مع الصليبيين الذين دخلوا في حروب طويلة أيضًا مع المماليك، والعلاقة الثالثة: هي العلاقة المصيرية مع الأتراك العثمانيين، حيث وقعت يوم الأحد ٢٤ أغسطس ١٥١٦م/رجب سنة ٩٢٢هـ[٥٥] معركة "مرج دابق" بين الجيش المصري بقيادة السلطان الأشرف قانصوه الغوري وعددهم (٣٠ ألفًا)[٥٦] والجيش العثماني بقيادة السلطان سليم، والمكوّن من (١٥٠ ألفًا)[٥٧]، أي: خمسة أضعاف الجيش المصري، وقد انتصر المصريون أول الأمر، وكاد السلطان سليم أن ينهزم[٥٨] لولا خيانة (خاير بيك) و(جان بردي الغزالي) اللذين انهزما بجيوشهما من الجيش المصري، وانضمّا إلى السلطان سليم[٥٩]، وبهذا اختلّ الجيش المصري، واستعمل الأتراك إذ ذاك مدفعية جيشهم التي لم يكونوا قد بدأوا باستعمالها قبل ذلك فحصدت أفواج المصريين[٦٠].

ونتيجة الخيانة في الجيش المصري وتفوّق عدد الأتراك العثمانيين واستعمالهم أسلحة حديثة غير متوفرة عند المصريين، انهزم جيش المماليك، بعد أن فُلِجَ السلطان الغوري في المعركة[٦١]، ووقع تحت سنابك خيل المغيرين الأتراك، ولم يعثر له على أثر في المعركة[٦٢].

بعد ذلك توجّه السلطان العثماني سليم الأول إلى القاهرة، وبعد قتال تراجعي يائس قام به الأشرف طومان باي الذي أعلن نفسه حاكمًا على مصر وسلطانًا عليها[٦٣]، بعد فقدان قانصوه في المعركة.

لكن طومان أحس بفشل محاولته هذه في مقاومة العثمانيين، فسلّم نفسه للقائد العثماني بعد ثلاثة أيام من دخول القاهرة[٦٤]، فصلبهُ القائد في باب

زويلة[٦٥]، وبذلك انتهت آخر مقاومة للمماليك، وانتهت أيضًا دولة المماليك الجراكسة، وأصبحت مصر ولاية تابعة للعثمانيين[٦٦].

من خلال معاصرة السيوطي لثلاثة عشر سلطانًا من المماليك، تظهر الصورة واضحة في تقييم الأوضاع السياسية في مصر، فأبرز مظاهر دولة المماليك الجراكسة هو ذلك الاضطراب السياسي الداخلي، فكان سببًا هامًّا في القضاء عليها[٦٧].

ومما يدل على هذا الاضطراب، كثرة التقلبات في السلطة العليا، فكثير من السلاطين خلعوا من الحكم خلعًا، وكمثال على ذلك السلطان برقوق الذي خلع من السلطة سنة إحدى وتسعين وثمان مئة وسُجن بالكرك[٦٨]، وأُعيد حاجي بن الأشرف شعبان إلى السلطنة التي كان فيها من قبل[٦٩]، فأقام فيها إلى صفر سنة اثنتين وتسعين وثمان مئة ثم خُلع، وعاد برقوق إلى السلطة مرة أخرى[٧٠].

ويمكن وصف عصر السلاطين المماليك على النحو الآتي:

١. سلاطين مماليك دخلوا الإسلام وأخلصوا لله وخدمة شعوبهم.

٢. سلاطين كانت تهمّهم السلطنة وليس مهمًّا الثمن.

٣. سلاطين اعتمدوا على الوراثة.

وبذلك تكاثرت أسباب الخلاف واشتدت الفتن حتى انتهت الأمور بكارثة (مرج دابق) التي أنهت حكم المماليك في مصر.

**الهوامش:**

(١) **تاريخ الخلفاء**، السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مصر، ١٩٥٢م، ٤٧١.

(٢) **جامع التواريخ**، رشيد الدين الهمذاني، نشر كاتر مير- باريس - ١٨٣٦م، الترجمة العربية، مجلد٢، جزء أول، ٣١٣.
(٣) انظر كتابه: **تاريخ الحروب الصليبية**، ج٣، بيروت، ١٩٦٩م، ٥٢٨.
(٤) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، المقريزي (ت٨٤٥ هـ)، مكتبة المثنى، بغداد، ج٣، ٣٨٥.
(٥) **الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة**، محمود ياسين أحمد التكريتي، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات (٢٦٤)، بغداد، ١٩٨١م، ١٧.
(٦) صفحات من تاريخ مصر (المماليك في مصر)، أنور زقلمة، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ١٩.
(٧) م.ن: ١٩.
(٨) **تاريخ دولة المماليك**، وليم موير، طبع القاهرة، سنة ١٩٢٤م، ١٨٩.
(٩) **المماليك في مصر**، أنور زقلمة: ١٩.
(١٠) **المختصر في أخبار البشر**، أبو الفداء (ت٧٣٢ هـ)، المطبعة الحسينية المصرية بالقاهرة، ١٣٠٥هـ، ج٣، ٢١٤.
(١١) **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ابن أياس، طبعة بولاق، ١٣١١ هـ، ج٥، ١٢٦.
(١٢) **المماليك في مصر**، أنور زقلمة، ٣٤.
(١٣) م.ن: ١٨.
(١٤) م.ن: ٢٢.
(١٥) **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، غرس الدين الظاهري، باريس، ١٨٩٤م، ٨٩.
(١٦) **صبح الأعشى**، القلقشندي، مطبعة دار الكتب، القاهرة (١٩١٣-١٩١٨م)، ج٤، ١٣.
(١٧) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، شهاب الدين بن فضل الله، تحقيق: أحمد زكي، دار الكتب العربية، ١٩٢٤م، ج٣، ٣٩٨.
(١٨) **الخطط المقريزية**، المقريزي، طبعة القاهرة، ١٣٢٤هـ، ج١، ١٤١.

(١٩) **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، محمد بن طولون، نشر محمد مصطفى بالقاهرة في جزءين، ١٩٨٦م، ج١، ١٩٦.

(٢٠) **المماليك في مصر**، أنور زقلمة، ٢٢.

(٢١) م.ن: ٢٥.

(٢٢) م.ن: ٢٥.

(٢٣) **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (ط١، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ١٣٨٧ هـ/١٩٨٦م)، ج٢، ٤٣؛ **سيرة القاهرة**، لينبول، ترجمة: حسن إبراهيم وجماعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (١٣٤١هـ/١٩٢٢م)، ١١٩؛ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢ هـ) (مكتبة الحياة، بيروت)، ج٣، ٧١.

(٢٤) **الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة**، ابن ظهيرة، تحقيق: أحمد صالح، القاهرة، ١٩٦٠م، ٤٨؛ **سيرة القاهرة**، لينبول، ١٩٩.

(٢٥) **حسن المحاضرة**، السيوطي، ج٢، ١٢٠؛ **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج٢، ٨٩.

(٢٦) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، الحنبلي، (دار الكتب العلمية، بيروت)، ج٧، ٣١٥؛ **حسن المحاضرة**، السيوطي، ج٢، ١٢٢.

(٢٧) **شذرات الذهب**، الحنبلي، ج٧، ٣١٥؛ **بدائع الزهور**، ابن إياس، ج٢، ٨٩.

(٢٨) **المماليك في مصر**، أنور زقلمة، ٢٥.

(٢٩) **الكواكب الدرية في السيرة النبوية**، ابن قاضي شهبة (ت ٧٣٩ هـ)، تحقيق: د. محمود زايد، بيروت، ١٩٧١م، ٣؛ المماليك في مصر، ٢٥.

(٣٠) **القاهرة**، لينبوال، ٦٧.

(٣١) انظر كتابه: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق: د. إبراهيم علي، (الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ج١٩، ٢٠٨.

(٣٢) **الشماريخ في علم التاريخ**، السيوطي، دراسة وتحقيق: د. عبد الرحمن رشك ود. عبد الناصر عبد الرحمن، ديوان الوقف السني، بغداد، ٢٠٠٨م، ١٤.

(٣٣) **بدائع الزهور**، ابن إياس، ج٢، ٢٤٦.

(٣٤) **الخطط المقريزية**، المقريزي، ج٤، ٢٠٠؛ **عصر سلاطين المماليك**، محمود رزق سليم، (ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٦٥)، ج٢، ١٦٧.

(٣٥) **المماليك في مصر**، أنور زقلمة، ٢٧.

(٣٦) **دول الإسلام**، الذهبي: محمد بن أحمد (ت٧٤٨ هـ)، تحقيق: فهيم محمد وزميله، القاهرة، ١٩٧٤م، ج٢، ١٢٥.

(٣٧) **تاريخ الخلفاء**، السيوطي، ٥١٤.

(٣٨) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق: د. إبراهيم علي (الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ج١٩، ١٠٠؛ **بدائع الزهور**، ابن إياس، ج٢، ٢٠٠.

(٣٩) **سيرة القاهرة**، ١١٩؛ **القاهرة تاريخها وآثارها**، ١٧٦.

(٤٠) **الفضائل الباهرة في محاسن القاهرة**، ٤٨؛ **سيرة القاهرة**، ١٩٩.

(٤١) **تاريخ الجبرتي**، ج١، ٦٤.

(٤٢) **شذرات الذهب**، ج٨، ١١٣؛ **بدائع الزهور**، ج٣، ٥٨.

(٤٣) **شذرات الذهب**، ج٨، ١١٣. (٤٤) **شذرات الذهب**، ج٨، ١١٥.

(٤٥) **حسن المحاضرة**، ج٢، ٢٤٣؛ **سيرة القاهرة**، ١١٩.

(٤٦) **حسن المحاضرة**، ج٢، ٩٤.

(٤٧) **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢ هـ)، مكتبة الحياة، بيروت، ج٦، :٧١؛ **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، السيوطي، حرره فليب حتي، (المطبعة السورية الأمريكية، بيروت، ١٩٢٧م)، ١٠٣؛ **حسن المحاضرة**، ج٢، ١٢٢.

(٤٨) **الضوء اللامع**، ج٦، ٢٠١؛ **شذرات الذهب**، ج٨، ٢٩؛ **حسن المحاضرة**، ج٢، ١٢٢.

(٤٩) **شذرات الذهب**، ج٨، ٩، **بدائع الزهور**، ج٢، ٢٩٧.

(٥٠) **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ج٢، ٨٦؛ **النور السافر في تاريخ القرن العاشر**، عبد

القادر بن عبد الله العيدروسي، تحقيق: د. أحمد حالو وآخرون (دار صادر، بيروت، ٢٠٠١م)، ٢١٩.

(٥١) **حسن المحاضرة**، السيوطي، ج٢، ٩٢؛ **الشماريخ في علم التاريخ**، السيوطي، ١٥.

(٥٢) **حسن المحاضرة**، ج٢، ٩٢.

(٥٣) **شذرات الذهب**، ج٨، ١١٣؛ **النور السافر**، ١٤؛ **البدر الطالع**، ج٢، ٥٦.

(٥٤) **المماليك في مصر**، أنور زقلمة، ١٩١-١٩٢.

(٥٥) **در الحبب في أعيان حلب**، ابن الحنبلي، طبع وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٤م، ج١، ق٢، ٦٠٩.

(٥٦) **المماليك في مصر**، أنور زقلمة، ١٠٤. (٥٧) م.ن: ١٠١

(٥٨) **تاريخ أخذ مصر من الشراكسة**، ابن زنبيل الرمال المحلي، طبعة بولاق، ١٢٨٧هـ، ١٣؛ **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، محمد بن أحمد الغزي (ت ١٠٦١هـ)، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، (ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م)، ج١، ٢٩٤.

(٥٩) **بدائع الزهور**، ج٥، ٨٦؛ **بلاد الشام ومصر**، عبد الكريم رافق، دمشق، ١٩٦٨م، ط١، ١٩.

(٦١) **شذرات الذهب**، ج٨، ١١٣؛ **بدائع الزهور**، ج٣، ٥٨.

(٦٢) **البدر الطالع**، ج١، ٥٥؛ **شذرات الذهب**، ج٨، ١١٣.

(٦٣) **بدائع الزهور**، ج٣، ٥٨؛ **البدر الطالع**، ج١، ٥٥.

(٦٤) **بدائع الزهور**، ج٣، ٥٨. (٦٥) م.ن: ج٣، ٥٨.

(٦٦) **شذرات الذهب**، ج٨، ١١٥؛ **السنا الباهر**، جمال الدين الشلي، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥٧م، ٢١٩.

(٦٧) **شذرات الذهب**، ١١٥/٨. (٦٨) **حسن المحاضرة**، ١٢٠/٢؛ تاريخ ابن شهبة، ٣.

(٦٩) **حسن المحاضرة**، ج٢، ١٢٠.

(٧٠) م.ن: ١٢٠.

مكتبة العربية

- **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، لصلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ) تحقيق: أ.عبدالله المفلح، الرياض، كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ٧٦٤ صفحة.**

يُعدّ هذا الكتاب من أكبر مؤلفات الصفدي في اللغة، وضعه للتنبيه إلى التحريفات التي طرأت على اللغة مما أبعدها عن منبعها الصافي، وذلك برصد لحن العامة وتطوره عبر مراحل تاريخية مختلفة.

ولم يكن الصفدي أول من ألّف في هذا الفن، فقد سُبق إليه، ووصل إلينا كثير من المؤلفات التي تعود للقرن الرابع وما يليه في رصد اللحن والتصحيف عند العوام، واعتمد المؤلف في كثير مما روى على ما وقع بين يديه من مؤلفاتٍ في التصحيف والتحريف، ولكنه لم يكتف بالنقل النصِّي، بل هذّب العبارات ورتّب المواضيع، وكان له اعتراضات وتوضيحات واستشهادات على ما ينقل، وحفظ بهذا النقل جزءًا كبيرًا من كتب مفقودة مثل كتاب "ما صحف فيه الكوفيون" للصولي، و"الأوراق" للضياء موسى الناسخ الأشرفي، وحفظ كذلك جزءًا كبيرًا مما ضاع من كتاب "لحن العوام" للزبيدي.

وقد قدّم المحقق –رحمه الله– لهذا الكتاب بمقدمة طويلة ذكر فيها أحد عشر سببًا للتصحيف مفصِّلاً فيها وممثّلاً عليها مما ورد في الكتاب، ثم ترجم للمؤلف الصفدي ولبعض شيوخه، وختم بملاحظات قيّمة على جهد الصفدي في كتابه. وكان قد رقّم الفِقَر لِيُلحق بالكتاب تخريجًا لكل فقرة على حدة، يليه الفهارس الفنيّة، وهو جهد عظيم أخذ كثيرًا من وقت المحقق ليحفظ بذلك وقت الباحثين والقراء.

ع.ن.م

## إهداءات إلى مكتبة العرب

**أولاً– الكتب:**

- صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود: خطب وكلمات، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨٥)، ١٤٣٤هـ.
- التبر المسبوك في تاريخ معرفة الملوك، تأليف عمر بن أحمد بن محمد صالح الجيزاني الهاشمي، حققه وعلّق عليه عبدالرحمن محمد يحيى الرفاعي، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨٨)، ١٤٣٤هـ.
- خير الدين الزركلي: دراسة وتوثيق، أحمد إبراهيم العلاونة، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨٤)، ١٤٣٣هـ.
- المملكة العربية السعودية في القرن التاسع عشر الميلادي: ريتشارد بايلي وايندر، راجع الترجمة وعلّق عليها د. فهد بن عبدالله السماري، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٩٨)، ١٤٣٤هـ.

**ثانيًا– المجلات:**

- الفرقان، العدد ٧٥٩، ١٩ ربيع الأول ١٤٣٥هـ/٢٠١٤/١/٢٠م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٦٠، ٢٦ ربيع الأول ١٤٣٥هـ/٢٠١٤/١/٢٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- أوراق نسبية، تصدرها الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب التابعة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد الأول، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. محمد جاسم حمادي المشهداني.
- الفرقان، العدد ٧٦١، ٢ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ/٢٠١٤/٢/٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- عيادة الجندي، العدد ٤٠، محرم ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير: المقدم منصور بن عبدالله الحميدي.

فهرس هذا العدد




ج٩ و١٠، س٥٢، الربيعان ١٤٣٨هـ

(ديسمبر–يناير / كانون أول–كانون ثاني ٢٠١٧م)

# م. ب وبحثه النقدي
# دراسة في نقد النقد

بقلم: د. محمد إبراهيم المسلماني*

**مقدمة**

تقدّمت أوربا في العصر الحديث في العلوم والفنون والآداب، وبنت نهضتها وحضارتها الحديثة على العلم الذي يخضع للعقل، ومما تقدمت فيه النقد الأدبي، وقد أدّى هذا التقدم إلى أن يولي نقّاد الأدب العربي الحديث وجوههم شطر أوربّا للنهل من هذا النقد الأدبي الحديث.

لذا وجدنا نقّادًا روادًا في أدبنا العربي تأثروا بالفكر وبالحضارة الأوربية وأفادوا أمّتهم بما علموه من نقد حديث قائم على نظريات جديدة قدّموها إلى القرَّاء العرب.

من هؤلاء النقّاد ناقد لم يذكر اسمه، إنما رمز إليه بالحرفين (م. ب)، ونشر ثماني مقالات متتابعة في مجلة **الهلال** المصرية، بدأها في عدد ديسمبر من سنة ١٩١٦م وأنهاها في عدد يوليو من سنة ١٩١٧م، ووضع عنوان

(بحث في النقد) للثلاث مقالات الأولى، وعنوان (بحث في النقد - النقد في فرنسا) لما بقي من مقالات.

وتأثر هذا الناقد بنقّاد عرب سبقوه في الكتابة في النقد الأدبي الحديث في مطلع القرن العشرين، وظهر هذا التأثر جليًّا واضحًا في ثنايا مقالاته، وفي نظريته النقدية التي ابتكرها وقدّمها للقُرَّاء، ويرى أنها تصلح للتطبيق على الآداب ومنها الأدب العربي.

وسأقوم بمناقشة هذه النظرية محاولاً الوصول إلى أصولها في النقد الفرنسي.

لم أجد لهذه المقالات- حسب علمي وقراءاتي- ذكرًا في الدراسات النقدية الحديثة. وسأحاول جاهدًا أن أصل إلى اسم كاتبها الحقيقي، وإلى سبب إخفاء اسمه عن القُرَّاء، كما سأناقش بعض أفكاره النقدية.

وبهذا أحاول- قدر استطاعتي- أن أقدّم فكر ناقد لم يُعِد نشر مقالاته السالفة الذكر في كتاب، ولم يكتب اسمه عليها رغم أهميتها وكونها من باكورات النقد الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين.

وأتمنى أن تكون محاولتي صوابًا، وإن لم تكن كذلك فحسبي أني حاولت قدر استطاعتي.

[١]- مَنْ م. ب؟

أولاً- لماذا يخفي بعض الكتّاب أسماءهم؟

اعتاد عدد من الكتّاب- سواء في النقد الأدبي أو في غيره من الموضوعات- ألا يكتبوا أسماءهم على بعض مقالاتهم أو كتبهم، ويتركونها مجهولة

المؤلف، أو يكتبون عليها اسمًا مستعارًا، أو يرمزون لأسمائهم بحروف هجائية، ولاحظت ذلك في الكتابات الحديثة التي صدرت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في مصر، مع العلم بأنّ هذه الظاهرة قديمة ومألوفة منذ قرون سابقة في أوربا، لذلك وجدنا ديكارت Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠م) الفيلسوف والناقد الفرنسي لم يكتب اسمه على كتابه الشهير (مقال عن المنهج)، لأنّ ديكارت "كان عدوًّا للشهرة، ثم لأنّ خلوّ الكتاب من اسم مؤلفه كان أمرًا مألوفًا في هذا الزمن"[1]. ومن المجلات التي بدأت في القرن التاسع عشر في مصر وفيها ظاهرة عدم التصريح بالأسماء: مجلتا "**المقتطف**" و"**الهلال**"، وأخذت هذه الظاهرة تقل كلما اقتربنا من منتصف القرن العشرين، ويرجع إخفاء أسمائهم- في رأيي- إلى ثلاثة أسباب:

السبب الأول: الخوف من تأويل كلامهم بعبارات تصل لأولي الأمر فتُعرضهم للاتهام، ثم لفقد وظائفهم في الدولة أو مكانتهم في المجتمع؛ لأنه في ذلك الوقت "إذا تكلم الحرُّ تكلم همسًا، وإذا كتب أخفى اسمه، ولاسيما إذا كان من موظفي الدولة، ولو كان موضوعه في الأدب أو الطب؛ لأنّ الجواسيس يحوّلون كل معنى إلى المكائد والدسائس"[2]. والسبب الثاني: تقليد بعض كتّاب العربية في العصر الحديث لفئة من كتّاب الغرب في إعلاء شأن المعلومات المنشورة على أشخاص مؤلفيها، "فقد جرت عادة لبعض حديثي النقّاد من الإنجليز والألمان أن ينشروا فصول نقدهم خالية من إمضاءاتهم، زاعمين أنّ شهرة الكاتب تؤثر في

رأي القارئ، فإن كان من الخاملين لم يُعبأ بقوله وإن وقع على الصواب. وإن كان من النابهين عُدَّ خطؤه فصل الخطاب"[٣]. والسبب الثالث: خشية بعض الكتاب من هجوم القرَّاء عليهم خاصة إذا كتبوا في موضوع شاذ أو مستهجن.

من الكتّاب النقّاد الذين لم يكتبوا أسماءهم خوفًا من تأويل كلامهم الكاتب الفلسطيني المقدسي محمد روحي الخالدي الذي بدأ نشر كتابه النقدي "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب" على هيئة مقالات في مجلة "**الهلال**"، بلغ عددها عشرين مقالاً، بدأها في عدد ١٥من نوفمبر من عام ١٩٠٢م وختمها في عدد يوليو من عام ١٩٠٤. وكتب عليها (كاتب فاضل) بدلاً من كتابة اسمه، وعندما أعاد طبعها في كتاب سنة ١٩٠٤م أخفى اسمه أيضًا واكتفى بكتابة (المقدسي) إشارة إلى موطنه (القدس). ولم يوافق على الجهر باسمه وكتابته على كتابه إلا بعد أن نفدت الطبعة الأولى وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٩١٢م، بعد أن تأكد أنّ القُرَّاء المُغْرِضِين لم يجدوا في كتابه ما يأخذونه عليه؛ ليفسدوا عمله الدبلوماسي، لأنه كان يومئذ قنصلَ جنرال الدولة العثمانية في مدينة (بوردو) الفرنسية.

ولم يكتب الدكتور محمد حسين هيكل اسمه على روايته "زينب" في طبعتها الأولى، وإنما كتب "مصري فلاح"؛ لأنه كان يعمل محاميًا؛ وكان يخشى على مكانته في المجتمع وفي أوساط المحامين، ولم يكتب اسمه عليها إلا في طبعات لاحقة.

ولم يكتب الدكتور طه حسين اسمه على المقالات التي دارت بينه وبين الدكتور محمد حسين هيكل عن أضرار ومنافع الحرب في مجلة السفور سنة ١٩١٥م على مدى ستة أسابيع، وقد بدأها طه حسين بمقالة عن (الحرب والحضارة)، وأعادت مجلة "**الهلال**" نشر جزء منها في عدد ديسمبر من سنة ١٩٣٩م. وسبب إخفاء طه حسين لاسمه أنه تبنَّى الفكرة التي ترى أنّ للحرب فوائد في العلوم والآداب، وتدفع الإنسانية إلى الأمام، وهي فكرة يستهجنها كثير من الناس، ولم يعرف القرَّاء أنّ صاحب هذه المقالات هو طه حسين إلا بعد أن أعلن هيكل في مقالته الأخيرة أنّ مناظره هو طه حسين(٤).

ثانيًا- مَنْ م. ب؟

ظهرت في مجلة "**الهلال**" ثماني مقالات متتابعة، أولها في عدد ديسمبر سنة ١٩١٦ وآخرها في عدد يوليو سنة ١٩١٧، تحمل عنوان "بحث في النقد" ومذيّلة برمز لاسم مؤلفها هو (م. ب)، ولم يقم مؤلف هذه المقالات بإعادة نشرها، وأحاول الآن -قدر استطاعتي- أن أصل إلى اسم هذا المؤلف.

أظن أنّ (م. ب) هو (ميشيل أيوب)، وظني هذا يقترب كثيرًا من اليقين، حتى كاد يُصبح يقينًا، وبنيت رأيي هذا على دليلين:

الدليل الأول: أني وجدت مقالاً في النقد الأدبي باسم (ميشيل أيوب) في مجلة "**الهلال**"، عدد ديسمبر من سنة ١٩١٧م عنوانه: "النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج". جدير بالذكر أنّ ميشيل أيوب قد

شرح في هذه المقالة: تاريخ النقد البياني وأسلوبه عند العرب، ونوه في نهاية مقالته هذه أنه سيتكلم عن المقارنة بين طريقة العرب في الانتقاد وطريقة الإفرنج في مقالة تالية، وقد بحثت عن هذه المقالة التالية -قدر استطاعتي- في أعداد مجلة **الهلال** التي صدرت بعد ذلك خلال ثلاثة أعوام، هي ١٩١٨، ١٩١٩، ١٩٢٠م. ولم أجد تكملة لهذه المقالة أو كتابات أخرى باسم ميشيل أيوب، أو م. ب، أو باسم أو رمز يشبه أو يقترب من م. ب أو ميشيل أيوب. كما بحثت خلال هذه الفترة في مجلة "**المقتطف**" التي كانت تصدر مع مجلة "**الهلال**"، ولم أجد ذكرًا لهذه المقالة. وقد يكون كاتب هذه المقالة مقيمًا في فرنسا أو في دولة أخرى غير مصر، وانشغل بأشياء أخرى حالت دون تكملة ما كتبه.

أمّا المقالة- التي بين أيدينا- التي كتبها ميشيل أيوب، فتشبه إلى حد كبير في أسلوبها وطريقة تحليلها ما كتبه كاتبنا (م. ب) في مقالاته الثماني المذكورة في مواضع كثيرة منها ما يأتي:

**أ**- بدأ ميشيل أيوب مقالته عن (النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج) بنفي معرفة العرب للنقد الأدبي الحديث الذي اكتمل في أوربا، ووصفهم بأنهم جهلوا "النقد من حيث هو علم قائم بنفسه مبنيّ على قواعد ثابتة وأصول نظرية دائمة، جهلوه من حيث هو فن أدبي... وقد قصر في الغالب عندهم على الشِّعر يبحثون في نسقه وعروضه ووزنه وقوافيه ولغته ومعانيه وأسلوب صاحبه"(٥). وهذا الكلام تكرار لما جاء في مقالة م. ب الأولى عندما وصف النقد بأنه "علم حديث قد بلغ اليوم

في أوربا أرقى درجات الكمال، على أنه لم يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد تطور مستمر دام قرونًا طويلة، ولم يعرفه العرب في أرقى صوره؛ لأنّ أحوالهم السياسية وانحلال دولتهم لم تمكنهم من مواصلة التقدم في العلوم والفنون ومن جملتها النقد، فإنهم لم يدركوه إلا في أدواره الأولى، إذ كان مقصورًا في الغالب على النقد الكلامي واللغوي"[٦].

**ب**- في تكملة حديث ميشيل أيوب السابق عن عدم معرفة العرب بالنقد الأدبي الحديث من حيث هو علم وفن، إشارة إلى نظرية م. ب النقدية، عندما وصف العرب بأنهم: " جهلوه من حيث هو فن أدبي غرضه فحص المصنّفات العقلية عامة والموضوعات الأدبية خاصة وشرحها وترتيبها والحكم عليها"[٧]. والشرح والترتيب والحكم في هذا الكلام هي عناصر نظرية (م. ب) النقدية التي قدّمها للقرّاء في مقالته الأولى تحت عنوان داخلي هو (أغراض النقد الحديث) عندما قال: "أغراض النقد المشهورة ثلاثة: التشريح والحكم والترتيب"[٨].

جـ- وفي إحدى مقالات م. ب التي نشرها في السنة رقم **٢٦** من سنوات مجلة **الهلال** -التي تبدأ بعدد شهر أكتوبر من كل عام- كاد ميشيل أيوب يفصح عن نفسه ويقول بأنه (م.ب) عندما قال:

"إنّ النقد البياني عند العرب ليس إلا نوعًا من النقد الفيلولوجي الذي كان رائجًا في أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أي أثناء النهضة الأدبية، وسبق لنا أن أوضحنا ماهية هذا الضرب من النقد في العام الماضي"[٩]، أي في السنة رقم **٢٥** من سنوات مجلة "**الهلال**"، ففي

أثناء هذه السنة كتب م. ب مقالته الثالثة في عدد شهر فبراير من سنة ١٩١٧م شارحًا ومفسرًا ماهية النقد الفيلولوجي، ثم قال: "ولا ريب في أنه إذا حصلت في الشرق نهضة علمية مثل التي حدثت في أوربا فإنّ النقد الفيلولوجي يصلح دون سواه لأن يمهّد لنا طريق البحث والتنقيب في آثار العرب"[١٠]، وقد وصف م. ب النقد الفيلولوجي بأنه "يرمي إلى انتقاد الكتب من حيث لغتها وإعرابها وصلتها بالكتب القديمة مما يضطر المنتقد أن يكون ملمًّا بآثار السلف عالمًا باللغة والفقه"[١١]. ووصف أصحاب هذا النوع من النقد بأنهم لم يأتوا "بأفكار جديدة، ولكنهم وسّعوا نطاقه وأسندوا إليه وظيفة البحث والتنقيب في الكتب القديمة... ويكاد النقد عند العرب يكون مقصورًا على ذلك"[١٢].

د- هناك كلمات معيّنة جاءت في مقالات م. ب وتكررت في مقالة ميشيل أيوب، مما يرجّح الطرح القائل بأنّ هذه الكلمات من أسلوب كاتب واحد، فعند قراءة مقالة ميشيل أيوب ومقابلتها بمقالة واحدة من مقالات م. ب وهي المقالة الخامسة -على سبيل المثال- نجد فيهما الكلمات والجمل الآتية: (متين)، و(سها)، و(أس)، و(نسج على منوال)، و(ما عتم).

❖ كلمة (متين): يقول ميشيل أيوب عن العرب: "النقد عندهم لم يُبن على أساس متين"[١٣]. ويقول م. ب: "وقد جمعت الأكاديمية بَين كُتّاب ذلك العصر وأوجدت بينهما صلة متينة"[١٤].

❖ كلمة (سها): يصف ميشيل أيوب أبا منصور الثعالبي بأنه «أسهب في كتابه "**يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**" في إظهار محاسن الشعراء وترويج بضاعتهم إلا أنه سها عنه تمييز صناعة شاعر عن غيره"[١٥]. ويقول م. ب عن الكتاب الذين ينقلون عن القدماء بلا وعي: "فقد سها عن أولئك الكتّاب أنّ الإنسان غير معصوم عن الخطأ»[١٦].

❖ كلمة (أس): يقول ميشيل أيوب عن المشاجرات التي تحدث بين البيانيين: "كان أس النزاع فيما بينهم تباين مذاهبهم واختلاف آرائهم وأهوائهم وأغراضهم"[١٧]. ويقول م. ب عن قواعد النقد في عهد الروائي الفرنسي كورني Corneille: "غير أنّ النقّاد في ذلك الوقت كانوا يعتبرون معرفة القواعد أس كل نجاح"[١٨].

❖ جملة (نسج على منوال): يصف ميشيل أيوب الشعراء العباسيين الذين جدّدوا في الشِّعر بأنهم: "نبذوا الشِّعر الجاهلي لبعده عن عيشتهم، وعدلوا عن النسج على منوال السلف في قرض الشِّعر"[١٩]. ويقول م. ب عن بوالو Boileau: إنه "قد اشترط على كل من أراد اتخاذ الكتابة حرفة أن تتوافر فيه شروط الكاتب الحقيقية... من عبقرية عصماء وعقل مبتدع وذوق سليم وشعور رقيق وعلم بأصول اللغة وقواعدها ومعرفة تامة بالآداب القديمة لتكون لديه بمنزلة مصادر يرجع إليها، وأصول ينسج على منوالها"[٢٠].

❖ كلمة (ما عتم): يقول ميشيل أيوب عن شعراء العصر العباسي الذين ابتكروا طريقة جديدة في الشِّعر تختلف عن طريقة الجاهليين: "إنّ الشِّعر

في عصرهم انتحل الصبغة القومية، وتكيف حسب تكيف الوسط، وهذا ما تقضي به سنة التطور، وما عتموا أن فضلوا أنفسهم على الجاهليين معتمدين في ذلك على مجرد أهوائهم"[٢١]. ووصف م. ب أعضاء المجمع اللغوي في فرنسا بأنهم ألّفوا قاموسًا لغويًّا "جمعوا فيه الكلمات المتداولة بين الطبقة الراقية، أي أنهم نقّحوا اللغة وهذبوها بإهمال الألفاظ الخشنة التي ما عتمت أن تلاشت بالتدريج لقلة استعمالها حتى ماتت"[٢٢].

هـ- هناك قرينة ضعيفة بذاتها، قوية إذا أضيفت لما سبق وهي رجوع كل من م. ب وميشيل أيوب إلى "كتاب **تاريخ آداب اللغة العربية**" لجورجي زيدان في التدليل على بعض الأشياء[٢٣].

الدليل الثاني: الذي بنيت عليه رأيي بأنّ (م. ب) هو ميشيل أيوب، أني وجدت مقالاً في مجلة "**فصول**" المصرية الصادرة في خريف سنة ١٩٩٣م مترجم من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية تحت عنوان "الفولكلور في نهاية الأرب" للنويري تأليف م. ب ميشيل، وترجم هذا المقال (حلمي شعراوي)، وكتب مقدمة له قال فيها: "قدَّم الأستاذ ميشيل هذا البحث عن كتاب (**نهاية الأرب في فنون العرب**) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى عام ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) إلى المؤتمر الدولي للجغرافيا المنعقد بالقاهرة في أبريل سنة ١٩٢٥م بالتعاون بين الجمعية الجغرافية المصرية والمعهد الفرنسي للآثار المصرية"[٢٤].

ومقالات (م. ب) الثماني السالفة الذكر في النقد الأدبي تَنُمُّ عن طغيان الفكر الفرنسي على المؤلف، وواضح من عنوان مقالة ميشيل أيوب

السالفة الذِّكر (النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج) أنّ المؤلف متأثر بالفكر الفرنسي، مما يرجح الطرح القائل بأنّ (م. ب) هو (م. ب ميشيل) هو (ميشيل أيوب).

مما سبق يكاد يتحقق ظني بأنّ (م. ب) هو (ميشيل أيوب)، وقد رمز لاسمه بالحرف الأول (م) من ميشيل وبالحرف الأخير(ب) من أيوب. ولا أرى سببًا لعدم كتابة اسمه على مقالاته النقدية سوى تقليده لبعض كتاب الغرب الذين يُخفون أسماءهم رغبة منهم في إعلاء قدر الموضوع المنشور على مؤلفه.

**ثالثًا- لماذا كتب م. ب هذه المقالات؟**

في رأيي أنّ م. ب كتب هذه المقالات النقدية لأغراض عديدة، منها: رغبته في إطلاع القرَّاء على مناهج النقد الحديثة في أوربا؛ كي نتمكن من نقد تراثنا الأدبي بطريقة علمية حديثة، "وليس يستغني الباحث في آثار الأقدمين عن الاستنارة بالعلوم الحديثة واتخاذ أساليبها"[٢٥]؛ لأننا نجهل النقد الحديث وقواعده أو نتعامى "عنه ونحن في أشد الاحتياج إليه، نحتاج إليه لإخراج الآثار الأدبية والعلمية التي خلفها لنا آباؤنا وخلدت ذكرهم بين الأمم"[٢٦].

ومنها حث النقاد العرب على دراسة تراث الأدب العربي، دون غيرهم من الباحثين، ويرى أنه من العيب علينا أن نترك آثارنا "الأدبية والعلمية التي خلّفها لنا آباؤنا، وخلدت ذكرهم بين الأمم، فلا يليق بنا أن نهملها ونتركها إلى غيرنا ممن لا يتكلمون بلساننا، كأننا غير أحياء،

فنكلفهم فحصها وإبرازها لنا، فهل هنالك ما يمنعنا من اتباع خطة رشيدة في البحث والتمحيص؟"[٢٧].

وهنا يُدرك م. ب الخطر الذي يؤدي إلى ضياع تراثنا الأدبي، وهو جهلنا بطرق النقد الحديث، ويتساءل: "أليس عارًا علينا أن يشتغل المستشرقون في علوم العرب ونحن غافلون عنها؟ إنّ الأجيال القادمة لا تغفر لنا تقصيرنا في إظهار الأسرار المدفونة طي كتب العرب، وسيكون جرمنا مضاعفًا؛ لأنه كلما مرت الأيام زادت صعوبة البحث في تلك الكتب؛ وقد تأتي ساعة لن يتيسر فيها فحصها، فيجب علينا أن نتدارك ذلك الخطر، وليتبصر أولو الألباب ويعملوا على ما فيه من إبراز تلك الكنوز المكنونة، وإظهارها إلى عالم الوجود"[٢٨].

ومنها الاطلاع على تاريخ تطور النقد في بلاد الإفرنج للإفادة منه، "ولكننا قد لا نجني مباشرة من البحث في تاريخ ذلك التطور فائدة محسوسة، تعيننا على درس آدابنا، إلا أنه لا بد لنا من أن نعرف كيف تطور هذا العلم؛ حتى نلمّ به إلمامًا؛ وندرك مراميه البعيدة، ثم نقف على أغراضه الحقيقية، فنحيي في مداركنا ملكة النقد بعد أن كادت تموت بالترك والإهمال، ولاسيما أنّ النقد علم مستحدث لم يطرقه كتابنا بعد، ولم يُعنَ أحد العناية الكافية بنقله عن الإفرنج"[٢٩].

ويطلب م. ب من ناقد الأدب العربي -بعد أن يتسلح بطرق العلم الحديثة- "أن يطرح ما قد رسخ في ذهنه جانبًا من المذاهب القديمة والعقائد الموروثة للسير إلى الأمام بقدم ثابتة وعزيمة لا تكل. فإنّ تلك المذاهب

والعقائد حجر عثرة في سبيل التقدم"[٣٠]؛ لأنّ العلوم الأوربية لم تتقدم "إلا بعد أن استقل علماء أوربا في الرأي عمن سبقوهم، ونهجوا منهجًا جديدًا ليس الغرض منه إلا إظهار الحقيقة كما هي"[٣١].

وهنا يبدو تأثر م. ب بفكر الناقد والفيلسوف الفرنسي ديكارت Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠م) الذي يطلب من الباحث قبل الشروع في موضوع بحثه أن يتجرّد من المعلومات السابقة، ويقوم بتفريغ ذهنه من أيّ معارف أو نظريات أو قضايا مُسَلّم بها؛ لأننا علمنا عن طريق الحواس أشياء، وتوهمنا أنها حقائق ثابتة مع العلم أنها غير ذلك؛ لأنّ الحواس خدّاعة في بعض الأحيان، ويقول ديكارت عن نفسه: "كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء وأوثقها قد اكتسبته من الحواس أو بواسطة الحواس، غير أني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة"[٣٢].

جدير بالذكر أنّ ديكارت يقول في القاعدة الأولى[٣٣] من منهجه: يجب "ألا أقبل شيئًا ما على أنه حق، ما لم أعرف يقينًا أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميّز، بحيث لا يكون لديّ أيّ مجال لوضعه موضع الشك"[٣٤].

ومنها أنه ينبّه إلى ابتغاء إظهار الحق في النقد بالطرق الحديثة، ويطلب من النقّاد العرب فحص هذه الطرق؛ كي نأخذ منها ما يناسبنا، كما يطلب منهم عدم التعصب للقديم لأنه قديم، وعدم التعصب على

الحـديث لأنـه حـديث، ويقـول عـن نفـسه: «لـسنا ممـن يقولـون إن كـل مـستحدث جميـل، ولكننـا نـرى أنـه ينبغـي للعاقـل ألا يقابـل كـل جديـد بالعداء والاستهزاء، بل عليه أن يفحصه بلا أغراض، فإن كان حسنًا قبله وإلا رمى به، فإنّ الإصرار على القديم في كل شيء من دواعـي التقهقـر، وفي جمود العقل وتصلبه موت أكيد»[٣٥].

[٢] نظرية م. ب النقدية

قدَّم م. ب نظرية نقدية أو طريقة في النقد تقوم على عناصر ثلاثـة هـي: التشريح والحكم والترتيب. ويطلب ممن يريد أن ينتقـد أيّ كتـاب في الأدب «أن يبدأ بفهمه ودرسه جيّدًا وتشريحه تشريحًا وافيًا؛ حتى يتيسّر لـه الحكـم عليه، ولا بد مـن مطالعـة الكتـب الكثيرة في الموضـوع نفسه لتقرير مكانـه بينهـا ووضـعه في الـصف الأول أو الثـاني أو الثالـث»[٣٦]. ويـرى أنـه يمكـن تطبيق قواعد هذه النظرية على الأدب العربي، والإفادة منها[٣٧].

ثـم أخـذ يـشرح عناصر نظريتـه النقديـة، وبـدأ بتوضـيح العنـصر الأول قائلاً: «إنّ التشريح الـصحيح في عـرف علمـاء النقـد الحـديث هـو- فـضلاً عـن التفـسير الـسطحي- إيـضاح مركـز الكتـاب المنتقـد في تـاريخ الآداب، وفحصه من حيث القواعد الخاصة بموضوعه، وبيان علاقته بـالزمن الـذي صدر فيه، والصلة بينه وبين الكاتب والوسط الذي عـاش فيـه»[٣٨]. ويـرى م. ب أنّ "أول ما يجب معرفته: حياة الكاتـب، والـزمن الـذي عـاش فيـه، والأمّة أو القبيلة التي ينتمـي إليهـا، والعائلـة الـتي رُبِّـي في أحـضانها، هـل كانت في عسر أو يسر؟"[٣٩].

وهذا الكلام من م. ب يُبين تأثره بالناقد والفيلسوف الفرنسي تين Taine (١٨٢٨-١٨٩٢م) "الذي كان مُنظِّرًا للأدب من العلوم الطبيعية، وكانت نيته أو قصده بصفة عامة أن يجعل الأدب علمًا"(٤٠)، فقد كان أحد أساتذة الفكر في فرنسا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وكان معجبًا بالإنجليز، وشرح أدبهم بدقة وبمنطقية(٤١). وكتب عنهم كتابه الشهير: **تاريخ الأدب الإنجليزي** عام ١٨٦٣م، وضمَّنه عناصر منهجه النقدي الذي يقول بأنّ أيّ عمل أدبي يخضع لعوامل ثلاثة هي: الجنس La race والوسط Le milieu والزمن Le moment. وشرح العامل الأول قائلاً: "ما نطلق عليه الجنس هو هذه الاستعدادات الفطرية والوراثية التي يحملها الإنسان في حياته"(٤٢). ثم قال تين عن الوسط: "يجب أن نضع في الاعتبار الوسط الذي يعيش فيه الإنسان؛ لأنه ليس وحده في العالم، فالطبيعة تحتويه والآخرون يحيطون به"(٤٣). ويبيّن تين أنّ للوسط أثرًا كبيرًا في سلوك الأجناس البشرية؛ لأنّ الاختلاف "الذي يظهر بين الأجناس الألمانية من جانب والأجناس الإغريقية واللاتينية من جانب آخر يحدث بسبب اختلاف المناطق التي أقامت فيها هذه الأجناس، أقام فريق منهم في البلاد الباردة الرطبة، وفي أعماق غابات كئيبة بها مستنقعات، وعلى شواطئ محيط موحش، وهم منعزلون في إحساسات كئيبة أو مقهورة، ويعكفون على إدمان الخمر والإفراط في الطعام والميل إلى الحياة الحربية والضارة. والآخرون على العكس من ذلك، أقاموا في بيئة جميلة المناظر، وعلى شواطئ بحر مضيء وباسم يدفعهم إلى الإبحار

والتجـارة"[٤٤]. وإلى أشـياء أخـرى، مثـل: "تطـور فـن الحـديث وموهبـة الاستماع والابتكار في العلوم والآداب والفنون"[٤٥].

وللوسط والعصر أثر قويّ في فكر م. ب النقدي، "فبعـد الوقـوف علـى حياة الكاتب، ينبغي درس الوسط الذي عاش فيه وتيار الأفكار في زمانه وحالـة العلـوم والفنـون. فإن الكاتـب مهمـا يَقـلْ ويفعـلْ فإنه لا يبتـدع إلا القليـل وإنمـا الأكثـر مـن فعـل عـصره ومعاصـريه؛ فـإنّ كـثيرًا مـن آرائنـا وأفكارنا ليس إلا مقتبسًا مـن غيرنـا، وقـد يحصل هـذا الاقتبـاس بـدون أن نشعر به، فنظن أننا مبتكرون، وإنما نحن مجارون"[٤٦].

وقد تحدّث تين عن الزمن أو العصر أو الأوان Le moment ويرى أنّ له تأثيرًا قويًّا على الإنسان وفكـره ومفاهيمـه، وتختلـف المفـاهيم بـاختلاف الزمن، فقد كان النموذج المثالي للإنسان في العصور الوسطى هو الفـارس والكـاهن، بينمـا كـان نمـوذج رجـل الـبلاط والمتحـدث الجميـل هـو نمـوذج العصر الكلاسيكي[٤٧].

والعنصر الثاني في نظرية م. ب النقدية هـو (الحكـم) الـذي يـأتي نتيجـة طبيعية للتشريح، ويـضع م. ب شـروطًا للناقـد الـذي يقـوم بـالحكم؛ كـي يكون حكمه عادلاً صـادقًا، هـي "أن يطـرح ميولـه الشخـصية جانبًـا، وأن يُحكّـم عقلـه لا هـواه، وأن يتّبـع في نقـده القواعـد والقـوانين الـصحيحة والمبادئ التي وضعها الذوق الـسليم أساسًـا للنقـد"[٤٨]. ويطلـب م. ب مـن الناقد عند حكمه على العمـل الأدبي "أن يـضع نفـسه محـل الكاتـب الـذي ينتقده؛ ليمتحن أخلاقه وميزاته ومواهبه، ويفرض أنه هو... يعيش عيشته

في وسطه وزمانه ومكانه ؛ حتى يعرفه تمام المعرفة ؛ ويحكم عليه حكمًا لا غرض له فيه سوى إظهار الحقيقة"[٤٩] ؛ لأنّ أفضل صفة في الناقد -في رأي م. ب- ألا تكون له رغبة في نوع مخصوص من أنواع الفن ولا طريقة مخصوصة من طرق التأليف، "فلا يجعل ميله إلى الدراما[٥٠] مثلاً وسيلة للحط من قدر الكوميديا، ولا يدع حبه لشكسبير سببًا للتعريض براسين"[٥١].

بقي العنصر الثالث من نظرية م. ب النقدية وهو (الترتيب)، فإنه يأتي نتيجة للعنصر الثاني وهو (الحكم) الذي كان بدوره نتيجة للعنصر الأول وهو (التشريح)، وهذه العناصر منطقية، وهي التي تكون نظريته التي يقبلها العقل. وعرَّف م. ب (الترتيب) بأنه "تعيين المركز الملائم للكِتاب الذي شرحه الناقد وحكم عليه، فقد تقرأ أشعار امرئ القيس وأبي تمّام وابن الفارض، فالأرجح في أنّ الذوق السليم يجعلك تضع امرأ القيس في المقام الأول والطائي في المقام الثاني وابن الفارض في المقام الثالث"[٥٢]. ولكي يكون الترتيب صحيحًا يجب أن تكون هناك مقارنة بين الموضوعات التي نريد ترتيبها، "فمعرفة الشيء لا تكون إلا بالمقارنة، والمقارنة تؤدِّي إلى الترتيب. إنّ معلّقة امرئ القيس جميلة وقصائد أبي تمّام جميلة أيضًا، وكذلك شِعر ابن الفارض، ولكنك قد[٥٣] فضّلت الأول على الثاني والثاني على الثالث، إلا أنّ شِعر أبي تمّام كان يظهر لك أجمل مما هو لو لم يكن هناك شِعر أحسن منه"[٥٤].

لقـد تـأثر م. ب في نظريتـه النقديـة هـذه بثلاثـة نقّـاد: الأول والثـاني فرنسيان همـا (تـين Taine) و(سـانت بيـف Beuve-Sainte)، والثـالـث عربي هو قسطاكي الحمصي.

نجد أثر الناقد الأول: تـين Taine في م. ب واضـحًا جليًّا في العنـصر الأول من نظرية م. ب وهو (التشريح) الذي يقوم على أثر الجنس والوسط والزمن في العمـل الأدبـي، وهنـا قـد جـاء م. ب بمـنهج تـين النقـدي كـاملاً وجعلـه أول عناصـر نظريتـه. وقـد أقـرَّ م. ب بـذلك عنـدما قـال في مقالتـه الثامنـة: «ويجـدر بنـا أن نـشير إلى أنّ قواعـد النقـد الـتي بـسطناها في المقالـة الأولى مبنية على آراء تين Taine»[٥٥].

ورغـم أنّ م. ب قـام بـشرح مـنهج تـين النقـدي وقـدم اعتراضـاته عليـه وانتقاداتـه لـه، إلا أنـه كـان مفتونًـا بهـذا الناقـد الفرنـسي وبمنهجـه النقـدي – مثل بعض النقّاد العرب– والـدليل علـى ذلـك أنـه جعـل مـن مـنهج تـين النقـدي أساسًـا للنظريـة النقديـة الـتي قـدّمها للقـراء علـى صـفحات **مجلـة "الهلال"**، وَنَسَبَ إلى تين الفضل في تقـدّم النقـد الحـديث والارتقـاء بـذوق وثقافـة الأدبـاء في قولـه: «معظـم الفـضل في النقـد الحـديث راجـع إلى هيبوليـت تـين. وقـد كـان يكفـي للناقـد قبـل ذلـك أن يكـون ذا ذوق سـليم وعقل راجـح، ثـم أصبح مـضطرًّا أن يـتلقن العلـوم الطبيعيـة والفلـسفية، وأن يلمّ في الوقت نفسه بالآداب الأجنبية وتاريخها، ويجب أيضًا أن تتوافر فيه جميع الشروط الأخرى من موهبة غريزيـة للنقـد وإرادة شـديدة تنحـاز إلى عقله الراجح دون عواطفه المتقلّبة وأهوائه الخداعة»[٥٦].

والناقد الثاني الذي اعتمد عليه م. ب هو سانت بيف Sainte-Beuve الذي كان رائدًا في تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على الأدب ؛ لأنه درس العقل البشري دراسة التاريخ الطبيعي[٥٧]. وكانت دراسته للأدباء تتكون من شقّين، الشق الأول: دراسة شخصيات الأدباء دراسة تفصيلية ؛ لمعرفة ما يتفرّد به كل منهم، وما يشترك فيه كل أديب مع الآخرين، ومن هذه الدراسة التفصيلية أنه كان يتتبّع الأديب "ويرافقه في منزله وحياته الخاصة... ويتجسس عليه ؛ ليقف على أسراره النفسية وعواطفه وميوله، ويعرف منه الخبيث والطيِّب وعلوّ النفس وانحطاطها وعقله وفكره وأهواءه"[٥٨]، لأنه يؤمن بأنّ لنفس الأديب ومزاجه أثرًا في إنتاجه الأدبي[٥٩]، وهو بهذا كان "أول من جعل النقد الأدبي وسيلة من وسائل علم النفس"[٦٠]. وبعد دراسة وتتبّع حياة الأديب يأتي الشق الآخر من دراسة سانت بيف وهو تصنيف الأدباء في فصائل متجانسة.

وقد تأثّر م. ب بكلام سانت بيف السابق عند توضيحه لمهام النقد وطلبه معرفة حياة الأديب في جميع أطوارها: "هل بَسَمَتْ له الحياة في حداثته، وهل صفا له الدهر أو عبس، وكيف كانت تربيته المنزلية، وأين تلقّى علومه، وعلى مَن، وكيف عاش وكيف أحب وكم تورّع وتخشع، وهل أحب الحياة أو كرهها، وهل ساح في غير بلاده، وما اكتسبه من اختبار وحنكة؟. ثم ينبغي فحص أطواره وأخلاقه وغرائزه، وبنيته: هل كانت صحيحة أو ضئيلة؟، فإنّ لصحة الإنسان تأثيرًا بيّنًا في أخلاقه وكتاباته"[٦١].

جدير بالذكر أنّ الناقد أحمد الشايب في كتابه : "**أصول النقد الأدبي**" عقد فصلاً عن مناهج الأدب تحت عنوان : كيف ندرس الأدب؟ وعدد منها ثلاثة مناهج : التاريخي والشخصي والنقدي، وفي المنهج الشخصي طلب من دارس الأدب- مثل ما طلب سانت بيف و م. ب- "أن يعود الباحث بما يُتاح له من الوسائل إلى الأديب، فيدرس سيرته منذ الطفولة"(٦٢).

أمّا الناقد الثالث الذي تأثر به م. ب في وضع قواعد نظريته النقدية فهو قسطاكي الحمصي الذي سبق م. ب بعشر سنوات، وقدَّم نظرية نقدية مشابهة في أركانها لأركان نظرية م. ب، وهي تقوم أيضًا على ثلاث درجات تُكوّن ما يُسمَّى (بالسُلم النقدي). ولا يستطيع الناقد أن يُعطي حكمًا إلا إذا صعد مرتقيًا على هذا السلم النقدي، يقول قسطاكي الحمصي : «اعلم أنه يتحصل مما أجمع عليه علماء النقد في هذا العصر أنه لا يمكن الوصول إلى سديد النقد إلا بارتقاء درجاته الثلاث وهي : الشرح والتبويب والحكم»(٦٣). ومن ينظر في عناصر نظرية م. ب وهو : التشريح والحكم والترتيب، وعناصر نظرية قسطاكي الحمصي وهي : الشرح والتبويب والحكم، لا يجد فرقًا إلا في ترتيب العنصرين الثاني والثالث، ويتأكد من تطابق النظريتين ومن إفادة م. ب (اللاحق) من فكر قسطاكي الحمصي (السابق). جدير بالذكر أنّ قسطاكي الحمصي قد تأثر هو الآخر مثل م. ب في نظريته النقدية السالفة الذكر بكل من سانت بيف وتين.

لقد اجتهد م. ب في وقت مبكر -أي أثناء عامي ١٩١٦، ١٩١٧م- وحاول صياغة ما قرأه في الفكر النقدي الغربي في ثوب نظرية نقدية قدَّمها للقرَّاء والنقّاد العرب.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

❖ جامعة الزقازيق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

(١) رينيه ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، ط القاهرة، المطبعة السلفية سنة ١٩٣٠م، من مقدمة المترجم ص: س د.

(٢) محرر الهلال: تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب لروحي بك الخالدي، عدد مارس سنة ١٩١٢م، ج٦ السنة ٥، ص٣٧٥.

(٣) قسطاكي الحمصي: منهل الورَّاد في علم الانتقاد، ج٢، ط القاهرة ـ الفجالة، مطبعة الأخبار، سنة ١٩٠٧م، ص٢٣٢.

(٤) انظر: الدكتور محمد حسين هيكل: مذكرات في السياسة المصرية، ط القاهرة، دار المعارف سنة ١٩٧٧م، ج١ ص٦٦.

(٥) ميشيل أيوب: مقال (النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج)، الهلال، عدد ديسمبر سنة ١٩١٧م، ج٣، السنة ٢٦، ص٢٥٦.

(٦) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال، عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ج٣، السنة ٢٥، ص٢٣٠.

(٧) ميشيل أيوب: مقال (النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج)، الهلال، عدد ديسمبر سنة ١٩١٧م، ج٣، السنة ٢٦، ص٢٥٦.

(٨) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ج٣ السنة ٢٥ ص٢٣٤.

(٩) ميشيل أيوب: مقال (النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج)، الهلال، عدد ديسمبر سنة ١٩١٧م، ج٣ السنة ٢٦، ص٢٥٨.

(١٠) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد فبراير سنة ١٩١٧م، ج٥ السنة ٢٥، ص٣٩٨.

(١١) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد يناير سنة ١٩١٧م، ج٤ السنة ٢٥، ص٣١٦.

(١٢) نفسه: ص٣١٦، ٣١٧.

(١٣) ميشيل أيوب: مقال (النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج)، الهلال، عدد ديسمبر سنة ١٩١٧م، ج٣ السنة ٢٦، ص٢٥٧.

(١٤) م. ب: مقال (بحث في النقد – النقد في فرنسا)، الهلال عدد أبريل سنة ١٩١٧م، ج٧ السنة ٢٥، ص٥٥٣.

(١٥) ميشيل أيوب: المقال السابق، ص٢٥٧.

(١٦) م. ب: المقال السابق، ص٥٥٣.

(١٧) ميشيل أيوب : المقال السابق، ص٢٥٧.

(١٨) م. ب: المقال السابق، ص٥٥٣.

(١٩) ميشيل أيوب: المقال السابق، ص٢٥٩.

(٢٠) م. ب: المقال السابق، ص٥٥٥.

(٢١) ميشيل أيوب: المقال السابق، ص٢٥٩.

(٢٢) م. ب: المقال السابق، ص٥٥٣.

(٢٣) انظر: م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ج٣، السنة ٢٥، ص٢٣٢، ومقال (بحث في النقد – النقد في فرنسا)، الهلال عدد مايو سنة ١٩١٧م، ج٨ السنة ٢٥، ص٦٦٤. وانظر: ميشيل أيوب: مقال (النقد عند العرب ومقارنته بالنقد عند الإفرنج)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٧م، ج٣ السنة ٢٦، ص٢٦٢.

(٢٤) م. ب ميشيل: مقال (الفولكلور في نهاية الأرب للنويري)، تقديم وترجمة: حلمي شعراوي، فصول، عدد خريف سنة ١٩٩٣م، ص٢٦٠.

(٢٥) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد يناير سنة ١٩١٧م، ج٤ السنة ٢٥، ص٣١٥.

(٢٦) نفسه: ص٣١٤.

(٢٧) نفسه: ص٣١٤.

(٢٨) نفسه: ص٣١٤.

(٢٩) نفسه: ص٣١٤.

(٣٠) نفسه: ص٣١٥.

(٣١) نفسه: ص٣١٥.

(٣٢) رينيه ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة الدكتور عثمان أمين، ط القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ، ص٧٢، ٧٣.

(٣٣) منهج ديكارت في الشك يقوم على قواعد أربع، القاعدة الأولى: التيقّن من المعلومات قبل صدور الأحكام، والثانية تقسيم المُعضلات إلى أجزاء قدر المستطاع، والثالثة: أن أسيِّرَ أفكاري متدرّجًا وبادئًا بالأسهل ثم الأصعب، والرابعة: عمل إحصائيات ومراجعات شاملة كي لا أغفل شيئًا.

(٣٤) رينيه ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، سبق ذكره، ص٣٠، ٣١.

(٣٥) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد يناير سنة ١٩١٧م، ج٤ السنة ٢٥، ص٣١٥.

(٣٦) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ج٣ السنة ٢ ص٢٣٤.

(٣٧) انظر: م . ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد يناير سنة ١٩١٧م، ج٤ السنة ٢٥، ص٣١٤.

(٣٨) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ج٣ السنة ٢٥ ص٢٣٤.

(٣٩) نفسه: ص٢٣٤، ٢٣٥.

(٤٠) - Lanson, Gustave: Histoire de la littérature française, Paris, Hachette. ١٩٨٢. p. ١٠٤٣.

(٤١) - Encyclopédia universalis, corpus ١٧, Paris ١٩٨٤. p. ٦٤٨.

(٤٢) - Taine, H. A.: Histoire de la littérature anglaise, Paris, Hachette, ١٩١١. P.٢٢.

(٤٣) - Ibid., P. ٢٥.

(٤٤) - Ibid., P. ٢٥.

(٤٥) - Ibid., P. ٢٥.

(٤٦) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ج٣ السنة ٢٥، ص٢٣٥.

(٤٧) - Taine, H. A.: Histoire de la littérature anglaise, P.٢٨, ٢٩.

(٤٨) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦ م، ج٣ السنة ٢٥، ص٢٣٦.

(٤٩) نفسه: ص٢٣٦.

(٥٠) هنا يقصد م. ب بالدراما (التراجيديا)، لأنّ الدراما كلمة لاتينية تعني (الفعل - Action).

(٥١) نفسه: ص٢٣٦.

(٥٢) نفسه: ص٢٣٦.

(٥٣) في رأيي أنّ م. ب يقصد هنا الاحتمال وليس التأكيد.

(٥٤) نفسه: ص٢٣٦.

(٥٥) م. ب: مقال (بحث في النقد - النقد في فرنسا)، الهلال عدد يوليو سنة ١٩١٧م، ج١٠ السنة ٢٥، ص٨٤٠.

(٥٦) نفسه: ص٨٤٤.

(٥٧) - Plinval, G. DE: Histoire de la littérature française, Paris, ١٩٣٠. P. ٢٢٥.

(٥٨) الدكتور أحمد ضيف: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، ط القاهرة، ط أولى مطبعة السفور سنة ١٩٢١م، ص١١٧.

(٥٩) انظر: الدكتور طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط القاهرة، دار المعارف سنة ١٩٧٥ م، ص٤٣.

(٦٠) الدكتور أحمد ضيف: السابق، ص١١٦.

(٦١) م. ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ج٣ السنة ٢٥، ص٢٣٥.

(٦٢) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ط القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١٠ سنة ١٩٩٤م، ص٩٩.

(٦٣) قسطاكي الحمصي: منهل الورَّاد في علم الانتقاد، ج١، ط القاهرة، مطبعة الأخبار بالفجالة سنة ١٩٠٧م، ص١٣٤.

# صلة السلطة بالقبائل في العصور العباسية المتأخرة: البصرة والبحرين أنموذجاً ٣٠٠-٦٥٦ هـ/٩١٣-١٢٥٨م قراءة في المشهد القبلي -١-

بقلم: د. عبداللطيف ناصر الحميدان*

**توطئة:**

بداية من الخطأ النظر إلى انتقال الخلافة من بني أُمية إلى بني العباس على أنه لا يعدو سوى كونه انتقال الخلافة من أسرة عربية إلى أخرى، ومن قطر عربي إلى آخر فحسب. في حين أن الأمر أبعد من ذلك وأعمق. إذ إنه انتقال من فضاء جغرافي إلى آخر، ومن محيط حضاري إلى آخر. وبعبارة أوضح من عوالم البحر المتوسط إلى عوالم المحيط الهندي، وأنّ فرضية المؤرخ الفرنسي Jen Sauvaget، الواسعة الانتشار مع الأسف بين المؤرخين، والتي ترى أنّ تاريخ العالم الإسلامي يقتصر على الأقطار العربية المطلة على البحر المتوسط والمتأثرة بتلك العوالم، في حين تتجاهل عن قصد الأقطار المطلّة على البحر الأحمر والخليج العربي المرتبطة بشكل وثيق بالمحيط الهندي، فأضحت اليوم تلك الفرضية تتعرض لانتقادات

شديدة من قبل المؤرخين[1] . فانتقال مركز الخلافة إلى بغداد أصبح معرضًا لتأثيرات ثقافية وعرقية شديدة ولتيارات قوية من جهات مختلفة. فانفتاح العراق جغرافيًّا على أقاليم إيران وبلاد ما وراء النهر، ثم جزيرة العرب والخليج العربي المتصلة بسواحل الهند وأفريقيا كان ذا أثر كبير على الوضع البشري والثقافي والاقتصادي والسياسي فيه فانتعشت الحركة الثقافية والتجارية ومثل ذلك النشاط الزراعي إلى حد كبير[2].

وغني عن القول بأنّ العباسيين وصلوا إلى السلطة بدعم قوي من الخراسانيين فكان طبيعياً أن يصبح للفرس دور في بناء السلطة الجديدة وأن يكونوا أحد أسس ركائزها. إلا أنّ الخلفاء العباسيين كانوا منذ البداية تساورهم المخاوف من القادة الفرس الذين لعبوا أدواراً مهمة في وصولهم للسلطة. وازدادت مخاوفهم أكثر عندما شعروا بتعاظم نفوذهم، فأخذوا في إبعادهم عن مراكز القرار السياسي، بل ونكّلوا بهم، فكان لذلك آثار بعيدة. كما عمل العباسيون على موازاة ذلك عن طريق الإكثار من غلمان الترك عن طريق الشراء ليكونوا في خدمتهم وحراستهم نظراً لاطمئنانهم لولائهم. لذا لم تمض سوى بضعة عقود حتى غدوا القوة الأساسية في الجيش العباسي مما دعا العباسيين إلى إبعاد العنصر العربي عن الجيش وإسقاطهم من ديوان العطاء[3] فكان قرارًا خطيرًا قوّض الأسس التي قامت عليها دعائم دولة بني العباس من الفرس والعرب، لذا أُبعدوا وابتعدوا عن مراكز القرار. وإذا ما كان الخليفة الأموي أشبه ما

يكون برئيس للقبائل يستمد سلطته من رؤسائها فإن الخليفة العباسي كان قد ادعى أنه يستمد سلطته من رضى الله تعالى فحسب[٤].

على أيّ حال إنّ دراستنا ستتركز حول الصلة بين السلطة في بغداد والقبائل العربية خاصة في تخوم البصرة والبحرين وفضائهما خلال الحقبة العباسية المتأخرة، والتي اتسم معظمها بضعف الخلافة إلى درجة كبيرة، وهيمنة الأمراء الترك والديالمة والسلاجقة الأتراك على مقاليد السلطة في البلاد واستهتارهم بالعباد، والعرب منهم على وجه الخصوص.

**- صلة السلطة بالقبائل في فترة الهيمنة البويهية:**

إنّ انتقال السلطة الحقيقية من الخلفاء العباسين إلى أيدي المماليك الأتراك، ثم إلى أيدي الأمراء البويهيين الديالمة يصلح لأن يكون منطلقًا لدراستنا. إذ رافق ذلك ظهور حركة القرامطة في بلاد البحرين التي نجحت بفضل التفاف قبائل البادية في بلاد البحرين واليمامة الساخطة أساسًا على بني العباس وكون البصرة، وموانئ شمال الخليج أحد أهدافها الرئيسة للحصول على ما هم بأمس الحاجة إليه من غذاء ومؤن.

ومن الملفت للنظر إنّ ثور بن ثور زعيم بني كلاب، أحد أهم قبائل بادية البحرين، كان الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ) قد كلفه بالقضاء على الثورة الإباضية في عمان، والذي أطلق عليه العمانيون اسم بور لقسوته، وعندما نجح في ذلك وسيطر على قسم كبير من بلادهم، انقلب على السلطة العباسية، وانضم إلى القرامطة حين ظهورهم في بلاد

البحرين ليصبح أبرز قادتهم. حيث وصفه ابن حوقل بقوله: إنه صاحب جيشهم وسراياهم في كل مكان(٥). وكان حديثه عنه وقد تجاوز المائة عام من عمره.

على أيّ حال كانت البصرة من أول الأهداف في هجماتهم والتي كان يرافقها النهب والسلب والقتل والترويع والتدمير وقد أوقفت تجارتها التي كانت رائجة في نقاط تحركاتها على طول سواحل الخليج العربي. ثم امتدت هجماتهم لتشمل الكوفة وسَقْي الفرات، وقوافل الحجاج حتى وصلت إلى الحرم المكي أثناء موسم الحج فارتكبوا مجزرة في داخله واقتلعوا الحجر الأسود من الكعبة(٦). فكان عملاً صادماً بقوة لمشاعر المسلمين ولهيبة خليفتهم في بغداد، الذي لم يجد له من سبيل سوى إرضائهم بدفع من الأمراء الترك، فأرسل الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م) بمبعوثه إلى أبي طاهر سليمان القرمطي سنة ٣٢٢هـ، يدعوه إلى الطاعة ليقره على ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك ما شاء من البلدان على أن يكف عن الحجاج جميعاً وأن يردّ الحجر الأسود إلى موضعه بمكة. فوافق أبو طاهر على عدم التعرض للحجاج. وطلب من الخليفة أن يطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة في أعمال هجر(٧).

ويضيف القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي المتوفى في حدود سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م بالقول: "إنّ أبا طاهر طلب من الخليفة مالاً يعطيه ليخدمه ويبذرق الحاج (يخفره) ففعل الراضي ذلك وأعطاه مالاً معلومًا

فقال أبو طاهر: هذا أربح لي آخذ هذا المال وأعطي بعض أصحابي وأعواني وأفوز ببعض"[8]. ثم يصف القاضي حكم الراضي بقوله: "وهو أول من زالت دولة بني العباس على يده، وأُخذت الأموال منه وأجرى له مقدار الكفاية، وزال أمره عن تدبير الجند وعن الولايات. وهو أول من حجر عليه منهم ، في أن يستخدمه في بذرقة الحاج بشيء يعطيه"[9].

أما ابن خلدون فيعلق على ذلك بقوله: إنّ أبا طاهر القرمطي " أخذ المكس من الحاج ولم يعهد بمثله في الإسلام"[10].

ومما تجدر الإشارة إليه الحوار الذي دار بين علي بن مقاتل، أحد رجال الدولة العباسية" وبين أبي طاهر القرمطي. فقد أنكر الأخير ما كان يقوم به ضد الحجاج قائلاً: ما جرى ليس باختياري، وأنّ البوادي كانت تقتات عليه ولا تعطيه، وأنّ السلطان قصّر في أمره، وقد كان ينبغي له أن يعرف مكانه ويعطيه ما يرضي البوادي[11].

وهنا يظهر الدور الفاعل لقبائل البادية في حركة القرامطة، وأثر قطع الأعطيات عنهم في ذلك. كما أنه يظهر دور الخفارة أو الحماية والتي كان معمولاً بها قبل الإسلام في معيشة أهل البوادي . وهو ما سوف نتحدث عن تطوره لاحقاً.

على أيّ حال إنّ دخول البويهيين في المشهد السياسي بعد دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، ووضع السلطة بين أيديهم فلم يغيّروا من الموقف تجاه القرامطة إن لم يكن العكس، فقد سعوا إلى إرضائهم ولم يحاولوا مقاتلتهم. فالمقدسي عندما تحدث عن الضرائب في العراق وصفها

بأنها ثقيلة وكثيرة في النهر والبر وأن للقرامطة ديوانًا على أحد أبواب البصرة والديلم لهم ديوان آخر، وإذا رجع الحاج مكسوا أحمال الأدم والجمال الأعرابية. وكذلك بالكوفة وبغداد(١٢). بل إنّ الخليفة المطيع (٣٣٤ -٣٦٣هـ/٩٤٦-٩٧٤م) عندما حدث خلاف شديد سنة ٣٦٠هـ بين أبناء القرمطي سعى شخصيًّا إلى جمع كلمتهم وتأليف قلوبهم(١٣).

ويصف ابن خلدون مدى امتداد سلطة خلفاء بني العباس فيقول: " لم يبق للخلفاء إلا بغداد ونواحيها وما بين دجلة والفرات، وأمراؤهم مع هذا مستبدين عليهم إلى دولة التقي... لذلك صارت أخبارهم منذ عهد المستكفي مندرجة في أخبار بني بويه والسلاجقة من بعدهم"(١٤). وفي ذلك إشارة إلى خروج السلطة من أيدي بني العباس لمدة جاوزت القرنين من الزمن.

وفي هذا السياق، عندما سار معز الدولة البويهي (٣٣٤-٣٥٦هـ/٩٤٥-٩٦٧م) ومعه الخليفة المطيع لله إلى البصرة لانتزاعها من يد أبي القاسم عبدالله البريدي سنة ٣٣٦هـ(١٥) وسلكوا طريق البريّة، أرسل القرامطة من هجر إلى معز الدولة، ينكرون عليه مسيره إلى البر بغير أمرهم وهي لهم، إلا أنه لم يأبه بتحذيرهم، بل واصل سيره حتى وصل إلى الدريهمية*. فهرب البريدي إلى هجر ملتجئاً بالقرامطة(١٦). وهي إشارة واضحة إلى أنّ القرامطة يعتبرون بوادي البصرة امتدادًا لديرتهم وتخضع لضريبة الحماية أو الخفارة.

ومما تقدم يتضح أنّ البويهيين المنغمسين في صراعاتهم وأطماعهم التي لا تنتهي سعوا منذ البداية إلى إرضاء القرامطة، ثم سعوا أخيراً لإرضاء القبائل المقيمة عند التخوم الغربية للعراق، وعند السواد وكسبهم كحماة في مواجهة القرامطة. فقد تم تخصيص مبالغ مالية لبني أسد سنة ٣٥٠هـ/٩٩١م لقاء محافظتهم على طريق الحج، كما أعطوا لبني شيبان مبالغ مالية أخرى، في الوقت الذي كان أمير الكوفة أحد زعمائهم[١٧]. ويضاف إلى ذلك إقناع بني تميم، الذين كانوا يهددون الأنبار بأن يشاركوا في مقاتلة البريدي المتمرد في البصرة، لقاء مبالغ مالية مجزية[١٨].

ومما يلفت النظر أنّ موقف الأمير صمصام الدولة مرزبان البويهي بن عضد الدولة بن ركن الدولة من القرامطة، كان مخالفًا لمن سبقه كعضد الدولة وبختيار اللذين كانا قد أقطعا القرامطة سَقْي الفرات وبعض نواحي واسط، وسبب ذلك يعود، كما هو واضح، إلى أن زعماء القرامطة في عهده حين ملكوا الكوفة خطبوا لشرف الدولة المنافس له في السلطة، لذا قام بمحاربتهم سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م فقتل منهم جماعة وأسر آخرين[١٩].

ويبدو أنّ الأمير البويهي صمصام الدولة مرزبان قد اتجه إلى القبائل عند تخوم الفرات أو في أطراف نجد لجذبها إلى جانبه وأن يكونوا في مواجهة القرامطة فكُلِّف عليان بن ثمال الخفاجي -زعيم خفاجة- بحماية الكوفة سنة ٣٧٤هـ، وهي أول إمارة لبني ثمال. إلا أنّ ذلك لم يستمر طويلاً بعد وفاة عليان بن ثمال واختلاف أبنائه من بعده.[٢٠] ويبدو أن

الأمير صمصام الدولة كان قد كلف محمد بن المسيب أمير عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بمهمة جذب القبائل المتبدّية حيث نجح في جذب قبيلة المنتفق وفارسها المشهور الأصفر أو الأصيفر كما يفهم من رسالة أوردها القلقشندي وكتبها أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي على لسان الأمير صمصام الدولة، والذي ورد فيها: "أنّ محمد بن المسيب سأل في أمركم ورغبتكم في الخدمة والانحياز في الجملة..."[٢١]. على أنّ تلك الرسالة ذات الطابع الرسمي لا تكشف عمّا دار من محادثات بين المنتفق والأمير محمد ابن المسيب، كما لم يرد فيها ذكر زعيم المنتفق أو ذكر للأصفر أو الأصيفر، وإنما الوقائع التالية تشير إلى ذلك. ففي سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م قام الأصيفر المنتفقي بحشد عدد كبير من العرب وتصدى للقرامطة عندما حاولوا الاقتراب من سواد الكوفة وهزمهم هزيمة قاسية وقتل قائدهم وعددًا كبيرًا منهم كما أسر البعض منهم وفر الباقون إلى بلادهم الأحساء. ولم يكتف الأصفر بهذا النصر بل تعقبهم إلى عُقْر دارهم في الأحساء حيث تحصنوا فيها، فعدل إلى القطيف فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة[٢٢].

ويذكر القاضي عبد الجبار الهمذاني، المعاصر للحدث، أنّ الأصفر العقيلي حاصر القرامطة في الأحساء وقتل من يخرج منهم، فهم إلى هذه الغاية ما تخرج لهم سرية خوفاً من الأصفر[٢٣].

على أنّ المصادر لم تذكر أمورًا مهمة كالمكان الذي انطلق منه الأصفر، والطريق الذي سلكه بقواته نحو الأحساء، و هل هو شيخ للمنتفق أم أحد

أبطالها، وما اسمه الحقيقي بدل من صفته الجسمانية. بل اكتفت فقط بنسبته للمنتفق ولبني عقيل.

على أيّ حال فإنّ النصر الذي حققه المنتفقي العقيلي هي سابقة في تاريخ القرامطة كشفت عن ضعفهم وأدت إلى إضعافهم عندما قُطِع عنهم ما كان يردهم من أعطيات ومؤن من مصادر عديدة، الأمر الذي شجع زعماء كثر في بلاد البحرين للخروج عليهم.

وفي تقديرنا أنّ إضعاف القرامطة قد أدى إلى إضعاف القبائل البدوية التي كانت ركبت موجة القرامطة منذ البداية للحصول على ما يسدّ حاجاتها خصوصًا الغذاء، وبالتالي دفعها إلى الميل إلى الاستقرار والاقتراب من تخوم غرب الفرات إضافة إلى القطيف والأحساء، وعرض خدماتها للسلطة القائمة وللزراع.

على أيّ حال برز الأصفر كبطل شجاع يمكن الاعتماد عليه في المهمات الصعبة فقد ذكر ابن الجوزي في حوادث ذي القعدة عام٣٨٢هـ/٩٩٢م أنّ الأصفر الأعرابي بذل الخدمة في تيسير الحاج صادرين وواردين وأعاد الخطبة للخليفة من حد اليمامة والبحرين إلى الكوفة، فمُنِح خلعةً ولواءً[٢٤]. فالعبارة الأخيرة تفيد بأن الأصيفر أصبح يحمل رتبة أمير وامتيازات عالية بإعطائه إقطاعية، خاصة وأنه قد أعاد للخلافة بعض هيبتها، وللسلطة احترامها، في وقت كانت أحوج ما تكون إلى ذلك خاصة مع ظهور خلافة منافسة لها هي الخلافة الفاطمية بالقاهرة.

والملفت للنظر أنّ السلطة في بغداد لم تكن الوحيدة التي حرصت على إرضاء الأصيفر وجلبه إلى جانبها فحسب، بل حتى السلطة الفاطمية في القاهرة سعت لذلك. فالقاضي عبد الجبار الهمذاني، يذكر أنّ الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ) حين علم بما فعله الأصفر بالقرامطة، أرسل إليه بهدايا كثيرة نفيسة وحمل إليه أموالاً عظيمة ، وسأله أن يرسل من يثق به فأرسل الأصفر ابن أخته إليه، فأكرمه العزيز أتم الإكرام وحمله على سرج من ذهب، وقاد بين يديه الخيول وأعطاه الأموال على أن يدعو خاله للدخول في دعوتهم، مقابل أن يقطعه الخليفة الفاطمي البلدان العظيمة من أرض الشام. فأجابه الأصفر بإجابة تنم عن روح دبلوماسية عندما قال في جوابه: إني لست أجيبك إلى قبول الإقطاع بالشام إلى أن أفرغ من الأحساء وأهلها وأعرفك ما عندي[٢٥]، أي أنه لن يقبل عطاياه إلا بعد أن يكمل مهمته في القضاء على أعدائه القرامطة في الأحساء، وبعد ذلك لكل حادث حديث.

ومن الجدير بالذكر أنّ ابن خلدون قد اختلط عليه الأمر فلم يفرق بين الأصفر المنتفقي العقيلي، وبين من يحمل الصفة نفسها الذي ظهر في الفترة نفسها في ديار ربيعة ونسب إلى تغلب وقيل الثعلبي والصحيح التغلبي. والغريب أن ابن خلدون بنى على ذلك تصورات خاطئة وقعت في بلاد البحرين[٢٦]. ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ فهد الدامغ قد سبق إلى التنبيه إلى هذا الخطأ[٢٧].

علـى أيّ حـال إنّ وقـائع عـام ٣٨٤هـ/٩٩٤م تـشير إلى أنّ الـسلطة في بغداد لم تـف بوعـدها ولم تـستمر بـدفع المـال للأصـفر بانتظـام لقـاء قيامه بالخفارة، بـل خدعتـه أحيانـاً ودفعـت لـه نقـودًا مزيفـة، كما أنّ وقـائع عـام ٣٩٤هـ تـشير إلى أنهـا لم تـدفع لـه أيـة مبـالغ[٢٨]. ويبـدو أنّ الأمـير بـدر بـن حاكم شهرزور الكردي حاول تلافي ذلك خشية على الحاج فقـام بـالتطوع بدفع ستة آلاف دينار سنوياً للأصـفر عوضـاً عمـا كـان يجبـي مـن الحجـاج ابتداء من عام ٣٨٦هـ، ثم زاد المبلغ، كما يقول مسكويه، إلى تسعة آلاف دينار واستمر على ذلك حتى عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م[٢٩].

اختفى ذكر الأصفر ذي الكاريزما من المشهد السياسي قبيـل وفاتـه عـام ٤١٠هـ/١٠١٩-١٠٢٠م بعدة أعوام. فقد ذكر ابن الجـوزي خـبر وفاتـه في تلك السنة وعلق على ذلك بقوله: "كـان يخفـر الحـاج وأنـه انقطـع الحـج في ذلـك العـام والـذي تـلاه"[٣٠]. في حـين أن ابـن الأثـير ذكـر وفاتـه في ذلـك العام، إلا أنه قال: كان يؤذي الحـاج في طـريقهم، ثـم أضـاف قـائلاً: "إنّ الحج انقطع في عام عشرة وإحدى عشرة"[٣١].

وفي تقديري أنّ المنتفق ربما انتقلـوا عنـد مطلـع القـرن الخـامس الـهجـري من مواضعهم على طريـق حـج الكوفـة نحـو الجنـوب في أطـراف نجـد علـى طريق حج البصرة، كما انتقل قسم منهم نحو تخوم البـصرة، ولعـل قيـام قبيلة خفاجة بالتعرض للحـاج عـام ٤٠٢هـ وتـصدّي بـني أسـد لـهـم دليـل على ما قلناه.

ويتضح مما سبق أنّ أمن طرق القوافل، وخاصة طرق الحج بالغ الأهمية للسلطة القائمة، وأن ارتفاع مكانة قبيلة المنتفق وشهرة قائدها الأصيفر كان قد ارتبط بحمايته أو خفارته للحجيج، كما أنّ بداية ارتفاع شأن بني أسد كان متزامنًا مع تلك الفترة حيث تصدوا لقبيلة خفاجة عندما تعرضوا للحجاج كما أشرنا.

لقد انتبه ابن خلدون إلى ذلك حينما قال إن سبب ملك علي بن مزيد الأسدي وملك قومه وارتفاع ذكرهم بعد سنة ٤٠٠هـ يعود لتصديهم لخفاجة التي كانت تتعرض لقوافل الحج[٣٢]. وبعبارة أخرى فإن قيام الإمارة المزيدية الحدودية يعود في الأساس لقيامها بحماية سَقْي الكوفة والقوافل من تعديات القبائل. ويمكن أن يقال الكلام نفسه بخصوص المنتفق سواء بزعامة أسرة العقيلي أو بني معروف، إضافة إلى ما قامت به خفاجة وعبادة وبنو عامر من أدوار بهذا الخصوص. ومن الجدير بالإشارة أن امتداد نهر الفرات من أعاليه في بلاد الشام حتى مصبه، مع نهر دجلة، في الخليج العربي كان الشاهد الدائم على قيام إمارات حدودية منذ ما قبل الإسلام حتى أواخر الدولة العثمانية، ويطول إيراد الأمثلة على ذلك[٣٣].

ولعلنا نذكر سببين لظهور الإمارات الحدودية أولاً: عجز السلطة عن حماية حدودها من قبائل البادية. وثانيًا: محاولة السلطة تقليص أعبائها المالية فبدلاً من الإنفاق على قوة دائمة ترابط لحماية حدودها، لجأت بدلاً من ذلك إلى إعطاء زعماء القبائل الهبات المالية ومنحهم الرتب

والامتيازات ليتولوا تلك المسئولية بدلاً من قوات السلطة، الأمر الذي تولد عنه نتائج سياسية اقتصادية واجتماعية. فاستقرار القبائل عند تلك الحدود ينشأ عنه، مع الزمن، تغير في دور وعلاقة مشيخة القبيلة بأفرادها المتوافقة مع التقاليد القبلية فيتحول أفرادها إلى تابعين وفق الأسس الإقطاعية ويصبحون فلاحين ومزارعين مستقرين ويفقدون قابليتهم للابتعاد عن زعمائهم. كما أنّ استقرار بيت المشيخة نفسه يؤدي بأفراده إلى الاندماج مع أجهزة السلطة مما يجعلهم تابعين لتلك السلطة، مما يتيح لهم الانغماس في النزاعات التي تنشأ بين حين وآخر بين الحكام أنفسهم، خاصة اذا ما قامت مصاهرات بين الطرفين.

خلاصة الأمر أنّ نظام الحماية وما يتولد عنه من امتيازات مادية وألقاب ورتب إدارية يؤدي إلى تكوين ما أطلق عليه لاتيمور lattimore بإقطاع الحدود frontier feudallism أو ما عبر عنه بأمراء حدود البادية Lords of desert border[٣٤] وهو كيان يتمتع، بدرجة أو بأخرى، بالاستقلال السياسي والاقتصادي والإداري[٣٥].

## صلة السلطة بالقبائل خلال الهيمنة السلجوقية:

غني عن القول إنّ دخول السلاجقه الأتراك إلى بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وانتزاعهم السلطة ووضعها في أيديهم تمثل إحدى المراحل المفصلية ليس في تاريخ العراق فحسب بل وتاريخ المشرق

العربي.....لذا يقتضي الوقوف عندها والتأمل فيها بما له صلة بعلاقة السلطة بالقبائل خصوصًا في فضاء البصرة والبحرين .

فتجدر الإشارة إلى حدوث تغير سياسي في بلاد البحرين عند بداية هذه التحولات في المشهد السياسي. فقد قامت الثورات في بلاد البحرين ضد القرامطة واستنجد قادتها بسلطان السلاجقة ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) الذي سرعان ما استجاب لذلك وكان يهدف إلى إخضاع تلك البلاد لسيطرته، إلا أنه سرعان ما أدرك عبدالله بن علي العيوني أقوى زعماء الثورة في البحرين غايتهم فتعامل معهم بحذر شديد بحيث لم يمكنهم من انتزاع ثمرة جهوده والغدر به وبثورته، مما اضطرهم أخيراً إلى الانسحاب من بلاده، يجرون أذيال الخيبة والخذلان[٣٦].

لم يكن مصدر الخطر الذي واجهته ثورة العيوني الوليدة من السلاجقة وحدهم فحسب، بل ومن بني عامر أيضًا وهم حلفاء القرامطة الذين كانوا قد اعتادوا إرضاءهم بالعطايا والعوائد السنوية، إلا أنهم الآن خسروا معركتهم مع العيونيين وقُطِع عنهم ما كانوا يحصلون عليه من القرامطة[٣٧]، فضاق عليهم العيش ولم يجدوا لهم مصدرًا للرزق سوى البصرة فهاجموها في جمادى الأولى عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م، بقوة قوامها عشرة آلاف مقاتل فنهبوها وأحرقوا بعض المواضع الهامة فيها ودمروها. ويشير ابن الأثير لذلك فيقول: "إنّ جملة ما أحرقوه داريْن للكتب بها نفائس الكتب وأعيانها، وخربوا وقوف البصرة التي لم يكن لها نظير. وأنّ فِعْل العرب في البصرة كان أول خرق جرى في أيام السلطان

ملكشاه"[٣٨]. ويعني ابن الأثير بذلك أنه أول تحدٍ للسلاجقة من قبل القبائل العربية.

كما أنه دليل على أنّ بني عامر قد غدوا بعد ذلك سادة البادية ما بين البصرة والبحرين، وهذا ما أشار إليه الشريف الإدريسي حين قال: "ويتصل بالقطيف إلى ناحية البصرة بَرٌّ متصلٌ لا عمارة فيه، أي ليس فيه حصن ولا مدينة، وإنما أخصاص لقوم من العرب يسمون عامر بن ربيعة"[٣٩].

وفي هذا السياق نجد أنّ نفوذ بني مزيد قد برز واتسع عند سواد الكوفة ولعل قيام منصور بن مزيد الأسدي ببناء مدينة له غرب الفرات عرفت بحلة بني أسد سنة٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م مؤشراً على قيام إمارتهم الحدودية الإقطاعية، وإقصاء قبيلة خفاجة من المنطقة بعد تعرضها للتشرذم والضعف. ولقد ارتفعت مكانة بني مزيد في عهد صدقة بن منصور الذي حمل لقب "ملك العرب" وطمح في توسيع دائرة نفوذ إقطاعه خصوصًا بعد وقوفه إلى جانب السلطان محمد بن ملكشاه الثاني(٤٩٨- ٥١٢هـ) في صراعه ضد أخيه بركيارق، حيث أقنعه بإعطائه البصرة إقطاعية له وليحميها من قبائل المنطقة. فانحدر إليها سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٦م وانتزعها بالقوة من مقطعها إسماعيل بن أرسلانجق، ونهب محالّها بحيث لم يبق منها إلا المحلة المجاورة لقبر الصحابي طلحة بن عبيدالله ﷺ والمربد[٤٠].

لقد أثار ما قام به صدقة الأسدي قبائل البصرة وخصوصًا المنتفق، لذا قامت بعد ستة أشهر من ذلك ومعها ربيعة، بالهجوم على مدينة البصرة

ودخولها بالقوة وأسروا وكيل صدقة فيها وأقاموا أشهرًا فيها ينهبونها، ولم يفارقوها إلا بعد أن علموا بإرسال صدقة قوة كبيرة ضدهم(٤١).

على أنّ طموح صدقة الواسع وقوته أثارت، دون شك، مخاوف السلطان محمد السلجوقي فأخذ يسعى لتحجيمه بل والتخلص منه نهائيًّا. لذا نجده يرحب بقبيلة عبادة القوية التي نزحت حديثاً من أطراف نجد واقتربت من تخوم الفرات في حدود عام ٤٩٩هـ/١١٠٦م(٤٢).

كما قام الخليفة نفسه بقيادة قوة كبيرة ضد صدقة، ضمت الحاسدين والطامحين في الممتلكات الواسعة لبني أسد. فالتقوا بصدقة في معركة سنة ٥٠١هـ/١١٠٧-١١٠٨م انتهت بمقتله(٤٣). كانت هذه الهزيمة ضربة شديدة لبني أسد حيث توالت بعدها الضربات. فقد قام الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ) بنفسه بقيادة قوة ضد دُبَيس بن صدقة أواخر عام ٥١٦ هـ/ ١١٢٣م انتهت بتقهقره إلى البادية ولجوئه إلى قبيلة غزية من عرب نجد المقيمة في طريق مكة، وطلب دعمها ومساعدتها إلا أنها اعتذرت عن ذلك، فيمّم وجهه نحو قبيلة المنتفق فآووه وآزروه، ولعل المنتفق عبروا بذلك عن سخطهم على العباسيين لتجاهلهم لهم وإهمالهم وعدم إرضائهم.

على أيّ حال، قصد الجميع مدينة البصرة في ربيع الأول سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م وكبسوا مشهدي طلحة والزبير، ونهبوا ما كان هناك من أموال وقتلوا خلقًا كثيرًا. وهرب الجميع من البصرة حين علموا بإرسال الخليفة قوة ضدهم(٤٤).

ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون يأتي بروايتين الأولى وهي ما ذكرناها أعلاه، والثانية أنّ دبيس سار إلى المشقر من البحرين فأجابوه وسار بهم إلى البصرة فنهبوها[٤٥]. من دون أن يذكر من الذين استجابوا له في البحرين، فلعلهم بنو عامر.

على أيّ حال انتهت حياة دبيس بالقتل مثلما انتهت حياة والده صدقة على يد السلطان مسعود السلجوقي سنة٥٢٩هـ/١١٣٥م[٤٦]. بعد أن استنفدت الحاجة إليهم، وأصبحت الحلة وسواد الكوفة إقطاعًا لمماليك الخليفة، وكُلِّفت قبيلة خفاجة بحماية طريق الحج لقاء أعطيات وعوائد سنوية، إلا أنها قُطعت عنهم سنة٥٥٦هـ/١١٦١م، فثاروا ونهبوا السواد وقتلوا معظم العساكر التي أُرسلت ضدهم ودخلوا الصحراء متجهين إلى البصرة، إلى أن صدر العفو عنهم أخيرًا[٤٧].

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

❖ أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

(١) جان أوبان: **هل انقطعت التجارة البحرية بين الخليج والهند مابين القرن ١١والقرن١٤.**

Jean Aubin: Ya-t- il eu interruption du commerce par mer entre le Golfe Persique et l'Inde du Xle au XlVe siècle.

(٢) عبد العزيز الدوري، **العصر العباسي الأول** (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت٢٠٠٦)، ٥١-٥٨.

(٣) الكندي، **الولاة والقضاء** (ليدن، ١٩١٢) ١٩٣٠-٩٤: الدوري المرجع السابق، ٢٣١-٢٣٣.

(٤) الدوري. المرجع السابق ٥٤.

(٥) ابـــن حوقـــل، **صـــورة الأرض** (دار مكتبـــة الحيـــاة، بـــيروت ١٩٧٩م) ٣٤٠ **والاصـطخري، المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر الحيني، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ٢٧.

(٦) أبو بكر محمد الصولي، **أخبار الراضي بالله والمتقي بالله**، تحقيق: ج. هيورث. دن، دار المسيرة، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، في صفحات عديدة: ابن حوقل المصدر السابق ٢٥٨-٥٩، مجموعة مؤلفين: **أخبار القرامطة في الأحساء، والشام والعراق** جمع وتحقيق سهيل زكار، دار حسان، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٧) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مراجعة محمد الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٠م، ج٥٣/٧.

(٨) ابن الأثير. المصدر السابق، ١٠٥/٧.

(٩) **أخبار القرامطة في الأحساء**، ١٦٦.

(١٠) المصدر نفسه، ١٦٧.

(١١) **تاريخ ابن خلدون**، ج٩٩/٤.

(١٢) **أخبار القرامطة في الأحساء**، جمع وتحقيق سهيل زكار، مصدر سابق ١٦٧.

(١٣) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق دي غويه (ليدن ١٩٠٦م) أعادت نشره مكتبة خياط، بيروت (ب ت)، ١٣٣-١٣٤.

(١٤) ابن حوقل، مصدر سابق، ٣٤.

(١٥) **تاريخ ابن خلدون**، ٤١٥/٣.

(١٦) حول البريدي راجع: الصولي، **أخبار الراضي بالله** في صفحات عديدة.

❖الدريهمية: آبار مياه عذبة جنوب غربي البصرة بحوالي ٥ أميال.

(١٧) ابن الأثير، مصدر سابق ٢٢١/٧ ابن خلدون مصدر سابق ٤١٨/٣.

(١٨) الصولي: **ما لم ينشر من أوراق الصولي**، تحقيق هلال ناجي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٤٤-٥٦، ١٠٤، ١٣٠، ١٤٠-١٥٥، الصولي.

قطعة نادرة من كتاب **الأوراق** تحقيق هلال ناجي، بغداد، ١٩٩٠م، ٢١٢/٢ ؛ ابن الجوزي، **المنتظم في أخبار الأمم** ٣١٠/١٤ .

يقول ابن سعيد الأندلسي المغربي: "بنو أسد احتوى على بلادهم بنو عقيل". **نشوة الطرب في جاهلية العرب**" تحقيق نصرت عبد الرحمن (عمان ١٩٨٢م) ج ٣٨٨/١.

يقول ابن سعيد حول بني تميم كانوا بأرض نجد حدها دائرة على ما والَى أرض البصرة وأرض اليمامة، وامتدت إلى العذيب من أرض الكوفة. وليس لها الآن بهذه الأرض قائمة ولا بطن مشهور. وقد غلبت على أرضها قبائل قيس عيلان وقبائل طيء وتفرقت تميم في حواضر البلاد وقراها. فلا يوجد منها قبيلة في شرق ولا غرب جارية على ما هي عليه قبائل العرب من الحل والترحال بعدما كانوا كما قال أوس ابن مَغْراء:

لا تطلعُ الشمسُ إلا عندَ أوَّلِنا وليس تَغْرُبُ إلا عندَ آخرِنا

**نشوة الطرب** جـ٤١٥/١.

(١٩) الصولي، **أخبار الراضي بالله**، ١٤٨.

(٢٠) سهيل زكار، مصدر سابق، ٣٨٨-٨٩: ابن الجوزي **المنتظم**، ٣١٠/١٤.

(٢١) ابن الأثير، المصدر السابق، ٤١٨/٧.

(٢٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، القاهرة، جـ٣٣٧/٣ نص الرسالة في الملحق.

(٢٣) ابن الأثير، **الكامل**، ٤٤٨/٧، ٣١/٨.

(٢٤) سهيل زكار، المصدر السابق، ١٩١.

(٢٥) **المنتظم**، ٣٦٣/١٣.

(٢٦) **تاريخ ابن خلدون**، ١٠٠/٤.

(٢٧) راجع: أثر القوى القبلية في سقوط القرامطة **مجلة الخليج للتاريخ والآثار**، الرياض العدد٢٧، سنة ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص١٠٧-١٧٨ خصوصًا الصفحات ١١٧، ١٣٢.

(٢٨) ابن الأثير، المصدر السابق، ٣١/٨.

(٢٩) **تجارب الأمم** مع الذيل والملحق، تحقيق أبو القاسم الإمامي، طهران، ٢٠٠٠م، ٣٣٩/٧.

(٣٠) **المنتظم**، المصدر السابق، جـ١٥/١٣٤، ١٤٥.

(٣١) **الكامل**، ٢٨/٨، ١٢٧-١٣٥.

(٣٢) حول تعرض خفاجة لقافلة الحج سنة ٤٠٢هـ، راجع **ابن الأثير** ٧٣/٨، **ابن خلدون** ١٠٠/٤

(٣٣) مثال على ذلك إمارة الحيرة، ثم إمارة بني مزيد والمنتفق وخفاجة وعبادة وشمر وآل فضل الطائية والموالي وأبو ريشة وإمارة عنزة. أمّا بلاد البحرين لعل بني عامر والعيونيين والجبور وأخيرًا بني خالد.

(٣٤) Stephen L patner,Lords of Desert Border

(٣٥) Lattimore Owen

(٣٦) مؤلف مجهول، **شرح ديوان المقرب**، تحقيق عبد الخالق عبد الجليل الجنبي، (دار المحجة البيضاء، بيروت، ط٢، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) جـ٤/١١٤، ٢٢٢.

عبد الرحمن المديرس، **الدولة العيونية في البحرين**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٢٢هـ، ٨٣-١٠٠. عبد اللطيف الناصر الحميدان، إمارة العصفوريين.... **مجلة كلية الآداب**، جامعة البصرة، العدد ١٥ لسنة ١٩٧٩م، ص٨١،٨٠.

(٣٧) المديرس، المرجع السابق

(٣٨) **الكامل**، ٤٦٤/٨-٦٥.

(٣٩) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ج٣٦٨/١.

(٤٠) أبو البقاء الحلي، **المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية**، تحقيق: صالح موسى درا دكة وزميله، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان ١٩٨٤م، جـ٤٩٥/٢-٩٩: ابن الأثير، **الكامل**، ٩٠/٩-٩١ **ابن خلدون**، ٢٨٣/٤.

(٤١) **الكامل**، ٩٥/٩: ابن خلدون، مصدر سابق ٢٨٣/٤.

(٤٢) ابن الأثير، مصدر سابق، ٨٩/٩-٩٠.

(٤٣) المصدر نفسه ٩/١١٣-١١٩ : ابن خلدون ٤/٨٢٥-٢٦.

(٤٤) ابن الجوزي، **المنتظم** جـ١٧-١٨/٢٠٧-٢٢٠ : ابن الأثير، ٩/٢١٩-٢٢١ : سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، تحقيق: مسفر الغامدي، مركز التراث الإسلامي مكة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، جـ٢/٧٦٩.

(٤٥) ابن خلدون، ٣/٤٩٤-٤٩٥، ٢٨٨-٢٨٩.

(٤٦) ابن الأثير ٩/٢٨٥.

(٤٧) ابن الأثير ٩/٤٥١.

# القارئ وإنتاج المعنى في مصطلح "حسن التعليل" البلاغي

بقلم: د. ابتسام محفوظ محمود أبو محفوظ*

## المقدمة

تنطلق نظرية القراءة من أن إنتاج المعنى مرتبط بالتفاعل بين النص وقارئه حيث تدفعه إلى إعادة إنتاجه عندما يسمح له النص أن يأخذ ملكاته الخاصة بعين الاعتبار، وانطلاقًا من هذه النظرية جاءت فكرة البحث في قراءة مصطلح "حسن التعليل" للخروج به من الفكرة التي ترسم له دورًا زخرفيًّا، يتمظهر في تناول المصطلح البديعي ودراسته في النصوص دون ربطها بالدور البنائي له، مما يدعونا إلى استبعاد تلك الفكرة(1) لأنها تدخل في صلب بناء الكلام ذاته، إذ الأمر لا يعني وجود الظاهرة البديعية فحسب بل هو ما تتركه من أثر في إنتاج الدلالة وبناء المعنى على نحو جمالي خاص.

ولعلنا نقرأ "حسن التعليل" وأمثلته المختلفة في المتون البلاغية المختلفة وفق نظرية القراءة عند فولفانغ إيزر في كتابه "**فعل القراءة**" التي تعنى بإشراك القارئ الضمني (الفعلي أو المتخيل) في الخطاب حيث كان حاضرًا في بنيته النصية بشكل مضمر أو ظاهر يقوم بعملية التلقي

والتفسير، كما تبين حضوره إلى جانب منشئ النص في تلك البنية، فكلاهما يشتركان في لعبة الخيال ؛ مما يحرر النص البلاغي القديم من إسار القراءة الواحدة، وتنطلق به إلى قراءات جديدة على مستوى التأويل، ملتفتة إلى دور هذا المصطلح في إنتاج الدلالة من خلال ما يتيحه من مفارقات كلامية قادرة على تحقيق انزياح يساهم في بناء المعنى الذي يتكون من وجهة النظر الجوالة في كونها تسمح للقارئ بالانتقال من منظور إلى آخر لتشكيل شبكة الروابط التي تولد نشاطًا تأويليًا منجزة التحقق القرائي، ومستفيدة من مفهوم " اللاتحديد" أو "الصورة الذهنية" أو "الفراغات" التي يتركها النص لقارئه فينجز إعادة التركيب، ليحقق النص وظيفة مزدوجة تجمع بين الجمالية والتواصلية.

**أولًا- القارئ الضمني:**

أفادت الدراسة من نظرية القراءة عند فولفانغ إيزر في كتابه "**فعل القراءة**" التي نظرت إلى أنّ النص له قطبان: قطب فني يشكل نص المؤلف وآخر جمالي يتمثل في التحقق الذي ينجزه القارئ، وعملية القراءة تنتج من التفاعل بين هذين القطبين، حيث يفترض القطب الفني أن يكون للنص بنية معقدة تمتلك تأثيرًا على القارئ لتدفعه إلى "توضيح المعاني الكامنة في النص وينبغي ألا يقتصر على معنى واحد فقط"(٢) موجهة القارئ إلى التأويل من أجل الوصول إلى تحليل التأثير الجمالي للنص ؛ وهو من الأمور التي لا يمكن وضع تعريف ثابت له، لذاتيته وعدم خضوعه للمراقبة واختلافه من قارئ إلى آخر، واختلاف زمن القراءة

نفسها مما يجعل إمكانية المعنى الواحد أمرًا غير ممكن لتكون النتيجة تعدد عمليات إنتاج المعنى واتخاذه أشكالاً عدة يتمظهر فيها عند القارئ ؛ لأنّ كل قارئ سيعيد خلق العمل بطريقته الخاصة، والناتج هو إبداع آخر للنص لا يطابق النص الأصلي ولا القارئ، وهذه العلاقة التفاعلية بين النص والقارئ هي التي تصنع النص الذي هو "امتداد ضروري خارج بنيته، والقارئ أيضًا أثناء القراءة يكون متجاوزًا لذاته. وفي هذه النقطة الموجودة خارج الحقلين معًا يوجد الأثر الأدبي. إنها نقطة التفاعل التي تصنع النص من جديد، كما أنها تخلق بالنسبة للقارئ وهم شخصية جديدة تجاوز كينونته السابقة"[٣]، لتتبلور هذه العلاقة التفاعلية بينهما إجرائيًا عند إيزر بالقارئ الضمني.

يجسد القارئ الضمني "كل الاستعدادات المسبقة الضرورية للعمل الأدبي لكي يمارس تأثيره"[٤]، وهو " بنية نصية تتوقع حضور متلق دون أن تحدده بالضرورة...وهكذا يعين مفهوم القارئ الضمني شبكة من البنيات التي تستدعي تجاوبًا يلزم القارئ فهم النص"[٥]، وهذا يعني أنه جزء من بنية النص يبرز من خلال الدور المسند إليه من النص الذي يحدث وجهة نظر "يستطيع القارئ أن ينظر منها إلى الأشياء التي لم يكن بالإمكان أن تبرز طالما كانت استعداداته الخاصة المألوفة تحدد توجهه"[٦]، ومن هنا يُبنين دور القارئ الضمني بواسطة ثلاثة مكونات هي :

- المنظورات المختلفة الممثلة في النص.
- زاوية النظر، التي انطلاقًا منها يربط القارئ بين هذه المنظورات.

- المكان الذي تتجمع فيه.

هذه النقاط مجتمعة تبين دوره بوصفه بنية نصية يفترض فيها أن تثير أفعالاً مبنينة لديه؛ فدوره في البنية النصية يبدأ بالتأثير عليه نفسه حيث تدفعه إلى تكوين صورة ذهنية تتغير باستمرار أثناء عملية القراءة "حيث تصبح زاوية نظر القارئ ومتلقي المنظورات متداخلين خلال العملية التصورية وبالتالي يعملان حتمًا على جذب القارئ إلى داخل عالم النص"[٧] وإثارته من خلال إشارات وعلامات مضمرة حينًا وظاهرة في أحيان أخر لكنهما تظهران حضور القارئ.

وفي مصطلح "حسن التعليل" البلاغي هناك نوع من الحوار الخفي بين النص وقارئه حيث يستخدم النص "عددًا معينًا من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل"[٨] يتوجَه بها إلى القارئ ليدرك العلة الطريفة التي تتوارى خلف صفة ما وكيف تنبني عليها الصورة المخيلة[٩] التي تترك أثرها في المتلقي بصورة لا يمكن فيها الفصل بين النص وأثره، أو الفصل بين التخيّل الخاص بالنص الشعري وما فيه من مظاهر الشعرية والتخييل الخاص بالأثر الذي يتركه النص في المتلقي من خلال العلة المخترعة والمتخيلة.

وفي الخروج عن المألوف والعرف العام وتجاوزه إلى ما ليس له إلف خصوصية شعرية يستنطقها القارئ في الربط بين عناصر المعنى والانزياح به نحو المبالغة حينًا والغرابة حينًا آخر، وقد التفت عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ هذه العلة تجعل المعنى يتمظهر بأسلوب خاص يميل به إلى ذلك

الشكل من الانزياح، وذلك "أن يدعي في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور"(١٠)، ويضرب لذلك مثلاً (من البسيط):

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته     لما رأيت عليها عقد منتطق

يعلق عليه عبد القاهر بالقول إنه أريد به "التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب"(١١)، لتقوده إلى الغموض وتعقد العلاقات، وتدفع به إلى الانتقال من مستوى معيّن في القراءة إلى مستويات أخر، وبالتالي إحداث تأثير قصدي في المتلقي يقابله المتلقي بالاستجابة والتأثر؛ فالإتيان بعلة تمتاز بالغرابة والطرافة والغموض تحدث مفارقة دلالية بين ما هو متوقع وما يؤتى به، لأن "الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع... والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد"(١٢)، فقد اجتمعت الطرافة والعجب والغرابة معًا لتقود إلى معنى جديد يقوم على غير المتوقع في الجمع بين الوصف وعلته اللذين لا يجتمعان في الحقيقة، فتكون له تلك القوة المخيلة المؤثرة على القارئ، فقد عدل الشاعر عن العلة المتوقعة المألوفة إلى أخرى، "والشيء إذا ظهر من مكان لم يُعْهد ظهوره منه، وخرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صبابة النفوس به أكثر وكان بالشغف منها أجدر"(١٣)، وما يقوي موقع التخييل من النفس ويحسنه "أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجيب فيقوى بذلك تأثر النفس لمقتضى الكلام، والتعجيب يكون

باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي إلى مثلها. فورودها مستندر مستطرف لذلك: كالتهدي إلى ما يقل التهدي إليه من سبب للشيء تخفى سببيته أو غاية له... وغير ذلك من الوجوه التي من شأن النفس أن تستغربها"(١٤).

ولعل مفردات مثل الغرابة والغموض والطرافة تحمل معنى الانزياح الدلالي الذي يشكل الشعرية، لأنها تقع في منطقة النفي التي يغيب عنها المعنى بسبب ما تتضمنه من مفارقة لما يتوقعه القارئ وتقتضي فعلاً قرائيًّا محاورًا يقارب المعنى احتمالاً(١٥).

وههنا حديث عن الأثر الذي يتركه هذا المصطلح في نفس القارئ بشكل يقوم على المبالغة وما تحققه من انزياح، حيث يشتغل الفكر لتحديده ومكانه، ويدفعه إلى أن يقود المعنى باتجاه معيّن، كما أنّ هذه المبالغة التي يتحدث عنها عبد القاهر تكاد تشكل مدار البلاغة، خصوصًا ما يتعلق منها بجانب التركيب لتكوين انطباع معيّن لدى القارئ، وفي كل الحالات تكوّن شحنة تضاف إلى المعلومة المعطاة، ويقصد بها مزيدًا من التأثير على القارئ، مع التأكيد على أنه لا يمكن الحديث "عمّا يسمّى بالأثر الأدبي إلا كنتيجة خارجة عن نطاق النص والمتلقي معًا، إنه لا يوجد إلا في نقطة التلامس التي يحدثها التفاعل بينهما لحظة القراءة"(١٦).

والتفت العلوي في طرازه إلى القارئ المتلقي أثناء صياغته لمفهوم المصطلح، حيث التفت إلى أنّ القارئ يكون ماثلاً في بنية النص ومشاركًا مُنشِئَهُ من خلال التوجه المباشر له بالخطاب ليفسر كيفية انبنائه في ذات

منشئه التي قصدت إيقاع معنى غريب ولطيف وعجيب في نفس القارئ لتحقق التأثير التواصلي والجمالي عنده، وذلك بأن "تقصد إلى حكمٍ من الأحكام فتراه مستبعدًا، من أجل ما اختصّ به من الغرابة واللطف والإعجاب، أو غير ذلك، فتأتي على جهة الاستطراف بصفةٍ مناسبة للتعليل، فتدّعي كونها علة للحكم لتوهم تحقيقه"[17]، من أجل أن يتوهم القارئ أنّها علّة محقّقة، فتقرّر عنده وتثبت ثبات العلل الواقعيّة المنطقيّة بشكل قائم على الاستطراف والإيهام، وفيهما إخراج للقول بصورة مغايرة للمألوف.

وفي إمعان القزويني [18] أن يجعله في أقسام بالنظر إلى ثبوت الوصف أو انعدامه دليل على حضور القارئ؛ لأنه المعيار الذي يُحتكم إليه في ذلك، فهو القادر على أن يميّز الوصف الثابت من غيره، ليرى الجدة والطرافة في العلة المستحدثة؛ لأنها قائمة على الادعاء، وما كان هذا شأنه فإنه يشير إلى مستوى من التعبير صارت فيه العلة تلعب دورًا بنائيًّا لا شكليًّا ببنية النص وتدخل في نسيج صياغته محدثة اللغة الشعرية؛ لأنها أتت بـ"علّة مخترعة مع أمرٍ ليس معلولاً لها على الحقيقة"[19]، والشيء "إذا كان معلّلاً كان آكد في النفس من إثباته مجردًا عن التعليل"[20]، محققة الإيهام والاستطراف، وهذا هو صنيع الشعراء الذين اهتدوا "إلى استعمال ما هو خارج عن الأصل... إذ كان بناؤهم لا على صحة بل على تخييل فقط"[21]، يقوم على ابتكار المعاني القائمة على التخييل، وإخراجها من دائرة الصدق والكذب، في بناء شعري له صورة خاصة تتميز بصياغة

شعرية مؤثرة لها قيمة جمالية خاصة تحدث أثرها في المتلقي فتحدث اللذة والأثر المطلوبين، وهذه العلة لا قيمة لها إلا من حيث تشكلها في صورة متجانسة مع وصفها أو معلولها ولا تفهم منفصلة عنه، بل لا بد أن تتناغما معًا في كل موحد لتكون صورة واحدة متناسقة لتقديم المعنى، حيث يتوسل الشاعر بهذه العلة ليعرض المعنى بعيدًا عن دلالته الحرفية.

وهكذا فإنّ قوة التعليل البنائية تتأتى من الاستعانة بمقومات الانزياح المختلفة التي تؤثر في القارئ وتدفعه إلى الاستجابة والشعور بالدهشة، لتحيل على المعاني المتصلة بالجانب الإنساني، ويظهر ذلك من خلال تأثر القارئ وانفعاله بها، وهي التي تجعله يتخيل العلة التي يأتي بها الشاعر ويربطها مع المقدمات، وهذا يعني أنّ دراسة العمل الأدبي يجب أن تهتم ليس فقط بالنص الفعلي بل كذلك، وبنفس الدرجة، بالأفعال المرتبطة بالتجاوب مع ذلك النص"(٢٢).

**ثانيًا– وجهة النظر الجوالة:**

ينطلق إيزر في مفهومه لوجهة النظر الجوالة من أنّ العمل الأدبي "في حقيقة الأمر لا يمثّل سوى مجرد افتتاحية لإنتاج المعنى وحالات الكفاءة الفردية للقراء هي التي تؤدِّي إلى تجهيز العمل الأدبي"(٢٣)، الذي "لا يمكن له أن يدرك دفعة واحدة"(٢٤)، ولا يمكن للقارئ أن يتخيل موضوعه دون مروره بالمراحل المختلفة المتتابعة للقراءة التي تسلم كل مرحلة إلى ما يليها، حيث ينتقل القارئ إلى مرحلة جديدة بعد أن يعيد النظر فيما سبق له واختزنه، فكل مرحلة يكوّن فيها القارئ وجهة نظر ستختلف بعد

قليل ؛ لأنّ وجهة النظر هذه ستصبح ماضية في اللحظة القرائية التي تليها، والنص في كل مرحلة يتمظهر بطريقة معيّنة ولا يستطيع أن يكوّن وجهة نظر دالة إلا بعد الانتهاء من فهم العلاقات المختلفة بين أجزاء النص، وهذا يعني أنّ النص يتشكل من سلسلة مترابطة من المتواليات الجملية تفضي إلى إنتاج دلالته، والقارئ يحاول إدراك العلاقات التي تربط بين عناصر هذه السلسلة وكيفية ترابطها ليصل إلى وجهة نظر تختلف عن النص الأصلي وعن كل تمظهراته التي ظهر فيها خلال القراءة.

وهذا يعني أنّ عملية القراءة تولي السياق أهمية خاصة، إذ لا قيمة للكلمة المفردة بل قيمتها في علاقاتها المتشكلة والمتشابكة في سياقها النصي وسياقها المقامي.

وفي مصطلح "حسن التعليل" لا يستحضر النص علة جاهزة مألوفة بل يتخيّل، وهو في تخيّله هذا يبني صورة جديدة يجمع فيها بين الأشياء الغائبة التي يكون لها قدرة على إقامة بناء لغوي معيّن يجعله قابلاً للتأويل، حيث ينتزع النص موضوعاته "المنتقاة من سياقها التداولي وبالتالي يحطم إطارها المرجعي الأصلي"(٢٥) ليقيم علاقة جديدة لا تتم إلا بتأويل يجمع بين الوصف وعلته، مما يمنح النص خصوصية شعرية، وما طريقه التأويل فإنه يتفاوت بين ما هو قريب وما يحتاج فيه إلى إعمال العقل لإدراك العلاقة بينهما، وكلما تعقدت هذه العلاقات كلما احتاج النص إلى قدرات تأويلية خاصة قد تنتقل من المعاني الأول إلى مستويات أخر منها، وهو نوع من التأويل المتسق (الجشطالت) "ذلك التأويل

الخاضع لمعطيات القراءة الفردية التي تعتمد على انتقاء عناصر معيّنة من النص، أثناء جريان تلقي وحداته الدلالية، وإقصاء عناصر أخرى، من أجل إغلاق عالمه الدلالي في معنى محدد يرتضيه قارئ فردي ما. ونتيجة القراءة تكون، في هذه الحالة، تأويلاً يستفيد أيضًا من الإمكانيات المحتملة التي تفتحها الصيغ التخييلية وكذا الفراغات المتعددة في الأعمال الأدبية، إذ يتمّ ملؤها في الغالب بما يتوفر عليه القارئ من ذخيرة محمّلة بالخطاطات الفكرية والتصورات السابقة من الوسط الثقافي الذي يعيش فيه"[٢٦].

ففي قول المتنبي (من الرمل):

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

الذي يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم، وأن يدفع مضارهم عن نفسه، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم، وقد ادعى المتنبي كما نرى العلة في قتل بدر بن عمار لأعدائه غير ذلك، وهو مما لا يمكن إدراكه إلا بتأويل، فقد أمنهم بقصورهم عنه، لكنه يحذر أن يخالف ما اعتاده من إطعام الذئاب لحوم قتلاه، فقد أنكر العلة المألوفة الثابتة لقتلهم والخلاص من فسادهم واستحضر علة لا يمكن ربطها بالمعلل دون تأويل؛ لأنّ الصفة ثابتة قصد جلب علة جديدة لها.

فالقارئ يكون وجهة نظر معينة في اللحظات الأولى المشكلة للوصف لا تلبث أن تتغير بعد ذكر العلة حيث يشعر القارئ أنّ كل لحظة هي لحظة ترقب وانتظار بشكل يسمح للقارئ "أن يجول عبر النص وبالتالي يكشف

تعددية المنظورات المترابطة التي تتغير كلما حدث تنقل من منظور إلى آخر وهكذا ينشئ شبكة من الروابط الممكنة"[٢٧] تدفعه إلى الابتعاد عن النظرة الجزئية والانتقال إلى الصورة الكلية المترتبة على الجمع بين الوصف وعلته بطرق شتى حيث يبني القارئ تصورًا من المتواليات الجملية ويتوقع أن تأتي كل جملة لتجيب عن التساؤلات التي أثارتها الجملة التي سبقتها، لكن الانقطاع في العلة التي يأتي بها الشاعر تكون بمثابة الخلل الذي يوقف ذلك الجريان لمتوالية الجمل التي تشكل (الوصف/العلة الحقيقية)، فتأتي العلة المستحدثة بمثابة الالتواءات والانعطافات المفاجئة لتكون حافزًا محدثًا للذة والتعجب، وهذا الانتقال المفاجئ في متوالية الوصف/العلة المتخيلة هو ما يسميه إيزر بوجهة النظر الجوالة التي تتغير مما كان متوقعًا إلى شيء آخر بانتهاء النص لأنها "تتشكل أثناء كل لحظة من لحظات القراءة"[٢٨]، فكل جملة لا تبلغ نهايتها إلا بعد أن تتجاوز دلالتها إلى ما يليها لتحدث الإنجاز الدلالي الذي تهدف إليه لدى القارئ، وأعجب ما فيها أنها تنقل القارئ إلى ما هو غير متوقع تدريجيًا فلا يمكن الإحاطة به دفعة واحدة و"معرفة الشيء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل"[٢٩].

وفي قول أبي تمام (من الكامل):

لا تنكري عطل الكريم من الغنى      فالسيل حرب للمكان العالي

تجزّئ" وجهة النظر الجوالة "النص إلى بنيات متفاعلة وهذه البنيات تولد نشاطًا تجميعيًّا أساسيًّا بالنسبة لفهم النص"[٣٠]، حيث تجتمع منظومة الكرم والعطاء كطباع استقرت في داخله وإن خلت من الغنى المادي، وهي مقدمة منطقية تنتظر علة حقيقية يتوقعها القارئ إلا أنه يُفَاجَأُ بعلة طريفة تسلم إلى الإحساس بالرفعة والكبرياء، وهي مسألة في السلوك الاجتماعي يُربَط فيها العطاء بالسمعة الطيبة والصيت الحسن الذي يرفض العربي نكرانه كما ترفض المرأة عطلها من الحلي، وفي السياق الاجتماعي فإن العطل من الغنى للكريم يساوي العطل من الحلي للأنثى، فهل تقبل الأنثى عطلها من الحلي؟ لتأتي العلة الطريفة فيما يأتي من قول لتلقي الدهشة في داخله بأنّ السيل لا يستقر في المكان العالي لتقود إلى معان عدة من سهولة العطاء وتدفقه، والرغبة في إظهار الذات والشعور بالاستعلاء الذي يعوّض عن الغنى المادي بما هو أكثر منه لتحدث نوعًا من اللذة والالتذاذ والمقصدية في التأثير.

وكما أنّ هذه العلة تعمل في المستوى البنائي على ربط النص معنويًا فإنها تعمل على ربطه لفظيًّا فتعمل على حبكه، وإذا كان الحبك يشير إلى العلاقات المنطقية التي تجعل النص مترابطًا من خلال اعتماده على علاقات داخلية وعناصر مقامية متعالقة يتم بواسطتها فهم النص[٣١]، فإن العلة التخييلية التي يذكرها منشئ النص ليربط من خلالها بين المقدمات المنطقية وعلتها التخييلية تلعب دورًا بنائيًّا في ربط بنية النص العميقة، لوجود روابط ضمنية بين المقدمات وعللها يستخلصها القارئ

من خلال الاسترجاع والتخزين تساعده على الانتقال من المعاني الجزئية إلى المعاني الكلية، وقد التفت عبد القاهر إلى دور العلة المتخيلة في ربط النص وإحكامه عندما جعل العلاقة بين المقدمة وعلتها قائمة على القياس التخييلي في قول أبي تمام السابق فهو تخييل يقوم على القياس بين الكريم الذي يزل الغنى عنه والسيل الذي يزل عن الطود العظيم، "فالعلة في أنّ السيل لا يستقر على الأمكنة العالية، أنّ الماء سيّال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال"(٣٢).

فالشاعر يختار علة من العلل التي تساهم في بناء سياق لغوي معيّن يعتمد على عناصر لغوية في النص، يقوم بعضها على الانتقال به إلى بناء أسلوب يُلمَح فيه نوع من التشبيه هو أقرب إلى التشبيه الضمني، كإجراء أسلوبي قادر على أن يتخطى المألوف، ويؤتى به عادة "للبرهان على صحة الحكم والتدليل على دعوى بأنها ممكنة وصحيحة"(٣٣)، إذ يأتي التشبيه وكأنه الدليل على ما ذهب إليه، وإن باعد بين طرفيه ليكون مدعاة للعجب والطرافة، لأن تحسس مواطن الجمال تقتضي إخفاء التشبيه ليزداد التعبير حسنًا حيث يثير المشبه فكرة فيها نوع من الغرابة والادعاء فلا يسلّم بها القارئ تسليمًا وإنما يحتاج فيها إلى دليل، فتثار الأسئلة حول هذا الدليل وعلاقته بالوصف المذكور وكيف يكون علة له، فتضاعف انتباهه وتثيره نحو معنى خاص.

كما أنها -قد تكون- أشبه ما تكون بالمقارنات التي تقارن بين شيئين متفقين أو مختلفين، وتقيس أحدهما على الآخر كقول المتنبي (من الكامل):

رَحَل العزاءُ برِحْلَتي فكأنني أتبعتُه الأَنفاسَ للتشييعِ

فقد علّل تصعُّد الأَنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة، وترك ما هو مشهور وهو التحسّر والتأسّف، إذ رحل عنه العزاء بارتحاله عنهم، فكأنه لما كان محلّ الصبر الصَّدْر، وكانت الأنفاس تتصعّد منه، صار العزاءُ وتنفُّس الصَّعَداء كأنهما نزيلان ورفيقان، فلما رحل ذاك، كان حقّ هذا أن يشيّعه قضاءً لحق الصُّحبة.

كما يعنى الحبك برصد وسائل الاستمرار الدلالي في عالم النص أو العمل على إيجاد الترابط المفهومي[٣٤]، فيما يتصل بالتجربة الإنسانية ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرفها النص من المعرفة السابقة بالعالم[٣٥]، وفي قول قيس بن الملوح (من الكامل):

ولقد هممت بقتلها من حبها كيما تكون خصيمتي في المحشر
حتى يطول على الصراط وقوفنا فتلذ عيني من لذيذ المنظر

اهتمام بذكر هذه العلل اللطيفة المتخيلة المتتابعة معتمدًا على ما يعرفه القارئ.

وفي قول مسلم بن الوليد (من البسيط):

يا واشيًا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنساني من الغرق

فقد استحسن ما لم يستحسنه الناس في استحسان إساءة الواشي ؛ لأنها جعلته يحذر الواشي ، ويتقي مكره وكيده فحمى إنسان عينه من العمى لكثرة دمعه لو لم يطلع على وشاياته ، فقد أثارت العلة المتخيلة سلسلة من المعارف السابقة المختزنة في ذاكرة القارئ والقادرة على استثارته ودفعه إلى البحث عن المعاني الكامنة وراء النص .

وقد ترتبط العلة بالوصف المذكور من خلال :

١- أدوات الربط على اختلاف أنواعها ، مثل :

- الربط السببي بكي وحتى ولام التعليل : (من البسيط)

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته      لما رأيت عليها عقد منتطق

- الربط الزمني بالفاء وثم كقول المتنبي (من البسيط) :

لا يطلع البدر إلا من تشوقه      إليك حتى يوافي وجهك النظرا

- الربط العكسي حيث تكون الجملة التابعة مخالفة للمتقدمة ومستدركة عليها بتعابير الاستدراك والاستثناء المختلفة نحو : لكن ، وإلا ، وغير ، وبيد أن ، وغيرها ، نحو :

- قول أبي العلاء (من الكامل) :

ما كلفة البدر المنير قديمة      ولكنها في وجهه أثر اللطم

- قول المتنبي يمدح هارون بن عبد العزيز (من الكامل) :

لم تحك نائلك السحاب وإنما      حمّت به فصبيبها الرُحَضاء

- قول ابن الرومي (من البسيط) :

أمّا ذكاء فلم تصفر إذ جنحت      إلا لفرقة ذاك المنظر الحسن

٢- أسلوب الحوار:

- الحوار الخارجي المباشر الذي يقوم على استخدام تقنية السرد

ومن أمثلته قول ابن رشيق (من الوافر):

سألت الأرض لِم جعلت مصلى ... ولِـم كانـت لنـا طهـرًا وطيبًـا
فقالـت غـير ناطقـة لأنـي ... حويـت لكـل إنـسان حبيبًـا

٣- التضمين العروضي (من البسيط):

من كان يزعم أنّ الشمس ما غربت ... في فيـه كذّبـه في وجهـه الـشفق

**وأخيرًا: الفراغات أو اللاتحديد:**

يعمل القارئ أثناء عملية القراءة عند إيزر[٣٦] على إثارة تساؤلات حول المعنى بما يترك مجموعة من الفراغات لإكمالها أو إتمامه أو إجابة تساؤلاته وهو ما يسميه بالفراغات أو كما يسميها إنغاردن بـ"اللاتحديد" ؛ " ذلك أن إنغاردن ينظر إلى القيمة الجمالية والسمات الميتافيزيقية باعتبارها قيمًا إيجابية ومتعالية. يتم تحقيق النص، أي ملء أماكن اللاتحديد فيه، على ضوئها. وهو الاعتقاد الذي جعل إنغاردن يميّز بين التحقيقات الصحيحة أو المناسبة، والتحقيقات الخاطئة. في حين أن إيزر يعتبر القيمة الجمالية في حد ذاتها نتاجًا لعملية التحقيق وسد أماكن اللاتحديد النصية"[٣٧]، فلا يمكن لعلاقة التفاعل بين القارئ والنص بلوغ التوازن دون ملء هذه الفراغات، لأنّ "النص لا يحمل في ذاته دلالة ظاهرة ونهائية بل هو فضاء دلالي وإمكان تأويلي ولذا فهو لا ينفصل عن قارئه ولا يتحقق دون مساهمته أيضًا"[٣٨] وهذا النص يثير باستمرار وجهات

نظر متغيرة لدى القارئ تحدث نوعًا من اللاتماثل بينه وبين النص إذ يجهل كل منهما هوية الآخر، ويرسم كل منهما صورة غير مطابقة للحقيقة عن الآخر، وهذا يؤجج العلاقة التأويلية بينهما ويدفع إلى المزيد من التأويل تدفع القارئ إلى الخروج من سلطة المؤلف فيقترح أبنية جديدة تولد معاني محتملة انطلاقًا من تصوراته الذهنية الخاصة التي يمتلكها القارئ، ينبغي عليه أن يعمل على تجميعها وتركيبها، وهذا المعنى المتولد والناتج هو إبداع آخر للنص لا يطابق النص الأصلي ولا القارئ، وهكذا فإنّ "مشكلة تملك معنى النص تصبح أمرًا لا يقل مفارقة عن التأليف فيتداخل حق القارئ بحق النص في نزاع يولد حركة التأويل برمتها"(٣٩)، وفي علاقة التفاعل هذه بين ما هو صريح وضمني أو ما هو مكشوف ومخفي وحث القارئ على الفعل لملء فراغات النص إشارة إلى أنها لا يمكن لها أن تملأ بنفس النسق بل لا بد من نسق آخر ينجزه القارئ في فعل التحقق القرائي من خلال إزالة هذه اللاتحديدات أو ملئها أو تفسيرها "حتى يمكن لمستويات العمل المختلفة أن تترابط فيما بينها بطريقة ملائمة وتصبح الخصائص الجمالية في مركز الاهتمام"(٤٠).

وفي "حسن التعليل" فإنّ نشاط القارئ ينتقل من حال إلى حال ثم يحاول ملء الفراغ القائم بين الوصف وعلته، ليهتدي بتوجيهات النص لحل التناقضات المنبثقة منه، وهو في تجربته هذه يستبطن النص ويتمثله في تجربته، "ويبدو أنه في حين تقدم النصوص العبارات التي يقوم من خلالها القارئ بجعل المعاني حقيقية، فإنّ "مخزون تجربة "القارئ الخاصة

سيحتل جزءاً من هذه العملية، وسيتحتم على وعي القارئ أن يقوم ببعض التعديلات الداخلية كي يتلقى ويستوعب الآراء الغريبة التي يقدمها النص حين تتم عملية القراءة، وينتج عن هذه الحالة إمكانية تعديل رؤية القارئ الخاصة للعالم"كنتيجة للتمثل الداخلي والحوار وإدراك العناصر غير المحددة جزئياً في النص، فلربما نتعلم شيئاً ما من القراءة"(٤١)، وبكلمات إيزر فإن القراءة "تعطينا الفرصة لصياغة ما ليس مصوغا"، لأنه يجعل النص هيكلاً يقوم القارئ بملئه وفق معطياته، ووفق ثقافة عصره، مما يجعل النص مفتوحًا على التأويل والتفسير والتجديد مع كل قراءة جديدة، فيكمل القارئ النص وفق رؤيته الخاصة من خلال حوار خفي بين موضوع النص وتجربته الذاتية حتى يصل إلى إبداع نص مواز.

الهوامش:

❖ جامعة القصيم – كلية العلوم والآداب في ضرية– المملكة العربية السعودية.
عنوان المراسلة: ibtisamabomahfooz@yahoo.com
ت: ٠٠٩٦٦٥٠٥٨٣٥٥٧٢٤

(١) وقد ظهرت كتب عدة تناولت دور مصطلحات علم البديع في تشكيل بنية النص ودخولها في نسيج صياغته وإنتاج دلالته، مثل: "بلاغة الخطاب وعلم النص" لصلاح فضل، و" البلاغة العربية قراءة أخرى" و" بناء الأسلوب في شعر الحداثة..التكوين البديعي" لمحمد عبد المطلب، و" البديع بين البلاغة واللسانيات النصية" لجمال عبد الحميد، وغيرها.

(٢) آيزر، فولفانغ: **فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)**، ترجمة حميد لحميداني والجلالي الكدية، فاس: مشورات مكتبة المناهل، ١٩٩٥م، ص ١٣-١٤

(٣) لحميداني، حميد: **القراءة وتوليد الدلالة**، ط١، بيروت: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠٣، ص ٧٣.

(٤) فعل القراءة ص ٣٠.

(٥) فعل القراءة ص ٣٠.

(٦) فعل القراءة ص٣١.

(٧) فعل القراءة ص٣٢.

(٨) بلانشيه، فيليب: **التداولية من اوستن إلى غوفمان**، ترجمة صابر الحباشة، ط١، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م، ص٨٤.

(٩) والمخيل: "هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط لأمور أو تنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار. وبالجملة تنفعل له انفعالاً نفسانيًا غير فكري، سواء كان المقول مصدقًا به أو غير مصدق به" القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس: دار الكتب الشرقية، ١٩٦، ص٨٥.

(١٠) الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، قرأه وعلق عليه محمد محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، جدة: دار المدني، ١٩٩١م، ص٢٧٧-٢٧٨.

(١١) أسرار البلاغة ص٢٧٨.

(١٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٧، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٨م، ١/٨٩-٩٠.

(١٣) أسرار البلاغة ص١٣١.

(١٤) منهاج البغاء ص ٩٠.

(١٥) حمودة، عبد العزيز: **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٨م، ص ٢٩٠.

(١٦) لحميداني، حميد: **القراءة وتوليد الدلالة** ص٧٨.

(١٧) العلـوي، يحيـى بـن حمـزة: **الطـراز**، مـصر: مطبعـة المقتطـف ١٣٣٣هـ، ج٣ص١٣٨.

(١٨) القزويني، الخطيب: **الإيضاح في علوم البلاغة**، حققه وعلق عليه عبد الحميد هنداوي، ط٢، القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ص٣١٠.

(١٩) حسان، تمام لأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو — فقه اللغة — البلاغة)، القاهرة: عالم الكتب، أميرة للطباعة ٢٠٠٠ ص٣٤٢.

(٢٠) لاشين، عبد الفتاح: **البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم**، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٦م، ص١١٩.

(٢١) الروبي، ألفت كمال: **الشعر عند الفلاسفة المسلمين**، ط١، لبنان: دار التنوير ص ٥٣.

(٢٢) **فعل القراءة** ص ١٢.

(٢٣) فضل، صلاح: **شفرات النص**، ط١، بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩م، ص١٥٧.

(٢٤) فعل القراءة ص٥٧.

(٢٥) فعل القراءة ص٥٧.

(٢٦) القراءة وتوليد الدالة ص١١٤-١١٥.

(٢٧) فعل القراءة ص ٦٩.

(٢٨) فعل القراءة ص٦٣.

(٢٩) أسرار البلاغة ص١٣٥.

(٣٠) فعل القراءة ص٧٠

(٣١) يوجران، روبرت دي: **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ٢٠٠٧م، ص١٠٣

(٣٢) أسرار البلاغة ص٢٦٧

(٣٣) **البيان في ضوء أساليب القرآن** الكريم ص١٠٣

(٣٤) عفيفي، أحمد: **نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي**، ط١، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١م، ص١٠٣

(٣٥) النص والخطاب والإجراء ص١٠٣

(٣٦) فعل القراءة ص٩٩

(٣٧) عبد الكريم، شرفي: **من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٢٢٣.

(٣٨) حرب، علي: **التأويل والحقيقة**، ط٢، لبنان: بيروت، دار التنوير، ١٩٩٥م، ص٩.

(٣٩) ريكور، بول: **نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)**، ترجمة سعيد الغانمي، ط٢، المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م، ص ٦٤.

(٤٠) فعل القراءة ص ١٠٨.

(٤١) سلدر، رامان، و يروكس، بيتر: **النظريات الموجهة نحو القارئ**، ترجمة محمد نور النعيمي ص١١١.

# المزاح والدعابة في الإسلام

## قراءة في فقه السيرة ودعابة الصحابة والتابعين ومزاحهم

## (٢)

بقلم: د. التاه بن محمدن بن اجمد❖

### المحور الثالث: مزاح النبي ﷺ

لقد كان الرسول الله ﷺ يداعب أصحابه ويضحك من المسائل المثيرة للضحك، وكتب السيرة والشمائل والتراجم تحتوي على نماذج هامة من ذلك، وسنعرض هنا في هذا المحور لمزاح النبي ﷺ مع صحابته (أولاً) قبل أن نعرّج على مزاحه مع الصحابيات (ثانيًا) لنشفع ذلك ببعض ممازحاته

ﷺ لزوجاته أمهات المؤمنين (ثالثًا) لنختم بنماذج من مزاحه ﷺ مع الأطفال (رابعًا).

## أولاً: مزاحه ﷺ مع الصحابة

معلوم أنّ النبي ﷺ كان متواضعًا، فلذلك كان أحيانًا يمزح مع أصحابه -رضوان الله عليهم- وتورد لنا كتب السِّيَر والشمائل والتراجم نماذج عديدة من مزاحه ﷺ مع أصحابه -رضوان الله عليهم- وسنعرض هنا لبعضها بحسب ما يسمح به المقام.

فمن بين النماذج ما ذكره ابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام، كان يهدي إلى النبي ﷺ الهدية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ زاهرًا باديتنا ونحن حاضروه»، قال: فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه -والرجل لا يبصره- فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت إليه، فلمّا عرف أنه النبي ﷺ جعل يلزق ظهره بصدره، فقال رسول الله ﷺ: من يشتري هذا العبد؟ فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسدًا، قال: «لكنك عند الله لست بكاسد» أو قال ﷺ: «بل أنت عند الله غال»(1).

يقول العلاّمة جسوس معلقًا على حديث زاهر الآنف: "وبهذا تعلم أنّ مزاحه ﷺ ليس مزاحًا إلا باعتبار الصورة، فهو لا يخلو عن بشرى فاضلة، أو مصلحة شاملة، أو قاعدة كاملة، فهو في الحقيقة غاية الجد"(٢).

ومنها كذلك أنّ صهيب بن سنان الرومي كان ذات مرة به رمد، فرآه النبي ﷺ وهو يأكل تمرًا: فقال له: «أتأكل التمر وأنت أرمد»؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله، فتبسم ﷺ قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه(٣).

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من أدم، فسلمت، فردّ علي وقال: ادخل، فقلت: أكلي يا رسول الله؟ قال: كلك، فدخلت، قيل: إنما قال: أدخل كلي من صغر القبة(٤).

ومن بين تلك المطايبات والممازحات ما روي أنّ خوات بن جبير الأنصاري كان جالسًا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: "يا أبا عبد الله، ما لك مع النسوة؟ فقال: يفتلن ضفيرًا لجمل لي شرود، قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته، ثم عاد فقال: "يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال: فسكت

واستحييت، وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمت المدينة، وبعدما قدمت المدينة قال: فرآني في المسجد يومًا أصلّي، فجلس إليّ فطوّلت فقال: "لا تطوّل فإني أنتظرك" فلمّا سلّمتُ، قال يا أبا عبد الله: أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ " قال: فسكت واستحييت، فقام، وكنت بعد ذلك أتفرر منه حتى لحقني يومًا وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد، فقال: "أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ فقلت والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت، فقال: "الله أكبر، الله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله" قال: فحسن إسلامه وهداه الله[٥].

ويتضح لنا من هذه النماذج الآنفة الذكر أنّ النبي ﷺ كان يستخدم المزاح كوسيلة للترويح عن أصحابه -رضوان الله عليهم- أو لتبشيرهم أو الدعاء وغير ذلك.

## ثانيًا: مزاحه ﷺ مع الصحابيات

كان ﷺ يمازح الصحابيات -رضوان الله عليهن- كما تروي لنا كتب السِّيَر والشمائل والتراجم، ومن ذلك على سبيل المثال ما روي عن الحسن بن علي -رضي الله عنهما- أنه قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها "لا يدخل الجنة عجوز" فبكت فقال: "إنك لست بعجوز يومئذ، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا)[٦].

فهذا الحديث يؤكد لنا ما سبق آنفًا من أنّ النبي ﷺ كان يستخدم المزاح أحيانًا كوسيلة للبشارة، حيث إنّ في هذا الحديث تبشير لهذه الصحابية بالجنة، وهي لعمري بشرى عظيمة ما فوقها بشرى.

وعن زيد بن أسلم: أنّ امرأة يقال لها أمّ أيمن جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إنّ زوجي يدعوك، قال: "ومن هو، أهو الذي بعينه بياض"؟ قالت: والله ما بعينه بياض! فقال: "بل إنّ بعينه بياضًا" فقالت: لا والله، فقال ﷺ: "ما من أحد إلا وبعينه بياض" وأراد به البياض المحيط بالحدقة(٧).

ففي مزاحه ﷺ لهذه المرأة المريض زوجها تطييب لنفسها وتسلية لها، وتنفيس عن زوجها من مرضه، والمراد بالبياض بياض العين الطبيعي، إلا أنه ورى بالبياض الذي هو بياض سواد العين: المرض، فانطلت هذه التورية على المرأة(٨).

ومن تلك النماذج أيضًا أنّ امرأة أخرى جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، احملني على بعير، فقال: "بل نحملك على ابن البعير"، فقالت: ما أصنع به، إنه لا يحملني، فقال ﷺ: "ما من بعير إلا وهو ابن بعير، فكان يمزح به(٩).

وفي هذا النموذج فإنّ ما قام به ﷺ زيادة عن أنه مباسطة، فإنّ فيه إيماءً وإرشادًا لهذه المرأة ولغيرها بأنه ينبغي على الشخص إذا سمع قولاً أن يتأمله، ولا يبادر بالجواب عليه حتى يدرك غوره، ويعرف معناه، وأنّ عليه أن لا يسارع إلى الردّ دون تمحيص.

## ثالثًا: مزاحه ﷺ مع الزوجات

عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ من أفكه الناس مع نسائه، وروي أنه كان كثير التبسم لهن وممازحتهن. وقد احتفظت لنا كتب السِّيَر والشمائل بالعديد من نماذج مزاحه ﷺ مع زوجاته، نذكر من ذلك ما رواه عطاء من أنّ رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله ﷺ يمزح؟ فقال: نعم، قال: فما كان مزاحه؟ قال: كان مزاحه أنه ﷺ كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبًا واسعًا، فقال: هلاّ البسيه، واحمدي وجُرِّي منه ذيلاً كذيل العروس(١٠).

وفي مثال آخر روي عن عائشة: -رضي الله عنها- أنها خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال: "تعالي حتى أسابقك، فشددت درعي على بطني، ثم خططنا خطًّا، فقمنا عليه، واستبقنا، فسبقني وقال:

"هذه مكان ذي المجاز". وذلك أنه جاء يومًا ونحن بذي المجاز، وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء، فقال: "أعطينيه" فأبيت وسعيت، وسعى في أثري فلم يدركني[11].

وقالت أيضًا: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلمّا حملت اللحم سابقني، فسبقني[12].

وتذكر عائشة -رضي الله عنها- نموذجًا آخر من مزاحه ﷺ مع زوجاته، حيث تقول -رضي الله عنها- كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة، فصنعت حريرة وجئت بها، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئًا فلطخت به وجهها، ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه، لتستقيد مني، فتناولت من الصحفة شيئًا، فمسحت به وجهي، وجعل رسول الله ﷺ يضحك[13].

وعنها -رضي الله عنها- قالت: لما قدم النبي ﷺ المدينة عرس بصفية فأخبرني، قالت: فتنكرتُ وتنقبتُ فذهبت أنظر، فنظر رسول الله ﷺ إلى عيني فعرفني، فأقبل إليّ فانقلبت راجعة فأسرع المشي فأدركني فاحتضنني فقال: كيف رأيت؟ قلت: يهودية بين يهوديات[14].

ومن نماذج مزاحه ﷺ الذي يتعلق بزوجاته، ما روي من أنّ الضحاك ابن سفيان الكلابي كان رجلاً دميمًا، فلمّا بايع النبي ﷺ قال: إنّ عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء -وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب- أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها؟ وعائشة جالسة تسمع، فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه؛ لأنه كان دميمًا(١٥).

ومن خلال التعرض لهذه النماذج من مزاحه ﷺ مع زوجاته نخلص إلى أنه ﷺ كان تارة هو من يبدؤهن بالمزاح، فيما كنّ تارة أخرى هنّ اللواتي يبدأنه به ويقرّهن عليه، الأمر الذي يؤكد لنا أنّ المزاح إذا كان خاليًا من الغيبة والنميمة وغيرهما من المسلكيات التي حرّمها الشارع، فإنه يكون مستحبًّا لما فيه من إفشاء المودة والرحمة.

### رابعًا: مزاحه ﷺ مع الأطفال

لقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، ليِّن العريكة والجانب مع الجميع، ومنهم الأطفال الذين كان يمازحهم أحيانًا ويباسطهم، الأمر الذي يدل على تواضعه ﷺ وكرم سجاياه وطيب مناقبه، كيف لا وقد

زكّى الله ﷻ أخلاقَه في القرآن الكريم، حيث يقول جلّ من قائل: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[١٦] وتتحدث لنا كتب السِّيَر والشمائل عن بعض ممازحاته مع الأطفال، وسنحاول أن نعرض نماذج من هذه الممازحات هنا، ولنبدأ منها بما رواه علقمة عن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه للحسن بن علي عليهما السلام، فيرى الصبي لسانه فيهشّ له.

ومن هذه الممازحات التي كان ﷺ يوجهها للصبيان ما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري عن أنس بلفظ: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير: -قال أحسبه فطيمًا- وكان إذا جاء قال: يا عمير ما فعل النغير[١٧]؟ نغر كان يلعب به» ... إلخ[١٨].

وفي رواية أنّ النبي ﷺ زارهم ذات يوم فقال: يا أمّ سليم، ما شأني أرى أبا عمير ابنك خائر[١٩] النفس؟[٢٠].

قال أبو عيسى معلقًا على هذا الحديث: وفقه هذا الحديث؛ أي المسائل المستنبطة منه أنّ النبي ﷺ كان يمازح؛ لأنّ أبا عمير كان له نغر يلعب به، فمات، فحزن عليه، فمازحه النبي ﷺ بهذا الكلام؛ ليسليه عن حزنه عليه، وإنما كان ذلك مباسطة[٢١].

كما استدل الإمام ابن حجر في "**الفتح**" على سنية المزاح بهذا الحديث، حيث قال: "في الحديث جواز الممازحة، وتكرير المزاح، وأنها إباحة سنة لا رخصة، وأنّ ممازحة الصبي الذي لم يميّز جائزة، وتكرير زيارة الممزوح معه، وفيه ترك التكبر والترفع، والفرق بين كون الكبير في الطريق فيتواقر، وفي البيت فيمزح، وفيه الحكم على ما يظهر من الأمارات في الوجه، من حزنه وغيره (...) وجواز لعب الصغير بالطير، وجواز ترك الأبوين ولدهما الصغير يلعب بما أبيح اللعب به، وجواز إنفاق المال في ما يتلهّى به الصغير من المباحات، (...) وفيه معاشرة الناس على قدر عقولهم"[٢٢].

وذكر ابن القاص في أول كتابه، أنّ بعض الناس عاب على أهل الحديث أنهم يروون أشياء لا فائدة فيها، ومثل ذلك بحديث أبي عمير هذا، قال: وما درى أنّ في هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجهًا ثم ساقها مبسوطة[٢٣].

وقد لخصها ابن حجر منه مستوفيًا مقاصده، متبعًا لها بما فتح الله عليه من الزوائد على تلك الستين، وقد ذكرنا منها هنا ألصقها بالموضوع المتناول.

وعن جابر قال: دخلت على النبي ﷺ والحسن والحسين على ظهره، وهو يمشي بهما على أربع ويقول: «نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما»[٢٤].

كما أنه ﷺ مازح أنس بن مالك، فيما أخرجه الترمذي وأبو داود وغيرهما، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال له: «يا ذا الأذنين»[٢٥].

ونخلص من هذه النماذج إلى أنّ النبي ﷺ كان أحيانًا يمازح الأطفال، سواء كان هدفه تطييب خواطرهم وتسليتهم، كما فعل مع أبي عمير، أو إضحاكهم وإدخال البهجة إلى قلوبهم، كما فعل مع الحسن والحسين، أو التواضع مع خدامه والتقرب منهم، كما في حالة أنس بن مالك رضي الله عنهم.

### المحور الرابع: المزاح والمداعبات عند الصحابة والتابعين

بعد أن ذكرنا في المحور السابق بعض مزاحات النبي ﷺ مع صحابته الكرام، ومع زوجاته أمهات المؤمنين، ومع الأطفال والصغار، فإننا سنخصص هذا المحور لتناول نماذج من مداعبات الصحابة والتابعين رضي

الله عـنهم أجمعـين، وسـنبدأ الحـديث هنـا بـالتعرض لنمـاذج مـن مـزاح الـصحابة مـع رسـول الله ﷺ (أولاً) لنـشفعه بالحـديث عـن مـزاح الـصحابة فيما بينهم (ثانيًا)، ونتبع ذلـك بـالتعرض لنمـاذج مـن مـزاح الـصحابة مـع نـسائهم وأطفـالهم (ثالثًـا)، ونختـم بـالتعرض لنمـاذج مـن مـزاح التـابعين ومداعباتهم (رابعًا).

## أولاً: مزاح الصحابة مع رسول الله ﷺ

كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يمازحون النبي ﷺ في بعض الأحيان، ولم يكن ﷺ يغضب من ذلك ولا يتحرج منه، بل على العكس من ذلك كان يستجيب لهم بل ويشاركهم فيه أحيانًا، ومن ذلك على سبيل المثال ما روي من أنّ عبد الله بن حذافة السهمي، وهو من الصحابة المشهورين بالمزاح، قد حل ذات يوم حزام راحلة النبي ﷺ وهو عليها في بعض أسفاره، فقيل له في ذلك، فقال: قد علمت أنه نبيّ، وأنّ الناس لا يضرونه[٢٦].

ومن بين نماذج مزاح صحابته معه عليه السلام ما ورد في الصحيحين من أنه ﷺ خرج ذات يوم حين زاغت الشمس فصلّى الظهر، فلمّا سلّم قام على المنبر فقال: من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا، قال فسأله عبد الله بن

حذافة فقال من أبي؟ فقال أبوك حذافة. فأنّبته أمّه حين سمعت بسؤاله النبي ﷺ وقالت له ويحك، ما أحمقك لو نسبك رسول الله ﷺ إلى غير حذافة بين قريش فما كنت فاعلاً؟ وقالت له أأمنت أن تكون أمّك قارفت ما تقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟(٢٧).

ومن بين النماذج كذلك ما وقع لنعيمان بن عمرو الأنصاري، الذي عرف عنه أنه كان لا تدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها شيئًا وجاء به إلى النبي ﷺ فيقول: هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحب الطرفة يطلب نعيمان الثمن أحضره إلى النبي ﷺ وقال: اعط هذا ثمن متاعه، فيقول: أو لم تهده لي؟ فيقول: والله لم يكن عندي ثمنه، ولقد أحببت أن تأكله، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه(٢٨).

ومن القصص التي تروى من مزاحات نعيمان مع رسول الله ﷺ أنه أهدى إليه ذات مرة جرة عسل اشتراها من أعرابي، وأتى بالأعرابي إلى باب النبي ﷺ فقال: خذ الثمن من هاهنا. فلمّا قسمها النبي ﷺ نادى الأعرابي: ألا أعطى ثمن عسلي؟! فقال النبي ﷺ: "إحدى هنات نعيمان" وسأله: لم فعلت هذا؟ فقال: أردت برك يا رسول الله، ولم يكن معي شيء. فتبسم النبي ﷺ وأعطى الأعرابي حقه.

ومن مزاحات الصحابة -رضوان الله عليهم- مع النبي ﷺ ما ذكره ابن الأثير في "**أسد الغابة**" عن ربيعة بن عثمان قال: أتى أعرابي إلى النبي ﷺ فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض الصحابة لنعيمان الأنصاري: لو نحرتها فأكلناها فإنّا قد قرمنا[٢٩] إلى اللحم. ويغرم رسول الله ﷺ ثمنها؟ قال: فنحرها، ثم خرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح واعقراه يا محمد. فخرج النبي ﷺ فقال: مَن فعل هذا؟ فقالوا: نعيمان، فاتَّبعه يسأل عنه، فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، مستخفيًا، فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول: ما رأيته يا رسول الله، وأشار بأصبعه حيث هو، فأخرجه رسول ﷺ فقال: "ما حملك على هذا؟" قال: الذين دلّوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك، ثم غرمها للأعرابي[٣٠].

على الرغم من أنّ العديد من الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يمازحون النبي ﷺ كما ورد في كتب السير والتراجم، فإننا قد ركزنا في النماذج التي عرضنا لها على اثنين من الصحابة الكرام وهما: عبد الله ابن حذافة السهمي، ونعيمان بن عمرو الأنصاري، وذلك عائد إلى كون هذين الصحابيين الجليلين قد تميّزا في هذا المجال أكثر من غيرهما،

فاشتهرت ممازحاتهم مع النبي ﷺ وخصص لها الرواة حيّزًا مهمًّا في سيرهم وتراجمهم حتى طغت على غيرها من القصص.

وتنبؤنا هذه النماذج التي عرضنا لها عن مدى حلم رسول الله ﷺ وكرم أخلاقه، فعلى الرغم من كون بعض هذه المزاحات كانت تحمله بعض الغرامات المالية والتبعات، إلا أنه لم يكن يغضب منها، بل كان يعاملهم بكل لطف ولين، ولا يوجّه لهم أيّ انتقاد، أو يتجهم في وجوههم.

### ثانيًا: مزاح الصحابة –رضوان الله تعالى عليهم– مع بعضهم البعض

لقد كان الصحابة –رضي الله عنهم– يتمازحون فيما بينهم، ويتبادحون بالبطيخ، فإذا جاءت الحقائق كانوا هم الرجال[٣١].

وفي "**مجمع الزوائد**" عن قرة قال: قلت لابن سيرين هل كانوا يتمازحون؟ –يعني الصحابة رضوان الله عليهم– قال ما كانوا إلا كالناس، كان ابن عمر يمزح وينشد[٣٢]:

يحب الخمر من مال الندامى ويكره أن تفارقه الفلوس

ومن مزاحاتهم ومداعباتهم المشتهرة في هذا المضمار ما روي من أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه نظر إلى أعرابي قد صلّى صلاة خفيفة، فلمّا قضاها

قال: اللهم زوّجني بالحور العين؛ فقال عمر: يا هذا! أسأت النقد، وأعظمت الخطبة.

ومن النماذج التي تروى عن عمر ﷺ أنه لما تزوج عاتكة بنت زيد المشهورة بعاتكة الشهداء؛ -لأنّ كل من تزوجها استشهد حتى قيل في ذلك: من أحب الشهادة فليتزوج عاتكة- بالغت في استعمال الطِّيب وتضمّخت بالعنبر وغيره، فقال عليّ لعمر: ائذن لي أدخل على عاتكة في حاجة لي إليها، فقال: نعم، فأدخل عليها علي رأسه من الستر وقال: أين قولك:

فآليـت لا تنفـك عـيني حزينـة عليـك ولا ينفـك جلـدي أغـبرا

فدفعه عمر بمنكبه وقال: أفسدت علي عرسي، فضحكوا(٣٣).

ومن ضمن مزاحات الصحابة كذلك ما أخرجه الواقدي وغيره أن رسول الله ﷺ بلغه أنّ ناسًا من الحبشة تراءاهم أهل الشعيبة -ساحل بناحية مكة- في مراكب، فبلغ ذلك النبي ﷺ فبعث علقمة بن محرز المدلجي في ثلاث مئة رجل حتى انتهى إلى جزيرة في البحر، فخاض إليهم فهربوا منه، ثم انصرف. فلمّا كان ببعض المنازل استأذنه بعض الجيش في الانصراف حيث لم يلقوا كيدًا، فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي -وكان يحبّ الدعابة- فنزلوا ببعض الطريق وأوقد القوم نارًا

يصطلون عليها ويصنعون الطعام، فقال: عزمت عليكم ألا تواثبتم في هذه النار، فقام بعض القوم فتحاجزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا، إنما كنت أضحك معكم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه(٣٤).

ومن مداعبات الصحابة أيضًا أنّ أبا بكر الصديق خرج إلى الشام، وكان في الحملة سويبط بن حرملة ونعيمان الأنصاري وكلاهما بدري، وكان سويبط على الزاد؛ فجاءه نعيمان فقال: أطعمني؛ فقال: لا، حتى يأتي أبو بكر. فقال نعيمان: –وكان رجلاً مضحاكًا– والله لأغيظنك. فجاء إلى ناس جلبوا ظهرًا(٣٥)، فقال ابتاعوا مني غلامًا عربيًّا فارهًا وهو ذو لسان؛ ولعله يقول لكم: أنا حر؛ فإن كنتم تاركوه لذلك فدعوه، لا تفسدوا عليّ غلامي، قالوا: بل نبتاعه منك بعشر قلائص(٣٦). فأقبل بها يسوقها، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال: دونكم هو هذا. فجاء القوم، فقالوا: قد اشتريناك. فقال سويبط: هو كاذب، أنا رجل حر؛ فقالوا: قد أخبرنا خبرك، فطرحوا الحبل في رقبته وذهبوا به. فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأخبر، فذهب هو وأصحابه، فردّوا القلائص على أربابها وأخذوه. فلمّا عادوا إلى النبي ﷺ أخبروه الخبر فضحك ﷺ وأصحابه منها حولاً(٣٧).

ومن ضمن ما يروى كذلك في هذا السياق قصة نعيمان الأنصاري مع مخرمة بن نوفل التي أخرجها ابن حجر في الإصابة قال، قال الزبير: حدثني عمي عن جدي قال: كان مخرمة قد بلغ مئة وخمس عشرة سنة، فقام يومًا في المسجد يريد أن يبول فصاح به الناس، فأتاه نعيمان بن عمرو فتنحى به، ثم أجلسه في ناحية أخرى من المسجد، فقال له: بل ها هنا، قال فصاح به الناس، فقال: ويحكم من أتى بي إلى هذا الموضع، قالوا له: نعيمان بن عمرو. قال: أما إنّ لله عليّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت، قال: فبلغ ذلك نعيمان، فمكث ما شاء الله، ثم أتاه يومًا وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد، فقال لمخرمة: هل لك في نعيمان؟ قال: فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان، وكان إذا صلّى لا يلتفت، فقال: دونك هذا نعيمان، فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجه، فصاحوا به ضربت أمير المؤمنين(٣٨).

وشكا عيينة بن حصن إلى نعيمان صعوبة الصيام فقال: صم الليل، فروي أنه دخل عيينة بن حصن على عثمان وهو يفطر في شهر رمضان، فقال: العَشاء، فقال: أنا صائم، فقال عثمان: الصوم بالليل؟، فقال: هو أخف عليّ، فيقال: إنّ عثمان قال: إحدى هنات نعيمان(٣٩).

ويلاحظ من خلال النماذج السابقة من مزاح الصحابة -رضوان الله عليهم- أنّ مزاح بعضهم لبعض كان رسول الله ﷺ يعلم به ويقرّهم عليه، إلا أنه مع ذلك كان في بعض الأحيان يغتنم فرصة ما دار بينهم من ممازحات لينبّههم إلى بعض الأحكام، كما في قصة عبد الله بن حذافة مع الذين كادوا أن يقتحموا النار.

## ثالثًا: مزاح الصحابة مع النساء والغلمان

كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يقتدون بالنبي ﷺ ويتأسون به في كل أمورهم، ولما كان ﷺ يمازح زوجاته والغلمان، فقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يمازحون زوجاتهم ويتلطفون بهن، وسنعرض هنا باختصار لبعض مزاح الصحابة -رضوان الله عليهم- مع الزوجات.

وسنورد هنا بعض القصص المروية عنهم في ذلك، فمنها قصة عبد الله بن رواحة مع زوجته وهي مروية من وجوه صحاح، وذلك أنه كان مضطجعًا إلى جنب امرأته فلم تجده في مضجعه، فقامت، فخرجت، فرأته على جاريته، فرجعت إلى البيت فأخذت الشفرة ثم خرجت وفرغ، فقام، فلقيها تحمل الشفرة، فقال: مهيم، قالت: لو أدركتك حيث رأيتك لوجأت بين كتفيك بهذه الشفرة، قال: وأين رأيتيني؟ قالت:

رأيتك على الجارية، قال: ما رأيتيني وقد نهانا رسول الله ﷺ أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب، قالت: فاقرأ، فقال:

شَـهِدْتُ بِـأَنَّ وَعْـدَ اللهِ حَـقٌّ وَأَنَّ النَّـارَ مَثْـوَى الْكَافِرِينَـا
وَأَنَّ الْعَـرْشَ فَـوْقَ الْمَـاءِ حَـقٌّ وَفَـوْقَ الْعَـرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَـا
وَتَحْمِلُـهُ مَلائِكَـةٌ غِـلاَظٌ مَلاَئِكَـةُ الْإِلَـهِ مُسَوَّمِينَا

فقالت امرأته صدق الله وكذبت عيني، وكانت لا تقرأ القرآن، ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فضحك حتى بدت نواجذه(٤٠).

ومنها كذلك أنّ عبد الله بن عمر كان يمازح مولاة له فيقول لها: خلقني خالق الكرام، وخلقك خالق اللئام، فتغضب وتصيح وتبكي، ويضحك عبد الله بن عمر(٤١).

وعن عبد الله كثير بن جعفر قال: اقتتل غلمان عبد الله بن العباس وغلمان عائشة، فأخبرت عائشة بذلك، فخرجت في هودج على بغلة لها، فلقيها ابن أبي عتيق فقال: أي أمّي جعلني الله فداك أين تريدين؟ قالت: بلغني أنّ غلماني وغلمان ابن عباس اقتتلوا فركبت لأصلح بينهم، فقال: يعتقُ ما يملك إن لم ترجعي، فقالت: يا بني ما الذي

حملك على هذا؟ قال ما انقضى منا يوم الجمل حتى تريدين أن تأتينا بيوم البغلة[٤٢].

وخلاصة القول حول النماذج التي عرضنا لها من مزاح الصحابة -رضوان الله عليهم- مع النساء والغلمان إنّ الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يستخدمون المزاح كوسيلة للتخلص من بعض المواقف الصعبة (مثلما في قصة عبد الله بن رواحة مع زوجته) أو للممازحة مع مواليهم (كما في نموذج عبد الله بن عمر مع مولاته) أو لممازحة أمهاتهم ؛ لما فيه من البر والصلة بهن (حالة عبد بن أبي عتيق مع أمّ المومنين رضي الله عنها) وهي القصة التي كانت بين غلمان عائشة وابن عباس -رضي الله عنهما- بيد أن مزاحهم ذلك في بعض الأحيان ما كان ليثني من همّتهم أو يضعف من عزيمتم في العبادات أو الجهاد، فإذا جاءت المدلهمات والشدائد كانوا هم الرجال.

## رابعًا: مزاح التابعين رحمهم الله

بعد أن تعرّضنا في الصفحات السابقة لنماذج من مزاح النبي ﷺ وبعض من الممازحات التي دارت بين صحابته الكرام، سنحاول هنا أن نختم بالتوقف عند نماذج من مزاح التابعين -رحمهم الله- حيث تروي لنا كتب التراجم العديد من الممازحات التي كانت تدور بين التابعين بعضهم مع

البعض، أو التي كانوا طرفًا فيها مع غيرهم، وأثناء تنقيبنا وبحثنا في تلك الكتب تأكد لدينا أنّ هناك بعض التابعين -رحمهم الله- ممن اشتهروا في هذا المجال، فكانت مداعباتهم عديدة وملاطفاتهم شهيرة، وسنعرض لنماذج من أولئك الذين اشتهروا بذلك من التابعين، نظرًا لكون المقام لا يسمح بالتعرض لجميعهم، فمن بينهم نذكر:

أ- **شريح القاضي**(٤٣): ومما يروى عنه في المزاح والدعابة أنه دخل عليه عدي بن أرطأة فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ فقال: بينك وبين الحائط. كما مر ذات يوم بمجلس من همدان فسلّم عليهم، فردّوا عليه وقاموا ورحّبوا به، فقال: يا معشر همدان، إني لأعرف أهل بيت منكم لا يحلّ لهم الكذب، فقالوا: من هم، يا أبا أمية؟! فقال: ما أنا بالذي أخبركم، فجعلوا يسألونه، وتبعوه ميلاً أو قريبًا منه يقولون له: من هم؟ وهو يقول: لا أخبركم، فانصرفوا عنه يتلهفون، ليته أخبرنا بهم(٤٤).

ب- **الإمام أبو حنيفة النعمان**(٤٥): وكان هذا الإمام -رحمه الله- فيه دعابة مشهورة، فقد رويت عنه مجموعة من القصص الطريفة نذكر منها أنه ذات مرة جاءه رجل، فقال: إذا نزعت ثيابي ودخلت النهر أغتسل، فإلى القبلة أتوجه أو إلى غيرها، فقال له: الأفضل أن يكون وجهك إلى ثيابك؛ لئلا تسرق!! ومن بين الطرائف التي تروى عنه أيضًا أنه وقع بين الأعمش وامرأته وحشة، فسأل الأعمش بعض أصحابه -قيل إنه سأل أبا

حنيفة- أن يصلح بينهما، فجاء فقال لها: هذا سيدنا وشيخنا أبو محمد، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، وحموشة ساقيه، وضعف ركبتيه، وقزل رجليه، وجعل يصف، فقال الأعمش: قم عنا، فقد ذكرت لها من عيوبي ما لم تكن تعرفه[٤٦]!

**ت- الشعبي**[٤٧]: فقد كان مزاحًا هو الآخر -رحمه الله- فقد سأله رجل عن المسح على اللحية، فقال له: خلّلها بأصابعك، فقال: أخاف أن لا تبلها، قال الشعبي: إن خفت فأنقعها من أول الليل! ومما يروى عنه أيضًا أنه مر به خياط، وهو مع امرأته فقال: أيكما الشعبي؟ فقال: هذا الشعبي: مشيرًا إلى المرأة! ومن طرائفه أيضًا أنه سأله رجل فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ فقال: ذلك نكاح ما شهدناه. ومن ممازحاته التي تروى عنه أيضًا أنّ رجلاً سأله بخصوص قوله ﷺ «تسحروا ولو بأن يضع أحدكم أصبعه على التراب ثم يضعها في فيه» أي الأصابع؟ فتناول الشعبي إبهام رجله، وقال: هذه[٤٨]!

ومما روي عنه أيضًا أنه قيل له: هل تمرض الروح؟ قال: نعم من ظل الثقلاء. قال بعض أصحابه فمررت به يومًا وهو بين ثقيلين فقلت: كيف الروح؟ قال في النزع[٤٩]!

بعد عرضنا لهذه النماذج من مزاح التابعين -رضوان الله عليهم أجمعين- يتبين لنا أنها قد صدرت كلها من أعيان معروفين بالعلم والورع والتقوى (شريح، أبو حنيفة، الشعبي) الأمر الذي يدل على

أنّ المزاح لا يتنافى مع تلك الصفات، وأنه إذا لم تتخلله بعض المحظورات الشرعية، فإنه يكون مباحًا ولا شيء فيه، بل يندب أحيانًا للترويح عن النفس وتنشيطها للعبادة، والابتعاد بها عن الفتور والملل.

## الخـاتمـة

لقد حاولنا في الوريقات السابقة أن نعالج -بإيجاز شديد- موضوع المزاح والدعابة في الإسلام من خلال قراءة في نماذج من السيرة النبوية وهدي الصحابة والتابعين في هذا الصدد، وقد قادتنا تلك الجولة إلى الخروج بمجموعة من الملاحظات نوجزها في الآتي:

١- أنّ المزاح والدعابة والفكاهة ألفاظ متقاربة جدًّا، إن لم نقل إنها ألفاظ بمعنى، حيث تعني في غالبها الملاطفة في القول والمباسطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف.

٢- أنّ هذا الموضوع تتقاطع فيه تخصصات عدة؛ لذلك فهو لا تمكن دراسته من زاوية واحدة، فهو إضافة إلى ما سطّره أصحاب اللغة والفقهاء، فإنه قد تحدّث عنه الأدباء والأطباء، بالإضافة إلى جهود علماء النفس وعلماء الاجتماع والتاريخ وغير ذلك.

٣- أنّ المزاح هدي نبوي، ومقصد شرعي، وردت أحاديث صحيحة تدل على وقوعه من النبي ﷺ ومن صحبه.

٤- أنّ الموضوع يتنزل ضمن المقاصد الشرعية، قسم المقاصد التحسينية منها؛ لأنه يجري مجرى التحسين والتزيين، وليس فقدانه مخلاً بأمر ضروري ولا حاجي.

٥- أنه لا ينبغي الإكثار من المزاح ولا أن يصير شغلاً للمرء يفني فيه وقته ويضيع عمره، بل يقتصر منه على النزر القليل الذي يريح القلوب ويزيل عنها الغموم والهموم، لا ما يكثر منه الضحك الموجب لقسوة القلوب المؤدية لموتها.

٦- أنّ رسول الله ﷺ قدم لنا نماذج حية من المزاح المطلوب شرعًا والخاضع لقانون الشريعة، غير أنّ مزاحه ﷺ في الحقيقة ليس مزاحًا إلا باعتبار الصورة، إذ لا يخلو عن بشرى فاضلة أو مصلحة شاملة.

٧- أنّ الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- كانوا يمزحون مع النبي ﷺ وكانوا يمزحون فيما بينهم، كما أنه أثر عن السلف الصالح روايات من ذلك، غير أنه مع ذلك لم يكن يلهيهم عن كبار المسائل ومهمات الأمور.

وعلى أيّ فإنّ الإسلام كان سبّاقًا إلى الانتباه إلى رسالة المزاح الاجتماعية، فهو قد عده أداة للترويح عن النفس، وإخراجها من حيز الملل، للتمكن من الاستمرار في العبادات والطاعات، كما جعله طريقًا موصلة للألفة بين العشائر والإخوان، والتقريب بين الأهل والخلان، بيد أنّ الإسلام لم يسمح للمزاح أن ينفلت من كل عقال، ولا أن يتعاطى ويمارس في كل حال، فيستنزف كل أوقات المؤمن وطاقاته، ويصرفه عن عباداته ومعاملاته، وإنما جعل له ضوابط تقيده وحدودًا تحدده، حتى يتمكن من تحقيق غايته السامية وأهدافه النبيلة.

**الهوامش:**

* أستاذ مادة الحضارة الإسلامية بجامعة محمد الأمين الشنقيطي– انواكشوط/ موريتانيا.

(١) **صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان**: لمحمد بن حبان، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) باب المزاح والضحك، (١٣/١٠٦).

(٢) **شرح الشمائل المحمدية المسمّى بالفوائد الجليلة البهية**: للعلامة جسوس، مرجع سابق، (٣٢\٢).

(٣) **الجامع المختصر من السنن**: للترمذي، تخريج وترقيم وضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٤٢٥-١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) (٤٦) كتاب فضائل القرآن، الباب (٢٠) الحديث (٢٩٢٧) ص (٨٢٧) وقال: هذا حديث ليس إسناده بالقوي.

(٤) **السنن**: لأبي داود: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لبنان، (٤٢) كتاب الأدب، (٩٢) باب ما جاء في المزاح، الحديث (٥٠٠٢).

(٥) **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: لابن الأثير، بدون تاريخ ومكان الطبعة، (٦٢٥/١-٦٢٦).

(٦) الآيات: ٣٧-٣٩. من سورة الواقعة.

(٧) **شرح الشمائل المحمدية المسمّى بالفوائد الجليلة البهية**: للعلامة جسوس، مرجع سابق، (٣٢\٢).

(٨) المرجع السابق: (٣٣\٢).

(٩) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**: للصالحي الشامي، بدون تاريخ ومكان الطبعة، (١١٤/٧/٤).

(١٠) **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م (٣٥٦/٧) الحديث (١٨٦٤٦).

(١١) **المراح في المزاح**، للعلامة العزي، ص (١٥).

(١٢) المرجع السابق: ص (١٥).

(١٣) **سنن النسائي الكبرى**: للإمام النسائي، تحقيق د/عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤١١هـ/١٩٩١م) (٢٩١/٥) الحديث (٨٩١٧).

(١٤) **المراح في المزاح**: للعزي، مرجع سابق، ص (١٦-١٧).

(١٥) المرجع السابق: ص (٣٣-٣٤).

(١٦) الآية (٤) من سورة القلم.

(١٧) النغير: تصغير النغر، وهي طير كالعصافير، حمر المناقير، قال الأزهري: النغر طائر يشبه العصفور، وتصغيره نغير، ويجمع على نغران، مثل صرد وصردان، وقيل هو صغار العصافير تراه أبدًا صغيرًا ضاويًا. **لسان العرب**: مرجع سابق، (٢٢٣/٥) مادة نغر.

(١٨) **صحيح البخاري**: مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى: (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) كتاب الأدب: باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل. حديث رقم: (٦٢٠٣).

(١٩) خائر بمعجمة ومثلثة، أي ثقيل النفس غير نشيط.

(٢٠) **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: للإمام الحافظ ابن حجر، طبعة جديدة ومنقّحة اعتنى بإخراجها الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله، دار السلام للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض الطبعة الأولى: (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) (٥٨٣/١٠).

(٢١) **شرح الشمائل**: للعلامة جسوس، مرجع سابق، (٢\٢٨).

(٢٢) **فتح الباري**: لابن حجر، مرجع سابق، (١٠\٥٨٤-٥٨٥).

(٢٣) المرجع السابق والصفحة.

(٢٤) **المراح في المزاح**: للعلامة العزي، (١٥).

(٢٥) **سنن الترمذي**: مرجع سابق، كتاب البر والصلة: باب ما جاء في المزاح. الحديث رقم (١٩١٥).

(٢٦) **شرح عمود النسب**: للعلامة حماد بن الأمين، راجعه وعلّق عليه وكمّله العلاّمة اباه بن محمد عالي بن نعم العبد، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م (٧٣٢/٢).

(٢٧) **صحيح البخاري**: (١٣) كتاب مواقيت الصلاة، (١٠) باب وقت الظهر عند الزوال، الحديث (٥١٥) ومسلم: (٤٤) كتاب الفضائل، (٣٦) باب وجوب اتباعه ﷺ الحديث (٦٢٧٠).

(٢٨) **الإصابة في تمييز الصحابة**، للحافظ ابن حجر، راجع نصوصه وضبط أعلامه، صدقي جميل العطار، دار الفكر، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ/٢٠٠١م (٣٥٨\٥).

(٢٩) القرم بفتحتين شدة الشهوة إلى اللحم.

(٣٠) **أسد الغابة**: لابن الأثير، مرجع سابق، (٥٧٦\٤).

(٣١) سيدنا محمد رسول الله ﷺ شمائله الحميدة خصاله المجيدة: بقلم عبد الله سراج الدين، ص١٥١.

(٣٢) **مجمع الزائد**: للهيثمي، مرجع سابق، (٨٩\٨).

(٣٣) **شرح عمود النسب**: مرجع سابق، (٢/٧١٣-٧١٤).

(٣٤) **كتاب المغازي**: الواقدي: (١/٩٨٣- ٩٨٤).

(٣٥) الظهر بالفتح وسكون الهاء: الإبل التي يحمل عليها وتركب.

(٣٦) القلائص جمع قلوص وهي الناقة الشابة.

(٣٧) **أسد الغابة**: لابن الأثير، مرجع سابق، (٥٧٥\٤-٥٧٦).

(٣٨) **الإصابة**: لابن حجر، مرجع سابق، (٣٥٨\٥).

(٣٩) المرجع السابق، (٣٥٨\٥).

(٤٠) تنظر القصة في **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: لابن عبد البر، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان. الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م (٣/٣٥-٣٦) وكتاب **المراح في المزاح**: للعزي، (٣٤-٣٥).

(٤١) **المراح في المزاح**: للعزي، ص(٣١-٣٢).

(٤٢) **المراح في المزاح**: للعزي، ص(٣١-٣٢).

(٤٣) هو سيد التابعين شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمية: (٧٨هـ= ٦٩٧م) من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام. أصله من اليمن. ولي قضاء الكوفة، في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية. واستعفى في أيام الحجاج، فأعفاه سنة ٧٧هـ وكان ثقة في الحديث، مأمونًا في القضاء، له باع في الأدب والشِّعر. وعمّر طويلاً، ومات بالكوفة. ترجمته في **حلية الأولياء**: لأبي نعيم، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ (١٣٢/٤) و**الأعلام**: للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م، (١٦١/٣).

(٤٤) **المراح في المزاح**: للعزي، ص (٥٤).

(٤٥) هو الإمام أبو حنيفة غني عن التعريف (٨٠-١٥٠هـ/٩٩-٧٦٧م) النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء. كان قوي الحجة، من أحسن الناس منطقًا، قال الإمام مالك، يصفه: رأيت رجلاً لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته! وأخباره لا يمكن استقصاؤها هنا. ترجمته في **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: لابن خلكان، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٤م (٤٠٥/٥) و**الأعلام**: للزركلي، مرجع سابق، (٣٦/٨)

(٤٦) **المراح في المزاح**: للعزي، ص(٥٣).

(٤٧) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي، أبو عمرو: (١٩-١٠٣هـ/٤٠-٧٢١ م) راوية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه. ولد ونشأ ومات بالكوفة. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان سميره ورسوله إلى ملك الروم. وكان ضئيلاً نحيفًا، ولد لسبعة أشهر. وسئل عمّا بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا

حدثني رجل بحديث إلا حفظته. وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز. وكان فقيهًا، شاعرًا. ترجمته في **حلية الأولياء**: لأبي نعيم، مرجع سابق، (٣١٠/٤) و**الأعلام**: للزركلي، مرجع سابق، (٢٥١/٣).

(٤٨) **المراح في المزاح**: للعزي، ص(٤٠).

(٤٩) **أخبار الظرفاء والمتماجنين**: لابن الجوزي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٧م، الطبعة الأولى، ص(٦٢).

# تصحيحات الميمني وإضافاته

## على حواش لسمط اللآلي

## (المطبوع بتحقيقه عام ١٩٣٦م)

## (٢)

بقلم: د. أحمد خان*

- ص "٦١٤" س١٨= قول الباهلي في **محاسن الجاحظ** ٩٧. وهنا بآخر السطر أفادنا أنها الكلمة الريح موضع "الأرض".
- ص "٦٢٦" س٢٠-١٩= هنا وردت الأبيات لفاطمة بنت الأحجم، وأفادنا عن مصدرها الآخر، الأخيران في **البيان** ١/ ١٧٨.

- ص "٦٢٩" س٩= ضمن أبيات مقرن أفادنا الميمني وجودها: والأبيات فضلاً عن التبريزي في طرة **معجم المرزباني** ٨.
- ص "٦٣٠" س٧= إفادة من الميمني حول سهوان أبي علي، فهي: السهوان لأبي بكر بن دريد، وأبو علي منهما براء.
- ص "٦٣٠" س١٩= ونقل عن **معاني الأشنانداني**، وليس في طبعته، وأفادنا ضمنها؛ ثم وجدتها في ذيله الثالث المخطوط رقم ٢١٣ (من أية مكتبة؟).
- ص "٦٥١" س١٣= ورد هنا والأشطار لأبي المجيب الربعي، وأشار الميمني أنها وردت في **الفهرست** ١٠٣.
- ص "٦٥٤" س٢١= هنا أضاف في الحاشية الرقم (٥) في نسخة **مجالس ثعلب بالدار** ص٧٤، ولطبعته ٢٨٤.
- ص "٦٥٩" س١٤= ضمن بيت:

إذا مذلت رجلي دعوتك أشتفي    بذكراك من مذل بها فيهون

أفادنا الميمني أنه: لكثيّر في **عيار الشِّعر** ٣٥.

- ص "٦٦٥" س أخير الصفحة= هنا صحح اسم الرُّقَاد بـ الرَّقّاد.
- ص "٦٦٩" س٣-٢= ورد هنا بيتان، وأفادنا الميمني فأشار إلى أنّ الأبيات في **نزهة الأبصار والأسماع** ٥١.
- ص "٦٧٠" س١٨= ورد ابن الحاركي في الحاشية الرقم (٢)، وصححه الميمني أنه ابن الخاركي، بالخاء المعجمة.

- ص "٦٧٠" س١٩= ورد في الحاشية: الرقم (٣) أنشدنا أبو عميرة النميري، وصححه الميمني بـ أبو خالد النميري.
- ص "٦٧٠" س٢١= بآخر الحاشية: وفي ديوانه صنع حمزة ١٧٥.
- ص "٦٧١" س٢= رواية أخرى لبيت الذكواني: والفحش مسبوب، في **الحيوان**.
- ص "٦٧١" س٤= قوّم الكلمة في البيت: الأكنان، وهي جمع الكنّ.
- ص "٦٧٣" س٣= كما قال الآخر، وأفادنا الميمني أنه خالد بن علقمة بن علاثة، في **الوحشيات** ١٢٠.
- ص "٦٧٩" س١٨= شطب العبارة من الحاشية الرقم (١): البيت أخلّت به القصيدة، وهو بعد:

صبحن بني عبس البيت في شرح المختار من أشعار بشّار، من كلمة في ٤١ بيتًا في **منتهى الطلب** وقد مر ٤٥٩.

- ص "٦٨٠" س أخير من الصفحة= أضاف بآخر الحاشية (٢): وأربعة في **خيل أبي عبيدة** ١٦٧.
- ص "٦٨٤" س١٩= أضاف في الحاشية الرقم (٣) بعد د ٢٩ و**معاني العسكري** ٢/١٢٥.
- ص "٦٩٥" س٢٠= أضاف في الحاشية الرقم (٢) بعد... في الشعراء ٤٧٩، و٨ في **طبقات ابن المعتز** ٥.

- ص"٦٩٦" س١٧= بآخر الحاشية الرقم (١)، بعد البكري وهو من بيتين لعيش بن المطر السامري في **نقد الشِّعر** ٤٤.
- ص "٦٩٦" س الأخير من الصفحة= أضاف بعد اسم ورد بن ورد الجعدي: و**الأدباء** ٥/٣٨٨، وسمّاه وردا الجعدي.
- ص "٦٩٧" س١٦= أضاف في الحاشية السابقة، بعد اسم الجهشياري ٢٣٧: الورقة ٣ ذكراه وسمّياه.
- ص "٧٠٢" س١٨= أخبرنا الميمني أنه سقط هنا بعد: ❖ حتى إذا أجرس كل طائر ❖ شطران:

وألجأ الكلب إلى المآخر    تميّز الليل لأحوى جآشر

- ص "٧١٧" س١٧= هنا رواية الطنجي، وصححها بـ الطّبيخي.
- ص "٧٢٥" س٢= أفادنا الميمني بمصدرين لبيت ابن أحمر: المعاني طرة ٨٧، والمطبوع ٦٨٣، والحيوان ٥/١٤٦.
- ص "٧٤٥" س١٧-١٦= أضاف في الحاشية الرقم (٢) بعد مرثيته هذه في الأوراق ١٣٥. وبعد عبارة:
  وترى ترجمة أشجع في **الأوراق**، و**الخالديان** ٣٧٦ لمعروف بن مالك النهشلي.
- ص "٧٤٨" س١٥= أضاف الميمني في الحاشية الرقم (٢) بعد و**الجمهرة** ١/٤٠، و**الفصول** ٤٤٣، و**المعاني** ١٠٦٧.

- ص "٧٥٣" س الأخير من الصفحة= أفاد الميمني أنه كلمة "يوما" في **المعاني** مكان "فوقا". وأضاف بآخرها **شعراء النصرانية** بعد الإسلام ٨٤، عن **جمهرة الإسلام** أربعة، وبيتان في **المعاني** ١٤ ب، و**الحيوان** ١٣١/٥.
- ص "٧٦٢" س الأخير من الصفحة= أضاف الميمني هنا: وإنما ذهب إليه أن لابن هرمة كلمة سائرة في الوزن والقافية منها:

كتاركة بيضها بالعراء      وملحفة بيض أخرى جناحا

- ص "٧٦٤" س٢٠= أضاف في الحاشية الرقم (٤) بعد في **إبل الأصمعي** ٨٦: و**معاني العسكري** ١٢٧/٢.
- ص "٧٦٨" س١٤= بيت جرير الخطفى ورد في **المعاني** ٣٦٨ دون عزو.
- ص "٧٧٢" س٦= جاء الميمني بمصدر لبيت الراعي، فأورد أنه في **معاني القتبي** ٤٠٩، وآناء جمع نؤى مقلوبًا، و ل ١٨٠/١٧.
- ص "٧٧٢" س١١= قال لبيت نابغة بني جعده، انظر الجمحي فقرة ٢٢٤.
- ص "٧٧٣" س١١-١٠= أخبرنا الميمني ضمن هذين البيتين أنهما لابن الغريرة النهشلي في أوس بن مالك الجرمي برواية: "يا أوس ما طلعت ... وباختلاف في رواية الثالثة عند المرزباني رقم ٤٨.

- ص "٧٧٦" س٩= ورد البيـت هنـا للفـرزدق وأورد المـيمني مصدرًا آخر وقال: البيت في **سيبويه** ٢/ ٢٢٧.
- ص "٧٧٧" السطر ما قبل الأخير= أضاف هنا بعـد: والأبيات أربعة عند الهجري ٨٨، وخمسة في **الاقتضاب**.
- ص "٧٨٨" س١٣= أفادنا الميمني أن البيت في المعاني ٣٩٤.
- ص "٧٩٠" س٢= هنا بيت لـسلمى بـن غويّة، وأخـبر الميمني أنـه في **مجـالس ثعلـب** ١٢١، وطبعتـه الأولى ١/ ٢٩٥، الثانيـة ١/ ٢٤٥.
- ص "٧٩١" س٩-٧= بـشأن المـضرّب بـن كعـب إفـادة مـن الميمني: **أمالي ابن دريد** ص٢٩، قال أبـو عبيـدة: كـان عقبـة بن زهير بن أبي سلمى يشبب بسلمى إحدى نساء بـني الجليح فتوعّدوه، فقال:

تذكر سلمى أنه لطروب من ١٥ بيتًا فيها بيت القالي الثامن.

- ص "٧٩٥" س٢= أضـاف بـآخر الحاشـية الـرقم (١): وطبعـة **أشباه الخالديين** ١/ ٦١.
- ص "٧٩٩" س١٢= هنا لا يعرف في العرب بنوهليك. وأفادنا الميمني: وأخـاف أنّ هليـك مـصحّف لـهليل مكـبرًا بالإمالـة، كما قالوا في هلال بن المحسّن الـ هِلَيْل، في **نشوار الأدباء**. فهـذا تـصحف قـديم جـدًّا، الميمني. (وقـع الميمني بـآخر الإفـادة،

ويبدو أنّ الإفادة التي يعتبرها أستاذنا هامة وفي نظره تحتاج الانتباه، يوقع بآخرها).

- ص "٨٠٠" س١٨= هنا ورد في الحاشية الرقم (٢) اسم عبدالمسيح بن بقيله، وأشار الميمني أنّ ترجمته في **الديارات** ١٥٤.
- ص "٨٠٧" س١= هنا هذا البيت لعبدالله بن محمد بن عباد والخولاني، قاله الهمداني في **كتاب الإكليل**. وأورد الميمني خبرًا عن هذا الشاعر غيره، وقال: الذي رأيته فيه (أي الإكليل) ٢٤٥/١، أنه أنشده له مسلمة الخيواني. وابن حازم الصدي قال: وسألت أولاده عن هذا البيت فشكّوا فيه.
- ص "٨٠٨" ما قبل الأخير من الصفحة= أضاف الميمني بآخر الحاشية الرقم (٥): هذا، وذكر النجاشي في **فهرسته** ١١٦ بومبائي في ترجمة دعبل، أنّ له كتاب **الواحدة في مثالب العرب ومناقبها**.
- ص "٨١٥" س٨= ورد في **الكتاب** اسم أحمد النَّصِيبي، فأفاد الميمني: والصواب في غ الدار، النصبي.
- ص "٨١٥" السطر الأخير= أضاف بآخر الحاشية الرقم ٧: ثم رأيت ابن أبي عون ٢٨٠ نسبهما للحكم بن قنبر.
- ص "٨٢١" س٦= أورد هنا الإفادة: الوصية في **لباب الآداب** ٢٢.

- ص "٨٢٥" س٧-٦= أورد ضمن قول صاعد بن الحسين، أنه من أصل الهجري ٧ في ١١ بيتًا بلا عزو، وروايته: ❖أوقدتها بذي حسا❖ وليس منها بيتا صاعد.
- ص "٨٢٦" س٩= صحح الكلمة في بيت عمرو بن شأس بـ"أن تكوني" مكان "أن تكون" ، في البيت.
- ص "٨٢٦" س٢٠= وأضاف في الحاشية الرقم (٤) بعد الأبيات سبعة في أخباره من غ ٦٢/١٠، وستة في **البصرية**، وبيتان ... .
- ص "٨٢٧" س١٦= أضاف في الحاشية الرقم (١) بعد في **الشعراء** ٤٠٦، و١١ في **البصرية**.
- ص "٨٢٨" س١= ضمن بيت أبي يزيد العقيلي، أخبرنا أنه في أصل المعاني ٣٦٦.(❖)
- ص "٨٣٠" س١٥= أنشد أبو علي:
-

كأنما كسرت سواعده ثم وعى جرحه وما التأما

وأفاد الميمني أنّ البيت لابن قيس الرقيات من كلمة ص٢٥٩، ٣١/٦١، و الفصول ٤٠٨(❖).

- ص٨٣١ س١٣= أضاف المصدر الآخر بآخر... والإبل٨٩ والفصول ٤٠٩.

- ص٨٣٤ س٦ = أنشد أبو علي:

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فأبعدكنّ الله من شجرات

وأفاد الميمني أنّ البيت مع آخرين بلا عزو في رسائل الوطواط ٧٨/١. ثم أضاف في الحاشية للبيت: ثم وجدته في **المحاضرات** ٣٤٦/٢ خثعمة البكائي، وأنشد بيتين (إذا كان) وآخر ليس هنا.

- ص "٨٣٩" س٩= أنشد أبو علي بيتا، وأخبرنا الميمني أنه ورد في المعاني ٣٧ ب (❖).
- ص "٨٣٩" س١٦-١٥= هنا بيت للمهلبي، وأفادنا أستاذنا أنهما بيتان له في **طراز المجالس** ط سنة ١٢٨٤هـ، ص٢٠١.
- ص "٨٤٠" س١٦= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١): في أحسن ما سمعت ٥٢ بلا عزو.
- ص "٨٤٢" س١٤= هنا أضاف حاشية كاملة الرقم (٦) على إنشاد أبي علي شعرًا: عن أحمد بن يحيى، ورأيته في نسخة **مجالسه بالدار** ص١٣، عن ابن الأعرابي لأبي السمح، والأبيات ثلاثة في خبر برواية اسحق الموصلي، في **بلاغات النساء** ١٤١.

- ص "٨٤٨" س ما قبل الأخير في الصفحة= هنا صحح جزء **الحماسة** المذكور في الحاشية، وهو صوابه ٤، حيث إنه كان في المطبوع ٣.
- ص "٨٥٥" س٩= هنا ورد بيت للعطوي. وأخبرنا الأستاذ: أربعة الكامل في ابن أبي الحديد ٢/٥٣٦.
- ص "٨٥٦" السطر الأخير من الصفحة= وأضاف بعد اسم محمد ابن عبيد الأزدي: وثلاثة أخرى عند المرزباني ٤١٧، وسمّاه كالبحتري.
- ص "٨٥٩" س٣= قوّم الكلمة "أُسَيد" بـ "أُسَيِّد" في البيت المذكور هنا.
- ص "٨٥٩" س١٣= صحح الاسم هنا من مرة بن عدي الفقعسي إلى مرة بن عداء الفقعسي.
- ص "٨٦٠" س٢١= أضاف في الحاشية الرقم (٣) حول كلمة "فلمّا ترك الألف ألقى الفتح"، كذا في **فصول المعرّي** ١٠٦.
- ص "٨٦٢" س١٩= أضاف في الحاشية الرقم (٢) بعد "وانظر البيت في": **الحيوان** ٥/١٠١، و... .
- ص "٨٦٥" س٧= هنا إفادة حول أبي البيداء: وترى في الورقة رقم ٥ في ترجمته بعض أبيات من مقصورته.

- ص "٨٧١" س٦= هنا إفادة حول أبي الذيّال: ترجم له ابن الجراح رقم ٢٢، وسمّاه أبا فرعون الساسي اشويسا (؟)، وابن المعتز ص٣٧٦ [ط دار المعارف].
- ص "٨٧٢" س١٨= أشار إلى مصدر آخر لبيتين ورد هنا في الحاشية الرقم (٢): **الكامل** ١١٩.
- ص "٨٨٩" س١٢= أفاد هنا ضمن بيت عدي بن زيد، أنه في المعاني للقتبي ٤٧٤.
- ص "٨٩٢" السطر الأخير من الصفحة= أشار إلى اختلاف الكلمة الواردة في البيت: والأصلان (نمدّ لهم)، وفي **المعاني** "يمدلهم". وأضاف في المصادر: وثلاثة في **البخلاء** ٢٠٢ سنة ١٩٤٨م.
- ص "٨٩٨" س١٥= صحح كلمة في البيت من برُكبته إلى برِكبته.
- ص "٩٠٤" س١٣= أشار إلى مصدري البيت: **المعاني** ٣٢٥، **معاني أبي هلال** ١/ ٣٥٤.
- ص "٩٠٥" السطر الأخير من الصفحة= أضاف في الحاشية الرقم (٦) بآخرها: ثم رأيتهما بآخر **معاني الأشنانداني** (خطي)، والنويري ٧/ ٥٤.

- ص "٩١٤" س١٠= هنـا أضـاف أولا : مطلـع كلمـة لـه في **مجالس ثعلب** ص١٢٥ أصـل الـدار في ١٢ بيتًـا ، يهجـو بـني معاوية بن قشير، ثم شطب الإفادة.
- ص "٩١٧" س١١= أشار إلى مصدر البيت وقائله : في **أمالي الزجاجي** ٦٧ ، والبيت للجعدي.
- ص "٩٢٤" السطر الأخير من الصفحة= أضاف في الحاشية الرقم (٤) بعد ابن الشجري ١٥٣ : وهـي ١١ بيتا لرجل من جشم بن معاوية ، في **إيضاح النمري** ٣٢ ، أصل الدار.
- ص "٩٢٦" س١٠= أفاد هنا لـ "أنشدها غير واحد" وأشار إلى المرزباني ٤٠٩.
- ص "٩٢٦" س٢٠= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١): وهي تسعة بتفسيرها رواية ابن دريد عن الأشنانداني في آخر نسخة معانيه بالظاهرية بدمشق ، وفيه الثلاثة التي ذكر هي أيام حمة وأيام ذي تمور ولحبالة أذ هو يافع والرابع بعد المشيب ، هو قوله :

أقاتلتي بعد الذماء.. أهـ

قلت : يريد بيته :

أم تجمـع لـي دون أيـام حمتـه وأيـام ذي قـدر علـيّ الرواجـع

- ص "٩٢٨" س٢٠= أضاف في الحاشية الرقم (١): و**الخالديّان** و**المغربية** ١٤٨.
- ص "٩٣٠" س١٧= صحح كلمة "فعلمت" بـ "فعملت".
- ص "٩٣٤" س٨= أضاف السقطة بعد "تفسير أبي": علي.
- ص "٩٣٨" س٥= أفاد ضمن بيت للشاعر: هما بيتان في **ديوان ابن عبدالملك الزيات**، ص٣.
- ص"٩٣٩" الأخير من الصفحة= وأضاف في الحاشية الرقم (٤): ومنتهى الطلب في ٢٣ بيتًا.
- ص "٩٤٠" س٢٠= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١): والأول لأبي سعد المخزومي يقوله لمحمد بن منصور في **المحدثين** ١٣٦. [**طبقات ابن المعتز** (ط مصر) ٢٩٦]
- ص "٩٤٨" س٢٠= أضاف بعد الشطر "ألا ليت ريعان الشباب": وزاد الهجري ٣٧٦ فيها أربعة أبيات.
- ص "٩٥٠" س٩= صحح كلمة "تنائيهم" بـ"تناديهم"، في بيت قصي بن كلاب.
- ص "٩٥٩" السطر ما قبل الآخر في الصفحة= أضاف بعد الحاشية الرقم (٣): وابن أبي عون ٢١٦.
- ص "٩٦٠" س٨= أرجح الكلمة في الشطر من "الداجحا" بـ "الدآرجا".

- ص "٩٦١" س١٧= أضـــاف بـــآخر الحاشـــية الـــرقم (١): و**مجالس ثعلب** ١/ ٢٨٨.
- ص "٩٦٦" س٩= أفـاد ضـمن بيـت بنـت علـي بـن الربيـع الحارثي: ـثم رأيت الأول مطلع ١٥ بيتًا لأشجع السلمي يرثي أخاه، في **الأوراق** (الشعراء) ١٣٢.
- ص آخر **سمط اللآلي** س١٩= صـحح الكلمـة "لم يُـرِم" بـ"لم يَرِم".

❖ ❖ ❖

الجزء الثالث من **سمط اللآلي** وهو **ذيل الأمالي**

- الصفحة الأولى س١٤= أفاد ضمن بيت في السطر: الأبيات سـبعة بـاختلاف في **أخـلاق الـوزيرين** ٣٧٤، لابـن منظـور الفقعسي.
- ص "٩" س١٢= في رواية المبرِّد: وكذا **طبقات ابن المعتز** ٩٥.
- ص "١٠" س١= بدل اسم "القتبي" بـ"الليثي".
- ص "١٠" س١٥= ضـــمن إنـــشاد البيـــت لثُبَيـــت أشـــار إلى المصدر: **الحيوان** ٤/ ٨٦.
- ص "١٠" س١٨= أيد في صحة الكلمة (تدهـده القـرآن)، بـ: وكذا في نسخة نور القبس ٦٠ ب.

- ص "١٠" س٢١= أضاف مصدرًا قبل الشعراء ٥٤٣ من الحاشية الرقم (١): **الحيوان** ٣/٣٥.
- ص "١١" س١= أشار إلى مصدر ضمن الأبيات: وابن أبي عون ٢٧٨.
- ص "١١" س١٩-١٨= أفاد ضمن الأبيات المذكورة: وفي **الزهرة** ٣٢٤، ٦ أبيات من أولها لأبي صخر الهذلي، ولكن أخلّ بها **أشعار هذيل**.
- ص "١٥" بآخر الصفحة= ضمن الحاشية الرقم (٦) أورد: **الغرر والعرر** ١/٧، و**حماسة العبدلكاني**.
- ص "١٦" س١١= إفادة في خبر عبدالله بن خازم: المرزباني ٣٣٩_[٢٢٣ ط البابي] للقمقام بن العباهل بن... سحيم بن العزيز، وهو مع الثاني أو الثالث ملك حضرموت واليمن. انظر لبعض أخباره في الشجاعة، **المحبّر** ٢٢٢، وابن عساكر ٧/٣٧٦.
- ص "١٧" س١٦= أفاد ضمن اسم ابن عرادة: ومحمد بن عرادة ابن النميرى (صوابه التميمي) ترجم له المرزباني ص٤١٤ [**معجم الشعراء** ٣٤٧ ط البابي].
- ص "١٧" س١٩= أشار إلى قائل البيت المذكور هنا: لحنظلة البغال ٤٣، الجهشياري ١٦٦.

- ص "١٩" س١-١١= أشار إلى مصدر ضمن هذه الأبيات: سبعة منها في **نزهة الأبصار والأسماع** ٣٠.
- ص "٢١" س٩= افادة ضمن بيت القاسم: في **لباب الآداب** ٣٦٥ لكعب بن جعيل، وقال ضمن البيتين الأخيرين: وهذان الآخيران بزيادة آخرين للقاسم، في المرزباني ٣٣٢.
- ص "٢٢" س٢٠= ضمن بيت حماسي أفادنا الميمني: ثم وجدت الخمسة كلها في ترجمة المهلب، من **الوفيات** رقم ٧٨١.
- ص٢٢ س٢٦= أضاف بآخر الحاشية الرقم (٦): و**أمالي ابن دريد** ص٥٢.
- ص "٢٢" بآخر الحاشية الرقم (٩) من هذه الصفحة= و**الوحشيات** رقم ٢٧٢.
- ص "٢٣" س١٣= أفادنا ضمن خبر ابن عبدل أنه: في **جواهر الحصري** ٨٢.
- ص"٢٣" س١٤= أخبرنا عن زلاته المعدودة وقال: تبع فيه ابن دريد في **أماليه** ص٦ نسخة الناصرية بتمكروت.
- ص "٢٤" س٦= أضاف على "الأبيات الأربعة" للجاحظ: وأبياته على الهمز، أنشدها ابن المعتز ١٧٧/٣٧٥، وهي ثلاثة، وابن دريد في **أماليه** ص٧ نسخة الناصرية بتمكروت المغرب.

- ص "٢٤" س٢١= أضــاف في الحاشــية الــرقم (٢) قبــل الشريشي: ابن ماكولا، وبعد الحصري ١٤٧/١، **جواهره** ٩٤، وبآخر الحاشية: ترجم له ابن المعتز ١٧٦، والخطيب ١١٤٣، **الجواهر** ٩٤.
- ص٢٤ س٢٦= وصوب رقم الصفحة في الحاشية الرقم (٩): **البيان** ١٢٦/٣.
- ص "٢٦" س٢٣= أضـاف المـصدر في الحاشـية الـرقم (٤)، وذلك: **أمالي ابن دريد** ص٩٧، قبل ابن عساكر.
- ص "٣١" س٦= إفـادة ضـمن البيـتين اختُلـف في قائلـهما: البيتان في **لباب الآداب** ٣٢٢ بلا عزو.
- ص "٣٢" س٢١= إفــادة ضــمن البيــت: وكــذا يــاقوت في **معجمه** برواية: "نخور الفيول"، وزاد ثالثًا بـ:

قد غمرنا، وقد رأينا لدى الـسحيرة في الشلخين خير قتيل

وهذه غير سلحين التي باليمن؛ وعزاها لهانئ بن...

- ص "٣٢" س٢٦= وأضــاف الحاشــية (٩) ســيلحون، بــآخر الصفحة، وذلك لبيت من إنشاد الليثي.
- ص "٣٤" س٢٥= أضاف في الحاشية الرقم (٨) بعد **الحيوان** ٢٠/٣، **ومعاني القتبي** ٦٤٤.

- ص "٣٤" س٢٥= ضمن بيت امرأة، أفاد الميمني: ثم وجدت ياقوت في **أدبائه** ١٩٩/٢ نسب لأبي ردماء (كذا) فيما أنشده الأصمعي فيما رواه أبو خالد النميري.
- ص "٣٥" س٢٣= أضاف بآخر الحاشية الرقم (٣): و ترجم له ابن المعتز في المحدثين ١٤٤، وابن الجراح في الورقة رقم ٣.
- ص "٣٥" س٢٤= قوّم العبارة في الحاشية الرقم (٤) هكذا: وفي **الفهرست** أنّ شِعره في خمسين ورقة، وشطب منها "يناقضه ما"، وبعد **الفهرست** "من". وأضاف بآخر الحاشية: وسرد له ابن المعتز قطعتين.
- ص "٣٦" س٤= ضمن أبيات دعبل الخزاعي: الأبيات أربعة في الورقة رقم ٤٥.
- ص "٣٦" س٥= أفاد ضمن المخرق: له ترجمة في الورقة برقم ٤٥.
- ص "٣٦" س٢٢= ضمن البيتين اختُلف في نسبتهما: ثم رأيت البيتين عزاهما ابن المعتز في المحدثين ١٣٦.
- ص "٤٣" س١= صحح الكلمة في البيت، هي تنمي مكان ترمي.
- ص "٤٣" س٢= ضمن أبي العبر، أشار إلى المصادر: **الفهرست** ١٥٣، الخطيب ٢٣٩٤، **وجمهرة النسب** ٣٢.

- ص "٤٣" س٢٠= أبيات مالك بن أسماء في **أمالي ابن دريد** ص٦٤ لأسماء بن خارجة.
- ص "٤٣" س٢١= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١): وفي **طبقات ابن المعتز** ١٦٢ أحمد بن... .
- ص "٤٥" س٥= قال: ولا أدري لمن هذا المصراع: ❖ إذا ما مرّ يوم مرّ بعضي ❖ وأخبرنا الميمني بأنه لصالح بن عبدالقدوس من أبيات في **نكت الهميان** ٧٢، وبيتين، الشريشي ٥٣/٢، الورقة رقم ٤٨.
- ص "٤٧" س٩= هنا أنشد للحزين الدؤلي، وأفادنا الميمني: الأبيات أربعة في **البلدان** (دابق) للحارث بن الدئل، وما هو إلا الحزين حُرّف.
- ص "٥٣" س١= أفاد ضمن أبيات دعبل: الأبيات ١٧ في الديوان ط سنة ١٩٦٤م، رقم ٤٢ ص٧٨، ثم زادها صانعه في **مجلة المجمع** سنة ١٩٦٦م عن **البصائر** (رامبور) إلى ٣٤ بيتًا.
- ص "٥٥" س١٨= أشار إلى مصدر لبيت الرياشي: ابن عساكر ٢/٧.
- ص "٥٦" ما قبل الأخير في الصفحة= أضاف بآخر الحاشية الرقم (١٠): وفي **منتهى الطلب** في ٥٨ بيتًا.

- ص "٥٨" س٣= أورد ضمن أبيات ابن قنبر بعد "باختلاف غير هيّن": وعزاها ابن عساكر ١١٦/٧ لأبي الأسود الدؤلي، وهي عنده ١١ بيتًا.
- ص "٦١" س٦= هنا ذكر اختيار المفضّل، وأورد الميمني بهامش الصفحة: في فوائد النجيرمي بخطه: قال العباس بن بكار الضبِّي، قلت للمفضّل الضبِّي: ما أحسن اختيارك للأشعار، فلو زدتنا في اختيارك، فقال: والله ما هذا الاختيار لي، ولكن إبراهيم بن عبدالله استتر عندي فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار فيأنس ويحدّثني، ثم عرض لي خروج إلى ضيعتي أيامًا، فقال لي: اجعل كتبك عندي لأستريح إلى النظر فيه (؟)، فتركت عنده قمطرين من أشعار وأخبار، فلمّا عدت وجدته قد علم على هذه الأشعار، وكان أحفظ الناس للشِّعر، فجمعته وأخرجته، فقال الناس، اختيار المفضّل، ١هـ. وروى الخبر أبو الفرج في **مقاتل الطالبيين** له، ط سنة ١٣٥٣هـ: ٢٢٩ و٢٥١، وفيه أنّ اختياره السـ (؟) كلمة صدّر المفضّل بها -والباقي من اختيار نفسه.. **المزهر** ٢٠٢/٢، و**عمدة الطالب** ٨٥، وفي نسخة **فرحة الأديب** ٢٩، ٤ – قال أبو عثمان المازني: حملنا منتخبات المفضّل فقرأناها على الأصمعي، فكل ما كان فيها من أشعار الشعراء المعروفين، أجاب فيها: فلمّا صرنا إلى أشعار القبائل بلّح فيها أبو سـ.

[قال أحمد خان: إنّ الأستاذ قد نشر مقالاً "**المفضليات** صاحبها الأصلي"، وأورد فيه هذا الرأي وأيده بالمصادر الأخرى].

- ص "٦١" س١١= أفاد الميمني ضمن اسم ابن الوداع فقال: جاء ذكره في **أخبار أبي تمّام** للصولي ١٨٨ باسم الحسين بن وداع كاتب الحسن بن رجاء. وآخر يدعى عبدالله بن محمد بن وداع، ترجم له، **الفهرست**.
- ص"٦١"س٢٠= أضاف بآخر الحاشية الرقم (٣٩): مطبوعة ص٦٠٨.
- ص "٦٩" س٢٤= أضاف في الحاشية الرقم (٣)، بعد كلمة "فيه ٢٤٨": والأبيات ٢٤-٢٦، و٣٥ و٣٦ فيه ٢٠٢.
- ص "٧٥" س١٧= بعد هذا البيت أضاف الميمني بيت آخر، وهو هذا:

جميل المحيا واضح اللون لم يطأ    بحزن ولم تألم له النكب إصبعُ

- ص"٧٥" س٢٤= وأضاف في الحاشية الرقم (٤) بعد **أنساب الأشراف** ١١/٢٥٥، و٥/١٠٧.
- ص "٧٦" س٤= أفاد ضمن أبيات ابن أحمر: والأبيات في أصل المعاني ٤٣٠.
- ص "٧٧" س١-٢= أشار إلى أبيات أشجع السلمي: والأربعة من شِعره له في **الأوراق** ١/٩٤.

- ص "٧٧" س٩= أشار ضمن أبيات كثيّر عزة، وأخبر أنها في المعاهد ٢٤١ (ط بولاق). و**الوحشيات** رقم ٤.
- ص "٧٧" س١١= ضمن أبيات المضرب بن كعب، أخبر هكذا: ـوفي **ديوان كعب** [ص] ٢٣٩ له ولعقبة ٢١ بيتًا.
- ص "٨٥" س٦= ضمن نسبة البيتين، قال: البيتان في **مجالس ثعلب** ٤٢٣/٢ لمحمد بن مناذر.
- ص "٩٠" س١٢= ضمن بيت، أخبر بأنه في: **الخالديان** ٢٤٩.
- ص "٩٣" س٢٣= أضاف في الحاشية الرقم (١): **المحبّر** ٤٥٧.
- ص "٩٥" س١= في شأن رجز ابن ميّادة: الرجز في **مجالس ثعلب**، ج٢ ص٥٠٦ الأولى.
- ص "٩٧" السطر الأخير من الصفحة= أضاف في الحاشية الرقم (٥): ابن المعتز ١٤٦.
- ص "٩٨" س٢٣= بآخر الحاشية الرقم(٢)، أضاف: ولعقيل بن حجاج في **نقد الشِّعر** ٤٧.
- ص "٩٩" س١= ونسبها أبو حاتم في **كتاب الطير**، وكشاجم في **المصايد**، له ٢٧٨.
- ص "١٠٠" س١٥= والأبيات لعبدالصمد بن المعذّل، وأشار الميمني إلى مصدرين للأبيات: وهي في **الوساطة** ١٠٣ أربعة عشر بيتًا، وفي **الثمار** ٢١٧ ستة.

- ص "١٠٠" السطر الأخير من الصفحة= صحح الكلمة (سيرة يزيد).
- ص "١٠٢" س١٧= أشار إلى مصدر آخر ضمن بيتي ابن هرمة: بيتان في **لباب الآداب** ٩٨.
- ص "١٠٤" س١٠= ضمن نسبة الأبيات لكثيّر عزة أشار إلى: **معجم المرزباني** ٣٥٠.
- ص "١٠٤" س٢٠= صحح عنوان الكتاب: **المجالسات** لثعلب، وكان قد طبع المحاسبات.
- ص "١٠٥" س١٥= رواه أبو عبدالله الزبيري على نهج آخر، وأشار إلى النهج: راجعه بآخر الفهارس ص١٣٤.
- ص"١٠٥" س٢١= صحح الكلمة هنا: رأيت *منه* نسخة.
- ص "١٠٦" س٢= صحح الكلمة الأخير من السطر: *نسجها*.
- ص "١٠٦" س٧= صحح الكلمة "ما ليس" بـ"*كما مارس*".

[تصحيحات]

- ص "١٠٩" س٢ من العمود الثاني= الصواب: الخوذى و خوذى.
- ص "١١٣" س١١من العمود الثاني= والخلل بطائن *أجفان* السيوف.

- ص "١٣٠" س١٤= صحح اسم الشهر *مارس* سنة ١٩٣١م.

[فهارسٍ]

- ص"٦" س١٧ من العمود الأول= غيبا *١٩* .
- ص "٨" س٧من العمود الأول= شطب كلمة : *معصم ٩٥٥*_.
- ص"٨" س٣ من العمود الأول= صحح الكامة رادن بـ *رادف*.
- ص"٨" س ١٢من العمود الأول= دبيبُ *٢٠٨* .
- ص "١١" س٦ من العمود الثاني= أضاف بعده : *أبو جلدة = مقّاس*.
- ص "١١" س٢٣من العمود الثاني= أضاف هنا : *فبشرا ٧*.
- ص "٢٠" س٩ من العمود الأول=صحح رقم الصفحة، وهو: *٨٤٥*، حيث طبع ٧٤٥.
- ص "٢٣" س١٨ من العمود الثاني= صحح رقم الصفحة، وهو: مفتاحًا *٥٣١* .
- ص"٢٥" س٢ من العمود الأول= معقب ٤٠٦ ، ٤٥٤.
- ص" ٣٠" س٢٠ من العمود الأول= هنا أضاف بعده: علي بن أبي كثير إلى الجهل ١٣٤ ؛ بآخر الفهارس.
- ص"٣١" س٢٦= والحبس ٣٤٣.

- ص "٣٩" س١٠ من العمود الأول= صحح هنا رقم الصفحة لقافية الأصابع ٩٢٩.
- ص "٤٣" س٢٤من العمود الثاني= إغراء ٩٤٧.
- ص "٩٧" س٢ من العمود الأول= أضاف بعد السطر الأول: إلى الجهل علي بن أبي كثير- ملحق الفهارس ١٣٤.
- ص "١١٣" س١٢ = صحح يوم ديسمبر بمقابل ١٨ رمضان، وهو: ٢٤.
- ص "١٣٤" س١٥ = بعد أنشدها "**الخالديان**" شطب **الحماسة المغربية** بالدار ١٢٥، وبدلها بـ ط **الأشباه** ١/٢١٢. وزاد هنا: الخمسة الأولى مما عند القالي بلا عزو. وفي **أشربة القتبي** ١٠٥؛ ثم رأيتها سبعة عند المرزباني لعلي بن أبي كثير في ترجمته، ص٢٨٢.

❖ ❖ ❖

إضافات من معني بالكتاب

- ص "م" (❖) في **فهرسة ابن خير**: كتاب **المؤتلف والمختلف في أسماء القبائل**، تأليف محمد بن حبيب النحوي، تهذيب القاضي أبي الوليد هشام بن أحمد الوقّشي. وفيه أيضًا: كتاب فيه تهذيب هذا المؤتلف والمختلف لمحمد بن حبيب المذكور، تأليف أبي عبيد البكري.

- ص ٢٤ (❖) يريد بـ"المعـاني" كتـاب **المعـاني الكـبير**، لابـن قتيبـة، والإحالة على طبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٦٨هـ.

- ص ٦٥ (+) يريد بـ"الخالديين" كتاب **الأشباه والنظائر** للخالديين.

- ص ١٣٩ (❖) في **الوحشيات** ص١٨٤ : ونشاها.

- ص ٤٨٨ (❖) الصبيبيّ ص٢٨.

- ص ٥١٩ (❖) في كتاب "**من غاب عنه المطرب**"، تـح. عبـد المعـين الملـوحي ١١٤ ، وهـو مـا استحـسنه الـصاحب مـن شِعره لمـا حمـل ديوانـه إلى حضرته.

- ص ٨٢٨ (❖) ليس في **المعاني الكبير** المطبوع.

- ص ٨٣٠ (❖) أي **الفصول والغايات** للمعرّي.

- ص ٨٣٩ (❖) ورد في **المعـــاني الكـــبير** ص١٩٨ ، ٦٨٥ بروايـــة أخرى.

❖ ❖ ❖

❖ إسلام آباد- باكستان.

# بريد العرب :

ورد إلى "**العرب**" من الأستاذ مصطفى يعقوب عبد النبي، من القاهرة، ما يلي :

## مقال مجهول للشيخ حمد الجاسر

**مقدمة**

ليس من السهل الحديث عن الشيخ الجليل علامة الجزيرة حمد الجاسر -رحمه الله- في مجلة "**العرب**" لسبب بسيط للغاية وهو : من ذا الذي يجرؤ على الإفتاء ومالك بالمدينة؟

ولكني أتوكل على الله وأقول : إنّ باستطاعتي أن أفعل ذلك.

وبداية أقول إنّ مكتبة فهد الوطنية قد أحسنت صنعًا بإصدارها كتاب "**حمد الجاسر...دراسة لحياته مع ببليوجرافية لأعماله المنشورة في الكتب والمجلات**" والتي قامت بإعدادها "إدارة التكشيف والببليوجرافية الوطنية".

وقد صدرت الطبعة الثانية من الكتاب في الرياض سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. وقد ضم أشتاتًا من الأعمال، ما بين كتب قام بتحقيقها وكتب عكف على تأليفها فضلاً عن مئات المقالات في شتى ضروب المعرفة فيما يخص تراث العرب على اختلاف أنماطه.

وإذا كان هذا العمل هو صنيع محمود لاشك فيه حيال الأفذاذ من العلماء وأرباب القلم، إلا أنه صنيع منقوص، ووجه النقص فيه أنه "نقص القادرين على التمام" كما يقول المتنبي في بيته المشهور، فإذا أراد باحث من الباحثين أن يرجع إلى مقالة أو مقالات للشيخ حمد الجاسر فما عليه في هذه الحالة إلا أن يزور هذه المكتبة أو تلك، ويقضي في ذلك شطرًا طويلاً من وقته في البحث والتنقيب في المكتبات المختلفة التي قد تكون متباعدة في المكان أو تكون في مدينة أخرى، وهي صنوف من المعاناة يعلمها الباحثون وطلاب الأطروحات العلمية علم اليقين.

ولا يكتمل هذا الصنيع المحمود إلا بإصدار الأعمال الكاملة كما وردت في الببليوجرافيا كما تفعل بعض دور الطبع والنشر. ورُبَّ قائل يقول إنّ هذا مكلف للغاية، ويحوطه الإرهاق المادي من كل جانب، فضلاً عن أنّ أيّ دار لا تغامر بتلك التكاليف المادية الباهظة مع مردود بطيء أو شبهة خسارة مالية، غير أننا نقول إنّ مثل هذا الأمر لا شبهة فيه لأيّ إرهاق

مـادي أو خـسارة ماليـة، لـسبب بـسيط للغايـة وهـو أنّ وسـائل التقنيـات الحديثـة قـد اسـتغنت عـن النـسخ الورقيـة المكلّفـة، وجـاءت بـدلاً منهـا الاسطوانات المدمجة، التي تحمل الاسطوانة الواحدة منها عـشرات الكتـب أو مئات المقالات.

نخلص من هذا لنقول على الرغم من الجهد الكبير الذي بذله فريـق مـن الباحثين في إصدار الببليوجرافية، وهـو عمـل شـاق بكـل المقـاييس، علـى الـرغم مـن ذلـك كلـه فإننـا قـد عثرنـا علـى مقـال لم تـذكره الببليوجرافيـة ضمن ما ذكرت من مقالات تعدّ بالمئات لعلاّمة الجزيـرة، ومعنـى هـذا أنـه مقال مجهول، لا يدري من أمره أحد مـن البـاحثين في أعمـال الـشيخ حمـد الجاسـر، وهـو مقـال بعنـوان: "**وجيـز الكـلام في ذيـل دول الإسـلام**" للسخاوي، وهـو المؤلـف الـذي اشـتهر بكتابـه الـضخم "**الـضوء اللامـع في أعيان القرن التاسع**" وقد نشر المقال في مجلـة "**الرسـالة**" الـتي كـان يـصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات، وتحديـدًا في العـدد ٩٤٠ الـصادر في ٥ شوال ١٣٧٠هـ الموافق ٩ يوليو ١٩٥١م.

وقـد راجعنـا الببليوجرافيـة فلـم نجـد للـسخاوي ذِكـرًا إلا في موضـع واحد، وذلك عند حديث الـشيخ حمـد الجاسـر عـن "البلـدانيات الحديثـة

من مصادر الجغرافية" في مقال نشرته "**العرب**" في العددين ١١ و١٢ في الجماديان ١٤٠٦هـ.

وفيما يلي نص المقال المجهول تحية لروح هذا العالم الجليل.

### مخطوطات نادرة:

## وجيز الكلام في ذيل دول الإسلام – للسخاوي

### للأستاذ حمد الجاسر

عني الشيخ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي المولود في القاهرة سنة ٨٣١ والمتوفى في المدينة سنة ٩٠٢ من الهجرة – بالتاريخ عناية برز أثرها فيما كتبه من المؤلفات العظيمة التي أشار إلى بعضها في ترجمته لنفسه في كتابه (الضوء اللامع) وسلم لنا منها من عيث الزمان وعبثه خير كثير، مثل:-

١- الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع في ستة مجلدات ضخام – وقد طبع بمطبعة السعادة في مصر سنة ١٣٥٣ – ١٣٥٥ ، حذا فيه حذو شيخه الحافظ ابن حجر في كتاب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) وسار على منواله آخرون، أتوا بعده.

٢- التبر المسبوك – ذيل به كتاب (السلوك) للمقريزي من سنة ٨٠٥ إلى ما بعد سنة ٨٩٩ – بقليل – ألّفه كما قال (إجابة لعظيم وقته الدوادار

الكبير في الأيام الأشرفية قايتباي يشبك بن مهدي الظاهري) وقال: إنه يقع في أربعة أسفار - ولعل الجزء المطبوع بهذا الاسم في مطبعة بولاق سنة ١٨٩٦ قسم من هذا الكتاب.

٣- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - وهو كتاب في التعريف بالتاريخ وبأشهر المؤرخين ومؤلفاتهم وهو مطبوع.

٤- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر - لا يزال مخطوطًا.

٥- القول المنبي في ترجمة ابن عربي - وهو مخطوط أيضاً - وفي هذا الكتاب أورد السخاوي أقوال العلماء المحققين في شطحات ابن عربي وزلاته.

٦- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام — قال عنه مؤلفه في (الضوء) -: إنه نافع جداً، وقال صاحب كشف الظنون (ص٧٦٢ الطبعة التركية الحديثة) في أثناء الكلام على (دول الإسلام) -: ثم ذيله السخاوي من سنة ٧٤١ إلى سنة ٩٠١ ذيلاً مختصرًا كأصله، وسماه الذيل التام بدول الإسلام - ثم أعاد صاحب الكشف اسم الكتاب مرة أخرى في حرف الذال. وسماه جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (ج٣ ص١٦٩) وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام وقال إنه من سنة ٧٤٥ إلى سنة ٨٩٨ ومنه نسخ في برلين وفينّا وأكسفورد والمتحف البريطاني وكوبرلي.

وقد اطلعت على جزء من هذا الكتاب لدى أحد علماء نجد في (الرياض) فرأيت خير تحية أقدمها لحضرات الأساتذة الإجلاء موظفي (القسم الأدبي في دار الكتب المصرية) وصف هذا الجزء - فقد لا يعدمون منه عونًا في تصحيح الأجزاء الباقية من كتاب (النجوم الزاهرة)، وقد يجدون فيه مرجعا نافعا في تاريخ مصر - بل البلاد العربية في ذلك العهد.

يؤرخ هذا الجزء - وهو الأول من الكتاب - الزمن الواقع بين سنتي ٧٤٨ و ٨٩٠ - أي ثلاثًا وأربعين ومائة سنة - من منتصف القرن الثامن إلى نهاية العقد التاسع من القرن التاسع - فيذكر الحوادث ثم يتبعها بوفيّات الأعيان من علماء وملوك وأمراء ومشاهير، وهو يوجز في ذلك أحيانًا ويفصّل حينًا - فسنة حوادثها ووفياتها لا تجاوز ثلاث صفحات، وأخرى تستغرق ورقات.

مثال من إيجازه (سنة تسع وعشرين وثماني مائة. في رجب برز العسكر المصري وغيره في الحراقة وقبرس (كذا) حين طرق الخبر أنّ صاحبها استنصر بملوك الإفرنج على المسلمين، لما جرى على بلاده، ما أشير إليه في التي قبلها. وأنهم أمدوه ليأخذ إسكندرية - زعم - تأسيًا بوالده، حين طرقها في المحرم سنة سبع وستين، أيام الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون - سبق - فكان التقاء الفريقين في رمضان، فخذل حزب اللعين وأمسك صاحب قبرس فقيّد، وقتل من عسكرة في يوم واحد ستة آلاف فيما قيل - منهم أخوه وكذا قيّد ابنه وابن أخي

صاحب الكيتلان وأخذت الأفقنسية[١] كرسي المملكة وأقيمت الجمعة بقصره الذي وجد فيه من الأمتعة ما لا يحصى، وأُذّن على صوامع الكنائس، وعادوا بعد أن قتلوا وحازوا من الغنائم ما لا يحصى كثرة، وأسروا نحو أربعة آلاف نفس حتى طلعوا القلعة في يوم الاثنين، ثامن شوال، فكان أمرًا مهولاً لم يعهد في هذه الأزمان مثله وخرج الخلق لرؤيته حتى البكر من خدرها؛ وحضر ذلك أمير مكة ورسل كل من ابن عثمان وملك تونس وأمير التركمان وابن نعير[٢] وكثير من قصاد أمراء الشام، وقرر عليه من المال بسبب افتدائه ما يفوق الوصف، مما يقوم بنصفه الآن، وبالباقي إذا رجع، سوى ما التزم به في كل سنة من المال، والصوف الملون، وأن يطلق من بقي عندهم من أسرى المسلمين. وقال لما دخل إسكندرية ورأى كثرة من بها من الجند: والله إنّ كل من في بلاد الإفرنج لا يقاوم هؤلاء وحدهم، وفرح المسلمون بنصر الله تعالى، وطار خبر هذه الغزوة إلى الآفاق، وعظم بها قدر سلطان مصر، وقال الشّعراء الشِّعر في ذلك فأكثروا، بل قيل إنّ الملك قال بلسانه قبل خلاصه مما عُرِّب :-

يــا ملكًــا ملــك الــورى بحــسامه ... انظـــر إلى برحمـــة وتعطـــف
وارحــم عزيــزًا ذل وامــنن بالــذي ... أعطـاك هـذا الملـك والنـصر الـوفي
إن لم تـــؤمنّي وتـــرحم غـــربتي ... فـبمن ألـوذ ومـن سـواكم لـي بقـي

---

(١) كذا شكلت هذه الكلمة (الأفقنسية).

(٢) ابن نعير بن مهنا أمير آل فضل.

ومات في جمادى الآخرة عن دون الثمانين بدمشق العلامة الزاهد الورع الرباني التقي أبو بكر بن محمد عبد المؤمن الحصني ثم الدمشقي الشافعي شارح التنبيه والمنهاج والغاية وأربعين النووي والأسماء الحسنى وصحيح مسلم وغير ذلك؛ كتلخيص المبهمات وقمع النفوس. مع القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانجماعه التام، وتقشفه، وعدم محاباته، وانحرافه عن التقي ابن تيمية، ومبالغته في الحط عليه بحيث ثارت بسبب ذلك فتن كثيرة مما كان الوقت في غنية عنه. وفي ذي الحجة وقد زاد على الستين ببيت المقدس قاضي الشافعية بالديار المصرية وصاحب تلك الحوادث التي لا تخلوا من التعصب عليه، الشمس محمد بن عطاء الله الرازي الهروي ممن ولي صلاحية المقدس في أول أمره وآخره، والقضاء بينهما مرة بعد أخرى، وكتابة السر. وحدّث ودرّس وأفتى، وصنّف شرح مسلم وغيره، وكان إمامًا عالماً غوّاصًا على المعاني، حافظاً لكثير من المتون والتواريخ، رئيسًا مهابًا، ضخمًا، حسن الشكالة، ليّن الجانب، أثنى عليه غير واحد على ما فيه من طبع الأعاجم وقوادح. وبنى بالمقدس مدرسة. وفي ذي الحجة بالقرب من المدينة النبوية وهو راجع من الحج والزيارة العلاء أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد الدمشقي الشافعي ابن سلاّم بالتشديد وقد زاد على السبعين وحمل إلى المدينة فدفن بالبقيع وكان حافظاً لكثير (الرافعي) مع إشكالات عليه، وأسئلة حسنة، بحاثاً يُقرئ الفقه وأصوله حسنًا، مع يد في الأدب، ونظم ونثر واقتصاد في ملبسه وغيره، وحسن محاضرة، وشرف نفس، ولكنه يتكلم في كبار؛

ويرمى بالمناضلة عن ابن عربي. وقد درس في الظاهرية البرانية والعذراوية وغيرها. وفي ربيع الآخر العلامة شيخ الشيخونية، وأوحد الحنفية، السراج عمر بن علي بن فارس القاهري ويعرف بقاريء الهداية، تصدى للإقراء والإفتاء، وكثرت تلامذته، وصار المعول عليه، مع الاقتصار في أموره كلها، وإعراضه عن بني الدنيا، وعظمته في الأنفس ومحاسنه غزيرة. وفي جمادى الآخرة عن نحو التسعين قاضي المالكية بالديار المصرية الجمال أبو المحاسن يوسف بن خالد بن نعيم الطائي البساطي، مصروفًا، وكان فيما قاله العيني: عارفاً بصنعة القضاء غير مشكور فيه، ولا متقدم في مذهبه وغيره. وفي المحرم فجأة الشيخ المعتقد خليفة الغربي ثم الأزهري، وفي جمادى الآخرة الشريف أمير مكة حسن بن عجلان بن رميثة الحسني. وفي رمضان الأتابك قجق الشعباني الظاهري، ونزل السلطان فصلى عليه، وكان متواضعًا حليمًا لينًا، خائفًا على دينه، قاله العيني. واستقر بعده يشبك الساقي الأعرج. وعلبياي بن خليل بن الغادر قتلاً على يد نائب حلب جار قطلو).

ومثال آخر لتفصيله في التراجم - قال في الكلام على حوادث سنة ٧٤٨ - في سياق وفيّاتها (والكمال[٣] أبو الفضل جعفر بن تغلب بن جعفر الأدفوي الشافعي مصنف الإقناع في أحكام السماع والطالع السعيد في

---

(٣) خطأ مصحح الجزء العاشر من (النجوم الزاهرة) طابع كتاب (الحظ السعيد) لما ذكر وفاة مؤلفه في سنة ٧٤٨. وهي تخطئة خاطئة فالسخاوي ذكر وفاته في هذه السنة.

تاريخ الصعيد والبدر السافر في تحفة المسافر وجملة والماهر في فنون، مع فقه ونظم ونثر - في صفر بالقاهرة عن نيف وستين سنة بعد رجوعه من الحج. أثنى عليه الأسنوي وغيره وهو القائل:

إنّ الـــدروس بمـــصرنا في عـــصرنا    طبعـت علـى لغـط وفـرط عيـاط
ومباحـــــث لا تنتهـــــي لنهايـــــة    جـــدلاً ونقـــل ظـــاهر الأغـــلاط
ومـــدرس يبـــدي مباحـــث كلـــها    نـشأت عـــن التخلـيط والأخـلاط
ومحـــدث قـــد صـــار غايـــة علمـــه    أجـــزاء يرويهـــا عـــن الـــدمياطي
وفلانـــة تـــروي حـــديثًا عاليًـــا    وفـــلان يـــروي ذاك عـــن أســـباط
والفـرق بـين عزيـرهم وعزيـزهم    وافـــصح عـــن الخيـــاط والحنـــاط
والفاضـــل النحريـــر فـــيهم دأبـــه    قـــول أرطـــاليس أو بقـــراط
وعلـــوم ديـــن الله عـــادت جهـــرة    هـــذا زمـــان فيـــه طـــي بـــساطي
ولى زمـــاني وانقـــضت أوقاتـــه    وذهابـــه مـــن جملـــة الأشـــراط

ودفن بمقبرة الصوفية).

وقد يستعمل المؤلف السجع في بعض الأحيان كقوله في حوادث سنة ٨٢١ (في شوال- لؤلؤ الطواشي، كاشف الوجه القبلي - وكان من الحمقى المغفلين، والظلمة الفاتكين، في صورة الناسكين). وقوله في حوادث سنة ٨٧١هـ (وفي جمادى الأولى علي بن رمضان، الأسلمي أبوه، القاهري مكاس جدة - ممن ظلم وعسف، وفسق فما كف. وله دار بحارة

برجوان كانت مجمعًا لمحنه، وأخذ مسجدًا كان بجانبها فأذهب هيئته وعمله مدرسة).

والمؤلف ينقل عن ابن كثير والمقريزي وابن حجر وابن دقمقاق والعيني وغيرهم – ولكن نقله عن هؤلاء وتعويله عليهم لا يعفيهم من النقد والتجريح – وقد يتحامل على بعضهم تحاملاً ظاهراً فلا تمر به مناسبة إلا ابتدرها، ولا هفوة إلا ذكرها، كما فعل مع برهان الدين إبراهيم البقاعي المتوفى سنة (٨٨٥هـ)[٤]. ويكتفي بالغمز الخفي وبالتلميح بعبارة مجملة إن لم يجد موقعًا مناسبًا – فصارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق الذي استفاد من كتابه (الجوهر الثمين في الخلفاء والملوك والسلاطين) كما صرح بذلك في الكلام على سنة (٨٠٥هـ) التي انتهى الكتاب بانتهائها، لا يجد المؤلف غضاضة في أن يصفه لمّا تكلّم على وفاته سنة (٨٠٩هـ) بأنه مؤرخ الديار المصرية ولكنه يتبع ذلك بقوله (وعليه معوّل كثيرين في التاريخ مع كونه عاميّ العبارة). وتقي الدين المقريزي الذي لم يكتف بنقل كثير من عباراته بنصّها بدون إشارة إلى ذلك – بل عمد إلى تذييل كتبه وتكميلها، يقول عنه (وصنف فيه – يعني التاريخ – وطار اسمه به مع تميزه في غيره) وهذه العبارة المبهمة المجملة يوضحها ما ذكره السخاوى في ترجمة المقريزي في (الضوء) من أنه عثر على مسودات لكتابه (الخطط) لأحد

---

(٤) انظر ترجمته في (الضوء). وقد ذكر في (وجيز الكلام) أشياء كثيرة عنه لا يتسع المقام لذكرها.

العلماء المتقدمين - وهو قول يرده ما عرف من تحامل السخاوي على مؤرخي عصره. والتحاسد بين المتعاصرين المشتركين في عمل أمر معروف. ويقول السخاوي حينما ساق ترجمة ابن تغري بردى سنة ٨٧٤ (المؤرخ الفريد في أبناء جنسه. وما عسى أن يصل إليه تركي مما كان مشتملاً عليه يستكثر من مثله). أما موقفه مع السيوطي فما لا يحتاج إلى بيان. حتى شيخه الحافظ ابن حجر المتوفى سنة (٨٥٢) والذي أفرد ترجمته بمؤلف خاص - ولغ في الثناء عليه مبالغة جاوزت الحد، حدثني الأستاذ الشيخ سليمان بن حمدان أحد علماء نجد أن السخاوى هذا ألف في حقه كتابًا سمّاه (العجر والبجر من أحوال ابن حجر).

**أوصاف النسخة:**

يقع هذا الجزء في ٥٩٢ صفحة - مقياس الصفحة ١٦ في ١٢ سنتيمترًا - والمكتوب فيه منها ١٢ في ٩ سنتيمترًا - تحتوي كل صفحة على ١٩ سطرًا - تتراوح كلمات السطور بين ١٢ و ١٥ كلمة، ونوع الكتابة الخط الفارسي الدقيق المهمل من الإعجام والشكل والخالي من كتابة الهمزات - إلا نادرًا ومداد الكتابة أسود سوى أسماء السنين فبالمداد الأحمر - ولا ذكر للكاتب ولا لتاريخ الكتابة. ولا يبعد أن تكون هذه النسخة من مخطوطات القرن العاشر الهجري، ويؤيد هذا ما جاء في آخرها بخط مغاير لخط الأصل مما نصّه (آخر الجزء الأول من وجيز الكلام في الذيل لدول الإسلام للذهبي - لشيخنا العلامة الحجة خاتمة الحفاظ والمتقدمين (كذا)

أبي الخير محمد بن. . عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي القاهري. . .) ومكان النقط كلمات غير واضحة - وكلمة شيخنا تدل على أن كاتب هذا من تلاميذ السخاوي - وكتابة النسخة أقدم من هذه الكتابة.

وقد سقط من أول هذا الجزء كراسة - في عشر ورقات - لأن كراسات جميع النسخة مرقمة من (١) إلى (٣١) وكل كراسة عشر ورقات سوى الكراسة الأخيرة فورقها ست. وقد يسهو الكاتب فينقص ورق بعض الكراسات ولكنه يستدرك ذلك في الكراسة التي بعدها - فيجعلها زائدة بمقدار ما نقص من التي قبلها كما في الكراستين (١٥- ١٦).

ويبتدئ الكتاب من جملة (استكثر عليّ دمشق فليولّني أيّ البلاد شاء ولا أدخل مصر. ثم خرج من الغد ومعه أهله وعياله ودوابه وحواصله إلى خارج البلد عند قبته المعروفة به) ثم بعد هذا كلام يقع في ثلاث صفحات عن قتل (يلبغا) في آخر جمادى الأولى سنة ٧٤٨ وعن إقامة حسن بن الناصر محمد بن قلاوون سلطانًا في يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان، ثم بعده سياق خبر وفيّات (الذهبي) وابن منصور المقدسي والأدفوي وغيرهم، ثم في آخر الصفحة الأولى من الورقة الثالثة (سنة تسع وأربعين. استهلت والسلطان الناصر حسن بن الناصر محمد قلاوون (كذا) ونائبه بمصر بيبغاروس (بدون نقط) الناصري).

ثم يسترسل المؤلف في سرد حوادث السنين إلى نهاية سنة ٨٩٠ - على طريقة المقريزي في (السلوك) بإيجاز.

ومن أمثلة الإشارات اللطيفة الطريفة التي أوردها قوله في حوادث سنة ٨٨٠ (في شعبان اجتهد الدوادار الكبير في تحصيل كتب المؤيدية حين بلغه جحد بعضهم استعارة تفسير الفخر الرازي في مجلد وإرساله لابن عثمان، ورسم على الخازن وصهره حتى استرجع غالبها وعجز عن التفسير بعد إهانة ابن الشحنة الصغير بسببه. وفي رمضان احتال جماعة من تجار كيتلان الإفرنج في أسر جماعة من أعيان التجار المسلمين من ساحل الثغر السكندري ثم باعوهم لبعض الروادسة إلى أن افتكوا من أيديهم بعد أخذ القدر المتفق عليه في شعبان سنة اثنتين وثمانين).

هذا وصف مجمل لهذا الجزء. رجاء أن يتبعه أحد قراء هذه الصحيفة بوصف أتم وأكمل للكتاب كله.

**الرياض** **حمد الجاسر**

مكتبة العرب

**معجم مطبوعات التراث في المملكة العربية السعودية، تأليف الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب، الرياض: إصدارات كرسي الدكتور عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية (جامعة الملك سعود)، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، (٨ مجلدات).**

هذا إصدار جليل تحدّث عنه مؤلفه في مجالسه منذ سنوات تربو على الثلاثين؛ فقد ظل الدكتور الضبيب يجمع مادة الكتاب دون كلال مع تقطع فيما يبدو حتى قيّض الله زميله الدكتور عبد العزيز المانع الذي ألح على الدكتور الضبيب حتى أكمل العمل وأتم نشره. وقد ألمح المؤلف في مقدمته إلى أنّ المشروع بدأ على هيئة جزازات لكتاب له تحت الطبع عنوانه "**حركة إحياء التراث في المملكة العربية السعودية**" (ج١/٦).

والدكتور أحمد بن محمد الضبيب خريج قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة في عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م. وابتعث للدراسة العالية في بريطانيا وتخرج من جامعة ليدز في بريطانيا عام ١٩٦٦م حاصلا على شهادة الدكتوراه. وعاد إلى جامعة الرياض (جامعة الملك سعود حاليًّا) ليعمل أستاذًا للأدب العربي في كلية الآداب بالجامعة، وتدرّج في مناصب علمية

وإدارية حتى صار مديرًا لجامعة الملك سعود بالرياض في المدة (١٤١٠-١٤١٦هـ/١٩٩٠-١٩٩٦م). وكان قبل ذلك عميدًا لشؤون المكتبات؛ وقد اهتم إبّان عمادته تلك بقسم المخطوطات في جامعة الملك سعود واشترى له مخطوطات وجلب له مصوَّرات.

أمّا في مجال التحقيق فقد نشر د. الضبيب **كتاب الأمثال** لمؤرج أبي فيد السدوسي في عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م (انظر المجلد ٦/٩٧). وظل معنيًّا بالتحقيق من خلال بحوثه وأحاديثه.

يقع معجم مطبوعات التراث في ثمانية مجلدات خصص المجلد الثامن منه للكشافات (٣٧٩ صفحة). وعدد صفحات المعجم (٢١٥٣) صفحة تضاف إليها صفحات الكشافات فيرتفع العدد إلى (٢٥٣٢) صفحة. وقد تحدّث المؤلف في المقدمة عن عدة أمور، مشيرًا إلى أنّ تجربة المعاجم الببليوجرافية أو الفهارس لدى المسلمين قديمة. ثم عرّج على بعض الفهارس الحديثة مشيرًا إلى أمر مهم وهو أنّ معظم مؤلفي تلك الفهارس انصبّ اهتمامهم على جهود النشر في "دول المركز" (مصر والشام والعراق فيما بعد، ج١/ص٥). ولم يولوا حركة النشر في المملكة العربية السعودية اهتمامًا كافيًا على الرغم من بدء حركة النشر فيها مبكرًا؛ إذ يعيدها المؤلف إلى ١٣٠٠هـ وهي السنة التي أنشئت فيها المطبعة الميرية في مكة المكرمة في العهد العثماني.

وتحدّث المؤلف من بعدُ عن منهجه في العمل مشيرًا إلى أنه يذكر ما نشر في المملكة من تراث سواء أحققه سعوديون أم غير سعوديين. كما أنه

ضمّن المعجم ما نشره السعوديون خارج المملكة من كتب التراث سواء أكانت في هيئة كتب أم ضمن دوريات ومجلات.

وقسّم المعجم إلى عشرة أبواب أوردها في المقدمة وفق ما يأتي:

الباب الأول: كتب علوم القرآن الكريم.

الباب الثاني: كتب علوم الحديث النبوي الشريف.

الباب الثالث: كتب العقيدة.

الباب الرابع: كتب الفقه وأصوله.

الباب الخامس: كتب اللغة والنحو والعَروض.

الباب السادس: كتب الأدب.

الباب السابع: كتب البلاغة والنقد الأدبي.

الباب الثامن: كتب التاريخ والسِّيَر والتراجم.

الباب التاسع: كتب الجغرافية والرحلات.

الباب العاشر: علوم متفرقة.

وقد مرّ على نشر المعجم عام أو أكثر ومع ذا لم يحظ إلا بمراجعات قليلة حسب اطلاعي؛ فقد نشر عنه زميلي الدكتور إبراهيم بن سليمان الشمسان مقالاً (**الجزيرة** ٢٠١٦/٢/٢٧هـ) وتلاه بعد عدة أشهر الدكتور حمد بن ناصر الدخيّل الذي كتب عرضًا في جريدة **الجزيرة** أيضًا (٢٠١٦/١٠/١٧م). ولعل سبب هذا التجاهل (إن صحت العبارة!) يعود في جزء منه إلى ما ذكره د. الضبيب في مقدمته وملخصه أنّ "دول المركز" (مصر والشام والعراق) كما سمّاها هي التي تحظى بالنصيب

الأوفى نشرًا ومراجعة. وثمة سبب آخر يعود في ظني إلى مسألة التوزيع؛ فلا يزال الكتاب في المملكة عامة حبيسًا فيها إلى حد بعيد خاصة ما تنشره الجهات الحكومية من جامعات ونحوها.

اشتمل المعجم على معلومات وافية عن (٢٩٨٤) مدخلاً؛ يختص بعض المداخل بكتاب واحد. وقد تتعدد مداخل الكتاب الواحد حسب تعدد التحقيق أو النشر. فـ**كتاب الأمثال** للمؤرج الذي أشرنا إليه سابقًا ورد مرتين؛ لأنّ مؤلف المعجم نشره أولاً في **المجلة العلمية لكلية الآداب بجامعة الرياض** (جامعة الملك سعود حاليًّا)، ثم نشره كتابًا مستقلاً في العام نفسه (ج٦/٩٧).

يتميّز هذا المعجم بعدة ميزات:

الأولى: حصره لأكبر عدد من المؤلفات التراثية التي حققها ونشرها علماء المملكة. وقد تتبّع د. الضبيب الموضوع سنوات طويلة واجتهد في السنوات الأخيرة لما همّ بنشر المعجم. ويبدأ الرصد المعجمي من سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م إلى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م. ولم يدخل في ذلك الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه) التي لم تنشر. وقد ذكر المؤلف طرفًا من (مصادر المعجم) مما حوته مكتبات الجامعات وبالذات جامعة الملك سعود، وما نشرته المجلات العلمية، وما ورد في الببليوجرافيا الوطنية السعودية، والببليوجرافيا العامة، وقد بحث عن الكتب بنفسه شراءً أو استهداء، وأفاد من معارض الكتاب التي تقام في الرياض منذ التسعينات الهجرية.

الثانية: إعطاؤه معلومات تامة عن نشرة الكتاب المحقق التي يتحدث عنها من حيث اسم المؤلف وسنة وفاته وعنوان الكتاب كما ورد في النشرة، واسم محققه ومعلومات النشر من حيث الناشر وعام النشر، وعدد صفحات الكتاب. ثم يتحدث عن المخطوطة أو المخطوطات التي اعتمد عليها المحقق ويورد معلومات عن كل مخطوطة من حيث مكانها ورقمها وتاريخ نسخها واسم الناسخ. وإذا كانت وسيلة النشر مجلة أورد كلَّ حلقة من الكتاب المنشور بمعلومات وافية عن اسم المجلة وأعدادها وصفحات المنشور وعام نشره...إلخ. (مثلاً: ج١/١٦٠، ج٧/٢٢٩-٢٣٠، ص٢٣٢-٢٤١).

الثالثة: أتبع المعلومات السابقة بأمرين سمّاهما السوابق واللواحق؛ ففي السوابق يذكر المقدمات وما في حكمها، فيقول في أحد المداخل (ج١/١٠٨) مثلاً: "السوابق: مقدمتان رسميتان ومقدمة التحقيق والدراسة، ص ص ٥-١٥٧" وفي اللواحق يتحدث غالبًا عن فهارس الكتاب، ويورد كشفًا بها أكثُرت أم قلّت.

الرابعة: يورد المؤلف ما له من ملحوظات أو ما يود التنبيه عليه في فقرة (ملحوظات). وهي لا ترد في كل مدخل، لكنها تدل على الجهد الكبير الذي بذله المؤلف. فيقول مثلاً: أصله رسالة دكتوراه ونحوه، أو يشير إلى المموّل للنشرة فيقول على نفقة فلان، أو يبدي مآخذ له على النشرة فيقول مثلاً: (ذكر المحقق أنّ تاريخ نسخ مخطوطة دار الكتب المصرية هو سنة ٦٧٨هـ، وقد جاء في آخر هذه النسخة وهي الأصل المعتمد... ما

يأتي: "تم **الحاوي في الفتاوي** بعد صلاة عصر الجمعة آخر يوم من شهر ذي القعدة الحرام سنة ثمان وسبعمائة...على يد ...محمد بن عيسى بن فخر الحفيد" وقد اعتمدنا هذا التاريخ) (ج٤/١٨٤). وقد يسرد في قسم الملحوظات المحققين إذا كثر عددهم (مثلاً: ج١/١٦٠، ج٤/٨١). وقد يشير إلى تصرف المحققين في عناوين الكتب؛ فيقول (ج١/١٧٧): "لم يستعمل المحقق أيًّا من الأسماء الموضوعة لهذا المؤلف على المخطوطات التي اعتمد عليها، واخترع اسمًا جديدًا للكتاب هو "**الفوائد في مشكل القرآن**" قائلاً: أعطيت لنفسي الحرية فأطلقت على الكتاب عنوان "**الفوائد في مشكل القرآن**"! ومثله (ج٣/٢٣٢). ويوضح أحيانًا ما قد يخفى؛ فيقول مثلاً (ج٢/٢٦٠): "الغيلانيات نسبة إلى محمد بن محمد بن غيلان (ت٤٤٠) الذي تفرّد برواية هذه المجموعة من الأحاديث عن أبي بكر الشفعي". وقال في مكان آخر (ج٢/٢٦٤): "المنهاج هو منهاج الأصول للقاضي ناصر الدين البيضاوي" وذلك في عرضه لكتاب الحافظ العراقي "**تخريج أحاديث مختصر المنهاج**". ويذكر أحيانًا طبعات أخرى بمعلومات موجزة. وقد تتعدد ملحوظات المؤلف على كتاب واحد، وقد يخلو الكتاب من أيّ ملحوظات.

هذا موجز عن المعجم، وهو داخل ضمن ما يسمّى بالببليوجرافيا المفصَّلة (الموسَّعة) annotated bibliograpy؛ فما يقدمه عن المنشورات يتميّز بالوفرة مع معلومات ووقفات مهمة فيها تنبيه على أمر غفل عنه المحقق أو وقف دونه أو لم يلتزم به. ومع ذلك فبعض المداخل لم يتحقق

فيها بعض ذلك (وهي قليلة). فاكتفى المؤلف الكريم بذكر معلومات أولية عن الكتاب (مثلاً: ج١/٣٢ رقم ١٨، ج١/١٨٣ رقم ٢٠٠، ج١/١٩٧ رقم ٢١٤-٢١٦، ج٤/١٠٨-١٠٩، ١١٢). وأحسب أنّ المؤلف لم يصل إلى نسخ من هذه الكتب لكي يتصفحها ويستخرج منها ما اعتاد من معلومات.

كما أنّ الكتاب خلا من الأخطاء المطبعية إلا ما ندر، وهو عمل يشكر عليه المؤلف والناشر. فقد أصبح التطبيع والأخطاء النحوية سمة كثير من المنشورات بما في ذلك منشوراتٌ لدور نشر كبيرة ننتظر منها أن تعتني بما تنشره وأن تقلل الأخطاء.

أمّا النقص المتمثّل في فوت بعض المنشورات المؤلفَ فقد أشار إليه المؤلف في مقدمته قائلاً: "من المتوقع ألا يضم هذا المعجم جميع ما صدر في بلادنا من كتب التراث؛ فذلك أمر لا سبيل للإحاطة به...". وقد أورد كل من الدكتور إبراهيم الشمسان والدكتور حمد الدخيّل فيما كتباه نماذج لما فات المؤلف مما هو داخل في شرطه، وهما لم يستقصيا الأمر. ومن الأولى لكل من لديه ملاحظات أو إضافات أو تصويبات أن يزوّد بها المؤلف أو الكرسي.

لا شك أنّ الباحثين المعنيين بالتحقيق خاصة سيجدون في الكتاب ضالتهم؛ ومن هنا أقترح على دار النشر بجامعة الملك سعود أن تهتم بإرساله إلى مكتبات الجامعات العربية والإسلامية ومكتبات الجامعات الأخرى التي فيها أقسام للدراسات الإسلامية والعربية في العالم؛

فالكتاب المنشور في المملكة لا يكاد يوجد في مكتبات عالمية كثيرة نظرًا لسوء توزيعه بيعًا أو إهداء. وأذكر أنني قابلت أحد أساتذة التاريخ والحضارة الإسلامية في روسيا عام ١٤١٠هـ فكان طلبه الوحيد أنهم يريدون لمكتبة جامعة سان بطرسبيرج في روسيا نسخة كاملة من **المعجم الجغرافي للمملكة** بكل أقسامه؛ وأظن أنّ مطلبه لم يتحقق! وينبغي أن توجه النسخ المهداة إلى مكتبة الجامعة أو المكتبات العامة مباشرة لا إلى رؤساء أقسام الدراسات العربية والإسلامية، فإنهم سوف يعدّونها هدية لهم أو على الأقل لن يحيلوها إلى مكتبة الجامعة.

تبقى ملحوظة أخيرة وهي أنّ الكتاب لو ظهر في عمودين لكل صفحة لكان أولى وأجمل؛ إذ في الكتاب فراغات كثيرة ذهبت هدرًا. وأحسب أنّ الكتاب يمكن أن ينقص مجلدًا أو نحوه لو جعلت الكتابة في عمودين.

نسأل الله للأستاذ الدكتور أحمد الضبيب حياة طيّبة ومزيدًا من العطاء. كما نشكر كرسي الدكتور عبد العزيز المانع الذي أتحفنا بهذا العمل وبسواه من المنشورات المتميزة. وإنني أتفق مع الدكتور حمد الدخيّل من أنّ المعجم أميز منشورات الكرسي الأخيرة وأجلّها كمًّا وكيفًا؛ وهو كما سمّاه د. الدخيّل "كتاب الموسم لعام ١٤٣٦هـ". والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

**د. صالح بن سليمان الوهيبي**

## إهداءات إلى مكتبة العرب

**أولاً– الكتب:**

– الدر الثمين في ذكر المناقب والوقائع لأمير المسلمين، تأليف حسن بن أحمد اليمني (عاكش) الذي نسب تحقيقه إلى الشيخ عبدالله بن علي بن حميِّد، قرأه وعلّق عليه وأخرج أصل الكتاب عن النسخة الأصلية د. أحمد بن محمد بن حميِّد، إصدار دارة الملك عبدالعزيز ٢٩٦، الرياض، ١٤٣٤هـ.

– إعمار الهجَر، آليات إنتاج العُمران: تثليث–عسير، د. هند بنت حسن القحطاني، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، سلسلة الرسائل الجامعية (٤٣) ٢٩٧، الرياض، ١٤٣٤هـ.

– حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، جابي زاده علي فهمي، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، ٣٠٦، الرياض، ١٤٣٤هـ.

**ثانيًا– المجلات:**

– الخفجي، السنة ٤٤، العددان مارس–أبريل ٢٠١٤م، جمادى الأولى–جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير المسؤول: م. رياض عبدالرحمن الحسن.

– الفيصل، السنة ٣٨، العددان: ٤٥٣–٤٥٤، الربيعان ١٤٣٥هـ/يناير–فبراير ٢٠١٤م، رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت.

– أوراق نسبية، تصدرها الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب التابعة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد الأول، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. محمد جاسم حمادي المشهداني.

– التربية الإسلامية، العدد ٣، السنة ٤٠، ربيع الأول ١٤٣٥هـ/كانون الثاني ٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. كوان كعيد خلف.

– التربية الإسلامية، العدد ٤، السنة ٤٠، جمادى الأولى ١٤٣٥هـ/آذار ٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. كوان كعيد خلف.

فهرس هذا العدد




ج١١ و١٢، س٥٢، الجماديان ١٤٣٨هـ
(فبراير-مارس / شباط-آذار ٢٠١٧م)

# الشاعر الجاهلي.. وجدلية الانتماء والتفرد

بقلم: د. أحمد إسماعيل النعيمي*

**توطئة**

مما لا شك فيه أنّ الانتماء القبلي يعد أبرز مظاهر الارتباط بين الشاعر وقبيلته، الذي تجلت معطياته في ذلك الالتزام المترتب على الطرفين، فقد كانت القبيلة مدعوة لنصرة شاعرها، إذا أيقنت أنّ عوزًا أصابه، أو خطرًا أحدق به، أو اعتداء وقع عليه، وكان الشاعر أيضًا بالدافع نفسه ملزمًا بنصرة قبيلته والحفاظ على كيانها، وصيانة وجودها، وتوفير أسباب بقائها، ومعنى هذا أنّ الصلة بين الشاعر والقبيلة، هي صلة (النصرة المتبادلة) التي أملاها واجب الانتماء القبلي القائم أساسًا على آصرة النسب. على أنه لا ينبغي لنا أن نسلّم تسليمًا مطلقًا أنّ هذه الصيغة ظلت قائمة على هذا النمط، وأنها كانت تنتهي إلى مثل هذا التسامي دائمًا. فثمة حوادث تؤكد خروج أحد الطرفين عليها، وعدم التقيد بما تمليه

شروطها، أو الخضوع لمتطلباتها، أو استمرار الوفاء بها. وما من شك أنّ هذا الاختلال قد ترك أثره الواضح في شِعر الشعراء، وعبّر عن الشعور الذي ينتابهم، عندما يجدون أنفسهم بعيدين عن الصورة الحقيقية التي اقتضاها ذلك الواقع، بيد أنّ ذلك لا يغرينا بإعمام الظاهرة، فثمة عوامل كثيرة اجتمعت على أن تجعل تلك الصيغة المنبثقة من واقع الحدث القبلي مختلة في أحد طرفيها.

**معاناة الشاعر في ظل الانتماء**

قد يطول أمر متابعة الموضوعات التي تشكل معاناة الشاعر محورًا فيها، ولكنها لا تعدو أن تصب في محورين رئيسين هما: إمّا اضطهاد أسري بمختلف أشكاله واقع على الشاعر من لدن قبيلته، وإمّا تمخض موقف آني واجه فيه الشاعر محنة تخلي قبيلته عنه وإحجامها عن نصرته على حق من حقوقه. فكلا الموقفين تعبير عن انفصام (العقد الاجتماعي) بين الشاعر وقبيلته، ولهذا فإنّ استقراء نماذج الشعراء كفيل بأن يطلعنا على صور معاناتهم المتمخضة عن هذين الموقفين، واختيارهم الصيغة التي يقررها طموحهم الإنساني تجاه من يرتبطون معه.

ولعل من أدق ما يطالعنا من المعاناة التي يتكبدها الشاعر هو مواجهته تحديات إنسانية قد تتمثل (باضطهاد أسري)، ولكنها قد تنتهي إلى محاولة تجاوزها، إيمانًا من الشاعر بنزعة الارتباط القبلي. فهذا الحارث بن وعلة الجرهمي، كان قد رُزئ بمقتل أخيه من لدن قومه الذين يرتبط معهم

بآصرة النسب، ولكنه حين يقف إزاء ذلك الحدث، لا يكون منه إلا أن يسجل هذا الموقف الراسخ من الانتماء الجماعي الصريح، ضمن قوله:

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللاً ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي[1]

وقد يواجه الشاعر تحديات إنسانية لا يصرح بتفاصيلها، على نحو ما هو معروف عن زهير بن أبي سلمى الذي كما تشير تفاصيل سيرته التي يسوقها أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) حيث يقول: "كان من حديث زهير وأهل بيته أنهم كانوا من مزينة، وكان بنو عبد الله بن غطفان جيرانهم، قد ولدتهم بنو مرة، وكان من أمر أبي سلمى أنه خرج وخاله أسعد بن الغدير وابنه كعب بن أسعد في ناس من بني مرة يغيرون على طيئ، فأصابوا نعمًا كثيرة وأموالاً، فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم، فقال أبو سلمى لخاله أسعد وابن خاله كعب: أفردا لي سهمي، فأبيا عليه، ومنعاه حقه، فكف عنهما، حتى إذا كان الليل أتى أمه فقال: والذي أحلف به لتقومن إلى بعير من هذه الإبل فلتقعدن عليه أو لأضربن بسيفي تحت قرطيك، فقامت أمه إلى بعير منها فاعتنقت سنامه، وساق بها أبو سلمى وهو يرتجز:

ويل لأحمال العجوز مني

إذا دنوت ودنون مني

وساق الإبل وأمّه حتى انتهى إلى قومه مزينة قال: فلبث فيهم حينًا، ثم أقبل مزينة مغيرًا على بني ذبيان، حتى إذا مزينة أسهلت وخلفت بلادها نظروا إلى أرض غطفان، وتطايروا عنه راجعين وتركوه وحده، فذلك حيث يقول:

من يشتري فرسا لخير غزوها ... وأبت عشيرة ربها أن تسهلا

وأقبل حين رأى ذلك من مزينة حتى دخل في أخواله بني مرة فلم يزل هو وولده في بني عبد الله بن غطفان إلى اليوم"[٢].

ولعل ذلك "كان سببًا في أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أنّ زهيرًا غطفاني، وهو في الحقيقة مزني النسب، غطفاني النشأة والمربى"[٣]. ويبدو أنّ هذه الواقعة قد تركت آثارها في وجدان الشاعر زهير، فما كان منه إلا أن آثر (الصمت) تجاه صنيع قبيلته الأمّ (مزينة)، في حين كان يذكر في شعره غطفان وأخواله بني مرة ويمدحهم، ويضم ديوان زهير مثل قوله:

بلاد بها نادمتهم وألفتهم ... فإن تقويا منهم فإنهما بسل

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم ... طوال الرماح لا ضعاف و لا عزل

بخيل عليها جنة عبقرية ... جديرون يومًا أن ينالوا فيستعلوا[٤]

ولعل أوضح المعاناة تميزًا تلك التي نجدها عند (المرقش الأكبر) -أحد عشاق العرب-، الذي انتهت به إلى توجه شعري حافل بالأسى والمرارة[٥]. حين حال قومه بينه وبين من يحب.

إذ تشير سيرة الشاعر إلى أنه "كان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف بن سعد، فلمّا خطبها إلى أبيها، حجبها عنه، وقال له: لا أزوجك حتى تعرف بالبأس، فانطلق المرقش إلى ملك من الملوك، فكان عنده زمانًا ومدحه بشِعره، فأجاره"[٦].

وكان قد "أصاب (عوفًا) زمان شديد، فأتاه رجل من مراد، فأرغبه في المال فزوّجه (أسماء على مئة من الإبل)، فأخذها ورحل إلى قومه". وحين عاد مرقش إلى قومه عمد أهل أسماء إلى حيلة صرفوا بها الشاعر العاشق عن حبيبته، لكن الشاعر لم يلبث أن يقف على حقيقة الأمر، فانطلق يبحث عن أسماء، وكان قد أخذ معه في رحلته عبدًا، وأخذ العبد زوجته معه، حتى إذا صار في أرض المرادي، مرض مرقش مرضًا شديدًا، فأضجعه العبدان وتركاه، وانطلقا إلى قومهما يخبرانهم بأنّ مرقشًا قد مات، لكن قوم مرقش عرفوا بغدر العبدين، إذ توصل أخوا المرقش إلى الحقيقة من خلال الأبيات التي كتبها المرقش في مؤخرة الرحل، حيث يقول فيها:

يا صاحبي تلبّثا لا تعجلا ... إنّ الرواح رهين أن لا تعذلا
فلعل لبثكما يقرب سيئًا ... أو يسبق الإسراع سيبًا مقبلا
يا راكبًا إمّا عرضت فبلغن ... أنس بن سعد إن لقيت وحرملا
لله دركما ودر أبيكما ... إن أفلت العبدان حتى يقتلا
من مبلغ الأقوام أن مرقشا ... أضحى على الأصحاب عبئًا مثقلا
وكأنما ترد السباع بشلوه ... إذ غاب جمع بني ضبيعة منهلا[٧]

وتذكر الأخبار بعد ذلك عن لقاء المرقش بحبيبته أسماء، ثم لم يلبث "أن مات عندها، ثم دفن في أرض مراد"[8].

على أن المرقش -قبل أن يموت- أبى إلا أن يسجل تلك الآهة التي ضمها البيتان الأخيران وأودعهما ألمه الموجع من نقض عهد القوم له، وهو الوفي بعهده لهم، فيقول:

سكن ببلدة وسكنت أخرى      وقطعت المواثق والعهود
فما بالي أفي ويخان عهدي      وما بالي أصاد ولا أصيد[9]

ومما نعرفه عن "أفنون التغلبي" أنه "عاش فترة من عمره مخاصمًا قومه، معرضًا عنهم، إذ كان قد سأل قومه (أباعر) فخيّبوا أمله فيها ولم يتحمّلوا عنه ديات مَن قتلهم. في حين جاءهم رجل يدعى (ابن سوار) وطلب منهم أباعر، فأعدوها له، ولم يضنوا بها"[10].

كان هذا الحادث الذي رجّح أنه "وقع له في وقت متأخر من حياته بعد أن كان عزيزًا بقومه وبنفسه"[11]، كفيلاً بأن يترك آثاره في نفس الشاعر ويتجسد في (عتابه) لهم، لأنهم منعوه مع سؤاله (وأعطوا أخا السكون ولم يسألهم)[12] سبيلاً إلى تذكيرهم بأواصر الرحم والقربى التي تربطه بهم، وما يترتب عليها من التزامات يقتضيها العُرف القبلي في مثل هذه المواقف، في أبيات له أودعها تفاصيل الحدث مشوبة بهذه المرارة، حيث يقول:

أبلغ حُبَيِّبًا وخَلِّلْ في سَرَاتِهِمُ      أنّ الفؤادَ انطوى منهم على حَزَنِ
قد كنتُ أسبقُ مَن جارُوا على مَهَلٍ      مِن ولدِ آدمَ ما لم يخلعوا رَسَنِي

فــالوا علــيّ ولم أمْلِــكْ فِيَــالَتَهُم حتّــى انتحَيْـتُ علـى الأَرْسَـاغِ والثُّـنَنِ

لـو أنـني كنـتُ مِـن عـادٍ ومِـنْ إِرمٍ رُبِّيــتُ فــيهِمْ ولُقْمَــانٍ ومِــن جَــدَنِ

لَمَــا فَــدَوْا بــأَخِيهِمْ مِــن مُهَوِّلَــةٍ أخَـا الـسَّكونِ وَلاَ جَـارُوا علـى الـسُّنَنِ

سألتُ قَوْمِي وقد سَدَّتْ أَبَاعِرَهُم مــا بــين رُحْبَــةَ ذاتِ العِـيصِ والعَـدَنِ

إذ قَرَّبُــوا لابــنِ سَــوَّارٍ أَبَــاعِرَهُمْ للهِ دَرُّ عَطَــــــاءٍ كــــــان ذا غَــــــبَنِ

أَنَّـى جَـزَوْا عـامِرًا سُـوأَى بفِعْلِهِـمُ أَمْ كيـف يَجْزُونَنِـي الـسُّوأَى مِـنَ الحَسَنِ

أمْ كيـف يَنْفَـعُ مَـا تُعْطِـي العَلُـوقُ بـه رِئْمَــانِ أَنْــفٍ إذا مَــا ضُــنَّ بــاللَّبَنِ(١٣)

وإذا ما اطلعنا على تفاصيل سيرة الشاعر طرفة بن العبد وجدنا حياته الشخصية والوسط الذي عاش فيه والظروف الحياتية التي تقلّب فيها مع أمّه وإخوته بعد وفاة أبيه، وسوء معاملة أعمامه لهم، حين حرموه من ميراثهم، مكوّنة تلك الشخصية الحساسة القلقة التي تأرجحت بين التفرّد والانتماء، ولئن امتدح الروح القبلية في قوله:

إذا القـوم قـالوا مـن فتـى خلـت أنـني عنيــت فلــم أكــسل ولم أتبلــد

ولــست بحــلال الــتلاع مخافــة ولكــن متــى يــسترفد القــوم أرفــد

نجد شكواه من ظلم ذوي القربى:

وظلـم ذوي القربـى أشـد مـضاضة علـى المـرء مـن وقـع الحـسام المهنـد

وذلك ما حمله على التعبير عن عدم انتمائه بمظاهر وسلوك تنكرها القبيلة، وذلك ما نستشفه من مثل قوله:

و مــا زال تــشرابي الخمــور ولــذتي وبيعــي وإنفــاقي طريفــي ومتلــدي

إلى أن تحـــامتني العـــشيرة كلـــها وأفـــردت إفـــراد الـــبعير المعبّـــد[١٤]

وهو أشبه ما يكون بنمط فريد من (الصعلكة) داخل إطار الانتماء. ثم ينتهي به هذا الصراع بين تفرّده وانتمائه إلى تأمّل الحياة والموت، وتأمّل المصير والتعبير عن هذا التمزّق الشديد الذي يصيب الفرد القبلي في محاولته تخطّي القبيلة، ذلك ما يمكن أن نحسّ به في أبياته التي يقول فيها:

أَلا أَيُّهَــذَا الزَّاجِــرِي أَحْــضُرَ الــوَغَى وأن أَشْـهَدَ اللـذَّاتِ هـل أنـتَ مُخْلِـدِي

فــإن كنــتَ لا تــسطيعُ دَفْــعَ مَنِيَّتِــي فَــدَعْنِي أُبَادِرُهَــا بِمَــا مَلَكَــتْ يَــدِي

فَلَــوْلاَ ثَــلاَثٌ هُــنَّ مِــنْ حاجــةِ الفَتَــى وَجَــدِّكَ لم أَحْفِــلْ مَتَــى قَــامَ عُــوَّدِي

فَمِــنْهُنَّ سَــبْقِي العــاذِلاتِ بِــشَرْبَةٍ كُمَيْــتٍ مَتَــى مَــا تُعْــلَ بــاللَّونِ تُزْبِــدِ

وكَــرِّي إذا نَــادَى الْمُــضَافُ مُحَنَّبًــا كَــسِيدِ الغَــضَا نَبَّهْتَــهُ الْمُتَــوَرِّدِ

وتَقْـصِيرُ يَـوْمِ الـدَّجْنِ والـدَّجْنُ مُعْجِـبٌ بِبَهْكَنَــةٍ تحــت الخِبَــاءِ الْمُعَمَّــدِ[١٥]

وتنتهي حياة طرفة بنهاية مأساوية، فقد سفر لقومه عند عمرو بن هند محاولاً أن يثنيه عمّا اعتزمه من الانصراف عنهم فيفشل في مسعاه، مما حمله على هجاء الملك، فيبعث به إلى ديار قومه ليقتل بينهم، فيستقبل الموت واثقًا أن قومه سينصرونه، ولكن ظنه يخيب فيقتل، ولكنه يأبى إلا أن يسجل موقفه البائس الذي جعله في مواجهة تحدي الموت الذي لا يواجه فيقول:

أســـلمني قـــومي ولم يغـــضبوا لـــسوأة حلـــت بهـــم فادحـــه

كـــل خليـــل كنـــت خاللتـــه لا تـــرك الله لـــه واضـــحه

كلـــهم أروغ مـــن ثعلـــب مـــا أشـــبه الليلـــة بالبارحـــه[١٦]

وإن تباينت مواقف الشعراء في التعبير عن معاناتهم في ظل وحدة الانتماء القبلي، تأكيدًا منهم لنزعة الارتباط، فإن طائفة أخرى وجدت في إحجام القبيلة عن نصرتهم في حق من حقوقهم مبررًا للخروج من تلك الرابطة، فهذا الأضبط بن قريع السعدي مثلاً ترك قومه الذين أساؤوا مجاورته، وانتقل إلى قوم آخرين، فأساؤوا مجاورته، ثم انتقل إلى آخرين، فأساؤوا مجاروته، فرجع إلى قومه نادبًا حظه العاثر جراء ما يلحق به من أذى، فقال: «بكل واد بنو سعد» أو «أينما أوجه ألق سعدًا»[١٧].

وكان من الطبيعي أن يستوعب (ابن قريع) تلك المحنة التي وجدت طريقها إلى تشكيل موقف منبعث من إيمانه التلقائي بالانتماء، مع محاولة تجاوزه إذ لم ير ما يلزمه به، يلخصه مثل قوله:

فصل حبال البعيد إن وصل الـ ـحبل واقص القريب إن قطعه
واقنع من العيش ما أتاك به من قر عينًا بعيشه نفعه
قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه[١٨]

أمّا الحارث بن ظالم المري فيوافق (الأضبط بن قريع) من جانب، ويخالفه من جانب آخر، ولكنه في مجاله، يظل وجها معبِّرًا من الوجوه الشعرية التي تمخضت عن موقف آني واجه فيه الشاعر محنة تخلي قبيلته عن نصرته؛ إذ تذكر الأخبار أنه (لما قَتل الحارثُ بن ظالم المرِّي خالدَ بن جعفر الكلابي غدرًا عند النعمان بن المنذر بالحيرة، في (يوم بطن عاقل)، أكبرت قبيلته فعلته، وخشيت إجارته خوفًا من بني عامر، فلمّا علم الحارث بهذا الأمر، هرب ونبت به البلاد، وظل يتنقل بين القبائل،

مستجيرًا بهذا وذاك، وقيل: إنه لحق بمعبد بن زرارة فاستجار به فأجاره، وكان من سببه وقعة (رحرحان) التي اضطرته إلى الهرب، حتى لحق بمكة وقريش، لأنه يقال إنّ مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان، إنما هو مُرَّة بن عوف بن لؤي بن غالب، فتوسل إليهم بهذه القرابة[١٩]، وذلك قوله:

فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعري الرقابا
وقومي إن سألت بنو لؤي ... بمكة علموا الناس الضرابا[٢٠]

وإذ يقرر الشاعر هذا الاختيار، فإنه يكشف عن حقيقة معاناته، من الغربة القاسية، وفراغ الانتماء الذي ظل هاجسه الأول، وسبيلاً وحيدًا لتحقيق الكرامة الاجتماعية، منذ مقاطعة قومه له، وتركه ديارهم. على أنه لا ينبغي أن نظن أنّ انفصال الشاعر عن قومه، وانتسابه إلى آخرين، يعني بالضرورة كره الشاعر لهم، إذ سرعان ما أحسّ الحارث، بأنّ كرامته طعنت، لقول نفر فيه بعد إجارة بني لؤي له: «هذه رحم كوشاء، إذا استغنيتم عنها لن يتركم»[٢١]. فما كان منه إلا أن شخص منهم غضبان و أسمعهم قوله:

ألا لستم منّا و لا نحن منكم ... برئنا إليكم من لؤي بن غالب
غدونا على نشز الحجاز وأنتم ... بمنشعب البطحاء بين الأخاشب[٢٢]

فقد ظل الشاعر مؤهلاً لأن يقيم الموازنة المقبولة بين التفرّد والانتماء، ولكنه أبى إلاّ أن يصرّح بانتمائه القبلي لمن تربطه بهم أواصر النسب والدم، الذين ظلوا يوفّرون له الشعور بالاقتدار والكرامة.

وقد تطالعنا نماذج فريدة تمخض عنها موقف -خلاف ما ألفناه- حين يواجه الشاعر تخلّي قبيلته عن نصرته، فهذا قريط بن أنيف، وكان بعض بني ذهل بن شيبان أغاروا على أبله، فاستنجد قبيلته فلم تنجده، فكأنها بذلك نقضت هذا (العقد الاجتماعي) القاضي بحمايته والانتصار له، فلجأ إلى بني مازن فأنجدوه، فما كان من الشاعر إلا أن يهجو قبيلته هجاء مقذعًا من خلال موازنتها ببني مازن في قصيدته النونية التي يقول فيها:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيءٍ وإن هانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا ... شدوا الإغارة فرسانًا وركبانا[٢٣]

وتحدثنا المصادر عن سيرة شاعر آخر نهج هذا النهج، هو (عميرة بن جعل)، الذي انتهت معاناته إلى هجاء قومه بني تغلب. وإذا كانت تلك المصادر لا تكشف لنا دوافع ذلك الهجاء، فإنّ أبياته التي ضمنها ذلك الهجاء، لا تعدو أن تجسد ذات الشاعر المنفلتة من قيود الالتزام بالقيم الأخلاقية الموروثة المنبثقة من واقع الانتماء القبلي، ولاسيما قوله:

كسا الله حيي تغلب ابنة وائل ... من اللؤم أظفارًا بطيئًا نصولها

فمـا بهـم أن لا يكونـوا طروقـة هجانـا ولكـن عفرتهـا فحولهـا
تـرى الحاصن الغراء منهم لشارف أخـي سـلة قـد كـان منـه سـليلها
قلـيلاً تُبَغِّيهـا الفحولـة غـيره إذا استـسعلت جنـان أرض وغولهـا[٢٤]

ثم يرسم لقومه صورة طريفة يكشف من خلالها عـن شـدة مقته لهـم، قائلاً:

إذا ارتحلـوا مـن دار ضـيم تعـاذلوا علـيهم وردوا وفـدهم يـستقيلها[٢٥]

ويبدو أنّ الشاعر ظلم نفسه وظلم قومه، حين نـدم نـدمًا شـديدًا، لأنّ هجـاءه ذاع صـيته في العـرب، ولم يعـد مـن الممكـن لـه أن يرجـع ذمّـه وهجاءه، وذلك ما نلمحه في قوله:

نـدمت علـى شـتم العـشيرة بعـدما مـضت واسـتتبت للـرواة مذاهبـه
فأصبحت لا أسطيع دفعًا لما مضى كمـا لا يـرد الـدر في الـضرع حالبـه[٢٦]

ويندر بعد ذلك أن نجد في بطون المصادر أخبار شـعراء عمـدوا إلى هـذا الـنمط الـشعري في إفـراغ معانـاتهم حين يواجهـون محنة تخلّي القبيلة عـن نصرتهم.

من هذا كلـه نخلـص إلى أنّ تجـارب الـشاعر وطبيعـة موقعـه مـن الحـدث ستبقى المسؤولة عن تحديد الموقف الفكري في كل مجرى من هذه المجاري، ولهذا لا ينبغي أن يدهشنا تفاوت المواقف أو تناقضها عنـد هـذا الـشاعر أو ذاك. وكـان لنتـاج الـشعراء أن يـستوعب تلـك التحـديات الإنـسانية، وأن يقدم صيغ معالجتها من وجهات نظر متعددة.

**التفرّد في إطار الصعلكة:**

ولعلنا نصل بعد هذا إلى شكل معروف يكثر الحديث عنه في معرض التعبير عن صور التفرد خارج دائرة الانتماء القبلي، ألا وهو (التصعلك).

ويبدو أنّ ظاهرة التصعلك أوضح نموذج للاختلال الحاصل في أسباب الارتباط بين الشاعر وقبيلته، فحسبنا أن نعلم أنّ المجتمع القبلي بكل أشكاله مجتمع يخضع لنظام تتحكم فيه الأعراف والتقاليد، وتلتقي في إطاره شرعية النزعة الفردية، وأحكام الانضباط الجماعي، وهذا ما حدد الكثير من تصرفات الفرد، وقيّد أشكال سلوكه، وحصرها في المجال الذي يحفظ لهذا المجتمع بقاءه، وحمله على أن يقدّم نفسه في بعض الحالات ضحية من أجل هذا النظام، كما مرّ بنا من قبل. وهو في مقابل هذا الالتزام يقع في إطار الحماية التي توفّرها القبيلة له، والرعاية التي تشمله بها ما دام ملتزمًا بكل الشروط المتعارف عليها في العرف القبلي.

وسنعرض الآن بعض الأمثلة المعبرة عما ألمحنا إليه متمثلة في شعراء مثل قيس بن الحدادية والشنفرى وعروة بن الورد، إذ كل واحد من هؤلاء يمثل مجموعة من المجموعات التي تتألف منها طائفة الصعاليك[٢٧].

ولنبدأ بقيس بن الحدادية الذي يمثّل نموذج الشاعر الخارج على أعراف قبيلته وتقاليدها، لكثرة جرائره التي لم تكن في وسع قبيلته تحملها مما اضطرتها إلى خلعه "وأشهدت على نفسها -بسوق عكاظ- بخلعها إياه، فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه"[٢٨].

ثم لم يلبث أن نزل عند قوم يقال لهم "بنو عدي بن عمرو بن خالد" فآووه وأحسنوا إليه، فمدحهم قائلاً:

جزى الله خيرا عن خليع مطرد رجالا حموه آل عمرو بن خالد

فليس كمن يغزو الصديق بنوكه وهمته في الغزو كسب المزاود

عليكم بعرصات الديار فإنني سواكم عديد حين تبلى مشاهدي[٢٩]

لقد حاول شاعرنا أن يلتمس له هوية قبلية جديدة، بدلاً من هويته التي أسقطت عنه وذلك ما صرح به في قوله:

أولئك إخواني وجل عشيرتي وثروتهم والنصر غير المحارد[٣٠]

وهذا ما يفسر لنا أنه "ليس من كارثة على الفرد أشد من خسرانه نسبه القبلي"[٣١] فإذا يئس من حماية قبيلته التمس انتماء آخر عند غيرها. ويقينًا أنّ تضحية القبيلة بفرد من أفرادها، لاسيما إذا كان هذا الفرد شاعرًا أمر ليس سهلاً على الإطلاق؛ إذ لا نستبعد أن يكون هذا الشاعر في بداية حياته "عضوًا عاملاً في المجتمع القبلي، قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعي الذروة"[٣٢]. ما لم تكن هناك دوافع ملحّة اضطرت القبيلة إلى إعلان خلعها له، ولعل أبرزها، ضعف قوة القبيلة الحربية مما لا يمكنها وهي في هذا الوضع من مواجهة قبائل أكثر منها عددًا وعدة، أو معاناتها من شظف العيش الناتجة عن قلّة أرزاقها، الأمر الذي لا يساعدها على تحمّل الديات الواجب دفعها ثمنًا عن جرائره التي ارتكبها بحق القبائل الأخرى، وفقًا للمبدأ القائل «لكل شيء ثمنه في المجتمع القبلي»[٣٣]. فضلاً عن ذلك «أنها قد تؤثر التضحية بشاعرها إذا وجدت بقاءه داخل القبيلة

يشكل خطرًا على وحدتها وانقسامًا على نفسها، إذا ما استمر في غيه وعدم خضوعه لأعرافها وتقاليدها. وإذا كنا لا نشك في أنّ الوضع الاجتماعي كان يجعل الفرد للقبيلة والقبيلة للفرد»[٣٤]، غير أنّ كثيرًا من الأحداث كشفت عن أنّ التضحية بالفرد إيثارًا لمصلحة القبيلة هي الظاهرة الأعم والأغلب في عرف المجتمع القبلي.

وكان نتيجة هذا (الخلع) أن احترف (قيس) الصعلكة احترافًا، سبيلاً إلى تجاوز الإحساس بالانتماء القبلي، فلم تكن الصعلكة عنده غاية، بل وسيلة لحماية الذات التي لم يبق ما يملكه غيرها، حين أنكرته قبيلته وتبرّأت منه، وطردته من حماها، وقطعت ما بينها وبينه من صلة، وتحلّلت بهذا من (العقد الاجتماعي) الذي يقوم أساسًا على (النصرة المتبادلة)؛ لأنه كان من ذوي الجرائر، وليس ثائرًا على أعراف وتقاليد المجتمع القبلي، بدليل التماسه انتماء قبليًّا -أول الأمر- قبل أن ينتهي به الأمر إلى التصعلك.

أمّا الشنفرى الأزدي فيظل وجهًا معبّرًا من الوجوه الشِعرية التي أطلقتها ظاهرة الشعراء الصعاليك. ففي أخباره أنه نشأ في بني سلامان بن مفرج، وهم بطن من الأزد[٣٥]، وهو يحسب أنه واحد من أبنائهم الذي يعيش بين ظهرانيهم، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ولكن ما تلبث هذه الصورة أن تتلاشى من مخيّلته، ويشعر بأنه دون أبناء القبيلة منزلة، بعد أن جُويه بحقيقة لونه ونسبه، حيث كان واحدًا من (أغربة العرب)[٣٦]، وابن أمة لاسيما "أنّ لفظة الشنفرى تحمل في طياتها دليلاً على أصل هذا

الشاعر، فمن معاني هذه اللفظة الرجل الغليظ الشفتين، وغلظ الشفتين -كما هو معروف، وكما يقرر علماء الأجناس- من سمات الجنس الأسود"؛ إذ يرجح "أنّ أمّ الشنفرى كانت أمة سوداء أو من دم مختلط"[٣٧].

ويبدو أنّ تلك اللطمة التي لطمتها الفتاة السلامية (قعسوس) للشنفرى، عندما قال لها «اغسلي رأسي يا أخية وهو لا يشك أنها أخته، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته»[٣٨] أيقظت في نفسه الإحساس بضعة المقام، وتلك هي الحقيقة التي سجّلها الشنفرى بقوله:

ألا ليت شعري والتلهف ضلة ... بما ضربت كف الفتاة هجينها

ولو علمت قعسوس أنساب والدي ... ووالدها ظلت تقاصر دونها[٣٩]

فكان من الطبيعي أن تعتمل في نفس الشنفرى بوادر تمرّد على مجتمعه، فإن كان قادرًا على احتمال ظلم الناس الغرباء، فهو ليس بقادر على احتمال ظلم ذوي القربى، وتتمخض حياة الشنفرى عن صور أخرى من المعاناة التي كابدها الشاعر نتيجة ما لقيه من اضطهاد أسري، فعندما (قتلت الأزد الحارث بن السائب الفهمي، أبوا أن يبوؤوا بقتله، فباء بقتله رجل فهم يقال له: حزام بن جابر، قبل ذلك، فمات أخو الشنفرى، فأنشأت أمه تبكيه"[٤٠].

فكان حصيلة ذلك كله، أن فرَّ الشنفرى من قومه، كافرًا بأواصر الرحم التي تربطه بهم، ومضمرًا الشرَّ لهم، ثم مضى مع الصعاليك المنتشرين في مواضع متفرّقة من شبه الجزيرة العربية، ليجد معهم حريته التي لا تطالها أعراف المجتمع القبلي، مجتمع مصغّر يختلف عن المجتمع

القائم على آصرة النسب. وبهم خلق الشنفرى لنفسه مجتمعًا يعيش فيه على فرديته وشدة بأسه، لا يهاب الموت، ولا شيء يرجوه، ولا شيء يصانع عليه، وذلك هو منطلقه في قوله:

أمشي على الأرض التي لن تضرني     لأكسب مالاً أو ألاقي حمتي
إذا ما أتتني حتفتي لم أبالها     ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي
وإني لحلو إن أريدت حلاوتي     ومر إذا النفس الصدوق استمرت[٤١]

وإذ تقترن (اللامية) باسم الشنفرى فإنها في جوهرها تعبير عن فلسفة الصعاليك في نظرتهم للحياة وبكل ما يحيطها من غربة وضياع وتشرد وفاقة، ولم يكن من يأمنون إليه سوى حيوان الصحراء، وذلك ما نلحظه في بعض أبياتها:

أقيموا بني أمّي صدور مطيكم     فإني إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر     وشدت لطيات مطايا وأرحل
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ     سرى راغبا أو راهبا حين يعقل
ولي دونكم أهلون سِيد عملّس     وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع     لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل[٤٢]

من هنا لا نجد غرابة في استيعاب نتاج الصعاليك الشعري أثار هذه الرغبة العارمة في التفرّد، عن طريق هدم مقومات الانتماء القبلي الذي فقدوا الإحساس به.

نخلص من هذا كله إلى أنّ في سيرة الشنفرى ما يشير إلى تحديات إنسانية ظل الشاعر يحس بوطأتها، انتهت بخروجه على قبيلته التي لم تنصفه، واحترافه التصعلك سبيلاً لتجاوز صيغة الانقياد القبلي الصارم.

ولكننا لا نجد ذلك مسوغاً كافيًا للشاعر، فلو حاول الانطلاق من رفضه التقاليد التي تجعل ابن الأمة الأسود اللون دون غيره من الناس، بما يأتيه من فضائل الأعمال، والبلاء الحسن في يوم الشدة، لأعطى بعدًا إنسانيًّا أرفع يقاس المرء فيه بمزاياه وصفاته لا بنسبه ولونه، ولوجد حلاًّ لما كان يشكو منه. فهذا عنترة بن شدّاد يكاد يوافق الشنفرى في تفاصيل سيرته، فلئن أحب قبيلته (عبس) وذاد عن حياضها وحمل خير مناقبها فهو ينكر عليها موقفها من أبناء الإماء ومن لونهم، ويعبّر عن هذه المعارضة بالمفاخرة بمزاياه وأفعاله وشمائله وشجاعته كل ذلك تعويض عن سواد لونه ومعاناة نسبه(٤٣)، فقدّم نموذجًا للتسامي يلخّصه مثل قوله:

إني امرؤ من خير عبس منصبا ... شطري وأحمي سائري بالمنصل

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... ألفيت خيرًا من معم مخول(٤٤)

**ازدواجية الشاعر بين الانتماء والصعلكة:**

تبدو شخصية عروة بن الورد أنموذجًا فريدًا لم نألفه في معظم شعراء الجاهلية، ليس من حيث نتاجه الشعري، وإنما من حيث تكوينه النفسي ونظرته لواقع المجتمع القبلي الذي يحيا بظله.

وانطلاقًا من هذه الناحية لا بد من الكشف عن جوانب سيرة حياته التي طبعته بذاك الطابع، وأهلته أن يحرز -فيما بعد- لقب (عروة الصعاليك)[٤٥] الذي اشتهر به.

ففي أخباره أنّ عروة فتح عينيه على الحياة ليرى تباينًا اجتماعيًّا عند الذين يعيش في كنفهم، فأبوه تتشاءم منه قبيلته عبس، (لأنه هو الذي أوقع الحرب بينها وبين فزارة بمراهنة حذيفة)، وأمه من قبيلة (نهد) التي كانت على ما يبدو أقل شرفًا من قبيلة أبيه[٤٦].

فضلاً عن أنّ حياته هي الأخرى لم تخلُ من مرارة الإحساس بالتمايز الذي صادفه في أسرته؛ إذ كان له أخ أكبر منه، وكان أبوه (يؤثره على عروة فيما يعطيه ويقرّبه، فقيل له: أتؤثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر مع ضعفه؟ قال: أترون هذا الأصغر؟ لئن بقي مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالاً عليه)[٤٧].

ويبدو أنّ الإحساس بوطأة هذه الظاهرة اقترن عند عروة بوعي جديد لمشكلة تباين الناس من حيث الفقر والغنى، والحب والحرمان، والرفعة والضعة، الذي كان شائعًا في المجتمع القبلي، فما كان منه إلا أن ربط العلّة بالمعلول، بمعنى أنه رأى الغنى منزلة رفيعة، والفقر هو الهوان. فوجد تجاوز الفقر سبيلاً إلى حياة حرة كريمة، وذلك هو المنطلق الذي قرره بقوله:

دعيني للغنى أسعى فإنّي رأيت الناس شرهم الفقير[٤٨]

ولما كانت دعوته لا يتيح لها ظرف الالتزام القبلي فرصة التعبير عنها، وجد عروة أنّ خروجه على المجتمع الذي رضي بهذا التباين وأبقاه سبيلاً إلى تحقيق ما يصبو إليه، حتى قال:

لعل انطلاقي في البلاد وبغيتي وسدي حيازيم المطية بالرحل
سيدفعني يومًا إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل[٤٩]

فما كان منه إلا أن يلتفت إلى أولئك الصعاليك الذين أسسوا لأنفسهم مجاميع ابتكرت لنفسها أعرافًا مغايرة جعلتهم يعيشون على هامش المجتمع القبلي بسبب لونهم أو نسبهم، بعد أن رأى فيهم واقعية ذلك التباين بأجلى مظاهره، ووسيلة لغاية ما كان يدعو إليه. فأخذ يجمع شتاتهم حتى استطاع أن يوحدهم ويبصرهم بما هم عليه، حاثًّا إياهم على سلوك سبيل يعوّضون به ما حرموا منه، ويأتي حافز الحاجات المادية في مقدمة الأسباب التي تحرِّك الإنسان، وقد كان عروة صريحًا في تعبيره عنه ضمن قوله:

قلت لقوم في الكنيف: تروحوا عشية ملنا حول ماوان رزح
تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم إلى مستراح من حمام مبرح[٥٠]

هكذا سلك عروة سبيله في الحياة حتى أصبح، زعيم طائفة من الصعاليك، يجمعهم غرض واحد، وغاية واحدة، فعرف الصعاليك مكانته بينهم، وأعطوه زمام أمرهم بنداداتهم له (يا أبا الصعاليك)، وشَعَر عروة من جانبه بتلك (الأبوّة) وتحمّل مسؤوليتها حتى قال:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح[٥١]

فعروة قد خرج بالصعلوك من عمل فردي يتوخى به كسب قوته أو أرواء غليل النقمة في نفسه أو إبراز شخصيته إلى عمل مشترك له أسبابه ودواعيه. بيد أنّ ذلك لا يغرينا باعتبار عروة صعلوكًا كغيره من الصعاليك، فهو لا يعدو أن يكون زعيمًا لهم أراد أن يلفت الانتباه إلى هؤلاء المسحوقين، أولاً، ومن ثم يعبّر عن رسالته من خلالهم ثانيًا، وصنيعه هذا يكشف عن عمق وبعد في النظر، وطموح في تحقيق قيم العدالة ثالثًا.

فضلاً عن هذا كله، أنّ عروة نفسه لا يمكن أن ينتسب إلى أية طائفة من الطوائف التي تتألف منها الصعاليك فهو ليس من "طائفة الخلعاء والشذاذ الذين أنكرتهم قبائلهم، وتبرّأت منهم، وطردتهم من حماها، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة"[٥٢]، كما أنه ليس من "طائفة الأغربة السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب، ولم ينسبوهم إليهم"[٥٣]. ولا من: "طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلة التي كانت تسود المجتمع الجاهلي"[٥٤]، وهذا يؤكد أنّ احترافه الصعلكة لم يكن غاية سعى إليها عروة بسبب إيثار أبيه أخاه الأكبر عليه، وإنما كانت مشكلة النظام القبلي نفسه، ومن هنا كان له أن يتجه إلى خارج دائرة الانتماء القبلي، ليجد في ظاهرة الصعلكة سبيلاً إلى إعطاء الذات حريتها في التصرف، وقوة فاعلة تعمل عملها في هذا الاتجاه، إلى حد قد يسيء إلى المجتمع القبلي في أحايين كثيرة، منطلقًا من مبدأ الغاية تبرر الوسيلة. فظل صنيعه هذا يكشف عن

عمق في الفكر وبعد في النظر وطموح في تحقيق العدالة التي تاهت في مداخلات الحدث القبلي، وذلك ما نلمحه في قوله:

وإنـي امـرؤ عـافى إنـائي شـركة　　وأنـت امـرؤ عـافى إنـاؤك واحـد
أتهـزأ مـني أن سمنـت وأن تـرى　　بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أقـسم جـسمي في جـسوم كـثيرة　　وأحـسو قـراح المـاء والمـاء بـارد[٥٥]

وما دام الأمر قائمًا على التحلل من الالتزام القبلي، فكان من الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالانتماء إليها. وهكذا يصبح نتاجه الشعري متمخضًا عن فردية يشاركه فيها أفراد جماعته من الذين يجمعهم وإياه غرض واحد وغاية واحدة.

**الشاعر وفراغ الانتماء:**

ويطالعنا شاعر متميّز آخر من نماذج المعاناة التي تشكل تحديًا إنسانيًّا يستدر استجابة فكرية، حاول من خلالها اختيار الصيغة التي يقررها طموحه الإنساني افتقادًا منه للانتماء القبلي.

ولعل الحطيئة يبقى أصدق من يجسد ذلك، فحسبنا أنه كان (مغموز النسب)[٥٦] وإن (لم يكن الوحيد الذي يشكو في ذلك العصر من الولادة الغامضة، إلا أنّ الكثيرين من هؤلاء كانوا يأبون واقعهم، ويثيرون عليه، وينهضون من الكبوة التي أصابهم بها القدر، معوِّضين عن نقصهم بأعمال متفوّقة بطولية)[٥٧]؛ وفي ضوء هذه الحقيقة وحدها نستطيع أن

نستوعب معاناته التي ظهرت آثارها في معظم نتاجه الشعري في الجاهلية. ففي أخباره أنه ظل متشبِّثًا بانتزاع نسب له لكي تبقى عناصر وجوده، وصلات ارتباطه بمن يشعر بوجودهم القوة الحصينة. لكن محاولاته تلك لم تسفر عن نسب له يطمئنّ إليه، لكثرة من ادعى الانتساب إليهم، فمثلاً "كان يدّعي إذا غضب على بني عبس أنه ابن عمرو بن علقمة، رجل من بني الحارث بن سدوس، أتاهم يطلب ميراثه من أبيه فمنعوه، فرجع إلى عبس"، ومرة أخرى "ضرب بنسبه إلى بكر بن وائل"(٥٨). وإذا أضفنا إلى نسبه المغموز، قبح المنظر، الذي لقب الحطيئة دالاً عليه (لقربه من الأرض وقصره، تشبيهًا بالقمّلة الصغيرة، يقال لها حطأة)(٥٩). "وأيًّا ما كان السبب الحقيقي فإنّ هذا اللقب زاد في هوان منزلته الاجتماعية، وأضاف إلى علل نقمته وسخطه علّة جديدة". غير أنّ الحطيئة وهب ذلك الفيض الشعري الذي شهره سلاحًا ماضيًا على كل من سلبه مقوّمات الشخصية القبلية التي كان دائم البحث عنها باعتبارها هويته ووجوده، فاتجه إلى هجاء كل من يحيط به، حتى لم يتورع عن هجاء أمّه وأبيه بوصفهما المسؤولين عن معاناته هذه، حيث قال:

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني ... وأبا بنيك فساءني في المجلس(٦٠)

كما لم تسلم امرأته من هجائه، فقال فيها:

أطــوف مــا أطــوف ثــم آوي إلى بيـــت قعيدتـــه لكـــاع[٦١]

ثم نال أخواه من أوس بن مالك من الهجاء ما ناله جُلّ أهله وقومه والمقرَّبين إليه، حتى الذين ادعى الانتساب إليهم صبَّ هجاءه عليهم، لأنهم لم يعطوه ما يشبع نهمه، فقال في بني بجاد رهط بني جحش من عبس:

رهط ابن جحش في الخطوب أذلة دسم الثياب قناتهم لم تضرس[٦٢]

وقد بلغ كلفه بهجاء الناس أنه "التمس ذات يوم إنسانًا يهجوه فلم يجده وضاق ذلك عليه، حتى طلع في ركي أو حوض فرأى وجهه[٦٣] فقال:

أرى لـي وجهًـا شـوّه الله خلقـه فقـبح مـن وجـه وقـبح حاملـه[٦٤]

ثم تبرز الحاجة المادية عند الحطيئة سبيلاً للتعويض عمّا هو عليه، وهو في هذا الاتجاه يوافق الشعراء الصعاليك من جانب ويباينهم من جانب آخر، فبدلاً من اتخاذه الغزو والإغارة للسلب والنهب طريقًا للحصول على المال، اتجه إلى التكسب بشِعره، إذ تجوَّل بين مضارب خيام القبائل وفي أوساط سادتها، ابتغاء أن ينال العطاء منهم على القصائد التي ينظمها في مدحهم، أو أن يعاقبهم بالهجاء اللاذع على بخلهم، فكان الناس يضحون بضحايا كبيرة جدًّا من أجل النجاة من مرّ هجائه، كما صنعت قريش؛ إذ "أرصدت له العطايا عندما علمت بقدومه المدينة"[٦٥].

ومـن الجـدير بالملاحظـة أنّ الحطيئـة قلّمـا يـصدر في مدحـه عـن إيمـان خالص بالممدوح وإعجاب صـادق بـه، فهو مجـرد إعجاب بما ينالـه مـن بـرّ الممدوحين وعطائهم، ودليلنا أنه مدح قومًا ثـم عـاد فهجـاهم معلنًـا ندمـه على مديحه لهم، وذلك ما صنعه مع إخوتـه بـني الأفقـم، وبـني سـهم بـن عوذ بن غالـب، وقوم الزبرقان[٦٦]. ورغم سلوكه هذا، فإنّ لـه موقفًـا ينبـئ عن وفاء لمن كانوا صادقين معه، فحين حاول حساد أوس بـن حارثـة ابـن لام الطائي إغراءه بهجاء أوس بأن يدفعوا لـه ثـلاث مئة ناقـة، أبى وقـال: «كيف أهجـو مـن لا أرى في بـيتي أثاثًـا ولا مـالاً إلا مـن عنـده»[٦٧] ثـم قـال شِعرًا في مدح آل أوس يذكر فيه فضلهم عليه[٦٨].

فضلاً عن موقفه هـذا يتلمس لـه عطـف علـى خاصـة أسـرته، وتمـسك بهـا، حيـث فـسّر اصـطحابه لزوجـه وبناتـه إلى ديـار ممدوحيـه واشـتراطه عليهم أن لا يسمعوا غنـاء، ثـم استجابته -بعـد ذلـك- لالتمـاس زوجـه بالكف عن تلك الرحلات قرائن ترجح ذلك[٦٩]. ولعـل هـذا التمـسك نـابع من شعوره بأبوّة كانت عقدة نقص عانى منها كثيرًا.

وعلى الرغم من هذا الـشعور الإنساني الـذي اكتنفتـه نفـسية الحطيئـة، فقد كان التفرّد في شخصيته المنفلتة من قيود الانتمـاء القبلـي أثـره في جعلـه يعمد إلى الهجاء حينًا، وإلى المدح يستدر به لقمة العيش حينًا آخـر؛ إذ "لا عـصبية تحـدّ مـن بيـع شِـعره للآخـرين، ولا نفـسًا عاليـة تـرى في إراقـة مـاء الوجه بالسؤال عيبًا ومهانة، ولا بسطة في الجسم، وقوة في اليـد تمكّنـه مـن العمـل مغـيرًا قاطعًـا للطريـق علـى القوافـل وتجـارة المياسـير والأغنيـاء، أو

الخدمة في ظل قبيلة يتخذ من جوارها وخدمتها سبيلاً للعيش، فلم يكن أمامه إلا الاستجداء بشِعره وقوافيه مستغلاً أثر الشِّعر في الرفع والخفض"[٧٠].

ذلك هو الواقع اليومي الذي عاشه الحطيئة حتى كان شِعره صدًى لذلك الواقع، تلاحقه لعنة النسب والخلقة حتى مماته.

ولما قرب من نهايته قال لقومه: «تحملونني على أتان وتتركونني راكبها حتى أموت، فإنّ الكريم لا يموت على فراشه، والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط، فحملوه عليها وجعلوا يذهبون ويجيئون عليها حتى مات[٧١]، وهو يقول:

لا أحد الأم من حطيئة
هجا بنيه وهجا المريه
من لؤمه مات على فريه[٧٢]

فقد استسلم الشاعر لواقعه، وأراد لموته أن يكون مطابقًا له، فمات وهو على ظهر أتان تدور، كما دار بحثًا عن انتمائه الذي عانى كثيرًا من فراغه.

وخلاصة القول إنّ الشروط المتعارف عليها في ظل الانتماء القبلي لا تعني بالضرورة التزام الطرفين بها "الشاعر وقبيلته" وما تركته هذه العلاقة غير المتوازنة من أثرٍ في نتاج الشعراء ما هي إلا تعبير عنها وإن شكّلت استثناء لا ظاهرة مطردة.

**الهوامش:**

*كلية التربية للبنات- جامعة بغداد.

(١) **عيون الأخبار**، ابن قتيبة، (ط دار الكتب)، القاهرة، ١٩٦٣: ٨٨/٧.

(٢) **الأغاني** (ط دار الكتب)، أبو الفرج الأصفهاني: ٢٩١/١٠-٢٩٢.

(٣) **تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-** د.شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٦٩: ص٣٠٠.

(٤) **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، (ط دار الكتب) القاهرة، ١٩٤٤: ص١٠١.

(٥) انظر: ترجمته في **الشِّعر والشعراء**، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٨٢: ١/ص٢١٠.

(٦) **الأغاني** (ط دار الكتب): ٦/ص١٢٩.

(٧) المصدر نفسه: ١٣٠/٦، والأبيات في شِعر (المرقش الأكبر)، جمع وتحقيق د. نوري القيسي، **مجلة العرب** (السعودية)، الجزء السادس، ١٩٧٠: ق١/ص٨٧٣.

(٨) المصدر نفسه: ١٣٣/٦.

(٩) **شِعر المرقش الأكبر**: ق٢/٨٧٥.

(١٠) **خزانة الأدب**، البغدادي، (ط بولاق) مصر، ١٢٩٩هـ: ٤/ص٤٥٦.

(١١) **شاعر فارس -أفنون التغلبي**، د. عادل البياتي، مجلة آداب بغداد، العدد (٢٠) ١٩٧٦: ص٣٠٥.

(١٢) **خزانة الأدب**: ٤/ص٤٥٧.

(١٣) **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، جمع لويس شيخو، بيروت، ١٩٦٧: ١/ص١٩٣.

(١٤) انظر تفاصيل ترجمته في **الشِّعر والشعراء**: ١٨٨/١ وما بعدها، والأشعار في ديوان طرفة بن العبد، تحقيق د. علي الجندي، القاهرة، ق٤/ص٤٥-٤٦، ٤٩، ٥٧.

(١٥) **ديوان طرفة بن العبد**: ص٥٠-٥١.

(١٦) المصدر نفسه: ص٢٦.

(١٧) الشعر والشعراء: ١/ص٣٨٢.

(١٨) المصدر نفسه: ١/ص٣٨٣.

(١٩) انظر: **أيام العرب**، أبو عبيد، تحقيق د. عادل البياتي، بغداد، ١٩٧٦: ١/ص٤٨٥.

(٢٠) **المفضليات**، المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، مصر ١٩٦٤: ق٨٩/ص٣١٤.

(٢١) **أيام العرب**: ١/ص٥٣١.

(٢٢) **شِعر الحارث بن ظالم المري**، جمع د.عادل البياتي، مجلة آداب بغداد، الدورة (١٥) ١٩٧٢: ص٣٨٢.

(٢٣) **شرح حماسة أبي تمّام**، التبريزي، جمع محمد عبد القادر سعيد، بيروت، (د.ت): ١/ص٣-٤.

(٢٤) **المفضليات**: ق٦٤/ص٢٥٧.

(٢٥) المصدر نفسه: ث٦٤/٢٥٨.

(٢٦) **الشِّعر والشعراء**: ٢/ص٦٥٠.

(٢٧) انظر: **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، د. يوسف خليف، مصر ١٩٥٩: ص٢٦ وما بعدها.

(٢٨) **الأغاني** (ط دار الكتب): ١٤/ص١٤٥.

(٢٩) المصدر نفسه: ١٤/١٥٢.

(٣٠) المصدر نفسه/ ١٤/١٥٢.

(٣١) **تاريخ العرب** (المطول)، فيليب حتّي وزميلاه، بيروت، ١٩٥٢: ق١/ص٣٤.

(٣٢) **الشعراء الصعاليك**: ص٢٤٦.

(٣٣) **العصبية القبلية وأثرها في الشِّعر الأموي**، د. إحسان النص، بيروت، د.ت: ص١٢٦.

(٣٤) **قيم جديدة للأدب العربي**، بنت الشاطئ، مصر، ١٩٧٠: ص٣٦.

(٣٥) انظر: **الأغاني** (الهيئة المصرية): ٢١/ص١٧٩.

(٣٦) انظـر: **الـشعراء الـسود وخصائـصهم في الـشِّعر العربـي**، د. عبـده بـدوي، مصر١٩٧٣: ص٢٢.

(٣٧) **الشعراء الصعاليك**: ص٣٣١.

(٣٨) **الأغاني** (الهيئة المصرية): ٢١/ص١٧٩.

(٣٩) **شِعر الـشنفرى**، ضـمن كتـاب (الطرائـق الأدبيـة)، صـنعة عبـد العزيـز الميمني، القاهرة، ١٩٧٣: ص٤١.

(٤٠) **الأغاني** (الهيئة المصرية): ٢١/ص١٨٧.

(٤١) المصدر نفسه: ١٨٧/٢١ (والأبيات مما أخلّ بها مجموع شِعر الشنفرى).

(٤٢) **أعجب العجب في شرح لامية العرب**، الزمخشري، ط الجوائب، ص١١-١٨.

(٤٣) انظر: **فارس بني عبس**، حسن عبد الله القرشي، مصر ١٩٦٩: ص٦٤.

(٤٤) **ديوان عنترة**، تحقيق محمد سعيد مولـوي، مطبوعـات المكتب الإسـلامي، ١٩٧٠: ص٢٤٨.

(٤٥) **الشِّعر والشعراء**: ٦٧٥/١.

(٤٦) **الأغاني** (ط دار الكتب): ٣/ص٨٨.

(٤٧) المصدر نفسه: ٣/ص٩٠.

(٤٨) **ديوان عروة بن الورد**، تحقيق عبد المعين الملوحي، دمشق، ١٩٦٦: ص٩١.

(٤٩) المصدر نفسه: ص١١٦.

(٥٠) المصدر نفسه: ٣٩.

(٥١) المصدر نفسه: ص٤.

(٥٢) **الشعراء الصعاليك**: ص٥٤.

(٥٣) **الشعراء السود وخصائصهم في الشِّعر العربي**: ص٢٦.

(٥٤) **الشعراء الصعاليك**: ص٥٥-٥٦.

(٥٥) **ديوان عروة بن الورد**: ص٦٦.

(٥٦) **الأغاني** (ط دار الكتب): ص١٥٨.

(٥٧) **الحطيئة -في سيرته ونفسيته وشِعره-** إيليا حاوي، بيروت، ١٩٧٠: ص٢٤-٢٥.

(٥٨) **الأغاني** (ط دار الكتب): ص١٥٨.

(٥٩) **الاشتقاق**، ابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، ١٩٥٨ : ١/ص٢٧٩.

(٦٠) ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه، مصر ١٩٥٨، ق١٢/ص١٠٢.

(٦١) المصدر نفسه: ق١٨/ص٣٣٠.

(٦٢) المصدر نفسه: ق١٢/ص١٠٢.

(٦٣) **الأغاني** (ط دار الكتب): ٢/ص١٦٣.

(٦٤) **ديوان الحطيئة**: ق٢١/ص٣٣٣.

(٦٥) **طبقات فحول الشعراء**، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٩٥٢ : ١/٩٥.

(٦٦) انظر: **ديوان الحطيئة**، ق٢٨/ص٨٠، ق٩١/ص٣٤٧، ق٩٢/٣٤٩.

(٦٧) **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥ : ص١١٨.

(٦٨) انظر: **ديوان الحطيئة**: ق٣٢/ص٨٦–٨٨.

(٦٩) انظر: **شِعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين**، د. محمود الجادر، بغداد، ١٩٧٩ : ص٦٧ وما بعدها.

(٧٠) **ظاهرة التكسب وأثرها في الشِّعر العربي ونقده**، د. درويش الجندي، القاهرة، ١٩٧٠ : ص٥٧.

(٧١) **الشِّعر والشعراء**: ١/ص٣٢٣.

(٧٢) **الأغاني** (ط دار الكتب): ١٩٧/٢، والأرجوزة مما أخلّ بها ديوان الشاعر.

# كلمة تقويم: الصورة والأداء والأصل الصرفي

بقلم: د. أيمن غباشي محمود زغيب*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح من نطق بلسان عربي مبين. أمَّا بَعْدُ.

فلقد نبتت فكرة هذا البحث عندما كنت أعمل مدرِّسًا في قسم اللغويات بكليتي اللغة العربية والدراسات العليا بجامعة الملك فيصل في تشاد وقد أتاني بعض الباحثين المتخصصين في اللغة ناطقين بهذه العبارة: "نريد تقييم هذا البحث أو هذه الرسالة أو هذا العمل، فنقول لهم: إنّ هذا خطأ في اللغة كبير يقع فيه كثير؛ فالكلمة أصلها الواو، والصواب أن يقال: التقويم وأعددت لذلك محاضرة صرفية لطلاب كلية الدراسات

العليا بينت لهم فيها أنّ صورة الكلمة وأداءها وأصلها الصرفي هو "التقويم" ودعّمت القول بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وشاء الله لهذه الكلمة "أعني التقويم" أن تفرد ببحث تحت عنوان: "التقويم الصورة والأداء والأصل الصرفي"، وذلك بعد أن ندَّ بها الناطقون والكتّاب والمتخصصون عن وجهها وعدلوا بها عن سننها وأصلها، والبحث حول هذه الكلمة من أبرز الظواهر اللغوية والصرفية؛ والعربية ما كانت لتضيق بما يضيفها أو يضاف إليها فقد رجعت إلى صورة الكلمة وأدائها وأصلها الصرفي في كتب اللغة والصرف والقراءات والأحاديث فوجدت أنّ أصلها الواو في جميع أحوالها، وأمَّا ما جاء بالياء فهو خارج عن أصله الصرفيّ لعلة تصريفية. وما كان لهذا البحث أن ينتهي دون الوقوف على آراء علماء اللغة والصرف، بل إنني قويت الكلمة -أعني التقويم التي هي الأصل الأصيل- بدعائم من القرآن الكريم وقراءاته ومن أحاديث النبي ﷺ مبيّنًا الأصل فيها.

هذا: وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أمّا المقدمة فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع وأسباب اختياري له.

وأمّا المبحث الأول: فتحدثت فيه عمّا شاع على الألسنة في كلمة التقويم، واشتقاق الكلمة في كتب المعاجم اللغوية.

وأمّا المبحث الثاني: فتحدثت فيه عن رأي الصرفيين فيما جاء يائيًّا، ورأي المجمع في قياسيته.

وأمّا المبحث الثالث: فتحدثت فيه عن دوران الكلمة واشتقاقها في كتب القراءات والسنّة النبوية الشريفة.

وأمّا الخاتمة فذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج.

وأشكر الدكتور/ عبد العزيز محمد فاخر عميد كلية الدراسات العليا بجامعة الملك فيصل في تشاد على ترحيبه بفكرة هذا البحث وعلى حثّه الدائم لي في عمل البحوث التي تخدم اللغة العربية والدين الإسلامي. وحسبي إخلاص النية ونشدة الحسنى، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول:

أ- الشائع على الألسنة في كلمة (التقويم):

شاع على ألسنة كثير من المثقفين والباحثين والمتخصصين كلمة (التقييم) فيقولون: (تقييم العمل) و(تقييم البحث) و(تقييم الرسالة) و(تقييم الدرس) و(تقييم المدرس) و(تقييم الطالب) وما إلى ذلك. وهذا خطأ في اللغة كبير يقع فيه الكثير. وذلك؛ لأنّ كلمة "التقييم" على اعتبار

أنّ لها أصلاً واردًا تكون مصدرًا، والأمر على خلاف ذلك، فالفعل واويٌّ فيكون مصدره كذلك.

*فالصواب أن يقال*: "التقويم" فتقول: (تقويم العمل) و(تقويم البحث) و(تقويم الرسالة...) والدليل على أنّ ذلك هو الصواب ما يأتي:

ورود كلمة التقويم في القرآن الكريم، قال المولى ﷻ:

"﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]".

ب- اشتقاق كلمة (التقويم) في كتب المعاجم اللغوية:

قال الخليل بن أحمد: وقيّم القوم من يسوس أمرهم ويقوّمهم، رمح قويم ورجل قويم[2] والقيّمة: الملّة المستقيمة وقوله تعالى ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[3] الملّة المستقيمة. والقوم من العيش: ما يقيمك ويغنيك، والقيام: العماد في قوله تعالى سبحانه ﴿جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[4]، والقيمة: ثمن الشيء بالتقويم تقول: تقاوموا فيما بينهم واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه[5].

وقال سيبويه: «هذا باب تقلب الواو فيه ياء لا لياء قبلها ساكنة ولا لسكونها وبعدها ياء.. وذلك قولك: حالت حيالاً وقمت قيامًا وإنما

قلبوها حيث كانت معتلّة في الفعل فأرادوا أن تعتل إذ كانت قبلها كسرة وبعدها حرف يشبه الياء...»[٦].

ويقول أيضًا: «...ومما قلبوا الواو فيه ياء دَيَّارٌ وقَيَّامٌ وإنما كان الحد قيوام وديوار، وقالوا قيوم وديوار وقالوا قيوم وديور، وإنما الأصل قيووم وديوور؛ لأنهما بنيا على فيعال وفيعول[٧] وقد عزيت قيام وديار إلى أهل الحجاز»[٨].

وبلهجة أهل الحجاز جاء قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحيُّ القَيُّومُ﴾[٩].

ووضع ابن قتيبة بابين سمّاهما: (تقويم اليد وتقويم اللسان)[١٠].

قال ابن قتيبة: في تقويم اللسان: والقوام: العدل قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[١١]، وقوام الرجل: قامته والقوام بكسر القاف ما أقامك من الرزق ويقال أصبت قوامًا من عيش وما قوامي إلا بكذا[١٢].

المبحث الثاني:

**أ- أصل القيمة عند اللغويين:**

قال الجوهري: القيمة: واحدة القيم وأصله الواو؛ لأنه يقوم مقام الشيء يقال: قوّمت السلعة، وأهل مكة يقولون: استقمت السلعة وهما

بمعنًى، والاستقامة: الاعتدال يقال استقام له الأمر وقوله تعالى: (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)[13]، أي في التوجه دون الآلهة وقوّمت الشيء فهو قويم، أي مستقيم، وقولهم: "ما أقومه" شاذّ، وقوله تعالى (وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)[14]، إنما أنثه؛ لأنه أراد الملّة الحنيفة.

والقوام: العدل قال تعالى (وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)[15]، وقوام الرجل: قامته وحسن طوله.

وقوام الأمر بالكسر نظامه وعماده يقال: فلان قِوام أهل بيته وقيام أهل بيته وهو[16] الذي يقيم شأنهم ومنه قوله تعالى (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا)[17] وقوام الأمر ملاكه الذي يقوم به...[18].

وقال الفيومي:

وقوّمته تقويمًا فتقوّم بمعنى عدّلته فتعدّل، وقوّمت المتاع: جعلت له قيمة معلومة، وأهل مكة يقولون استقمته بمعنى قوّمته، وقوم: قام بالأمر يقوم به قيامًا فهو قوّام وقائم، واستقام الأمر وهذا قوامه بالفتح والكسر وتقلب الواو ياء جوازًا مع الكسرة، أي عماده الذي يقوم به وينتظم،

ومنهم من يقتصر على الكسر ومنه قوله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[19].

والقِوام: بالكسر ما يقيم الإنسان من القوت، والقَوام بالفتح العدل والاعتدال "وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"[20]، أي عدلاً وهو حُسن القوام والاعتدال، وقام المتاع بكذا، أي تعدّلت قيمته به، والقيمة: الثمن الذي يقاوم به المتاع، أي يقوم مقامه والجمع "القيم" مثل سدرة وسدر[21].

وقال الفيروزآبادي:

وقامة الإنسان وقيمته وقومته وقوميته وقوامه شطاطه ج قامات وقيم كعِنب وهو قويم وقوّام كشدّاد حسن القيمة ج كخيال، والقيمة بالكسر واحدة القيم، وما له قيمة، إذ لم يدل على شيء، وقوّمت السلعة واستقمته ثمنه.

واستقام: اعتدل وقوّمته عدَّلته فهو قويم ومستقيم وما أقومه شاذ.

والقوام كسحاب العَدْلُ وما يعاش به فقد ذكر لنا الفيروزآبادي كثيرًا من تصاريف الفعل وأوضاعه ومعانيه فهو من الواوي العين[22].

وذكر ابن فارس أنّ[٢٣] "القاف والواو والميم" أصلان صحيحان يدل أحدهما على جماعة الناس، وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم.

فالأول "القوم" يقولون جمع امرئ ولا يكون إلا للرجال، وأمّا الآخر فقولهم قام قيامًا والقومة المرة الواحدة إذا انتصب.

ومن الباب: قوّمت الشيء تقويمًا وأصل القيمة الواو[٢٤].

وبلغنا أنّ أهل مكة يقولون: استقمت المتاع، أي قومته وعلى ذلك نقول:

الأصل في الفعل: أنه ثلاثي أجوف واوي تقول: قام - يقوم - قيامًا، والأصل قِوامًا وإذا ضعَّفنا الفعل قلنا: قوّمت الشيء أقوّمه تقويمًا، وعلى ذلك يكون مصدر قوّم تقويمًا على حسب القياس في مصدر فعل مثل كرّم تكريمًا، وعدّل تعديلاً وفضّل تفضيلاً وحسّن تحسينًا وهكذا.

وذكر السرقسطي[٢٥] الفعل (قام) في كتابه "**معجم الأفعال**" وجعله من المعتل بالواو في عين الفعل، ومما جاء في ذلك قام بالأمر مقامًا اكتفى به وقام إلى الشيء قومًا وقيامًا نهض إليه وقام ضد قعد، وقام الله على عباده جزاهم بفعلهم من خير أو شر، وقامت قيامة الإنسان مات، وقامت

السوق والحرب: دامتا، وقامت الصلاة تمّت. وقد أجرى السرقسطي جميع التصاريف على أنّ الفعل من الأجوف الواوي، ولم يخرج الزمخشري في "**أساس البلاغة**" عما تقدّم، وذكر في مادة (قوم) كثيرًا من الأساليب الحقيقية والمجازية(٢٦). فمن ذلك: "وقوّم العمود وأقامه فقام واستقام وتقوم، ورمح قويم" وفيما تقدم معنى التعديل والتثقيف وذهاب الاعوجاج، كما ذكر قوم المتاع واستقامه، وفي ذلك معنى معرفة قيمة المتاع(٢٧).

وقد أفاض ابن منظور في مادة "قوم" وأكثر من النقل عن أئمة اللغة والاستشهاد على ما ذكر فمن ذلك:

استعمال (قام) بمعنى عزم، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾(٢٨)، أي لما عزم.

واستعمال قام: بمعنى المحافظة والإصلاح لقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾(٢٩).

وتأتي (قاوم) بمعنى المصاحبة في العمل مثل قاومته قِوامًا قمت معه، وقد صحت الواو في قِوام لصحتها في الفعل قاوم إذ جميع التصاريف تتبع الفعل الماضي صحة وإعلالاً(٣٠)، ومن المادة "القوام" العدل قال تعالى

(وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)[٣١]، ومن المادة: استقام الشّعر: اتزن. ومما جاء أيضًا جمع قامة الإنسان على قامات وقيم مثل تارات وتير، وجاء تقاوموا في الحرب قام بعضهم لبعض وقوام الأمر نطاقه وعماده وقوّم السلعة واستقامها قدّرها، وجاء: والقيمة واحدة القيم وأصله الواو؛ لأنه يقوم مقام الشيء والقيمة: ثمن الشيء بالتقويم وغير ذلك من المعاني التي ذكرها والاستعمالات التي سجلها واستشهد لها وفسّر موطن الاستشهاد[٣٢].

فأصل المادة "قوم" القاف والواو والميم الماضي الثلاثي من المادة "قام" وأصله قوّم نقلت حركة الواو وهي الفتحة إلى القاف بعد سلب حركة القاف فوقعت الواو ساكنة لما تقتضيه الفتحة قبلها فقلبت ألِفًا فصار الفعل "قام"[٣٣].

فجميع التصاريف تأتي على هذا الأصل "قام" فنقول استقام بزيادة الهمزة والسين والتاء وتأتي هذه المادة لما تقتضيه زيادة الهمزة والسين والتاء من المعاني المختلفة، كما أنّ الفعل استقام وأصله استقوم يعلّ بالنقل والقلب تبعًا لإعلال الفعل الماضي قام، ومثل ذلك جميع التصاريف من الفعل استقام. تزاد الهمزة على المادة فتقول أقام والأصل أقوم حدث إعلال بالنقل ثم حدث إعلال بالقلب، وهكذا في جميع

التصاريف التي تتبع الفعل أقام في إعلاله المتقدم تضعيف عين الفعل قام فتقول قوّم ومصدر هذا الفعل "التقويم".

ولم تعل الواو بسبب تضعيف عين الفعل وهذا الفعل قوم مصدره الذي هو أصله التقويم وهذا ما يراد عند ذكر كلمة التقويم، إذ يراد بذلك أحد المعاني التي أتت لها المادة قّوم تقويمًا والمراد الذي يعنيه الكاتبون بكلمة (التقويم): هو معرفة قيمة الشيء وإدراك حقيقته ومعرفة قدره ومن شواهد ذلك ما سجله ابن منظور في "**اللسان**" مادة قوم الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما إذا استقمت بنقد فبعت بنقد فلا بأس به، وإذا استقمت بنقد فبعته بنسيئة فلا خير فيه فهو مكروه(٣٤).

قال أبو عبيد: قوله (استقمت) يعني: قوّمت وهذا كلام أهل مكة يقولون استقمت المتاع، أي قومته وهما بمعني، وفي حديث آخر. قالوا يا رسول الله لو قوّمت لنا فقال الله هو المقوّم...(٣٥)، أي لو سعّرت لنا وهو من قيمة الشيء(٣٦).

وفي الحديث أيضًا (ما أفلح قومٌ قيِّمتُهم امرأة)(٣٧)، وقيِّمُ المرأةِ زوجُها في بعض اللغات لأنه يقوم بأمرها وما تحتاج إليه....

وقومت الشيء فهو قويم، أي مستقيم، وقولهم: ما أقومه شاذ، وقياسه أن يقال ما أشد تقويمه؛ لأنه زائد على ثلاثة[٣٨].

**ب – تعليل الصرفيين لأصل (قيم)[٣٩]:**

وقال الرضي في أصل "قيمة"، وقيمة أصلها قويمة تصغير قامة أو قومة أو قيمة، فأمّا القامة فمصدر بمعنى القيام أو هي جمع قامة كقادة في جمع قائد، وأمّا القومة فمصدر بمعنى القيام أيضًا أو المرة الواحدة منه، وأمّا القيمة فثمن الشيء بالتقويم وأصلها قومة قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة[٤٠].

والقويم: المستقيم، تقول دين قويم ورمح قويم وقالوا رجل قويم ككريم وقوام كشداد إذا كان حسن القامة والجمع لكل ذلك قوام كجبال...[٤١].

وذكر ابن عصفور في قوله تعالى **(دِينًا قِيَمًا)**[٤٢] لا حجة فيه؛ لأنه مصدر في الأصل مقصور من قيام، ولولا ذلك لكان (قِوَمًا)؛ لأنه من ذوات الواو ولا تقلب الواو ياء إذا كانت متحركة عينًا في مفرد لانكسار ما قبلها إلا بشرط أن يكون بعدها أَلِف، وتكون في مصدر لفعل أعلت عينه

نحو قام قيامًا وعاذ عياذًا فدل انقلاب الواو ياء في قيم على أنه مصدر في الأصل وصف به كما وصف بـ عدل وزور وهما مصدران في الأصل[٤٣].

وأوضح ابن عصفور ما جاء في هذه الكلمة فقال:

«... وإن وقعت الواو والياء عينين فلا يخلوا من أن يكونا عينين في كلمة على[٤٤] ثلاثة أحرف أو على أزيد، فإن كانت الكلمة على ثلاثة أحرف فلا يخلو أن تكون اسمًا، أو فعلاً، فإن كانت الكلمة فعلاً فإنّ الفعل لا يخلو من أن يكون مبيّنًا للفاعل أو مبنيًّا للمفعول فإن كان مبنيًّا للفاعل»[٤٥] فإنّ الفعل من ذوات الواو يكون على فَعَل وفَعِل وفَعُل بضم العين وفتحها وكسرها وفعل قام وفعُل طال وفعِل خاف... فإن قيل فلأيّ شيء اعتلت هذه الأفعال وهلا بقيت على أصولها فكنت تقول "قوم وطول وخوف...

فالجواب أنّ فعُل وفعِل قلبت فيهما الواو والياء استثقالاً للضمة في الواو والكسرة في الواو والياء فقلبت الواو والياء إلى أخف حروف العِلّة وهو الألِف ولتكون العينات من جنس حركة الفاء وتابعة لها، وأمّا فَعَل فقلبت الواو والياء فيهما ألفًا لاستقلال حرف العلة مع استثقال اجتماع المثلين أعني فتحة الفاء وفتحة العين فقال قوم وبيع قام وباع فقلبوا الواو والياء ألفًا لخفّة الألِف ولتكون العين حرفًا من جنس حركة الفاء[٤٦].

فإن كان على فعل من الواو بكسر الفاء وفتح العين جمعًا لما قلبت فيه الواو ياء أو أَلِفًا فإنّ الواو تقلب فيه ياء لانكسار ما قبلها مع أنهم أرادوا أن تعتل في الجمع كما اعتلت في المفرد وذلك نحو قامة وقيم وديمة وديم وقيمة وقيم والأصل قِوم وديم؛ لأنهما من قام يقوم ودام يدوم[٤٧].

وقال الزمخشري: "....وإنما أعلوا قيمًا؛ لأنه مصدر بمعنى القيام وصف به في قوله تعالى[٤٨]: "دينًا قيمًا......"[٤٩].

وشرح ابن يعيش قول الزمخشري فقال: وأمّا قوله تعالى (دِينًا قِيَمًا) فقد قرئ قَيِّمًا[٥٠] وهو فيعل من القيام نحو سيّد وميّت فلا إشكال في الوصف بذلك وقد تكرر في الكتاب العزيز في عدة مواضع نحو (الدِّينُ القَيِّمُ)[٥١] (وَدِينُ القَيِّمَةِ)[٥٢] (كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)[٥٣]، وهو المستقيم، وقرئ قِيَمًا بكسر القاف وتخفيف الياء وفتحها، ووجهه أن يكون مصدرًا كالصغر والكبر فأعلوه لاعتلال فعله ولولا ذلك لصح كما في قوله تعالى: (لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)[٥٤]؛ لأنهم لم يجرّوه على فعل ومثل ذلك: لو بنيت من البيع والقول ونحوهما من المعتل على مثال لا يكون عليه الفعل نحو فعل لقلت بيع وقول وعليه قوله تعالى: (لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)[٥٥] ولو كان جاريًا على الفعل من نحو حال يحول لقلت حيلاً باعتلال فعله...[٥٦].

**أ- أصل (قِيَامًا) عند علماء القراءات:**

وقال الكسائي في قوله تعالى **(الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا)**[٥٧] قِيَامًا وقِوَامًا وقِيَمًا ثلاث لغات والمعنى واحد وهو ما يقيم شأن الناس ويعيشهم.

وقال أيضًا: قِوَامًا بفتح القاف وكسرها لغتان ومعناهما واحد[٥٨].

قال ابن خالويه في قوله تعالى: **(الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا)**[٥٩] يقرأ: بإثبات الألِف وطرحها وهما لغتان.

وأصل الياء فيها الواو وقلبت ياء لكسرة ما قبلها كما قالوا ميعاد وميزان.

فالحجة لمن أثبت الألِف أنّ الله تعالى جعل الأموال قيامًا لأمور عباده.

والحجة لمن طرحها: أنه أراد جمع قيمة؛ لأنّ الأموال قيم لجميع المتلفات[٦٠].

وقال الأزهري: من قرأ (قِيَامًا) فهو من قول العرب هذا قوام الأمر، أي ملاكه ومثله قول الله ﷻ: **(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ)**[٦١] أي قوامًا.

وقيل في قوله ﴿جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[٦٢]، أي جعل المال يقيم بني آدم فيقومون بها قيامًا[٦٣].

ومن قرأ "قيمًا" فهو راجع إلى هذا المعنى جعلها الله قيمة الأشياء فبها تقوم أموركم[٦٤].

وقال الفرّاء: المعنى في قوله: (جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا) وقِوَمًا وقيمًا واحدًا"[٦٥].

وقال أبو عبيدة في قوله ﴿الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾: مصدر يقيمكم ويجيئ في الكلام قِوام فيكسر وإنما هو من الذي يقيمك وإنما أذهبوا الواو لكسرة القاف وتركها بعضهم كما قالوا ضياءً للناس وضِواء للناس[٦٦].

وقال الفارسي في قوله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[٦٧].

اختلفوا في إدخال الألِف وإخراجها من قوله "قياما وقيمًا" فقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وأبو عمرو (قِيَامًا) بألِف، وقرأ نافع وابن عامر (قيمًا) بغير ألِف[٦٨].

قال أبو علي: قال أبو عبيدة "التي جعل الله لكم قيامًا" مصدر يقيمكم ويجيئ في معناها (قِوامٌ) وإنما هو الذي يقيمكم، فإنما أذهبوا الواو لكسرة القاف كما قالوا ضياءٌ وتركها بعضهم[٦٩]. قال لبيد:

أفتلك أم وحشية مسبوعة		خذلت وعادية الصوار قِوامها[٧٠]

وقال أبو الحسن: جعل الله لكم قيامًا وفي الكلام (قِوامًا) و(قيمًا) وهو القوام الذي يقيم شأنهم وقال أبو الحسن في قيام ثلاث لغات "قِيمًا وقيامًا وقِومًا".

والدليل على أنّ (قيمًا) مصدر في معنى القيام قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾[٧١].

فالقيمة: هي معادلة الشيء ومقاومته لا مذهب له هنا إنما المعنى والله أعلم دينًا ثابتًا لازمًا لا ينسخ كما تنسخ الشرائع التي قبله وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾[٧٢]، أي في اقتضائك له ومطالبتك إياه.

فقوله ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ ينبغي أن يكون مصدرًا وصف به الدين ولا وجه للجمع هنا ولا للصفة لقلة مجيئ هذا البناء في الصفة، ألا ترى أنه إنما جاء في قولهم عِدي ومكانًا سوًى[٧٣].

قال الفارسي «... وكان القياس في "قيمًا" تصحيح الواو وإنما تقلب ياءً على وجه الشذوذ عن الاستعمال كما انقلبت ثيرة وكما قالوا طويل وطيال...»[٧٤].

أمّا قوله تعالى: ﴿دِينًا قيمًا﴾[٧٥] فقال أبو زرعة قرأ ابن عامر وأهل الكوفة "دِينًا قِيمًا" بكسر القاف، أي مستقيمًا[٧٦] وقال الزجّاج "قيم" مصدر كالصغر والكبر، إلا أنه لم يقل قِومًا مثل ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[٧٧]؛ لأنّ قيمًا من قولك قام قيامًا، والأصل (قوم) فقلبت الواو ألِفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار (قام) فلمّا اعتلّ الفعل اعتلّ المصدر فقيل "قيم".

وقرأ الباقون بالتشديد وحجتهم قوله: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٧٨] و﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٧٩].

قال الفراء: «في هذه الكلمة لغات للعرب تقول "هذا قيام أهله وقوّام أهله" و"قيّم أهله وقِيَم أهله"»[٨٠].

وتعرّض الفارسي لقول الله ﷻ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾[٨١] فقال اختلفوا في قوله ﷻ: "دِينًا قَيِّمًا" فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو "دِينًا قَيِّمًا" مفتوحة القاف مشددة الياء.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي "دِينًا قِيَمًا" مكسورة القاف خفيفة الياء[٨٢].

وحجة من قرأ "دِينًا قَيِّمًا" قوله : ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٨٣] كأنه دين الملّة القيِّمة، فعلى هذا يكون وصفًا للدِّين إذا كانت نكرة كما كان وصفًا للملّة ؛ لأنّ الملّة هي الدين، وزعموا أنه في قراءة أبيّ ﴿وَهَٰذَا صِرَاطٌ..... دِينًا قَيِّمًا﴾.

قال أبو الحسن[٨٤] : «قال أهل المدينة "دِينًا قيمًا" وهي حسنة ولم يسمعها من العرب. قال وهي في معنى المستقيم. أمّا قيمًا فهو مصدر كالشبع ولم يصحح كما صحح عوض وحول، وقد كان القياس ولكنه شذّ عن القياس»[٨٥].

قال الفاسي : والوجه في قراءة من قرأ "قيمًا" بغير ألِف أن يكون مصدرًا كالشبع ومعناه كمعنى الذي فيه الألِف. قال الأخفش والكسائي والفراء "القيم والقيام والقوام بمعنى واحد"[٨٦] وكان القياس أن تصح واوه كما صحت واو يمعن ونحوها لكنها أعلت حملاً على قيام ويجوز أن يكون جمع قيمة[٨٧].

وقرئ في الشاذ "قوامًا"[٨٨] على أنه اسم لما يقوم به المرء لا مصدر، وقومًا على الأصل كالعوج والحول، وقِوامًا على أنه اسم مصدر[٨٩].

وقال ابن جِنِّي في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٩٠] "القوام" بفتح القاف الاعتدال في الأمر ومنه جارية حسنة القوام إذ كانت معتدلة الطول والخلق.

وأمّا القِوام بكسر القاف فإنه مِلاك الأمر وعصامه، يقال ملاك أمرك وقِوامه أن تتَّقِي الله في سِرِّك وعلانيتك فكذلك قوله: ﴿... وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، أي ملاكًا للأمر ونظامًا وعاصمًا ولو اقتصر فيه على قوله وكان بين ذلك لكان كافيًا؛ لأنه إذا كان بين الإسراف والتقتير فإنه قصد ونظام للأمر فقوام إذا تأكيد جار مجرى الصفة، أي توسطًا مقيمًا للحال وناظمًا ومعلوم أنه إذا كان متوسطًا فإنه قوام[٩١].

**ب- ورود "قوَّم" في الأحاديث الشريفة:**

جاءت كلمة "قوّم" على الأصل في كثير من الأحاديث النبوية المطهرة فقد رُوي أنّ عمر بن الخطّاب (قوّم) الدِّية على أهل القرى[٩٢] وقوّم عمر ابن الخطّاب رضة إبل المدينة[٩٣].

وقوله: «فكان إن كان من مال يبلغ ثمنه العبد (قوّم) عليه قيمة العدل عدل»[٩٤] «فإن كان موسرًا (قوّم) عليه قيمة»[٩٥].

وقوله: من أعتق شركا لـه في مملـوك (قـوّم) عليـه في مالـه[٩٦] فقـوّم خمـسة دراهم فقطع[٩٧]، كم قوّمت الغاية[٩٨]، وقالوا له لو قوّمت لنا سعرنا[٩٩].

وجاء باب كيف يقوّم الإمام الصفوف[١٠٠] فأجده يقّوم عراجين[١٠١].

وقد كان رسول الله ﷺ يقوّم دية الخطأ على أهل القرى[١٠٢].

ويقوّمها على أهل أثمان أزمان الإبل[١٠٣].

و كان رسول الله ﷺ يقومها على أهل القرى أربـع مئة دينـار[١٠٤] يقـوم عشرة دراهم[١٠٥].

وقوله "حتى يقوّم البيت بالوصيف يعـني القـبر"[١٠٦]، فقـد كـان رسـول الله ﷺ يسوّينا في الصفوف كما يقوّم القدح القداح[١٠٧].

وقوله "يقيمونه كما يقوّم السهم"[١٠٨] قوله "فإن كان موسـرًا يقـوم عليـه قيمة"[١٠٩].

- "ما هذه العراجين التي أراك تقوّم"[١١٠].

وقوله: «المرأة ضلع فإن تذهب تقوّمها تكسرها...»[١١١].

وقوله: «فأمر بها عثمان أن تقوم فقومت ثلاثة دراهم»[١١٢].

وجاء باب "تقويم الأشياء بين الشركاء بقيمة عدل"[١١٣].

وقوله ﷺ: «إنّ الله هو (المقوّم)» أي: المسعّر[١١٤].

وما جاء من أحاديث على خلاف ذلك، كقوله ﷺ: (اللهم لك الحمد أنت قَيِّم السموات والأرض)[١١٥].

وقوله ﷺ: اللهم لك الحمد أنت قيّام السموات والأرض[١١٦] فإنّ أصله الواو.

**الخاتمة**

وبعد هذا كله:

نخلص مما سبق إلى أنّ مصدر الفعل (قوّم) (تقويم) فالمصدر واوي، وكذلك جميع ما اشتق منه، وما جاء من ذلك بالياء فأصله الواو، ومن ذلك قيام والأصل (قوام) قلبت الواو ياء استجابة للكسرة قبلها فالأصل الواو.

وقيمة أصلها (قِومة) قلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها، ودليل الواوية أنّ الكلمة عند التصغير تردّ الياء إلى أصلها الواو وذلك؛ لأنّ التصغير يردّ الأشياء إلى أصولها. قال ابن مالك:

وارْدُدْ لأصلٍ ثانيًا لينًا قلب فقيمة صيّر قويمة تصب[١١٧]

ويقول المرادي في شرح البيت :

اعلم أنّ الثاني يردّ إلى أصله في التصغير بشرطين : ثم يحصر ما اندرج تحت القاعدة ويورد التمثيل[١١٨] ، ومن ذلك "قيمة" تقول في التصغير قويمة ؛ لأنّ الياء منقلبة عن واو فردّت إلى أصلها عند التصغير.

وكلمة "قيم" أصلها قيوم بفتح فسكون فكسر اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء.

وكذلك ما جاء من المادة بالألِف فإنّ الأصل فيه الواو مثل "مقام" والأصل مقوم، نقول نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها بعد سلب حركته فتحركت الواو بحسب الأصل وانفتح ما قبلها بحسب الآن فقلبت الواو ألِفًا وتكون الكلمة قد تعرضت لإعلال بالنقل ثم عرض لها الإعلال بالقلب وهكذا.

إذن فالتقويم : هو الصحيح لغويًّا وصرفيًّا، وذلك طبقًا للقاعدة، ولا يقال التقييم لخروج ذلك عن الصواب وعدم سماع المادة[١١٩]. ❖

وختامًا أسأل الله أن ينفع به كلاًّ من الباحثين والدارسين والمتخصصين.

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[١٢٠] والحمد لله أولاً وآخرًا.

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم)

**الهوامش:**

❖ مدرس اللغويات بكلية الدراسات العليا، وعميد كلية اللغة العربية الشعبة العامة والقراءات بجامعة الملك فيصل فرع تشاد سابقًا، وأستاذ اللغويات المساعد بكلية التربية والآداب جامعة الطائف فرع تربة حاليًّا.

(١) سورة التين آية ٤، قال الإمام البيضاوي: إنما أراد الجنس في أحسن التقويم أي تعديل بأن خصّ بانتصاب القامة وحسن الصورة... ينظر **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** ٨٠٤، ط دار الجيل.

فيقال: قومت الشيء تقويمًا إذ جعلته على أعدل وأكمل صورة ينظر: **التفسير الواضح** (محمود حجازي) جـ٢١ ص٦١، مطبعة الاستقلال، ط٦، القاهرة، ١٩٦١م.

❖ وعرف التقويم في مجال مناهج التربية بأنه:

عملية إصدار حكم على مدى تقدم المتعلمين نحو بلوغ الأهداف التي يتمّ تحديدها والتخطيط لها.

وهو إنما يهدف إلى تحقيق الجوانب الإيجابية في المناهج ودعمها، ومعرفة السلبيات وتلافيها وصولاً إلى صورة أقرب إلى الكمال البشري الذي ينبغي أن يكون عليه المنهاج.

أو هو إصدار حكم لغرض ما على قيمة الأفكار- الأعمال- الحلول- الطرق - المواد، فالتقويم يراد به عدة معان منها: ١- بيان قيمة الشيء، تعديل أو تصحيح ما اعوج إلى غير ذلك.

ينظر: **القياس والتقويم في التربية وعلم النفس**، د. سامي ملحم كلية العلوم التربوية، ط أولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ص٤٠، والتقويم والقياس، زكريا محمد الطاهر وزميليه، دار الثقافة في عمّان، ط١، ١٩٩١، ص١٢.

(٢) ينظر: كتاب **العين** للخليل بن أحمد، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، العراق، ١٩٨٠م، ٣٢٣/٥ مادة قوم.

(٣) البيّنة آية: ٥.

(٤) النساء آية: ٥.

(٥) **العين** ٢٣٣/٥.

(٦) ينظر **الكتاب** لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة العامة للكتاب، ١٣٩٥هـ، ٣٦٠/٤، ٣٦١، ٣٦٧.

(٧) ينظر **الكتاب** ٣٦٧/٤.

(٨) **معاني الفراء** ١٩٠/١ والقرطبي ١٥٩/٦-١٦٠، و**المحتسب** ١٥١/١ و**المنصف** ١٨/٢.

(٩) البقرة ٢٥٥، وآل عمران٢ ، **الكشاف** ٣٨٤/١، و**المحتسب** ١٥١/١.

(١٠) **أدب الكاتب** لابن قتيبة ١٨٢ ، ٢٣٨ ، ٣٣٢.

(١١) الفرقان آية : ٦٧.

(١٢) ينظر **أدب الكاتب** لابن قتيبة ص٢٤٥ ، ٢٤٦، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط بيروت، لبنان.

(١٣) فصّلت آية: ٦.

(١٤) البيّنة آية: ٥.

(١٥) الفرقان آية: ٦٧.

(١٦) **الصحاح** مادة قوم، ٢٠١٧/٥، ط دار العلم للملايين.

(١٧) النساء آية : ٥.

(١٨) **الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)** للجوهري تحقيق : أحمد عبد الغفور عطا ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ٥/٢٠١٨ (قوم).

(١٩) النساء آية : ٥.

(٢٠) الفرقان آية : ٦٧.

(٢١) **المصباح المنير** للفيومي ، ط المطبعة الأميرية ، ١٩٢٦م ، مادة (قوم) ٢٦٨ ، ٢٦٩.

(٢٢) **القاموس المحيط** للفيروزآبادي باب الميم فصل القاف ، ج٤ ص٢٣٨ ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

وينظر : **بلوغ الأرب في الواو في كلام العرب** ص٤٤٣.

(٢٣) **مقايس اللغة** مادة (قوم).

(٢٤) **بلوغ الأرب في الواو في كلام العرب** ٤٤١.

(٢٥) **معجم الأفعال** "قوم".

(٢٦) **بلوغ الأرب في الواو في لغة العرب** د. عبد الحميد السيد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ٤٤٢ و**أساس البلاغة** للزمخشري (قوم).

(٢٧) ينظر : **بلوغ الأرب في الواو في كلام العرب** ص٤٤٣ و**مقايس اللغة** لابن فارس مادة (قوم) و**أساس البلاغة** للزمخشري "قوم".

(٢٨) سورة الجن آية : ١٩.

(٢٩) النساء آية : ٣٤.

(٣٠) **بلوغ الأرب** ٤٤٤.

(٣١) الفرقان آية : ٦٧.

(٣٢) **اللسان** مادة "قوم"

(٣٣) **بلوغ الأرب في الواو في كلام العرب** ٤٤٥.

(٣٤) **بلوغ الأرب في الواو في لغة العرب** ٤٤٦ ، **لسان العرب** "قوم"

(٣٥) ينظر الحديث في **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث** ٥/٤٩١ مادة (قوم) و**مسند الإمام أحمد** ٢/٨٥.

(٣٦) **لسان العرب** لابن منظور، ط دار المعارف، مادة "قوم".

(٣٧) ينظر: **صحيح البخاري،** دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، كتاب المغازي ٨٢/٢١ والجهاد ١٠٣ وتفسير سورة النساء وابن ماجة كتاب الفتن.

(٣٨) **اللسان** "قوم" ٤٩٦/٢-٥٠٦.

(٣٩) ووجه قياس قلب الواو ياء أو (الياء من الواو):

أن تقع الواو عينًا لمصدر فعل أعلت فيه وقبلها كسرة وبعدها ألف فالشروط أربعة:

١) أن تكون عينًا لمصدر. ٢) أن تكون معلة في الفعل.

٣) أن تكون مسبوقة بكسرة. ٤) أن تقع ألِفٌ بعدها.

وذلك نحو "قام قيامًا" فالأصل قوامًا – استثقل بقاء الواو في المصدر صحيحة بعد الكسر ويرشحه وجود الألِف بعدها فكأنها وقعت بعد كسر وفتحة فأعلت بقلبها ياء وإن كان السبب الأوضح هو حمل المصدر على فعله إذ قد أعلت في الفعل فأعلت في مصدره ليصير العمل في اللفظ من وجه واحد.

والصورة التي معنا فقد فيها شرط من الشروط السابقة ألا وهو وقوع الألف بعدها في المصدر فكان القياس أن تبقى الواو صحيحة ولكنها أعلت بقلبها ياء ولم يشترط ابن الحاجب الألف قال وتقلب الواو المكسور ما قبلها في المصدر ياء نحو قيامًا وعيادًا وقيمًا لإعلال أفعالها.

– ينظر **شرح الشافية** ١٣٧/٣، فالإعلال عنده مقيس مع فقد الشرط، وينظر في ذلك **فصل المقال في الإعلال والإبدال** د/ أمين عبد الله سالم، ط الثانية ٢٠٠٢م-١٤٢٢هـ، ص٦١، ٦٣.

– وينظر **المنهج الصرفي** د/ إبراهيم البسيوني ص٥٩.

(٤٠) ينظر **شرح الشافية** للرضي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ٢٧/٢.

(٤١) ينظر **شرح الشافية** ١٣٧/٢.

(٤٢) الأنعام آية: ١٦١.

(٤٣) **الممتع** في التصريف لابن عصفور، تحقيق: الأشبيلي بتحقيق فخر الدين قباوة، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، ٦٤/١.

(٤٤) **الممتع** ٢/ ٤٣٧.

(٤٥) **المنصف** لابن جني (شرح تصريف المازني)، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، مطبعة الحلبي، ١/ ٣٣٣-٣٤٤.

(٤٦) **الممتع** ٢/ ٤٣٨.

(٤٧) ينظر **الممتع** ٢/ ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٧ و**المنصف** ١/ ٣٤٤-٣٤٥، و**شرح الشافية** ٣/ ١٣٧-١٣٩.

(٤٨) الأنعام آية: ١٦١.

(٤٩) **شرح المفصّل** لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الخانجي، القاهرة، ١٠/ ٨٢.

(٥٠) ينظر **القراءة في حجة القراءات** ٢٧٨ و**السبعة** ٢٧٤ و**حجة الفارسي** ٣/ ٤٣٩.

(٥١) التوبة آية: ٣٦.

(٥٢) البيّنة آية: ٣٠.

(٥٣) البيّنة آية: ٥.

(٥٤) الكهف آية: ١٠٩.

(٥٥) الكهف آية: ١٠٩.

(٥٦) **شرح المفصّل** ٣/ ٨٣، ١٠/ ٦٨.

(٥٧) النساء آية: ٥.

(٥٨) ينظر **معاني القرآن** للكسائي، جمع د. عيسى شحاته، دار غريب للطباعة ١٩٩٨م ص١١١، و**حجة القراءات** لأبي زرعة تحقيق: سعيد الأفغاني، م. الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩١، و**الكشف والبيان** للثعلبي ٣/ ١٠، ١٥ المتوفى ٤٢٧، مخطوطة بالكويت مصورة من مكتبة شيريتي برقم ٣٦١٧.

(٥٩) النساء آية: ٥.

(٦٠) **الحجة** لابن خالوية، تحقيق: د. عبد العال سالم، ط دار الشرق، بيروت، ١٩٧١م، ١١٩.

(٦١) المائدة آية: ١٠٠.

(٦٢) النساء آية: ٥.

(٦٣) **معاني القراءات** للأزهري، تحقيق: عيد مصطفى درويش ود. عوض بن حمد القوزي، ط دار المعارف، ١٩٩٣م، ٢٩١/١.

(٦٤) **الحجة** للفارسي، تحقيق: عبد العزيز رباح وآخرين، دار المأمون للتراث، ١٣٠/٣-١٣٢.

(٦٥) ينظر **معاني القرآن** للفراء، عالم الكتب، بيروت، ط دار السرور، ٢٥٦/١.

(٦٦) **مجاز القرآن** ١١٧/١ و**الحجة** للفارسي ١٣٠/٣.

(٦٧) النساء آية: ٥.

(٦٨) **السبعة** لابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ٢٢٦، الفراء ٢٥٦/١.

(٦٩) **مجاز القرآن** ١١٧/١، و**معاني القراءات** للأزهري ٢٩١/١ و**حجة أبي زرعة** ١٩٠، ١٩١.

(٧٠) البيت من بحر الكامل التامّ من **معلّقته** في ديوانه ١٧١.

قال ابن الأنباري: أفتلك الأتان تشبه ناقتي أم بقرة وحشية مسبوعة أكل السبع ولدها فهي مذعورة وقد خذلت تأخرت عن القطيع ينظر: **شرح المعلّقات السبع الطوال** ص٥٥٣ و**شرح المعلّقات** للزوارني ١٠٣ و**الحجة** للفارسي ١٣٠/٣.

(٧١) الأنعام آية: ١٦١.

(٧٢) آل عمران آية: ٧٥.

(٧٣) **الحجة** للفارسي ١٣١/٣.

(٧٤) **الحجة** للفارسي ١٣٢/٣، ١٣٣؟ وينظر: **الموضح في وجوه القراءات السبع وعللها** ٤٠٤/١.

(٧٥) الأنعام آية: ١٦١.

(٧٦) **حجة القراءات** لأبي زرعة ٢٧٨، و**معاني القراءات** للأزهري ٣٩٨/١.

(٧٧) الكهف آية: ١٠٩.

(٧٨) البيّنة آية: ٣.

(٧٩) البيّنة آية: ٥.

(٨٠) **حجة القراءات** لأبي زرعة ٢٧٩.

(٨١) الأنعام ١٦١.

(٨٢) **السبعة** ٢٧٤ ، ومعاني **الفراء** ١/ ٣٦٧ و**معاني القراءات** ١/ ٣٩٧ و**إعراب القراءات السبع وعللها**، تحقيق: عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٩٩٢م ١/ ١٧٤.

(٨٣) البيّنة آية: ٥.

(٨٤) **معاني الأخفش** ١٨٨.

(٨٥) **الحجة** للفارسي ٣/ ٤٣٩ و**معاني القراءات** ١/ ٣٩٨.

(٨٦) **معاني الكسائي** ١١١ ، و**معاني الفراء** ١/ ٢٥٦ و**البيان** للأنباري ١/ ٢٤٣ والقرطبي ٢/ ١٦٩٧.

(٨٧) أي جعلها الله قيمة للأشياء؛ لأنّ الأموال قيم لجميع المعلّقات؛ **الحجة** لابن خالوية ١٣٩ ؛ و**البيان** ١/ ٢٤٣ و**الكشف** ١/ ٣٧٦، و**البحر** ٣/ ١٧٠.

(٨٨) ينظر **مختصر ابن خالوية** ٢٤ و**المحتسب** ١/ ١٨٢ و**اللسان** قوم.

(٨٩) **شرح الفاسي على الشاطبية** المسمّى **باللآلئ الفريدة**، تحقيق: عبد الرازق بن علي بن إبراهيم، مكتبة الرشد، ٢/ ٢٨١.

(٩٠) الفرقان آية: ٦٧.

(٩١) **المحتسب** ٢/ ١٢٥.

(٩٢) ينظر **الموطأ** للإمام مالك كتاب العقول ٢ ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

(٩٣) ينظر **مسند الإمام أحمد** ٥/ ٣٢٧.

(٩٤) ينظر: البخاري كتاب العتق و مسلم كتاب الإيمان ٤٧ ، و**العتق** ١/ ٥٦، ٢/ ١٠٥.

(٩٥) ينظر: البخاري كتاب الشركة ٥ وكتاب العتق ٤ ومسلم كتاب العتق ٤ والإيمان ٤٧.

(٩٦) ينظر: **مسند** الإمام أحمد ٢/ ١٥٦.

(٩٧) ينظر: **مسند** الإمام النسائي ك السرقة ٨.

(٩٨) ينظر: **صحيح البخاري** ك الخمس ١٣.

(٩٩) ينظر: **مسند ابن ماجه** تجارات ٣٧ **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ٣/ ٨٥ والنسائي إمامة ٢٥ ، و**المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** مادة (قوّم) ٥/ ٤٩٠ .

(١٠٠) ينظر: **مسند الإمام النسائي** ك الإمامة ٢٥.

(١٠١) ينظر: **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ٣، ٦٥.

(١٠٢) ينظر: **مسند الدارمي** ك ديات ١٨.

(١٠٣) ينظر: **مسند الدامي** ديات ١٨ والنسائي القسامة ٣٤ وابن ماجه ديات.

(١٠٤) ينظر: **مسند النسائي** ك القسامة ٣٤ وابن ماجه الديات ٦ و**مسند أحمد**.

(١٠٥) ينظر: **مسند النسائي** ك السرقة ١٠.

(١٠٦) ينظر: **سنن ابن ماجه** كتاب الفتن١٠ ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، ١٩٥٢/١٩٥٣م.

(١٠٧) ينظر: **سنن الدارمي** ك الصلاة ٩٣ ، والنسائي كتاب الإمامة ٢٥ ، و**مسند الإمام أحمد** ٤ ، ٧٦.

(١٠٨) ينظر: **سنن الدارمي**، ط كانيور ١٣٩٣هـ، ك الصلاة ١٣٥ **ومسند الإمام أحمد** ٥/ ٣٣٨.

(١٠٩) **صحيح البخاري** ك العتق ٤ **سنن الدارمي** ك العتق ٦.

(١١٠) ينظر: **مسند الإمام أحمد** ٣، ٦٥.

(١١١) **مسند الإمام أحمد** ٥/ ١٥١.

(١١٢) **الموطأ** كتاب الحدود ٢٣.

(١١٣) ينظر **البخاري** ك الشركة ٥.

(١١٤) **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ٢/ ٨٥، وينظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل** ٥/ ٤٩١.

(١١٥) ينظر **البخاري** كتاب تهجد ١ ، كتاب التوحيد ٨، ٣٥ و**مسند الإمام أحمد بن حنبل** ١/ ٣٥٨.

(١١٦) ينظر **صحيح البخاري** كتاب التوحيد و**صحيح مسلم** كتاب المسافرين ١٩٩ ، والترمذي كتاب الدعوات ، والنسائي كتاب قيام الليل ، و**الموطأ** لكتاب مس القرآن ٣٤ ، و**مسند الإمام أحمد** ١/ ٢٩٨ ، **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** ٥/ ٤٩٨.

(١١٧) **الألفية** : ٦٩.

(١١٨) **شرح الألفية** للمرادي ، (توضيح المقاصد والمسالك) شرح ألفية ابن مالك ، تحقيق : د. عبد الرحمن علي سليمان ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ٥/ ١٠٤.

(١١٩) **بلوغ الأرب في الواو في لغة العرب** ص٤٤٨.

❖ **العرب** :

لم يذكر الباحث رأي مجمع اللغة العربية بالقاهرة مع أنه أشار إليه في البحث. واستكمالاً للموضوع نقول إن مجمع القاهرة قد أجاز استعمال "التقييم" بمعنى بيان القيمة ، وجاء في تسويغ ذلك أن "الأصل في الاشتقاق من أمثال هذه الألفاظ أن ينظر إلى أصل الحرف ، كما قال العرب في بعض الاستعمالات : دومت السماء ، إلا أن العرب ربما قطعوا النظر عن أصل حرف العلة ، ونظروا إلى حالته الراهنة . كما قالوا : عِيدَ الناسُ ، إذا شهدوا العيد ، ولم يقولوا في هذه الكلمة عود الناس ، تحاشيًا عن توهم أنها من العادة ، وعلى ذلك يجوز أن يقال : "قيَّم الشيء تقييما" بمعنى حدّد قيمته للتفرقة بينه وبين "قَوّم الشيء" بمعنى عَدّله ، وقد جاءت المعاقبة بين الواو والياء المشددتين للتخفيف في أمثلة من كلام العرب يستأنس بها في قبول ذلك".

(مجمع اللغة العربية : القرارات المجمعية في الألفاظ والأساليب من ١٩٣٤- ١٩٨٧م ، القاهرة : الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، سنة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م. ص ١٠٢).

أ.م.ض.

(١٢٠) سورة الكهف آية : ١٠.

# مدينة بِلْبِيس في بواكير العصر الإسلامي

إعداد: أ. أحمد محمد عطوة*

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

مع انسياب الجيوش الإسلامية خارج الجزيرة العربية في مرحلة الفتح الإسلامي، نشأت ظاهرة بناء المدن؛ تلك الظاهرة التي مثّلت في مجملها عددًا من القواعد العسكرية، مكّنت الجيوش الإسلامية من الارتكاز عليها عند تقدمها، ومع مرور الوقت أخذت هذه المدن تصطبغ بصبغة إسلامية خاصة، أكسبتها مجموعة من السمات العمرانية والاجتماعية، ميّزتها عن غيرها من المدن الأخرى. أمّا المدن التي كانت قائمة بالفعل في

البلاد المفتوحة، فقد أضيفت إليها خصائص المدينة الإسلامية وتكويناتها المعمارية الحديثة مع الحفاظ على أصالتها القديمة؛ فأخرجت لنا نموذجًا مختلطًا يحمل الخصائص الإغريقية والرومانية والإسلامية في قالب واحد.

وترجع أهمية دراسة مدينة بِلْبِيس إلى قيامها بدور محوري في عدد من أحداث التاريخ الإسلامي، وذلك بداية من الفتنة العظمى زمن الخليفة عثمان بن عفّان ﷺ حتى نهاية دولة المماليك الجراكسة. وهذا راجع إلى موقعها الجغرافي على طريق المواصلات بين بلاد الشام ومصر منذ القِدم، كما يبدو أنها من أوائل المدن المصرية التي استوطنت فيها القبائل العربية بعد الفتح الإسلامي.

وسيتمّ معالجة الموضوع من خلال بعض المحاور، يتحدث المحور الأول عن أصل تسمية مدينة بلبيس تاريخيًّا ولغويًّا، أمّا المحور الثاني فيناقش الموقع الجغرافي لمدينة بلبيس وأبرز الظواهر الجغرافية بها، والمحور الثالث يتناول التكوين العمراني لمدينة بلبيس خلال فترة العصر الإسلامي الباكر، ومحاولة الاستعانة ببعض النصوص المتأخرة في استنتاج أنواع هذه التكوينات، والمحور الرابع يناقش التكوين البشري لمدينة بلبيس، ومقارنة النصوص من أجل الوقوف على أهم العناصر البشرية التي شكّلت مجتمع مدينة بلبيس خلال تلك الفترة. ثم خاتمة البحث وتشمل أهم النتائج التي

أمكن التوصل إليها، وبعدها قائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث، وأخيرًا إرفاق بعض الخرائط التي توضح الموقع الجغرافي لمدينة بلبيس. وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك بعض النقاط التي اكتفى الباحث بالتعليق عليها في الحاشية، وذلك لعدم اتصالها المباشر بالموضوع.

**التّسمية**

سمُّيت مدينة بِلْبِيس[١] في القديم أرض جَاشِرَ[٢]، أو أرض حاشان[٣]، أو أرض جاسان القديمة[٤]، وهي الأرض التي نزلها يعقوب عليه السلام وأبناؤه عند دخولهم مصر، فقد دعا يوسف أباه قائلاً: "فتسكن في أرض جَاسَان وتكون قريبًا مني أنت وبنوك.."[٥]. وقد تعني لفظة جَاسَان في اللغة العبرية قسمٌ من الدولةِ[٦].

أمّا لفظة "بلبيس" فتنوّعت التفسيرات اللغوية لها، فيرى البعض أنها تتكون من "بعل"، وهو إله الزرع والمطر عند الهكسوس[٧] الذين حكموا الجزء الشمالي والشمالي الشرقي من مصر فترة من الزمن، و"بس" إله الفرح والسرور والمرح عند المصريين القدماء[٨]، أو أنها تحوّرت من "بيربس"، أي دار عبادة الإله بس[٩].

وقد ذُكرت بلبيس في **قاموس جوتييه** للأسماء الجغرافية في النصوص والكتابات الهيروغليفية، وقال: إنّ اسمها القبطي Becok ثم ذكر: إنّ الأستاذ إتيين دينييه قال: إنّ اسمها الرومي Biblos والقبطي Belbes . كما ذكر أميلينو في معجمه عن البلاد والأماكن المصرية في العصر المسيحي والمعروف بجغرافية مصر في العصر القبطي أنّ اسمها القبطي Phelbes، كما وردت في بعض أوراق السلّم، وقال إنها وردت في كتب أخرى قبطية بأسماء Posok، Thelbes، Phalabes، ووردت في المصادر العربية باسم بلبيس[١٠]، كما وردت في "**قاموس إقلاديوس**" Pelbes، وذكر أنه قد وجد لها أسماء أخرى مثل بيسوك، Ockok، Icok[١١].

## الموقع الجغرافي

تقع مدينة بلبيس بين الشرق والشمال من مصر[١٢]، وهي قصبة الحَوْفْ الشرقي[١٣]، وتبعد عن الفسطاطِ عاصمة مصر حوالي أربعة وعشرين ميلاً[١٤]، أو أربعين ميلاً[١٥]، وقيل مرحلة[١٦]، كما قيل عشرة فَرَاسخ[١٧]، أو ثمانية فراسخ، وأنها على مسافة نصف يوم من مصر القديمة[١٨]، فهي موضع معروف قرب مصر[١٩] على طريق الشام، فقد قال أبو الطيب المتنبِّي:

جزى عربًا أمسـتْ ببـلبيس ربُّهـا ... بمسعاتهـا تَقْرر بذاك عيونُهـا
كراكرَ من قيس بـن عـيلان سـاهرا ... جفون ظُباها للعلى وجفونُها[٢٠]

كما يُذكر أنّ: "بين بلبيس وبين مصر بحيرة الأسرا"، والتي "يخرج إليها الماء من خليج يقرب مدينة رشيد من الضفة الشرقية وهي بحيرة مَلحة"[٢١].

وقد حاول المؤرخون تحديد منطقة بلبيس القديمة -جاشان- فذكر المؤرخ جريفث منطقة جوشن أنها المنطقة التي تقع بين فرع النيل البيلوزي والقنال الذي يبدأ من بلبيس. كما يرى الدكتور فيليب حتّي أنّ أرض بلبيس القديمة التي أقطعها يوسف لوالده يعقوب كانت تشمل المثلّث الواقع بين المدن الثلاث الحالية، الزقازيق وبلبيس والتل الكبير. كما دلّت الاكتشافات الأثرية الحديثة أنّ منطقة بلبيس القديمة تمتدّ اليوم من قناة السويس حتى مدينة بلبيس والزقازيق، وأنّ هذه المنطقة كانت تقع غرب خط القلاع والحصون، الذي كان قائمًا على طول المنطقة التي حُفرت مكانها قناة السويس الآن. وكان هذا السور عبارة عن مجموعة من القلاع والحصون، يقوم بالإشراف عليه جنود لمراقبة الحدود الشرقية لمصر[٢٢].

ويبدو من التفسيرات السابقة أنّ مدينة بلبيس كانت القاعدة الإدارية للمنطقة الممتدة شمال شرق القاهرة إلى منطقة البحر الأحمر، تلك المنطقة التي أطلق عليها العرب الحَوف الشرقي. كما يُفهم أنّ لفظ "بلبيس" قد

يتعدّى مدلوله الجغرافي مدينة بلبيس، فقد ينسحب هذا اللفظ على منطقة جغرافية أوسع من المدينة نفسها، حيث يتبعها مجموعة من الضواحي والقرى والبلاد.

كما يظهر أنّ هذا المصطلح -الحَوف الشرقي- لم تكن له دلالة إدارية، وإنما كان يشير إلى منطقة أو إقليم جغرافي معيّن، فقد ذُكرت العديد من القرى والبلدان التابعة لمنطقة الحوف الشرقي دون الإشارة إلى التبعية الإدارية له، وإنما كانت تابعة إداريًّا لمدينة بلبيس، باعتبارها المركز الإداري لإقليم الحوف الشرقي(٢٣).

ومن الملاحظ أنّ عامِل بلبيس من قبل والي مصر، كان يملك سلطات إدارية واسعة "يصل حكمه إلى الواردة(٢٤) وهي آخر حدّ مصر، وإليها تنتهي المعادلة بفضة السواد، ويصير الناس يتعاملون بالفلوس بعدها إلى العريش(٢٥)، وهي أول الشام، وقيل هي آخر مصر"(٢٦).

كما يبدو أنّ إقليم الحَوف الشرقي التي كانت مدينة بلبيس قاعدته الإدارية خلال القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، قد تبدّل اسمه إلى إقليم الأعمال الشرقية. حيث ذكر ابن الجيعان أنّ قاعدة الأعمال الشرقية هي أراضي بلبيس، ومساحتها ١٨٥٠ فدّانًا عبرتها ١٢٠٠٠ دينار، كانت للمماليك والحلقة والآن باسمهم وأملاك وأوقاف(٢٧).

## التكوين العمراني لمدينة بِلْبيس

لم تتحدّث المصادر كثيرًا عن التكوينات العمرانية التي شَكّلت مدينة بِلْبيس، وإن اتفقت جميعها على وصفها بـ"المدينة"، ولم يقف الباحث على موضعٍ يصفها بـ"البلدة" أو "القرية".

فقد وصفت المصادر بلبيس بـ"المدينة الجليلة"[٢٨]، "قصبة الحوف"[٢٩]، "المدينة الكبيرة"[٣٠]، "ذات بساتين كثيرة"[٣١]، "كثيرة القرى والمزارع عامرة، بنيانها من طين والمشتول، كثيرة الطواحين، ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز، من الدقيق والكعك، وأحصيت في وقت من السنة، فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل، في كل أسبوع، كلها حبوب ودقيق"[٣٢]، كما أنها تمد أهل القُلْزم بالميرة[٣٣].

ولاشك أنّ هذه المميزات التي توصف بها مدينة بلبيس، تدفعنا إلى التوقّع بوجود بعض المرافق العمرانية الأخرى التي ضَنّت علينا المصادر بذكرها. فإنّ المدينة بوصفها "قصبة الحوف الشرقي" التي تمدّ أهل القلزم وأهل الحجاز بالميرة، وكونها تقع على طريق (الشام ــ مصر) التجاري، وكذلك مرور قوافل الحجيج بها[٣٤]. كل هذا أهّلها لتصبح مركزًا تجاريًّا وصناعيًّا هامًّا، تتجمع فيه البضائع من داخل مصر استعدادًا لتصديرها إلى تلك الجهات، وما يتبع ذلك من أسواق كبيرة مجمّعة، وتجّار من

مختلف الأنحاء، وفنادق وخانات يستريح فيها الوافدون على المدينة، وحوانيت للحرفيين والباعة، ومخازن لحفظ البضائع؛ وذلك حتى تتمكن من تلبية الحاجات الضرورية للمسافرين.

ومن جهة أخرى تحدثنا المصادر عن مقاومة بلبيس لجيش عمرو بن العاص قرابة شهر من الزمان[٣٥]، وهذا يدل على أنّ المدينة كانت محصنة تحصينًا جيّدًا، وإلا ما أمكنها الصمود أمام الحصار طوال هذه المدة. ولا شك أنّ هذه التحصينات أخذت في التطور مع مرور الوقت، خصوصًا إذا عرفنا أنّ بلبيس كان لها دور رئيس في الكثير من الأحداث السياسية التي مرّت بها الدولة الإسلامية منذ الفتنة العظمى[٣٦] إلى عصر المماليك، وكان هذا الدور نابعًا من موقعها على الطريق بين الشام ومصر البري، والذي بدت بعض مظاهره في الثورات العديدة التي قام بها أهل الحوف الشرقي ضد ولاة الدولة أكثر من مرة[٣٧].

وقد أوردت المصادر بعض المعلومات بشكل متقطع عن مرافق مدينة بلبيس وحصونها. فذكر السخاوي ".. وبها -فيما قيل- جامع عمري؛ به عمود رخام، مكتوب عليه: الله بس، ثم لم تزل من المدن الكبار؛ بحيث نزلها بعض ملوك الفرنج، وأخذها عنوة بعد حصار طويل، وقتل منها آلافًا. ولازالت جليلة إلى أن أخذت في التناقص؛ بعد السور،

والقصور، والعمائر، والبساتين. وَوُصِفَ أهلها باليسار، والنعم السنية وأنها قاعدة الولاة بالحوف. ويمرّ بها من الأنهار الآخذة من النيل حال زيادته نهر يعرف ببحر ابن منجا، منه شرْب تلك الناحية بأسرها"[٣٨].

ويبدو أنّ هذا النهر كان صالحًا للملاحة عند زيادة مياه النيل، ففي إشارة متأخرة ذكر المقريزي عند حديثه عن النزاع الدائر بين أبناء صلاح الدين الأيوبي على الحكم في أحداث سنة ٥٩١هـ: "...هذا والعزيز يمدّ أهل بلبيس بالمراكب المشحونة بالرّجَال والعدَد، فبلغ ذلك الأسدية فركبوا إلى المراكب، وأخذوا بعضها وغرّقوا بعضها... وسَلِم ثمانِية مراكب عادت إلى القاهرة"[٣٩].

كما ذكر المستشرق الفرنسي فرانسوا ألبيرت أنّ مسجد "سادات قريش"، بمدينة بلبيس، يُعدّ أول مسجد أنشئ في مصر بعد الفتح الإسلامي وليس مسجد عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط، كما هو معروف، ويرى أنّ عمرو بن العاص ﷺ أمضى شهرين ببلبيس قبل وصوله إلى الفسطاط، كما لفت إلى أنّ المسجد بُني بطريقة بسيطة وبدائية، حيث تم اقتطاع مساحة مستطيلة من الأرض وشُيّدت جدرانه من الطوب اللبن، وأقام من جهة القبلة صف من جذوع النخل بدلاً من الأعمدة وسُقّف فوقها بالسعف والطمي، وأنشئت مئذنة المسجد في العهد العثماني بعد ذلك

على يد الأمير مصطفى كاشف، وقد أُطلق على المسجد هذا الاسم تكريمًا لشهداء المسلمين من صحابة رسول الله ﷺ في معركتهم ضد الرومان عند فتحهم لمصر، حيث كان هناك ١٢٠ صحابيًّا ضمن جيش المسلمين الذي حارب الرومان في بلبيس، واستشهد منهم عدد كبير ممن ينتسبون إلى قريش[(٤٠)].

وتحدّث المقريزي عن محراب مسجد بلبيس حيث يقول: "...فمحاريب ديار مصر التي يستقبلها المسلمون في صلواتهم أربعة محاريب، أحدها محراب الصحابة رضي الله عنهم، الذي أسسوه في البلاد التي استوطنوها، والبلاد التي كثر ممرهم بها من إقليم مصر، وهو [محراب الصحابة يشمل على] محراب المسجد الجامع بمصر، وهو المعروف بجامع عمرو، والمسجد الجامع بالجيزة، وبمدينة بلبيس وبالإسكندرية، وقوص وأسوان، وهذه المحاريب المذكورة على سمت واحد، غير أنّ محاريب ثغر أسوان أشد تشريقًا من غيرها، وذلك لأنّ أسوان مع مكة -شرفها الله تعالى- في الإقليم الثاني، وهو الحد الغربي من مكة بغير ميل إلى الشمال، ومحراب بلبيس مغرّب قليلاً"[(٤١)].

كما أشار المقريزي في فترة متأخرة في "سنة أربع وخمسين وخمسمائة، بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك على بلبيس حصنًا من لبن"[(٤٢)]، وعلى

الرغم من أنّ هذا الحصن قد بني في فترة متأخرة عن فترة الدراسة ؛ إلا أنه قد يفيد في استنتاج ومعرفة نوعية الخامات التي بُنيت بها حصون مدينة بلبيس خلال الفترات السابقة ؛ فمن المعروف أنّ أغلب حصون المدن تُبنى من ذات التربة التي تُنشأ عليها ، ومع التسليم بعدم تغيّر التربة إلا على فترات زمنية بعيدة ؛ فمن المتوقع إذن أن تكون أغلب حصون مدينة بلبيس كانت من الطوب اللبن ، وذلك لتوافقه مع نوعية تربتها الطينية أو الرملية.

## التكوين البشري لمدينة بِلْبيس

يبدو أنّ التكوين البشري لمدينة بلبيس قبل الفتح الإسلامي كان خاليًا من العنصر العربي المسّتقر ؛ ففي نص يُستأنس بذكره عند الواقدي أشار فيه إلى بعض الأماكن التي تواجد فيها العرب بالحوف الشرقي أثناء الفتح ، ولم يكن من بينها مدينة بلبيس حيث قال : "...فسار يوقنا ليلاً من رفح يطلب الفرماء ولم يقرب من العريش ولا القاربا ، وكلها حصون عامرة ، وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة ، وكانوا يؤدّون المال إلى الملك المقوقس.."(٤٣).

وكذلك بعد مطالعة أحداث الفتح الإسلامي لمدينة بلبيس في حوالي سنة ١٩هـ ، لم يقف الباحث على معلومات تشير -من قريب أو بعيد-

إلى تواجد العنصر العربي داخل مدينة بلبيس، سواء في مرحلة الحصار الإسلامي لها، أو بعد سقوطها[٤٤].

كما ذكر الكندي أنه في ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي[٤٥]، على مصر من قِبل هشام بن عبد الملك، نُقلت إليها بعض بيوت القيسيّة سنة ١٠٩هـ، وذلك عندما وفد على الخليفة بدمشق عبيدالله بن الحبحاب[٤٦]، وسأل الخليفة أن ينقل إلى مصر بعض بيوت القيسيّة، فأذن له هشام في نقل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن لا يُنزلهم بالفسطاط. وبالفعل أتى بهم ابن الحبحاب وفرّقهم على الحَوف الشرقي[٤٧].

كما يذكر ابن عبد الحكم أنّ قيسًا لم تكن بالحوف الشرقي قديمًا "...وإنما الذي أنزلهم به ابن الحبحاب، وذلك أنه وفد إلى هشام بن عبد الملك، فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل، فجعل ابن الحبحاب الفريضة في قيس، وقدم بهم فأنزلهم بمصر الحوف الشرقي"[٤٨].

وهناك رواية أخرى تذكر أنه عندما تولّى عبيد الله بن الحبحاب مصر[٤٩] من قِبل هشام بن عبد الملك قال: "ما أرى لقيس فيها حظًّا إلا لناس من فَهْم .. وفيها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا وهي بلبيس... فبعث إلى البادية فقدم عليه

مائة أهل بيت من بني مُضَر، ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيت من أَفناء هوازِن، ومائة أهل بيت من سُليم، فأنزلهم بلبيس"[٥٠].

ولكن السؤال هو: هل كان للعرب وجود في مدينة بلبيس قبل قدوم القيسيّة إليها عام ١٠٩هـ؟

من الواضح أنّ هناك فجوة زمنية بين سنة الفتح لمدينة بلبيس في ١٩هـ، ونزول القيسيّة إليها سنة ١٠٩هـ، لا نستدل فيها على أية معلومات عن العرب أو غيرهم من العناصر الأخرى، فمن ظاهر النص السابق يبدو أنّ بلبيس كانت خالية من الناس، وأنها كورة خاوية يمكن للعرب أن يستقرّوا بها في بداية القرن الثاني الهجري دون أن يضايقوا غيرهم من أهل البلاد.

ويشير كذلك أحد المصادر؛ أنه بعد موافقة الخليفة هشام بن عبد الملك على اقتراح عبيد الله بن الحبحاب، عامل خراج مصر، بإمكانية زيادة الخراج والضرائب المفروضة على أهل الحوف عمومًا، دون تحديد لمدينة بلبيس، وذلك في ولاية الحر بن يوسف[٥١]، فأرسل إليهم أهل الديوان لتحصيل الضرائب الجديدة، فحاربه الأقباط، "وكان ذلك أول انتقاض القبط بمصر، كان انتقاضهم في سنة سبع ومائة"[٥٢].

قد يبدو من غير المنطقي القول بأنّ مدينة بلبيس بعد الفتح الإسلامي لها، ظلت خالية تمامًا من السكان -أقباط أو عرب- حتى قدوم القيسيّة إليها في العقد الأول من القرن الثاني الهجري؛ خصوصًا أنّ المصادر لم تتحدث عن آثار نهب أو حرق أو تدمير للمدينة يمكن أن يكون قد تسبب فيها الجيش الإسلامي، أو آثار هجرة لسكانها الأقباط وإحلال العرب. ولكن الظاهر أنه بعد الفتح صارت مدينة بلبيس كغيرها من المدن الأخرى التي فُتحت، يعيش فيها سكانها الأصليون بالإضافة إلى العرب وهم العنصر الحاكم، وبعض المهاجرين إليها من المناطق المجاورة خصوصًا منطقة الحوف الشرقي.

كما أنّ هناك إشارة إلى وجود العرب بمدينة بلبيس خلال فترة مبكرة من فتحها، فيروي الطبري عند ذكره لأحداث سنة خمس وثلاثين: "...فقال عبدالرحمن بن عُدَيس التُّجيبي حين أقبل أهل مصر:

أقبلنا من بِلْبِيس والصعيد .... خوصًا كأمثال القسيّ قودِ
وعند عثمان وفي سعيد .... يارب فأرجعنا بما نريد"[٥٣].

فهذه الإشارة توحي بوجود العرب في مدينة بلبيس خلال تلك الفترة، ويبدو أنهم كانوا مستقرين، ولهم شأنهم ومكانتهم، فقد شاركوا مع الوفد الذي قدم على المدينة لمناقشة عثمان بن عفّان ﷺ. أمّا إشارة عبيدالله

ابن الحبحاب إلى أنها كورة خاوية من السكان عند تبريره إلى الخليفة رغبته في قدوم القيسية، قد يكون وراء ذلك هدف مادي، فربما أراد أن يزيد عدد القبائل العربية المسلمة حتى يمكنه أن يتحصل على المزيد من الزكاة والخراج وغيرها، خصوصًا أنّ عدد المسلمين في مصر كان ما يزال قليلاً، وأنّ الأقباط نسبتهم كانت الغالبة. أمّا اليهود فكانوا أحد العناصر التي شكلت المجتمع البشري لمدينة بلبيس خلال تلك الفترة، ولكنهم أيضًا كانوا أقلية(٥٤).

أمّا عن النشاط الاقتصادي الذي مارسه العرب القادمون في بداية القرن الثاني الهجري؛ فيظهر من النصوص أنه يتمثّل في الزراعة و التجارة والرعي، فيذكر الكندي أنّ ابن الحبحاب بعد أن قام باستقدامهم "...أمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل، ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهرًا حتى يركب وليس عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم.."(٥٥).

ويظهر من هذا النص أنّ العرب الوافدين على مدينة بلبيس قاموا بدور ناقلي الميرة والبضائع إلى منطقة القلزم التي كانت تعتمد في ميرتها على

مدينة بلبيس. ولا شك أنّ الأمر تطور وأصبحوا ينقلون البضائع التجارية من وإلى منطقة القلزم، باعتبارها الميناء التجاري الهام الذي يقع على البحر الأحمر، ويقوم باستقبال البضائع الشرقية، تمهيدًا لنقلها إلى أوربا عبر البحر المتوسط.

كما مارسوا الزراعة، وهذا أكسبهم صفة الاستقرار. ويبدو أنهم اعتمدوا في البداية على الأقباط أو العرب الموجودين في منطقة الحوف في تعليمهم فنون الزراعة. فطبقًا لما ورد في النصوص أنّ عبيد الله بن الحبحاب قام باستقدامهم من البادية، وبالتالي فلم تكن لديهم فكرة عن الزراعة وأساليبها.

وقد تطور المجتمع في مدينة بلبيس بعد أن أخذ في الزيادة، فتواصلت وفود القبائل العربية إلى مدينة بلبيس خصوصًا بعد سماعهم عن المميزات العديدة التي تمكّن أقرباءهم المنتقلون إلى بلبيس من الحصول عليها، فقد ذكر الكندي: "...تحمل إليه خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة، فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت، فمات هشام وببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان ابن محمد ...وبها ثلاثة آلاف بيت، ثم توالدوا وقدم عليها من البادية من قدم"[٥٦].

## الخاتمة

من خلال ما تمّت مناقشته عن مدينة بلبيس، خلال العصر الإسلامي المبكّر، أمكن الوصول إلى مجموعة من النتائج:

أولاً: تعتبر مدينة بِلبيس قاعدة إقليم الحوف الشرقي بمصر، وهي مدينة فرعونية قديمة تقع شمال شرق الفسطاط بحوالي أربعة وعشرين ميلاً، وكانت تسمّى قديمًا جاشان، وهي المنطقة التي استقر فيها يعقوب عليه السلام وأبناؤه بعد قدومهم إلى مصر. أمّا تسميتها ببلبيس فيعود إلى أصل فرعوني، فهي تعني دار عبادة الإله بيس أو بس.

ثانيًا: فتحت مدينة بلبيس حوالي سنة ١٩هـ، وذلك بعد حصار دام شهرًا، وهذا يدل على أنّ المدينة كانت محصنة تحصينًا جيّدًا. ولكن المصادر لم توضح حالة مدينة بلبيس العمرانية والاقتصادية والسياسية بعد فتحها، فهل تركت فيها حامية عسكرية؟ وما الشروط التي سلّمت بها المدينة إلى المسلمين؟ وهل استمر أهل المدينة من الأقباط بها أم هاجروا منها بعد الفتح؟. ويظهر أنّ تعامل المسلمين مع أهالي بلبيس بعد الفتح يشبه تعاملهم مع غيرهم من أهالي البلاد المفتوحة، وهو تركهم في ذمة الإسلام على أن يدفعوا الجزية، إذا لم يقبلوا الدخول في الدين.

ثالثًا: لم تشر المصادر كثيرًا إلى التكوينات العمرانية التي شَكّلت مدينة بلبيس، وإن كانت قد وصفتها بأنها مدينة كبيرة وجليلة، وهذا يدل على شمولها للعديد من التكوينات العمرانية التي تتميّز بها المدن الكبيرة من مبانٍ كبيرة، وشوارع واسعة، وتحصينات ضخمة، وأسواق وحوانيت متنوّعة، ومرافق خدمية كاملة، كما كان بها بساتين، وحدائق، وطواحين، وكان يظهر على أهلها الرفاهية والنعيم.

رابعًا: اضطربت المصادر حول بداية وجود العنصر العربي في مدينة بلبيس بعد الفتح الإسلامي، فبعضها ذكر أنّ البداية الحقيقية للعرب في بلبيس كانت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٠٩هـ، وأنّ قدومهم جاء في وقت كانت المدينة فيه خالية من السكان، وكأنّ مجتمع مدينة بلبيس في بداية القرن الثاني الهجري كان مجتمعًا عربيًّا صِرفًا. وهذا غير صحيح حيث يرى أحد المصادر أنّ العرب كان لهم وجود قويٌّ في بلبيس، بعد الفتح مباشرة، أي في العقد الرابع من القرن الأول الهجري.

خامسًا: كان النشاط الاقتصادي لمدينة بلبيس يرتكز في الأساس على الزراعة والتجارة، خصوصًا مع صلاحية تربتها ووصول مياه النيل إليها عن طريق أحد فروعه، كذلك موقعها على طريق التجارة والحجيج.

**الهوامش:**

* قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(١) بِلْبيسُ: ضبطه نصر الإسكندري بكسر الباءَين وسكون اللام وياء وسين مهملة، والعامة تقول: بِلْبَيْسُ. انظر: الحموي (ت: ٦٢٦)، ياقوت بن عبدالله، **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ج١، ص٤٧٩؛ وأحيانًا تضبط بَلْبَيس: بفتح أوله وإسكان ثانيه، بعده باء مثل الأولى مفتوحة أيضًا، وياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها، وسين مهملة. انظر: البكري (ت: ٤٨٧هـ)، عبدالله ابن عبدالعزيز، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، بيروت: عالم الكتب (١٤٠٣هـ)، ج١، ص٧٢؛ كما يقال إنها بموحدتين أولاهما مثلثة، والأخرى بالفتح خاصة؛ بينهما لام، وآخرها سين مهملة. انظر: السخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، محمد بن عبد الرحمن، **البلدانيات**، الرياض: دار العطاء (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص١١٣.

(٢) ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق: عبدالله بن محسن التركي، القاهرة: دار هجر (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج١، ص٤٩٩؛ السخاوي، **البلدانيات**، ص١١٣.

(٣) المقريزي (٨٤٥هـ)، أحمد بن علي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، بيروت: دار الكتب العلمية (١٤١٨هـ)، ج١، ص٣٣٩.

(٤) بنيامين التطيلي(ت: ٥٦٩هـ)، **رحلة بنيامين التطيلي**، أبو ظبي: المجمع الثقافي (٢٠٠٢م)، ص٣٥٤.

(٥) انظر: التوراة، **سفر التكوين**، إصحاح ٤٥/ ١٠، (نسخة pdf من التوراة متاحة على موقع الحكمة www.sofiea.net بالشبكة الدولية (الإنترنت). كما تكررت هذه التسمية -أرض جَاسَان- أكثر من مرة في **إصحاح** ٤٦/٢٨، و**إصحاح** ٤٧/١؛ ومن الملاحظ أنّ هناك اختلافًا بين المصادر الإسلامية والتوراة في عبارة "أرض جَاسَان"، ففي حين أنّ التوراة تذكرها بهذا الاسم، نجد المصادر الإسلامية تذكرها بـ "أرض جاشر" أو "أرض حاشان" -ربما يرجع ذلك إلى طبيعة اللغة العبرية؛ فحرف (ش) يمكن أن يحل محله حرف (س) وفقًا لنطق القبائل المختلفة- ولكنها اتفقت في أنّ هذه التسميات جميعًا لها نفس المدلول الجغرافي، وهي المنطقة التي نزل فيها يعقوب عليه السلام عندما قدم إلى مصر.

(٦) توصل لهذه النتيجة أحد الباحثين بعد تحليله اللغوي للفظة "جوشن"، ومقارنة حروفها العربية بحروف عبرية. انظر: عاشور، السيد محمد، **بلبيس بلد الأنبياء والرسل**، القاهرة: دار الأمل (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص١١؛ وعلى الرغم من أنّ هذا التحليل قد يبدو منطقيًّا إلا أن هناك ترددًا في قبوله؛ لأن الباحث اعتمد على لفظة "جوشن" -وهي لفظة تختلف عن "جاشر، حاشان، جاسان" الواردة في **التوراة** والمصادر الإسلامية- على أنها الأرض التي نزلها يعقوب عليه السلام. ولا أدري من أين أتى بلفظة "جوشن"، وعلام اعتمد في اتخاذها مُمثّلةً للألفاظ الأخرى الواردة في **التوراة** والمصادر الإسلامية؛ خصوصًا أنه بعد الاستقصاء عن لفظة "جَوْشَنُ" وُجِد أنها جبل يُطلّ على غرب حلب، وفي سفحه مشاهد ومقابر للشيعة. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٢/٨٦؛ وأرض جَاسَان: منطقة خصيبة في مصر كثيرة المرعى للقطعان والمواشي، واقعة شرق الدلتا. وهي المعروفة الآن بالشرقية الممتدة من جوار أبي زعبل إلى البحر ومن برية جعفر إلى وادي توميلات، وقد أعطاها يوسف لأبيه

وإخوته فسكنوا فيها هم وذريتهم من بعدهم نحو مئتي سنة. وكانت تعدّ من أفضل الأرض. انظر: بطرس عبد الملك وآخرون، **قاموس الكتاب (المقدس)**، الحقوق محفوظة لشركة Compubraill، حرف (ج).

(٧) الهكسوس: تسمية أطلقها المؤرخ مانيتون على شعوب بدوية آسيوية من أصول متعددة، دخلت مصر من ناحية الشرق خلال فترة الاضطرابات في نهاية حكم الدولة الوسطى بمصر القديمة. انظر: **الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)**، الشبكة الدولية (الإنترنت)، نتيجة البحث عن كلمة "هكسوس".

(٨) سليم حسن، **مصر القديمة**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٤م)، ج١١، ص٢٤٠ ؛ عاشور، **بلبيس**، ص١٥.

(٩) عاشور، **بلبيس**، ص١٧-١٨.

(١٠) رمزي، محمد، **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥**، القسم الثاني، البلاد الحالية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٤م)، ج١، ص١٠٠.

(١١) عاشور، **بلبيس**، ص٢٠.

(١٢) البكري(ت: ٤٨٧هـ)، عبدالله بن عبد العزيز، **المسالك والممالك**، بيروت: دار الغرب الإسلامي (١٩٩٢م)، ج٢، ص٦٢١.

(١٣) المقدسي(٣٩٠ه)، محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، القاهرة: مكتبة مدبولي (١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص١٩٥ ؛ والحَوْفْ: بفتح الحاء وسكون الواو والفاء، وبمصر حوفان؛ حوف شرقي وآخر غربي وهما متصلان، أول

الشرقي من جهة الشام، وآخر الغربي قرب دمياط. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٣٢٢/٢ ؛ البغدادي (ت: ٧٣٩هـ)، عبد المؤمن بن عبد الحق، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، (١٤١٢هـ)، ج١، ص٤٣٨ ؛ والحوف نسبة لناحية بمصر يقال لها الشرقية، وقصبتها مدينة بلبيس. انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٤٧/١٢.

(١٤) ابن خرداذبه (ت: ٢٨٠هـ)، عبيدالله بن عبدالله، **المسالك والممالك**، بيروت: دار صادر (١٨٨٩م)، ص٨٠.

(١٥) ذكر السخاوي هنا "بينها وبين فسطاطها أربعون ميلاً" ولا أدري هل المقصود بفسطاطها مدينة الفسطاط؟ لأنّ هذه المسافة مبالغ فيها، فلا شك أنّ السخاوي يعي جيّدًا كم تبلغ المسافة بين بلبيس والفسطاط، أم أنه يشير إلى مدينة بلبيس باعتبارها فسطاط إقليم الحوف الشرقي ككل. ولهذا فهذه المسافة مشكوك في صحتها ؛ انظر: السخاوي، **البلدانيات**، ص١١٣.

(١٦) ابن حوقل (ت: ٣٦٧هـ)، محمد، **صورة الأرض**، بيروت: دار صادر (١٩٣٨ه)، ج١، ص١٤٤ ؛ الإدريسي (ت: ٥٦٠هـ)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، بيروت: عالم الكتب (١٤٠٩هـ)، ج١، ص٣٤٦.

(١٧) ياقوت، **معجم البلدان**، ٤٧٩/١ ؛ والفَرْسَخُ: ثلاثة أميال أو ستة. انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ)، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر (١٤١٤هـ)، ج٣، ص٤٤.

(١٨) أطلق المؤرخ عبارة "مصر القديمة" على الفسطاط والقاهرة، وأطلق مصر الجديدة أو مصر الواسعة على منطقة الدلتا التي بهر بكثرة السكان والزروع فيها. انظر: بنيامين التطيلي، **رحلة**، ص ص٣٥٤-٣٥٥.

(١٩) البكري، **معجم ما استعجم**، ٢٧٣/١.

(٢٠) ياقوت، **معجم البلدان**، ٤٧٩/١.

(٢١) البكري، **المسالك والممالك**، ٦٢١/٢.

(٢٢) عاشور، **بلبيس**، ص٩؛ قد يتردد الباحث في قبول التحديد الجغرافي لموقع خط الحصون المذكور، خصوصًا مع القول بأنّ قناة السويس قد حفرت في المنطقة التي كان قائمًا عليها. وذلك للتسليم بأنّ غالب القلاع والحصون البرية تبنى على المرتفعات. ومن المعروف أنّ منطقة قناة السويس منطقة مليئة بالمستنقعات والبحيرات الباقية من الاتصال القديم بين البحرين الأحمر والمتوسط.

(٢٣) حيث أشار ياقوت، عند ذكره لقرية الجَوْسَق، أنها قرية كبيرة عامرة بالحوف الشرقي من أعمال بلبيس من نواحي مصر. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ١٨٤/٢؛ كذلك عند ذِكره لقرية شِبِينُ من قرى الحوف بين بلبيس والقاهرة. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٣٧٩/٣.

(٢٤) لم أجد ترجمة لـ"الواردة"، وإنما هناك ترجمة لـ"الورّادة"، التي ذكر ياقوت أنها تقع على طريق مصر من الشام، وقد تكون الأخيرة هي المقصودة بآخر حد مصر تجاه الشام. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٣٦٩/٥.

(٢٥) العَرِيش: هي أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٤/ ١١٣.

(٢٦) المقريزي، **الخطط**، ١/ ٣٣٩.

(٢٧) ابن الجيعان، يحيى بن المقر، **التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية**، القاهرة: المطبعة الأهلية (١٨٩٨م)، ص١٤؛ كانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقي أيام العرب، ثم قاعدة الأعمال الشرقية منذ أيام الدولة الفاطمية إلى آخر عهد الحكم الجركسي، ثم قاعدة ولاية الشرقية إلى سنة ١٨٣٢م، وفي تلك السنة أصدر محمد علي باشا والي مصر أمرًا بنقل ديوان المديرية والمصالح الأميرية الأخرى إلى مدينة الزقازيق لتوسطها بين بلاد المديرية، وبذلك أصبحت بلبيس قاعدة لقسم بلبيس، الذي أنشأ فيها بدلاً من ديوان المدينة منذ تلك السنة. وفي سنة ١٨٧١م سمّي بمركز بلبيس. انظر: رمزي، **القاموس الجغرافي**، ١/ ١٠١.

(٢٨) البكري، **المسالك**، ٢/ ٦٢١.

(٢٩) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ١٩٥؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٢/ ٤٧.

(٣٠) التطيلي، **رحلة بنيامين**، ص٣٥٤؛ ابن بطوطة (ت: ٧٧٩هـ)، محمد بن عبدالله، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، بيروت: دار الشرق العربي (د.ت)، ج١، ص٣٩.

(٣١) البكري، **المسالك**، ٢/ ٦٢١.

(٣٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ١٩٥.

(٣٣) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ١٩٦.

(٣٤) أشار ياقوت الحموي إلى قرية من أعمال بلبيس تسمّى غَيْفَة، كان الحجاج ينزلون إليها بعد خروجهم من مصر. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٤/٢٢١.

(٣٥) ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ)، عبد الرحمن بن عبدالله، **فتوح مصر والمغرب**، القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية (١٤١٥هـ)، ص٨٠.

(٣٦) حيث أشار الطبري إلى أنّ وفد مصر الذي قدم على عثمان بن عفّان ﷺ بالمدينة، كان قد أقبل من بلْبيس والصّعيد. انظر: الطبري (ت: ٣١٠هـ)، محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف المصرية (١٩٦٧م/١٣٨٧هـ)، ج٤، ص٣٦٨.

(٣٧) المقريزي، **الخطط**، ١/١٥٢، وما بعدها.

(٣٨) السخاوي، **البلدانيات**، ص١١٤.

(٣٩) المقريزي (٨٤٥هـ)، أحمد بن علي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج١، ص٢٣٩.

(٤٠) انظر: موقع كنانة أون لاين http://kenanaonline.com/msALm . على الرغم من عدم التمكن من الاطلاع على المصدر الرئيسي لهذه المعلومات، إلا أنّ ظاهرها يصيبه الخلل، ففي أحداث فتح مصر أو فتح مدينة بلبيس، لم أتحصل على أسماء للصحابة قد استشهدوا. انظر: ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص٨٠ وما بعدها؛ ويستأنس هنا بالمعلومات الواردة عند: الواقدي(ت:٢٠٧هـ)، محمد بن عمر [إذا صح نسب الكتاب إليه]، **فتوح الشام**، بيروت: دار الكتب العلمية

(١٤١٧هـ/١٩٧٩م)، ج٢، ص٤٠ وما بعدها؛ وهناك تساؤل آخر، هل ظل مسجد سادات قريش دون مئذنة إلى العهد العثماني؟! فمن المعروف أنّ العصر المملوكي كان متقدمًا في العمارة، فلماذا إذن تأخر بناء المئذنة إلى العهد العثماني.

(٤١) المقريزي، **الخطط**، ٢٣/٤.

(٤٢) المقريزي، **الخطط**، ٣٢٣/١؛ وقد أشار المقريزي كذلك إلى وجود أحد التكوينات العمرانية المتأخرة في مدينة بلبيس، وهي أبراج الحمام الزاجل. حيث كانت مدينة بلبيس أحد المحطات الهامة التي يمرّ عليها الحمام الزاجل فكان يقوم بنقل الرسائل من "قاطيا إلى بلبيس ومن بلبيس إلى قلعة الجبل". انظر: المقريزي، **الخطط**، ٤٠٣/٣؛ وكذلك أشار إلى وجود البيمارستانات بمدينة بلبيس؛ فذكر أنه في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام فخر الدين القاضي بإنشاء بيمارستان في مدينة بلبيس. انظر: المقريزي، **الخطط**، ١١٤/٤. كما لم تكن مدينة بلبيس خالية من المنشآت التعليمية، فهناك إشارة إلى أنّ محمد بن محمد بن بدير العباسي قام بإنشاء مدرسة في بلبيس خلال القرن الثامن الهجري. انظر: المقريزي، **الخطط**، ٢٤٥/٤. لا شك أن الإشارات السابقة -على الرغم من تأخرها زمنيًّا- إلا أنها تفيدنا كثيرًا في وضع تصور عن المنشآت المعمارية التي كانت موجودة في مدينة بلبيس خلال الفترة المبكرة من العصر الإسلامي. فمن المؤكد أنه بمجرد ظهور مثل تلك المنشآت في الدولة الإسلامية (مصر والشام)، كان ينعكس صداها مباشرة على مدينة بلبيس، وذلك لصلتها الدائمة بمجريات الأحداث، واطلاعها على كل ما هو جديد في الدولة حين ذاك؛ هذا بسبب موقعها الجغرافي الذي أتاح لها فرصة كبيرة لتصبح محطة التقاء بين بلاد الشام ومصر خلال تلك المرحلة.

(٤٣) الواقدي، **فتوح الشام**، ٢/ ٣٩.

(٤٤) انظر أحداث الفتح الإسلامي لمصر في: الواقدي، **فتوح الشام**، ٢/ ٣٩-٤٧؛ ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص٨٠؛ الكندي، محمد بن يوسف (ت: ٣٥٥هـ)، **كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي**، تحقيق: محمد حسن - أحمد فريد، بيروت: دار الكتب العلمية (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص ص٩-١٠.

(٤٥) الوليد بن رفاعة الفهمي: أسند إليه هشام بن عبد الملك ولاية مصر سنة ١٠٩هـ، وتوفي سنة ١١٧هـ، فكانت ولايته سبع سنين وخمسة أشهر. انظر: الكندي، **كتاب الولاة**، ص٥٨؛ وقيل أنه حدّث فقد روي عنه الليث بن سعد، وتوفي سنة ثماني عشر ومئة. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ٧ج، ص٤٩٥.

(٤٦) عبيد الله بن الحبحاب السَّلُولِيَّ: مولى بني سلول. انظر: خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني (ت: ٢٤٠هـ)، تحقيق: أكرم ضياء العمري، **تاريخ خليفة بن خياط**، بيروت/ دمشق: دار القلم، مؤسسة الرسالة (١٣٩٧هـ)، ص٣٤٧؛ وقد ولاّه هشام بن عبد الملك خراج مصر فترة طويلة، وكان له رأيه النافذ في عزل الولاة وتعيينهم. انظر: الكندي، **تاريخ الولاة**، ص٥٦ وما بعدها.

(٤٧) الكندي، **تاريخ الولاة**، ص٥٨.

(٤٨) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، ص١٦٩.

(٤٩) يبدو أنّ هناك اختلافًا بين المصادر على المنصب الذي تولاه عبيدالله بن الحبحاب في مصر، فأحدها يرى أنّ عبيدالله بن الحبحاب كان على خراج مصر في سنة ١٠٥هـ. انظر: الكندي، **كتاب الولاة**، ص٥٦؛ وأحدها يرى أنه كان واليًا على مصر وتركها بعد أن عين واليًا على إفريقية في سنة ١١٦هـ دون تحديد لسنة بداية التولية. انظر: ابن خياط، **تاريخ ابن خياط**، ص٣٤٧؛ ويقال إنه ذهب من مصر إلى أفريقية سنة ١١٤هـ وترك على مصر ابنه أبا القاسم. انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٤، ص٢٤١. لكن يبدو أنّ ولاية عبيد الله بن الحبحاب في مصر كانت تقتصر فقط على الخراج، واستمر في هذا المنصب طوال إقامته في مصر حتى تمت دعوته ليصير واليًا على أفريقية سنة ١١٦هـ. ويظهر ذلك بعد متابعة فترات حكم ولاة مصر خلال تلك الفترة -فترة الخليفة هشام بن عبد الملك-، فطبقًا لما ورد عند الكندي، فإنّ ولاية الحر بن يوسف (١٠٥-١٠٨هـ)، والوليد بن رفاعة الفهمي (١٠٩-١١٧هـ)، قد شغلت معظم تلك الفترة. والتي كان خلالها عبيدالله بن الحبحاب عاملاً على الخراج بشكل مستقل داخل الولاية. انظر: الكندي، **كتاب الولاة**، ص ص٥٦-٦٠.

(٥٠) الكندي، **كتاب الولاة**، ص٥٩.

(٥١) الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم الأموي، تولى حكم مصر ما بين (١٠٥-١٠٨هـ). انظر: الكندي، **كتاب الولاة**، ص٥٩.

(٥٢) الكندي، **كتاب الولاة**، ص٥٧.

(٥٣) الطبري، **تاريخ الرسل**، ٤/٣٦٨.

(٥٤) أشار بنيامين التطيلي، عند زيارته لمدينة بلبيس، أنه كان بها نحو ثلاثة آلاف يهودي، وعلى الرغم من أنّ هذا الرقم مبالغ فيها، إلا أنه يشير إلى أنّ اليهود كانوا أحد العناصر الأساسية في مجتمع مدينة بلبيس. انظر: التطيلي، **رحلة**، ص٣٥٤.

(٥٥) الكندي، **كتاب الولاة**، ص٥٩.

(٥٦) الكندي، **كتاب الولاة**، ص٥٩.

# م. ب وبحثه النقدي

## دراسة في نقد النقد

## (٢)

بقلم: د. محمد إبراهيم المسلماني*

### [٣] إثارة م. ب لقضايا نقدية

أ- محاكاة الطبيعة والتقليد:

يصف أرسطو المحاكاة بأنها "غريزة في الإنسان تظهر فيه منذ الطفولة، والإنسان يختلف عن سائر الحيوان في كونه أكثرها استعدادًا للمحاكاة، وبالمحاكاة يكتسب معارفه الأولية، كما أنّ الناس يجدون لذَّة في المحاكاة"[١]. ووسائل المحاكاة عند أرسطو ثلاثة: الإيقاع واللغة والانسجام[٢]. قال أرسطو: إنّ الفن محاكاة، ومن قبله قال أفلاطون "عن الفن إنه محاكاة...

والفن يحاكي الأمور الطبيعية والأمور الخيالية على السواء. وأرسطو يأخذ بهذه الآراء الأفلاطونية، ولا يكاد يضيف إليها شيئًا يُعتدّ به[٣]. ويرى الدكتور أحمد ضيف أنّ أرسطو- في القرن الرابع قبل الميلاد- "هو أول من قال إنه يجب أن تكون أعمال الإنسان جارية على قوانين الطبيعة ونظامها"[٤]. ويرى م. ب أنّ النقد "ظل مدة طويلة مقصورًا على مجادلات شفاهية، ولم يتجرّأ أحد على الكتابة فيه إلى أن جاء أرسطو، وهو أول من وصلت إلينا أخباره من كُتّاب النقد، وأول من ألّف فيه، على ما ذكره التاريخ"[٥]. وجاء الدكتور أحمد ضيف بعد ذلك وكرّر ما قاله م. ب[٦]. وأثر مفهوم أرسطو للمحاكاة في النقّاد الأوربيين حتى العصر الحديث؛ لذا وجدنا نقّادًا من الذين كتب عنهم م. ب يردّدون هذا المفهوم.

ووقف م. ب أمام آراء بعض النقّاد الفرنسيين الذين تحدّثوا عن محاكاة الطبيعة، وتحدّث عن الناقد ماليرب[٧] Malherbe (١٥٥٥-١٦٢٨م)- الذي قال بوجوب الرجوع إلى الطبيعة دون وسيط وتقليدها؛ "لأنّ الطبيعة مصدر كل شيء وينبوع كل فن؛ فلا بد من الرجوع إليها؛ لتوسيع المدارك وتهذيب الشعور"[٨]. ومع دعوتهم السابقة لمحاكاة الطبيعة فإنهم لا يدعون إلى تقليد القدماء، ويقولون: «إذا أراد أحد أن يتغزل بها (أي بالطبيعة) ويكتب فيها، فليطلب منها حاجته رأسًا، ولا يجعل الأقدمين سُلمًا إليها وواسطة بينه وبينها»[٩]. وقد يكون السبب في دعوتهم هذه أنّ بعض الكُتاب "قد اتخذوا مؤلفات الأقدمين أصولاً نقلوا عنها،

ونهجوا على مثالها، إذ كانوا يعتمدون على القدماء اعتماد الأعمى على البصير معتقدين أنهم توصلوا إلى الحقيقة"[١٠].

أمّا الناقد الفرنسي بوالو[١١] Boileau (١٦٣٦-١٧١١م) الذي ظل اسمه لامعًا طوال الفترة التي سادت فيها معتقدات الكلاسيكية عالم الأدب، ثم أصبح هدفًا للنقاد الرومانتيكيين، فقد ألّف كتابًا من أشهر الكتب النقدية التي كُتبت في التاريخ، وهو "**فن الشِّعر**" وطبعه في فرنسا سنة ١٦٧٤م، ودعا فيه إلى محاكاة الطبيعة وتقليد القدماء والسير على منهجهم[١٢]. وقد وصف م. ب بوالو بأنه "دعا إلى حثّ الكتّاب على تقليد القدماء واتّباع القواعد التي استخلصها من كتبهم، وهو آخر كاتب في القرن السابع عشر اعترف بنفوذ الأقدمين واعتبر تعاليمهم (واجبة) وقال بوجوب تقليدهم، وقد أوصى أيضًا بالنقل عن الطبيعة والرجوع إليها في كل وقت لتغذية المدارك؛ إذ أنها المدرسة الحقيقية التي تتلقّى فيها العلوم الصحيحة والفنون الجميلة"[١٣]. ويقصد بوالو "من تقليد الطبيعة، الأشياء العامة التي توجد في طبيعة الإنسان، فإذا كتب الكاتب عن (نيرون) مثلاً، فإنه لا يكون غرضه الشخصي (نيرون)، وإنما يقصد وصف خلق الظلم والاستبداد الكامن في نفس الإنسان"[١٤]. لذلك عند عرض م. ب لفكر بوالو النقدي قال: «إنّ هناك فئتين من الكتاب الأقدمين الذين وصلت إلينا أخبارهم: فريق منهم تعرّض للمواضع الخصوصية الوقتية، تلك التي لا تهمّ إلا شعبًا مخصوصًا وزمنًا معيّنًا، والفريق الآخر كتب في

مواضيع عمومية وحقائق ثابتة راهنة لا تتزعزع، تلك هي التي لا يخنى الدهر عليها، يهرم الإنسان ولا تهرم وإن كللتها عشرات القرون»(١٥).

ومن آراء بوالو التي ردّدها م. ب "أنّ كل شيء جميل في الطبيعة، وجمالها دائم ثابت، وقد جاءت مؤلفات الأقدمين صورة مطابقة لها؛ فعاشت ووصلت إلينا على الرغم من القرون الطويلة التي مرت عليها، فإنّ الشعور والوجدان في الإنسان لا يختلفان بمرور الزمان ما دام المنبت الذي نشأنا منه جميعًا واحدًا، ولذا فإنّ ما وافقهم يوافقنا"(١٦). ودلل م. ب على ذلك بالأدباء القدماء في الأدب العربي والأدب الأوربي "فشعراء الجاهلية مثلاً الذين لم يفسد زخرف التمدين قرائحهم، ولم يروا في الطبيعة سوى الحقيقة العارية من كل تصنع، نظموا فيها شِعرًا لا يزال مثال البلاغة، فنسج على منوالهم الشعراء الذين خلفوهم، وأخذوا عنهم ضروب الشِّعر وأوزانه. كذلك وضع هوميروس "إلياذته" فأعجب بها من أتى بعده من الشعراء فحذوا حذوه. وألّف أوربيد وسوفوكل روايات تمثيلية حازت رضى معاصريهم، وراقت لدى أهل العصور التالية، فصاغ على منوالها من جاء بعدهما"(١٧). وسبب خلود هذه الآداب ما وضعه النقّاد القدماء من "قواعد وشروط موافقة للطبيعة وسلامة الذوق، لما كان عليه الأوّلون من القرب إلى الطبيعة والبعد عن الزخارف الفاسدة"(١٨).

ويؤكد الدكتور أحمد ضيف- الذي أتى بعد م. ب- أنّ بوالو يدعو إلى محاكاة الطبيعة في قوله: «مذهب بوالو في النقد مذهب مبني على تقليد

طبيعة الأشياء ورسم الحياة كما هي، ولكنه لم يرد إلا جهة الجمال والخير»[١٩]؛ لأنّ بوالو يرى أنّ العقل لا يقبل إلا الحقائق، وبقدر مطابقة الأدب لهذه الحقائق يكون نصيبه من الجمال، ولكي يكون الكلام حقيقيًّا فلا بد أن يكون موافقًا للطبيعة[٢٠].

وقد لاحظ م. ب أنّ للقدماء نفوذًا كبيرًا في التأكيد على محاكاة الطبيعة، ومن أقوال القدماء التي رواها م. ب عنهم: أنّ «كل كتاب أتى موافقًا للطبيعة كان موافقًا للذوق السليم؛ لأنّ الذوق السليم مستمدّ من الطبيعة، وأحكام الطبيعة حَرِيَّة بأن نقيّد بها كتاباتنا شِعرًا ونثرًا»[٢١].

ومن ميل م. ب لآراء القدماء في محاكاة الطبيعة ترديده لما قاله بوالو Boileau: «إنّ كل شيء جميل في الطبيعة حتى الثعبان إذا أحسنت تصويره والصحراء إذا أحسنت وصفها، فاجعل الطبيعة مدار بحثك ودرسك؛ لأنّ الطبيعة جذابة بلا تصنّع عقيم وزخرف فاسد، ولن تجد الحقيقة إلا في الأشياء الطبيعية، وكل شيء جميل في موضعه، فما على الكاتب إلا أن ينقل الأشياء كما هي بلا تزويق، ويورد الحقائق على علاتها بلا تنميق»[٢٢].

وقد سبق قسطاكي الحمصي م. ب بعشر سنوات، وأثار قضية التقليد ومحاكاة الطبيعة، وأكد على أنّ النقاد الفرنسيين في القرن السادس عشر "قد جروا شوطًا بعيدًا في طريق النقد وعرفوا الصفات المحدودة التي يبلغ بها غاية التمام من نال منها حظًّا؛ فأخذوا في تقليد كتابات المشاهير، ممن كانت كتبهم موضع إعجاب المتقدمين وفخرهم"[٢٣]. نتج عن هذا التقليد

ثقة كاملة بقواعد النقد التي استخلصوها من الكتب القديمة "وكانت تلك القواعد- أي تقليد عظماء الكُتّاب بأخذ ما استحسن منهم مع تبديل الموضوعات- كُلَّ علم النقد عندهم"(٢٤). وهنا يختلف قسطاكي الحمصي قليلاً مع ما قاله النقّاد الفرنسيون في عهد ماليرب Malherbe، ويتّفق مع رأي بوالو Boileau.

ويشترط الحمصي أن تكون محاكاة الطبيعة محاكاة يقبلها العقل، وجاء بأمثلة في المحاكاة التي لا يقبلها العقل، منها ما قاله الشاعر الحلي:

لوْ قابَل الأعْمَى غَدَا بَصِيرا        وَلوْ رَأى مَيْتا غَدَا مَنْشُورا

وَلوْ يَشَا كَانَ الظلامُ نُورا        وَلوْ أتَاهُ الليلُ مُسْتجيرا

آمنه مِنْ سَطوَاتِ الفَجْرِ

ولم يوافق الحمصي على هذا الكلام العجيب، الذي لا يتفق مع المنطق، وردد قول «الشيخ اليازجي عند ذِكر هذه الأبيات وأمثالها من الهذيان: وكل هذا مما لا يقبله العقل، ولا يحسن في الذوق، ومن العجب أن يخترع المرء مثل هذه الخرافات»(٢٥).

هنا تحدّث قسطاكي الحمصي عن "محاكاة الطبيعة" أو التقليد في إطار ما يكتبه في النقد الأدبي الحديث عند الإفرنج والعرب، وما كتبه هنا جاء تحت عنوان (النقد في القرون الحديثة)، ويذكر الحمصي أنّ "القرون الحديثة هي في عرف علماء الفرنجة ما ابتدأ من أول القرن السادس عشر وانتهى سنة ١٨١٥م"(٢٦). أمّا ما كتبه م. ب فقد جاء من خلال كتابته عن تاريخ الأدباء والنقّاد الفرنسيين.

ب ـ الصـدق

الكـلام الـسابق عـن "محاكـاة الطبيعـة" يـؤدِّي بنـا إلى الحـديث عـن "الصدق"، ويرى قسطاكي الحمصي "أنّ الـصدق هـو قاعـدة النقـد، فمـن صدق في كلامه وتشبيهه في كل فن وصناعة، فقد بلغ غاية التمام في ذلـك الفن وتلك الصناعة بشرط استيفائه كل وجوه الـصدق وحقوقـه في محاكـاة الطبيعة"(٢٧)؛ لأنّ "الحقيقة سـلاح النقـد، وكـل جمـال في الكـون هـو دون جمال الحقيقة، وعماد النقد وأساسه هو الصدق، ولا يكون النقـد مـصيبًا إلا عندما يصيب كبد الحقيقة، وكلّما بعـد النقـد عـن الحقيقـة كـان فاسـدًا ومردودًا. إذن موضوع الانتقاد هو التفتيش عن الحقيقة"(٢٨).

ثم جاء م. ب بعد قسطاكي الحمصي وتحدّث عـن الـصدق عنـد وصـفه للكاتب الفرنسي (مـاليرب Malherbe) بأنـه وضـع قواعـد للـنظم، ألـزم نفـسه بهـا، كمـا ألـزم الـشعراء أجمعـين، ومنهـا "أن تكـون قريحـة الـشعراء خاضـعة لقواعـد المنطـق وأحكامـه؛ حتـى لا يـشطّ الـشعراء في عـوالم الأحـلام والخيـال شـوطًا غـير محمـود. فوضـع حـدًّا لغلـوائهم، وخـالف في ذلك رأي طائفة الشعراء الغنـائيين الـذين كـانوا يسترسلون في خيـالهم بـلا قيد ولا حساب. وقد بلغت شدة مـاليرب Malherbe في النقـد وصـرامته في الحكم درجة فاقت حد المعقول، وكانت سببًا في توجيه تهمة التقعّر إليه من معارضيه وخلفائه"(٢٩).

وعند حديث م. ب عن بوالو Boileau، وصفه بأنه "أراد ألا يتبع الكُتّاب في التأليف إلا أحكام المنطق، وأكّد على أحكام العقل في كل ما يكتبون، ثم دعاهم إلى أن ينهجوا منهج الأقدمين في فنّ الكتابة وسبك الكلام وانتقاء الألفاظ والتعابير"(٣٠). وهذا الرأي يُعيد إلى الأذهان ما سبق أن أثاره الناقد محمد روحي الخالدي (١٨٦٤-١٩١٣م) قبل (م. ب) باثني عشر عامًا، أي في عام ١٩٠٣م عند حديثه عن شروط الكلاسيكية ومنها: الصدق، أي "وجود موازنة بين التخيّل الشِّعري وبين التعقّل"(٣١). وبمعنى آخر: أن يكون التخيّل الشِّعري «مقرونًا بالتعقّل، فعندهم أنّ الشِّعر ليس أعذبَه أكذبُه، بل أحسنه أصدقه، كما قال حسّان»(٣٢):

وإنَّ أحْسَنَ بَيْتٍ أنْتَ قائِلهُ   بَيْتٌ يُقالُ إذا أنْشَدْتَهُ صَدَقا(٣٣)

أمّا إذا جاء "التخيّل الشِّعري في التأليف الأدبي منافيًا للعقل؛ فلا يعتبرون ذلك التأليف على منهج الطريقة المدرسية، مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب"(٣٤). وفي رأي الخالدي أنّ "مبالغات العرب أقل من غيرها لا سيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الأولى من الإسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالأعاجم، ولا حصلت لهم ألفة بفنون أدب الفُرس ولا بتعبيراتهم"(٣٥). وجاء الخالدي بأمثلة تؤكد وجود هذه المبالغات التي لا يقبلها العقل من أدب الفرس والترك وترجمها إلى اللغة العربية، كما جاء بأمثلة من الأدب العربي منها بيت المتنبِّي:

كَفى بجسْمِي نُحُولاً أنَّنِي رَجُلٌ   لوْلا مُخَاطَبَتِي إيَّاكَ لمْ تَرَنِي(٣٦)

وفسَّر الخالدي وجود هذه المبالغة في شِعر المتنبِّي التي لا تتفق مع العقل ولا تحدث في العادة بسبب ذهاب هذا الشاعر إلى بلاد الفُرس واختلاطه بأدباء العجم[٣٧]. وقد استهجن الخالدي "ما قاله أحد الواعظين في جامع آيا صوفيا بأنّ من صام كذا وسبّح كذا في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر رزقه الله في الجنّة حورية طولها ما بين المشرقين"[٣٨]. وحقيقة فإنّ خيال هذا الواعظ ينافي الصدق ولا يوافق العقل.

والصدق الذي تكلّم عنه الخالدي هو أحد الشروط الخمسة[٣٩] التي وضعها النقاد لضبط الأدب وجعله مقبولاً عقليًّا ؛ لأنّ الأدباء قبل عصر لويس الرابع عشر -أي قبل القرن السابع عشر- لم يتعقلوا في الشِّعر والنثر ؛ "ولذا كانت فنون أدبهم مشحونة بالخرافات والأباطيل وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال، وخارق للعادة ومشتمل على المبالغات العجيبة وعلى زخرف القول"[٤٠] ؛ مما اضطر نقاد الأدب لوضع قواعد تجعله خاضعًا لأحكام العقل.

وقد جاء م. ب من بعد، وكاد يكرر وصف هذه الحالة النقدية في قوله: «إنّ الكُتّاب الفرنسيين قبل النهضة العلمية كانوا غير مقيّدين بقواعد وشروط، غير مرتبطين فيما بينهم بجامعة لغوية، تشد أزرهم مثلما نراهم اليوم، فلم يكن لهم منهج معيّن في التأليف وأسلوب عامّ في الإنشاء، فذهب كل منهم مذهبًا خاصًّا وفقًا لما أوحته إليه مشاعره، فجاءت كتبهم متناقضة في الشكل، خالية من النظام والترتيب، بعكس مؤلفات الأقدمين أو مؤلفات الفرنسيين في القرن السابع عشر، فقد كانوا

مُتّحدين اتحادًا معنويًّا، ينسجون على منوال واحد، ويكتبون بلغة مهذبة وأسلوب واضح لما عرفوه من شأن الإنشاء في تخليد آثارهم»[٤١]؛ لأنه قد "جمعت بينهم جامعة قلمية، كانت مرافقة للجامعة السياسية التي نشأت في الوقت ذاته، فأدت إلى التقيد بالقوانين التي ابتدعها النقاد والتمسك بمذاهب فنية قوية عادت عليهم بفائدة عظيمة"[٤٢]؛ منها السير على "طريقة القدماء في فن الإنشاء وجعلهم يؤثرون الكتابة في المواضيع العمومية التي تلذّ للجمهور عامة"[٤٣]. وهذا يذكرنا بالشرط الخامس من شروط ضبط الأدب التي وضعها النقّاد في القرن السابع عشر وتحدّث عنها الخالدي، وهو أن تعبر الآداب عن معنى قومي اجتماعي.

إنّ م. ب كان مسبوقًا من محمد روحي الخالدي وقسطاكي الحمصي في الحديث عن الصدق في نقد الأدب. وكرّر ما قالاه في ثوب تاريخي، وهو يتحدث عن تاريخ النقد الفرنسي من خلال حديثه عن النقاد الفرنسيين.

**(للبحث صلة)**

**الهوامش:**

❖ جامعة الزقازيق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

(١) أرسطو طاليس: فن الشِّعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحققه الدكتور عبد الرحمن بدوي، ط القاهرة، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٣م، ص١٢.

(٢) نفسه: ص٥.

(٣) نفسه: ص٤٨، ٤٩ من مقدمة المترجم.

(٤) الدكتور أحمد ضيف: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، سبق ذكره، ص١٠٠.

(٥) م. ب: مقال (بحث في النقد – النقد في فرنسا)، الهلال عدد يناير سنة ١٩١٧م، ج٤ السنة ٢٥، ص٣١٦.

(٦) الدكتور أحمد ضيف: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، سبق ذكره، ص١٠٠.

(٧) هو ماليرب فرنسوا، شاعر فرنسي ولد في مدينة (كاين Caen) الفرنسية، ولأنه شاعر رائد؛ فقد فرض بوضوح ودقة التذوق الكلاسيكي في الأدب.

- Petit Larousse: Dictionnaire encyclopédique pour tous, Paris, ١٩٨٤. P.١٣٨٥ .

(٨) م. ب: مقال (بحث في النقد ـ النقد في فرنسا)، الهلال عدد مارس سنة ١٩١٧م، ج٦، السنة ٢٥، ص٤٧٥.

(٩) نفسه: ص٤٧٥.

(١٠) نفسه: ص٤٧١، ٤٧٢.

(١١) هو بوالو ديبرو، وأعطاه والداه اسم (ديبرو Despréaux) ليتميّز عن إخوته، ولد في باريس، وهو قبل الأخير في أسرة تتكون من ١٣ فردًا. وأهم أعماله: الهجاء، ومحادثات، ومنوعات، ورسائل إلى راسين، وأفكار نقدية، وفن الشِّعر.

- Lemaitre Henari: Dictionnaire Bordas de littérature française et francophone. Paris, Bordas, ١٩٨٦. P. ٨٥٠.

(١٢) انظر: فيرنون هول: موجز تاريخ النقد الأدبي، ترجمة الدكتور محمود شكري مصطفى وعبد الرحيم جبر، ط بيروت، دار النجاح، سنة ١٩٧١م، ص٧٧، ٧٦.

(١٣) م. ب: مقال (بحث في النقد ـ النقد في فرنسا)، الهلال عدد أبريل سنة ١٩١٧م، ج٧ السنة ٢٥، ص٥٥٥.

(١٤) الدكتور أحمد ضيف: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، سبق ذكره، ص١٠٧.

(١٥) م. ب: مقال (بحث في النقد – النقد في فرنسا)، الهلال عدد أبريل سنة ١٩١٧م، ج٧ السنة ٢٥، ص٥٥٦.

(١٦) نفسه: ص٥٥٥، ٥٥٦.

(١٧) م.ب: مقال (بحث في النقد)، الهلال عدد ديسمبر سنة ١٩١٦م، ص٢٣٢.

(١٨) نفسه: ص٢٣٢.

(١٩) الدكتور أحمد ضيف: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، سبق ذكره، ص١٠٦.

(٢٠) انظر السابق: ص١٠٦.

(٢١) م.ب: مقال (بحث في النقد – النقد)، الهلال عدد مارس سنة ١٩١٧م، ج٦ السنة ٢٥، ص٤٧٢.

(٢٢) م.ب: مقال (بحث في النقد – النقد في فرنسا)، الهلال عدد أبريل سنة ١٩١٧م، ج٧ السنة ٢٥، ص٥٥٦ .

(٢٣) قسطاكي الحمصي: منهل الوراد في علم الانتقاد، ج١، سبق ذكره، ص٧٥.

(٢٤) نفسه: ج١، ص٧٦.

(٢٥) نفسه: ج١، ص٨٠.

(٢٦) نفسه: ج١، ص٨٠. ومن الملاحظ أنّ قسطاكي الحمصي كتب هذا الكلام في بدايات القرن العشرين سنة ١٩٠٧م، ناقلاً وناقدًا لما كتبه الإفرنج قبله.

(٢٧) نفسه: ج١ ص٨١.

(٢٨) نفسه: ج١ ص١٢٥، ١٢٦.

(٢٩) م.ب: مقال (بحث في النقد – النقد في فرنسا)، الهلال عدد مارس سنة ١٩١٧م، ج٦ السنة ٢٥، ص٤٧٣، ٤٧٤.

(٣٠) م.ب: مقال (بحث في النقد – النقد في فرنسا)، الهلال عدد أول أبريل سنة ١٩١٧م، ج٧ السنة ٢٥، ص٥٥٦.

(٣١) محمد روحي الخالدي: مقال (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب)، الهلال عدد أول ديسمبر سنة ١٩٠٣م، ج٥ السنة ١٢، ص١٤٠.

(٣٢) محمد روحي الخالدي: مقال (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب)، الهلال عدد ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٣م، ج٢ السنة ١٢، ص٤٣.

(٣٣) هذا هو البيت الثاني من بيتين قالهما حسان، والبيت الأول هو:

وإنّمَا الشِّعْرُ لب المرء، يعرضه على المجالس إنْ كَيْسا وإن حَمقا

انظر: ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ط القاهرة، دار الحرم للتراث سنة ٢٠١١م، ص٣١٥.

(٣٤) محمد روحي الخالدي: مقال (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب)، الهلال عدد أول ديسمبر سنة ١٩٠٣م، ج٥ السنة ١٢، ص١٤٠.

(٣٥) نفسه: ص١٤٠.

(٣٦) هذا هو البيت الأخير من ثلاثة أبيات قالها المتنبي في صباه، والبيتان السابقان له هما:

أبلى الهوى أسَفا يومَ النوى بدني وفرَّقَ الهجرُ بَيْنَ الجَفن والوَسَن

رُوحٌ تــردَّدَ فِي مِثـل الخـلال إذا أطارت الرِّيحُ عَنه الثوبَ لم يَبِنِ

انظر: ديوان أبي الطيب المتنبِّي بشرح أبي البقاء العكبري، ضبط وتصحيح مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، ج٤ ط القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٧١م، ص١٨٥، ١٨٦.

(٣٧) محمد روحي الخالدي: المقال السابق، ص١٤٠.

(٣٨) نفسه: ص١٤١.

(٣٩) الشرط الأول: التعقل، والثاني: حسن اللفظ والمعنى، والثالث: الصدق، والرابع: مراعاة الآداب العامة والتزام الأخلاق، والخامس: أن تعبّر الآداب عن معنى قومي اجتماعي. انظر: السابق، ص١٤٠.

(٤٠) محمد روحي الخالدي: مقال (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب)، الهلال عدد ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٣م، ج٢ السنة ١٢، ص٤٤.

(٤١) م. ب: مقال (بحث في النقد ـ النقد في فرنسا)، الهلال عدد مارس سنة ١٩١٧م، ج٦ السنة ٢٥، ص٤٧٢.

(٤٢) نفسه: ص٤٧٢.

(٤٣) نفسه: ص٤٧٢، ٤٧٣.

# صلة السلطة بالقبائل في العصور العباسية المتأخرة: البصرة والبحرين أنموذجاً ٣٠٠-٦٥٦ هـ/٩١٣-١٢٥٨م قراءة في المشهد القبلي -١-

**(٢)**

بقلم: د. عبداللطيف ناصر الحميدان[*]

**صلة الخلافة بالقبائل بعد استرجاعها لسلطتها:**

استطاع خلفاء بنو العباس عند منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي الخروج من الترذل والأسر السياسي الذي فرضه عليهم أمراء الترك والبويهيين وأخيرًا السلاجقة. ويعتبر عهد الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م) بداية لذلك وبهذا أصبحت الصلة بالقبائل متأثرة بذلك التغيير. ولقد وصل الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٥هـ/١١٦٠-١١٧٠م) إلى قناعة بضرورة التخلص من نفوذ بني أسد

نهائيًا للحد من متاعبهم بعد أن أقاموا صلات وثيقة ومتشابكة مع قوى متنافرة مما لا يمكن السكوت عليه. لذا فقد قام سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م بحشد قوى عديدة وكبيرة ضدهم، بمن فيهم ابن معروف زعيم المنتفق لإخراج بني أسد من الحلة وسَقْي الكوفة، ونواحي أخرى فقاتلهم وأخرجهم من ديارهم بقسوة متناهية بعد أن قتل منهم ما يناهز الأربعة آلاف إنسان وتفرق من بقى منهم في البلاد، وسلم الخليفة إقطاعهم في البطائح لبني معروف[١].

وهكذا أزاح العباسيون إمارة حدودية ونكّلوا بأمرائها بعد أن كانوا قد قدموا لهم خدمات كبيرة في حفظ سواد الكوفة وخفارة الطرق، واتكلوا بعدهم على بني خفاجة والمنتفق في حفظ تخوم البصرة وحدودها.

ويبدو أن أنظار العباسيين قد اتجهت أبعد من ذلك نحو البصرة ومياه الخليج الآخذ بالازدهار تجاريًّا إلى حد كبير على يد بني قيصر ملوك جزيرة قيس[٢]، خاصة وأنّ الأخيرين أخذوا يسعون بنهم شديد للاستيلاء على جزيرة أُوال ذات الشهرة الواسعة بمغاصات اللؤلؤ وانتزاعها من العيونيين حكام بلاد البحرين، الذين كانوا يعانون الضعف بسبب الخلافات الأسرية الشديدة بينهم، إضافة إلى ضغط بني عامر عليهم من الداخل[٣]. عندها التقت مخاوف العيونيين من بني عامر مع مخاوف العباسيين على البصرة المنفذ التجاري للعراق على الخليج ومنها إلى الهند وعلى القوافل التجارية التي تنطلق منها البرية والنهرية. ورُغم مخاوف السلطة العباسية على البصرة إلا إنها لم تحسن حمايتها، فقد قام الأمير

عميرة زعيم بني عامر بنهب البصرة ومحالها وخاناتها التجارية في صفر عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م وهزم قبيلتي المنتفق وخفاجة معاً عندما جاءوا لنجدة المدينة وغنم أموالهم، ثم غادرها إلى بلاده. ويذكر ابن الأثير أنّ القصة نفسها رآها سنة ٥٩٣هـ[٤]، أي ربما هناك اختلاف في تاريخ الحدث فحسب. [؟]

ومن الجدير بالإشارة أن الأمير عميرة ما هو إلا جد عصفور بن راشد بن عميرة الذي سوف ينتزع الحكم من العيونيين في البحرين لاحقًا ويخلفهم في الحكم. لقد وَلَّد هذا الحدث خيبة أمل كبيرة في نفس الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) حول قدرة المنتفق في حماية البصرة أو حرصهم في ذلك، خاصة وأنّ بني عامر هم من بني عقيل، وعليه توجهت أنظار الخليفة إلى الأمير محمد بن أبي الحسين حاكم العيونيين القوي (٥٧٨-٦٠٥هـ/١١٨٢-١٢٠٨م) الذي سبق أن نكل ببني عامر فسعى إلى جذبه، وتقريبه منه، حيث يذكر شارح ديوان ابن المقرب العيوني أن الخليفة عظّمه وشرّفه تشريفًا جليلاً وهذا ما يشير إليه الشاعر ابن المقرب في إحدى أبياته:

ومال أميرُ المؤمنين بِوِدِّهِ      إليه وسمَّاه زعيمَ الأعاربِ[٥]

كما أسند الخليفة إليه مهمة حماية طرق القوافل وتخوم العراق وفرض له كل سنة من ديوان الزمام ببغداد ألفاً وخمس مئة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر مدة حياته. وهذا ما يشير إليه ابن المقرب في إحدى أبيات قصيدته مفتخرًا:

منا الذي كلَّ عام بالعراق لهُ　　رَسمٌ سَنِّيٌ إلى أنْ ضُمِّنَ الرَّجَما[٦]

ومما يجدر التنبيه إليه أن الخليفة الناصر كان قد بدأ أولاً تجربته مع قبيلة خفاجة حيث كلفها بخفارة الطريق ما بين بغداد والشام سنة٥٧٨هـ/١١٨٢م[٧] حيث استمرت بذلك طويلاً حتى سقوط الدولة العباسية كما سوف نشير إليه لاحقًا.

على أي حال نهض الأمير محمد بن أبي الحسين العيوني لتأدية ما أُوكل إليه من مهمات، فضرب تحالفًا كان قائماً بين ناصر بن مذكور المنتفقي زعيم المنتفق المقيم في البادية على طريق الحج البصري ودهمش بن سند بن أجود زعيم قبيلة غَزّية المقيم في طريق الحج العراقي، وكان ذلك سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م، حيث نجح في هزيمة ذلك التحالف وتفكيكه. وهنا يشير ابن المقرب العيوني إلى ذلك في إحدى قصائده مادحًا:

وهل مَنعتْ منه غَزّيةُ دارَها　　بأسمرَ عسالٍ وأبيضَ قاضبِ[٨]

لم يهن دهمش ولم يستسلم لتلك الهزيمة بل سعى لتكوين تحالف أقوى من سابقه، ضم إلى جانب غزية كلا من زُبَيْد وآل فضل من عرب طي الشامية. عندها جَيَّشَ الأمير العيوني قوة ضمت إلى جانب عرب عُقَيل في البحرين خفاجة وعبادة وعايذ والمنتفق من العراق والتقى بهم سنة٥٩٨هـ/١٢٠٢م. حيث هزمهم[٩]. وهذا ما يشير إليه ابن المقرب في إحدى قصائده:

حَميَ البرَّ من حدِ العراقِ فحازهُ　　إلى الشام واستولى على حدِّ ناعبِ[١٠]

استمر الأمير العيوني في حماية طريق الحج وإبعاد القبائل عن طريق الحجاج فهاجم قبيلة بني مالك عند ماء الدجاني غرب الدهناء فأوقع بهم هزيمة مذلة. وإلى ذلك يشير ابن المقرب في إحدى قصائده قائلاً:

فَسَائِلْ به في الحربِ أبناءَ مالكٍ    وما حاضرٌ في علمهِ مثل غائبِ [١١]

ولذا اضطرت بعدها قبيلة بني مالك إلى النزوح من مواضعها في الدهناء إلى أرياف البصرة وهم في حالة ضعف شديد نتيجة المَحْل والقحط الذي تعرضوا له بعد أن كانوا جمرة من جمرات العرب[١٢].

إن آخر ما قام به الأمير العيوني من خدمة للسلطة العباسية، وقبيل اغتياله على يد بني عامر، هو قيامه بمعاقبة بني الأجود (الأجاودة) وهي أقوى بطون غزية بعيد وفاة زعيمها دهمش بقليل لاعتراضهم قافلة الحج العراقي في حدود سنة٦٠٢هـ/١٢٠٦م عند ماء لينة في بادية طي. وذكر ذلك ابن المقرب في إحدى قصائده:

وفي لينةٍ أردَى شعاميمَ طيءٍ    جِهارا ولونُ الجوِ بالنِّقْعِ حائلُ[١٣]

وفي هذا البيت إشارة واضحة إلى أنّ غزيّة هي من طيء وليس ما ذهب إليه البعض من أنها من غيرهم[١٤].

ومن الجدير بالإشارة إليه أن هجوم بني الأجود (الأجاودة) على حجاج العراق ربما كان متوافقًا مع ما تعرض له هؤلاء الحجاج في مكة من مضايقات ونهب وابتزاز يعتقد بأنّ للشريف قتادة بن إدريس الحسني (الزيدي)، الذي تولى الشرافة سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م دورًا في ذلك.

فاستدعاه الخليفة الناصر إلى بغداد إلا أنه اعتذر عن الحضور خشية غدر الخليفة به. وقال في ذلك قصيدة رددتها المصادر[١٥].

ووجه إليه الخليفة رسالة عتاب جاء فيها: " غير خفي عن سمعك وإن خفي عن بصرك، فتك الأجاودة في إرام بكل ريم، وعَبْثُ بني حرب بين الحرمين، حتى غَمُّوا قلب كل محرم كالغميم". فأجابه الشريف: ".... أمّا ما كان بأطراف نجد فالعتب فيه راجع على من قرب من خدام الديوان العزيز، وأما ما ارتكبوه بين الحرمين فهو مشترك بين بني الحسن والحسين"[١٦].

على أيّ حال بالعودة إلى الأمير العيوني محمد بن أبي الحسين فإن حملاته ضد القبائل والتنكيل بها قد ولدت له أعداء كثر بين القبائل، مثلما ولدته سياسة السلطة العباسية من كراهية القبائل لها. فقام الأمير راشد بن عميرة، زعيم بني عامر، بالتواطؤ مع أقرباء له من البيت العيوني باغتيال محمد بن أبي الحسين سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م فكانت ضربة موجهة للخليفة الناصر أيضًا[١٧]. فقام ابن المغدور بالحضور إلى بغداد طالباً المساعدة، فاستجاب الخليفة سريعاً إلى طلبه وأمده بالمال والرجال واستطاع أن يسترد ملك والده في القطيف وأوال سنة٦٠٦هـ/ ١٢١٠م[١٨]. كما قام الخليفة بتجنيد أحد مماليكه الأكفاء ليكون والياً على البصرة سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م. وهو الأمير باتكين، لمواجهة الأخطار المحتملة من بني عامر على البصرة نفسها[١٩].

إلا أنّ الخليفة في الوقت نفسه كان عاجزًا عن منع الضغوط الشديدة التي كان يتعرض لها الأمير فضل بن محمد بن أبي الحسين في مواجهة غياث الدين شاه ملك جزيرة قيس، والذي فرض شروطًا على الأمير فضل تقضي بقطع صلاته بأمير البصرة، إضافة إلى حاكم فارس وملك كرمان في أواخر سنة٦٠٦هـ/١٢١٠م ،وشروط أخرى قاسية فرضت على الأمير فضل العيوني ليس مجال ذكرها الآن[٢٠].

إنّ النجاح الذي حققه الأمير باتكين والي البصرة في ضبط الأمن فيها والعمل على ازدهارها كواجهة للعراق في شمال الخليج العربي دفعت بالخليفة الناصر لأن يتطلع لإحكام سلطته وسيطرته على الأراضي شمال البصرة بطرقها البرية والنهرية وبطائحها لزيادة إيرادات الخزينة. وهذا يقتضي إزاحة إمارة المنتفق الإقطاعية الحدودية بزعامة بني معروف. ولم يكن الخليفة ينقصه المبرر لذلك، فقد كانت شكاوى سكان تلك المناطق ضد المنتفق والتي تتحكم في أراضيهم الواسعة، بعد أن أزيحت منها إمارة بني أسد. لذا فقد حشدت قوة كبيرة لانتزاع تلك الأراضي من سلطة زعماء المنتفق، فكانت هناك قوة يقودها الشريف معد بن الحسين الموسوي زعيم بطائح واسط، إضافة إلى انضمام قوات أخرى، بما فيهم قوات حاكم البصرة، بحيث تمّ الزحف على المنتفق من جهات عدة والتقوا بهم عند المقيّر، قريبًا من ذنايب نهر الفرات عند سور أو السيب سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، فكانت هزيمة كبيرة وضربة قاسية للمنتفق بحيث قتل

منهم أعداد كبيرة بما فيهم زعماؤهم وأسر آخرون[٢١]. وقد أرخ الشاعر ابن المقرب هذه الواقعة وذكر زعماء المنتفق الذين نُكِّل بهم فقال:

سلوا عن مواضيه منيعًا وعمَّهُ ... فقد خَبَرَاها بعدما اختبراها

ألم يُخلِ أرضَ السَّيْبِ بالسيفِ منهما ... وكان بغيرِ الحقِ قد عمراها[٢٢]

ويبدو أنّ أصداء هذه الحملة ضد أقوى القبائل في البصرة قد ولد الخوف لدى بعض الزعماء في الخليج من نوايا الخليفة الناصر حتى أننا نجد أنّ ابن المجاور يتحدث عن مخاوف أحمد بن محمد بن مزروع الحبوضي حاكم مرباط وظفار، حين قطع الطريق البري الذي يربط بلاده بالعراق سنة ٦١٦هـ/١٦١٩م؛ إذ كان يسلكه البدو في العام مرتين يجلبون الخيل ويأخذون عوضًا عنها العطر والبر ويرجعون إلى العراق. وكانوا يخرجون من مشهد الحسين وبعد عدة منازل يفترق الطريق إلى طريقين أحدهما إلى الحسا والقطيف والثاني يتجه إلى مرباط وظفار[٢٣].

- **صلة السلطة العباسية بالقبائل في سنواتها الأخيرة:**

كان واضحًا أن الدولة العباسية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تسير سريعًا نحو الانهيار والسقوط ولا يرجى لها صلاح، في وقت كانت العواصف الصفراء القادمة من ما وراء النهر أخذت بالهبوب بشدة. وكان الخوارزميون في طليعتها، حيث اجتاحوا معظم إيران ووسط الأناضول ووصلت طلائعهم إلى أطراف بغداد والبصرة، فنهبوا نواحي الأخيرة

وبقوا لمدة شهرين محاصرين لها، وتصدى لهم خلالها الأمير باتكين حاكم البصرة سنة٦٢٢هـ/١٢٢٥م، وقتل جماعة منهم حيث انسحبوا بعدها إلى بغداد[٢٤].

توفي الخليفة الناصر لدين الله في هذه الأثناء بعد أن كان فاقدًا الوعي قبلها بفترة، ويعقّب ابن الأثير على وفاته فيقول: " إن كان ما نسبه العجم إليه صحيحًا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب"[٢٥].

على أن انتشار نفوذ الخوارزميين في أقاليم كرمان وفارس أعقبه ظهور أطماع أبي بكر السلغري أتابك فارس في البحرين ومهاجمتها سنة٦٣٠هـ/١٢٣٣م، قد أثارت كلها مخاوف حكام الخليج فسارعوا للحضور إلى بغداد عسى أن يجدوا لدى الخليفة ما يدعمهم ويطمئنهم على أمنهم وأمن بلادهم.

لقد وصف شاهد عيان المشهد في بغداد فقال: وصل إلى بغداد محمد ابن محمد أمير البحرين (العيوني) سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م عن طريق البر، ثم أعقبه وصول الهرمزي صاحب هرمز بالمراكب البحرية وسلك طريق نهر دجلة فامتلأت بغداد من عرب البحرين واصحاب الهرمزي فأفاض المستنصر "الخليفة" على الناس من عطاياه والوفود تزدحم على أبواب ديوانه[٢٦]. كما أنّ ابن شدقم يذكر أيضاً أن من بين من توجهوا إلى بغداد شيحة أمير المدينة بعد أن أناب ولده عيسى فيها، ولكن بني لام قتلوه بجزيرة في الفرات سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م أو ٦٤٥هـ /١٢٤٧م[٢٧]. وفي

تقديرنا أنّ ذلك بسبب ثارات بينهما؛ إذ إنّ بني لام كانت تقيم في حينها شمال المدينة فتعقبوه في رحلته هذه وقتلوه.

على أي حال نزح بنو الأجود (الأجاودة) من أطراف نجد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م في عهد الخليفة المستنصر بالله، واستقروا عند تخوم الفرات في موقع ماء السلمان والمعروف اليوم بنقرة السلمان، وحين أودعت السلطة بعض رجالهم بالسجن في بغداد ثارت ثائرتهم واعترضوا سبيل الحجاج ومنعوهم من السير مطالبين بإطلاق محبوسيهم من السجن فما كان من السلطة في بغداد، إلا أنّ انصاعت لطلباتهم وأطلقوا محبوسيهم سنة٦٣٤هـ/١٢٣٧م بل وإرضائهم بالعطايا وسمحت لهم في الإقامة في أراضيهم[٢٨].

إنّ حالة الضعف الشديد التي كانت تعانيها السلطة في بغداد، والوضع المضطرب في العراق أدت إلى زيادة المخاوف على أمن الحجيج خاصة بعد أن اعترضته قبيلة بني الأجود، الأمر الذي جعل الأنظار تتجه إلى سلوك طريق البصرة للحج، وربما يعود ذلك لوجود عرب البحرين سنة ٦٣٢هـ كما ذكرنا سابقاً، حيث أظهروا استعدادهم لقيادة الحجيج وخفارتهم أو أنّ السلطة نفسها قد أوكلت إليهم ذلك فتلقوه بالترحاب نظراً للفوائد المادية الكبيرة والمتنوعة التي سيجنونها من ذلك. وهنا يذكر ابن الجزري أنه منذ زمن المستنصر (الخليفة) لم يخرج من بغداد ركب للحج، بل مع عرب البصرة لضعف الخليفة وخبث الوزير قاتله الله[٢٩]. كما يذكر ابن الجزري أنه انحدرت جماعة من بغداد سنة ٦٤٨هـ وأخذوا معهم خفراء

من بني عامر[٣٠] مما يعني أن طريق البصرة أصبح هو الآمن وهو المفضل لدى الحجاج لسلوكه نظراً لقيام بني عامر بخفارته ولغارات المغول على حدود العراق في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م.

ومن الجدير بالذكر أنه في التاريخ المذكور سابقًا ٦٤٨هـ، يرجح أن بني عامر كانوا قد بسطوا سيطرتهم على بلاد البحرين وأنهوا وجود حكم العيونيين فيها بقيادة زعيمهم عصفور بن راشد بن عميرة، فأضحت بوادي البصرة والبحرين تحت نفوذهم. ويقول ابن سعيد الأندلسي المغربي: سألت أهل البحرين في سنة ٦٥١هـ حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا: الملك فيها لبني عقيل وبنو عصفور من بني عقيل هم أصحاب الأحساء دار ملكهم. كما قال أيضاً ومن بني عقيل بنو عامر وهم أخوة بني المنتفق وعرب عقيل وبطونها من عامر والمنتفق وغيرهما معبرًا عنهما بعرب البحرين وتملكوا أيضًا أرض اليمامة من بني كلاب[٣١] هذا وسوف يتردد في المصادر اللاحقة عبارة (عرب عقيل) و(عرب البحرين) بوصفهما مترادفتين يعنيان الجماعة ذاتها.

**ملحق**

كتب أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة، أمانًا لجماعة عرب المنتفق بواسطة محمد بن المسيب أمير عقيل للراغبين في الطاعة والداخلين فيها:

"أنّ محمد بن المسيب سأل في أمركم وذكر رغبتكم بالخدمة والانحياز في الجملة والتماس أمانكم على نفوسكم وأموالكم وأهلكم وعشيرتكم، وعلى أن تلزموا الاستقامة وتسلكوا سبيل السلامة، ولا تخيفوا سبيلاً ولا تسعوا في الأرض فسادًا، ولا تخالفوا للسلطان وولاة أعماله أمرًا ولا تخفوا له عدوًا وتعادوا له وليًّا، ولا تجيروا أحدًا خرج عن طاعته... وأنبأ قبول ذلك منكم وأجابه محمد إلى ما رغب فيه عنكم في الكف عن الرعية والسابلة وأهل السواد والحاضرة، وترك التعرض للمال والدم.... وأنتم مع ذلك آمنون بأمان الله ﷻ، وأمان رسول الله ﷺ، وأمان مولانا أمير المؤمنين، وأماننا على نفوسكم وأموالكم وأحوالكم وكله داخل في هذا الأمان وشرائطه معكم من أهلكم وعشيرتكم وأتباعكم ومن ضمته حوزتكم".

القلقشندي، صبح الأعشى ج١٣ /٣٧٧.

**الهوامش**

❖ أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

(١) المصدر السابق، ٩/٤٦٤، ابن خلدون مصدر سابق ٤/٢٩٤.

(٢) الحميدان، المرجع السابق، ٨٤-٨٥.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) **الكامل**، ١٠/٢١٤؛ ابن خلدون، ٣/٥٢١.

(٥) مؤلف مجهول، **شرح ديوان ابن المقرب**، ٤/٢٣٤٥-٢٤٦٠.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي، **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨م، ١٢٩-١٣٠.

(٨) **شرح ديوان ابن المقرب**، جـ١/٢٤٨-٢٥٤.

(٩) المصدر نفسه ١/٢٥٥-٢٦٤.

(١٠) المصدر نفسه ١/٢٦٣-٢٦٤.

(١١) المصدر نفسه ١/٢٤٥-٢٤٨ و٣٠/١٤٧٠-١٤٧١.

(١٢) المصدر نفسه ١/٢٤٧.

لينة: قرية قديمة جنوبي مدينة رفحا بـ١٠٥ كم في طريق مكة.

(١٣) **شرح ديوان ابن المقرب** ٣/١٤٧٢-١٤٧٦.

(١٤) راشد بن حمدان الأحيوي، تحقيق نسب قبيلة غزية، **مجلة العرب**، ٥-٦.

(١٥) قال فيها: ولي كف ضرغام أصول ببطشها وأشري بها بين الورى وأبيع

أأجعلها تحت الرحا ثم ابتغي خلاصًا لها إنـي إذا لرقيـعُ

وما أنا إلا المسك في كل بقعة أَضوعُ، وأما عندكم فأضيعُ

ابن الأثير، **الكامل** ١٠/٤٤٦، ابن خلدون، ٤/١٠٤-١٠٥.

(١٦) عبد العزيز بن فهد، **غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام**، تحقيق: فهيم شلتوت، دار المدني للطباعة، جدة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، جـ١/٥٦٨-٥٦٩.

أرام: رملة بني كلاب. وقيل جبل. **ياقوت الحموي**، جـ١/١٣٥ دار التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(١٧) **شرح ديوان ابن المقرب**، ٥/٢٨٦٣-٢٨٦٥.

(١٨) المصدر نفسه ٥/٢٨٦٥-٢٨٦٨.

(١٩) حول ترجمة باتكين راجع **شرح ديوان ابن المقرب** جـ١/٣٣، جـ٢/٣٥٥-٣٦١، ٨٠٣-٨٣٥: **كتاب الحوادث** لمؤلف من القرن الثامن الهجري، تحقيق بشار معروف عواد وعماد عبد السلام رؤوف، دار المغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧م.

(٢٠) سيد محمد طباطبائي، **سزمين بحرين، خليج فارس/ جلد نخستين**، إشراف علي أكبرنبيان، ص٩٩.

(٢١) ابن الأثير **الكامل** ١٠/٣٩٧؛ ابن خلدون ٣/٥٢٥

(٢٢) **ديوان ابن المقرب** ١/٢١٧-٢٢٤، ٦٤٦، ٦٤٧.

السيب: أرض عند ذنايب نهر الفرات.

(٢٣) ابن المجاوز، **تاريخ المستنصر**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، رشيد الدين فضل الله الهمداني، **جامع التواريخ**، ترجمة فؤاد الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٩١-١٩٢، ٢٩٢-٢٩٣.

(٢٤) ابن الأثير، **الكامل**، ١٠/٤٤٣-٤٤.

(٢٥) المصدر نفسه، ١٠/٤٥٣.

(٢٦) ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة،** دار الكتب العربية، القاهرة، ١٣٢٥هـ، جـ٨/٣٨.

(٢٧) ضامن بن شدقم، **تحفة الأزهار وزلال الأنهار**، تحقيق كامل الجبوري، طهران ١٤٢٠/١٩٩٩م، القسم الأول، ص٣٥١.

(٢٨) ابن الأثير؟ ابن الجوزي؟

(٢٩) محمد بن الجزري، **المختار من تاريخ ابن الجزري**، تحقيق: خضر عباس المنشاوي، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٢٧.

(٣٠) ابن الجزري، المصدر السابق، ٢٢٧.

(٣١) ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق: إسماعيل العزبي، بيروت١٩٧٠م، ص١١٨، ١٣٢، أحمد بن علي القلقشندي، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان**، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٢٠-١٢١.

# بَرِيدُ العَرَبْ:

ورد إلى "**العرب**" من الدكتور محمد جمال حامد الشوربجي، من جمهورية مصر العربية ما يلي:

**كتاب "هدية العارفين إلـي أسماء المؤلفين وآثار المصنفين"**

**لإسماعيل باشا البغدادي(ت: ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) "عرض ونقد"**

**مقدمة:**

يُعَـد كتـاب هديـة العـارفين بأسمـاء المـؤلفين وآثـار المـصنفين لإسماعيـل باشـا البغـدادي مـن الكتـب المهمـة في حقـل تـراجم المـؤلفين وتوثيق نسبة المؤلفات إليهم، وقد حوى الكتـاب آلاف التراجـم المختـصرة مشفوعة بأسماء العديد من الكتب التي ألفوها، ومقـالي الـذي أقدمه هـو محاوله لتحليل للكتاب ونقده بقدر الوسع والإمكان لمعرفة نقـاط الـضعف الـتي اعـترت هـذا العمـل حتـى يكـون الباحـث علـى بينـة مـن الأمـر عنـد البحث في هذا الكتاب، وأسال الله أن يوفقنا لما فيه النفع للناس.

**ترجمة المؤلف**: هو إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني الأصل البغدادي المولد والمسكن، كان على دراية كبيرة بالكتب ومؤلفيها. توفي المؤلف في سنة١٣٣٩هـ/١٩٢٠م.

**مؤلفاته**: عُرِفَ للبغدادي كتابان هما "إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون" الذي بدأ في جمع مادته العلمية في قرية مقري كوبي - بالقرب من استانبول- من سنة١٢٩٦هـ/١٨٨٩م إلى ما بعد سنة١٣٢٣هـ/١٩١٦م، وقد فرغ من تبييض الجزء الأول منها في ٢٦ ربيع الآخر سنة١٣٢٥هـ(١٩١٨م) كما وجد بخطه على الجزء الأول من النسخة المخطوطة، هذا بالإضافة إلى مؤلفه الذي بين أيدينا.

**تحليل الكتاب**:

- استوعب هذا الكتاب ما جاء في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة(ت:١٠٦٨هـ/١٦٥٧م)، وكتاب إيضاح المكنون في الكشف على ذيل الظنون لإسماعيل باشا مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا.

- رتب مادة الكتاب علي أسماء المؤلفين وفق الترتيب الأبجدي، معتداً في ذلك بالاسم الأول دون اسم الأب والجد.

- تنحصر عناصر الترجمة عند المؤلف في الآتي:

❖ الكنية: مثل: أبو إسحاق، أبو عبد الله، أبو الطيب.

❖ اسم المترجم له، ثم اسم الأب، ثم اسم الجد.

❖ اللقب: مثل: الرقاشي، اليزيدي، السمسار، نفطويه، الحصري، ابن شنطير...الخ.

❖ النسبة: إلى البلدة مثل: البغدادي، الغزنوي، الهروي، القرطبي، الإصطخري، الإدكاوي...الخ، أو إلى مذهب: مثل المالكي، الظاهري.

❖ شيء من أخباره: في حدود سطرين أو ثلاث على الأكثر.

❖ تاريخ الولادة والوفاة: يذكر المؤلف في بعض الأحيان سنة الميلاد مع الوفاة، ولكنه في الغالب يقتصر على سنة الوفاة وفي بعض الأحيان يذكر الشهر أيضاً.

❖ عناوين مؤلفاته فقط دون شيء من التفصيل: فيقول مثلاً في ترجمة الشيخ حسين الدجاني(ت: ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م) ومن مؤلفاته: الشافية من الأسقام في أسماء أهل بدر الكرام، ودرة التوحيد منظومة في العقائد...الخ، ويبدو أنه هنا قد اكتفى بذكر عناوين المؤلفات معتمداً على

التعريف بها في كتابه الآخر إيضاح المكنون، وقد رتب مؤلفاته على الترتيب الأبجدي.

- ذكر قبل أسماء المؤلفين ألقابهم وأسماء شهرتهم مثل الحضرمي: خالد بن الحسن الحضرمي(ت: ١١٠٠هـ/١٦٨٨م تقريباً)، وهذا ليسهل على الباحث أثناء عملية البحث في الكتاب.

- تميز المؤلف عن ذكر تاريخ وفاة المؤلفين بوضع تاريخ الوفاة أرقام وكتابة حتى لا يتحرف التاريخ مثل ترجمة محمد بن عقيل البلخي المتوفى سنة٣١٤هـ أربعة عشر وثلاثمائة.

- في بعض الأحيان يضبط اسم المؤلف بالحروف لا بالتشكيل كما في ترجمة محمد بن سنان الحراني البتاني( بتقديم الباء الموحدة والتاء المثناه).

- أحيانا يترجم المؤلف للأماكن الموجودة في ترجمة المؤلف كما في ترجمة الوزير محمد بن عبيد الله البلعمي( بلعم بلدة من نواح الروم).

- **مصادر مادة الكتاب**: اعتمد المؤلف على الكثير من المصادر منها: كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس(ت: ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، و"الصلة في تاريخ أئمة الأندلس" لابن بشكوال(ت: ٥٧٨هـ/١١٨٢م)، وتاريخ ابن خلدون(ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٦م).

أضـــف إلى ذلـــك "المختـــصر في تـــاريخ البـــشر" لأبـــي الفـــدا(ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، و"غايـة النهايـة" لابـن الجـزري(ت: ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، و"الـضوء اللامـع" الـسخاوي (ت: ٩٠٣هـ/١٤٩٧م)، و"عيون التواريخ"، و"فوات الوفيات" وكلاهما لابن شـاكر الكـتبي(ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، و"الفهرسـت" لابـن النـديم(ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م تقريبـاً)، و"الكواكـب الـسائرة" للغزي(ت: ١٠٦١هـ/١٦٤٩م)،

كمـا اعتمـد علـى كتـاب "معجـم البلـدان" ليـاقوت الحمـوي(ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، و"المنهـل الـصافي" لابـن تغـري بـردي(ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، و"ميـزان الاعتـدال"، و"تـذكرة الحفـاظ" وكلاهمـا للـذهبي(ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، واسـتفاد مـن كتـاب "نفـح الطيـب" المقـري(ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م)، و"وفيـات الأعيـان" لابـن خلكـان(ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، و"طبقـات الحنابلـة" لابـن رجـب الحنبلـي(ت: ٧٩٥هـ/)، و"حـسن المحاضـرة" للـسيوطي(ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م)، و"تـاج العـروس" للزبيدي(ت: ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م).

**نقد الكتاب:** على الرغم من أهمية هذا الكتاب إلا أن مؤلفه كان كثير الخلط في النسق الترتيبي، فهو قد يرتب على الألقاب كما حدث في ترجمة القمري: أبو منصور الحسن بن نوح (ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م تقريباً) التي سبقت ترجمة المهلبي: الحسن بن أحمد(ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، لكنه يأتي في الترجمة التي تليها وهي ترجمة العسكري: الحسن بن عبد الله بن سعيد(ت: ٣٨٢هـ/٩٩٢م) فيرتبها بعد ترجمة المهلبي على الترتيب الأبجدي لاسم المؤلف ثم اسم الوالد.

وفي تراجم أخرى يعتد في الترتيب بعد اسم المؤلف بتاريخ الوفاة لا باللقب أو اسم الأب فقد ذكر ترجمة ابن طليق الأنماري: خالد بن طليق بن محمد بن عمران(ت: ١٦٦هـ/٧٨٢م تقريباً)، ثم ذكر بعدها ترجمة الدمشقي: خالد بن يزيد بن عبد الرحمن(ت: ١٨٥هـ/٨٠١م)، ويتبعها بترجمة الحضرمي: خالد بن الحسن الحضرمي(ت: ١١٠٠هـ/١٦٨٨م تقريباً).

سقط من المؤلف في العديد من التراجم سني وفاة المؤلفين مثل ترجمة: خالد بن كلثوم الكلبي الكوفي، ومحمد بن سهل بن المرزبان الكرخي، بينما ذكر لآخرين سني وفاة تقريبية مثل ترجمة: خراش بن إسماعيل الشيباني المتوفى في حدود سنة ١٢٠هـ/٦٣٧م، وفي بعض

الأحيان يترك لها بياض في الترجمة لحين معرفته بتاريخ وفاة المترجم له، ونلاحظ أن المؤلف لم يعتن بترجمة كاعتنائه بترجمة الفيلسوف أبي يوسف الكندي الذي ذكر الكثير من كتبه ورسائله مصنفة على أبواب في سبع صفحات، وهي ترجمة لم تقع لأحد بالكتاب.

**طبعات الكتاب:** طبع بعناية وكالة المعارف في استانبول سنتي١٩٥١-١٩٥٥م، وأعادت طباعته بالأوفس دار إحياء التراث العربي ببيروت، وقد جاء في جزأين، الجزء الأول يقع في ١٦٨ص، والجزء الثاني يقع في ٥٧٤ ص، والكتاب يحتاج إلى تحقيق جديد، وإلى تزويده بكشافات للكتب والمؤلفين وأماكن الطبع والنشر.

وقد وقع في هذه الطبعة الكثير من التصحيف والتحريف في أسماء المؤلفين وكتبهم، وقد نقل عمر كحالة عدد منها في كتابه معجم المؤلفين، وعن هذين الكتابين وبخاصة الأول نقل الكثير من الباحثين العديد من الأخطاء في تراجم المؤلفين وعناوين كتبهم، مثل كتاب "البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان" الذي صحف محققه الدكتور بسام علي سلامة اسم مؤلفه عباس بن منصور البريهي إلى التريني.

وتداركاً لهذا الأمر نشر الأستاذ عبد الله محمد الحبشي بحثًا بعنوان "تصحيح الأعلام اليمنية في هدية العارفين" بمجلة معهد المخطوطات

العربية صحح فيه ما وقع في الكتاب من تصحيف وتحريف أثناء الطباعة وهي كثيرة، وما وقع فيه المؤلف من أوهام وهي قليلة، مثل قوله في ترجمة صارم الدين الهندي: "هو صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي الحنفي .. كان مجوسياً قدم إلى اليمن، ثم أسلم على يد السادات اليمنية"، وعلق الأستاذ عبد الله على ذلك بقوله: " الذي في تراجمه أن والده هو الذي قدم إلى اليمن وأسلم".

## مكتبة العرب

**ابن خالويه، شرح الفصيح، تحقيق وتعليق د. عبد الله بن عمر الحاج إبراهيم، د. خالد بن محمد التويجري، د. سعيد بن علي العمري، ط.١ ، الرياض: مركز البحوث والتواصل المعرفي، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، ٧٢٥ ص.**

يُعد هذا الكتاب من أهم شروح كتاب **الفصيح** للإمام أبي العباس ثعلب رأس المدرسة الكوفية في زمنه، و أحد كبار اللغويين ، كما يُعد من أقدم شروح الفصيح إذ لم يسبقه إلا كتاب " **تصحيح الفصيح** " لابن درستويه. ويزيد من قيمة هذا الكتاب أنّ مؤلفه أيضًا من أشهر العلماء في اللغة وعلوم القرآن وهو الإمام اللغوي أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ( ت ٣٧٠ هـ).

نشر الكتاب في الرياض لأول مرة بتحقيق ثلاثة من الباحثين (مذكورة أسماؤهم أعلاه)، على مخطوطة فريدة في جامعة برنستون في ولاية نيو جرسي بالولايات المتحدة الأمريكية، تحت الرقم ٤٠٢٥ نحو. وقد وصفها المحققون بكثرة التصحيف والتحريف، فقد أصابتها الرطوبة

فجعلت بعض أوراقها صعب القراءة، كما أنّ فيها بعض الخروم والسقط. ولم يذكر شيء عن اسم ناسخها سوى قولهم : "يبدو أنه لم يكن متخصصًا في مجال اللغة" مما يدل على أنه مجهول.

قسّم المحققون النسخة إلى ثلاثة أقسام ، اختصّ كل واحد منهم بقسم منها، وقُدِّم للكتاب بمقدمة تشمل ترجمةً للمؤلف، واستعراضًا لشروح الفصيح،ومنظوماته، وما أُلِّف عليه من تتميم أو نقد أو رد،أو تهذيب أو ترتيب. كما اشتملت المقدمة على تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه، ومنهج ابن خالويه فيه.

بـذل المحققـون جهـدًا واضـحًا في ضـبط الـنص وتخـريج نـصوصه، ومراجعة أصله على الكتب الأصول في اللغة. وقد أتبعوه بـ ١١ فهرسًا شملت الآيات، والأحاديث، والأشعار، والكتب، والأماكن، والأعلام، والألفاظ، والمسائل اللغوية ،والمصادر و المراجع ، و أبواب الكتاب.

أ.م.ض

## إهداءات إلى مكتبة العرب

**أولاً- الكتب:**

- تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق (مصوَّر)، عبدالله بن محمد البسام، أكمله إبراهيم بن صالح بن عيسى وسبط المؤلف محمد بن سليمان البسام، دراسة: أيمن بن عبدالرحمن الحنيحن وسعد بن محمد آل عبداللطيف، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٢٩٢)، ١٤٣٤هـ.
- فراج بن شافي الملحم (قلم في موكب التاريخ): دراسة توثيقية، محمد بن أحمد معبر، ١٤٣٤هـ، مطابع الحميضي، الرياض.
- المرجعية والمنهج: دراسة نظرية تطبيقية، د. أحمد مرزاق، (كتاب المجلة العربية ٢١٠)، ١٤٣٥هـ.
- خواطر وأحاديث للأبناء، عبدالله بن عبد المحسن بن محمد الماضي، ط٣، الرياض، ١٤٣٧هـ.

**ثانيًا- المجلات:**

- لحيان بين العلا ومكة، إعداد مساعد بن منشط الغريفي اللحياني، مطابع الحميضي، ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).
- إنسانية ملك، د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٢٩٠)، الكتاب العشرون، ط١، ١٤٣٤هـ.
- جهود الليث بن سعد في التدوين التاريخي، د. خالد بن عبدالكريم البكر، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٢٩١)، الكتاب الحادي والعشرون، ١٤٣٤هـ.
- المجلة العربية، العدد ٤٤٨، جمادى الأولى ١٤٣٥هـ/مارس ٢٠١٤م، رئيس التحرير: د. عبدالله نعمان الحاج.
- أخبار الظهران (جريدة)، مجلد يحوي أعداد الجريدة من تاريخ ١/جمادى الأولى١٣٧٤هـ إلى تاريخ ٢٩/رمضان ١٣٧٦هـ.
- أحوال المعرفة، العدد٨٣، السنة العشرون، شوال ١٤٣٧هـ، شركة زد للإعلان والعلاقات العامة، الرياض.

## ﴿ تنبيه ﴾

**أخي الكريم**

**سلام الله عليكم ورحمته وبركاته**

**بهذا الجزء ينتهي اشتراكك لهذه السنة**

**يرجى إذا رغبت التجديد**

**تحويل قيمة اشتراك السنة القادمة**

وفّق الله الجميع لما يحبّه ويرضاه

**إدارة المجلة**

## فهارس أعداد السنة الثانية والخمسين

١- الكُتّاب والمعلّقون

٢- الموضوعات العامة

٣- الأعلام

٤- القبائل والأسر والجماعات

٥- الكتب والمجلات والصحف

٦- المواضع

## فهرسة أعداد السنة الثانية والخمسين



### أولاً: الكُتّاب والمعلِّقون



### ثانيًا: الموضوعات العامة

### ثالثًا: الأعلام

### رابعًا: القبائل والأُسَر والجماعات

**خامسًا: الكُتب والمجلات والصحف**

## سادسًا: المواضع